يوسف إدريس



الروايات

يوسف إدريس

الروايات

الطبعة الأولى
١٩٨٧م - ١٤٠٧هـ

دار الشروق

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق
تلكس : SHOROK 20175 LE

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق
تلكس : 93091 SHROK UN

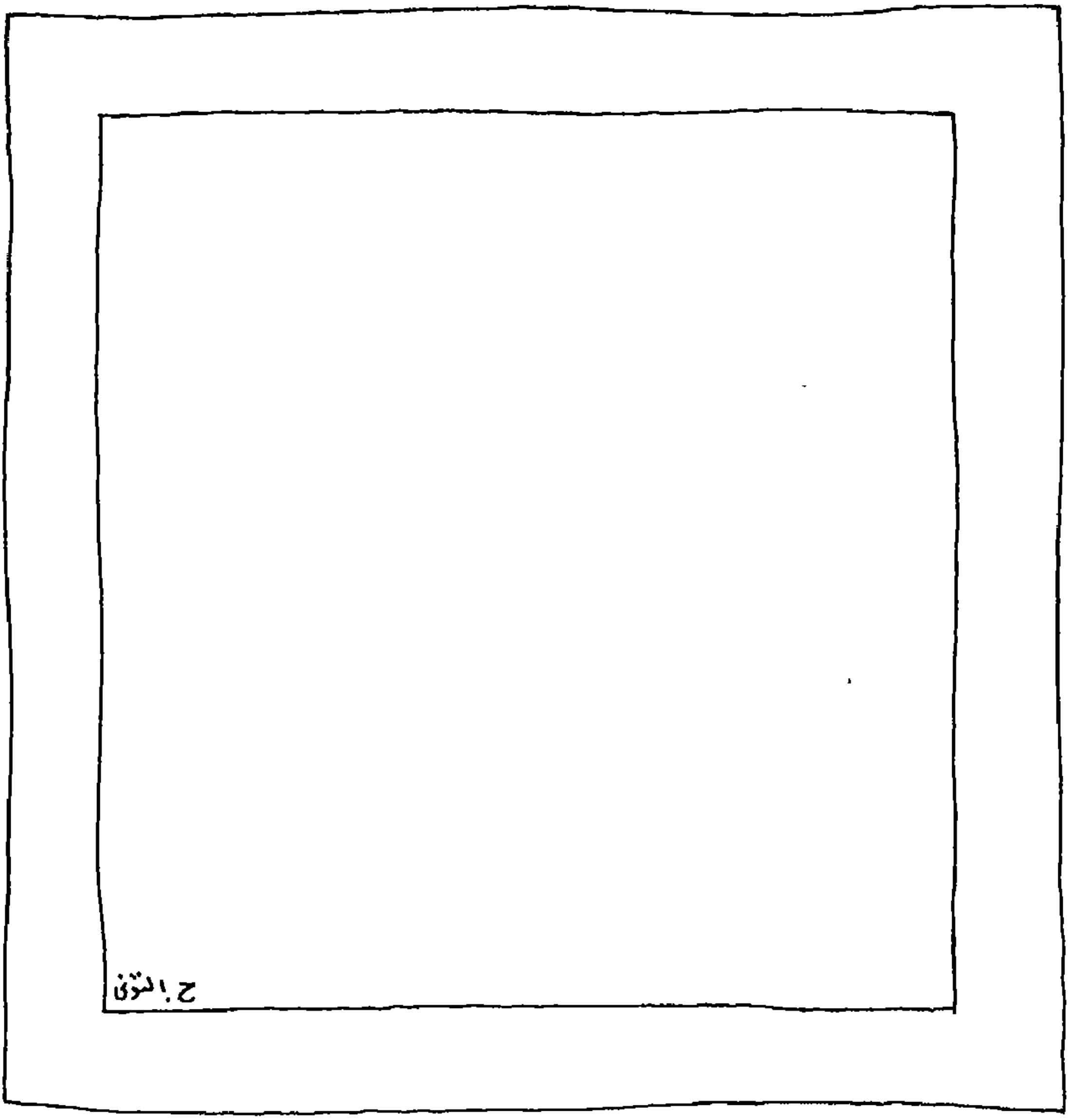
SHOROUK INTERNATIONAL; 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL: 637 2743/4
TELEX: SHOROK 25779G

يوسف إدريس

الروايات

ح. التونى

الغلاف والتنسيق :
حلمي التوني



البيضاء

البيضاء

حيرتني هذه القصة.

كتبتها في صيف عام ١٩٥٥.

ونشرت بعضها تباعاً في جريدة الجمهورية عام ١٩٦٠.

وأخيراً قررت نشرها هذا العام، فإن كان بطلها هو (يحيى) إلا أنها وثيقة حية لفترة خطيرة من فترات الحياة في بلادنا، فترة لا أعتقد أن أحداً تناولها.

إن كانت تقليدية الشكل والطريقة، فالشكل مهما كان لا يتعدى دوره كشكل، والحقيقة تبقى حقيقة رغم أية طريقة تروى بها.

وإني لشديد الاعتزاز بهذا الجزء من عمري وعمر بلادي.

يوسف إدريس

البيضاء

١

لماذا نكذب على أنفسنا؟

إن لكل منا قصة حب دفينة وضعها في أغوار نفسه، وكلما مضى عليها الزمن دفعها أكثر وأكثر إلى أعماقه،وكأنما يخاف عليها من الظهور.

وسوف أقول لكم كل شيء عن قصة حبي.

ماذا أقول لكم؟

يخيل لي أن ما من امرأة قابلت رجلاً وما من رجل قابل امرأة إلا وسأل كل منهما نفسه: ترى.. هل يصلح الآخر لي؟ ما من امرأة وما من رجل وفي كل مراحل العمر، قبل الزواج وبعده، في عنفوان الصبا وذبول الشيخوخة. سؤال يدور في عقول الآباء في نفس الوقت الذي يدور فيه في عقول الأبناء! عملية بحث دائبة مستمرة عن الطرف الآخر في تلك اللعبة الخطرة التي يسمونها الحب.

لست أبالغ ولا أتجنى إذ في أغلب الأحوال يأتي الجواب رفضاً ونفياً وفي أحيان قليلة يظل يتأرجح بين النفي والإثبات. وفي أحيان نادرة، نادرة جداً، يأتي الجواب أن نعم.. هذا هو أو تلك هي من أريد.

أنا أيضاً حين قابلت «سانتي» قلت هذا.. كان ذلك في مطعم

«الباريزيانا» الـذي لم يغيـره الـزمن، وكـان سبب اللقاء عاديـاً جداً في نظري، أزاول مثله كل يوم من أيامها عشرات المرات. كان لي ولا يزال صديق اسمه صبحي يعمل مندوب دعاية، أو كما تعودنا أن نسميه «بروبا جاندست» لإحدى شركات الأدوية. وكانت له اتصالات واسعة بالأجانب والمصريين، لا بحكم عمله ولكن لأنه هو شخصياً من ذلك الصنف من الناس الـذي لا يحيـا ولا يتنفس أو يتحرك إلا إذا تعرف كل يوم بأناس جدد، وعرف أناساً بأناس. قال لي ذات مرة أن هناك فتاتيـن إحداهما يونانية والأخرى فرنسية أو من أصل فرنسي وأنهما تريدان العمل معنا في المجلة وتقديم أيـة مساعدة يمكنهما تقديمها. ولا أعرف لماذا لم ألـق للأمر اهتماماً كبيراً أول ما قال لي، ربما لأني لم آخذ كلامه مأخذاً جـاداً وربما لأنه كان كلما قابلني حدثني عن أشياء يريد تقديمها للمجلـة ولا يقدم شيئاً بالمرة. ولكني قابلته بعد هذا مرة أو مرتين وفي كل مرة يسألني متى يمكـن أن يعرفني بالفتاتيـن. وأدركـت حينئذ أن كلامه قد يكـون صحيحاً على عكس ما تعودنا من كلامه. وربما لو كان قد قال أن الفتاتين «بنات عرب» لما احتفلت بالأمر ذلك الاحتفال إذ لست أدري سر ذلك الضعف الذي نكنه نحن أولاد العرب للخواجات، وللنساء منهم بالذات. المهم رحبت بالمهمة وسألته بضعة أسئلـة لأتأكـد أن ما يقولـه حقيقي ولأحاول أن أكون عنهما فكرة قبل أن ألقاهما، وحددت معه موعداً في «الباريزيانا» يعرفني بالفتاتين فيه، وأظنه كان الثالثة بعد ظهر يوم من أيام الشتاء.

ما زلت أذكر اليوم كأنه اليوم. كنت أرتدي معطفاً رمادياً اشتريته.. أول معطف في حيـاتي ارتديته، وكنت مسرعـاً إذ كان الميعاد قد أزف ومضت بعده دقائق. ومع هذا ورغم نسمات العصر الشتويـة والـوقت

البيضاء

الضيق فقد رحت أسأل نفسي ذلك السؤال: ترى هل تصلح واحدة منهما أو الاثنتان لأحبهما؟ وهل تقع إحداهما في غرامي؟ وهل يكون لي معها قصة؟ وكنت أسأل نفسي تلك الأسئلة مع علمي التام أنها أسئلة لا يصح إلقاؤها أو التفكير فيها. فالعمل الذي نقوم به جاد وخطير وليس فيه أي مكان أو فسحة للحب وللغرام. كنا في عنفوان معركة الاستقلال، ومجلتنا تخوض حرباً لا هوادة فيها لإعداد الشعب للمعركة ولا مجال للعاملين فيها للتفكير في غير العمل والكفاح. كل شيء يجري وكأنها الخطة لجيش محكمة، وكل شيء ينفذ وكأننا في خط النار، والمعركة ضد الاستعمار قائمة في كل مكان.. في السودان ومصروسورية والبلاد العربية وشمال أفريقيا وقبرص وفي كل مكان. ولجماعتنا أنصار وأعضاء في كل قطر من هذه الأقطار، والمجلة تصدر في القاهرة ويتردد صداها في كل عاصمة من عواصم الشرق الأوسط. كنت أعرف هذا كله، ولكني هنا أقول الحقيقة فالحقيقة يصح قولها دائماً، بل دائماً لا بد من قولها. والحقيقة أننا حين نفكر بيننا وبين أنفسنا لا نفكر فيما يصح وما لا يصح.. إننا نفكر فقط فيما نريده، نفكر بكل جرأة بل أحياناً بوقاحة ولا يهمنا شيء. إننا فقط حين يأتي دور التنفيذ نبصر العقبات الاجتماعية القائمة، وحينئذ نبدأ نتراجع أو نبدأ نلف وندور حول العقبات كوسيلة للتغلب عليها. بيننا وبين أنفسنا لا نعد العقبات الاجتماعية مقدسات، إننا نعدها عقبات فقط، ولعل هذا هو سر تقديسنا لها أمام الناس. وليس معنى أنني كنت أفكر في كل هذا وأنا في طريقي إلى الموعد إني كنت أفاقاً أو وغداً، لأني كنت أفكر في مطامحي الخاصة، فالواقع أني كنت أفعل هذا بجزء صغير من نفسي، أما أجزاؤها الأخرى الكبرى فكانت مشغولة تماماً بالمجلة وبالواجبات وبالعمل الذي كنت أقوم به في منتهى الجد والنشاط، هذا شيء وذلك شيء آخر

مختلف، والإنسان يفعل الشيئين، وربما يفعل الشيئين لأنه إنسان.

دخلت المطعم وأنا أبحث بعيني عن صبحي لأطمئن أولاً إلى وجوده (فقد كنت لا أزال معتقداً أن كلامه قد لا يصفى على الربع) بالتالي لأطمئن على وجود الفتاتين، وأخيراً لآخذ فكرة عن شكلهما من بعيد إذ كان السؤال لا يزال قلقاً في جوفي يريد جواباً: ترى هل تصلح إحداهما لي؟

ووجدت صبحي فعلاً، ولدهشتي وجدت أنه حقيقة صادق هذه المرة فقد كانت تجلس إلى جواره فتاتان إحداهما ضخمة كبيرة، والأخرى صغيرة بيضاء مشرب بياضها بحمرة، واتجهت إلى المنضدة التي يجلسون عليها وسلمت. . وتلعثمت وأنا أفعل هذا ،وصبحي يقدمني إليهما وكأني خجلت مما كنت تركت لنفسي حرية التفكير فيه. وجلست وطلبت قهوة، وفعلت هذا كله دون أن أجرؤ على رفع عيني أو إلقاء نظرة قريبة على الفتاتين.

وبعد أقل من دقيقة قامت الضخمة مستأذنة تاركة أمر تحديد كل شيء لزميلتها التي كانت جالسة تبتسم باستمرار ولا تتكلم، وجلس معنا صبحي هنيهة ثم لم يلبث هو الآخر أن سلم وانصرف.

وبقيت معها. .

وأقول بقيت معها لأنني منذ الوهلة الأولى كنت قد تأكدت أنها هي هي التي أردتها دائماً دون أن أعثر عليها، هي التي بحثت عنها في كل فتاة، أو امرأة قابلتها ولم أجدها، بالضبط هي بكل ما أحب في النساء فيها، وكيف أقول هذا وأفسره؟ أأقول إن من نظراتي الأولى لها كنت قد قررت أنها لي طال الزمن أو قصر، شاءت الظروف أم لم تشأ، ماذا أقول؟ هل أقول إنني منذ الوهلة الأولى كدت أخمن قصتنا معاً، كأن أنواراً كاشفة

البيضاء

قد أضاءت كل ما سوف يقبل من أحداث لجزء من الثانية، ثم انطفأت الأنوار؟

وتحدثنا في العمل. قالت لي إنها هي اليونانية وزميلتها أبوها فرنسي وأمها يونانية، وأنها سمعت عنا من تنظيمها الذي يحارب في قبرص وتريد أن تفعل شيئاً لنصرة القضية التي نحارب من أجلها، والتي هي شخصياً مؤمنة بعدالتها، ولم تجد أنسب من أن تضع نفسها في خدمة مجلتنا. وحيرني حديثها، فالواقع أن المجلة لم تكن تشكو من قلة الأيدي العاملة فيها، ثم ماذا تستطيع فتاة يونانية أن تفعل لمجلة تصدر في القاهرة باللغة العربية؟ حيرني حديثها لأنه لم يكن من المعقول أن أقول لها: أنا في غاية الأسف يا سيدتي العزيزة فلا مكان لك في مجلتنا، وعليك أن تذهبي في طريقك ونذهب نحن في طريقنا. ومن غير المعقول أيضاً أن أؤكد لها أنها ستعمل معنا لمجرد أنني أصبحت أريد أن تعمل معنا، فأنا لم أكن أملك سلطة هذا التأكيد. وإذا أخذت المهمة على عاتقي فقد يضر عملها معنا بصالح المجلة، فأكون بهذا قد ألحقت بمجلتنا خسارة لمجرد نزوة شخصية عنت لي.

حيرني حديثها. . وأخيراً قررت أن أحصل منها على ما أستطيع الحصول عليه من معلومات، ثم أناقش الوضع كله مع أحمد شوقي رئيس التحرير. وحتى حديث العمل بحيرته ومشكلته لم يكن له الأهمية الأولى في تلك الجلسة، فجزء كبير من اهتمامي كنت أوجهه إليها هي، وكنت أتأملها بطريقة لا تسترعي انتباهها، إذ كنت أنظر في وجهها ونحن نتحدث عن ضرورة تنسيق الكفاح بيننا وبين إخواننا اليونانيين، وأرسم على وجهي كل علامات الاهتمام بذلك الحديث والتركيز فيه، وأحتم على

ملامحي أن تمثل هذا، ولكني في واقع الأمر أتأملها وأحاول أن أمد عيوني الخاصة إلى نفسها الخاصة، لأتأمل تلك التي كنت قد قررت أنها لي.

ومع هذا فلو طلب أحدهم مني بعد مقابلتي لها أن أصفها لما استطعت فما جدوى الوصف؟ إنه لشيء مضحك أن نقرأ في قصص الحب أن البطل غرق إلى آذانه في حب البطلة لشعرها الأسود المتهدل، أو عيونها العسلية ذات الرموش الطويلة. هراء وتخريفات فنحن لا نفضل إنساناً على آخر لأن ملامح هذا أجمل من ملامح ذاك، أو نحب فتاة لعيونها الجريئة أو لالتفاتاتها الرشيقة. يخيل إلي أننا نحب الإنسان لشيء لا نستطيع تحديده في الإنسان، واسألوا كل من أحب ماذا أحببت في رفيقك؟ ودعوه يجيب. وحققوا له كل ما يقوله في رفيق آخر فسوف يظل يقول هناك شيء ناقص لو سألناه عن كنهه لما استطاع الإجابة. وفي كل منا شيء لا نستطيع تحديده، هو روحه، هو مجموع أجزائه الظاهرة وأجزائه التي لا تظهر، دمه، شخصيته، ظله، شيء نطلق عليه أسماء كثيرة لنحدده فلا تفعل الأسماء أكثر من أن تؤدي بنا إلى مجهولات أخرى في حاجة إلى تحديد.. شيء هو المسيطر الأعلى علينا، هو الذي يحدد إرادتنا وماذا نكره وماذا نحب، وهو أيضاً الشيء الذي يحب وكأنه أصلنا وما أجسادنا وأشكالنا وأنوفنا وعيوننا إلا أعراضه وتجسيداته.

حتى بعد تأملي الذي طال لها لم أكن أستطيع وصفها، ويكفي أن أقول إن كل ما فيها أعجبني.. طريقتها في الحديث، ابتسامتها، أسنانها الأمامية حين ينفرج عنها فمها الصغير، لونها، وملامحها الصغيرة الدقيقة، عيناها حين تضحكان، إحساسي بأني موجود داخل عينيها وأنها تراني وتتذكر أشياء من أجلي أنا. ذلك هو أهم ما خرجت به من تلك

المقابلة الأولى. . أحسست أننا انسجمنا وأننا سنصبح سعداء لو عملنا معاً، وأننا قد تقاربنا بطريقة أسرع مما تصورنا. ولكن إحساسي هذا كان مجرد إحساس داخلـي لم تظهر منه بادرة واحدة، أو ينبىء عن وجوده بتصرف واحد. فقد كان سلوكـي الاجتماعي إزاءها لم يتعد أبداً حدود المعرفة البسيطة التي حدثت، لا يتعدى حدود زميليـن، واحد من مصر والآخر من اليونان التقيا في معركة مشتركة، وأنهما سيلتقيان مرة أخـرى وأنهما لا يكرهان أن يلتقيا مرة أخرى.

وخرجت من المطعم وأنا منتش تلك النشوة التي تفجر السعادة في قلوبنا وتجعلنا نحس بها في كل شيء نراه. . في عازف الكمان العجوز المتجول، في ضوضاء الشارع الصاخبة، في الوجوه الخارجة لتوها من ازدحام السينما، في أمس وكل ما دار فيـه، وفي الغد بكل ما يأتي به. . إنسانة حلوة رقيقة وضعتها الظروف أمامي في وسط المعركة الجافة الجادة التي كنا نخوضها. . إنسانة أعجبتني ويبدو أنني أعجبتها، فتاة صغيرة في السن لم تتعد العشرين بالغة الحماس والذكـاء واسعة الثقافة. . إنسانة ممكن أن أحبها أو أتزوجها أو أتجاوب معها ذلك التجاوب الذي نفتقده كثيراً ونحن إليه دائماً، ما الضرر أن أحس بكل هذا بيني وبين نفسي، ما دمت أؤدي دوري على أكمل وجه في المجلة، وفي الكفاح، وفي الحياة؟

وخرجت من المطعم متجدد الحماس، وقضيت بقية النهار راضياً عن نفسي والدنيا وحركة الزمن. فقد قضيته سعيداً!.

٢

وكـان مفروضاً ألا ألتقي بها إلا تلك المرة القادمة التي أقدمها فيها لأحمد شوقي رئيس التحرير، حيث تعمل معه أو حيث يوصلها إلى تنظيم السيدات وحيث تنتهي علاقتها المباشرة بي.ولكني لم أجد أبداً ثمة داعياً قوياً يدعوني للعجلة، فلماذا لا يتم هذا في اللقاء الثالث مثلاً؟ ولماذا لا أؤجل حديثي عنها مع شوقي بضعة أيام أراها فيها على انفراد مرة أخرى؟ في لحظة قررت أن أبيح لنفسي تلك الخطيئة البريئة علـى أن تكـون الخطيئة الأخيرة.

وفي الميعاد وجدتها جالسة تنتظرني وتبتسم، وجلست ونادت الجرسون وأصرت على أن تعزمني. وضحكنا طويلاً ونحن نتجادل حول الموضوع،وأنا أقول إنها ما دامت في بلادنا الشرقيـة فلا بد أن تخضع لتقاليـدنا، فترد هي بقولها إن التقاليـد تتطور وبعزومتها لي تبدأ عمليـة التطور.

وطوال الوقت كنت أيضاً لا أزال أحيـا في تلك النشوة التي تجعل الإنسان لا يرى إلا ما في الأشياء من جمال، أو تجعله يرى كل الأشياء جميلـة.. وكـل ما يفعلـه حلال، ولا شيء هناك يستحق أن يؤنبه عليـه ضميره.

ولـكني لست أذكـــر بالضبط متى أو لماذا بدأ ينتابني ذلك الشعور؟ ولكني وأنا في قمة سعادتي معها بدأت أحس وكأني أفقت لثوان قليلة من حلم، فوجدتها زميلة معركة ووجدت أني أرتكب حماقة، لا لأني كنت أخطىء أو لأن ما أفعله أشياء تتنافى مع الزمالة أو المعركـة، ولكـن لأن الطريق الذي كنت أسمح لنفسي بالسير فيه كان طريقاً ممكناً أن يؤدي إلى الانحراف والضلال، وإن بدا أولـــه بريئاً ليس فيـــه ما يخجل، وأظنني وجمت أو كنت أضحك وآبت ضحكتي إلى سكوت مفاجىء. فقد نظرت إلي بعينيها الواسعتين السوداوين وفيهما حيرة وقلق وقالت:

ـ ما بك؟

قلت: لا شيء.

وأكملت الضحكة.

وحيـن كنت أغادرها في ذلك اليـوم كانت نقط سوداء دقيقة كرءوس الدبابيس تغزو إحساسي الواسع بالنشوة والسعادة.

* * *

وكان اللقاء الثالث مهماً فقد كان اللقاء الـذي يجب علينا أن نفترق فيه. إذ كـنت قد ناقشت موضوعها مع شوقي رئيس التحرير واقترحت عليه أن باستطاعتنا أن نجعلها تعمل في الترجمة وتشارك في الإشراف على قسم المرأة والطفل، وهز شوقي رأسه بطريقة أدركت معها أنه لا يقيم وزناً كبيراً لاقتراحاتي وإن بدا موافقاً عليها كل الموافقة، وأدركت أيضاً أنه قد يكون لديه خططه الخاصة للاستفادة بمجهودها ومجهود زميلتها. كل ما قاله لي أن طلب مني أن أحدد لهما موعداً يلتقيان فيه به، وأترك التصرف له.

ولأمر ما لم أكن أعتقد ـ حتى قبل أن ألقاها ـ أن لقاءنا هذا سيكون اللقاءالأخير. لماذا؟ لأني كنت متأكداً من هذا، هي التي أكدته لي. لم تؤكده لي بكلامها، فكلامنا ـ كما قلت ـ لم يكن قد تعدى حدود المعرفة التي تزداد متانتها يوماً بعد يوم، ولكنها قطعاً لن تتعدى الحدود. . معرفة كانت تضطرني لأن أناديها بلقبها وتناديني بلقبي، وأسلم عليها وأمشي بجوارها أو أجلس معها وأنا مؤدب جداً، أعاملها وكأني في حضرة مجتمع كامل يحصي على حركاتي وسكناتي.

ولكن تلك كانت معاملتنا الظاهرة وحديثنا الظاهر وأهم من ذلك الحديث وأوقع، أهم من اللسان كان الإحساس، الترمومتر الدقيق الذي لا يخطىء أبداً. فقد تقول لك المرأة نعم، وتحس أنها تقول لا، وحينئذ لا تعاملها أنت على أنها تقول نعم. إنك هكذا وبطريقة تلقائية محضة تعاملها بهذا الإحساس الذي يخامرك تجاهها.

كنت قد أحسست أنها تقترب مني مثلما أقترب منها، وأنها معجبة بي مثلما أنا معجب بها، ولم يكن إحساسي يستند على غير أساس، ولكنه أساس لا يمكن قوله أو حكايته أو التعبير عنه، التصرفات والكلمات الكبيرة الواضحة المحددة المعالم هي فقط التي يمكن أن تحكيها أو تقولها، ولكن كيف تستطيع أن تحكي ما يصاحب تلك التصرفات والكلمات. . الأشياء الدقيقة التي لا تظهر إلا لتتلاشى، وإذا تلاشت فلا تستطيع مهما حاولت أن تعيدها إلى الوجود بمسميات أو ألفاظ؟ كلمة أشكرك مثلاً كلمة محددة تعبر عن تصرف محدد ممكن التعبير عنه وتصوره، ولكن الطريقة التي تقال بها. . لمعة العين التي قالتها ومقدارها ووجهتها. مكان خروجها وهل جاءت من طرف اللسان أم صدرت عن

الأعماق، نوع الصوت الذي تقال به ورنينه ومداه، السرعة التي قيلت بها والـوقفات التي جاءت أثناء حروفها، وتسبيلـة الجفن التي تتبعها أو قد تسبقها أو قد لا تحدث أبداً، تلك الأشيـاء الـدقيقة التي لا تكفي كل الحواس لاستقبالها، وليس الذكاء وحده هو الذي يترقبها ويدركها.

تلك الأشياء كانت قد أكدت لي أنها هي الأخرى لن تقبل أن تنقطع علاقتنا.

ولهذا كان اللقاء الثالث مهماً.

كـان مفروضاً أن نلتقي في محطة باب اللوق ويقطع كل منا تذكـرة مستقلة ثم نجلس متجاورين في القطار «صدفة» ونتحدث وكأننا تعرفنا تواً ودون أي تدبير.

وحين لمحتها قادمة في عصر ذلك اليوم أحسست بأن قلبي دق دقة غير عادية، وأن سخونة قصيـرة مفاجئة اجتاحتني وكـدت أرتجف لما حدث لي، ولكني تحركت إلى شباك التذاكر وفي جسدي نشوة، وأخذت التذكرة وتلكأت حتى رأتني، ثم انتظرت حتى أصبحت على بعد أمتار مني، ثم ركبت القطار. ووجدت أول عربة مزدحمة فغادرتها إلى ثاني عربة وإلى الثالثة والرابعة، عساي أعثر علـى مقعديـن خاليـين متجـاوريـن . . بلا فائدة، ووقفت في آخر العربة الأخيرة وأدرت وجهي. كانت قادمة! ومرة أخرى وجدت قلبي يدق والسخونة تغمرني وتتركز في باطن يدي. وسمح لنا ازدحام القطار أن نقف متقابلين ونتحادث. وسمح لنا بأكثر مما كنت أطمع فيه، فقد ظللـت أتأمل وجهها طوال ساعة لم أرفع عيني عنه. . وأدركت كم هو جميل! ولكن جماله لم يكن يعني في انجذابي لها شيئاً كثيراً أو قليلاً، فحتى لو كان أقل جمالاً لما اهتزت سرعة انجذابي لهـا

ولكنه حقيقة كان جميلاً جداً. ومعظم اليونانيات ـ على الأقل معظم اليونانيات المقيمات في مصر ـ لا يتمتعن بجمال وافر، وما عليك إلا أن تستعرض تلميذات المدرسة اليونانية وهن خارجات. . معظمهن عاديات أو كالعاديات. ولكنك حتماً ستعثر على واحدة من كل مائة أو ألف واحدة وكأنها احتكرت جمال المائة أو الألف. كان وجهها صغيراً مستطيلاً ليس أكبر من وجه أية تلميذة من تلميذات المدارس ولكنه أبداً ليس وجه تلميذات، ففيه جمال السيدات. . الجمال الناضج الدقيق الطازج. لون وجهها نفسه يحير العقول، فالحمرة فيه حين تختلط بالبياض تصنع لوناً مختلفاً تماماً وكأنه لون جديد لا هو الأحمر أو الأبيض، ولا هو الوردي أو القمحي. . لون غريب ممكن أن نسميه لون الحياة لو أمكن أن يكون للحياة لون. وجه حي متفاعل، وعينان سوداوان ذكيتان تريان كل شيء ولا تغفلان عن البادرة حتى لو خطرت البادرة في عقل. . عينان لا تكتفيان باستقبال المرئيات،ولكنهما دائمتا البحث عن كل ما يرى أو يلمح. وشعر أسود، والشعر الأسود نادر في الأوروبيات ولكنه كان غزيراً فيها، يجعل وجهها أكثر حمرة وبياضاً وحياة، ويجعل عينيها أكثر تأثيراً وأعمق نفاذاً.

واعذروني إذا توقفت عند وجهها، فمن منا إذا تذكر الوجه الذي لوعه وغير مجرى حياته وأذاقه أحلى ألوان السعادة وأمر الألم. . من منا إذا تذكر ذلك الوجه لا يتوقف عنده؟ ومن غيرنا أقدر على تذكره ووصفه وتحديد كل دقيقة من دقائقه؟ وجوه من الجائز جداً أن تكون قد تغيرت وتغضنت أو ملأتها التجاعيد، أو حتى انتهت وصارت تراباً. . بل وجوه من المؤكد أنها تغيرت وانطمست معالمها القديمة، ولكن خيالنا وذاكرتنا هما المكان الوحيد الذي لا تزال فيه تلك الوجوه ثابتة على حالها محتفظة بكل ما كان

البيضاء

لجمالها من جمال ولأصحابها من إشراق، من غيرنا أقدر على أن يتذكر تلك الوجوه؟

وقفنا في القطار متقابليـن وتحادثنا. وكنا نتحادث بهمس خافت لا أدري لماذا؟ بل حتى الاحتياطات المبالغ فيها التي اتخذناها لنلتقي لم أكن أعرف لماذا اتخذناها؟

وكـان مفروضاً أن ينتهي الحديـث قبل المعادي مثلاً فأهبطأنا أو تهبطهي لآخذ أو تأخذ القطار العائد. ولكن المعادي جاءت ولم نكن قد تحدثنا في أي شيء جدي. وحتى بعد المعادي لم نتحدث ذلك الحديث الجدي الذي كان لا يتعدى أن أحدد معها موعدها مع شوقي وينتهي كل شيء.. هي أيضاً كانت تعلم أن لقائي بها لم يكن له هدف آخر سوى تحديد ذلك الوعد، ولكنها هي أيضاً التي مضت تتحدث عن نفسها وعن حبها للموسيقى، وعن أمها المريضة بالأورام الليفيـة، وكيف يجب أن تجرى لها عملية، وصحتها الضعيفة التي لا تحتمل العمليـة، حديـث غريب لإنسان مفروض أنها لآخر مرة.

وقلت لها:

ـ أتعلمين أن هذا لقاؤنا الأخير، ومن العجيب أني ما زلت لا أعرف اسمك؟

والـواقع أني لم أرد أن أسألها ذلك السؤال لمجرد رغبتي في معرفة اسمها، فالاسم مهم لتعرف صاحبه.. فإذا عرفت صاحبه لم تعد للاسم تلك الدرجة القصوى من الأهمية. كنت أسألها ذلك السؤال وأنا أعلـم تماماً أن من الممنوع منعاً باتاً أن تقول اسمها الحقيقي. فالمجلة وجماعة تحرير المستعمرات نفسها كانت تطارد وتقاوم في كل مكـان، وأجهزة

البوليس السياسي في ذلك الوقت معبأة لتعقب أفرادها ومعرفتهم والنفاذ إلى داخل الجماعة لتحطيمها وتخريب عملها، وأن يتبادل كل منا اسمه الحقيقي مع كل من هب ودب خطأ قد يصل إلى مرتبة الجريمة.

ولكن لا أدري أي هاتف حدا بي أن أتخذ ذلك السؤال مقياساً أعرف به مدى قربها مني ومدى حرصها على إرضائي. ومعرفة ذلك المدى كان شيئاً مهماً، فمع أن أحساسي وشعوري الداخلي كانا يؤكدان لي أنها لن تمانع في لقائي بعد هذه المرة لو طلبت منها أنا ذلك اللقاء، إلا أنني كنت مثل كل الناس لا أثق تماماً في مداركي الغريزية تلك ولا أطمئن إليها. وليتنا نثق فيها دائماً ونطمئن إليها.

أحببت أن أختبرها وأعرف مدى استعدادها فسألتها، وحين انتهيت من سؤالي وجدتها تبتسم. والابتسامات ليس لها كلها معنى واحد.. يخيل إلي أن كل ابتسامة يبتسمها الإنسان في أية لحظة من حياته تختلف دائماً عن أية ابتسامة أخرى. وكل ابتسامة لها معنى، وما أكثر المعاني التي أحببتها في ابتسامتها في تلك المرة. كان فيها خليط ناعم جداً من الدلال والتبغدد، وفرحة الأنثى حين تلمح اهتمام الذكر، وثقة المرأة حين تحس أنها عوملت كامرأة، وأخيراً قشرة سطحية من التردد سببها لا بد هو ذلك العرف المتواضع عليه ألا يذكر أحد اسمه الحقيقي لأي إنسان آخر.

ابتسمت تلك الابتسامة الجامعة وقالت:

ـ ولكنك تعرف أن هذا ممنوع.

قلت:

ـ أعرف ولهذا أترك الأمر لك.. أنت حرة وفي استطاعتك ألا تخبريني.

واتسعت ابتسامتها دون أن تبهت معانيها وقالت:

ـ هناك حل وسط.

قلت مبتسماً أنا الآخر:

ـ وما هو يا سيدتي؟

ـ ألا أخبرك أنا به. . تخبرني أنت.

ـ كيف؟

ـ ألا تستطيع أن تخمنه؟

قلت بفرحة:

ـ جداً. . لا بد أنه. . انتظري. . لا بد أنه لورا.

وبوجه مبتسم وملامح هادئة تحاول إخفاء سرورها حركت رأسها يميناً ويساراً في بطء علامة أني فشلت. وخمنت مرة أخرى وظللت أخمن. . كل الأسماء الأجنبية التي أعرفها قلتها، وكلما رأتني أكدح ذهني وأبالغ في تمثيل أني أكدح تزداد ابتسامتها اتساعاً وتزداد المعاني التي تحملها وضوحاً.

وطال تخميني وأدركت هي أني حائر فعلاً، وسعيد بحيرتي إذ كنت قد وثقت أنها نجحت في الاختبار، وأن شعوري الداخلي لم يخطىء، وأنها تريدني فعلاً أن أعرف اسمها الحقيقي وأن ألقاها. واعترتني قشعريرة فرحة لذيذة. . فرحة يقيننا من ثقتنا وفراستنا، خاصة إذا صدقتا في أحب وأهم موضوع يشغلنا. ومضيت أجهد نفسي أكثر وأستعذب ذلك الإجهاد الذي كنت متأكداً أنه لن يطول، وأنها إن عاجلاً أم آجلاً ستخف

لمساعدتي. فالمرأة حين تريدك وتشير إليك من طرف خفي أن تتبعها وتتواني أنت وتحتار وترتبك، ولا تستطيع أن تصبر طويلاً ولا بد بطريقة أو بأخرى أن تريك الطريق، ولكنها تفعل هذا من طرف خفي أيضاً.

وقالت رداً على عديد الأسماء التي ذكرتها:

ـ لا لا.. أنه مكون من مقطعين مثل اسمك.

ورنت إجابتها في نفسي رنيناً حلواً. هي إذن مهتمة باسمي وتعرف أنه من مقطعين، مع أني أنا نفسي لم يخطر لي هذا طوال حياتي، بل حتى لم أقف مرة لأتأمل اسمي. .والمرات القليلة التي فعلت فيها هذا كنت أضيق به وأتمنى لو كان لي غيره. ما أكثر ما تمنيت لو كنت قد سميت باسم جميل جذاب مثل أسماء أبناء كبار الموظفين الذين كانوا معنا في ابتدائي وثانوي.. الأسماء الجميلة التي كانت شائعة في ذلك الوقت، مجدي وعفت وفاخر وماجد، بل جاء على وقت كانت تنتهي أحلامي في السعادة فيه أن أملك اسماً كاملاً موسيقياً مثل «رائف شيرين» مثلاً أو «جمال كامل». وكم ضايقني من أبي أنه سماني يحيى على اسم ذلك المرشح الوفدي في الانتخابات التي ولدت أيامها وكانوا يهتفون له ويقولون «عاش الدكتور يحيى» وكان حكيمباشى سابقاً في عاصمة المديرية.. وسماني أبي باسمة عساي أن أصبح مثله. ولم تنسجم يحيى أبداً مع بقية اسمي وظللت كلما نودي علي وقال أحدهم «يحيى مصطفى طه» أحس بالخجل وكأن ثلاث طوبات قد خرجت من فم الناطق وجرحت آذان المستمعين.

وربما كانت تلك أول مرة أحس بالسعادة لأن اسمي يحيى، ولأنه مكون من مقطعين.. يح.. يا.. ومن قائلة هذا؟هي. واسمها هو الاخر مكون من مقطعين. يا لها من قرابة! على الأقل خمسمائة مليون من سكان

البيضاء

العالم أسماؤهم مكونة من مقطعين، ومع هذا فلمجرد إحساسي أن اسمينا ينتميان إلى هذا الرقم الهائل جعلني أحس بنشوة، وخيطيصلني بها. . أي خيط ولو اشترك معنا في القربى خمسمائة مليون، ولم أكن أنا وحدي المنتشي، كنت أنا وهي في لحظة من تلك اللحظات التي يفنى فيها الإنسان في الآخر، وفي تقاطيعه وفي حديثه وابتساماته ودلاله. . في لحظة من اللحظات التي تنسى الدنيا كلها وما فيها وتنسى من أنت وابن من أنت وماذا كنت في الماضي وماذا ستصنع للمستقبل. . في لحظة من تلك اللحظات التي تخدر فيها جسدك كله بالنشوة ولا يبقى واعياً فيك إلا حواسك التي تستقبل، وذلك الجزء الصغير من عقلك الذي يعمل، ونشوان وهو يعمل ـ يرتب إجابات جميلة وأسئلة أجمل. . في اللحظة التي لا يمكنك فيها أن تنطق شيئاً قبيحاً أو تفكر في شيء قبيح. . اللحظة التي لا يمكنك أن تكذب فيها أو تمكر، والتي لا تفعل فيها إلا أن تتجاوب تحس ما يريده الطرف الآخر ويحس الطرف الآخر بما تريد، وتجيبه إلى طلبه ويجيبك إلى طلبك، وكل همك أن تطيل ما أمكنك، وأن تجمل كل شيء حولك، وأن تمتص حواسك كل ما يقع أمامها ولها وتختزنه كالكنز النادر في أعماقها، وكأنك تعلم سلفاً أن تلك اللحظات لا تدوم، ولا بد أن يأتي وقت يصبح كل ما في استطاعتك أن تفعله فيه أن تقلب أعماق نفسك بين الحين والحين، وتدفىء وحدتك وسنيك والعالم الذي تغير من حولك على لحظات مثلها عشتها يوماً ما.

ولم نحس إلا بالكمساري وهو يزاحم الواقفين ويدق على الأرائك ويقول:

ـ حلوان.

وفي اللحظة التالية كنا نضحك، وكنا قد اتخذنا قراراً. أن نظل في العربة لا نغادرها حتى يعود القطار نفسه إلى القاهرة.

وبعد دقائق كانت العربة قد خلت تماماً من كل ركابها ولم يبق سوانا وجاء عامل التنظيف وتمحك، ولكنه كان بعد قليل يحضر لنا مشروباً مثلجاً من البوفيه وعلى فمه ابتسامة الموافقة والترحيب.

وحين أصبحنا وحدنا تماماً قلت:

بطل حزري.

قلتها بالعامية فاندهشت وسألت بالإنجليزية:

ـ يعني ماذا؟

ـ يعني انتهت كل مقدرتي على التخمين.

ولكني لم ألبث أن هتفت:

ـ أتعلمين شيئاً؟

ـ ماذا؟

ـ لا بد أن اسمك فينوس.

فقالت وهي تعرف إجابتي سلفاً:

ـ لماذا؟

ـ لأن لا بد أن اسمك على اسم جدتك، فقطعاً أنت من أحفادها. لا بد أن يكون اسمك فينوس، وإذا لم يكن كذلك فلا بد أن يغيروا اسم فينوس ويطلقوا عليها اسمك.

ـ مجاملة. المصريون كلهم يجاملون.

قلت:

ـ لا بد أنه أفروديت إذن، ولو أني لا أفضله.

قالت:

ـ ولا هذا أيضاً. اسمع!

وقالت اسماً لم أسمعه، وربما فعلت هذا لتنقذني من حيرتي التي كنت لا أود أن أنقذ منها. وسألتها مرة ومرتين وثلاثاً حتى استطعت أن أسمعه منها جيداً وأحفظه، وقلت أخيراً:

ـ أكسانتي؟ أو زانتي؟

ـ أكسانتي، وللسهولة يسمونني سانتي. ألا ترى أنه مكون من مقطعين كاسمك؟

وسألتها إن كان اسمها يعني شيئاً باليونانية، ففكرت هنيهة وضمت فمها تلك الضمة التي أحبها منها.. الضمة التي تذكرك أن لها فماً صغيراً دقيقاً كنت قد نسيته لفرط دقته وصغره.. الضمة التي تبرز شفتيها وتركز حمرتها وتصنع لهما عشرات التجعيدات الدقيقة المتقاربة المحتقنة ذات المعنى الجسدي الذي ينسيك حتماً ما كنت تريد قوله، ويجفف حلقك ويلهب أنفاسك. وقالت:

ـ صعب ترجمته.. ولكنه شيء يعني الفتاة ذات اللون الأبيض، أو الفتاة الشقراء، أو على وجه الدقة الفاتحة.

قلت وأنا أسترد نظراتي:

ـ يعني البيضاء؟

ـ شيء كهذا.

- اسم جميل.
- وكيف عرفت أنه جميل؟
- لا بد أنه كذلك.
- مرة أخرى. . الطريقة المصرية للمجاملة.

ضحكت وقلت:
- تقصدين مجاملة سخيفة.

قالت على الفور:
- أبداً مجاملة لذيذة جداً.

قلت:
- شكراً على الطريقة اليونانية للمجاملة.

وضحكنا وتلفتنا. كان القطار قد غادر حلوان إلى المعادي، غادرها ولم يبق إلا الجبل ومحاجره لنصبح في القاهرة. ودق منبه غريزي في صدري دقات قلق، ولكني تصنعت الهدوء وسكت، وسكتت هي الأخرى ذلك السكوت الذي ينتظر كل طرف فيه أن ينبىء الآخر ويستعد لما يقوله. . سكوت أحسست أن كلاً منا يجهز فيه كلاماً متعمداً يقربه من الآخر.

وقلت لها:
- إذن، لن نتقابل بعد الآن؟
- أجل. . مفروض هذا.
- شيء مؤسف.
- مؤسف.

ثم برقت عيناها وقالت فجأة كأن وحياً هبط عليها: اسمع! وقالتها بالعربية، و«اسمع» حين ننطقها نحن شيء، وحين نطقتها كانت شيئاً آخر

البيضاء

أعذب «اسمع» سمعتها في حياتي.

ـ اسمع . . من شهريـن كنت قد بدأت أدرس اللغة العربيــة، وقد انقطعت الدروس الآن . . هل . . هل ممكن؟

وقلت أستحثها دون أن أعرف ما هو ذلك الممكن:

ـ ممكن جداً . . ماذا؟

ـ هل ممكن أن أعتمد عليك في إكمالها؟

وطبعاً كانت تعرف أنها تستطيع أن تعتمد علي.

والمشكلة التالية كانت مشكلة عملية محضة . . مشكلة المكان فقلت وأنا أحمل كلامي معنى التردد وشكله، الاقتراح الذي لا أحرج كثيراً إذا رفض:

ـ هل ممكن أن تأخذي الدروس عندي؟ هل . . هل ممكن؟

ـ عندك؟

ـ أجل.

ـ ولكنك مع عائلتك.

ـ أنا أسكن وحدي.

ـ في بنسيون؟

ـ في شقة.

وانقطعت حلقة أسئلتها وسكتت قليلاً، فسألتها:

ـ هل يمكنك؟

وكنت أسألها وقلبي يخفق خوفاً من أن ترفض أو تتحجج أو تنتحل أعذاراً، ولكن كان شيء يؤكد أنها لن ترفض . . شيء يستحق ثانية تأمل، فالإنسان منا ما يكاد يسأل نفسه . : ترى هل هذه بغيتي؟ ويـراها فعـلاً

بغيته، حتى يبدأ في الاقتراب منها ماداً ثقته بنفسه كقرون الاستشعار أمامه، وهي قرون حساسة جداً.. إنها لا تمتد أنملة واحدة إلا إذا أحست برضى من الطرف الآخر، وليس للرضى شكل معين، ولا يستطيع الإنسان أن يلمسه متبلوراً في شيء محدد. هو ليس حالة تصاحب حركات الطرف الآخر مصاحبة خفيفة.

الطريق دقيق جداً، ذلك الطريق الذي يفصل بين الرجل والمرأة ويصلهما، وكل منهما يسلكه باحتراس شديد. إن الرجل وهو يطلب المرأة كالصبي حين يحاول الإمساك بفراشة، إنه يقترب منها في حذر مبالغ فيه مخافة أن يأتي بحركة غير مقدرة ومحسوبة تجعلها ترف بجناحيها وتطير.

وهكذا كنت وأنا أقترب من سانتي.. فنحن حين نعثر على بغيتنا يتعاظم خوفنا أن نفقدها. نحن لا نتعلم الحب في المدارس، وكل منا يطلب بغيته وهو جاهل بالطريق إليها. وكل جنس له طبعه وغرائبه، وكل جنس يجهل طبائع الجنس الآخر، وكلنا نفعل هذا بلا خبرة ولا معلم أو مرشد، فكل تجربة قائمة بذاتها لا يصلح لها ما يصلح لأخرى.

البيضاء

٣

وجاءت سانتي إلى الشقة أول يوم.

ولست أعرف إلى الآن كيف استطاعت الوصول إليها، فالطريق إلى بيتي في القسم البولاقي من شارع فؤاد كان صعباً،ولكنها جاءت .وقابلتها بترحاب غامر، وكان مجيئها يعني أن علاقتنا تنمو طبيعياً جداً، وكان هذا يطمئنني. . تماماً كالصبي حين يقترب من الفراشة،وهو ضامن أنها باقية على وضعها إلى أن يطبق عليها بأصابعه، ذلك الضمان الذي يجعله ثابت الخطوات ثابت الأعصاب واثقاً من نفسه بحيث تدفعه تلك الثقة إلى نوع من الهدوء لا يجعله يأتي بحركات هيستيرية تطير منه الفراشة.

وتعودت سانتي أن تأتي، وفي كل مرة يزداد اقترابنا. كانت غبطتي لمجيئها تزداد، وغبطتها تزداد أيضاً، وبنفس الأهداف. فلا أعرف أنا سر انجذابي نحوها أو هدفه، ولا أعرف أيضاً سر موافقتها على هذا،بل وانجذابها هي الأخرى. لم يكن يبدو عليها أنها من ذلك النوع المغامر أو المتساهل! العكس كان صحيحاً، كانت تبدو دينامو عمل هائل وطاقة حماس لا تفرغ. ولكنني لا أعرف ما حدث في تلك اللحظة الغريبة التي التقينا فيها أول مرة فأخرجتا عن مدارينا المفروضين وجعلنا نلتقي بلا عمل، ثم نبدأ نختلق الحجج للالتقاء ولتعدده أبداً متشحباً أضع هدفاً

لنفسي وأحيطه بضباب كثير، فالخجل جزء من طبيعتنا ونحن لا نستطيع أن نواجه حتى أنفسنا بأهدافنا الحقيقية.

وعلى الرغم من غموضه فقد كنت أمضي ثابت الخطى في الطريق إليه، وهدفي لم يكن أبداً ذلك الطوفان من العواطف الذي انتهت إليه علاقتنا. كان هدفي واضحاً وصريحاً.. مجرد مغامرة حب سريعة خاطفة. والرجل حين يحدد هدفه من المرأة يدفعها إليه واحدة فواحدة.. بنظرة مرة، بضغطة على اليد مرة، باصطناع غضبة، باختلاق غيرة، بلوم بإهمال أحياناً، وتوريط أحياناً أخرى. وهو لا يفعل هذا بوعي، فالإنسان منا آلة معقدة غريبة! ضع لها الهدف واتركها تتصرف، وثق أن كل حركة من حركاتها سيكون مقصوداً بها الاقتراب من ذلك الهدف.

وحتى بعد أن نحدد الهدف ظللنا نتحرك تجاه بعضنا البعض بانجذاب متساو. ولكن الأوضاع لا تدوم هكذا أبداً، فلا بد في آخر كل أمر أن يقوى أحد الطرفين ويصبح هو القطب الغالب فيقف في مكانه ثابتاً واثقاً من نفسه، متأكداً أن الآخر سائر نحوه، وأنه قد أصبح في تلك العلاقة المسيطرة صاحب اليد العليا والكلمة المسموعة.

كانت سانتي تأتي من أجل أن تتقوى في العربي كما اتفقنا. وفي أول يوم لمجيئها أحضرت معها كراسة وكتاب مطالعة من كتب الأطفال. وتحدثنا قليلاً، وشربنا قهوة، ثم أخذت في إعطائها الدرس. واستمر الدرس حوالي ساعة وتسلينا به كثيراً. أضحكها من نفسي على دوري كمدرس، وتضحكني من نفسها على دورها كتلميذة، وأحاول أن أوضح ما أريد بالكتابة فلا تستطيع قراءة خطي، وتطلب مني أن آخذ أنا درساً في اللغة العربية، إلى أن انتهى الدرس.

وكنا قد اتفقنا على أن أعطيها الدرس مرتين في الأسبوع. . السبت والثلاثاء. وسانتي كانت تعمل،لم أكن أعرف ماذا تعمل بالضبط،ولكنها على أية حال كانت تخرج من عملها في الثانية، فاتفقنا على أن يكون لقاؤنا في الثالثة والنصف. كان ميعاداً غير مناسب، ولكنه على ما بدا كان الوحيد الذي يهيىء لنا فرصة أكبر لمده وإطالته.

وكنا أيامها في فبراير، في تلك الفترة التي يتقلب فيها الجو بين الدفء والبرودة، وتتقلب فيها الأمزجة كذلك.

وحين جاءت لتأخذ «الدرس» الثاني جاءت ومعها «الواجب» الذي كنت قد أعطيته لها، ولم تنس أيضاً الكراسة وكتاب المطالعة.

ولم يستغرق الدرس هذه المرة إلا الوقت الذي «صححت» فيه الواجب، وأعطيتها «عشرة على عشرة» رغم أنف كل ما كان هناك من أخطاء. وكذا نتحدث قليلاً ثم نبدأ الدرس، ولكنا تحدثنا كثيراً ولم يبدأ الدرس في ذلك اليوم أبداً. وفي حديثنا لا أذكر أن جدلاً نشب بيننا حول أي شيء، كانت أحاديثنا تجاوباً لا غير. نتحدث في السياسة فإذا برأيها هو نفس رأيي، وحتى ما يعن لي من نقد هو نفس ما يعن لها. ونتحدث في الموسيقى فتقول إنها تحب موزار، ولا أكون قد سمعت من موزار إلا قطعة أو قطعتين فأؤكد لها أني أحبه أنا الآخر ومتعصب له.

ومع أن الدروس انقطعت بعد هذا الدرس الثاني الذي لم يبدأ، إلا أننا اقترحنا أن نزيد عدد الحصص إلى ثلاث مرات في الأسبوع «لنسرع» في البرامج أكثر. ولا أذكر من منا هو الذي اقترح هذا،ولكن الأكيد أن كلينا تحمس للاقتراح ووافق عليه في الحال.

كنا نقترب كما قلت بانجذاب رائع متساو.

إلى أن كان يوم!

كانت سانتي تأتي في العادة حوالي الثالثة والنصف، وكنت أيامها قد افتتحت عيادة صغيرة، وكان وقتي موزعاً توزيعاً يكاد يكـون كاملاً بيـن العمل كطبيب لورش السكك الحديدية في الصباح والعمل في العيـادة ابتداء من السادسة مساء، ثم العمل في المجلـة إلـى ساعة متأخرة من الليل. ودونا عن بقية ساعات الأيام كلها كانت الساعة الثالثة والنصف من أيام السبت والثلاثاء والخميس «وهي الأيام التي اتفقنا أن تأتي فيها» قد أصبحت لدي شيئاً حبيباً. أصبحت تلك اللقاءات وما نتبادلـه فيها من حديث واحة جميلة أحن إليها هرباً من جفاف حياتي. وأنَّى لي أن أعرف أني بتلك الواحة كنت أجتاز أسعد أيام العمر؟ فنحن لا نسعد إذا استرحنا دائماً.. نحن نسعد بساعة الراحة إذا جاءت في وسط يوم كامل أو ربما حيـاة كاملـة من الشقاء. نسعد بها سعادة مبالغاً فيها كتلك التي يحسها الضارب في الصحراء حين ينتهي الى واحة يرى في نخيلها القليل وبئر مائها المهدم جنة تضارع جنان الخلد.

وذات يوم دق لي شوقي تليفوناً في مكتبي بالورشة وقال لي إن البوليس قد صادر المجلة، وإن علي أن أحضر في الحال وذهبت وكنت متأكداً أني حتماً سأستطيع الرجوع إلى البيـت قبل حلـول موعدي مع سانتي بوقت طويـل، ولكـن الموضوع تطور، وعرضت المجلـة علـى النيـابة وطال التحقيق، وجاءت الثالثة والنصف والرابعة والخامسة دون أن ينتهي، وأنا رائح غاد لا أستطيع حتى الاعتذار، والنيران تأكل قلبي وأنا أتخيلها تنتظر على مضض هي الأخرى، ثم وأنا أتخيلها تنصرف ضيقة بي وبقلة ذوقي.

وعدت إلـى البيـت في التاسعة مساءً متعباً منهكـاً حزيناً. غيـر أني فوجئت بأعجب شيء، فقد وجدت النور مضاء في شقتي.. والشقة كنت

أقطنها وحدي ولها مفتاحان واحد معي والآخر مع أم الطلبة. وأم الـطلبة تعبير لا أدري من أطلقه على أم عمر فذهب مثلاً. والواقع أنه كان لا يخلو من حق، فأم عمر أرملة صعيدية خشنة المظهر والصوت والسواعد عمرها تاه فيه الحاسبون، ولكنه لا يمكن أن يقل عن الخمسين، ومع هذا فقد كان لها عنفوان رجال الصعيـد وأمانتهم. كان أكبر غسيـل لا يأخذ من يديها القويتيـن أكثر من ربع ساعة، وأضخم شقة تنظفها وتمسحها إذا احتاج الأمر تلحسها في دقائق، ولهذا فقد كان من الطبيعي جداً أن توزع طاقتها الجهنمية، فكـانت تعمل في وقت واحد عند أكثر من عشرة من الـطلبة الأغراب الذين يسكنون بمفردهم، كل واحد منهم أو كل اثنين في حجرة. بل قيل إن عدد من تعمل لديهم غير معروف، فهي تحتفظ به سراً حتى لا يطلع أحد على إيرادها. . ذلك الإيراد الذي زعم البعض أنه يكفي لشراء عمارة أو عدة فداديــن. وبعد أن تخرجت وسكنت في تلك الشقة في بولاق، وتخيلت أني انتهيت من أم الطلبة وحياتهم وشظفها، فوجئت بها ذات يوم تطرق على الباب كالقدر المحتوم وتعاتبني بشدة على أني هربت منها، وهكذا وضعتني أمام الأمر الواقع واضطررت أن أعود لاستخدامها.

عدت كما قلت فوجدت الشقة مضاءة، وفتحت باحتراس فوجدت أم الطلبة جالسة على كرسي في الصالة جلسة كادت تميتنـي من الضحـك ـ فتلك أول مرة كنت أراها فيها جالسة على كرسي ـ وكانت جلسة غريبة ما في ذلك شك. فقد كانت جالسة وكأنها غير مطمئنة أبداً إلى هذا الشيء ذي الأرجل الأربع الذي من المحتمل جداً أن يسقطقاعه. . جالسة وكأنها تعاني من أزمة أو من إمساك. وقبل أن أفتح فمي وجدتها تنتصب واقفة وتقول بصراخها الطبيعي :

ـ تعملها فينا يا بوي وتسيب المزمازية اكديه.

ولم تكن «المزمازية» غير سانتي التي ما كادت تراني حتى هبت واقفة منزعجة تسألني عما حدث، وعن سبب غيابي الطويل.

وردت إلي الروح.

وبينما كنت أحكـي لها بكلمات مشتتة مختصرة كل ما حدث كانت فرحة غامرة تجتاحني، إذ أدركت لحظتها أني أستطيع أن أقف في مكاني ثابتاً ممتلئاً بالاطمئنان والثقة، وأنها سائرة بخطى واسعة في طريقها إلـي ويوم وصولها قريب.

وقد تبدو حادثة بسيطة كهذه شيئاً تافهاً ولكن معناها ظل يضطرم في نفسي طوال ليلتها، وأنا راقد في الفراش محموم تلك الحمى النفسية التي لا تعتري الإنسان إلا في لحظات خاطفة من حيـاته.. اللحظات التي يحس فيها بالسعادة شيئاً مادياً ملموساً يمور في جسده ويؤججه ويتقلب على دفئه.

وكان اليوم التالي يوماً من الأيام التي لا تأتي سانتي فيها، ولكني لم أفاجأ كثيـراً حيـن وجدت الباب يدق في الثالثة والنصف ووجدتها هي الطارقة. بل لم أفاجأ أيضاً حيـن أصبحت تأتي كل يوم تقريباً. لم أعد أفاجأ أو أضطرب أو أتكلف، بل أصبحت مستمتعاً غايـة المتعة بذلك الموقف الذي كنت أقفه، الموقف الذي لم يكن علي فيه إلا أن أثبت في مكاني ولا أتحرك، وأنتظر تاركـاً نفسي علـى سجيتها وأنا ضامن أن كل تصرف من تصرفاتي حيـالها سيكـون مقبولاً ومحبوباً ومراداً، وأني قد أصبحت السيد.

غيـر أنه يبدو أن مفاجآت من نوع آخر هي التي كانت تنتظرني، إذ بدأت ممرضة المستوصف المجاور لشقتي تغيـر من كثرة تردد سانتي..

البيضاء

قالت لي وأنا صاعد في السلم ذات يوم وهي هابطة عندما حاولت مداعبتها:

ـ أوعى كده . .

ولم أتراجع، ووقفنا نتحدث وأنا أتحين الفرص المناسبة وأعود لمداعبتها، ولكنها في النهاية قالت وفي ملامحها اشمئزاز مصطنع:

ـ ما تروح أحسن لحتة الخوجاية بتاعتك اللي بتجيلك كل يوم. أنا عارفة بتحبوهم على ايه؟ دي مشيتها حتى زي مشية شيتا.

وأكملت صعود السلم وأنا في كلام البنت التي لا أذكر اسمها والذي كل ما أذكره عنها أنني ما كدت أعرف أن مستوصفاً سيفتح في الشقة التي خلت بجوار شقتي حتى بدأت أفكر في التعزيل فوراً. ولكن كسلي ومشقة التعزيل حالا دون تنفيذ رغبتي وأصبح كل همي أن أتحايل على نفسي لإقناعها بفوائد وجود مستوصف بجواري، فوائد ليس أقلها وجود ممرضة جميلة فيه. ولكني حين رأيتها خاب أملي. . فلم تكن أكثر أو أقل من مصرية قصيرة القامة، قمحية، وجهها مشرب بحمرة وبحب شباب. وكانت أحياناً تأتي إلى المستوصف مرتدية ملاءة لف وحينئذ كانت تبدو أحلى وأجمل. وفي أحيان أخرى كانت تأتي وهي مرتدية «جونلة وجيب» لم يكن من المستبعد أبداً أن تكون هي التي صنعتهما لنفسها.

ولم يكن صعباً أن أعرفها وتعرفني، فالطبيب الذي يعمل بالمستوصف كان زميلي، وكنت أحياناً أزوره وأراها في أثناء الزيارات. والأطباء الشبان لهم طريقة خاصة مجربة في التفاهم مع الممرضات والحكيمات، ولهم خبرة في بدء الحديث بالكلام عن السينما والأفلام وإنهائه بقرصة في الخد أو زغدة في الكتف. ودائماً ليس لدى الممرضات مانع طالما هن بنات لم

يتزوجن بعد، وما دام الطبيب المعاكس شاباً لم يتزوج هو الآخر، فحلم الواحدة منهن الدائم ان تتزوج من طبيب.

ولا أعرف لماذا كنت أداعبها كلما قابلتها على السلم، كل أذكره عنها هو وجهها المنتفخ الأحمر وعيناها الصغيرتان السوداوان، وحب الشباب بالذات في وجهها. حب الشباب كان يقف حائلاً بيني وبين استلطافها كلية، والمشغوليات الكثيرة ودوامة العمل كانت تمتص كل طاقاتي بما فيها تلك الطاقة الكامنة فينا التي تدفعنا لمناوشة الجنس الآخر أنى وجدناه.

وإذا كانت مشغولياتي قد حالت بيني وبينها، فيبدو أنها هي التي تفرغت لي وعرفت عني كل ما تريد معرفته من أم الطلبة أم عمر. بل لا بد أنها كانت تراقب زواري مراقبة دقيقة.

يومها أكملت صعود السلم وكلامها عن سانتي يرن في أذني رغماً عني ويدفعني إلى التفكير فيه.. صحيح كنت قد لاحظت أن سانتي تمشي مسرعة،وليس لخطواتهاذلك الإيقاع الذي تحرص السيدات والفتيات على تعلمه زيادة في تأنيث أنفسهن. ولهذا تبدو مشيتها سريعة متوثبة كمشية الصبي المعفرت.. صحيح كنت قد لاحظت هذا، ولكن ما فائدة ملاحظته وإعجابي بها يملأ على كل نفسي ويلغي من عقلي وجود أية فتاة أو امرأة أخرى مهما بدت أروع وأجمل وأكثر أنوثة؟ كل ما فعله كلام الممرضة أنه جعلني أضع في احتمالي أن سانتي، وإن كنت أراها كاملة إلا أنه من المحتمل جداً أن تكون لها عيوب.

ليس هذا فقط، بل بدأت أفكر في أمور كنت أتجاهل التفكير فيها إلى تلك اللحظة، منها أشياء قد يخجل الإنسان عن ذكرها. صدرها مثلاً لم

البيضاء

يكن بارزاً ذلك البروز الـذي ينبىء عن أنوثة مكتملـة، وطريقة سلامها مثلاً. . كانت تقبض على اليد بقوة وحماس وليس في تسليمها رقة المرأة.

أقول بدأت «أفكر» في هذه الأمور مجرد تفكير. . تفكير كل ما كان يفعله أن يزيدني ربما إعجاباً بها، وربما لهذه الأشياء بالذات تلك التي يخالها الناس العاديون عيوباً. فحتى تلك اللحظة لم أكـن قد سمحت لنفسي أن أتوقف وأتساءل عن كنه علاقتي بها، وهل أنا معجب بها؟ وبأي شيء أنا معجب؟ وماذا أريـــد منها وماذا تريـــد هي مني؟ كل ما كان يشغلني في تلك الأيام هو انجذابي التلقائي إليها وحرصي على القرب منها والبقاء أطول مدة معها، وكـأنها قطعة موسيقيـة أو أغنيـة أحبها وأفضل سماعها دون أن أتلمس لهذا التفضيل أسباباً.

ولـم لا أقول الحقيقة كلها وأذكر أن كلام الممرضة قد استغرق جزءاً أكبر من تفكيري، وأنني في النهاية آثرت بل وتمنيت أن يكون صحيحـاً وأن تكون لسانتي عيوب ليزداد أملي فيها؟ فمشكلتي الكبرى كانت أنني لم أكـــن من ذلك الصنف من الشبان الذيـــن في استطاعتهم أن يتيهوا بوسامتهم على الفتيات. . كنت أنظر في المرآة وأجعل عيني رغماً عني لا ترى الأشياء التي لا أريدها أن تراها في وجهي وملامحي، الأشياء التي لم أكن أحتاج لرؤيتها لأدرك أنها هناك. . فقد كنت لفرط إدراكي لها أحفظها عن ظهر القلب.

لم أكن وسيماً ولا جميـلاً ولا يعد وجهي حتى من الوجوه المقبولـة الشكل. لم يكن به عيب جوهري، كل ما في الأمر أن ملامحي لم تكن منسجمة، لأمر ما كان فمي يبدو للناظر واسعاً كفم البحر إذا انفتح، مائلاً إلى الناحية اليسرى إذا انغلق. أجل، كنت حقيقة أراه وكـأنه ليس فمي

وكـأنه عاهة مستديمة أصبت بها منذ الصغر، وكـأنه جرح عريض ملتئم يقطع وجهي ويميل إلى اليسار، وملامحي الأخرى لم يكـن بها عـيـب ولكن هذا الفم بوجوده الدائم بينها لا أدري لماذا كان يشوهها.

وأفظع ما في الأمر كان ابتسامتي، وعشرات الآلاف من المرات وقفت أمام المرآة أبتسم وأحاول أن أصلح الابتسامة وأجملها، إذ كنت قد قرأت أن ملامح الإنسان ممكـن تغييـرها بالتمريـن الشاق الطويـل. عشرات الآلاف من المرات ابتسمت فيها محاولاً أن أجعلها ابتسامة مستقيمة كابتسامات كل الناس، محاولاً أن أرفع قليلاً ذلك الجزء الساقطمنها إلى اليسار بلا فائدة حتى يئست، وتحول يأسي إلى عادة وتحولت العادة إلى نسيان مستمر مستديم لا ينتهي إلا في فترات محددة نادرة، وفي مثل تلك الساعة أو الساعات التي رحت أفكر فيها في كلمة قالتها الممرضة، وربما كانت صادرة عن حقد وموجدة. ساعتها عاد شكل ابتسامتي إلى ذاكـرتي ساعتها تمنيت لو كانت سانتي تمشي حقيقة كشيتا، تمنيـت لو نبتت لها فجأة آلاف العيوب.

وبمثل الومضة التي تذكرت بها ملامحي اختفت الذكـرى، وبدأت فجأة أنظر للأمور وكأني أصبحت على قدم المساواة مع سانتي، وكـأن مشيتها تلغي بشاعة ابتسامتي، وكأننا أصبحنا أنداداً، أو على الأقل يجب أن نصبح أنداداً. ولكي يحدث هذا، ولكي يثبت هذا، كان علي أن أتوج أهدافي من سانتي بإيقاعها.

وقد يحاول البعض أن يفسر هذا على ضوء علـم النفس المضحك ويقول أني كنت معقداً، وأني كنت أعاني من عقدة القبيح الذي يحاول أن يثبت لنفسه أنه وسيم بإيقاع أكبر عدد من النساء، وأي تفسيـرات أخرى

تقال ـ وقد تكـون صحيحة ـ ولكـن هل تلغي تفسيـرات كهذه الحقيقة البسيطة التي تقول أن الـرجل بعد أن يقول لنفسه: هذه هي فعلاً من أريـد. . لا بد أن يعود ويقول لنفسه: ما دام الأمر كذلك فعليـك بهـا أوقعها؟

٤

ولم يكن إيقاع سانتي بالأمر السهل.

لم يكن سهلاً أبداً أن أتخطى بقفزة واحدة حواجز منيعة تكاد تعادل تلك التي تقوم بين الإنسان وأخته، حواجز الزمالة والعمل المشترك. ولكني كنت أعتمد على الزمن ونمو العلاقة والتأكد بشكل قاطع أنها على الأقل راضية. ولهذا حين وجدتها تنتظرني تلك الساعات الطوال وتتلهف على قدومي اعتبرت ذلك الانتظار برهاناً أكيداً على اهتمامها الشديد بي وقربها مني. وما يكاد الإنسان يعثر على برهان أكيد أو أرض صلبة مثل تلك حتى تتوالى الشواهد. وهكذا وجدت في مجيئها كل يوم رغبة، وفي قطعها كل تلك المسافات بين بيتها وبيتي واقتحامها ذلك الحي الشعبي الذي أقطن فيه، واحتمالها لنظرات الممرضة وأصحاب الدكاكين المتراصة على الناصيتين.. رأيت في هذه كلها شواهد جديدة تثبت لي على الأقل أن رغبتها في لا تقل عن رغبتي فيها.

وزادني هذا ثقة بنفسي، وبالأرض التي أقف عليها.

ثم إن كلام الممرضة كان قد جعلني أبدأ أتأمل سانتي، وأجد أنها كفتاة وكأنثى تكاد ـ لولا مبالغتي في تقديرها ـ أن تكون عادية لا يحق لي أن

أستكثرها على نفسي، بل حتى من الممكن أن أعتبر أن لي أنا الآخر مزايا يمكن أن تكون غير عادية. وتضاعف رصيد الثقة في نفسي.

وكان هذا مهماً. فمجرد سؤالنا لأنفسنا: ترى هل نستطيع؟ مجرد السؤال بداية شك في قدرتنا وثقتنا بأنفسنا، وما لم تتدعم تلك الثقة فلن نستطيع الاقتراب خطوة. وهكذا أصبحت سانتي بكل أحاديثها ووجهها المعبر المسمسم وروحها شيئاً آخر ما، لم تعد نداً أخافه وأخشاه وأعمل حساباً كبيراً لكل خطوة أخطوها ناحيته. أصبحت فريسة جمدتها في مكاني وما علي سوى أن أمد يدي وأتناولها.

وأنا لا أزعم أني كنت أفكر في هذا وأحلله وأتصرف على أساسه. إننا في أمثال تلك المواقف نسمع ونرى ونحس ونقدر ثم يهدينا تفكيرنا إلى أنسب التصرفات دون تحليل أو تمحيص.

وقالت لي سانتي يوماً في أواخر جلسة لنا: رأيت فرقة الأوبرا الإيطالية؟ ولم أكن قد رأيتها أبداً. وحدثتني كثيراً عنها وأخبرتني أنها تذهب مساء كل يوم لرؤيتها وأن لديها «أبونيه» لمؤخر الصالة، ورقم كرسيها الدائم ٧١. وطبعاً أبديت حماساً كبيراً لأن أذهب معها في مساء نفس اليوم، واتفقنا على أن نلتقي هناك وأن علي أن أحاول العثور على كرسي بجوارها.

وأغرب شيء أني بذلت جهود المستميت للحصول على التذكرة وحصلت عليها ودخلت وأنا لا أعرف «الأوبرا» التي كانت ستعرض في مساء ذلك اليوم، ولا أدري إن كانت «ريجوليتو» أم «عايدة». ودخلت ومن بين مئات الوجوه المزدحمة في مؤخر الصالة لمحت وجهها الأبيض المحمر النحيف الدقيق الملامح. وأهم من هذا لمحتها تبحث بعينيها في

لهفة، وكان من المؤكد أنها تبحث عني وقد قرب موعد رفع الستار. وحين رأتني احتلت وجهها كله ابتسامة رضا وفرح، كادت تكون أعذب وأمتع ابتسامة رضاء لمحتها في حياتي.

ولست أدري ما حدث ليلتها.

كـانت الأوبرا تموج بالناس والأضواء، ومعظم المتفرجيـن من الايطاليين المقيمين في مصر واليونانييـن والفرنسييـن والأجانب بشكـل عام. ومعظمهم سيدات ـ شابات وعجائز ـ الشابات جميـلات وأنيقات والعجائز يظهرن وكـأنهن شابات، وكلهن يبتسمن ويضحكـن، ورواد الصالة والبناور يسخرون بنظراتهم من رواد البلكـون وأعلـى التيـاتـرو فيقابل هؤلاء سخريتهم بسخرية أشد. والجو يملؤه ذلك الأزيز الأنثوي الـذي يصدر عن الجماعة إذ كان معظمها من النساء، والـرواد جميعاً واضح أنهم في ساعة مرح وتفرغ كامل للاستماع والاستمتاع، لا مشاغل ولا تفكير في مشاكل. الابتسامات كثيرة تملأ الأركان، والضحكات أسهل من الكلمات، والأرواح شفافة خفيفة يلونها المرح الدافق بألوان زاهيـة ساحرة.

وقالت لي سانتي همساً:

ـ خفت ألا تأتي.

وقلت وأنا مبهور بالجو الذي حولي، قلت شيئاً ما، كلاماً من الكلام الذي نسد به خانات الحديث إذ كان تفكيري الأكبر موزعاً بين تأمل كل تلك الوجوه الشابة الجميلة، وبين الاستعداد لسماع الأوبرا نفسها وهي تجربة جديدة، وبين استعادة لهفة سانتي على مجيئى وإبقائها حاضرة في ذهني لا تغيب.

وحين أقول اللهفة فإني أعنيها، إذ يبدو أن من كثرة استعمالنا لبعض الكلمات فقدت تلك الكلمات وقعها ومعناها. اللهفة التي لمحتها ناطقة بها ملامحها، اللهفة النابعة من الأعماق المتجسدة كيانها كله حتى أصابع القدمين. . هذه اللهفة. .

ليلة الأوبرا. .

ما فائدة أن أتكلم عنها؟ إن كل ما حدث ليلتها أشياء لو قلتها لبدت عادية جداً، ولكن الأشياء العادية تصبح في أحيان ذات معان غير عادية بالمرة. اللهفة التي قابلتني بها ممكن أن تكون لهفة الصديقة التي دعت صديقاً إلى الأوبرا ثم مضى وقت طويل ولم يظهر له أثر. . ولكنها لم تكن كذلك. وقد أطيل ويبدو حديثي مملاً، ولكني أود أن أوحي بالفرق. . الفرق الدقيق الذي يحس ولا يوصف. إنك تستطيع أن تصافحني عشر مرات، بنفس القوة، بنفس القبضة والضغطة ونفس الترحيب، ولكني أستطيع أن أقول دائماً أي تلك المرات كانت أدفأ وأكثر مودة.

ولو كنت قد رأيت أعز الناس لدي يحتل مقعداً في مؤخر الصالة أو في أي مكان من المسرح، لما كنت تذكرت الآن أني رأيته، فعقلي لم يدر فيه أي شيء خارج سانتي. . الفتاة الصغيرة النحيلة التي كانت تجلس على بعد قليل «إذ لم يأت مقعدي بجوارها تماماً» الفتاة التي تعجبني جداً والتي دعتني إلى الأوبرا وتلهفت على قدومي.

في تلك الليلة بدأ إحساسي بملكيتها.

وبدأت أحس أن هذه المرأة لي، أو إن لم تكن كذلك فيجب أن تصبح لي وحدي.

وفرق كبير بين أن تكون منجذباً إلى إنسانة أو أن أنسانة معجبة بـك وبين أن تبدأ تفكر فيها على أنها فتاتك أو أنثاك.

هو نفس الفرق الذي لم أحس معه بالستار حين ارتفع، ولا الموسيقى حين بدأت تتصاعد وتنتشر في أرجاء الأوبرا كالعطر الصوتي الثمين الذي ينتزع الآهات والأشجان. كل همي كان أن تأتي الاستراحة. كنت أريد أن أحدثها. كنت أريد أن أقول لها رأيي في الليلة والناس والحفلة وفيها. وكنت أريد أن أسمع تعليقاتها علـى رأيي. وكنت أعرف أنها ستوافقني علـى كل ما أقول، ولـكني كنت متلهفاً علـى سماع تلك الموافقة وهي تخرج من بين شفتيها.

وذهبنا إلى البوفيه، وهي تسبقني، وكلانا يحاول أن يجد له طريقاً بين الأجساد المتلاطمة المزدحمة. وكنت وأنا أستسمح هذا أن يدعني أمـر وأعتذر لذاك، وأبتسم، أحس بنفسي رقيقاً دقيقاً كوتر الـكمان، كلامي موسيقى، وحركاتي أريد أن أحيلها إلى رقصات باليه. إن السعادة أحياناً تخلق من الإنسان شاعراً. ووصلنا إلى البوفيه ووقفنا نرشف أقداح القهوة ونتكلم وأقول لها آرائي وتقول آراءها وتبتسم كثيراً ونتجاوب بشدة. كان يخيل إلي وهي وافقة أمامي ولا يفصلنا سوى ابتساماتنا والبريـق الصادر عنها، وجهها حلو قد أضفى عليه الليل والأنوار بياضاً وحمرة ووسـامة والـروج في شفتيها أنيـق رقيـق كشفتيها. وهي تتحدث، وتقول «نعم» أحياناً وأحياناً تضم شفتيها تلك الضمة التي تبرزها إلـى الأمام وتجعدها تلك التجاعيد التي يجف لها الحق قائلة «لا» كان يخيل لي كلما أفقت أننا أخيراً التقينا. أجل، أحسست تلك الليلة أنها قد أصبحت فتاتي وأنثاي. نظرات عينيها، البريق المشع المتلهف الذي كان يملأ حدقتيها، النشوة وهي ترجف رموشها، الحياة التي تتذبذب وتتلون وتتلوى في قسماتهـا

البيضاء

هي بكل ما فيها، بكل خلاياها وانفعالاتها، بردائها الأسود الأنيق، بغطاء رأسها، بتلك «الطاقية» السوداء الجميلة ذات «الطرة» المدلاة إلى ناحية تلامس أذنها ورقبتها وتداعبها، وهي بكل الهالة الحيوية الساحرة التي تحيطها، هذا كله لا يمكن أن يبدو من امرأة إلا لرجل قد وقع عليه اختيارها.

والمهم أني لم أرها على حالة واحدة أبداً. كان شكلها يتغير على الدوام في نظري، ويبدو لي وجهها في كل دقيقة وجهاً آخر أجمل وأحلى. حتى بريق عينيها كان يتغير في كل ومضة أو نظرة، وكنت مذهولاً أحاول عبثاً أن أحتفظ لها بصورة واحدة. ولكن ألوانها تختلط بألوان، وبياضاً في احمرار دائم متغير، وسواد ثيابها يشع غموضاً حبيباً يلفها ويلف الوقفة واللحظة، ووجهها مرة أراه وجهاً أعرفه وأحفظه، ومرة أراه وجه ملكة من ملكات التاريخ، وجه إلهة من آلهة اليونان، أو جنية من جنيات الأساطير وأحياناً وجهاً جديداً تماماً أراه لأول مرة في حياتي.

كان الثابت الدائم هو إحساسي أن تلك الإنسانة التي لا تستقر صورتها في خاطري لحظة لي.. ملك خواطري.. أنثاي، كل هذا التغير والتبدل من أجلي أنا.

وكانت تتحدث والضوضاء كثيرة، وكانت ترفع فمها إذا تكلمت ليكون قريباً من أذني، ومني. وكنت أسمعها وألتهم كلماتها، وألتهم معها إحساسي بأنها لا تتحدث لي ولكنها تناجيني.. إحساسي أنها أصبحت جد قريبة وأصبحت راضية وما علي سوى أن أمد يدي وأقطفها. فأحدثها أنا الآخر،وأعصابي قد وترتها إشعاعات جسدية صادرة عن قربها مني ولولا الناس والمكان لما استطعت المقاومة.

وحين كنا نتجول خلال الاستراحة، قابلت سانتي زوجين يبدو أنهما

كانا على صلة ما بها. لم يكونا عجوزين ولـم يكـونا شابيـن، وعرفتني بهما، وقالت الزوجة بعدما تعارفنا بانبهار:

ـ أنت طبيب حقيقي؟

قلت:

ـ طبعاً.

قالت:

ـ لا تؤاخذني، ولكنك تبدو صغير السن جداً على طبيب.

فقلت وقد ملأني كلامها نشوة، أو بالدقة ملأني ذلك الكـلام علـى مسمع من سانتي نشوة حبيبة، قلت:

ـ وماذا تقولين لو عرفت أني تخرجت من سنوات ثلاث أيضاً؟

ورمقتني السيدة لحظتها بنظرة ما زلت أذكرها، نظرة أنستني ابتسامتي المعوجة وملامحي غير المنسجمة.. تلك النظرة التي تقولها المرأة بعد ما تكون قد تخطت السن وتقول بها للشاب: ليتني أصغر أو ليتك أكبر.

وحين انتهت الرواية هبطنا السلم معاً، وعند نهايته ودعتني سانتي. ورحت أحتج أنا وأطلب منها أن أوصلها، ولكنها أخبرتني أنها ذاهبـة مع زوجها الذي يعزف مع الفرقة الايطالية كلما حضرت الى القاهرة. ودهشت قليلا، ولكن نظرتها وهي تودعني سلبتني دهشتي وملأتني بالسعادة. كانت نظرات من تودع إنساناً حبيباً لتأخذ طريقها إلى حياتها الخالية من الأشياء الحبيبة.

أقول دهشت قليلا لأني أعتقدت ربما أول مرة قابلتها فيها، أن من غير المعقول أن تكون علاقتي بسانتي علاقة بسيطة من تلك التي تنشأ بين أي شاب وأية فتاة، والظروف التي أحاطت بتعارفنا لم تكن تكفـي لإعطـاء

صبغة خاصة لتلك العلاقة. كان شعوري الداخلي يؤكد باستمرار أن هناك شيئاً ما لا أعرفه عن سانتي، ولكنه مهم جداً بالنسبة لعلاقتنا. وكنت أتوقع باستمرار أن يكون شيئاً خارقاً للعادة. ولم أتوقع، بل لم يطرأ موضوع كهذا على أحاديثنا. لم أسألها إن كانت متزوجة ولم تسألني. كنت أستنكر هذا السؤال علينا ولها كل مؤهلات الصغيرات وقلبهن الخالي.

دهشت قليلا لأني أخيراً عرفت بشكل قاطع ذلك الشيء الذي توقعته دائماً، وعرفته بطريقة بسيطة حتى كدت لا أتبينه. سانتي إذن متزوجة ولها زوج يعمل عازفاً في الفرقة الموسيقية ويوصلها في ذهابها الى الأوبرا وعودتها. لماذا لم تخبرني قبلا؟ ولماذا فاجأتني الليلة؟ أسئلة لم تدر في عقلي إلا متأخراً جداً، بعد ما عدت من الأوبرا واستهلكت تأملي لكل ما أحسسته من متع وبدأت أتهيأ للنوم. أسئلة لم آخذها أبداً مأخذاً جدياً ولا ناقشتها على اعتبار أنها مشكلة بالغة الخطورة قد تلغى علاقتنا مثلاً أو تحيلها إلى علاقة من نوع آخر. فلتكن متزوجة أو أرملة، فقد عرفت هذا بعد فوان الأوان. وحتى حين عرفته ماذا بيدي أصنعه؟ أنا لا أريد منها شيئاً لا ترضاه هي. أنا لا أريد اختلاس حق زوجها. وأنا لا أريد منها أي شيء بالذات. حتى هي نفسها كان واضحاً أنها لا تفعل شيئاً من وراء ضميرها أو خلقها، فلماذا أجعلها أنا محط الانتظار؟

ونمت.

وثاني يوم جاءت سانتي.

كانت الساعة قد تعدت الثالثة والنصف، وكانت أم عمر في المطبخ تعد الغداء وتغني بصوت أجش نائح أغنية صعيدية حزينة، وكنت جالساً في حجرة المكتب وحيداً أتثاءب وأسترخي بعد ساعات العمل الشاقة وأستعد لتناول الطعام أو لمجيء سانتي. كفت أم عمر عن الغناء ووضعت

كمية من «السبانخ» التي كانت قد انتهت من إعدادها في طبق، وكمية من الأرز في طبق آخر، وأعدت المائدة الصغيرة التي في الصالة، وأخيراً نادت علي وقالت:

ـ كل يا بوي بالهنا والشفا.. والله طبيخي يا سي يحيى ما يطلع من تحت ايد الخواجات.

وقمت وأنا لا أزال أتثاءب وأعرض على أم عمر أن تتزوجني بالمرة ما دامت تجيد الطهي. وقالت أم عمر:

ـ يه يا بوي! يا عيب الشوم دا انت اسم الله على مقامك من ولادي.

والغريب أنها كانت تأخذ دائماً عروضى للزواج منها مأخذاً جاداً حتى لو قلتها وأنا أخرج لساني وأضحك.

وما كدت أبدأ تناول الطعام حتى دق جرس الباب، وفتحت أم عمر وشهقت وقالت: المزمازيه يا بوي.

ودخلت سانتي ضاحكة. ووقفت وقابلتها ضاحكاً أنا الآخر، عازماً عليها بالغداء. وفوجئت بها تقبل وتوقعني في حيرة عظمى، فلم تكن شقتي مجهزة بأدوات طعام تليق بها أو بأي إنسان آخر سواي. ثم ان الطعام نفسه لم يكن يصلح ليقدم للضيف فهو طعام شاب أعزب يتناول مرتباً لا يزيد على العشرين جنيهاً إلا بضعة قروش. قبلت سانتي وجلست تأكل معي وأنا خجل أردد تلك الكلمات التي نقولها لنعتذر بها في لهجة مهذبة عن فقرنا وحاجتنا.. اعتذارات هدفها أن نبدد عن أنفسنا فكرة الحاجة والفقر. ولكنها مضت غير عابئة بكلامي تأكل بشهية متفتحة وتثنى على طهي أم عمر الواقفة قريباً منا كالديدبان الحارس، المتلهفة على رأي الخوجاية في طهيها، القائلة بعد ما ترجمت لها ذلك الرأي.

البيضاء

ـ بالهنا والشفا يا بوى. . والله يا سي يحيى البنت دي طيبة وباين عليها العز، إنما مش عارفة خايفة عليك منها ليه يا بوي. . ما تزعلشي أهو كلام من كلام خالتك أم عمر الفارغ. . بالهنا والشفا يا بوي.

وفي الواقع لم يكن هذا أنسب وقت لكلامها الفارغ، فقد كنت غارقاً فيما أنا فيه من حرج، وفي عشرات الأسئلة التي مضت تحوم في عقلي عن سانتي وكنهها ومن هي وماذا تعمل وما هي حكاية زواجها ذلك؟

وانتهى الطعام.

وجلسنا ندخن السجائر ونحتسي القهوة، وهمي كله أن أراقب سانتي وهي تدخن السيجارة وتأخذ الرشفات. ولا أعرف لماذا ننظر الى المرأة وهي تدخن تلك النظرة الغريبة التي يختلط فيها الاعجاب والدهشة والاستحسان ببعض الاستنكار أيضاً. ما أعرفه أني كنت أتلهى بمراقبتها عن الأسئلة الكثيرة التي تتزاحم على لساني لتنطلق وتجد إجابات شافية مقنعة لها. كانت متناقضات كثيرة غامضة تكتنف سانتي. كانت أحياناً تبدو وكأنها غنية غنى فاحشاً، وأحياناً في زي الكادحات. كانت تتحدث بالعربية في انطلاق من يعرفها أحياناً، وأحياناً لا تعرف معنى أبسط الكلمات. كانت تقول إنها تعمل ولا يبدو عليها أنها تعمل أو أن هناك حاجة تدفعها للعمل. وبالأمس عرفت بشكل قاطع أن لها على الأقل زوجاً،ومع هذا فلم تذكره مرة واحدة في حديثها معي ويكاد لا يبدو عليها الزواج، وها أنذا أتأكد الآن أن هناك دبلة في يدها اليسرى كأن ما رأيتها قبلاً.

أسئلة كنت أمنع انطلاقها وأمنع حديثنا أن يقترب منها، مخافة أن تأتي الاجابة عليها أو على أحد منها بعقبة ضخمة تقف بيننا وأوجدها أنا بحب استطلاعي الغبي، لماذا أسألها؟ ولماذا أحاول معرفة أي شيء أكثر من أنها هنا معي، جاءت من أجلي وجالسة تتحدث إلي؟

ولكن الأسئلة التي منعت لساني أن ينطلق بها لم أستطع أن أمنع سانتي من أن تقرأها مرتسمة بكل تفاصيلها فوق ملامحي. لا بد أن هذا ما حدث، ولا بد أنه السبب في ذلك السكوت الذي وجدناه قد خيم على جلستنا، وفي الخجل القليل الذي اعترى سانتي وهي تقطع السكوت وتقول:

ـ لعلك لم تدهش حين عرفت أني..

وتوقفت عن الكلام.. ورسمت تساؤلاً ضخماً على ملامحي فمضت تقول:

ـ أني متزوجة.

قلت وأنا أضحك وكأني أتحدث عن شيء آخر:

ـ أبداً، لم أدهش.

ولكن بعد قليل وجدت نفسي أعود للضحك فجأة وأقول:

ـ الحقيقة أني دهشت. فلم يكن يبدو عليك.. إنه شيء لا يستطيع الإنسان تصديقه بسهولة.

قالت:

ـ ومع هذا فأنا حقيقة متزوجة.

ولم أجد في نفسي أية رغبة لمواصلة الحديث، ولكني خفت أن يحل الصمت بعد كلامها السابق مباشرة فتخجل ويصيبها الحرج فمضيت أسألها بلا اهتمام كبير عن زوجها وعمله. وقالت لي أشياء كالتي نقرأ عنها في القصص. قالت إن عائلتيهما موزعتان على مصر وقبرص واليونان وانها هي شخصياً ولدت وعاشت في مصر ولم تذهب إلى الوطن الأم إلا مرات قليلة ولفترات لم تتعد الشهور، وإن أباها كان متجنساً بالجنسية

المصرية، ولكنه فضل أن تنشأ هي على الجنسية اليونانية، وإنه كان يملك أطياناً كثيرة في الفيوم باعوا معظمها بعد وفاته واشتروا بها مكتبة كبيرة وسط البلد، وزوجها كان معها في المدرسة وتزوجته رغم معارضة أمها، وأنه تخصص في الهندسة البحرية وقضيا عاماً متزوجين، ثم في أثناء احتفالهما بعيد الزواج الأول صارحها بأنه يريد الانضمام الى حركة التحرير القبرصية، ولكن مشاكل حزبية وتنظيمية حالت بينه وبين الانضمام. وهكذا قنع بالبقاء في مصر على أن يقوم بجمع أكبر كمية من التبرعات ويرسل بها الى «أيوكا» ولكنها تخالفه بشدة في الرأي، وترى أن اليونانيين المقيمين في مصر عليهم اذا أرادوا الكفاح أن يساعدوا المصريين فهم الأولى بالمساعدة والأجدر.

قصة غريبة بدأت أسمعها وأنا غير مصدق، وحين انتهت منها كنت لا أزال غير مصدق أيضاً. أكثر من هذا كنت لا أريد أن أشغل نفسي بفحصها وتمحيصها والتأكد منها. ومن يدري قد أصدقها حينئذ، ومن يدري أيضاً أي موقف حرج أجد نفسي به بعد تصديقها؟

أخذتها اذن مأخذ الحديث العابر الذي لا يحتاج لأي تعليق. الحديث الذي يقال بغير اهتمام ونسمعه بلا اهتمام أيضاً، وحاولت جاداً أن أغير من نظرتي لسانتي بعد سماعي ما قالته. . حاولت أن أنظر اليها من خلال تلك المعلومات الجديدة منها ففشلت، ظلت في نظري هي هي لم تتغير، الفتاة النحيلة الجميلة التي أجد نفسي منجذباً اليها بقوى أكبر مني ولا أملك إلا طاعتها.

وأحببت أن أغير حينئذ مجرى الحديث فبدأنا نتكلم عن الأفلام المعروضة، وقالت سانتي إن في سينما ميامي فيلماً فرنسياً رائعاً.

وكنت أغير مجرى الحديث وكلي خوف أن يكون ما قالته ـ وان لم يؤثر في أنا ـ قد أثر فيها هي وغير من نظرتها لي ومن انجذابها نحوي، فقلت وأنا أضع الخاطر موضع الاختبار وأضع يدي على قلبي مخافة النتيجة:

ـ هل تقبلين دعوتي لرؤيته؟

وفي الحال وبلا أي تردد وجدتها تهز رأسها علامة القبول. وشككت في تلك الموافقة السريعة وعدت أكرر الدعوة وعادت تقبل. واتفقنا. واعتذرت عن عدم إمكانها أن تذهب في حفلات الليل ولم أسألها لم واتفقنا على أن يكون الموعد يوم الأحد في الساعة الثالثة أمام سينما ميامي.

وكان بيننا وبين الأحد عدد من الأيام.

وكان ثمة عيد قد أقبل، وكان عليَّ أن أسافر الى بلدتنا. فشيء مقدس أن يعود أبناء القرى الذين استوطنوا المدن الى قراهم في الأعياد. إنه الشيء التقليدي الخافت الذي ترعرعوا ونشئوا في كنفه.

والواقع أني قد بدأت أشتاق للبلدة ولعائلتي ولآلاف الأشياء التي غادرتها هناك من صغري، ذلك الشوق الذي أعرف أن ساعة واحدة أقضيها في القرية تكفي لإطفائه. إذ ما أكاد أهبط من القطار وتطالعني الأشجار التي أعرفها، والنخيل الذي كان قبل أن أوجد ولا يزال في مكانه من يوم وجدت، والبيوت الرمادية الداكنة التي أعرف عن قاطنيها كل شيء. ما أكاد أعود مرة أخرى الى ذلك الهدوء الممدود الذي يرقد ريفنا في قاعة، وما تكاد أذناي تستريحان من الطنين الذي لا ينقطع في المدينة وأهبط الى المكان الذي لا ضجة فيه ولا طنين، بل الهدوء الحافل الكبير هدوء يغري بالهدوء ويثبط الهمم. ما أكاد أطالع كل هذا حتى أبدأ أتناقض

مع نفسي. . فنحن نسير في المدينة بسرعتها القاهرة المجنونة، ولكننا هناك في تلك الأرض الواسعة غير المحدودة نحبو، بل نقف في أماكننا لا نسير. وما نكاد ندرك أننا وقفنا وأن سرعتنا هبطت الى العدم حتى نبدأ نحن الى الطنين والجرى والحركة الهائلة الدائمة التي لا تكف ولا تسكت.

سافرت الى البلدة إذن، وطالعني كل ما أعرف سلفاً إنه سوف يطالعني، ومع هذا فللقائنا بالقرية فرحة كفرحة رؤيتنا لصورنا ونحن أطفال، ولخطنا أيام أن كنا تلامذة في ابتدائي وثانوي. وقوبلت بما تعودت أن أقابل به. . جرى أخي الصغير حين رآني من المحطة وعانقني والتف حول ساقي، ثم انفلت وانطلق يعلن الخبر لأبي وأمي وبقية إخوتي. وقبل أن أصل إلى الباب كان الباب يزدحم بمظاهرتهم الحافلة الفرحة الصغيرة، وأنا حائر أعانق من وأسلم على من؟ أكاد أبكي من فرط انفعالي وخجلي وتأثري! ودائماً افتقد أمي في تلك المظاهرة وأعرف أنها كالعادة غاضبة عليَّ لأي سبب أو للا سبب، وإنها جالسة متناومة أو متمارضة، ولا بد لي أن أذهب وأقبل رأسها فتنفر مني، وأعود أقبل يدها فتسحبها بوجه صارم تحاول صاحبته أن تمنع أي بادرة انفعال ان ترتسم عليه. وأفعل هذا كله بحكم الواجب والعرف والتقاليد وبلا أية رغبة حقيقية في فعله؟ فأنا لم أكن حريصاً على إرضائها مثلما كانت هي الأخرى غير حريصة على إرضائي. علاقتنا كانت غريبة في بابها منذ صغري ودوناً عن بقية إخوتي، فلا هي علاقة حب ولا علاقة كره. كنت ابنها الثالث، خلفتني وقد بدأت تضيق بزواجها بأبي، وجئت شبهه. وبكل عنفوان الفلاحة الفتية ذات الخمسة والعشرين عاماً عاملتني وربتني. . بكل الخشونة والغلظة والجفاف، وكنت طفلاً ساكناً حساساً سرحان روعتني معاملتها لي إلى حد أنها أربكتني وجعلتني أخاف أخطائي إلى الدرجة التي أتردى دائماً فيها. وبالعصا والأقلام والشلاليت كانت

تواجه أخطائي، وبالرعب كنت أواجهها. . رعباً ملك عليَّ كل طفولتي فلم أجد معه وقتاً أو جرأة أسأل فيها نفسي: ترى هل أحبها؟ أسأل نفسي لم أكن في حاجة لسؤالها عن كنه عواطفها نحوي. فعواطف الآخرين نقيسها ونحن أطفال من زاوية واحدة فقط زاوية حنانهم. الحنان عندنا يعني كل شيء، يعني الحب والخير والطيبة. والغلظة تعني كل شيء تعني الكره والشر والتوحش. وأنى لي وأنا في تلك السن الصغيرة البعيدة أن أدرك أن حنانها هو الذي كان يدفعها لإمساك العصا وتوجيه الصفعات.

كل الذي حدث أنني نشأت أخاف منها ونشأت تخوفني، وبيننا كل ما بين الخائف والمخوف من توتر وحرج وحساب عسير. وانتقل الوضع نفسه الى علاقاتي بكل من عرفت غيرها من النساء. أكره الضعيفة وأشمت في القوية حين تضعف، وبيني وبين الضعيفة والقوية والجنس كله صراع لا أعرف متى ينتهي ولماذا أنا سائر فيه؟ ولماذا أنا حائر مشتت بين رغبتي الشديدة فيهن وخوفي الطاغي منهن وعدم اطمئناني الى أية علاقة قد تنشب بيني وبينهن؟ عدم اطمئنان مرجعه لا بد الى أني كنت أشك في أحيان كثيرة بعلاقتي بأمي. . أشك إن كانت أمي حقيقة فلم أكن أبداً أحس أنها أمي، حتى وأنا أميل عليها لأقبلها حين كبرت وأرى التجاعيد في وجهها والشيب في شعرها كنت أكاد أفيق لنفسي وأقول: ترى أهذه حقيقة أمي ؟

ومن يشك في أول علاقاته بالناس وأقربها ـ العلاقة الغريزية التي لا تقبل أي تساؤل أو عدم تسليم ـ له العذر لو تشكك في أية علاقة تنشأ بينه وبين أي إنسان. فإذا كانت الظروف قد دفعته لأن يتساءل: أهذه أمي؟ فمن باب أولى أن يظل يتساءل: أهذا صديقي، أتلك حبيبتي، أهذه زوجتي؟ وقد يقضي حياته كلها يسأل ويمضي عمره دون أن يجد

البيضاء

الجواب، ولكن النتيجة أنه حتماً سيظل وحيداً محاطاً بالشك في نفسه والشك في الآخرين، بالخوف منهم وتخويفهم، بسور من جهنم الدنيا المريع.

كنت دائماً أفتقد أمي في مظاهر الترحيب بي، ودائما أذهب وأصالحها، ودائماً تقبل صلحي على مضض. وكنت ما أكاد أصبح في قلب بيتنا. . البيت المهدم ذي الطلاء الأبيض المصفر المتهالك والكلب العجوز، والحوش المهمل. . ما أكاد أصبح وحولي كل هذا حتى أفيق، وكأننا نحيا في المدينة في حلم طويل لا نفيق منه إلا حين نعود إلى قرانا. وهناك نجد الحقيقة، هناك ندرك أننا فقراء مطحونون نتستر بالحيل لنعيش. إننا في المدينة نحاول أن نبدو كأهل المدينة. ولأننا لسنا منهم، لأننا فلاحون نحاول أن نبزهم ونتفوق عليهم في ملبسهم ومعيشتهم، وكأنما لندفع تهمة الفلاحين عنا. حتى إذا عدنا وجدنا حقيقتنا الجرداء، وجدنا أصلنا وأقاربنا وجلابيبهم الرثة المرقعة وإخوتنا الحفاة وأمهاتنا، وهن يدارين البيضة ويبعنها للصرف على بيوتنا. حين نعود نجد هذا، ونجد نفس المشاكل التي غادرناها لا تزال قائمة ولا تزال بغير حل ونفس الكلمات والمجاملات التي من كثرة ألفتنا لها مججناها وأدركنا من زمن بعيد أنها لا تعني شيئاً على الاطلاق. حين نعود ونجد هذا كله نحس أننا هبطنا من سموات أحلامنا إلى الأرض العارية. . الأرض التي تبدو لنا المدينة منها كعالم جميل مفقود أفقنا منه لنبدأ نؤنب أنفسنا ونعجب من تصرفاتنا. كيف كنا نجرؤ على صرف الجنيه بكل تلك البساطة، والجنيه هنا شيء ضخم كبير ممتنع كنجوم السماء. الجنيه هنا حياة كاملة، ثروة وضياعه مصيبة وحادثة قد يظل صاحبها يذكرها حتى الممات.

ما أكاد أصبح في قلب بيتنا حتى أفيق وأحس أنني مجرم آثم يلهو في

المدينة وأهله هنا حفاة عراة غلابى طيبون. . ينظرون له وكأنه إله، وكأن قوة خفية قد رفعته عنهم وفضلته عليهم. يرون أنه لم يعد منهم، أصبح أفندياً يحجبون عنه ـ وهم أهله ـ أسرارهم ويحاولون إخفاء ما بهم من عيوب، يعاملونه وكأنه لم يعد ابنهم أخذته المدينة منهم وأصبح ابنها هي.

وحتى حين أفيق وأندم وأحس بجرمي لا أستطيع أيضاً أن أفعل شيئاً وكأنما لعنة حلت بي وغيرتني إلى الأبد. كل ما أحسه أني بين قوم غرباء أتفرج عليهم ويتفتت قلبي من أجلهم، ولكني أدرك أن قد أصبح بيني وبينهم شيء، أصبحت أمت إلى عالم آخر مختلف تماماً عن عالمهم ودنيا غير دنياهم. دنيا أحس خجلاً شديداً منها وأنا في دنياهم، أحس بالمدينة والحياة فيها كأنهما معصية كبرى ارتكبتها ومواظب على ارتكابها ويبدو أنني لن أتوب، ارتكبتها حين انسقت وراء أهلها أتطبع بطبائعهم وآكل مثلهم وأحيا حياتهم. .

ما من مرة كنت أعود فيها إلى بلدتنا إلا وتنتابني أحاسيس كتلك. . أحاسيس تخف وطأتها وأتعود عليها عاماً بعد عام. وفي تلك المرة أيضاً كانت تحفل بها نفسي وأنا جالس وحولي عائلتنا أستقبل أقربائي وأصدقائي الذين جاءوا يهنئونني بالقدوم، وأنا أعيد على الناس والناس تعيد علي وحتى وأنا أحاول المحاولات اليائسة الأخيرة للفوز برضاء أمي ودعواتها، ووجهها جامد لا ينفك أحاول أن أقرأ فيه بادرة حنان واحدة تعزيني عن الحنان الذي افتقدته وأنا صغير فلا أجد، تماماً كما ظللت أفعل من سنين وأفشل، ويدفعني الفشل إلى البحث عبثاً عن الحنان في إخوتي وأبي، فأجد بعض العزاء،ولكنني لا أجد الحنان كله، فحنان الأم يبدو أنه كلبنها لا يقوم مقامه بديل. ومن لم يذقه من المؤكد أنه سوف يظل

يبحث عن طعمه لدى الناس أجمعين، ومن المؤكد أيضاً أنه لن يعثر له على أثر أو بديل.

لم تتعد الأيام التي قضيتها في البلدة يومين أو ثلاثة، وطوال تلك الأيام كانت سانتي تحيا معي باستمرار. كنت أنظر إلى أبي الطيب وأخوتي وأمي والفلاحين أبناء البلدة، وأرى التراب والمرض والفاقة والخراب وأقول لنفسي هناك.. في مكان ما من هذه الدنيا جنة صغيرة مخبأة لي.. هناك تلك الفتاة الحلوة ذات الاشعاعات.. هناك سانتي.

كنت أقارن بين ما أراه حولي وبين تلك الصورة السرية التي خبأتها في نفسي لا يعرفها أحد ولا تصل إليها عين إنسان. فأحس بالدفء، وكأنني أحتفظ برغم كل ما كنت أراه بكنز خاص بي لا تفتحه إلا كلماتي أنا.. كنز ساحر براق يملؤني بالغنى والسعادة ويرسل أنوار أمل في كل ما كنت أراه.. وكل ما كنت أراه كان يبدو لي خالياً تماماً من الأمل. وكل يوم يمضي وكل ساعة تمر تركز صورتها المخفاة وتلهبها وأحس بها أكثر وأرى فيها شيئاً غامضاً رائعاً جذاباً يهيب بي أنا أحيا، ويجعلني أجد للحياة مذاقاً وطعماً.. أجمل طعم ومذاق.

وكان يوم الأحد ثاني أيام العيد.

وثاني أيام العيد في الأرياف شيء مقدس كأول يوم فيه.

وكنت قد قررت وأنا في القطار وذكرياتي عن بلدتنا تحضرني وأشواقي إليها هائجة أن أضرب صفحاً عن ذلك الموعد مع سانتي لدخول السينما اذ كان لدي إجازة طويلة، ولم يكن هناك ما أفعله اذا قطعت الاجازة يوم الأحد وعدت إلى القاهرة إلاّ ذلك الموعد.

كنت قد قررت هذا لأن ليلة الأوبرا كانت قد أضفت عليَّ الطمأنينة

ودفعتني لأن أثق بنفسي وأؤمن أنها تمت لي وأنها آجلاً أم عاجلاً في طريقها إلي، وأن من الممكن جداً أن أقف في مكاني ولا أتحرك، أو حتى أخلف موعداً وأنا ضامن مائة في المائة أن هذا لن يؤثر في علاقتنا، بل قد يزيد من استمساكها بي.

وكنت قد قررت هذا وأنا في طريقي إلى البلدة، غير أن الأيام التي قضيتها هناك غيرت كل شيء.

كنت كلما رأيت الموت يغمر كل شيء من حولي، وكلما فزعت إلى صورة سانتي في خاطري وتلمستها في خيالي، ازداد إعزازاً لها ومبالغة في الحرص عليها.. وخوف بارد مجهول أن أفقدها. أودعتها كل بريق الأضواء في المدينة، وكل الحياة الملتهبة العنيفة التي يحياها الناس هناك. كل آيات النشاط البشري والذكاء والجمال أودعتها سانتي وتبلورت فيها - في تلك المدة القصيرة - كل أماني في حياة عريضة حافلة. وكلما رأيت الموت من حولي فزعت اليها، إلى الحياة كما أتصورها، إلى روح الحياة. وما كدت أطفىء شوقي إلى أهلي وذكرياتي وأصحو على واقع ريفنا العادي الرتيب حتى كنت أحن شوقاً إلى حركة المدينة، وحياتها وأضوائها وأحلامي فيها، والفتاة الجميلة الرائعة التي كانت تقف معي في الأوبرا بغطاء رأسها الاغريقي ذي «الطرة» وبريق عينيها، وشغفي بها وشغفها بي.

وما كادت تأتي ليلة السبت حتى كنت على أحر من الجمر قد قررت أن أسافر صباح الأحد لأوافي سانتي في الميعاد.

ولم يكن سهلاً أن أنهي القرار الى العائلة، وأصعب منه كان أن أواجه

البيضاء

رفضهم البات وأن أكذب كذباً واضحاً مفضوحاً وأختلق الحجج والمعاذير.

وتحول الرفض تحت وطأة حججي إلى الحاح، ثم تطرقت بهم طيبتهم الحبيبة إلى رجاء أن أقضي يوماً آخر مجرد يوم آخر.

وأخيراً سمحوا، فقد كانوا يعلمون أن رضاءهم أو عدم رضائهم لم تعد تسري على ابن المدينة، وكل يوم يزدادون اقتناعاً أنه لم يعد يمت إلى دنياهم.

وكم زحفت ساعات الليل ـ ليل السبت ـ بطيئة كئيبة.

وكم كان الشروق رائعاً جميلاً.

وتحرك القطار.

واعترتني نفس الغصة التي تعتريني كلما غادرت البلدة. غصة لكل ما اختلقت من أكاذيب، وخجل لأنهم صدقوا أكاذيبي، وشيء كقبضة تجثم على قلبي وتعتصره لإحساسي أني مدين بالكثير لهذه الأرض التي أغادرها ولهؤلاء الناس الذين أفر منهم، ولم أفعل لأجلهم إلا أقل القليل.

وكلما كان القطار يتقدم صوب القاهرة كانت غصتي تهدأ. فلم يكن القطار يقطع بي المسافة فقط، كان يقطع بي أيضاً مسافة نفسية، ويبعدني بسرعة عن ابن القرية المدين لها، الى ابن المدينة المذهول بأضوائها الضائع فيها الطامح يوماً أن يخضعها ويتحكم فيها.

غير أن القطار كان كلما اقترب من القاهرة ازداد خوفي.

خوفي على سانتي .

ولست أعرف كيف أقول هذا ،ولكن الأيام التي قضيتها في بلدتنا أثبتت

لي أن سانتي هي الشيء الوحيد غير الحقيقي في حياتي، هي الحلم الوحيد في حياة أحسن، الأمل وسط واقع جاف لا أمل فيه.

وقد كنت على استعداد لأن أبذر واقعي، ولكني لم أكن أبداً على استعداد لأن أفرط في أحلامي.. بل في حلمي الوحيد. وجعلتني تلك الأيام التي عدت فيها إلى واقعي البشع أتشبث بسانتي تشبث الغريق. وهكذا لم أعد ذلك الواثق الثابت المطمئن الذي وضع سانتي في جيبه ولم يعد عليه إلا أن يمد يده ويأخذها. خيل لي أنها ـ لسبب ما ـ قد ضاعت هي الأخرى كما ضاعت المدينة الوهم في قرية الواقع الرهيب.

وبدأت أخاف.

أخاف أن تكون قد ذهبت إلى الأبد وألا تأتي في الميعاد.

وإدمان التفكير في الشكوك يحيلها الى حقائق.

وبدأت أوقن أنها لن تأتي.

ويئست.

وهبطت من القطار.

كانت الثالثة إلا ربعاً.

وركبت «تاكسي» الى سينما ميامي.

ووقفت هناك.

وقفة اليائس.

لم يعد لدي أقل أمل في قدومها.

ومضت الدقائق وأنا غير حزين ذلك الحزن الذي تصورت حدوثه أكاد لا أحفل بمضيها، أكاد أتمنى ألا تأتي لأشقى وأتعذب وأشمت في الجزء الآخر من نفسي.. ذلك الجزء المتفائل الذي كان يؤكد لي باستمرار أنها لا بد قادمة ويسخر من مخاوفي وشكوكي.

البيضاء

وأصبحت الساعة الثالثة.

ونشب في نفسي جدل عنيف. آلاف الأشياء تؤكد أنها قادمة. وآلاف الأشياء تؤكد لي أنها ذهبت من حياتي إلى الأبد ولن تعود.

وأنا فرح لأني سأشقى وأحزن. وحزين لأني قد أفرح، ساخط على نفسي أشد السخط لأني تركت أبي العجوز وإخوتي وكل الناس الذين يحبونني وجئت لمقابلتها، راض عن نفسي لأني نبذت الواجبات الجوفاء وخرقتها وأقدمت على عمل أحقق به رغبة هي من حقي أنا وبجماع نفسي اريدها.

ومضت الدقائق، أتمنى أن تمضي سريعة لتوصلني الى اليأس وتريحني، ولكن أعود وأرجو أن تبطىء على قدر ما تستطيع حتى لا ينقطع خيط الأمل.

كان أمام السينما منتظرون آخرون. كان اليأس يخطفهم واحداً أثر الآخر حتى لم يبق سواي. واضطررت لأتلافى الأنظار أن أغدو وأروح أمام باب السينما وعيناي تفتشان شارع سليمان كله بحثاً عن فتاة صغيرة سريعة الخطوات، وجهها حلو صغير سريعة الخطوات فيه بسمة لا تنطفىء.

أروح وأجيء في خطوات كلها قلق وترقب وكأني طالب ينتظر نتيجة امتحانه الأخير، تبلغ به ثقته بنفسه أشدها أحياناً، وأحياناً تضعف وتتلاشى إلى الدرجة التي يكاد يمد يده فيها إلى المارة يستجدي منهم بعض الثقة في نفسه. تلك اللحظات التي تضع فيها آراءك وأحلامك لأيام طويلة موضع الامتحان وتتساءل :ترى هل كنت محقاً أم كان ما أحيا فيه وهم كبير؟

واقتربت الساعة من الثالثة والنصف.

٥٢٢

وظهرت سانتي.
كانت ترتدي جيب أسود وجاكيت من نفس اللون.
وأروع ما في الأمر كان غطاء الرأس الاغريقي.
نفس الغطاء الذي قلت لها إني أحبه، كانت ترتديه.

البيضاء

٥

عدت ذلك اليوم الى بيتي وأنا سعيد. . سعيد لا أريد أن أبحث أسباب سعادتي، أريد أن أبقى ما بنفسي مقفلاً ومختوماً كالخطاب الاتي من حبيب لا أتفحصه أو أستعجل معرفة ما فيه .

وبدأت أفكر.

وكم كنت غبياً أحمق.

لماذا لم أدع الأمور تجري كما تجري؟

لماذا بدأت أدبر وأرسم الخطط؟

كان كل شيء يمشي على ما أهواه له، وكنت سعيداً بتلك الأحاسيس التي اجتاحتني كلما قابلتها. وإذا وضعت يدها في يدي أحسست أنها تذوب في يدي. وإذا حدثتني أحسست أنها تعطيني نفسها. بلا أدنى تردد، وبكل إرادتها واختيارها. ذلك البريق الذي كان يشع من عينيها كلما تلاقت عيوننا كان أروع من كلام. بل حتى ما كان يدور بيننا من أحاديث لم تكن مهمة، فأحاديثنا في الواقع كانت تتحول الى موسيقى لا تهم مفرداتها كثيراً، فيتكلم الواحد منا ليخرج أصواتاً حنونة منغمة يرد بها على أصوات أخرى صاعدة من حنجرة عزيزة ثانية .

ولكني على أية حال بدأت أفكر. . خيل لي أن كلماتي وموسيقاي وضغطاتي لم تعد تكفي.

أحسست أن هناك ما يثقل صدري ولا بد من البوح به.

وليس معنى هذا أن قوى قاهرة تدفعني رغماً عني الى هذا العمل، بل الواقع بدأت أفكر معتقداً أن المسألة أصبحت في يدي، وأن عواطف سانتي تجاهي قد نضجت وأصبحت مستعدة هي الأخرى لتقبل حركتي تلك .

عدت الى البيت. . وأمسكت القلم وبدأت أفكر في خطة صغيرة غير بارعة لأنفذ بها ما أريد. ووجدتني أكتب مشروع قصيدة منثورة بالانجليزية.

لم أكن أعرف ماذا أريد أن أقول فيها وهل أكذب وأبالغ أم أتحفظ وألجأ الى الاشارة والرمز؟ لم أكن أعتقد أنني أحبها فعلاً وكنت أريد أن أتلافى ذكر أية أحاسيس متبلورة تجاهها. وكتبت بضع شطرات فوجدت أنهافاترة،وإني غير متحمس الى الكتابة واستحضرتها في خيالي لتلهب حماسي أو على وجه الدقة عدت مرة أخرى أحيا في تلك اللحظات التي كنا فيها في السينما.

دخلنا في الظلام، وجلسنا. وحين أضيءالنور في الاستراحة وجدت سانتي تحاول إخفاء رأسها في ياقة معطفها فقلت :

ـ أهناك شيء؟

فقالت همساً:

ـ أخشى أن يرانا أحد.

البيضاء

وتدفقت فرحة مفاجئة في صدري ، فمعنى كلامها أنها تدرك انها تفعل شيئاً لا يقرها الآخرون عليه، وهذا عين ما أريد. فقد كنت أحياناً أسأل نفسي: ألست مغفلاً؟ ألا تكون قد قبلت دعوتك للسينما كما يقبلها الصديق من صديقه؟ كلماتها تلك وهمسها وياقة معطفها حين ارتفعت وضعت حداً فاصلاً بين الصداقة ودعواتها وبين ما كنا فيه.

وطالت الاستراحة، كان كل منا يحاول بشكل تلقائي إخفاء نفسه عن الناس وعن الآخرين، وإذا التقت أعيننا صدفة تخجل ونشيح بأنظارنا ويعود الينا القلق والفرح الممزوج بالخوف الذي لا يدعنا نطمئن ولا يدع قلبينا عن دقهما العالي المتواصل.

وأنهيت القصيدة.

لم تكن صدقاً كلها ولا كلها محض خيال. في الواقع كانت تعبر بتردد عن إنسان يتردد في التعبير عن نفسه، وكانت مكتوبة على ورقة عادية جداً ومملوءة بالشطب والتعديل.

وجاءت سانتي ثاني يوم . . ولا أدري كيف دخلت في الموضوع ، وأظنني قلت لها في أواخر الجلسة أن أحد أصدقائي قد كلفني بكتابة قصيدة ليرسلها لفتاة أجنبية يعرفها، وحائر كيف يكشف لها عن ذات نفسه.

وحين قلت هذا ابتسمت . . ابتسامة بدت عادية ، ومع هذا كنت متأكداً أن ابتسامتها تعني أنها تعرف من الذي كتب القصيدة ولمن كتبت .

قلت :

ـ أقرؤها عليك ؟

قالت بلهجة لا انفعال فيها:

ـ اقرأها .

واستمعت اليها منكسة الرأس مصغية ، وحين انتهيت نظرت إليها لأرى وقع القصيدة عليها ،ولكن وجهها بقي لا ينفعل ، فقلت أستحثها :

ـ ما رأيك فيها ؟

قالت :

ـ كويسة . .

لم تقلها بالعربية ولكنها قالتها بكلمة انجليزية لا تعبر عن استحسان أو عدم استحسان ولا أي أحساس خاص بالمرة .

وقضينا ما تبقى من وقت في حركات لا تستقر . . أقف أنا وأتمشى وتقف هي وتبتسم ، وتأخذ كتاباً من المكتبة تقرأ عنوانه ثم تضعه وتعود للجلوس . ونبدأ نقاشاً حول موضوع ثم ينتهي منا ونقول أشياء كثيرة لا معنى لها ، وأحياناً يفلت الزمام ويلمح الواحد منا نظرة ذات معنى في عين الآخر فلا يجرؤ على مواجهتها . كان واضحاً أننا نريد أن نحافظ على وقارنا الاجتماعي . وكنت من ناحيتي أريد أن أثبت لها أن القصيدة فعلاً ليست لي ، وكانت هي الأخرى تريد أن تؤكد أن كلامي صحيح وأني حقيقة لا أعنيها .

ودخنا يومها كثيراً .

وكانت لسانتي طريقة في التدخين تعجبني . . كنت أشعل لها الكبريت فتمد فمها الدقيق وفيه السيجارة وتجذب نفساً ، ثم تلتفت الى الناحية الأخرى وتنفثه بينما وجهها يحفل باحتقان وردي مفاجىء يزغلل العينين . ونظل نطفىء السجائر ونشعل غيرها الى أن تستأذن سانتي وتعلق حقيبتها في كتفها وتمضي .

البيضاء

وأعود الى أفكار قلقة لا تستقر ، وأسئلة كثيرة تريد إجابات أكثر ، وكل إجابة تثير أكثر من سؤال ، وحقائق تختلط بأوهام ، وأوهام تتجسد على هيئة حقائق ، وأنا مضطرب سعيد كل مرادي أن يتوقف العالم عن المسير وأن أقضي ساعات وساعات أحيا في تلك الدوامة الهادئة التي تدغدغ وعيي وأعصابي .

وكنت أعرف أنها لا بد قادمة في اليوم التالي ،وكنت قد اتخذت قراراً . . أن أمضي خطوة أخرى ، فقد لاحظتها جيداً وأنا أقرأ القصيدة ولاحظتها أيضاً بعد قراءتها ، وممكن أن أقول إني شاهدت على ملامحها وفي تصرفاتها كافة الانفعالات، الخاصة بالإنسان ما عدا الاستنكار فلم ألمحه أبداً . . وما دام تصرفي ذلك لم يلق استنكاراً أو إعراضاً فماذا يمنعني أن أخطو خطوة أخرى وأقول لها كل شيء بصراحة ؟

وكانت الساعة العاشرة . . وجلست الى المكتب وبدأت أكتب . ولا أذكر على وجه التحديد ماذا قلت في ذلك الخطاب ، ولكني أذكر أني كنت محموماً منفعلاً وكأني أقوم بأهم وأخطر عمل في حياتي . كانت الفكرة التي أريد قولها مبهمة غير واضحة المعالم في خيالي ، والكلمات أمامي كثيرة لا رابط بينها ولاضابط. وتركز همي أول الأمر في الدقة التي يجب عليّ أن أختار بها الكلمات ، وفي وجوب اختيار الأساليب الموحية ذات المعنى الظاهر المباشر والمعنى الذي قد يخفى ، وكنت أفعل هذا بتعقل وبلا أية عاطفة . . غير أن عملية الكتابة نفسها جعلتني أفكر فيها ، وبدا سيال خفي دافىء ينبع من مكان ما من نفسي ويأخذ طريقه الى قلمي . . سيال بدأ هو الذي يختار الكلمات وينظمها ، كلمات لدهشتي كانت تخرج دافئة حنونة فيها كل ما أصبح لنفسي من دفء ورقة وحنان . وما

لبث السيال الدافىء أن تحول الى فيضان عارم، ووجدتني أنفجر وأقول كل ما أحسه دون مواربة أو تدخل أو خجل .

سردت عليها تاريخ علاقتنا القصيرة، وقلت لها إني أعرف العقبات كلها والمحرجات . ولكنني أصبحت في حيرة بين ما أحسه ناحيتها وما أخفيه عنها ، وهي وحدها القادرة على إنقاذي من حيرتي. .

وكنت أكتب بالانجليزية، وحتى في حديثي العادي لم أكن ذا باع طويل فيها ، ولكنني أعجبت فعلاً بالخطاب بعد قراءته ، وتخيلتها وهي تسمعه، ورحت أحلم. فمن يدري ربما دوخها الخطاب وأثر فيها الى درجة تنسى معها كل شيء فتبكي وتصارحني بحبها ؟ من يدري ربما سلبها الخطاب إرادتها تماماً ونومها ذلك التنويم المغناطيسي الذي أريد لتصبح طوع يدي أصنع بها ما أشاء ؟ أصبح الخطاب هو المعجزة التي ظللت أحلم بمفعولها السحري طوال نوم قصير مضطرب. وفي الصباح وأنا خارج ـ وقد تجاوزت الساعة التاسعة والنصف ـ الى عملي مسرعاً خائفاً قلقاً، ألقي نظرات ضيقة موتورة على أصحاب الدكاكين المتراصة في مدخل المنزل ، كنت أوكد لنفسي مرة أخرى أن حياتي تلك لم تعد تصلح لأحلامي. حياتي بادئة بهذا البيت الذي أسكنه والذي لم أرتح اليه مطلقاً من يوم أن انتقلت إليه . . كان صاحبه تاجر أخشاب أو سمك لا أعرف، وكان قصيراً له كرش واضحة المعالم كمن ابتلع بطيخة واستقرت الى الأبد في جوفه، وله عين حولاء صغيرة وعين أخرى أصغر منها بطريقة تدرك معها أن إحداهما لا بد صناعية ولكنك لا تستطيع أن تحدد أيهما . والظاهر أن تلك كانت أول مرة يبني فيها بيتاً ويدخل طبقة أصحاب العمارات ، إذ كان قد طبع عقود إيجار خاصة به ، وكتب فوق العقد بخط

البيضاء

عريض : « عمارات وعقارات فلان » وكلها عمارة واحدة هي تلك التي ساقني الحظ لسكناها . وفي عقد الايجار أكثر من مائة شرط لم يرد ذكرها في أي عقد من قبل أو من بعد، وكلها حقوق للطرف الأول صاحب البيت لدى الطرف الثاني أنا ، وملحق بها قائمة بالممنوعات منها مثلاً : ممنوع نشر الغسيل إلا بين الساعة الخامسة والسابعة مساء . وخلال المرات القليلة التي قابلته فيها كان يبدو مسروراً من سكني عنده أنا الطبيب، وكان يحدثني باستمرار عن ابن ضابط له ،ويقول عنه الكابتن سعيد، وكيف قد حدد له هو ماهيته الشهرية فوق ماهية الحكومة ، وحين تمت العمارة وانتهت وبدت جديدة أنيقة بالقياس الى عمارات الشارع القديمة المتآكلة كان لا يحضر إليها إلا وقد ارتدى بدلته الكاملة وطربوشه، يحيي أصحاب الدكاكين الجدد بترفع، ويحيي باحترام زائد ويقف معظم الوقت يتفرج على العمارة . وأحياناً ينتقل الى الرصيف المقابل أو النواحي المجاورة ليتأملها من مختلف الزوايا والأبعاد.

وكان واضحاً أن بدلته جديدة أيضاً ، بل أكثر من هذا أنها أول بدلة يرتديها في حياته ، فقد كان، يحاسب عليها أكثر من اللازم ويعني بارتدائها وبأكمامها وبخطواته فيها أكثر من اللازم أيضاً ! وفي تلك الأيام كان يبدو سعيداً جداً كمن حل جميع مشاكله ، أغلق « الدكان » الذي كان يخجل منه ابنه الضابط ويمنع العرسان عن بناته ، وبنى العمارة وارتدى البدلة ، وأصبح كأي مالك محترم بلا عمل إلا أن يأتي كل شهر ويحصل الايجار من السكان .

ولكنه لم يستطع أن يمثل دوره الجديد طويلاً، فبعد فترة بدأ يغير البدلة ويرتدي الملابس التي قضى عمره يرتاح فيها . . الجلباب الأبيض

والبالطو الأسود، ويجلس على كرسي عند واحد من أصحاب دكاكينه يعنف البواب ، ويشكو للجالسين معه من ضيقه بهذا التعطيل الاجباري الذي فرضه عليه أولاده . وحنينه الى وقفته في الدكان ولذة كسب القرش ، تلك اللذة التي لا تعادلها أي ألقاب أو بدل أو عقود إيجار مطبوعة .

وفي تلك الفترة تصادقنا، وقد لا يصدق أحد هذا ، ولكن خجلي منه هو السبب الوحيد الذي كان يدفعني للاقامة في تلك الشقة التي لا تحتمل . فالشارع أمامها حافل بالضجة التي تحرق الأعصاب. . ضجة عشرات من خطوط الترام والأتوبيس وآلاف عربات الكارو وزعيق الباعة والمارة والكلاكسيات وميكروفونات المآتم والأفراح التي تحدث بالتبادل وعلى الأقل مرة كل يوم . . ضجة تبدأ في الرابعة صباحاً ولا تنتهي قبل الثالثة من صباح اليوم التالي . ثم إن المالك ـ سامحه الله ـ لكي يستفيد أكبر فائدة من المساحة ، لم يجعل مدخل البيت على الشارع ولكنه صنع له ممراً بنى على جانبه دكاكين وقهاوي يحملق فيك أصحابها وروادها ويتفحصونك، ولا عمل لهم إلا النظر الى سكان البيت « إذ الممر لا يعبره إلا السكان » وإحصاء حركاتهم وسكناتهم . وسلم البيت أدهى من مدخله حافل بزبائن المستوصف وأقاربهم ومرافقيهم ، وحتى الشقة نفسها مع أنها جديدة ولكنها لا تعطي أي إحساس بالسكن أو الاستقرار . . شقة لا تصلح إلا لمكتب سمسار أو لمقر نقابة. وإذا كنت فيها وجرؤت على فتح نافذة دخلت لك منها زوبعة ضجة تكاد تقتلعك من مكانك ودخلت أيضاً رائحة الكبدة . . فالشقة تقع مباشرة فوق محل متخصص في قلي الكبدة والمخ وله مخزن بجوار السلم تماماً، مخزن مظلم تلمح من خلال ظلامه كتلاً هائلة من الكبدة لا تعرف لضخامتها الى أي

البيضاء

الحيوانات تمت . . كتل تلمع في الظلام وتملأ رائحة « زفارتها » البيت كله من الداخل ، وتهب رائحة قليها على النوافذ من الخارج . وأفظع ما في الأمر أن المطعم نفسه كانت له يافطة من النيون الأحمر والأخضر والأصفر ، وكان صاحب المطعم السني السمين يصر على تركها مضيئة طول الليل . . وليتها تضيء فقط ، انها تنطفىء وتضيء أوتوماتيكياً والنيون له أزيز مزعج ، فضلاً عن أنواره البشعة الفجة التي تظل تتوالى وتنير الحجرة وتظلمها حتى الفجر .

ومن يوم أن سكنت وأنا أحيا في تلك الدوامة من العيون المستطلعة والزفارة النيئة والمقلية التي تتابع رائحتها تتابع أضواء النيون المضيئة ويلفها جميعاً ذلك البركان من الضجة الذي يهدر في الشارع طوال ثلاثا وعشرين ساعة ، يتلوها ويسبقها أذان الفجر الذي يذاع بالميكروفون من مسجد سيدي أبي العلا ويحتل الساعة الرابعة والعشرين .

ورغم كل ذلك فقد كنت أحتمل حياتي في ذلك المنزل ولا أفكر تفكير جدياً في تغييره . شيء ما كان يجذبني الى هذا كله ويجعل ضيقي به لا يعادله إلا حبي له . لأمر ما كنت أحس أني في هذا البيت أحيا وسط شعبنا بكل عيوبه ومزاياه الى درجة أني كنت أخجل أحياناً من نفسي لهذا الكره الذي أكنه لأصحاب الدكاكين والقهوة والمطعم وهم يحيونني بحب ويتمنون محادثتي ويبدون استعدادهم لأي خدمة . . ولم لا أعترف أني كنت أحياناً أسعد بإقامتي هناك وأستمتع ؟ كان منظر الناس المزدحمين طوال النهار في الشارع ، المتراكمين أمام الدكاكين وعلى كراسي القهوة والخارجين من جامع أبي العلا والداخلين إليه والمقيمين حلقات الذكر حوله ، والسكرانين آخر الليل في الخمارات الكثيرة القريبة وفي « بوظة » بولاق الواقعة غير بعيد من الجامع . . كان منظرهم يأسرني ويملؤني

بإحساس غامر عجيب . وجوه مصرية رغم شحوبها وفقرها وقبحها لا بد تجدها حافلة بكثير من خفة الدم وسماحة الطبع ، وكلامهم مهما بدا مليئاً بالمبالغة والمغالطة والجليطة إلا أنك تحس به صادراً عن روح حلوة كالعجمية ، لا تشبع منها أبداً مهما خيل إليك أنك شبعت منها .

وعلى أية حال فلم يكن مسكني هو كل المشكلة ، فقد كنت أنتهي من عملي كطبيب لورش السكك الحديدية في الثانية ، وأتغدى ، وما أكاد أطبق جفوني حتى أقوم مهرولاً الى العيادة وأظل أعمل فيها الى التاسعة ثم أجري الى المجلة حيث أظل أعمل الى منتصف الليل ، وفي ليال كثيرة يمتد السهر الى الثانية وربما أكثر ، ثم أعود الى البيت لا لآوي الى الفراش وأنام ، ولكن لأكتب أو لأعيد كتابة موضوعات ومقالات وتحقيقات للمجلة ، وهناك قرب الفجر أنام على أن استيقظ كل يوم في السابعة وإلا حدثت كوارث وأهوال ! . . . وكم كنت ـ ولا أزال ـ أضيق باليقظة المبكرة ، خاصة بعد سهر حافل ممتد . . أنها عندي تعادل المرض أو الموت . . وطبعاً لم أكن أستيقظ من تلقاء نفسي ، إذ لولا صوت أم عمر الخشن الآمر، ولولا سواعدها القوية أحياناً ، لما صحوت من النوم في أي يوم من الأيام . واذا صحوت ، والمصيبة أني كنت دائماً أصحو، يكون أول شيء أفكر فيه أن أبتكر عذراً يعفيني من الذهاب الى العمل في ذلك اليوم، ويتيح لي نوماً هنيئاً الى الظهر وربما الى العصر. وكنت في الغالب لا أجد عذراً وجيهاً، فإجازاتي العرضية والمرضية والاعتيادية كنت أستهلكها أولاً بأول ،والأعذار التي قد تخطر وقد لا تخطر على عقل بشر استنفدها كلها ولا يبقى أمامي إلا أن أسلم أمري إلى الله وأقوم . أقوم الى عمل كنت أبغضه أشد البغض، فلم يكن عملاً، كان عملية تعذيب مؤلمة على أن أتحملها كل يوم . كان عملي الكشف على

العمال المرضى ومنحهم الاجازات، ولكن تسعة وتسعين في المائة من العمال الذين كنت أكشف عليهم كانوا أصحاء! والاجازات التي لم أكن أمنحها كانت توخذ مني رضيت أم لم أرض . وليتهم عامل أو عشرة أو مائة ، مئات العمال يبلغون كل يوم أنهم مرضى ويحولون للكشف، وهم يبلغون لا لأنهم يتمارضون أو لا يريدون العمل، ولكن لسبب آخر مضحك فالعمل كان يبدأ في السابعة تماماً ، فإذا تأخر العامل ربع ساعة يخصم منه ربع يوم كامل ، وإذا تأخر ساعة يخصم منه يوم كامل . ومعظم العمال كانوا يسكنون في أطراف القاهرة حيث المساكن رخيصة، والظاهر أن معظمهم أيضاً كانوا كطبيبهم لا يحبون اليقظة المبكرة فكان عدد كبير منهم يصل متأخراً ، وحينئذ يجد الواحد منهم نفسه مضطراً لأن يبلغ أنه مريض. فإذا ثبت هذا لا يخصم منه اليوم بسبب التأخير، ولكنه يعتبر إجازة مرضية بأجر . وعلى هذا كان معظم العمال يستهلكون العشرين يوماً حقهم في الاجازة المرضية طوال العام ، يستهلكونها في التأخير. . فإذا مرضوا وانقطعوا عن العمل فعلاً خصمت أيام المرض الحقيقي من يوميتهم ، ولهذا السبب كان المريض منهم يظل يعمل ولا يبلغ عن نفسه ، مخافة أن يمنح إجازة مرضية إجبارية تخصم منه .

كنت أذهب الى المكتب الطبي كل يوم فأجد أمامه وعلى سلمه ما لا يقل عن الأربعمائة عامل يترقبون ظهوري ترقب الملهوف من اليقظة وأحياناً يستغيبونني فتخرج منهم كشافة تنتظرني على الناصية وتعرفني بمجرد أن أطل من أول الشارع، فيتسابق أفرادها الى المكتب الطبي يبشرون الواقفين بقدومي ويخترقون الأجسام المتراصة بالعافية ليصبحوا قريباً من الباب، ويعم الجماعة كلها موجة اضطراب وزق وزعيق وسباب لا تسكت إلا حين أقترب فترتفع موجة من الترحيب المتحمس لي . .

وسع يا جدع لسعادة البيه . . اتفضل يا بيه . . ميت فل .

صباح نادي والنبي .

وأسمع همسات . . دا مزاجه باين عليه رايق النهارده .

ويعقب واحد: بيقولوا عليه صعب قوي، أما نشوف.

وينتهز الفرصة آخر فيقول بصوت عال يصلني: صعب ايه يا أخينا؟ والنبي دكتورنا ده أطيب واحد خلقه ربنا .

ومهما كان الازدحام فلا بد أن يصنع لي أخدود كأخدود موسى في وسط ذلك البحر المتلاطم من العمال . أخدود يكشف لي السلم ويكشف لي الباشتمرجي واقفاً ينتظرني عند أوله . والباشتمرجي كان رجلاً ضخماً له شعر أبيض كله ومسبسب ووجه أحمر يصلح وجه باشا. وكان أصله عاملاً من عمال الورشة ثم أصبح تمرجياً لا يدري كيف، ثم باشتمرجي لا يجيد ضرب الحقن بقدر ما يجيد التحدث عن الأصول والميل علي والهمس في أذني . وموضوعه المفضل هو سيرة الدكتور قيصر حكيمباشى السكة الحديد السابق الذي كان يعمل مكاني من عشرين سنة خلت ، والذي كان بيك رسمي « العهدة على عم مرسي » والذي كان يشخط في العامل فينطره خارج الحجرة ، والذي كان زيادة في الهيبة يجلس الى مكتبه وعلى يساره سماعة الكشف وعلى يمينه مسدس لا يتردد في رفعه على العامل لو لمح منه زمزقة أو اعتراضاً .

ولكن عم مرسي الباشتمرجي كان يعود ويقول لي :

ـ والله غلابة يا سعادة البيه . . ح يعملوا ايه ؟ وراهم بيوت . والنبي وشرف سعادتك ما تكسفني . . اديله أسبوع .

البيضاء

يظهر عم مرسي واقفاً على السلم عند نهاية الأخدود وهو يتمتم في صوت أجش وقور : وسع يا جدع اتلم كده يا أخينا .

ثم يبتسم قبل أن أصل اليه ابتسامة واسعة كبيرة تريني طقم أسنانه كاملاً، وتريني اللثة الصناعية الشديدة الحمرة . وقبل أن أصل اليه يخف ويمد يده ويقول:

ـ صباح الخير سعادة البيه .

وأمد يدي فيمسكها بحذر وأدب ويكاد ـ لولا الخجل ـ أن يقبلها والكلمة الثانية يلتفت ويقول للعمال :

ـ طابور . .

فإذا حدثت حركة كان بها . . وإلا أعقبها بقوله :

ـ البيه مش ح يشتغل إلا بطابور . .

وتدور حركة زق ودفع وتسلل واسعة النطاق. وأخيراً جداً يتكون طابور ، طابور غريب يبدأ داخل حجرة الكشف ويخرج من الباب ويتلوى مع الصالة ويهبطالسلم الخشبي العتيق وينحرف الى يمين ثم الى اليسار ويمتد الى البوفيه، وأحياناً يصل الى عنبر البرادة ويدخله ويعطل العمل فيه .

وأدخل أنا الحجرة، فيخرج النفر القليل الذي كان قد تسرب اليها محاولاً أن يجد له مكاناً عند الباب في أول الطابور، ولكن عشرات الأذرع تمتد وتجذبهم ولا تتركهم إلا حين تتسلمهم أذرع خلفية أخرى، وتظل الأذرع تتبادلهم حتى توصلهم الى السلم ثم الى الأرض ثم الى مؤخرة الطابور .

ويوارب عم مرسي الباب بعدما عجز عن إغلاقه، وأجلس الى المكتب . . مكتب ضخم كبير واسع عمره لا يقل عن الخمسين عاماً . وحجرة الكشف نفسها واسعة جداً يبدو المكتب فيها صغيراً قليل القيمة وفي ركنها لوحة الكشف على النظر وقد تكفل الزمن بمحو كل علاماتها وعلى اليمين كنبه جلد قد بقرت الأيام مسندها وأظهرت أحشاءه .

وفي أدب جم يقول لي عم مرسي :

ـ قهوة يا بيه، مش كده ؟

ولا ينتظر إجابتي فيزعق على مرءوسه عم حسين، وهو تومرجي أكبر منه في السن عجوز جداً نحيف جداً ، المفروض أن يقف بجوار الباب ولا يسمح بالدخول إلا لواحد واحد . يزعق ليقول :

ـ قهوة ع الريحة للبيه يا حسين .

ويحاول عم حسين أن يهرول لتنفيذ الأمر. ولكن أين يذهب عم حسين وهو لا يكاد يستطيع الوقوف في مكانه ؟ قبل أن يتحرك تتحرك ألسنة الواقفين في الطابور، يقول أقربهم الى الباب :

ـ قهوة ع الريحة للبيه يا جدع .

فيتلقفها الواقف في الصالة وتسري القهوة في الطابور حتى تصل الى القهوجي في البوفيه دون أن يتحرك أحد من مكانه. وفي ثانية تكون القهوة قد أعدت وتظل أيدي الطابور تتناولها محافظة عليها حتى تستقر أمامي دون أن يتحرك أحد من مكانه أيضاً .

وكنت أضيق بانتباه هذه الجماهير الغفيرة من العمال وقد تركز علي وأصبحت محوره . . فمن طباعي أني لا أطيق مواجهة الجماعة الصغيرة إذا

البيضاء

وفدت عليها وقامت لتسلم علي ، فما بالك ومئات العيون ترقبني وترقب كل حركة من حركاتي ، وكل بادرة تدل على أي تغيير في طبعي ومزاجي ؟ والمشكلة أنها عيون غير محايدة، عيون لها مطلب عندي ، عيون لكثرتها ولإحساسي أني لست بالنسبة اليها سوى بصمجي في يده أن يحتسب يوماً أو يخصمه، كانت تجعلني أحس بالمهانة والاحتقار لها ولنفسي ولظروف الحياة التي تدفعني الى هذا الموقف السخيف المحرج .

وتبدأ التمثيلية . .

يدخل العامل ويرفع يده بسلام عظيم وتحية زائفة لا يكلف نفسه عناء إخفاء ما فيها من ملق . عندك أيه ؟ عندي إسهال. وبعده عندك أيه؟ مغص.

إسهال. مغص. مشوار. . ح أطلق مراتي . ابني ضايع وعايز أدور عليه والنبي . خربتي مقسومة نصين من امبارح . أبويا توفي تعيش أنت .

وأول ما عينت في تلك الوظيفة وكنت لا أزال حديث التخرج ، ولا تزال لجنة الطلبة والعمال التي كانت تقود الكفاح ضد المفاوضات ماثلة في ذهني، والعمال الذين كانوا يأتون الى الجامعة بعفاريتهم الزرقاء والصفراء ونعقد معهم المؤتمرات ونتفق على الاضرابات ، حماسي لهم لا يزال على أشده. . لم أكن أتردد، كنت أمنحهم كل ما يريدون من إجازات، وكنت أعتقد أني استوليت على قلوبهم بذلك العمل البطولي. ولكن أبداً، كل ما حدث انهم كفوا عن رجواتهم وملقهم السافر الساخر وأصبح الواحد منهم يدخل ويقول: أنا عايز يومين، أنا عايز ثلاثة، دون أن يكلف نفسه عناء الشكوى من مرض ، ويطلب هذا وكأنه حقه . فإذا أعطيته ابتسم لي ابتسامة لا تخلو من سخرية . وإذا لم أعطه تلحم وكشر

وأقسم ألا يغادر مكانه إلا بالاجازة. ولكن تلك التصرفات لم تفت في عضدي وظللت أمنحهم كل ما يريدون. إلى أن حدث يوم وكان يوماً ممطراً وتأخر أكثر من نصف عمال الورشة . وأبلغوا أنهم مرضى . وكالعادة منحتهم إجازات ، وكانت النتيجة أن توقف العمل في الورشة وأبلغت الجهات المسئولة ، وجاء مدير القسم الطبي وراجع دفتر الاجازات وروع حين وجد أن أكثر من خمسمائة عامل لديهم إسهال. . و٢٠٠ أنفلونزا وظل يقلب الدفتر ويقول بصوته الأخنف :

ـ ايه ده يا دكتور؟ دا انت عندك كوليرا في الورشة. لما ٥٠٠ يبقى عندهم إسهال لازم البلد تنقلب.

وخصم مني ثلاثة أيام وأنذرت بالفصل. . ولم يتحرك أحد لا من النقابة ولا من العمال لما حدث وكأن الأمر لم يكن بسببهم .

وهكذا وجدت نفسي مضطراً أن أدقق وأوازن وأمنح البعض وأعيد البعض ، وأضيق بالعمل كله ، وبنفسي حين أمنح وبها حين أرفض وبالعمال إذا رضوا وإذا سخطوا، أو على حد تعبير العمال أصبحت المسألة مسألة مزاج .

والأربعة أو الخمسة الذين يدخلون حجرة الكشف في أول الطابور كان يقع عليهم عبء تحديد مزاجي . . إذا منحتهم إجازات سرت في الطابور الضخم الملتوي كحيوان من حيوانات ما قبل التاريخ ، سرت فيه موجة تفاؤل وفرح، وإذا لم أعطهم سرت همهمة غضب مكتوم وأفلتت الألسن شتائم.

وجربت كل الطرق ولكني انتهيت الى نتيجة واحدة. إن هؤلاء العمال لا يمكن إذا أرادوا شيئاً إلا أن ينالوه سواء كنت راغباً في إعطائه أو مصمماً

على منعه. . كان عنادهم وتصميمهم يغلان عنادي وتصميمي، وقراري الحاسم يبريه إلحاحهم القوي المتواصل . كنت لا أكاد أميزهم من بعضهم البعض. . نفس الوجه ونفس النظرات ونفس المنطق. ولم أكن أستطيع أن آخذهم فرادى. . إذا عجز منطق الواحد تصدى له آخر، وإذا ما شخطت في واحد دمدم له الآخرون . وأحس دائماً أن تفاهماً خفياً يسري بينهم كالأسلاك غير المرئية ويربط أجزاء ذلك الطابور الطويل المتحرك صوبي. الكلمة أقولها في المكتب فإذا بها بعد ثانية قد أصبحت في حوش الورشة وفي العنابر. وأناقش الواحد فيتدخل الآخرون كالعصابة المتفاهمة قبلاً والتي وزعت على نفسها الأدوار. . واحد يناقش والثاني يهدد والثالث يصرخ والرابع يستصرخ الحكومة، والخامس يتشنج والسادس يشتم والسابع يرجو والثامن يبتسم في هدوء وبراءة وكأنه تأكد أنك اهتززت بكل ما سمعته وأنك على أهبة القبول، فيقول لك ليكفيك مئونة الحرج : على العموم انت صاحب الأمر والنهي . . اللي تعمله ماشي.

وبتلك الطريقة انتهى عملي كطبيب الى أن أصبحت مساوماً من الدرجة الأولى. العامل يريد خمسة أيام فأساومه لأمنحه ثلاثة . وبعد أن تطلع روحي ويضيق خلقي وأنفاسي لا يقبل الأربعة إلا وهو يشعرني أني ظلمته وجرت عليه . بل أحياناً كانت المساومات والرجوات تظل تلاحقني في الشارع حتى الى باب شقتي.

وكنت أغادر العمل في الثانية بعد الظهر ورأسي قد أصبح عنابر وشوارع وحارات وأيديا تلوح وزعيقاً ومناكفات وتهديدات ورجوات ومغصاً كلوياً أيمن وآلاماً روماتيزمية بالمفاصل وضعفاً عاماً، وعفاريت

ملطخة بالدوكو والزيت وخبطات كثيرة على المكتب وتشنجات عصبية ورغبة عارمة تراودني أن أنتحر أو أقتل أول إنسان أصادفه .

أعود الى البيت لأتغدى فأجد ضجة الشارع وغباره وروائح الكبدة المقززة قد سبقتني إليه ، وأجد طبيخ أم عمر ينتظرني خضار ولحمة ودائماً خضار ولحمة والحلو برتقال، وأم عمر كأم قويق واقفة قبالتي تحاسبني على الطعام، وتغالطني علناً في الحساب .

وأتغدى، وتذهب أم عمر، وأقفل النوافذ، وأمنع النور والضجة. ويهدأ البيت قليلاً وكذلك الحي، وأبدأ أنا أترقب الأصوات وأتسمعها وأميز ، وقلبي يدق دقاً خفيفاً . ثم أرى شبح خيال يقلل الضوء المنعكس من زجاج الباب، ويدق قلبي دقة واحدة كبيرة ثم يسكت هنيهة، ومع عودة الدق يدق الجرس .

وأسرع ملهوفاً وأفتح الباب ، وإذا بابتسامة عذبة دائماً، حلوة دائماً ووجه نحيف أبيض تحيطه هالة من الشعر الأسود، وكأنه حية دقيقة مرهفة تقول في همس مبتسم جميل : ممكن أدخل ؟

٦

وفي ذلك اليوم بالذات يدوخني همسها ، إذ هو اليوم الذي كنت قد قررت أن أكشف لها فيه عن نفسي . .

اليوم الذي اضطربت له كما لم أضطرب لأي امتحان دخلته ، أو لأي موقف فاصل وقفته في حياتي. الحجرة حجرة المكتب في شقتي ببولاق والدنيا بين الليل والنهار، والشيش مغلق وكذلك الزجاج ، وجهودي كلها قد بذلتها منذ عودتي من عملي لمنع الضجة ورائحة الكبدة ، وخلق جو « شاعري » غير مفتعل . الحجرة فيها مكتب وكنبة « ستوديو » وكرسي أسيوطي ذو مساند، ومكتبة صغيرة وجراموفون . الموبيليا الضرورية لحجرة تستعمل للجلوس والكتابة والنوم أحياناً بلا أناقة أو لمسات . وسانتي جالسة فوق الكرسي الأسيوطي وأنا حائر لا أستقر ، والخطاب الذي كتبته لها يكاد يحرق بحرارته درج المكتب ، ونحن الاثنين وكأننا نترقب شيئاً كالجالسين ينتظران طلب قضيتهما أمام محكمة ما .

وكانت سانتي قد خلعت جاكتتها وبقيت ببلوزة لبنى كالقميص ، وفي خدودها احمرار وشعرها مشعث، وسحب الدخان تهيم وتتكاثر حولها .

وبدأت الكذب الواضح الذي لم أتعمد إخفاءه وقلت :

ـ أتعلمين شيئاً ؟ « وكانت هذه لازمتي معها » .

قالت بغير حب استطلاع :

ـ ماذا ؟

قلت :

ـ صديقي الذي حدثتك عنه بالأمس . . صديقي الذي كتبت له القصيدة ليعطيها للفتاة الأجنبية التي . .

وانتظرت عساها تبدي اهتماماً أزيد، أو تسأل، ولكنها لم تقل شيئاً فمضيت أقول :

ـ مشكلة ذلك الصديق أنه واقع في حب فتاة ولا يعرف كيف يعبر لها عن عواطفه، وقد كلفني أن أكتب له خطاباً يشرح لها نفسه فيه . . أتريدين قراءته ؟

ـ نعم . .

قالت هذا وهي تكمل إجابتها بسرب من الابتسامات البرئية العذبة . . ثم قالت بخفة طفولية :

ـ أين الخطاب؟

ـ في درج المكتب . . الأسفل.

وكالطفلة المحبة للاستطلاع قامت وفتحت الدرج وقلبت الأوراق ثم تناولت الخطاب، ونظرت إليها وأنا أتتبع حركاتها باهتمام عظيم وكأني أتوقع أن يحدث انفجار ما لدى أية حركة من حركاتها . .

وضعت الخطاب بعناية فوق المكتب، ثم أمالت رأسها عليه وبدا عليها أنها تقرؤه .

ولم استطع الصبر . شيء ما أرقني فقلت لها :

ـ أن خطي فظيع لا يستطيع أحد غيري أن يقـرأه . هل تسـمحين ؟ وببساطة تنازلت عن الخطاب ومقعدها، وعادت تجلس علـى الكرسـي الأسيوطي . وبدأت أقرأ الخطاب بصوت مرتفع ، وأسندت رأسهـا الـى يدها تواجهني وتستمع وعلى فمها ابتسامة لا تغادره ، وكأنما توقفت تستمع هي الأخرى .

والواقع لم أكن أقرأ، كنت أحاول أن أخاطبها بالكلمات المكتوبـة وأختلس النظر أحياناً لألمح أثر كلماتي فأجدها لا تزال تصغـي ولا تزال تبتسم .

وانتهيت من القراءة . وحل صمت كامل. ورفعت إليها عيني ولـم تكد نظراتنا تلتقي حتى وجدتني أقول في تهور :

ـ لقد كذبت عليك ؟

ـ ماذا ؟

ـ ليس الخطاب لصديقي، إنه خطاب مني اليك .

وتضاءلت ابتساماتها ، وقالت وهي تنكس رأسها :

ـ كنت أعرف هذا.

وقامت وأشعلت سيجارة لنفسها بنفسها ، ونفثت دخانها الى الناحية الأخرى.

وأرعد هاتف في نفسي يقول: آه. . لقد بدأ الجد.

وقلت بعصبية وقد كاد صبري ينفد فعلاً:

ـ ما رأيك يا سانتي؟

وخرجت « سانتي» من فمي قلقة متهدجـة. كان ثمـة خوف كبير قد اعتراني، لسبب لا أعرفه .بدأ ينتابني إحساس مفاجىء بالخجـل وبخيبـة الأمـل. طوال اليوم السابـق والـى اللحظـة التـي انتهيت فيهـا من قراءة الخطاب كان همي الوحيد أن أفرغ ما بنفسي، وكنت واثقـاً تمامـاً أنهـا ستسـتجيب، ولهـذا لم أفـكر أبـداً فيمـا يمـكن أن يحـدث بعـد قراءة الخطاب . وإذا بي بعد أن أنتهيت جالس أرتعش وأترقب كمن وجد نفسه فجأة يقف على حاجز رفيع بين هاويتين لا قرار لهما ، كمن وجد نفسه يجابه مسألة لم يعمل لها حساباً قط.

كنت تماماً مثل أي طفل يشعر بهاتف يهيب به أن يقذف عربة مارة من أمامه بطوبة وهو ضامـن أن العربـة لن تتـوقف، وإنهـا ستمضـي مارقـة كالريح . ولكنه ما كاد يقذفها حتى حدث ما لم يكن في حسبانه بالمرة، أن توقفت العربية وهبطمنها أصحابها وأحاطوا به وأصبح عليه ان يواجههم .

أنا الآخر لم أستطع أن أكبح الهاتف الذي كان يهيب بي أن أصرح لها بكل ما أحسه ناحيتها، ولم أراجع نفسي ولا فكرت لعلى كنت قد بدأت أدرك أني لا بد أن أخطو خطوة إيجابية وقد خيل إليّ أني أصبحت مطالباً باتخاذها .

لعـلي أردت أن أقدم لها عواطفي في شكل ملموس لايحتمل شكاً أو تأويلات . . أردت ان ألعب لعبة الشبان فاعترفت لهـا بحبـي لأنكشهـا ويصبح في استطاعتها أن تعترف لي بحبهـا هي الأخـرى. إذ شعـوري الداخلي كان يؤكد لي أنها تكن لي حباً، ولكنها لن تصارحني به إلا إذا تأكدت أني أحبها وكنت البادىء.

لعلي كنت مثل غيري من أبناء جيلنا ظمآن أشد الظمأ الى الحب الذي أسمع عنه في كل مكان، وحياتي خالية تماماً منه، وأريد الاستمتاع بنشوة الاعتراف به.

لعل هذا .

ولعلي كنت ضامناً سلفاً أن سانتي لن تحاسبني على هذا البوح، ولن يحدث شيء بالمرة، وتمر علاقتنا كالعربة المارقة لا يمكن أن يوقفها أو يخدشها اعتراف كهذا .

ثم إذا بي أواجه ذلك الموقف.

وقد أكون أضعف إنسان جابه امرأة على هذا الوضع .

وقد يكون ما فعلته خطأ، وكان الواجب أن أدع العلاقة تنمو حتى يصبح باستطاعتي أن ألمسها ثم أقبلها، فإذا رضيت بقبلتي صارحتها بعواطفي.

ولكن ذلك ما حدث. وكيف كان يمكنني أن أعرف الصواب من الخطأ من غير أن أخوض التجربة ؟

لقد حددت ذلك المساء في بولاق خطوط أعنف مأساة عصرت حياتي عصراً.

كانت واقفة في ركن الحجرة تعبث بشيء ما حين سألتها :

ـ هيه . . لم تقولي لي رأيك ؟

فقالت وفي عينيها حيرة من لا يعرف كيف يصوغ إجابته:

ـ في ماذا؟

ـ فيما قلته في الخطاب؟

وحين نسأل سؤالاً كهذا نحن لا ننتظر الإجابة . إننا نركز انتباهنا على المسئول لنخمن إجابته قبل أن ينطقها، أو حتى لو نطق غيرها . ولم أستطع التخمين. كل ما استطعت أن أدركه أنها غير مهزوزة أو منفعلة بما حدث. لم يكن مسلكها هو نفس المسلك الذي يتوقع الإنسان حدوثه في حالة كتلك . كانت آخذة الأمر ببساطة تخيب الأمل، وبنفس تلك البساطة قالت :

ـ ولكنك تعلم أني متزوجة.

قلت لها في هدوء :

ـ أعلم هذا .

فقالت وهي تفتح عينيها في دهشة، وكنت لا تستطيع معرفة دهشتها إلا إذا راقبت عينيها :

ـ طيب. . وكيف يكون الوضع ؟

وكان هذا أكثر من أن أستطيع احتماله . لقد بدأت بقراءة الخطاب موضوعاً ضخماً . . عواطف جامحة متأججة لا ترحم قدمتها، فكيف ينحرف بنا الحديث هذا الانحراف الغريب، ويأتي ردها يثير مشاكل عملية ليس هذا وقت طرقها أو التفكير في التغلب عليها ؟ أنا لم أكن أطلب منها أن أتزوجها لترد بقولها إنها متزوجة، أنا كنت أعبر لها عن انفعالات بالرغم من عنفها وقوتها إلا أنها رقيقة جداً لا تحتمل تداولاً أو تقليباً. . أشياء لا تخرج عن الصدر الحي إلا ليتلقفها صدر حي آخر. . أشياء تموت لو خرجت من أحدهما وبقيت معلقة في طريقها الى الآخر.

وقلت:

ـ يعني ماذا ؟

فقالت :

ـ يعني أنا لا أستطيع أن أبادلك هذا الحب. أنا متزوجة ولا أستطيع أن أحب سوى زوجي.

وأكملت الحديث كلاماً فارغاً ـ فقلت وأنا أبتسم ابتسامة صفراء مرتعشة :

ـ تزوجيني إذن.

فقالت:

ـ ولكني قلت لك إني متزوجة .

فقلت:

ـ اتركيه وتزوجيني.

فقالت بعصبية وكأنها مشكلة حقيقية :

ـ ولكني أحب زوجي فكيف أتركه؟

وطبعاً لم أعر إجابتها تلك أي التفات ، بل لم أعر الحديث كله أي التفات . تلك الجملة المتعثرة المرتبكة، ذلك اللجاج، ما شأني أنا به ؟ كنت طوال الوقت أبحث عن خلجة انفعال، عن نظرة، عن لمحة عن ابتسامة، عن كلمة ، عن تحديق يصاحب كلمة، عن شيء دقيق أستطيع أن أعرف به إن كانت قد أحبتني حقيقة أو على استعداد لحبي .

ورغم كل مجهود الغريق الذي بذلته لأتشبث بقشة انفعال واحدة خرجت من بحثي منقبض الأصابع في يأس .

لمحت أشياء أخرى بعيدة كل البعد عما أريد. لا مانع لديها مثلاً أن أحبها أنا ما شئت، ولا مانع لديها أن أعبر لها بكل وسائل التعبير عن هذا

الحب، أما من جهتها فإن وضعها لا يسمح، إذ هي متزوجة تحب زوجها.

ممكن أن أكون قد اعتبرت هذا كله مجرد تخمين ، ولكن الذي لا شك فيه أنها كانت جادة فعلاً كمن تجابه موقفاً لم تعمل له حساباً قط ، مع أنه كان واضحاً أنها تعلم أن موقفاً كهذا كان سيعقب حتماً تلك القصيدة الانجليزية التي قرأتها عليها .

وكان التوتر قد خفت حدة وقعه الأولى، فجلست هي الى المكتب وجلست مكانها على الكرسي الأسيوطي وأغمضت عيني، وأنا أتمنى في قرارة نفسي لو تحدث المعجزة وينقلب المشهد الحقيقي الذي أعيش فيه الى حلم أفرح باليقظة منه بعد قليل، أو تحدث المعجزة الأكبر وأفاجأ بها تغير موقفها وتمد يدها الدقيقة وتمسك بيدي مثلاً وتقول :

ـ لا تصدقني يا يحيى إذا قلت إني لا أحبك، أنا أكذب عليك ، أنا مدلهة بك .

أغمضت عيني وتركت نفسي متمنياً أن ينقلب الواقع الى حلم ، أو تنقلب أحلامي الى واقع ، وفتحتهما مرة فوجدتها تبتسم ابتسامة من يتذكر شيئاً مضحكاً، ثم قالت:

ـ هل تعلم شيئاً ؟ «وكانت أحياناً تستعمل نفس لازمتي» .

قلت مشحوناً ببوادر أمل :

ـ ماذا؟

قالت:

ـ مرة شاب سوداني كنت أعمل معه قال لي إنه يحبني وأصر على أن يتزوجني .

البيضاء

فقلت بسرعة :

ـ متى ؟

ـ قبل أن أتزوج ؟

ـ وبماذا أجبته؟

ـ حاولت إفهامه أني لا أحبه، ولكنه لم يقتنع أبداً وهاج وماج وقال لي : غير مهم أن تحبيني، نتزوج أولاً وبعد هذا يأتي الحب.

وسكت سكوت غير المرتاح لكلامها. . ولكنني لم أستطع الصبر على سكوتي. كان من المستحيل أن يمر المشهد الذي دبرت له طويلاً هكذا ببساطة وبلا نتيجة. وكأني لم أفتح لها قلبي الذي كنت ضنيناً به طوال حياتي أن يفتح. لقد ظللت مرة أحب طالبة زميلتي في الكلية ثلاث سنوات كاملة وأكلمها وأحادثها، وأنا مغلق نفسي على عواطفي بإرادة حديدية. وما أبشع الليالي التي قاسيتها أتلظى وأكاد أجن رغبة في أن أبوح لها بحبي، ولكني كنت أثوب إلى رشدي في الصباح وتعود الارادة الحديدية تحبس عواطفي. فخوفي الأكبر كان أن أعترف لها بحبي فأجد أنها لا تحبني، وأجد أني قد مرغت كرامتي واعتزازي بنفسي أمام أعين غريبة لا يهمها أمري . وبقيت هكذا الى أن تخرجنا وتفرقنا ولا يعلم بحبي هذا سواي .

لم أستطع الصبر على سكوتي فسألتها :

ـ يعني. . ألم. . ألم تحبي أبداً؟ أقصد قبل أن تتزوجي.

فقالت :

ـ طبعاً.

قلت ملهوفاً :

ـ من ؟

ـ زوجي .

وطمأنتني الإجابة فلم أكن أعتقد أن الزوج ممكن أن يلعب دور الحبيب قبل الزواج أو بعده. لا بد أن تقول هكذا لأنها يجب أن تقول هكذا.

وعدت أسألها :

ـ كنت تحبينه فعلاً ؟

فقالت وهي تكاد تضحك :

ـ طبعاً . . ولا أزال . . وإلا لكنت قد تركته . .

ـ تحبينه أقصد . . يعني حب . . غرام؟

ـ طبعاً طبعاً أحبه طبعاً.

وأخذت إجابتها على محمل القول الواجب، وإن كانت طريقتها الأكيدة الحاسمة في صياغة الإجابات بدأت تقلقني. وقلت ليهدأ قلقي :

ـ وكيف تحاببتما؟

فقالت وهي تغادر الكرسي واقفة :

ـ ونحن هكذا « أشارت بيدها كمن يقول ونحن أطفال » . . كان أبوه شريك أبي . . نلعب سوياً . . وكنا في المدرسة معاً . . وتحاببنا من ورائهم . . ثم كما ترى تزوجنا .

ومرة أخرى عاودني الاطمئنان ، فذلك النوع من الحب ممكن أن يعتبر تآلفاً أو عشرة أو أي شيء غير الغرام الحاد الذي خفت أن يكون قد حدث بينها وبين زوجها .

قلت وأنا أريد للحديث أن ينقطع :

البيضاء

ـ ولماذا رفضت حب الشاب السوداني ؟

فقالت :

ـ لأني لم أحبه. كنا صديقين فقط .

فقلت :

ـ هيه :

وسكت قليلاً ثم سألتها :

ـ وما رأيك ؟

فوقفت أمامي وارتكزت بيد إلى المكتب وقالت وهي مأخوذة قليلاً بما تريد قوله :

ـ شوف. . أنا أعتبرك صديقي العزيز. . ولكني لا أستطيع أن أحبك وأحب زوجي في وقت واحد.

فسألتها سؤالاً وكأنما أسأل نفسي :

ـ وماذا أصنع أنا؟

قالت :

ـ أسمع . . انت وراءك مهام كثيرة. . وعملك وبلدك في حاجة إلى جهودك كلها. وأنت تضعني في موقف حرج. . إني لا أعرف كيف أتصرف ولا أعرف ماذا يجب علي أن أفعله. انت تقدر موقفي طبعاً.

قلت :

ـ المشكلة في الحقيقة ماذا أصنع أنا؟ فأنا الذي يحس.

فابتسمت ابتسامة من يقول: لا تسمع كلامي، وقالت :

ـ حاول أن تنسى.

وبقدر ما أعجبتني ابتسامتها ضايقني ردها. . لا لكلماته وإنما للطريقة التي قالته بها. أيقنت أنها خارج المشكلة تماماً، وأنها تنصحني كما تسدى النصح لصديق واقع في مشكلة خاصة به.

واهتزت كرامتي. وقضيت ما تبقى من الوقت في وجوم.

ولم يعد هناك كلام يقال. . ظللت طوال الوقت أبتسم لأخفي مشاعري وأطيل التحديق فيها علـى ألمح في خواطرها، إن لم يكن في ملامحها ذلك الشيء الذي أبحث عنه.

لم يعد هناك كلام يقال وظللت صامتاً، ومع هذا بقيت سانتي وقتاً أطول مما تعودت أن تبقاه. وحين طال صمتي وطالت الجلسة حاولت أن تتذكر نكتاً وتحكي مفارقات وتضحك لتبدد الوجوم الذي خيم على الحجرة، غير أن كل هذا لم يحرك في ساكناً.

وحين غادرتني، قالت ويدها على الباب ويدها الأخرى ممدودة إليّ:

ـ أصدقاء؟

وأحسست أن الكلمة خارجة من فم طفلة.

ولكني خجول، وهكذا تمتمت وأنا أداري وجهي في ابتسامة ما:

ـ أصدقاء.

وهبطت درجات السلم في بطء وكسل.

٧

ولم يكن هناك ما أفكر فيه ليلتها، لا لقلة ما كان هناك وإنما لكثرته. عشرات الأشياء كان عليّ أن أفكر فيها. . كل شيء صاحب تعارفنا. . كل حادثة صغيرة وقعت في أثنائه. . كل كلمة قلناها وكل ابتسامة ابتسمناها كانت قد أصبحت شيئاً مستقلاً بذاته على أن أفكر فيه وأخرج منه باحتمالات. ومع ذلك ظللت عملياً بلا تفكير، فالاحتمالات حين تتقارب ولا يستطيع الإنسان أن يرجح أحدها على الآخر تعفي من التفكير، ويفلس العقل، فعقولنا تنشط فقط اذا كان هناك أمل، وتساوي الاحتمالات لا يدعو لليأس، ولكنه أيضاً لا يبقى مكاناً للأمل.

وعشرات المرات حاولت أن أرغم نفسي على التفكير وعلى استعادة ما حدث، وفي كل مرة لا أجد لديّ ذرة رغبة واحدة في استعادة شيء. وقلت لنفسي في النهاية: ليس عليك سوى أن تنتظر وتترقب ما تفعله لتغلب احتمالاً على آخر.

وجاءت سانتي في اليوم التالي مباشرة.

وكنت أعرف أنها ستأتي. لم يكن مجيئها في نظري ليغير من الأمر شيئاً. . لم يعد مجيئها علامة رفض أو قبول، أصبح عادة.

ولكني قابلتها في تلك المرة بشعور مختلف. طوال الأيام الماضيات كنت أكاد آكلها برغبتي فيها، كنت لا أتحدث اليها أو ألمس يدها أو أحدق في عينيها إلا وأنا أتقلب على جمر الرغبة فيها. وفي تلك المرة أحسست أن حاجزاً شفافاً قد أصبح يحول بيني وبينها. خجل شديد، أو شيء يشبه الخجل الشديد في مفعوله، كنا قد «تحدثنا» في السر الذي أقفلت عليه نفسي، وبهذا انكشف الغطاء وأصبحت كل حركة مني مفضوحة وأنا أول من يفضحها، وبتلك الفضيحة توقف الزحف التلقائي الذي كان يجذبنا ويقربنا دون حاجة إلى كلام أو مصارحة، أو على الأصح في غيبة الكلام والمصارحة. وشيء آخر. سانتي كانت قد قالت لي من زمن أنها متزوجة، ولم أعر الأمر ساعتها اهتماماً يذكر لدرجة أني لم أتصورها زوجة أبداً، ولم أجد أهمية لهذا التصور. فكل ما كنت أحسه تجاهها كان لا يدور إلا بيني وبين نفسي، ويدور رغماً عني، وكان من المستحيل أن يؤثر في أية علاقة أخرى لها. فلتكن متزوجة أو أرملة أو حبيبة، ما الحرام في أن أعجب بها ذلك الاعجاب الصامت الذي لا يستطيع أحد أن يلمحه أو يحاسبني عليه؟ ولكن الاعجاب الصامت تكلم أخيراً ونطق. فاضطرت أن تذكرني هي الأخرى بموقفها وتقول لي إنها متزوجة برجل تحبه ولا تستطيع أن تحب اثنين في وقت واحد. ازداد الأمر تعقيداً، لا لأنني عدت الى رشدي وأدركت أنها متزوجة وأني لا يصح أن أحس ناحيتها بأي انفعال، ولكن لأني أيضاً لم آخذ قولها مأخذ الجد، فقد شعرت أنها تضع عقبة شكلية محضة أمام علاقتنا. إذ كان بوسعها أن تقول لا يمكن أن تحبني وكان بوسعها أن تعنفني وتزجرني وتقطع علاقتها بي وينتهي الأمر. أما أن تقول إن الزواج هو فقط الذي يمنعها من حبي، فمعنى هذا أن المانع مجرد شكل، والشكل ممكن أن يتغير. ممكن أن تترك زوجها وتتزوجني

٥٥٥

مثلاً، وصحيح أن هذا ليس حلاً مثالياً،ولكنه ليس أول حل غير مثالي، أو على الأقل ليس الحل الذي لا يفكر فيه إنسان في موقفي متلهف عليها غير قادر أن يكبت أو يقتل لهفته عليها. إنسان مستعد أن يفتت صخور اليأس ليعثر على قطرة أمل واحدة، ومستعد أن يفتتها حتى ولو كانت القطرة سراباً غير موجود.

ولكنها حتى بذكرها هذا الاعتراض الشكلي كانت قد أثارت في نفسي قيماً عميقة مقدسة لا يمكن أن تمحى أو تزول، قيماً ليس أقلها احترام ما يخص الغير. فقد أدركت أن سانتي التي اعتبرتها منذ ليلة الأوبرا قد أصبحت لي ليست في الواقع لي، ولكنها زوجة رجل آخر لا أعرفه، ولكنه رجل شريف يحارب من أجل قضية كقضيتي تماماً، ويلعب فيها دوراً ربما أعجز أنا عن القيام به. وأبالغ حين أقول إني أدركت.. فالادراك لم يكن هو بالضبطما شعرت به. فلو سألتني رأيي بصراحة لقلت لها إني لا أزال لا أصدق أبداً أنها متزوجة رغم الحقائق والحكايات التي قالتها. ليس إدراكاً ولكنه احتمال.. مجرد احتمال أن تكون صادقة فعلاً، ومجرد الاحتمال له في نفوسنا، نحن الذين تربينا في صرامة الريف وتقاليده، قوة اليقين وحرمته. ذلك الزحف التلقائي الذي كنت أقوم به وأنا أغمض عيني عمداً عن كل حقيقة أخرى خاصة بسانتي سوى أنها معي، تأتي لي، وتبتسم من أجلي، أوقفته هي وتولت بنفسها فتح عيني وتبصيرها بالحقائق.

ولم يفعل هذا أكثر من أن أضاف الى المشكلة المعقدة أصلاً تعقيدات جديدة، فقد أصبح واجباً علي أن أعاملها باعتبار أنها زوجة وأنا مؤمن أنها ليست كذلك، وأنا أشك في إيماني هذا، وأنا حائر في هدفها من تذكيري بوضعها، حائر فيها، وفوق هذا كله وقبل هذا كله

مدرك تماماً أني لا أستطيع أن أمنع نفسي من طلبها كما لا أستطيع أن أمنعها من طلب الحياة والوجود. أبداً لم أكن أستطيع حتى ولو تبينت مثل أوديب أنها أمي، فشغفي بها كان قد خرج عن إرادتي. أصبح كالنار العنيدة الموقدة في نفسي، كلما حاولت أن أخمدها بمانع أو حائل أتت عليه، بل زادتها الحوائل والموانع اشتعالاً.

وجاءت سانتي في ذلك اليوم التالي.

ولدهشتي كانت ابتسامة كبيرة تضيء وجهها، وفي حركتها نشاط طازج، وفي ملامحها وكلماتها تعبير غريب لم يكن قد طرق وجهها قبلاً تعبير التي تشجعك على نفسها، وبعد ماذا؟ بعد ليلة واجهتها فيها وانتهت وأنا مكسور الخاطر.

وجلست على الكنبة.

جلست بعد أن خلعت جاكتتها وبقيت ببلوزة بيضاء محبوكة على صدرها وكتفيها، فبدت كالموزة حين تخلع عنها القشرة.

ولفت نظري شيء كان يطل من تحت ذيل «الجيب».

كان ذيل قميص نوم جديد أنيق مشغول!
وما كدت أراه حتى دق قلبي دقاً مفاجئاً متلاحقاً.
إذ في ومضة كنت خمنت شيئاً.
أممكن هذا؟

أممكن أنها ترتدي ذلك القميص من أجلي؟

أممكن أنها قد افترضت أنه بعد مصارحتي حتى المكشوفة لها بالحب، لابد أن يحدث «شيء ما» وأعدت نفسها لهذا «الشيء»؟

وابتسامتها تلك، أليست ابتسامة الخجل المسبق من ذلك الشيء المقبل؟

ولكن قلبي هذا بعد أجزاء من الثانية كف عن خفقانه، فقد خيل إليَّ أن الاحتمال بعيد، وأنه مستحيل مستحيل، وأن علي ألا أركب رأسي وأن أستقر وأهدأ.

كان قد حدث حادث بعد ليلة الأمس. كانت خيبة أملي فيما كان قد خوفتني من محاولات أخرى للاقتراب. كانت الفراشة قد أحست بالصبي حين أثار الضجة المقصودة ليشعرها بوجوده وبأنه في الطريق اليها. ولهذا كان يجب أن أطمئن تماماً قبل أن أخطو خطوتي التالية اليها، إذ كان يخيل إليَّ ان الفراشة ستطير في أي لحظة مقبلة ولدي أي حركة.

ومن أجل هذا السبب كنت أرفض كل علامات القبول التي قد أراها وأحاول أن أفسرها تفسيرات أخرى. كنت قد وطنت نفسي على ألا أقدم إلا إذا رأيت بعيني علامة قبول ضخمة تفرض صدقها ولا تدع مجالاً للشك فيها.

وكأني كنت أنتظر أن تبدأ بتقبيلي مثلاً، أو تقول لي: أحبك.

وكان ذلك بالطبع منها صعب الحدوث، بل مستحيل الحدوث.

وجاءت لحظة انفعال أخرى.

..

كانت واقفة بجوار «البيك آب» وكان فيه أسطوانة أظنها «شهرزاد»، وانتهت الأسطوانة فذهبت إلى الجراموفون لأضعها على الوجه الآخر. وحين دارت وتصاعدت الموسيقى وأغلقت الجهاز، ارتكزت بكوعي عليه. وكانت هي الأخرى مرتكزة بكوعها عليه وكانت لصقي تماماً، وتحدثنا في

شيء ما ورفعت وجهها إليّ، وفوق ما كان في وجهها من حمرة وفي عيونها من بريق فقد كان هناك شيء ما يشبه الدعوة، دعوة من فمها الذي كان قريباً جداً من فمي.

وحدثتني نفسي أن أنقض عليها وأحتضنها وأهوي بفمي على فمها. وترددت لبرهة بين أن أنفذ الخاطر أو أهدأ وأسكت.

ورغم أن ترددي لم يأخذ إلا ومضة خاطفة إلا أن وجهها كان قد عاد الى وضعه الطبيعي، وأصبح تنفيذ العناق أمراً صعباً.

وأراحتني عودة وجهها إذ أعفتني من التفكير والتردد.

وطالت جلستنا أيضاً، وطوال الوقت كان يحوم حول حديثنا شيء ومن كلماتها اللا ارادية المتناثرة استطاع شبح احتمال أن يطرق عقلي. بدا لي أنها وإن كانت لا تستطيع أن «تحبني» لأنها متزوجة، إلا أننا أعز الأصدقاء. وكانت تنطق الأصدقاء بطريقة يفهم منها مجازاً أننا من الممكن أن نخوض مغامرة لا حب فيها، ولا داعي للحب فيها.

ونحن لا نشاهد ما نشاهد لفترة ثم نجلس لنفكر على راحتنا فيما شاهدناه. . إن عقولنا تعمل دائماً ولا تكف عن العمل، والاحتمالات تتوارد على تفكيرنا بنفس السرعة التي نرى بها ما أمامنا. . كافة الاحتمالات، ونصدر الأحكام تلو الأحكام على ما نراه، ونغير تفكيرنا ونستأنف الأحكام. وأحياناً نعود الى آرائنا السابقة التي نبذناها، ونخرج لكل شيء أسباباً، ولكل سبب حجة، ويحدث هذا كله في وقت واحد. عيوننا ترى وعقولنا تفكر فيما تراه وفيما لا تراه، وفي اشياء بعيدة جداً عن متناول عيوننا ووعينا.

وعلى هذا، ففي نفس الوقت الذى كنت أفكر في احتمال أنها فعلاً

تدعوني لمغامرة أو نزوة، وأنني من الممكن أن أستجيب وأنفذ حالاً . . في نفس ذلك الوقت كنت أستنكر منها هذا الموقف إذ كنت اعتبر إن المغامرة معها أمر مخجل، ومع هذا كنت أحياناً أريده. فكيف بها هي الأخرى تريد نفس الأمر المخجل الذي أريده؟ هي التي أحببتها وقدستها، كيف تريد أن تخطيء؟ شكلية محضة أمام علاقتنا، اذ كان بوسعها أن تقول لا يمكن أن تحبني مثلما أريد، وأنا الذي ظننتها فوق مستوى الخطأ؟ خاطر مجنون، إذ كيف أحرم عليها ما أطلبه أنا منها؟

ولتكن هذه هي كل الأشياء التي دارت في عقلي. كنت أنظر لها أحياناً وأقول لنفسي: كيف تجرؤ فتاة كهذه على رفض حبي؟ ماذا تحسب نفسها؟ إنها تمشي كشيتا. ألم أكن مغفلاً حين كتبت لها الخطاب وأودعته كل تلك العواطف الجامحة التي لا تستحقها؟ لم أكن أؤمن بكل ما قلته لها في خطابي. لم أكن أدري هل ما أحسه ناحيتها حب أو رغبة أو نزوة؟ ممكن أن أكون قد كتب الخطاب لمجرد رغبتي في كتابة عواطف خاصة لقارئة خاصة، أو يمكن لمجرد إظهار قدرتي على صياغة الجمل والكلمات والتعبير عن الحب. ولكن ماذا حدث بعد قراءة الخطاب؟ لقد تبينت كل كلمة فيه وأصبحت أؤمن بها وأحسها فعلاً. ابتساماتها التي ينفرج عنها فمها الآن فيها دعوة. لماذا أتردد في قبولها؟ لماذا أنا خائف منها؟ يقولون إن الخواجات ليس عيباً عندهم أن يمارس الإنسان معهم علاقات جنسية. من قال هذا الكلام ومتى؟ لا بد أنه فتحي سالم الذي يكتب قصصاً في المجلة. أصحيح هذا؟ لماذا لا تقوم إليها وتشبعها لثماً وتقبيلاً؟ لماذا لا تملك التحرك من مكانك؟ أهذا حب ما تحسه؟ لماذا لا ترغب فيها بنفس الشدة التي كانت تجتاحك في الأوبرا؟ إنها ترتدي تلك

«البلوزة» المحبوكة، وقد شمرت كُميهـا إلى ما فوق ساعديها. ذراعها بيضاء رقيقة فيها شحوب وعليها شعر أصفر باهت. حذاؤهـا أنيق جديد غال. أتكون غنية؟ أيكون أبوها خواجة صاحب أطيان، مثـل الخواجة صاحب البنك الذي كان يعمل عنده أبوك في المنصورة وفصله عن عمله؟ أبوك كان يعمل كاتباً عند الخواجة الغنـي جداً الـذي فصلـه في لحظـة وشرده. لماذا لا تنتقم لكرامة أبيك فيها؟ لماذا لا تغتصبها فوراً وتطرحها تحت قدميك كما طرحوا أباك تحت أقدامهم؟ كل شيء فيها عادي ما عدا وجهها. وجهها ذلك الأبيض الأملس المشرب بالحمرة. وعيناها الدائمتا الحركة والارسال والاستقبال. . والانفعال. أحياناً تتدلل فتقبض شفتيها وتفتح فمها مظهرة أسنانها بطريقة تغري بالتهام فمها وأسنانها. ذكية هي وتقرأ أفكاري بسرعة، حتى نفس الأفكار التي تخطر بعقلي الآن. امرأة! لغز من تلك الألغاز التي لم أستطع حلها في طول حياتي وعرضها. زملاؤك الرجال تستطيع أن تقرأ أفكارهم وتعرف ما يريدون حتى دون حاجة للنظر اليهم. . أما النساء! أما هذه المرأة بالذات فأدفع من عمري عشر سنوات لأستطيع أن أعرف للحظة واحدة ماذا تريد مني وماذا تفكر فيه؟ وربما نحن لا نعرف ما يردنه منا لأنهن انفسهن لا يعرفن ماذا يردن. المرأة تنتظر من الرجل أن يكون هو إرادتها. . هو الذي يريد وهي ترفض أو تقبل أو لا تعرف حتى كيف ترفض أو تقبل، فتتورط. المرأة لا تريد إلا شيئاً واحـداً أن تكون امرأة. لماذا لا تصنع لتلك المرأة الصغيرة الجالسة أمامـك إرادتهـا؟ لا تأخذ رأيها! لا تنتظر أن تتحرك هي، تحرك أنت. . ولـكن لا اريد هذه الحركة التي تأتي لي بمغامرة عابرة حتى لو كان هذا هدفها مني، أنا لا أريد مغامرة عابرة. أنا اريد أن تحبني مثلما أحبها. . وحتى إذا كان ما أحسه ناحيتها ليس حباً، وإنما مزيج من عواطف مختلفة، فأنا أريد منها أن تشعر

البيضاء

ناحيتي بمثل ما أشعر به ناحيتها. لن أقبل أقل من هذا. لا، يكفي فقط علامة. علامة واحدة أكيدة. إنني أعرف المرأة حين تحب. إنها لا تتصرف كمن يحب ـ إنها تتصرف كمن يغامر. ترى كيف كانت تحب زوجها قبل زواجها به؟ هل كانت ترتدي له قميص نوم جديداً؟ غير معقول. ترى كيف كان شكلها أيامها، وكيف كانت تنظر وتبتسم وتتحدث؟ كل ملامحها وحركاتها بعيدة عني إلا حركتها بفمها حين تتدلل. إنها الوحيدة القريبة مني، ولكنها لا تفعلها لأجلي، إنها تفعل ذلك لعلمها أني أحبها وتريد أن تتدلل علي. إننا نتدلل فقط ليس على من نحبهم وإنما على من نؤمن أنهم يحبوننا. إن الصداقة التي قالتها كلمة اعتذار لا أكثر ولا أقل. إنها لا تكن لي شيئاً أبداً. لماذا تكثر من التدلل؟ هل لأنها اطمأنت الى حبي؟ ولكن، ابداً، لا تطمئني يا بلهاء.. إنه ليس حباً. لقد قلت لك ذلك في الخطاب لأني لم أجد كلمة غيرها تصلح عنواناً لمزيج الانفعالات التي كنت أحسها ناحيتك. لقد قلتها لأنها أسهل كلمة نعبر بها عن أية أحاسيس غير البنوة والأخوة تجاه امرأة.. لا شيء هناك اسمه الحب. وأنا لا أحبك. أنا أود فقط أن أعرف إن كنت تحبينني أو تبادلينني لهفتي عليك. تحركي وانطقي وقولي شيئاً! أفصحي! هدئي ذلك البركان الذي في جوفي! أنا لا أحبك. أنا حاقد عليك لأنك خيبت أملي، جرحت كرامتي، علمتني ألا أثق في نفسي ومقدرتي على إيقاع النساء في حبي. أنا كنت دائماً أرهب النساء وأبعد عنهن كما أرهب أمي وأبعد عنها، ولكن كنت دائماً واثقاً إني لو اقتربت من إحداهن لأوقعتها في التو واللحظة برغم شكلي وابتسامتي المعوجة. يا لي الآن من خائب خائب!

واذا كانت تصرفات الإنسان الخارجية هي انعكاسات متنكرة لخواطره

الداخلية الصريحة، فممكن إذن معرفة ما قمت به من تصرفات.. كنت حين أرى أنها تود المغامرة أسوق كلمة أو حكاية لأشجعها كي تمضي في الطريق وتطمئن. وكنت حين أتساءل إن كانت تحس ناحيتي مثلما أحس ناحيتها أقول شيئاً يستدر العطف علي، وأراقب كلمة العطف التي تقولها وأزنها بدقة لأعرف إن كانت تحوي شيئاً آخر غير العطف المجرد. وإذا رأيت انصرافها عن التفكير في، وأنت تستطيع إذا جلست إلى إنسان أن تحدد بالضبط إن كان معك ويفكر فيك أو هو يطرق بخياله ميداناً آخر، كنت إذا رأيت انصرافها عني قلت شيئاً شاذاً عن نفسي.. مثل.. أنا أكره الأطفال، ويوماً كنت سأخنق ابن جارتنا الطفل لأنه ظل يبكي لفترة طويلة ولم يسكته زجري. أقول هذا وأرقب تساؤلها وأزنة لكي ألمح فيه شيئاً آخر غير مجرد العجب من تصرف شاذ، شيئاً آخر يدل على أنها تستعجب لأن ذلك التصرف صدر عني أنا ولم يصدر عن أي إنسان آخر.

وهكذا طيلة الجلسة.

وإذا اتخذنا ما قلته عن التصرفات الخارجية مقياساً، فحين أعود بذاكرتي إلى تصرفاتها هي لا أجد سوى أنها كانت موطنة عزمها على أن الأمر مغامرة لا أكثر ولا أقل. ولكنها كانت لا تريد أن تكون البادئة ولا تريد أن تتحمل مسئولية مفاتحتي، ثم إنها كانت واثقة من «حبي» لها ولكن يبدو أن فكرتها عن الحب كانت مختلفة تماماً عن فكرتي عنه ـ وكانت تعتقد أني أستعمل كلمة الحب لأعني بها رغبة حسية تراودني ناحيتها، ولم تكن تدري في تصورها ذاك أية أشباح مخيفة تقف عقبة في طريق مثل ذلك التفكير لدي. كانت تتصرف وكأني آجلاً أم عاجلاً سأضمها وأقبلها ولكنها لا تريد أن تكون البادئة.. تريد أن تستمتع بلذة أن تؤخذ ولو عنوة

البيضاء

ولا تعلم أني في موقفي ذاك كنت آخر شخص ممكن أن يأخذها باللين أو بالعنوة. كانت تتصرف وكأنها تستعجل اللحظة التي تؤخذ فيها.

أفقت فوجدت نفسي في المجلة، كنت لا أذهب إليها في العادة إلا في التاسعة أو العاشرة بعد انتهاء عملي في العيادة، ولكني أنهيت العمل في تلك الليلة مبكراً جداً ـ في الثامنة أو ما حولها ـ وذهبت إلى المجلة. كان الباب مفتوحاً ولا أحد في الصالة أو الحجرات القريبة، وأحسست بالمكان صامتاً كئيباً كالبيت القديم المهجور. والمجلة لم تكن هكذا أبداً... كانت على الدوام مزدحمة بالناس داخلين وخارجين ووفوداً والمناقشات لا تهدأ فيها لحظة. ولكن الظرف كان قد تغير، وبدأ الخوف يمنع الكثيرين من التردد على المجلة. المترددون القليلون كانوا يزورونها خلسة، وتغير طعم المجلة حتى في أفواهنا نحن الذين نصدرها.

دخلت وجلست على مكتبي. كان في حجرة جانبية قريبة من الباب، ووجدت عليه ورقة فيها بقايا طعمية لا ريب أن عبده اختار مكتبي ليشرفه بتناول العشاء عليه. عبده فراش المجلة وساعيها ومقرض محرريها والمدعي العام بالسياسة وبواطن الأمور. مالبث أن ظهر وفوجيء بوجودي حتى لقد وقف مذهولاً في مكانه برهة.. ثم انفجر يحييني: أهلاً وسهلاً يا دكتور، انت فين؟ داحنا فاكرينك عيان. حمد الله على السلامة.

ولحظتها فقط أدركت أني فعلاً لم أتردد على المجلة منذ زمن خيل الي أنه عام وإن كان لم يتعد أياماً ثلاثة أو أربعة. وفي الحال أيضاً راودني سبب لهفتي على المجيء في ذلك المساء.. النداء الغامض الذي يهب بي دائماً أن أترك أي شيء وأهب نفسي للمجلة.. الأحساس الملح بأني

مقصر دائماً في حقها علي ، كالمدين الذي تنهش صدره ذكرى ديون .

وسألت عبده عن الزملاء وأين ذهبوا. فأخبرني أن أحداً لم يحضر ذلك المساء، حتى ولا في أثناء النهار.

ـ الأستاذ أحمد شوقي بس هو اللي جه الصبح شوية وبعدين نزل.

فتحت أدراج المكتب واستخرجت الأوراق والمواد استعداداً لبدء العمل. كان هناك مقال بدأت في كتابته ولم أتمه، ومضيت أقرؤه.. وغريب هذا ! خيل إلي أن شخصاً غيري هو الذي كتبه ، فقد أحسست أني غريب على كلمات المقال وموضوعه ، وكأني أشترك في مظاهرة صاخبة ثم بعدت عنها فجأة ، وأصبح لدوي أصواتهم من بعيد وقع غريب على نفسي . شيئاً فشيئاً بدأ الاحساس بالمسئولية والعمل ينمل في جسدي ويعود للحياة.. شيئاً فشيئاً بدأت أحس أني خلال الأسبوعين الماضيين كنت أحيا في حلم طويل استغرق أياماً كثيرة، حلم كنت أعيش فيه مع سانتي بلا عمل ولا مسئولية، أو على وجه أدق أعيش فيه وراء ظهر العمل والمسئولية .

وبدأت أكتب.

وجدت المحاولة صعبة، ووجدتني أسطر كلمات لا حياة فيها . وبدأت أشطب وأعيد الكتابة وأكاد أبكي وأنا أوقن أن علاقتي بسانتي قد استغرقت اهتمامي كله ، وإني وهبتها كل نفسي، وإني يجب علي أن أعود مرة أخرى ذلك الشاب المخلص المشتعل حماسة الذي لا يشغل تفكيره إلا الدين الذي في عنقه تجاه شعبه وقضيته .

وبدأت أنفعل وأكتب، وصورة سانتي في نفسي تبتعد وتبتعد . أبعدها بإرادتي وكأني ساخط عليها وعلى نفسي وعلى تلك الأيام الطويلة

البيضاء

من حياتي التي قضيتها عبثاً، قضيتها واقفاً في طريق جانبي ضيق لا يسع إلا عواطفي وأحلامي.

ولو كان هذا هو الذي حدث بالضبط لسار كل شيء كما أردت. ولكني طوال انفعالي وغضبي وسخطي كان هناك، وفي ركن ما من نفسي شيء أكاد ألمحه وأراه.. عينان صغيرتان متقاربتان لامعتان ساخرتان تؤكدان لي أني أضحك على نفسي وأني افتعل ثورتي عليها، وأن سانتي لم تبتعد من خيالي ولا حدث لها شيء، أنها موجودة وستظل موجودة أردت هذا أم أبيت.

هاتان العينان اللامعتان الساخرتان هما اللتان جعلتاني ـ وقد كنت منهمكاً في الكتابة ـ أبدأ أصغي لعبده، وحديثه عن الزائرة التي جاءت مع الأستاذ شوقي في الصباح. توقفت عن الكتابة وقد أدركت أنها سانتي.. ولم يكن غريباً أن تأتي للمجلة مع شوقي فمفروض انها تعمل معه. ومع هذا رحت أجهد عقلي لأجد طريقة غير مباشرة أسأل بها عبده عن كل ما أريد دون أن أثير بها حب استطلاعه الذي يثور لأقل هفوة. سألته متى جاءا، وأين جلسا، وماذا صنع لهما، والمدة التي استغرقتها المقابلة وماذا كانت ترتديه؟ الخ.. الخ..

وطبعاً لم أكن أشك في شوقي ولم يكن أحد يستطيع ان يشك فيه. فشوقي لم يكن شخصاً، كان في الواقع قضية، أو على وجه التحديد كان قضيتنا. لم أحس مرة أن له مزاجاً خاصاً أو مطلباً خاصاً. كان عقله وبالتالي شخصه يشبهان جهازاً دقيقاً مضبوطاً، عمله أن يفكر في المشاكل ويجد لها حلولاً. وعلى ذلك فشوقي هو دائماً المشكلة التي يفكر فيها بطريقة لا بد نعتقد معها أن ليس له وجود خاص أو شخصية مستقلة. كان

طويلاً أسمر ضخماً طيب المظهر، يحمل على الدوام حقيبة تحفل بأوراق وأشياء مختلفة متباينة ، بل لا تدهش إذا وجدت فيها بعض ملابسه الداخلية إذ كانت له قدرة عجيبة على العرق، وباستطاعته أن يعرق جردل ماء في الساعة أو حسبما تطلب. . كان ذكياً جداً وحساساً وعلمياً في إحساسه، فلا تستطيع أن تضبطه مرة متلبساً بشطحة من شطحات الفنانين ، وكأن مخيلته هي الأخرى تعمل كالجهاز المضبوط الذي لا يخطىء أو يتساهل. وأهم شيء في شوقي أنه يعطيك شعوراً بالثقة من أول نظرة. كنت لا أدهش أبداً حين نكون معاً في حفلة أو اجتماع أعرفه بشخص ما وأعود بعد دقائق لأجد هذا الشخص قد انتحى به ركناً ومضى يعرض عليه مشكلة خاصة جداً لا يعرضها الإنسان إلا على أخ أو صديق عريق . وشوقي كان متزوجاً وله ولدان توءمان، وعمري ما رأيته يتحدث عن مشاكله كزوج أو رب عائلة مع علمي التام بكثرة ما تحفل به حياته مع زوجته من خلافات ومشاكل .

وما كدت أنتهي من أسئلتي حتى سمعت وقع أقدام في الصالة وغادرني عبده ليرى من القادم . أما أنا فلم أكن في حاجة أبداً لمغادرة مكاني لأعرف من عساه يكون . فبمجرد سماعي لتلك الخطوات السريعة المتتالية عرفتها، وتصنعت الانهماك في الكتابة.

ولم أرفع رأسي حتى بعد أن دخلت الحجرة التي كنت فيها ، لم أرفعها إلا حين دق قلبي، وأنا أسمع هتافاً حلواً يتصاعد من الباب :

ـ هاللو !

كانت سانتي ـ وغادرت مكاني وسلمت عليها وأجلستها أمام المكتب ، وفعلت كل هذا وأنا مرتبك مشتت بين رغبتي في القيام بدوري

كمحرر في المجلة يقابل زميلة أجنبية ، وبين الجهود الضخمة التي بذلتها لأكبت انفعالاتي الخاصة .

السؤال الذي كان يحيرني في أثناء هذا كله . . لماذا جاءت ؟ ولماذا في هذا الوقت بالذات ؟

وكان من الممكن أن أوجه إليها السؤال ببساطة . . ولكني لم أشأ هذا ، أو في الحقيقة لم أستطعه . فمن لحظة أن سمعت وقع قدميها في الصالة لم أعد نفسي ، انتابتني تلك الحمى التي تنتابني كلما وجدت معها أو سمعت مسيرتها أو خطرت لي على بال . حمى سببها عشرات الانفعالات والمتناقضات التي كانت تغمر كياني كله وتبقيني تائهاً محموماً لا أعرف كيف أتصرف ، أو ماذا أقول ؟ أقهر انفعالات وتقهرني انفعالات أحاول أن أضبط شعوري فتتبعثر مني أحاسيس وتنفرط وأزداد خجلاً وارتباكاً ، ويدفعني الخجل الى مزيد من الخجل التائه المحموم .

ولم أفق قليلاً إلا حين جاء شوقي تسبقه حقيبته التي لا يمشي إلا وهو يطوحها . وسلم علينا . . وتكفلت يده الضخمة ذات الأصابع السمينة الطيبة بمحو كل ما خالجني تجاهه . ونظر الي وإلى سانتي وقال :

ـ عارفين بعضكم طبعاً ؟

وضحكنا كلنا ، وأخذنا الكلمة ببساطة ، ولكن خاطراً صفر في عقلي فجأة : ترى ماذا يحدث لو عرف شوقي فعلاً ما يدور في رأسي ، وما حدث بيني وبين سانتي ؟

ولم أحتمل مجرد التفكير في الخاطر . . طردته من وعيي في الحال ومضيت أرقب بعين مدققة الطريقة التي تتحدث بها سانتي اليه . . لم أجد فيها ما يستوقف البصر . وحتى سانتي لم تتحدث طويلاً ، ما لبثت أن

أخرجت من حقيبتها مجلة وبعض الأوراق ناولتها لشوقي ثم ودعتنا ومضت .

وأحسست بارتياح . . وغادرت حجرتي وجلست مع شوقي في حجرته نتحدث في مشاكل المجلة . . كانت هناك عقبات تحول دون صدور العدد الثاني أهمها النقود. وكان لا بد من حملة جمع تبرعات واسعة وكان لا بد أن تبدأ الحملة حالاً. وفي حماس أخذت على عاتقي عبء جمع التبرعات من عشرين شخصاً. بعضهم كان يدفع لإيمانه بالمجلة وبعضهم لخوفه منها ، وبعض آخر لمجرد إقناع نفسه أنه يؤدي واجباً ما .

ولم أعد الى البيت إلا في الرابعة صباحاً .

البيضاء

٨

ظل « عنتر » البيضاوي الجسم الذي تستقر فوق بيضاويته رأس كروية دسمة الملامح ، ظل قرابة شهرين كلما رآني يقول:

ـ ما تيـاالله يا دكتور . . الراجل ساب العيادة وح يموت . . خدها .

يقولها بصوته الهادىء الهائم كغبار الدقيق الناعم . يقولها بلا حماس وهو يمسحني بعينيه الواسعتين العبيطتين . ثم يسبلهما علامة الولاء والتقدير التام لشخصي ومصلحتي .

كل يوم كنت أراه فيه كان يقول لي هذا ، وكثيراً ما كنت أراه . فبعدما يخف ازدحام العمال في حجرة الكشف، وتنقضي ساعات الأزمة وتثوب أعصابي التي احترقت الى رماد خامل، أبدأ أتمطى وأسأل عم مرسي الباشتمرجي إذا كان قد بقي أحد بلا كشف؟ فيقول: مافيش. وأعيد السؤال فيقول: ما فيش إلا عنتر وعبلة . . و« عبلة » كان عاملاً في قسم النجارة اسمه كيرلس، وربما أطلق عليه اسم عبلة لأن اسمه الحقيقي كان معقداً . فهو يكتب كيرلس ، وينطق كوروللس . وربما أطلقوه عليه لشدة ملازمته لعنتر . . وعلى العموم فلم يكن كيرلس أول عامل يطلق عليه اسم مضحك ، فقد اكتشفت أن كل عامل من عمال الورشة له اسم

كهذا يعرف به في الورشة ولا ينادى بسواه. والتسمية تبدأ حين يدخل العامل صبياً فيرتكب خطأً، أو ينطق اسم قطعة عدة نطقاً مضحكاً، أو أحياناً بلا سبب، فيخلع عليه الأسطى معلمه اللقب. ويظل لاصقاً به بعد أن يكبر ويصير أسطى ورئيس عمال. أسماء غاية في الغرابة لا ضابط بينها أو رابط. حنتيتة، واسطبة، وشادية، وبن جوريون ، وأبو ورك، وبقبق وشالوم ، ورجل على رجل، والشيخ الشريب ، والسبنسة، وأبو زلومة وابن زليخة . وكانوا يقولون لي أنه سمي هكذا لأنه في أول يوم لاستلامه العمل في الورش وهو لا يزال صبياً جديداً طلب منه الأسطى أن يحضر له شيئاً ما فأحضر غيره، فسأل الأسطى بتريقة : أمك اسمها أيه يا ولد ؟ فأجابه بجد: اسمها زليخة ياسطى. وأصبحت نكتة تروى وتضحك عليها الورشة ، وتضاف الى تراث ضخم من المواقف والحوادث والمضحكات التي حدثت من عشرات السنين،ووجدت وحورت وأضيف اليها ولا تزال تكبر وتحيا وترويها الأجيال الماضية للحاضرة والمقبلة .

كان عنتر وعبلة يكونان وحدة غير متناسقة الأوصاف . . فعنتر كان بيضاوياً قصيراً ، وعبلة كان عمودياً طويلاً رفيعاً قليل الكلام كثير الابتسام ، يكاد لا يفقه من أمور الدنيا إلا أنه صديق عنتر وملازمه الدائم.

ولا أذكر كيف نشأت علاقتي بهما، ولكن يبدو أنهما كانا من ذلك النوع من الناس الذي يحب مجالسة كبار الموظفين ليتحدث لزملائه بعد هذا عن الصداقة الوطيدة التي تربطه بهم ، وعن كيف أمضى الليلة الماضية ساهراً مع مهندس الكهرباء، وكيف عزمه دكتور الورش على العشاء. ومع أن عنتر كان عاملاً في قسم الخراطة أو الميكانيكا لا أذكر وكان أبوه أيضاً عاملاً في نفس الورش ، وجده كذلك ، إلا أنه كان يمتلك

بيتاً من بابه . بيت هاكع كئيب من البيوت المكدسة المتزاحمة في المنطقة الكائنة خلف شركة النور . وكان قد أجر الدور الأرضي الذي يتكون من شقة واحدة مظلمة ذات حجرتين الى طبيب اسمه عطوة كان يعمل في الحكومة ثم أجبر على الاستقالة لسوء أخلاقه . ولم يكن الدكتور عطوة طبيباً فقط . . كان مدمن أفيون أيضاً . . ومدمن جلسات مع الحانوتية وأصحاب الدكاكين جيرانه في العيادة . وإذا رأيته لا يمكن أن يخطر ببالك أنه طبيب ، فقد كان نحيفاً طويلاً ذا قتب ، له ملامح تصلح لفتوة من الفتوات الذين يستأجرهم أصحاب السينمات الشعبية لكبح جماح رواد الدرجة الثالثة. وهو دائم الكحة دائم العطس والتمخط والبصق . ولا يحلو له البصق إلا أمامك على الأرض . إذا تكلم خرج صوته متحشرجاً مبحوحاً ، ولا ينطق كلمة إلا ويتبعها بسباب قذر ولو كان يتحدث عن أبيه .

والعيادة على هذه الصورة لم تكن تأتي بإيراد يذكر. وكان طبيعياً أن تتراكم الديون على الدكتور عطوة ويتراكم الايجار حتى اضطر أخيراً للتنازل لعنتر صاحب البيت عن العيادة مقابل الايجار المتأخر. وأصبح عنتر بين يوم وليلة مالكاً لعيادة لا يدري ماذا يصنع بها . كان أول الأمر يذهب ويجلس فيها ويستقبل أصدقاءه وهو سعيد بالجلوس على مكتب الدكتور عطوة الكالح ، وإذا قابله أحد أصدقائه أو معارفه قال له : ما تخلينا نشوفك .

ـ أشوفك ازاي ؟

ـ تعال لي العيادة يا أخي .

وتندمج بيضاويته بالسعادة حتى يكاد يتحول الى كرة.

غير أنه بعد وقت تبين أنه الخاسر . وإن عليه أن يبيعها . وهكذا بدأ « يشتغل» علي لأشتريها ، ولكنه كان يخاف إن أنا عرفت قصة الإيجار المتأخر والخسارة أن أرفض الشراء، فادعى لي أن الدكتور عطوة فوضه في بيعها ، وأنه يريد خدمتي فقط، وكل يوم يراني فيه يقول:

- ماتيا الله يا دكتور. . الراجل ساب العيادة وح يموت . . خدها بقى.

وفي البداية لم أكن أنصت لكلامه أو أعيره اهتماماً، فلم يكن في نيتي أبداً أن أفتح عيادة. كنت أريد أكمال دراستي العليا في الكلية وكل عام كنت أقول لنفسي : سألتحق هذه المرة بالدبلوم . ويأتي أول أكتوبر ويذهب تاركني أحلم مرة أخرى بالحصول على الدبلوم. ثم جاء الوقت الذي صرفت النظر فيه عن أي أمجاد طبية وشهادات واستسلمت للأمر الواقع ، ولوظيفة طبيب الورش وغمها ونكدها. والحقيقة لم يكن استسلامي استسلاماً كاملاً، وكانت أحياناً تنتابني لحظات أقرر فيها أن أغير مجرى حياتي تغييراً جذرياً وأسلك طريقاً آخر.

أحياناً أفكر في العمل كطبيب باخرة، وأحياناً أفكر في السفر الى السودان أو الكويت ، وأحياناً أتمنى لو تركت المهنة نهائياً والتحقت بكلية الآداب. . ما من يوم كان يمر علي إلا وتنتابني أفكار كتلك . لا بد أن هناك حياة أخرى أروع من حياتي تلك . لا بد أني لو أخذت قراراً حاسماً وغيرت عملي سيحدث لحياتي تغيير ضخم وتتفتح الآفاق أمامي . وأسخف ما فينا أننا دائماً نفكر بطريقة ونحيا بطريقة أخرى ، ونثور على طريقة حياتنا،ومع ذلك نظل نحياها وبنفس الطريقة. أسخف ما فينا هو ركوننا الى العادة . . العادة المملة الرتيبة التي تترسب كبرادة الحديد في

البيضاء

مادتنا الحية فتحيل سيولتها المشبعة بالحركة والنشاط الى جمود وتبلد وسكون . والعادة تلك هي التي كانت تتولى القضاء على خططي ومشاريعي . أصحو من نومي فإذا بي أرتدي ملابسي بسرعة وقلبي يدق خوفاً من التأخير . . كالمنوم آخر طريقي الى الورش وقد نسيت كل شيء عن الأحلام الهائلة التي راودتني جزءا كبيراً من الليل .

وفي لحظة كتلك قررت أن أسمع كلام عنتر وأنا أقنع نفسي بأني بهذا قد أغير حياتي .

وحدث واشتريت العيادة. وكل ما دفعته ثمناً لها وإيجاراً لشهر كامل خمسة عشر جنيهاً، أخذها عنتر وعدها مراراً أمامي وهو « يستشوي » المبلغ علناً أمامي، وإن كان بينه وبين نفسه يعتقد أنه ضحك علي .

وبمساعدة زملاء عنتر من العمال أصلحناها ودهناها بالزيت واشتريت لها بعض الأثاث. وطمس خطاط الورشة اسم الدكتور «عطوة البرادعي » وكتب اسمي على اليافطة التي كان لا يقل طولها عن سبعة أمتار. وحين ذهبت الى العيادة ووجدت اليافطة مركونة الى الحائط والخطاط يضيف إليها لمساته الأخيرة. وبعض الصبية والمارة من الرجال والنساء واقفون غير بعيد يراقبون ويتهامسون ، أحسست بخجل شديد وكنت في أوائل معرفتي بسانتي. ولأمر ما تصورتها وقد جاءت في تلك اللحظة ووقفت تتفرج هي الأخرى على اسمي « يحيى مصطفى طه » وهو يمتد مسافة سبعة أمتار وتحته عشرات الألقاب التي لا معنى لها : طبيب امتياز بقصر العيني ـ وبين قوسين ـ سابقاً ، حكيمباشي مستشفى الأمراض المتوطنة بوزارة الصحة ـ وبين قوسين ـ سابقاً . والمضحك في مسألة الحكيمباشي هذه أن الحكاية كلها أني بعد أن قضيت سنة امتياز

اشتغلت في مستشفى بلهارسيا وانكلستوما متنقل، ولأني كنت هناك الطبيب الوحيد فليس هناك مانع أن أعطي نفسي الحق في أن أكون حكيمباشي على نفسي خاصة وكل زملائنا الأطباء كانوا يفعلون هذا . . تصورت سانتي ترى هذا وترى الثلاث طوبات التي تكون اسمي وقد أصبحت ثلاث دبشات كبيرة، وأروح في غيابات خجل لا قرار لها . .

وأخيراً بدأت العمل في العيادة، والزيت لا يزال طرياً ، ورائحته تملأ الحجرتين الضيقتين والصالة الصغيرة. . وأنا حائر كيف أعامل الزبائن. أجرب نفسي أمام المرآة التي خلفها الدكتور عطوة وأتحدث وأبتسم. وأفعل هذا وكأني لم أتعود الكشف على أحد أو استقباله، مع أني كنت قد عملت في الحكومة سنوات وقابلت آلاف المرضى . ولكن الزملاء الأطباء كانوا قد علمونا أنه إذا كان المريض في مستشفيات الحكومة عبداً ، فهو في العيادة السيد المدلل ، وعلى الطبيب الذي يريد أن يكسب الأجر والزبائن ويقتني العربات ويبني العمارات أن يتعلم كيف يعامل المرضى في عيادته معاملة هدفها كسب قلوبهم، كخطوة أولى يعامل المرضى في عيادته معاملة هدفها كسب قلوبهم ، كخطوة أولى لكسب ما في جيوبهم . والابتسامة الأولى التي يرتديها الطبيب كما يرتدي معطفه الأبيض ويعلقها على ملامحه كما يعلق السماعة ليقابل بها الزبائن بهمة . فلا بد أن تكون حاوية لأشياء كثيرة، الأدب وطيبة القلب وكبرياء المهنة وتواضع العلماء .

أجرب نفسي أمام المرآة وأجدها ابتسامة عسيرة، وألعن نفسي لهذا الزيف . أشك في التومرجي الذي كان يتولى إعطاء الحقن « ومعظم إيراد العيادة كان يأتي من الحقن التي يحضر المرضى لأخذها وقد وصفها لهم

البيضاء

الأطباء الكبار والمشهورون » . وأفعل هذا كله وفي ظني أن العيادة حين تعمل وأبدأ أشفي المرضى والجرحى وأداويهم سيتغير كل شيء ، وستتغير نظرتي الى العالم ، وقطعاً سيتغير طعم حياتي في فمي .

وشيئاً فشيئاً بدأت أعمل ، وبدأ الزبائن يقبلون متعثرين ، وبعضهم كان يسأل عن الدكتور عطوة ، وحين يعرف أنه ترك العيادة يصاب بخيبة أمل شديدة ويلح في طلب عنوانه الجديد . وأعجب أنا كيف استطاع عطوة بكحته وبصقاته وأفيونه أن يحظى بثقة مريض يتكلم عنه كما لو كان يتكلم عن «أبو» قراط أو جالينوس . ولكني بدأت أعلم ، وبدأ الأجزجي صاحب الصيدلية المجاورة يتحدث عني ، ويختلف الناس في القهوة القريبة على مدى شطارتي وخفة يدي ووزن دمي وأخلاقي .

ولم يتغير طعم حياتي بالعيادة . كل ما حدث أن أضيف إلى وجوهها المتعددة وجه آخر ، وجه جديد له مشاكله وأحزانه وأفراحه ووقته المحدد الذي لا يحتمل أي تأجيل . أعود إلى البيت في الظهر وعقلي صفحة مضطربة مظلمة ، وألهف الطعام الماسخ بسرعة خاطفة استعداداً للنوم أو لمجيء سانتي . فإذا نمت استيقظت في الخامسة والنصف محمر العينين في رأسي نوم كثير لم يشف غليله بعد . وأرتشف الشاي الذي لا بد منه في جرعات كبيرة خاطفة لاسعة ، ثم أجرى إلى العيادة . كانت في الدور الأرضي وجدرانها والجدران المؤدية إليها حافلة بالرطوبة والرشح ، والمنزل لا يشجع أحداً على الدخول ، واليافطة ضخمة كبيرة كيافطة الأوكازيونات ، وأناس كثيرون أحييهم وأنا في الطريق ، وعنتر لا بد أن ينتظرني كل يوم عند قمة الشارع وبجواره عبلة ، طويلاً رفيعاً غامق السمرة كبندقية ذات ماسورة واحدة معلقة في كتف عنتر . وبكل هليهليته يجري عنتر بجواري وأنا مندفع في طريقي إلى العيادة ، ويقرصني في يدي

وهو يشير إلى الناس : ده فلان ، وكأني أعرفه . وده قريب شيخ الحارة . والرجل ده ينفعنا قوي. وشايف اللي حاططرجل على رجل ده ؟ ده الناس بتسمع كلامه لما يجيلك ابقى اتوصى في الكشف. أيوه اسمع كلامي بس !

وأسمع كلامه وأهز رأسي وأنا لا أدري أهو ينصحني لنفسي ام ليضمن إيجاره .

وندخل العيادة معاً . ونادراً ما كنا نجد فيها منتظرين. ويجلس معي في حجرة الكشف، ولا بد أن يجد موضوعاً ما يحدثني فيه . وأحب المواضيع إليه كان حديثه عن خلافاته مع أخواته البنات حول الميراث وحول هذا البيت بالذات . ثم يقطع حديثه فجأة ويقول:

ـ ماتيا الله نزور الأجزجي .

ونزور الأجزجي، ونسلم على الحانوتي، ونشرب قهوة عند المعلم « سمبو» صاحب القهوة المقابلة، وأجد نفسي فجأة قد بدأت أحيا ـ بفتح العيادة ـ وسطمجموعة كبيرة حافلة من الناس لا أعرفهم ولا خبرة لي في معاملتهم أو استجلاب رضائهم، وعنتر لا يصلح أبداً كدليل ألجأ اليه عند الحاجة، فلم يكن يستطيع أن ينفي شيئاً أو يؤكد شيئاً له ، أقول له: أمين صندوق النقابة حرامي. فيقول:

ـ أيوه. . . ما فيش مانع . . دا طول عمره بيسرق. . بس ما بيسرقشي كتير. . دا حتى باينه ما بيسرقشي خالص.

وكنت أحياناً أضيق بعنتر وملازمته الدائمة لي وملحقه كيرلس أو عبلة هذا . الزبائن كان هو الذي يجلبهم وهو الذي يقابلهم ويوصي عليهم

البيضاء

والبيت ملكه وصاحب الأجزخانة صديقه ، وحتى التومرجي هو الذي أحضره واتفق معه، وهو الذي يتولى محاسبته ومراقبته. كنت أضيق به في تلك اللحظات التي أتلفت فيها فأجد نفسي في عيادتي وأدرك أنها عيادتي وأنني أعالج فيها وأشفي وأحقق بها حلماً قديماً صاحبني منذ دخلت كلية الطب . ويملؤني الإدراك بفرحة الطفل حين ينفرد أخيراً بلعبة محببة خاصة . ساعتها أبدأ التفكير في المشاريع للعيادة، وأحلم بمستشفى كبير وحجرة عمليات ضخمة، واكتشاف علاج ناجح للسرطان ، والحصول على جائزة نوبل.

ولا أستطيع أن أضع حداً فاصلاً لما حدث . فجأة بدأت أحس أني لم أعد شديد الحماس للعيادة ومشاكلها ومشاريعي لها . ولم تعد لمواعيدها تلك القدسية التي أخاف ان أخدشها . وليست العيادة فقط . المجلة هي الأخرى ندر ذهابي اليها ، حتى أن شوقي اضطر أن يسحب مني باب بريد القراء ويعهد به الى فتحي سالم . ولم أغضب أو أنفعل، ولو حدث هذا في أي وقت آخر لثرت ثورة عارمة . وعملي في الورشة أصبحت أزاوله بغثيان. والدراسات العليا التي التحقت بها . وهواية الكرة . وزيارات أهلي وأصدقائي بدأت أحس أن كل شيء آخر في حياتي أصبح مجرد مضايقة لا غنى عنها ، ومشاكل علي أن أتخلص منها لأتفرغ لسانتي .

لا أستطيع أن أضع حداً فاصلاً لما حدث، فقد وجدت نفسي ذات يوم أعدي كوبري «أبو» العلا وأجوب الشوارع الواقعة في الزمالك بحثاً عن شقة أو حجرة أو أي مكان في ذلك الحي الهادىء المهيب يصلح سكناً لي .

ولم أختر الزمالك لأسباب تتعلق بالأرستقراطية والرغبة في السكن في حي راق . اخترتها لأني كنت قد وصلت إلى درجة أصبح فيها الهدوء

بالنسبة لي هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحول بيني وبين الجنون .

وأقرب مكان هادىء لعملي في بولاق كان الزمالك. وراعيت أن أبحث في الشوارع الضيقة والبيوت المحتملة الإيجار. وعدت من بحثي أول يوم وأنا يائس تماماً من العثور على بغيتي. فمرتبي كان بالضبط ستة وعشرين جنيهاً ، وأقل شقة رأيتها كانت بمبلغ وقدره .

ولاحظ عنتر وجومي في ذلك اليوم ، وحين أخبرته بالمشكلة قال:

ـ ولا تزعل . بكره نسكنك في الزمالك .

وانطلق من فوره يتبعه عبلة .

ولم تكد تمضي ساعات حتى كنت أوقع العقد مع وكيل صاحب البيت ، ولولا هذا ما صدقت عنتر أبداً حين جاءني ليلتها وقال:

ـ خلاص لقينا الطلب.

وتبدت لي بذلك خاصية أخرى لم أكن أعرفها عن عنتر، فقد كان يعرف عدداً هائلاً من الناس موزعين في جميع أنحاء القاهرة وحتى في الأقاليم . الواحد منهم تجده عاملاً في الترسانة مثلاً وله ورشة صغيرة يعمل فيها بعد الظهر، أو تجده صاحب محل عجلات ويتاجر في العربات المستعملة، أو « كيسير » في مخزن أدوية وسمسار عمارات. أفراد متناثرون في كل حي وشارع، ولكنهم يكونون مجتمعاً متعاوناً شعاره: نفعني وأنفعك، ويعرفون بعضهم بالاسم والعنوان. وأطلب من أحدهم أي شيء يحضره لك في الحال، أو أن لم يستطع فعلى الأقل يدلك على من يحضره.

وبتلك الطريقة وجد لي عنتر شقة، شقة كاملة ، وفي شارع من شوارع الزمالك المهمة، وبثمانية جنيهات فقط.

البيضاء

وكان لقاء مؤثراً ذلك الذي تم بيني وبين صاحب البيت . قلت للبواب العجوز الذي كان يختفي بالأيام ثم يظهر فجأة، قلت له إني سأعزل. ولم يبد عليه أنه فهم أو اهتم بما قلت ، ولكني بعد ساعة وجدت صاحب البيت قد جاء بنفسه معفر الملابس، معطفه الأسود كاد يصبح رمادي اللون ، وحتى طربوشه لم يسلم من الغبار. وعاتبني بتأثير شديد قائلاً انه بذل المستحيل لراحتي . ورفض أن يؤجر دكاناً لتاجر سمك «مخصوص» من أجلي . ودمعت عيناه وكادت عدوى التأثر تنتقل إلى لولا أني غيرت الموضوع وسألت عن أحواله . . ولم أتمالك نفسي وأشرفت على الضحك وهو يخبرني بصوت لا يزال يحفل بالتأثر أنه ضرب عرض الحائط برأي أولاده وفتح الدكان مرة أخرى ومشغول فيه إلى شوشته، ولولا معزتي لما غادره في ساعة كتلك .

وانتقلت إلى بيت الزمالك الجديد . كانت الشقة في آخر طابق والبيت مكون من خمسة أدوار ورغم زمالكيته فلم يكن فيه مصعد والسلم طويل ومتعب، ولكن الشقة كانت لطيفة خفيفة الدم مكونة من حجرتين وصالة صغيرة وممر طويل لا يعرف سبب طوله ، يؤدي إلى مطبخ واسع أهم ما فيه طرابيزة رخامية كبيرة مثبتة في الحائط والضوء كان يملأ الشقة كلها حتى الحمام ، والهدوء جميل تحس به مستتباً حولك في الشقة وفي البيت والحي حتى لتخاف عليه أن ينقطع أو ينتهي.

وكان عيب الشقة الوحيد ، وربما كان سبب إيجارها المخفض ، أن نوافذها تقع في ناحية خلفية، وتطل على ظهر العمارة المقابلة وسلم خدمها، ومن أول نظرة عرفت أن لا فائدة ترجى من نوافذي، فقد رأيت المشهد الذي لن يتغير. الخدم الصاعدين والهابطين ، وصبيان البقالين وبائعي اللبن ،وكل هؤلاء الذين لا تستقبلهم إلا أبواب المطابخ .

وحين وضع العفش في الشقة بدت أنيقة، إذ كنت قد استغنيت عن معظم ما كان لي في شقة بولاق، وهبطت إلى أحد المحلات التي تبيع أثاث المزادات ، وبالسبعة والأربعين جنيهاً فرق العلاوة التي ظللت انتظر صرفها نصف عام وأضع لاستغلالها الخطط أشتريت حجرة مكتب أنيقة لها كرسيان ضخمان مريحان وسجادة وصورة وفازات وستائر .

وكنت قد خرجت من شقة بولاق في الصباح وعهدت الى عنتر وعبلة بمهمة التعزيل الذي لا أكره شيئاً قدر ما أكرهه، وعهدت اليهما أيضاً بمهمة صعبة : محاسبة أم عمر وإبلاغها أسفي لاضطراري للاستغناء عن خدماتها . وعدت من الورش الى البيت الجديد مباشرة، ووجدت كل شيء قد نفذ كما أردت تماماً، وأهم شيء إني لم أعثر لأم عمر على أثر وكان خوفي الأكبر أن أذهب الى الشقة الجديدة فيطالعني وجهها أو يلسع أذنى نباحها .

وقضيت وقتاً طويلاً أجمل الصالة وحجرة المكتب، وأختار أنسب الأمكنة لقطع الأثاث القليلة، وأخرج من الشقة وأغلق الباب ثم أعود وأفتحها وأدخل لأرى وقعها على العين الغريبة، وأجرب الجلوس على الكرسيين وأسدل الستار الرقيق على النافذة ليختفي المشهد الخلفي وأمتحن كل شيء بنفسي لكي أطمئن، وكنت وأنا أفعل هذا كله لا أنظر بعيني ولكني انظر بعينها هي، وأرتب كل شيء لكي يبدو لها هي أجمل ما يكون . إذ كان الأوان قد آن لأعترف بالسبب الحقيقي في انتقالي من بولاق الى الزمالك . والهدوء حجة قلتها لنفسي أول الأمر، ولكن وراء هذا كانت تكمن رغبتي في إعفاء سانتي من مشقة اقتحام المظاهرة البولاقية الدائمة للمجيء إلي، وأهم من هذا رغبتي في أن أجمل المكان الذي نلتقي فيه ، وإن استطعت أجمل حياتي كلها من أجلها . ولم أكن أفعل

البيضاء

هذا بهدف أن أظهر لها في مظهر غني أو لائق ، ولم أكن أفعله للضحك عليها أو تجميل صورتي في خاطرها ، بل لم أكن أفعله بارادة مني أو من أجل سبب محدد واضح ، وكنت أفعله بلا وعي ودون أن أحس أني أفعله .

ماذا أقول ؟

يخيل إلي أننا حين نتحرك وحين نعمل وحين نأكل وحين نصر على أخذ أجازتنا السنوية . وحين نقرأ كتاباً أو نشاهد فيلماً أو نسترخي ونحلم ، يخيل إلي أننا نفعل هذا كله نبحث عن شيء وراء هذا كله ، شيء لا نجده في الطعام فنبحث عنه في الكتب ، ولا نجده في الكتب فنبحث عنه في الصداقة والعمل ، ولا نجده في العمل فنبحث عنه في الأحلام . شيء نؤمن أنه موجود ولكننا لا نعرف ما هو وكيف نجده . ولهذا تستمر عملية بحثنا عن هذا الشيء المجهول ، ويستمر أملنا في العثور عليه ، وبالاختصار نستمر نحيا . ويحدث في أحيان قليلة أن يعثر الواحد منا على هواية مثلاً ، على قضية يؤمن بها ، على زوجة ، وإذا به يدرك أنها الشيء الذي كان يبحث عنه طوال حياته ، وقد يدرك بعد فترة أنه خدع وأنه لا يزال عليه ان يبحث ويكد ، ولكنه ما أن يعثر على شيء كهذا حتى يصبح محور حياته وهدفها الأول .

أنا الآخر كنت قد بدأت أدرك ان سانتي قد تبلورت فيها كل أهدافي في الحياة ، وقد أسخر الآن من نفسي ، ولكني أيامها بدأت أؤمن حقيقة أن سانتي أكبر حتى من أن تكون عماد حياتي وهدفها الأول . إنها أروع وأسمى وأعظم من أن تصبح فقط مجرد هذا الهدف ، ولو كان الهدف هدف حياتي كل ما أمتلك .

وأصبح كل شيء معداً لاستقبالها ، الحي الهادىء ، والشقة ، ومكان

جلستنا، والبنطلون والقميص اللذين كنت في العادة أقابلها بهما وفنجاني القهوة الجديدين ، وحتى المفرش الصغير المشغول الذي زينت به مائدة الوسط الصغيرة المنخفضة .

وكنت قد أعطيتها العنوان .

وكما توقعت تماماً دق جرس الباب في الثالثة . . أول جرس باب يدق.

وذهبت وفتحت الباب. كانت تقف بعيدة قليلاً عن الفتحة مرتكزة الى الحائط بطرف كتفها، وفي وجهها شحوب قليل من الاجهاد الذي يصاحب صعود السلم العالي، وعلى شفتها العليا نقاط عرق صغيرة وكانت تلهث ، أول مرة كنت أراها تلهث ، وبدا لي لهثها جميلاً رشيقاً وكأن صدرها « أكورديون » يعزف لحناً رشيقاً .

وحين رأتني ابتسمت، وتنحيت عن وقفتي في الباب وأنا أرحب بها . وما لبثت هي أن أنسلت وسبقتني إلى حجرة المكتب ، وحين كنت أتبعها إلي الحجرة شعرت بقلبي يدق دقة واحدة كطلقة مدفع . ثم يتوقف دقه ليعود متتابعاً مضطرباً عالياً. كان قلبي يفضح تفكيري، وكان معنى دقه ذاك أني مقبل على أمر خطير.

والواقع أني كنت فعلاً مقبلاً على أمر خطير.

كنت بعد مناقشات طويلة مع نفسي، وتفكير استغرق مني مئات الساعات . . تفكير كان يشغل كل وقتي في العيادة والورش والطريق منهما إلى بيتي. . تفكير منعني حتى أن أتبين عملية التعزيل التي قمت بها . . تفكير وبخت فيه نفسي كثيراً إذ وجدت أن الايحاء بالحب عن طريق الخطابات وقصائد الشعر المنثور بالانجليزية عبث أطفال وأشياء لا

يلجأ اليها إلا المراهقـون الحمقـى . وأنـا لم أكن مراهقـاً ، كنـت في الخامسة والعشرين ، وأتحمل من المسئوليات ما يعجز عنـه رجـال في الأربعين والخمسين . . وكنت قد وضعت نفسي في موقفها ورأيت أني لو كنت مكانها لما فكرت أبداً في حب شاب يلمح لي بعواطفه علـى تلك الصورة . قلـت لنفسـي : الحـب بالنسبـة للمـرأة يعـد أكبر حدث في حياتها ، وحين يحدث يصبح هو كل الحياة، ولا يمكن أن تهب المرأة حياتها صدفة لإنسان ضعيف. ومن يجعل الخطابات وسيلته للاعتـراف بالحب ، إنسان خواف ضعيف لا يمكن أن يملأ عين امرأة يستولي على نفسها أو حتى انتباهها.

كنت قد صممت على نبـذ كل تلك الوسائـل الملتـوية، وعلـى أن أعترف لها بصراحة ومواجهتها بكل شيء. . وأن أتقبل النتائج بشجاعـة مهما كانت . واعترافات كهذه لا تتم إلا في جو معين ، وفي حالة معينـة حالة يتقارب فيها الطرفان تقارباً شديداً، حالة تخـرج فيها كلمات الحب في جو أليف يلفها ويحتضنها ويعطيها طعم الحب .

ولهذا دق قلبي.

فمثل هذا الجو لا يأتي إلا بعد عناق طويل مثلاً، أو قبلة، أو تجاوب أكيد مشترك .

وجلست صامتـاً صمت من يتحين الفرصة ويعد العدة للانقضاص . وجلست على طرف الكرسي ذي المساند، ووجههـا قد استـرد حمـرتـه وملامحها قد استردت نشاطها وحيويتها.

وقدمـت لهـا سيجـارة وجلسنـا ندخـن في صمـت. وأمامنـا جهـاز أوتوماتيكي لصنع القهوة كان أول وآخر هدية أتلقاها من أخي الأكبر. وكان

ثالثنا كلما جلست مع سانتي . . ندخن ، بخار القهوة يتصاعد في أزيز رقيق وسحب الدخان تتكاثف ثم تنقشع . والضوء في الحجرة قليل والزمالك من حولنا واحة سكون مستتب، وعلى وجهي ابتسامة معوجة لا تطاوعني كلما حاولت أن أجعلها ابتسامة حبيب اختلت وكادت تصبح ابتسامة أبله .

وبدأت حديثاً متعمداً عن الشقة الجديدة، وقالت إنني بانتقالي قد وفرت عليها المسافة والزمن . ولم أحاول أن أسألها لماذا . وكأني كنت قد عاهدت نفسي على ألا أسألها عن شيء لم تتطوع هي بقوله ، فلم أحاول أبداً أن أعرف كنه عملها هي الغنية التي كان واضحاً أنها ليست في حاجة للعمل ولا أين تسكن ومع من وكيف تحيا؟

وقامت من تلقاء نفسها تتفرج على الشقة ، وقمت مضطراً وراءها . كنت طوال الوقت أفكر في الخطوة التالية والطريق إلى الخطوة التالية ، وكل ذرة في كياني تتأهب للحظة التي ظللت أتحفز لها طيلة الأيام الماضية.

وعدنا إلى جلستنا ، وبدأنا حديثاً ما في السياسة، ولاحظت انها تسرح قليلاً. ربما كانت متعبة، ولكنني كنت أفسر سرحانها لمصلحتي. قلت لها وأنا أريد فقط أن أواصل الحديث كي لا يحل الصمت . وعدوى المرعب من ذلك اليوم كان هو الصمت، أي صمت .

ـ يحيرني شيء فيك .

فقالت وهي تحاول أن تخمن ما يحيرني :

ـ ماذا ؟

قلت:

ـ فتاة حلوة مثلك، ماذا يدفعها لعمل شاق معنا ؟

قالت وهي تضحك :

البيضاء

ـ تقصد أن تؤنبني لأني أحشر نفسي في قضيتكم ؟

وحاولت أن أحتج ولكنها مضت تقول:

ـ اسمع ! إنه شيء من الصعب تفسيره، وأنا شخصياً كثيراً ما أسأل نفسي هذا السؤال ولم أجد له أية إجابة محددة. أنا أجنبية حقيقة، وحتى الفترة التي عشتها هنا كنت فيها أجنبية أحيا في مجتمع أجنبي كامل. ولكن العطف أبداً لم يكن هو الذي دفعني للاهتمام بشعبكم وقضيته وربما هي أنانية مني. ولكني أسعد بهذا العمل جداً، ولو حرمت منه أعتقد أني سأحزن كثيراً، بل ربما لا أستطيع البقاء هنا، هناك أناس هكذا لا يستريحون إلا إذا أتعبوا أنفسهم. . يبدو أنني من هذا الصنف.

وشاركتها ضحكتها القصيرة المنخفضة، وفعلت هذا استعداداً لسؤالها ذلك السؤال الذي أردت دائماً أن أعرف إجابتها الحقيقية عليه :

ـ هل تحبين بلادنا وشعبنا حقيقة يا سانتي ؟ كحبك مثلاً لليونانيين ؟

وصمتت قليلاً قبل أن تجيب. وجدت صمتها يقلقني وكأني كنت أسألها عن حبها لي. وبقلق أعظم مضيت أترقب إجابتها. قالت :

ـ حتى لو قلت لك اني أحبها أكثر من اليونان فلا تصدقني.

ـ ولكنك ولدت فيها وقضيت عمرك كله هنا.

ـ ولو! اسمع . . اني مستعدة أن أموت من أجلكم، ولكن كل عائلة تغادر بلادها وتهاجر تصبح كالمركب الذي يرفع علم بلاده دائماً وفي أي مكان. وأنا ولدت من عائلة يونانية، أي عشت طوال عمري على أرض بلادي. ولكن صدقني حين أقول لك إني على إستعداد لأن أفعل أي شيء، حتى الموت نفسه من أجلكم.

وجدتها قد بدأت تنفعل فقلت وأنا أضحك وأنهي الموقف :

ـ على العموم يكفينا منك هذا . .

وخفضت رأسها في شرود.

وكنت من لحظة أن جاءت أقول لنفسي : هه . . الآن .

ثم أعدل في اللحظة التالية .

ووجدت جسدي يقشعر فجأة، واعتقدت ان اللحظة قد حانت فقلت لها :

ـ فلنسمع رحمانينوف.

ومضت مستسلمة الى « البيك آب» وفتحته وانحنت تضع الأسطوانة فقمت من جلستي خلف المكتب، وفي خطوات متعثرة مترددة وصلت إلى « البيك آب »، وفي تلك اللحظة كانت قد أغلقته وارتكزت عليه وتصاعدت أنغام البيانو تعلن بداية الكونشرتو الثاني .

قلت لها :

ـ سانتي . .

فنظرت إلي باستغراب قليل وقالت في ابتسامة مذهولة أو ذهول مبتسم :

ـ ما الأمر يا يحيى ؟ آه . . ما الأمر ؟

وارتجفت يدي وأنا أحملها فوق طاقتها لترتفع ثم تستقر فوق كتفها وظلت ترتجف حتى بعد أن استقرت فوق الكتف النحيف. لم أكن قد رتبت لهذه اللحظة ما أقوله، كنت قد تركت كل شيء للظروف والصدفة ولهذا قلت بعد تردد :

ـ ما رأيك ؟

البيضاء

فقالت بنفس الدهشة:

ـ في ماذا ؟

فقلت وأنا أضحك لأحيل الموضوع إلى نكتة ، حتى إذا فشل المشهد لا أصاب بخيبة أمل كبيرة :

ـ فيما قلته في ذلك الخطاب . . أتذكرينه ؟

وكادت تضحك، وقالت وهي تتخلص برشاقة وبلا إحراج من يدي المستقرة فوق كتفها :

ـ ألا ما زلت تذكره؟ . . . لقد نسيت أنا كل شيء .

وكنت أعرف أنها لم تنس أي شيء. ولكن ماذا أقول؟ قلت:

ـ ولكني أنا لم أنس شيئاً .

ـ يح . . يا .

قالتها وهي تميل برأسها قليلاً تستنكر وتلوم . .

وتتابعت دقات قلبي عنيفة مدوية، وقلت وأنا أمسكها بكلتا يدي:

ولن أنسى شيئاً أبداً . . أبداً . .

وجذبتها ناحيتي .

وارتدت إلى الخلف بلين أول الأمر تريد أن تواصل خطتها في التخلص مني بلا إحراج ، ولكني لم أذعن لمقاومتها اللطيفة وجذبتها أكثر، فقاومت أكثر.

وتبخر كل حدس وتخمين .

كنت أظن أني لو استطعت أن أتغلب على خجلي ومقاومتها مرة

وعانقتها ، فسينتهي كل شيء وستخضع للأمر الواقع .

واندفعت أضمها بشدة. ووجدت مقاومتها تشتد هي الأخرى وتعنف.

وأحسست بالمرارة تملأ نفسي، لا لأنها قاومت بشدة، ولكن لأن تلك المقاومة وبتلك الدرجة كانت تعني أنها في واد وأنا في واد آخر مختلف تماماً . لو كانت تحس بمثل ما أحس به لما قاومتني هكذا . وأنا كنت أقول لنفسي أن ما ينقصها لإظهار عواطفها هو لحظة مناسبة تحين ، وها هي اللحظة تأتي فلا أجد سوى المقاومة .

حدث كل شيء بسرعة ، وبسرعة أيضاً انتهى المشهد. وكنا لا نزال على وقفتنا بجوار «البيك آب» وكلانا يواجه الآخر ويتحداه ، وشعرها مشعث منكوش، واحمرار وجهها يضج بالانفعال والاستنكار. وأنا أنظر إليها نظرات تحفل بالمقت والكراهية وخيبة الأمل. وأكثر من هذا فيضان عارم من الخجل. . خجل منها وخجل من نفسي. . خجل كان له وقع كاو مؤلم أكاد أصرخ معه وأستغيث.

وقفنا يواجه كلانا الآخر. . في وجهها شيء أشبه بالشر المستطير، وفي وجهي ابتسامة باهتة سخيفة كافحت لكي احتفظ بها حتى تمنع انبثاق كل ما في جوفي من نوايا مستطيرة هي الأخرى . وكل هذا وأنغام رحمانينوف الرقيقة الحالمة لا تزال تتصاعد من «البيك آب » ولا نزال مضطرين لسماعها ، والجو ملبد حافل مشحون لا مكان فيه لرحمانينوف .

ظلت سانتي واقفة جامدة للحظات تحدق فيّ ولا تتكلم ، وتحديقها يستفزني لدرجة أفكر معها في معاودة الكرة . وخاطر شرير يهيب بي أنها

البيضاء

إنما تحدق هكذا من أجل ان أعيد الكرة ، وجبن غريب يشلني عن أن أفكر مجرد تفكير في المحاولة .

وتحركت فجأة وبحثت عن حقيبتها بسرعة .

وتابعتها بلا مبالاة أول الأمر، ولكن صمتها الذي طال أقلقني فقلت لها :

تريدين طبعاً أن اعتذر لك ؟

ولـم يهمنـي ما غمغمـت به . ولـكن كان يحيرنـي ويخيفنـي هذا الاستنكار الضخم الذي كان يشع من ملامحها . وكان عقلـي مشحوناً بافتراضات كثيرة، وارتباك أكثر، وهاتف طاغ يهيب بي أن آخذ مقاومتها تلك على أنها مقاومة الأنثى الطبيعية جداً، ولكني أرى وجهها، وفيه ذلك الشر الأصفر المستطير فأتردد، وأحس أنـي مرة أخـرى أمـام ذلك اللغـز الأبدي . . المرأة، ذلك الكائن المجهول العقل الذي لا نعرف مهما خمنا ماذا يدور فيه وماذا يريد وماذا يرضيه وماذا يسخطه! المرأة، الحياة وسرها معاً، اللغز الحبيب المقيت .

وكانت حركتها هستيرية عصبية. ورغم كل ما كانت فيه من اضطراب واستنكار فقد وقفت أمام مرآة الصالة وأصلحت شعرها.

ولم أدعها تغادر الشقة وحدها .

وركبنا « تاكسياً » .

وقالت بعد صمت غامض محير طويل:

ـ لن أسكت عما فعلت .

وكانت قد انتابتني حالة رثاء للنفس أكاد أبكي معها، لا لمـا حدث

ولكن لأني برغم ما فعلته لم أجد عندها صدى، ولم تستجب.

وقلت لها وموجة اللامبالاة التامة تعود:

- أنا لا يهمني شيء بالمرة. لقد فعلت ما فعلت مدفوعاً بعواطفي نحوك. وأنا مستعد أن أتحمل نتيجة اندفاعي.

قالت:

- لو كنت أتصور أنك قد تفعل شيئاً كهذا لأختلف الأمر، ولكني كنت أعاملك على مستوى آخر.

قلت لها بضيق:

- أرجوك، ليس هناك داع للتأنيب. إذا أردت حتى إقامة دعوى علي أقيميها. لست نادماً ولا آسفاً.

كنا لا نزال نحيا في اللحظة التي أعقبت محاولتين، ولا يزال جو التوتر والتأثر سائداً.

وحين كان التاكسي يقترب بنا من بيتها في كوبري القبة قلت لها:

- معنى هذا أني لن أراك.

والتفتت إلي مأخوذة كمن مستها صاعقة وقالت:

تراني؟

وأمرت التاكسي بالوقوف قبل منزلها. ودون أن تنظر إلى هبطت بسرعة ثم غادرته ورأسها مرتفع في كبرياء مصنوع.

وتذكرت وأنا أراها تمضي بسرعة في الطريق الجانبي المظلم الذي اختارته لوقوف التاكسي، تذكرت انها - كما قالت فتاة المستوصف - تمشي كشيتا.

ولوى السائق رقبته في خيبة أمل وكأنه يشاركني المأساة وقال :

ـ هيه يابيه . . نرجع ؟

فقلت :

ـ أيوه . . بآخر سرعة .

ولم يكن ورائي شيء أفعله بالمرة ولم يكن هناك داع للسرعة ، ولكني كنت أحس بجمرة خبيثة تنهش صدري من الداخل ، وأنا لا أقوى على منعها أو تخفيف حدتها . جمرة نقمة على نفسي ، وإحساس صارخ زاعق بالهزيمة . . الهزيمة في أصوات قطارات آخر اليوم المبحوحة في الطريق الطويل الخالي ، في الضيق المجنون الذي تحفل به روحي والذي يصفر في عقلي ويهيب بي أن أخنق أحداً أو يخنقني أحد أو أن لم أجد أخنق نفسي ، أقبض عليها بيدين من حديد وأظل أضغط حتى يحتبس إلى الأبد كل ما في صدي من غيظ ، أشد سواداً من الظلام الحالك الهائل الرابض فوق صدر القاهرة .

وصلت إلى البيت ، وصعدت في السلالم الطويلة بلا روح ولم يضايقني أني فتشت في جيبي لأعثر على المفتاح قبل الوصول إلى باب الشقة فلم أجده . فلأكن قد تركت الباب مفتوحاً ، أو فلتكن قد ضاعت المفاتيح وفقدت . ماذا يمكن أن يحدث أسخف وأسوأ مما حدث ؟ ووجدت الشقة مغلقة ، ولحظتها فقط بدأت أحس بالضيق . كل همي كان أن أعثر على مكان أستطيع ان اتمدد فيه وأستريح . حاولت فتح الباب بالقوة ، ولكن لدهشتي الهائلة وجدت يداً تفتحه من الداخل ، ولم يكن هناك وقت لأفترض أو أخمن أو أخاف . .

فقد فتح الباب وأطل منه وجه ، وجه ويا للغرابة ! وازدادت دهشتي

اتساعاً، وجه أخي الصغير فقد كان في التوجيهية في مدرسة اقليمنا، فماذا جاء به وكيف جاء ؟ أسئلة لم تمنعني ان أرد على هتافه الفرح حين رآني بعناق طويل، وللحظة خاطفة أحسست أني لست وحيداً منبوذاً في هذا العالم ، وعلى الأقل لي أخ كهذا يحبني حباً مطلقاً بريئاً من كل قيد وبلا مقابل، أخ لي ، لا لست وحدي. وكنت ـ أنا الكبير ـ أنهار على كتفه الصغيرة باكياً منتحباً، وكأني الابن الضال عثر فجأة على عائلته .

وعرفت انه جاء في رحلة مدرسية ، وأنه سأل على العيادة حتى وجدها وهناك دله عنتر على البيت الجديد. أية جهود شاقة بذلها هذا الفتى الذي لا يعرف إلا شارعاً أو شارعين في القاهرة ليصل إلى ، إلي أخيه ، وأية أحلام بناها على ذلك اللقاء . وأي قلق عظيم سببته له، جاء فوجد الشقة مفتوحة ومظلمة « فعداد النور كان لم يركب بعد» . وكيف جلس قرابة الساعتين ينتظرني خائفاً خوفاً مضاعفاً أن يتضح آخر الآمر أن الشقة ليست شقتي ويعامل كما يعامل اللصوص . وكيف هداه تفكيره لشراء شمع أوقده، وزاده شكاً في الشقة إذ كان أثاثها قد تغير معظمه، ولولا السرير السفري ذو القاع الهابط الذي يعرفه جيداً لما استطاع البقاء في الشقة لحظة .

وكم لعنت نفسي وأنبتها للشعور الحقير الذي راودني بعد انتهاء أخي من حكاية ما صادفه لكي يلقاني، لم أكن أريد رؤية أحد في تلك الليلة أو الحديث مع أحد ولو كان أحب الناس لدي. لم يعد في نفسي قريب أو بعيد . سانتي كانت في ناحية والعالم كله في ناحية أخرى ، وكل طاقتي على الحب والاهتمام كانت موجهة اليها، وكل الناس غيرها سيان . لم يبق في قلبي أية عاطفة قليلة أو كثيرة أحيط بها ذلك الأخ الآتي وفي ذهنه سهرة جميلة لابد سيهيئها له أخوه الكبير الموظف الطبيب.

البيضاء

كنت مغلقاً عيني أحاول أن أطرد أي شيء آخر من رأسي، أفكر فيما يمكنني عمله لإسعاد هذا الضيف الشقيق أو على الأقل اشعاره بحبي له واعتزازي به ، وعقلي يتمرد على هذا وذاك فلا يستطيع طرد أي شيء، ولا يستطيع إدعاء حب أحد. كنت هكذا حين تبينت أنه قد وقف أمامي حائراً محرجاً تتلعثم الكلمات في فمه وهو يحاول أن يختلق عذراً ليذهب ويبيت مع بقية الطلبة في أحد فنادق وسط البلد. وعرفت انه فهمني كما تعود ان يفهمني، وأدرك انه اختار وقتاً غير مناسب لمجيئه، وأنه ليس غاضباً مني ولا ثائراً علي ، وإن كل ما يريده هو راحتي.

كلمات متلعثمة جعلتني أزداد حقداً على حقدي وأتساءل عن كنه تلك النفس التي تسيرني وتتحكم فيّ. ولماذا هي جاحدة ناكرة للجميل ؟ ولماذا لا تقصر حبها على من يحبونها فعلاً وبالذات أولئك الذين لا عمل لهم في الحياة إلا حبها.

واعتبرته كبيراً وفاهماً، واعتذرت له ووعدته ان أشرح له كل شيء يوماً ما . . وطلبت منه أن يحضر في الغد وأكد لي أنه سيفعل، ولكني عرفت انه يكذب وأنه لن يأتي.

أحسست بالارتياح فعلاً بعد ذهابه، وكأن مشكلتي كلها كانت في وجوده. . وبنفس السرعة التي يدور بها ضوء الفنار كنت قد جمعت أحاسيسي التي شتتها وجود أخي ، وكنت قد عدت إلى حالتي الأولى التي تركتني عليها سانتي .

وثبت الشمعات الخمس التي تركها أخي في طبق شاي ووضعتها أمامي مشتعله كلها على المكتب، وثبت رأسي بين كفي وهامت عيناي في ضوئها الموحش المهتز ، وفي عقلي ألف خطة . .

ولكني آثرت أن أتصرف بحكمة وتعقل وأفكر.

وحاولت التفكير فلم استطع . . وجدت نفسي لا أزال أسير حالة اللامبالاة التامة. حالة أحس معها أنني لا أريد الحياة، وغير مهم أن أحيا ، وأي شيء له عندي نفس أهمية أي شيء آخر . حالة تفقد فيها الأشياء أبعادها ومعانيها ولا يصبح فارق ضخم بين أن أكون مسجوناً أو طليقاً، ولا بين حبي لإنسان أوكرهي له . لم أكن أدري لماذا حدث كل ما حدث ؟ ولا ماذا يمكن أن يحدث بعد كل ما حدث ؟ أحاول التفكير أحياناً لا لكي أجد حلاً، ولكن لمجرد أن أستخرج نفسي من حالة اللامبالاة هذه فأقول : ان الخطأ كان خطئي، فصحيح أنه بالمحاولة التي تمت بعد الظهر قمت بعمل لم أكن أتوقع ان أجرؤ على القيام به ولكن الخطأ أني كنت حملاً أرتدي جلد ذئب. ولو فعلت ما فعلت وكلي ثقة بنفس ورجولتي لما فشلت. الكارثة أني حاولت وأنا ضعيف، وأنا فاقد الثقة تماماً في نفسي، وأنا ضامن أن النهاية ستكون هكذا وإني سأفشل. ومن يحاول فقط ليفشل فلا بد أن يفشل. وأحياناً ألقي اللوم عليها فأقول انها هي التي خدعتني. وإنها هي التي ألقت لي بألف طعم، فلما ابتلعتها غدرت بي واستنكرت وادعت الذهول. . ورغم هذا فقد كنت أحاول ان أبحث في نفسي عن ذرة حقد واحدة عليها فلا أجد. كل ما أجده خواطر تحاول أن تتلمس الاعذار لكل ما فعلته وتحملني أنا الأخطاء بالعشرات .

وكدت أعود لخنق نفسي بالدموع .

لماذا أنا تعس هكذا؟ يقولون ان الحب يسعد الناس ، وأنا لم أحب مرة إلا وشقيت، وكأني لا أحب إلا لأشقى. لماذا الحب من أصله، أو إذا كان لا بد، فلماذا اختار طريق العذاب والألم ؟

أية قوة مجنونة داخلي تدفعني دائماً لتمزيق نفسي؟

البيضاء

٩

وفي الصباح لم أذهب إلى المكتب. أبلغتهم أني مريض وطلبت اجازة يوماً ورقدت في الفراش أدخن وأفكر وأتحسر.

في الحقيقة كنت أحس فعلا بأعراض مرض لا يمت إلى الأمراض الجسمية أو النفسية، مرض ثالث يصيب أفكارنا ونحس معه أن أجسامنا صحيحة حقيقة، وكذلك حالتنا النفسية، ولكن عقولنا لا تعمل كما يجب، بل لا تريد أن تعمل بالمرة، ولا تستطيع حتى أن تنجز الأعمال الروتينية.

كنت ممداً أشعل السيجارة من السيجارة أكاد لا أصدق أن سانتي التي كانت هنا بالأمس أقرب ما تكون الي، قد أصبحت الآن أبعد ما تكون عني.

ودق الباب.

وقمت، وفتحت. . كان شوقي.

وقلت لنفسي: لابد أنها ذهبت وقصت عليه كل شيء.

وحتى هذا الاحتمال الخطير لم يستطع أن يحرك عقلي الهامد الخامد، فقد تصورته وأنا فاقد الحماس، ولم أجد لدي الرغبة حتى في إطالة تصوره.

غير أني وان كنت لم أتحمس للخاطر ـ الا أني تحمست لقدوم شوقي، فقد سرني أنه ظل يحتفظ بالعنوان الذي اعطيته له، وأنه جاء.. وجاء في اللحظة التي كنت قد بدأت أحتاج فيها لصديق، لمجرد وجود صديق. وصداقتي لشوقي كانت متينة عميقة الجذور، أعمق من كل رباط فكري أو ثوري جمعنا حتى أنها ـ أي تلك الصداقة ـ كانت تعتبر تهمة وإنحرافاً في نظر جماعة تحرير المستعمرات. أيام الإضرابات التي كنا نقلب فيها الأوتوبيسات وعربات الترام ونحرقها أمام كلية الطب، خطر لي مرة أن أدخن سيجارة تاريخية وذلك بأن أشعلها من أوتوبيس كنا قد انتهينا لتونا من إحراقه. ورغم صراخ الطلبة وتحذيرهم لي بأن العربة ستنفجر فقد ذهبت وأشعلت السيجارة. وحين عدت وقد حققت أمنيتي وجدت طالباً واقفاً عند باب الكلية قد أخرج من جيبه سيجارة «فرط» وذهب هو الآخر وأشعلها من العربة. وأعجبني منه أن نفس النزوة انتابته ولم يتردد في تنفيذها، وتعارفنا وتحادثنا ووقفنا ندخن.

ومن يومها صرناصديقين برغم أنه كان في كلية الهندسة وكنت أنا في الطب. وصداقة غريبة تلك التي جمعتنا فقد كنا لا نلتقي الا بمظاهرة أو باضراب أو في مؤتمر. وما لبثنا أن اكتشفنا ميلنا نحن الاثنين إلى الصحافة بل دفعنا هذا الميل لأن نشتغل ونحن طلبة في جريدة «النداء» ثم نتركها وقد أدركنا أن المجال الحقيقي لطاقتنا هو الكتابة والأدب والفن. ومنذ أيامها لم نفترق.. انضممنا لجماعة تحرير المستعمرات معاً، ودخلنا معتقل ٤٨ معاً، وعملنا في القنال معاً.. وتخرجنا في سنوات متقاربة وضمتنا المجلة بعد التخرج.

دخل شوقي من الباب، ولم يكن يبتسم حين يجيء ولا يهش لك إذا قابلك، ولكنك أنت الذي كنت دائماً تبتسم له إذا جاء، وتهش له إذا

قابلك. ومهما تكن حالتك كنت تحب أن تراه. إذا كنت في مأساة أردتـه وإذا كنت في فرح يسعدك أن يشاركك.

وقفت أراقبه وأحصي عليه حركاته لأعرف ان كانت سانتي قد أخبرته.

ولـم يفعل شوقي أكثر من أنه تجول في الشقة الجديدة وألقى عليهـا نظرة ما ثم قال وهو يهز رأسه:

ـ الزمالك؟

وفهمت قصده فقلت:

ـ أيوه. . بداية التحول إلى الارستقراطية.

وجلسنا في حجرة المكتب. . تمددت علـى الكرسـي ذي المسانـد وجلس هو على كرسي المكتب، وأخرج من حافظته أوراقاً كثيرة ومضى يكتب ويحدثني. كان في إستطاعته دائماً أن يكتب وهو يتحدث.

وكل كلمة من حديثه وزنتها، محاولاً أن أجد لها معنى آخـر غير ما يقصده دون جدوى. . كان حديثه هو حديثه المعتاد، وطريقته هي هي لم تتغير.

وأدركت حينئـذ أن الموضـوع لا يزال إلـى الآن بعيداً عن متنــاول تفكيره. . ويا لغبائي! كيف كان بامكانها أن تخبره، ولـم تكن هناك فرصة للقائه أو الحديث معه؟

وكأن هذا لم يرضني، فوجدتني أدفعه دفعاً رقيقاً ليناً لأن نخوض في سيرة سانتي، ووجدتني أفعل بطريقة خفية تكاد تخفى علي أنا نفسي.

وقلت له:

ـ الظاهر أن سانتي متزوجة.

فقال وهو يكتب وأطراف شعره الخشن وذرات الدخان الخارجة من فمه وأظافره الكبيرة منهمكة في عملية الكتابة:

ـ آه. .

وقلت في سري: لابد أنها حدثته عن نفسها.

وعدت أسأله وأغالط عن عمد:

ـ الظاهر أنها غير سعيدة في زواجها.

وتوقف عن الكتابة لحظة ورفع لي منظاره الذي كان لا يضعه إلا وهو يكتب، وقال بعينين متسائلتين:

ـ عرفت منين؟

قلت:

ـ ساعات بتزورني ونتكلم.

قال وهو يعود للكتابة:

ـ انت دايماً كدة تتوهم أشياء لا وجود لها. . دي لها قصة غرام مشهورة بجوزها.

وأحسست بكلامه يتدبب ويتحول إلى آلات دقيقة باترة تقطع كل ما تبقى من أملي. . أتلك هي الانسانة التي اخترتها لأحبها؟

ولكني لم أكن أفكر في هذا، كل ما كان يشغلني في تلك اللحظة هو من أين يعرف شوقي هذه المعلومات التي يدلي إلي بها في ثقة المتأكد من كلامه؟ وسألته، فقال ان لها قصة غرام معروفة، وحكايتها وحكاية زوجها الذي تركها ليحارب في قبرص يرددها الناس باعتبارها قصة بطولة غير عادية. . ولست أدري لماذا شعرت من الطريقة التي أجابني بها أنه لم يعرف القصة من أفواه الناس، ولكنه عرفها منها هي.

هما إذن لا يتحدثان في العمل فقط.

ورغماً عني وجدتني أفكر في الحديث الـذي دار بينـي وبين فراش المجلة عن مقابلاتها لشوقي، وعن تفاصيل حضورها، والملابس التـي ترتديها، وأوقات الاجتماعات.

ولكني حين رحت أنظر إلى شوقي لم أجد خلجة واحدة من خلجاته تنطق بأن هناك أي شيء غير عادي يدور خلف جبهته ذات العرق النافر.

ومن جديد عدت الى حالة اللامبالاة التامة. . حتى وأنا أودعه وأقول له كالعادة: أشوفك أمتى؟ شعرت ـ ربما للمرة الأولى ـ إنني أقولهـا له بطريقة روتينية محضة.

وأغلقت الباب، وعدت أسترخي في الفراش وأدخن وأفكر في قصة الغرام التي تزوجت بها سانتي. . ألهذا تستنكر حبي؟ . . ألهذا قاومتنـي بوحشية؟

ومرة اخرى وجدتني غير مهتم بسانتي نفسها. . ماذا يهمني إن كانت تحب ما دامت لا تحبني أنا؟

ولـم يعد أمامي الا أن أقوم بتلك العملية البادية الاستحالة. أن أنسى سانتي.

وتصور عملية تبدأ تفكر فيها وأنت متأكد تماماً أنك لن تستطيعـهـا وانك غير قادر عليها، وحتماً ستفشل فيها. . عملية تبدؤها وأنت يائس من نجاحها، بل حتى وأنت لا تتمنى لها في أعماقك النجـاح. . أن أنسـى سانتي.

أجل. . يجب أن أدرب نفسي، ومن لحظتي تلك أمتنع عن كل تفكير فيها. فأي تفكير فيها يجسدها حية أمامي بدمها ولحمهـا، وفـي كل مرة أراها يشتد تمسكي بها. اني املك ارادتي ويجـب أن أستعمل إرادتـي

تلك. يجب أن أنهي هذا الاسترخاء الذي طال وأتصرف كرجل وكحازم.

وقمت منتفضاً من الفراش وصنعت لنفسي قدحاً من الشاي، وجلست على المكتب.

كانت الساعة تقترب من الرابعة وضجة قليلة تصلني من سلم الخدم.. وأبواب المطابخ تفتح وتغلق ودوي حركة المرور في شارع الزمالك الرئيسي تحوم كوطواط غير محدد الملامح فوق المنازل والبيوت والشاي آبنوسي اللون وبخاره يتصاعد في أمن وسلام، والسيجارة في فمي والقلم في يدي، وكل شيء معد للكتابة لانهاء ما تأخر علي من مواضيع مهمة للمجلة.

ولكن الورقة ظلت بيضاء أمامي، أحاول أن أقنع نفسي أنها لن تظل بيضاء وأني حتماً سأكتب فأملؤها بالرسوم أحياناً، وأحياناً أكتب اسمي واسم سانتي، ثم أعود وأشطبه وأرسم دوائر متداخلة، وفجأة أحس بدفعة حماس قوية فأمسك القلم في وضع أستعد لأكتب، ولكن بعد سطر واحد أدرك أنها دفعة حماس زائف، وان يدي قد توقفت من تلقاء نفسها، وانني ضيق إلى درجة البشاعة بما أكتبه.. فأشطب السطر وأعود احيط جبهتي بيدي وأكاد أصرخ: حتى الكتابة لا أستطيعها.

وفجأة سمعت جرس الباب يدق.

أرهفت أذني ولكني لم أسمع صوتاً، غير أني كنت متأكداً أني سمعت الجرس يدق.. فقمت، وقبل أن أصل إلى الباب بأمتار كنت قد لمحت خلف زجاجه شبحاً.. هي.. أقسم كانت هي.. رأسها الصغير، خيالها النحيف كان مرتسماً على زجاج الباب.. حتى ابتسامتها أقسم أني رأيت ظلها على الزجاج.

وفتحت.

كانت واقفة متكئة برأسها على ضلفة الباب وجسدها بارز إلى الأمام وعيناها غارقتان في رمادية هالات، وابتسامة متعبة ولكنها حقيقية تطل من وجهها في تردد.

وخرج صوتها متعباً هو الآخر، ولكنه صوت الواثقة أن كلامها لن يرد:

ـ ممكن أدخل؟

كلماتها الانجليزية خرجت في تدلل حبيب ممدود، حتى كدت لا أغادر فتحة الباب وأبقيها مستندة الى ضلفته هكذا، لتقول لي مرة اخرى وبنفس الطريقة:

ـ ممكن أدخل؟

وأغرب شيء أنها حين رأتني جامداً أحدق فيها هكذا قالتها. وتنحيت جانباً وقد بدأت أبتسم وأحس أن شيئاً خطيراً كان ينقصني وعاد، روحي ربما أو ما هو أكثر من روحي.

ودخلت تمشي بطريقتها المتعبة المتدللة، وأنا واقف أراقبها وهي تأخذ طريقها إلى الحجرة. أراقب ظهرها وهو يتمايل تعباً وتدللا، وأراقب احساسها بأني أراقبها وبأني أتفرج على مشيتها واني قادم وراءها حالاً ولو كانت سائرة إلى آخر الدنيا.

وجلست هي إلى المكتب هذه المرة بعد أن طوحت حقيبتها وبلوفرها بإهمال على الكرسي. وارتكزت بكوعها إلى سطح المكتب الزجاجي وأضاءت مصباحه، وأضيء وجهها بالنور المنعكس من المصباح وحفلت ابتسامتها بنشاط وعيناها بلمعة لم تكن موجودة لحظة أن فتحت لها الباب، وقالت وهي تبتسم في مزيج من المودة والاهتمام واللهفة:

ـ ازيك؟ هه أزيك؟

قالتها بالعربية. وخرجت الكلمات جميلة.. أجمل ما فيها لكنتها الأجنبية، وأروع شيء أن السؤال كان موجهاً لي أنا، أنا الذي ظننت بالأمس أن كل شيء قد انتهى.

وأجبتها مبتسماً، وظللنا نتبادل الابتسامات دون حاجة لأي حديث. كان يكفي أن أنظر لها وأبتسم فأجد ابتسامتي قد انتقلت إلى ملامحها وتبتسم هي لأجدني تلقائياً ـ وكأن أعصابها ثار عضلات ـ قد ابتسمت.

قلت لها وأنا لم أفكر بعد في سبب مجيئها، وما زلت لم أهضم بعد فرحتي به:

ـ لم تشكين لشوقي اذن؟

وابتسمت، وأحمر وجهها، ثم ضحكت فجأة.. وضحكت أنا الآخر.

وكان علي في تلك اللحظة أن أضرب بأي اعتبار آخر عرض الحائط وأن أقوم وأجتذبها من مقعدها وأعانقها وأقبلها وأحس بها بين ذراعي وأمرغ أنفي في رائحة شعرها، وأغمغم لها بكلمات غير مفهومة ولكنها أبلغ من أي كلام.

ولكني كنت آخر انسان في الدنيا باستطاعته أن يقوم بذلك العمل.

كنت لم أفق بعد من اللسعة المفاجئة التي كورت ارادتي وأعصابي. لم أكن أريد أن تتكرر المهزلة، بالاختصار كنت غبياً أو فضلت أن أتصرف بغباء وسلبية، وقد جربت الجرأة والايجابية فلم أنل منهما سوى الألم المروع، بل بما هو أبشع من الألم.. بالخجل المهين.

كنت مدركاً تماماً أن معنى مجيئها أنها قد أصبحت راضية، وأنها صفحت عن كل ما فات، ومستعدة أن تصفح عن أي شيء آت.

ولكن رأسي كان يدور به مئات الخواطر. كنت بالأمس قد يئست تماماً منها! لو كان قد تبقى لي بعض الأمل لتضخم هذا البعض وقادني اليها، ولكني كنت قد يئست تماماً. والأهم من هذا كان حديث شوقي عن غرامها بزوجها وقصة ذلك الغرام. بالاختصار كنت قد بدأت أحس أنها قد أصبحت شبه محرمة علي، وإن كان إحساسي هذا لم يرتفع إلى مرتبة الإدراك.

كانت أمامي، في استطاعتي أن أمد يدي وأخطفها، ولكن لم أكن أستطيع، وعاجز حتى أن أقنع نفسي بأني أستطيع. كانت الحقيقة المذهلة الغريبة التي لم أكن أتوقعها أبداً قد حدثت.. كانت قد جاءت. وليس سهلاً أن ينزلق الانسان من أقصى اليأس إلى أقصى الأمل دون أن يتمزق أو على الأقل يصل إلى مرحلة كالتي كنت فيها، مرحلة الشلل التام. أطبقت مرة على الفراشة فانتفضت مذعورة مستنكرة وطارت، وها هي ذي الآن قد عادت وحطت في مكان قريب، أقرب مما أتصور، بيني وبينها سطح المكتب اللامع فقط، فهل أنا مجنون حتى أعاود المحاولة مرة أخرى؟

كان لابد أن أتصرف بطريقة ما. لابد أن أفعل شيئاً أرد به على مجيئها. ونظرت اليها نظرة تعمدت أن أحملها كل ما استطعته من مكر وقلت:

ـ بالأمس قلت لك اني آسف لما فعلته، ولكن أتعلمين شيئاً؟

فرمشت بعينيها متسائلة، تساؤلاً لا معنى له فقد كانت تعلم ما أريد قوله، فاستطردت:

ـ لست آسفاً لأي شيء حدث.

وقالت وهي تزغر لي بألفة كالأم حين تنهر ابنها:

ـ يحـــ . . يا.

زغرة تغري بتكرار المعصية، ونهر يغري بتكرار الخطأ. ومـن جديد عاودتني تلك اللحظات القصار التي نادراً ما كانت تعاودني، اللحظـات التي أحس فيها بحبي لها دافئاً حلواً حنوناً غير مختلط باحساس بالذنب أو بتأنيب الضـمير. اللحظـات التـي أتمنـى لو تدوم أبـداً وأبـداً لا تدوم. اللحظات التي أحس فيها أيضاً أنها متيمة بي، وان كل ما أقوله أو أفعله محبوب، وكل ما يقال لي أحبه، لحظات السعادة.

وامعاناً قلت:

ـ ألم تخافي؟

فقالت:

ـ مم؟

قلت:

ـ من أن تعودي إلى وكر الذئب بقدميك.

فقالت بلهجة جادة نوعاً:

ـ وهل أنت ذئب حقيقة؟

وتمنيت لحظتها أن أتحول فعلا إلـى ذئـب وأنقض عليهـا، وآكلهـا بأسناني حباً كما تفعل الذئاب، ولكني قلت:

ـ ألم تقولي أنت هذا؟

فقالت وهي تموء:

ـ أوه. . لم أكن أعني.

وفي إجابتها لمحت قليلا من خيبة الأمل التي بدأت تأخذ طريقها إلى

حديثها ولهجتها. وكم ضج في صدري ألف هاتف قوي يهيب بي أن أنقض، وأن اللحظة التي انتظرتها دهوراً قد حانت، ولكن أقسم أني لم أكن أعرف ماذا كان يمنعني، فقطكنت أناضل ما يمنعني، وأقاومه وأفشل في مقاومتي فلا أجد ما أفعله إلا أن ألعن تلك القوى الخفية التي تربطني في مكاني من المقعد وتقيدني بقيود فولاذية لا ترى.

وبينما كانت سانتي تأخذ طريقها خارجة، وأنا واقف على الباب أودعها، كنت أعاني من حالة نشوة غريبة، ليست النشوة القصوى، ولكنها حالة ما قبل النشوة القصوى، إحساسك بأنه ربما غدا، ربما بعد غد سيقع الشيء. على الأقل أصبح لدي حد أدنى من الثقة بنفسي، على الأقل ضامن أنها ستأتي غداً. لم تقل هذا صراحة ولكني لمحته. الآن أستطيع أن ألتقط أنفاسي وأفكر وأتريث. والمؤلم أني لم أكن أستطيع أن أصدق أني سأصل إلى حالة النشوة القصوى هذه. لا أعرف لم؟ ربما لأني لم أكن أريد في قرارة نفسي أن أصل اليها أبداً.

كل ما حدث أني بدأت ـ كما يقولون ـ أفيق لنفسي قليلا بدأت أستعيد ذاكرتي ووعيي بعملي وبما علي من واجبات. وجاء شوقي وتحدثنا، والواقع لم يكن حديثاً، كان تأنيباً على طريقة شوقي المؤدبة الموجعة الحاسمة. وكان موقفي من المجلة يتدهور من سيء إلى أسوأ حتى اني لم أكن قد حضرت طبع عددين متتاليين، وكان حضورنا جميعاً واجباً مقدساً. فقد كنا نكمل تحرير المجلة و«توضبها» صفحات في يوم واحد، وفي حجرة صغيرة كالزنزانة كانت تجود علينا بها الجريدة الكبيرة التي كنا نطبع المجلة في دارها. ولم نكن كثيرين، وعدد الذين كانوا يفهمون منا في تلك العملية كان محدوداً جداً لا يتعدانا أنا وشوقي واثنين آخرين من الزملاء. وأعجب شيء أن الدار التي نطبع فيها كانت خصماً لدوداً لنا ولاتجاهنا، ولهذا كان صاحب الدار لا يسمح بدوران الماكينة

وبدء الطبع إلا بعد أن ندفع تكاليف العدد كلها. وتكاليف العدد كانت هي مشكلتنا الرئيسية التي نظل طوال الأسبوع نئن تحت وطأتها ونحاول تدبير أمرها، وغالباً ما كنا نفشل. وتأتي نهاية الأسبوع ويأتي يوم الطبع ونحن ما زلنا لم نجمع ثمن العدد بعد، وصاحب الدار أوامره صريحة ومشددة، والمواد قد انتهى جمعها وتوضيبها، والمسألة كلها متوقفة على جنيه أو اثنين، نجري هنا وهناك كالمسعورين يكاد يذهب بعقولنا ادراكنا أن جهودنا الضخمة الكبيرة التي بذلناها طوال أيام وليال موشكة على الضياع من أجل هذا المبلغ التافه.

ولهذا فيوم الطبع كان هو يومنا الأكبر الذي نحشد له قوانا كلها، ونظل واضعين أيدينا على قلوبنا خوفاً من صاحب الدار تارة وخوفاً من مصادرة العدد تارة اخرى، حتى تأتي الساعة الثانية أو الثالثة من صباح يوم الصدور. وغالباً ما كانت تأتي ونحن قد توصلنا بوسائل لا يكاد يصدقها العقل لدفع ثمن العدد والحصول على أمر الطبع، حينئذ نخرج ملوثين بحبر «البروفات»، جوعي، كادت تنفد سجائرنا. ولكن الشيء الأهم أننا نخرج وقد تأبطنا الأربع «كرتونات» التي قد تبلورت فيها وتجمعت جهود وكفاح العشرات من الناس لعشرات دستات من الساعات.

وكانت المطبعة تبعد من مكان جمع الحروف مسافة ليست بالقليلة كنا نقطعها سيراً على أقدامنا، نفتح صدورنا لنسمات الفجر، وكل منا تحت ابطه «كرتونة» يضمها إلى صدره ويتحسس حروفها البارزة كما يتحسس الكنز الثمين، ويتخيل أثرها حين تصدر في الغد وقد أصبح الحرف منها ألوفاً وتحولت آلاف حروفها إلى ملايين الأصابع والأيدي والقبضات التي تهز الشعب وتوقظه وتدفعه للحركة.. نحس بهذا كله ونحن في طريقنا إلى المطبعة كالجيش الصغير الذي - برغم كل ما هو فيه من إرهاق وتمزق وإجهاد الا أنه قد خرج ظافراً من معركته الأسبوعية الفاصلة.. ذلك

الظفر الذي لم نكن نطمئن إلى أنه قد أصبح حقيقة واقعة إلا حين تدمدم المطبعة وتدور اسطواناتها الضخمة وتقذف بأول دفعة من أعداد المجلة فنتناولها بشغف جشع، ونلوث بياضها الطازج بما في أيدينا من بقايا الحبر، ونطبع عناوينها الحمراء والسوداء الطازجة اللزجة على أكتافنا وأيدينا، ونقرأ العدد من أوله لآخره وكأنما نرى كلماته ومقالاته لأول مرة بعيون نهمة تكاد من فرط ما قاست لا تصدق أبداً أنها نجحت، وأن كل ما خطر لها من أفكار وآراء قد اصبح كلمات ثابتة خالدة لا تزول.

كان تأنيب شوقي مؤدباً موجعاً حاسماً ولم أكن أستطيع الرد عليه، لا لإحساسي بالذنب لأن إهمالي كان بسبب مشغوليتي بسانتي، ولكن لأسباب أكثر عمقاً وتأصلاً في نفسي. أسباب كانت لا تزال حتى ذلك الوقت مبهمة غامضة لم تجد لها بعد جسداً من الكلمات أستطيع معه أن أعبر عنها وقولها. آثرت الصمت اذن، وآثرت أن أسمع وأهز رأسي هزة المعترف بتقصيره، وأن أعد شوقي في النهاية بأن كل شيء سيعود على ما يرام.

غير أن شوقي لم يقتنع بهزات رأسي وأخذ يسألني ان كنت أعاني من مشكلة ما هي السبب فيما أنا فيه، وهكذا كان الحال دائماً مع شوقي وأمثاله من المسئولين عن المجلة وعن الجماعة، فالانسان في نظرهم لا يمكن أن يقصر أو يتخاذل الا اذا كانت في حياته «مشكلة»، وحتى إذا اعترض على رأي أو قرار لا يناقش اعتراضه هذا مناقشةموضوعية، ولكن لابد أنه يفعل هذا لأنه يعاني من مشكلة ما عائلية أو شخصية. كان لا يمكنهم أبداً أن يتصوروا أن الانسان قد يعارض الشيء لأنه خطأ، لمجرد أنه خطأ

وأصر شوقي كعادته على أن سبب الارتباك الذي يسود حياتي اني لم

اتزوج، وإنني بالزواج سأحل مشاكلي الشخصية كلها وكعادتي أيضاً هززت كتفيَّ لرأيه، فلم أكن قد فكرت في الزواج كحل للفراغ العميق الذي يملأ نفسي. لم أكن أستطيع أن أتصور أن شيئاً ممكن أن يملأ هذا الفراغ إلا إنسانة خارقة للعادة، إنسانة لم أكن قد حددت ملامحها تماماً، ولكنني واثق أنها موجودة وانني حتماً سألقاها يوماً ما، حتى سانتي ـ وهذا هو العجيب ـ لم أكن أعتقد أنها تلك الإنسانة التي أتصورها، وأبداً لم أفكر فيها كزوجة للحظة واحدة.

ولكن المهم أنها أصبحت عندي أهم من أية إنسانة كنت أحلم بها بل كان يخيل إلي أنني حتى لو وجدت الإنسانة التي أحلم بها ووضعت سانتي بجوارها فقطعا سأختار سانتي، لا لأن فيها كل ما كنت أحلم به من النساء، ولكن لأنها وهي الحقيقة المكونة من لحم ودم، أصبحت في نظري أروع من كل من حلمت بهن من النساء. حتى اقترابها مني في الحقيقة والواقع كان لا يفعل شيئاً اكثر من أن يغور بها في خيالها ويبعدها ويجعلها اصعب ما تكون منالاً.

ونفض شوقي رماد سيجارته بسبابته كثيراً كعادته وقال بوجه جاد ـ ووجهه كان دائماً جاداً، ذلك النوع السمح اللطيف من الجد:

ـ يا بني مش ح يحل مشاكلك الا الجواز.

ولا أعرف لماذا انفجرت ضاحكاً وأنا أراه يقول هذا. وحين اكتشفت السبب الذي جعلني أضحك واندفعت إلى مزيد من الضحك الأجوف العالي، أدرك هو الآخر بذكائه السبب، وقال وقد أنقلب وجهه الجاد الى ابتسامة صريحة صافية:

ـ صحيح الجواز ما حلش مشاكلي أنا.. وإنما.. إنما يمكن يحل مشاكلك انت.

والحقيقة إن شوقي فوق صداقتنا المتينة ـ كان يعجبني جداً، وكنت شديد الحماس لشخصه وآرائه وأعتبر كلامه وتصرفاته عيون الحكمة ولكن الشيء الذي لم أكن أستطيع أن أغفره له هو كيف استطاع رغم كل عبقريته تلك أن يتزوج تلك الزيجة التي كنا نلمس جميعنا مبلغ خطئها وبشاعتها.

طالت جلستي مع شوقي وجرنا الحديث إلى موضوع الساعة، موقفنا من عبد المعطي النبوي رئيس تحرير المجلة السابق الذي حل شوقي محله بعد أن حكم عليه بالسجن، وقبل أن نختلف ويرتفع صوتنا ككل مرة نطرق فيها هذا الموضوع، قال شوقي وهو يخبط جبهته بيده:

ـ أسمع . . أنا نسيت حاجة.

ثم أخذ يكلم نفسه وكأنما ليذكر:

ـ أيوه. . أنا كنت جاي أقول لك ايه. . ايه؟ آه. . افتكرت. . أبلغك تكليفاً من مجلس التحرير. أيوه. . اسمع ياسيدي. .

قال شوقي ان المجلة لديها مشروع لترجمة مقتطفات منها إلى اللغة الفرنسية بشكل دوري في باريس وشمال أفريقيا، وانهم بحثوا فلم يجدوا إلا فتاة من أصل فرنسي هي التي يبلغ اتقانها للفرنسية درجة تؤهلها لهذا العمل، كل ما في الأمر أن لغتها العربية في حاجة لتقويم وتدعيم.

وسكت شوقي فقلت:

ـ وما علاقتي أنا بهذا؟

قال:

ـ علاقتك إنك مكلف بتقويتها في اللغة العربية.

وكادت ضحكة عريضة تنفجر من صدري وظللت أخنقها حتى استحالت إلى ابتسامة باهتة صبغت ملامحي، وقلت لأداري انفعالي:

ـ ومتى بإذن الله يبدأ هذا التكليف؟

ـ انت حر. . من الغد يمكنك أن تبدأ. وعلى العموم أنا أخذت لك موعداً منها الليلة. . فروح قابلها واتفق معاها.

قلت:

ـ الليلة امتى؟

ـ الساعة ثمانية.

وهمست لنفسي من وراء إرادتي ووعيي وإدراكي:

ـ أتكون هي دوائي؟

وكدت أدعو كالأرامل وأقول: يا رب!

وقبيل الثامنة هبطنا من البيت. وعند باب حديقة الأندلس وجدناها واقفة تنتظرنا. كانت من بعيد تبدو طويلة نوعاً ما، تكاد تعادلني طولا وكان قوامها مفصلا وممتلئا.

وحين اقتربنا خيل إلي أني رأيتها من قبل واحترت أين. وفقط بينما كنت أسلم عليها تذكرت. انها الفتاة الكبيرة التي كانت مع سانتي في «الباريزيانا» يوم التقيت بهما أول مرة! وسلمت عليها بحرارة طبعاً ومكث معنا شوقي ريثما عرفنا ببعضنا وابتكر لنا من عنده أسماء مستعارة ثم انصرف. وبقينا وحدنا، أو على وجه أصح تمشينا وحدنا بحذاء النيل. ومن الدقيقة الأولى رأيتها تضرب صفحاً عن قناع السرية الواجب وضعه وتسألني عن مهنتي وأين أسكن، وهل أنا أعزب أم متزوج، وتخلط هذا كله بالحديث عن الجو والفرق بين باريس والقاهرة. وبعد خمس دقائق كانت تحدثني بدورها عن حياتها الخاصة وعائلتها، وعن أبيها الشديد القاسي الذي يمنعها من الخروج، وعن أخيها الأصغر المعفرت، وأمها

«الرجعية» التي تمزق الكتب الثورية كلما عثرت عليها مخبأة في طيات مخدتها.

كانت طويلة، وجسمها له قوام الرياضيات، وشعرها أصفر. ووجهها أحمر، وتقاطيعها منسجمة، وجريئة تطرق أي موضوع بلا تحفظ وتعاملك وكأنك صديقها الحميم. ولكنك تحس أن تصرفاتها الجريئة التي توحي بثقتها الكاملة بنفسها، سببها بلا ريب هو ضعف ثقتها بنفسها.

وكنت أنا سائراً بجوارها أسترق النظر اليها وأختار أجزاء من حديثها أنصت لها باهتمام وأتأملها، وعقلي يقارن خفية بينها وبين سانتي، وحين لا تجدي المقارنة أروح - بوعي هذه المرة - أفتش فيها وفي قوامها وشخصيتها عن شيء يغنيني عن سانتي.

ولم يكن فشلي في العثور على شيء من هذا هو المشكلة. المشكلة إنني لم أحس لحظة واحدة أنها فتاة، أو أنها حتى تمت إلى جنس المرأة التي جاءت منه سانتي. وحديثها إليّ كان كفيلاً بصبغها في نظري بصبغة الأنثى. أو على الأقل كان من الممكن أن ينم عن شخصية متميزة لها مجالها الخاص ودنياها وآراؤها الخاصة، ولكن حديثها لم يفعل شيئاً أكثر من أنه زاد تعميم صورتها في خاطري. فالمواضيع التي كانت تطرقها كانت إما مواضيع خاصة بها لا أستطيع أن أتحدث فيها، وإما مواضيع عامة تدلي فيها برأي عام مما تعود الناس قوله بحيث لا تجد لديك أي حافز يدفعك لمناقشته أو الاعتراض عليه. الفيلم الذي تعرضه سينما «كايرو» رائع. ماذا تقول؟ تجد نفسك تقول بلا حماس: فعلاً.. انه رائع. أو تأتي سيرة الازدحام فتقطع كلامها لتسألني فجأة: أنا أكره الازدحام، ألا تكرهه؟ ومن منا لا يكره الازدحام؟

ورغم هذا فقد كنت في عجب من نفسي، فهذه الفتاة كجسم وكقامة وملامح كانت قطعاً أجمل من سانتي، وعلى رأي فتاة المستوصف «خوجاية» هي الأخرى ولا تمشي كشيتا، فكيف بي لا أجد في نفسي ذرة واحدة من الاعجاب بها، أو حتى مجرد الاعتراف بوجودها أو بأنوثتها؟

كنا قد قطعنا جسر النيل من كوبري الخديوي اسماعيل حتى كدنا نصل إلى الجيزة، وتحدثنا في كل شيء قد يخطر على البال، ولم يخطر على بالها أبداً أن تبدأ حديث العمل. وكان ممكناً أن نصل إلى أسوان دون أن يبدأ الحديث لولا أني استدرت وعدنا أدراجنا ماشيين على شاطيء النيل الآخر، ووجدت نفسي مضطراً لأن أبدأ أنا أحدثها عن مهمتي تجاهها. وتطرق بنا الموضوع إلى الترجمة عامة، وهل الأكثر فائدة أن يكون المترجم متقناً للغة التي يترجم اليها أم اللغة التي يترجم منها. وطبعاً أدلت برأيها في الموضوع، وكالعادة جاء رأيها مدعماً للاعتقاد الشائع أن المترجم يجب أن يكون على دارية ضخمة باللغة التي يترجم اليها. ولا أعرف لم وجدت نفسي أصر على الرأي المضاد وأتحمس للدفاع عنه. ولدهشتي الشديدة وجدتها بعد قليل تقتنع وتغير رأيها وتوافقني على رأيي.

ولم نكن قد تحدثنا في تنظيم عملي معها أو وصلنا إلى قرار بشأن مواعيد الدروس أو مكانها، وكنا قد وصلنا في سيرنا إلى الزمالك، وكنت قد قدتها بلا وعي حتى أصبحنا قريبين جداً من بيتي وحين واجهناه وقفت على الرصيف المقابل وقلت:

ـ هنا أقطن.

فقالت:

ـ أين؟

قلت:

البيضاء

ـ في الدور الخامس.

فقالت:

ـ أنت مثلي تحب السكن في الأدوار العليا.

ولم أجد ما أعلق به.

ولكنني كنت راغباً في توثيق صلتي بها، إذ من يدري ربما إذ تآلفت معها تنقطع شيئاً فشيئاً تلك القيود التي تربطني بسانتي، وأعود مرة أخرى حراً طليقاً كما كنت؟ فقلت:

ـ ألا تأتين؟

وخفت أن أكون قد قلت شيئاً أحرجها فأضفت:

ـ لابد أن تزوريني يوماً. . هه؟

فقالت بكل بساطة:

ـ طبعاً. . ألن آخذ الدروس عندك؟

ولمحت في عينيها حماساً لكي نبدأ بسرعة، تكاد تقول: لماذا لا نبدأ الان؟ مع أن الساعة كانت قد تجاوزت العاشرة مساء.

ولكنها قالت: هل يمكن أن نبدأ غداً. . يناسبك غد؟

قلت: مناسب جداً.

وسلمت عليها، سلمت محاذراً، وسلمت هي بقبضة ضخمة لا تريد صاحبتها أن تظهر ضخامتها فتلامس قبضتي برقة وسرعة.

وشعرت وأنا أصعد السلم برأسي كالمرجيحة الدائرية، تصعد فيها قواديس وتهبط أخرى؛ وأبتسم وأنا أنظر إلى مصيري مع هذه القادمة الجديدة، وأفكر بعمق حين تهبط القادمة وتصعد سانتي موردة الخدين مبتسمة غامضة، لا أدري معها ماذا يكون المصير.

ومرة أخرى وجدت نفسي جالساً إلى المكتب، وعلى الكرسي المقابل فتاة أجنبية، وبيننا كتاب المطالعة الأولية وجريدة يومية.

ومرة أخرى وجدت نفسي أصغي إلى الحلق الذي ركب أجنبياً وهو يجاهد لينطق الحاء والخاء والصاد ويتعذب ليحتوي الضاد.

وكانت المسرحية في نظري غريبة ومريرة في الوقت نفسه.

فلم أكن مع الفتاة الجالسة أمامي تدعي الاهتمام بالدروس.. كنت مع سانتي. كل حرف كانت تنطقه كان يذكرني بسانتي وطريقة نطقها له وحركة فمها وهي تقوله. كل سيجارة كانت تدخنها كانت تذكرني بدفعات الدخان وهي تخرج من فم سانتي الصغير الدقيق في كرة صغيرة زرقاء لا تلبث أن تتمدد وتكبر وتتبدد في النهاية ببطء وعلى مهل.

ويبدو أن القادمة الجديدة بدأت تحس بما يدور في نفسي فلم يفتني أن ألاحظ احساسها بأني لست تماماً معها، ولم يفتني أن ألاحظ أيضاً رغبتها الشديدة أن أكون معها، ومحاولاتها المستمرة لكي يتحقق هذا. وأغرب شيء أني كنت كلما لمحت هذا ازددت بعداً عنها وقرباً من سانتي، وكلما أحسست بها أكثر، خفت عليها أكثر وأكثر.

وكان الدرس يقترب من نهايته، وبدأت أدرك أني قد وقعت في مشكلة، فعملي ووقتي لا يسمحان لي بمقابلتها ومقابلة سانتي في يوم واحد، والمكان واحد هو بيتي؟

كان لابد أن أكذب عليها، وقلت لها إن ترددها على البيت خطر وأننا يجب أن نلتقي بعد اليوم في مكان آخر.

وصعقت الفتاة وراحت تقدح ذهنها لتفكر في حل للمشكلة.

ويبدو أنها يئست من إيجاد حل لها فقد لمحت اليأس مرتسماً بوضوح على ملامحها، وملامحها كانت بالمناسبة كالاناء الزجاجي الشفاف لا تستطيع أبداً أن تحول بين انفعالاتها وبين محدثها.

وإمعاناً أعدت عليها الكذبة وطالبتها بأن تحاول العثور على مكان آخر. ولم يكن طلبي هذا يخلو من مكر، إذ كنت قد أدركت من خلال ملامحها الشفافة أنها تريد مقابلتي بأي ثمن، وكنت سعيداً طبعاً بهذا الحماس. وكنت أريد أن أسعد أكثر وأن أجعلها تفعل المستحيل لتلقاني وتقدح ذهنها من أجل ذلك اللقاء.

وقالت أخيراً :

ـ آه! لقد تذكرت الآن. . ولكني لست متأكدة . أقابلك في الخارج غداً ثم أقول لك.

وقبل أن تخرج ،تنحنحت نحنحة أنثوية بدت فيها كالرجال وقالت:

ـ هناك أمر.

ـ أجل.

ـ أعتقد طبعاً أنه لا يجب أن أعرف اسمك الحقيقي.

وأشرت بيدي علامة التهوين من شأن هذا الأمر، وقلت لها:

ـ لا عليك. . اسمي يحيى.

فقالت:

ـ الدكتور يحيى!

ـ اذا أردت هذا.

وسكتت وهمت بأن تقضم أظافرها ولكنها عدلت، وتنحنحت مرة اخرى وامتقع وجهها وقالت:

ـ ألا تريد أن تعرف اسمي الحقيقي؟ إذا اردت ممكن أقول. .

وخجلت، فقد كان من الواجب أن أكون البادىء وقلت بحماس مصطنع:

ـ طبعاً طبعاً. . باردون.

ـ اسمي لورا.

ـ هاللو لورا.

قلتها مازحاً لأغطي موقفي وأمد لها يدي، فقالت ووجهها محمر•

ـ هاللو يهيا.

ـ إلى الغد إذن.

وهبطت السلالم تكاد تتعثر في خجل لم أكن أعرف مصدره.

وثاني يوم وأنا آخذ طريقي إلى باب حديقة الأندلس لأقابل لورا، كنت اعاني من تناقض داخلي بشع. كان مفروضاً أن تأتي سانتي في نفس اليوم ونفس الميعاد وتجدني أنتظرها في البيت، وبشعور الأب العربي أيام الجاهلية وهو حامل ابنته في طريقه لدفنها حية خشية الفقر، أرغمت نفسي على أن أخرج للقاء لورا وأترك سانتي تأتي ولا تجدني.

وفي الساعة السادسة تماماً كنت أمام باب الحديقة، وقبل أن أنتظر أو أتلفت أو أحاول التفتيش في عشرات الوجوه القادمة والمقبلة شعرت بيد توضع على كتفي. من ملمس أصابعها عرفت أنها لورا، وأنها حضرت قبل الميعاد، وأنها ظلت تنتظرني حتى جئت.

وكانت أنيقة في ذلك اليوم بهذا الايشارب الأحمر الذي كانت تلفه حول عنقها.

البيضاء

وعبرنا الكوبري ونحن نتبادل حديثاً تافهاً، وظللنا سائرين في شارع «الخديوي اسماعيل» (وكان اسم التحرير لا يزال جديداً) حتى وصلنا ميدان الأزهار. ومن الميدان بدأت لورا تقودني خلال شوارع جانبية غريبة لم أكن قد رأيتها قبلا، فالعمارات التي فيها عمارات مبنية كلها على الطراز الايطالي أو الفرنسي ومتشابهة، وتحس أن القاطنين فيها كلهم أجانب وكأنها حي كامل من روما أو أثينا نقل بقدرة قادر ووضع في قلب القاهرة.

وقلت لها:

ـ وجدت المكان؟

وابتسمت لي ابتسامة من تقول: وهل في هذا شك؟

ونظرت لها وهي تبتسم، ولاحظت رغم قلة الضوء أن في وجهها نمشاً خفيفاً، وأن عينيها عسليتان في لون شعرها تماماً.

وأمسكت يدها ووضعتها في ألفة بين جنبي وذراعي ووضعت يدي الاخرى في جيب بنطلوني، وتركت لي يدها تماماً، ومشينا.

وكانت تمشي بسرعة وعجلة وحماس مضطرب كحماس صبيان المدارس الثانوية، ولاحظت فعلاً أن في تصرفاتها كلها آثاراً من تصرفات صبيان المدارس الثانوية.

والواقع أن امساكي بذراعها لم يأت صدفة. كنت أريد أن أجهز نفسي وأبدأ أحس أنها امرأة. . كنت أريد أن أداوي نفسي لا بالتي كانت هي الداء، ولكن بصورة أخرى شديدة الشبه بالتي كانت هي الداء . . .

بسانتي. . فسانتي من لحظة أن عرفتها كانت بالنسبة الي امرأة ومشكلة ولهذا ظلت علاقتي بها معقدة حافلة بالالتواء والمتناقضات. امرأة وزميلة ومتزوجة وتحب زوجها، ولا أكاد أعرف حتى إن كانت تعيرني اهتماماً يذكر أم أن اهتمامها بي ما هو إلا صدي لاهتمامي بها.

ولو لم أكن أؤمن ببعض المباديء والأخلاق لهان الأمر، ولاقتحمت سانتي بنفس الجرأة التي يقتحم بها الرجل العادي امرأة عادية. ولو كنت كامل الإيمان كامل الأخلاق لضربت صفحاً عن هذه العلاقة من أولها ولاستطعت الانتصار على «ضعفي» ولما جاءت المرأة أو المشكلة. . كنت أسمح لنفسي إذن بالمضي في الطريق مع سانتي وأنا لست راضياً عن نفسي ذلك الرضاء الذي يجعلني أنطلق معها كل الانطلاق.

ولست ساخطاً على نفسي ذلك السخط الكفيل بأن أقطع معه علاقتي بها. . وحلمي في أثناء هذا الطريق كان أن أعثر على بديل لسانتي. . على فتاة أخرى أحبها بلا مشكلة، وأسعد معها بلا تأنيب ضمير.

وحين وضعت الظروف لورا في طريقي. . لورا الأجنبية هي الأخرى، الخالية من أية ارتباطات، البادية الرغبة فيَّ، قلت: هذا هو الحل العبقري لمشكلتي. وكل ما كان ينقص هذا الحل أن أبدأ أنا أحس ناحيتها باعجاب، أو حتى برغبات. . وعن وعي كنت أفعل هذا، وعن إدراك كامل لما أريده احتضنت ذراعها محاولاً أن أحس بها أكثر وأقترب منها أكثر وأكثر. ولست أدري لم ظللت أحس طوال الوقت أن التي تحضنها ذراعي ذراع، مجرد ذراع، لا أستطيع لو أغمضت عيني أن أحدد جنسها أو أعرف إن كانت ذراع فتى أو فتاة. . مجرد ذراع.

ولم أيأس، وحاولت أن ألمح رغبتها فيَّ عسى أن تفلح في إثارة رغبتي

البيضاء

أنا. ولكني عجبت، فلم تكن مضطربة ذلك الاضطراب الذي توقعته، ولم أعرف إلا بعد مدة من علاقتي بها أن اضطرابها لا يظهر إلا على هيئة حماس وتهور وحديث لاهث سريع عن مواضيع طرقتها قبلا، عن أمها الرجعية وأبيها القاسي.

ولم أيأس أيضاً. . مضيت أتصور المكان الذي نحن في الطريق إليه. محاولا أن أجد في اختياره والعثور عليه أثار رغبتها الخفية فيَّ، محاولاً أن أخمن كيف لفتاة مثلها أن تجد مكاناً يصلح لي ولها فقط، ولجلسة طويلة. . ترى هل تكون شقة صاحبة لها؟ وأنى لفتاة يبدو أنها تعمل في إحدى الشركات أن تكون لها صديقة تملك شقة بمفردها، بل تصورت أنها ذاهبة إلى بيتهم في غيبة أمها وأبيها.

ولم يتح لي أن أطيل في تخميناتي، فقد انحرفت إلى شارع جانبي مسدود، وحيث بواباً أسود كان جالساً مع زميل له، واخترقنا مدخلاً طويلاً خافت الضوء وكأن النور يأتيه من تحت الأرض. . وعند باب شقة في الدور الأول توقفت وأخرجت مفتاحاً من حقيبتها فتحت به الشقة ودخلت وراءها.

كان المكان مظلماً، وما إن دخلت وخطوت أول خطوتين حتى اصطدمت بها، وهمست متألمة معتذرة، وهمست أنا الآخر بكلام. وكان اضطرابي لمكان أدخله أول مرة، واصطدامي بها، وبحة همستها. . كانت هذه كلها كفيلة بأن تدفعني للتفكير فيها كامرأة، ولكني وجدت أن لهفتي على معرفة المكان واكتشافه كانت أكبر من رغبتي في الاصطدام بها مرة أخرى إذا طال الظلام. . ويبدو أنها أحست بهذا هي الأخرى، فقد أضاءت النور بسرعة وقالت بعصبية قليلة:

ـ هو ناد كما ترى.

وفعلاً كانت هناك طرابيزة بنج بنج، وبضعة كراسي، وخيمة رحلات مكومة في ركن، وبيك آب.. ولم أجد لدي كمية كافية من حب الاستطلاع تدفعني لسؤالها عن كنه ذلك النادي، واكتفيت بأن أخمن أنه لابد أحد النوادي الكثيرة التي يقيمها موظفو الشركات الأجنبية من الشباب.

وفي ركن من الصالة الكبيرة معد كالصالون جلسنا، وما زلت لسبب لا أعرفه أذكر هذه الجلسة بالذات. أنا على «فوتيل» ضخم غارق فيه، وهي على «فوتيل» ضخم آخر بجواري، وأنا واضع ساقاً فوق ساق، وهي جالسة متخفزة كالتلميذات، وكلانا يتحدث. وطبعاً لا أذكر ما قلنا بالحرف ولكني أذكر جيداً أننا لم نتحدث بحرف من اللغة العربية أو الدرس. كان حديثنا من ذلك النوع الذي يتبادله الاثنان ليغطيا حديثاً صامتاً آخر هرباً من ذلك الحديث الصامت.

وأحسست بشفقة عليها. جالسة كالتمثال الضخم الجميل وقد أعدت للقائنا عدته وحلمت به، وحين أصبحت أمامي، ها هي ذي رغبتها يضج بها جسدها كله. ولكنها تتجمدحين تصل إلى لسانها وملامحها.. شفقة تدفع إلى عقلي في أحيان خاطراً مجنوناً، لماذا لا أتصرف معها التصرف الطبيعي جداً في حالة كهذه؟ وعلى الرغم من جرأة الخاطر فقد كان يفد إلى عقلي هادئاًبسيطاً،وكأنه يفد إلى عقل انسان يتفرج على الموقف وليس صاحبه. وبنفس الهدوء والبساطة كنت أستسخفه وأنبذه بلا تفكير أو تردد، وأتكلم بحكمة وروية. لقد فقدت إيماني لحظتها بالحكمة والحكماء. ففي نفس الوقت الذي كنت أتصرف فيه كثوري شريف عاقل متزن، يجد في كل ما تحسه لورا مجرد مشكلة ويحاول أن يناقشها ويجد

الحلول المناسبة لها، كنت أدرك أن حكمتي وتعقلي سببهما انعدام رغبتي فيها، سببهما أن غرائزي كلها عقيمة تجاهها، وكنت أقول لنفسي: لابد أن الحكماء العقلاء أناس بلا غرائز، والناس العاديون بشر لهم غرائز. فلابد أن الحكماء ليسوا بشراً، وحكمتهم لا فائدة منها. فالحكمة موجودة منذ أن وجد الانسان، ومنذ أن وجد وهو لا يتبعها، ومنذ أن وجد والمسافة بينه وبين المثل العليا يصورها له حكماؤه هي هي لم تتغير. وكيف تتغير والذين يطلقون الحكمة أناس بلا غرائز ولا رغبات ولا نزوات؟ أنا ليسوا بشراً. يطلقونها ليتبعها أناس ذوو غرائز ورغبات ونزوات. . بشر عاديون.

وكيف يمكن أن يتبع البشر أي نصيحة غير بشرية؟ . . ألكي يصبح نبياً وملاكاً؟ . . ألكي يصعد إلى السماء؟ وما العمل إذا كان عمله هو البقاء على الأرض واستثمارها وتلطيخ نفسه بترابها وطينها وزرع ورودها؟

ألسنا في حاجة لأنبياء من البشر يحملون بيمينهم حسنات الانسان وبيسارهم سيئاته؟ أنبياء غير معصومين، حكماء من المخطئين، لا يقف الواحد منهم فوق ربوة عالية ويرسل لنا حكمته العليا السامية، ولكن يحجيا معنا ويعرف قوتنا وضعفنا، وله عيوبنا ونقائصنا، ولا يفخر بكماله وسموه بقدر ما يفخر بما فيه من عيوب وبقدرته على معرفتها. ألسنا في حاجة لحكماء جدد يفهموننا، حكماء لا يأخذون منا موقف القاضي بقدر ما يأخذون موقف المحامي الشريف المدافع عن جنسنا بكل أخطائه وعيوبه ومحاسنه؟

أنا لم أقابل حكماء كثيرين في حياتي، ولكني رأيت بعضهم. وأغرب شيء أنهم كانوا دائماً أناساً سذجاً لا خبرة لهم بالحياة، ولا يعرفون عن البشر الا أنهم كائنات عليا سامية، وإن لم تكن كذلك فيجب أن تكون كذلك. وأنا لم أقابل في حياتي مجرمين كثيرين، ولكني قابلت بعضهم. قابلت قتلة ولصوصاً وتجار مخدرات ونساء ليل، وكان الواحد منهم أو

الواحدة منهن اكثر فهماً للحياة والأحياء من كل من قابلت من فلاسفة وحكماء. فهؤلاء العصاة يحبون الحياة ويرون الناس رأي العين ويحتكون بهم احتكاك الرجل بالرجل والانسان بالانسان. أما هؤلاء الفلاسفة والحكماء فقد وجدتهم لا يرون إلا ما في رءوسهم، وإذا حدث وقابل أحدهم انساناً لا يراه، ولكنه يرى ما يتخيله هو عنه.

انها مشكلة! فإذا كانت البشرية قد عانت الأمرين من العصاة أنبياء الرذيلة.. فهي قد عانت - وربما بدرجة أكبر - من أنبياء الفضيلة، وإذا كانت جريمة الأولين أنهم يبشرون بحيوانية الانسان، فجريمة الآخرين لا تقل عنها بشاعة، إذا هم يبشرون بما هو أسخف من الحيوان.. بالانسان السامي الكامل، باللاانسان.. وإذا كانت حكمة الأولين مدمرة لأنها قريبة إلى الغرائز سهلة التنفيذ، فحكمة الآخرين لا تقل عنها دماراً لأنها خيالية مستحيلة التنفيذ، تترك الانسان حائراً تائهاً عاجزاً ناقماً على نفسه. وكلتا الحكمتين مدمرة، لأنه ما من شيء يغل الانسان ويوقفه ويجعله يدور حول نفسه قدر إحساسه بالذنب.. وكلتا الحكمتين تولد إحساساً عظيماً بالذنب.. الأولى لأنه نفذها، والثانية لأنه يفشل في تنفيذها.

وطوال جلستي مع لورا كنت نبياً من أنبياء الفضيلة. أسمعها تتحدث عن مضايقات أبيها وأمها لها.. فأقول: يجب عليك أن تفعلي كذا وكيت. وأراها تتحرق رغبة في أن أنهي جلستي المستريحة وأبدأ معها حديثاً آخر، فأزجرها بيني وبين نفسي وأؤنبها على تلك الرغبة غير المشروعة بين زميلين. وأزداد تأنيباً لها بأن أحدثها حديثاً طويلاً عن كفاحنا ونجاحاتنا، ووجوب مضاعفة الجهود وقيادة الشعب في معركة حريته الفاصلة.

وكانت تستمع لكلامي وتهز رأسها علامة الموافقة السريعة المتحمسة

على كل كلمة أقولها، وتبتلع ريقها في خجل كالمؤمنة التي انساقت وراء أهوائها حين يذكرها أحدهم بوجود الله.

وفجأة احس بوضعها، ومشكلتها، والرغبة التي تؤرقها، ويغلبني شعوري كانسان فأغافل نفسي وأحاول أن أنظر اليها كفتاة ذات قامة فارعة وسيقان كأنها من صنع مثال.. ولحظتها فقط أدرك مدى خطورة حالتي وموقفي. لحظتها أدرك أني أحب سانتي، أحبها حباً هائلاً يملأ علي كل نفسي ولا يدع مجالاً حتى لنظرة غير محبة للاستطلاع ألقيها على فتاة جميلة كلورا وأنا معها وحيد في مكان مغلق خال.

ومضى وقت، وشعرت أن الموقف قد تجمد.. ولم يعد هناك جديد يضاف، فقمت وانصرفنا.

وفي اليوم التالي جاءت سانتي.. قابلتها بابتسامة اعتذار ضخمة وسبقتها وقلت اني آسف إنها جاءت بالأمس ولم تجدني.

فقالت:

ـ لا يهم.

قالتها وواضح عليها أنها غير مهتمة. ولم أستطع رغم كل محاولاتي أن أعرف أن كان عدم اهتمامها هذا تمثيلاً، أم أنه عدم اهتمام حقيقي. وقالت لي أن هناك حفلة موسيقية في قاعة «ايوارت» لعازف البيانو المشهور جورج تملي. وأرتني تذكرتين وقالت بابتسامة وبلا اهتمام كبير:

ـ أتأتي؟

وكأنما خافت أن أرفض، فلم تلبث أن قالت وقد استعادت طريقتها المتحمسة الماكرة المملوءة بالروعة:

ـ معي تذكرة زيادة كما ترى.

وقلت وأنا أركز انتباهي كله على فمها حين ضيقته وشكلته ليبدو ماكراً متحمساً.

ـ تعلمين طبعاً أني لن أرفض.

وفي المساء كنت واقفاً أمام ايوارت انتظرها وأحاول أن ألعب مع نفسي لعبة القط والفأر. أحياناً أقول سأقف في مكان لا تراني فيه حين تجيء لأدعها تنتظرني إذا جاءت، وأحياناً أسحب الفكرة. أحياناً أهيم في الوجوه الداخلة المقبلة في عربات وتاكسيات وأنتقي اجمل قادمة وأقول لنفسي: هيه.. لو خيرت بينها وبين سانتي.. فمن تختار؟

وأبتسم في سخرية، فمجرد المبدأ لا تقره نفسي.. والليلة ليلة شتاء والمعاطف الصوف، والقفازات، وازدحام المدخل. والناس حين تتفرج على الناس. وأنا واقف بينهم. أسعد منهم جميعاً. أستعذب انتظاري وأتطلع بعيون واثقة تجاه الميدان، عيون متأكدة أنه بعد لحظة أو لحظات ستبدو لها تلك الكائنة الحلوة الدقيقة. وستملأ حدقتيها ولن تعود ترى سواها.

وفجأة وجدت يداً توضع على كتفي.. يداً أعرف أصابعها الضخمة تماماً. يد لورا. والتفت، وتصنعت الدهشة والفرحة «إذ في الحقيقة كان قد ضايقني ظهورها المفاجيء هذا». وبطريقتها الصارخة المهرجة سألتني: أين كنت ولماذا أنا واقف سارح؟ وهل أنا أنتظر أحداً؟ ولم تنتظر لتسمع اجابتي على أي من اسئلتها، انما بنفس الاندفاع والحماس قالت:

ـ هل ممكن أن أقف معك؟

ورحبت بوقوفها طبعاً. وسألتها بدوري أين كانت وحدها؟ وأجابتني بسرب من الاشارات والتحيات تبادلتها مع شلة كبيرة من أصدقائها البنات

البيضاء

والشبان. شلة من تلك الشلل التي تذهب إلى الرحلات معاً، وترقص معاً، وتقضي السبت والأحد معاً، ويقولون لبعضهم البعض: هاي بوي.. هاي جيرل.

وفجأة أيضاً ظهرت سانتي وأقبلت علينا، وتبادلنا السلام. وقالت لورا باندهاش عظيم:

ـ هل تعرف..؟

وأدركت أنها سترتكب خطأ لو قالت اسمها فأحرجت وتلجلجت.. وقلت لأنقذها:

ـ طبعاً.

ودخلنا القاعة.

وكما توقعت تماماً تركت لورا شلتها وجاءت وجلست معنا.

وجلست أنا كأني هارون الرشيد عن يميني سانتي وعن يساري لورا وأصابع جورج تملي المعجزة تشيع في أنحاء الصالة الواسعة أقوى وأرق ألحان جادت بها قريحة بشرية.. أنغام كونسرتو البيانو رقم ٣ لبيتهوفن.

والحقيقة لم يكن هذا هو السبب في النشوة الغامرة التي أحسست بها تملأ صدري وتشيع وتنفذ إلى كل خلية من خلايا جسدي، والسبب كان أعجب، فحين قابلت لورا ورأيت إعجابها بي ورغبتها فيَّ واضحة كل الوضوح، تمنيت أن نلتقي معاً بسانتي لترى هذا الإعجاب الشديد ولترى بنفسها إني لست وقفاً عليها، وإن مصيري ليس معلقاً بكلمة منها وها نحن قد التقينا، وها هي لورا عن يساري وسانتي عن يميني.

وعن عمد رحت أهتم بلورا وأهمس لها وأداعبها وأوجه معظم حديثي اليها، وأقف قريباً منها في الاستراحة، وأحمل لها بيدي «شوب» البيرة

الذي آثرت أن تتناوله . . ولكني كنت أفعل هذا وعيوني على سانتي. وخاب أملي، فلم ألمح غيرة واحدة على ملامحها، وكأنها واثقة من نفسها أو على الأقل واثقة مني وتدرك أني إنما أتصنع هذا كله وأدعيه. وضايقني هذا، وأحسست أن بذور الثقة التي كانت قد بدأت تنمو في نفسي بدأت أمام عيني تذبل وتموت.

أملي كله أن أراها تغير ولو مرة واحدة، فأثبت وأثق في نفسي وأتصرف بطريقة متزنة وعاقلة . . بطريقة تحظى باعجابها. كنت أحس أني أنا الذي أتحرك الى ناحيتها باستمرار، وأنها واقفة في مكانها لا تتزحزح، وأملي كان أن تخطو خطوة واحدة فقط لأستطيع أنا أن أقف في مكاني ألتقط أنفاسي وألم شتات نفسي.

ولم يحدث شيء من هذا في الحفلة، ولا حتى حين انتهت وتعمدت أن أرافق لورا لأوصلها تاركاً سانتي لتعود وحدها.

حدث هذا فقط ثاني أو ثالث يوم . . كانت سانتي قد عرفت في الحفلة أنني أعطي لورا دروساً في العربي، وأننا نتقابل. وتعمدت أنا أن أخبرها أننا نلتقي في البيت، بيتي. وحين قلت هذا لمحت ـ أو خيل لي أني لمحت ـ شبح بريق سريع خاطف يعبر عيني سانتي ويكاد لا يرى.

ولا أعرف ماذا كان في ذلك البريق لأستشف منه أنها اهتمت بالخبر اهتماماً خاصاً، وأنها حتماً ستقوم بعمل ما خطر لها لحظتها فقط وقد تبين بعد هذا أني كنت على حق. لا بد أن الحب شيء عجيب، لكأنه يضع صلة مادية حية بين الاثنين فيجعل كلاً منهما يكاد يتبين ما يفكر فيه زميله ويعرفه، ربما قبل أن تصل تلك المعرفة الى عقل صاحبها.

وقبل أن نقترب على باب القاعة قالت لي سانتي كعادتنا كلما افترقنا:

البيضاء

أراك غداً. وكنت باستمرار أرد قائلا: طبعاً. ولكني هذه المرة تعمدت أن أتصنع التفكير ثم أقول: آه: هناك شيء.. غداً سأكون مع لورا.

فقالت سانتي: آه.. لقد نسيت.

وقلتها بلا اهتمام، ولكني كنت قد لمحت ذلك البريق الخاطف الذي لا يكاد يرى يعبر عينيها للمرة الثانية. ولم يكن هناك داع لقولي هذا، فأنا لم أكن ألتقي بلورا في البيت، كنت أحتفظ به لسانتي. وكنت أتعمد الالتقاء بلورا خارجه حتى لا تتعود عليه ويصبح في استطاعتها أن تطرقه في أي وقت تشاء، وأكون بهذا قد أفسدت أهم متعة من متع حياتي.

قابلت لورا في ثاني يوم كالعادة عند حديقة الأندلس، ولكن بدلاً من أن نذهب إلى النادي قلت لها: لماذا لا نذهب إلى البيت؟. وكان باستطاعتها حينئذ أن تذكرني بأنني أنا نفسي الذي رفضت البيت في أول الأمر، ولكن شغفها بما قلت لم يدع مجالاً لتذكرني بشيء، أو لعلها خافت إن هي ذكرتني أن أعدل عن الفكرة.

أما لماذا اقترحت أنا أن نذهب إلى البيت، فالسبب في هذا لا يمت إلى العقل بأية صلة؟. فقد كنت أحس بطريقة ما أن سانتي ستحضر إلى البيت متذرعة بأية حجة، وفي هذه الحالة يستحسن أن تأتي لتجدني مع لورا، ولنر ما يحدث لها حينئذ، وهل يا ترى ستظل على ثباتها وبرودها؟

كان شيء كهذا مستحيل الوقوع، لأني لم أكن أعتقد أبداً أن سانتي قد اهتمت بحكاية دروس لورا، وحتى لو كانت قد اهتمت. فهل يبلغ بها الاهتمام حد أن تكلف نفسها الحضور في الليل إلى بيتي لتطمئن على أن جلستي مع لورا مجرد جلسة درس عربي؟ خاصة وإني قلت لها إني لن ألقاها لأني سأكون مشغولاً مع لورا؟

قطعت مع لورا شارع الجزيرة إلى الزمالك، وأصبحنا قريبين جداً من البيت حتى لم يبق بيننا وبينه الا بيتان أو ثلاثة.

وفجأة سمعت من يقول: يحيى. وغمرتني فرحة طاغية، فليس في العالم كله إلا لسان واحد يستطيع أن ينطق اسمي بكل تلك العذوبة حتى أكاد لا أصدق أنه اسمي. كانت سانتي. والتفت فوجدتها واقفة أمام مدخل البيت المقابل لبيتي ومعها راقية زوجة شوقي. ولم أفهم شيئاً باديء الأمر. ومع هذا كنت فرحاً إلى درجة لا أريد معها أن أفهم شيئاً.

وتبادل أربعتنا التحية، ووقفت أنظر إلى البيت المقابل وراقية زوجة شوقي ولورا، ومدخل دكان البقالة الوحيد في الشارع ،وقد ازدحم بعدد من الناس، والعربات المارة، والبلكونات المهيبة الساكنة، ولا أنظر إلى سانتي. ومع هذا فلم أكن أرى شيئاً أو كائناً غيرها. ولم أهتم حتى بسماع ما تقول. كنت قد اكتفيت بإحساسي انها قد جاءت كما توقعت، ورغم أن أول كلمة قالتها كانت: هل رأيت شوقي؟ وحين سألتها: لم؟ قالت بطريقتها المستعجلة المتحمسة أنه لم يعد إلى البيت منذ الصباح، وإن راقية كانت تبحث عنه وقابلتها صدفة، وإنهما رأتا أن تسألاني عنه. ولهذا جاءتا وصعدتا الى الشقة، ولكنها كانت مغلقة ولا أحد بها، فوقفتا في ذلك المكان تنتظران قدومي.

كانت سانتي هي التي تتحدث، وكلامها يغلفه الحماس والرغبة في إخفاء شيء وتبرير موقف، حتى لو كان موقفاً من الصعب تبريره. لماذا تنتظرانني أمام البيت؟ ومن أدراهما أني قد أجيء مع أن وقوفهما في الشارع ليس بالأمر المستحب، فالشارع من الشوارع الصغيرة القليلة الحركة

الذي يعتبر وقوف سيدتين أو فتاتين فيه في الليل على هذه الصورة مسألة تدعو إلى النظرات المريبة والتعليقات والمعاكسات. . قلت هذا لسانتي فأجابتني:

ـ ولكني كنت عارفة أنك ستأتي في الثامنة.

قلت:

ـ وكيف عرفت؟

قالت بنفس حماسها:

ـ أنت قلت لي. . ألم تقل إنك ستقابل لورا في الثامنة؟

ومرة اخرى احسست بجسدي مقشعراً بالنشوة، لا لأنها قالت ما قالته ولكن لأني أنا نفسي كنت قد نسيت أني أخبرتها بأني سأقابل لورا في الثامنة. . ومعنى أن أكون قد نسيت أنا شيئاً قلته لها وإنما هي تذكره، أنها مهتمة بكلامي أكثر من اهتمامي أنا به. ثم أن يكون هذا الكلام متعلقاً بلورا وتذكره هي وأنساه أنا معناه أن البريق الذي لمحته في عينيها كان بريقاً حقيقياً ولم تخدعني عيناي فيه.

ولم أتصرف، وكأني ما صدقت حرفاً واحداً مما قالته سانتي، فقد كان على مثلاً أن أتطوع وأنضم اليهما ونبحث جميعاً عن شوقي، ولكني اعتقدت أنها إحدى غيبات شوقي الكثيرة، وإن راقية كانت فقط تحاول أن تعرف مكانه. ولولا اهتمام سانتي بالبحث عنه عندي لما كلفت نفسها عناء الحضور. وعلى هذا ابتسمت في خجل ودعوتهما للصعود معي دعوة مجاملة،ولكنهما قالتا إنهما تؤثران معاودة البحث عن شوقي.

في تلك الأثناء كانت لورا قد سبقتني لدخول البيت «وكأنها خافت أن أعدل » بل كانت قد صعدت السلم ووقفت على رأسه تنتظرني أن أوافيها. . وحمدت الله أني كنت قد انتقلت إلى الزمالك، فلو حدث هذا المشهد في بولاق لتجمع الشارع علينا، وكيف لا يتجمعون حول شاب أعزب معه ثلاث فتيات : اثنتان أجنبيتان، وواحدة مصرية، وحديث مرتبك مختلف يدور بينهن وبينه؟

ومع هذا فقد تصرفت بخجل شديد وكأني لا أزال في بولاق، وكان كل همي أن أنهي الموقف بسرعة مع أن سانتي كانت قد بدأت تطرق مواضيع أخرى بحديثها، وراقية كانت قد بدأت تبتعد عنا مستعجلة ولورا واقفة في أعلى السلم تنتظر.

وانتهى المشهد كما أردت.

مضت سانتي وراقية، وبدأت أنا أصعد السلم ككل مرة ثلاث أو أربع درجات في وثبة واحدة. . كنت لا أزال خجلاً مرتبكاً وسعيداً فرحاً أفكر باستمتاع كبير فيما حدث، وكيف أنها لم تخط ناحيتي خطوة واحدة فقط ولكنها مشت شوطاً بعيداً. . شوطاً كلفها مجيئاً بالليل وانتظاراً أمام البيت واختلاق حجج.

غير أني في منتصف السلم توقفت. فقد خطر لي خاطر استبشعته إلى درجة دفعتني للتوقف عن الصعود فعلاً. . لماذا لا تكون قد جاءت حقيقة للبحث عن شوقي وأكون أنا قد فهمت الموضوع وفسرته كما حلا لي وأكون أكبر عبيط على سطح الأرض؟

جفف الخاطر بقدومه الناعق المفاجىء ريقي، وجفف أيضاً سعادتي ونشوتي تلك التي كنت قد بدأت أحسها.

البيضاء

ووجمت. . وحتى لم أحفل بالاعتذار للوراعن تركي لها واقفة كل تلك المدة على السلم، وفتحت الباب، وتقدمتني لورا بكل ألفة وكأن البيت بيتها ،وكأنها دخلته آلاف المرات. تقدمت وأشعلت النور في حجرة المكتب، وخلعت حذاءها وتربعت على الكرسي الأسيوطي واضطجعت بظهرها إلى الوراء لتستريح في جلستها. . فعلت هذا كله ببساطة وقبل أن أجلس أنا أو أفكر حتى في الجلوس، وشغلني التفرج على تصرفات لورا الرياضية هذه عن الخواطر المتداخلة المرتبكة التي كانت قد تجمعت في رأسي وكدت أضحك، بل أغراني تصرفها هذا على أن أفعل أنا الآخر كالرياضيين، فخلعت «الجاكته» وألقيتها باهمال الأسبورتسمان جانباً وتمددت على الكنبة بطولي، وأنا أشكو بأنفاس لاهثة من طول السلم.

وما كاد هذا يحدث حتى وقع شيء لم أتوقع حدوثه ابداً. . فقد دق جرس الباب، وذهبت لأفتح وإذا بها سانتي، وإذا بها تدخل محرجة مرتبكة قائلة: نسيت أن أخبرك شيئاً. . وقبل أن تخبرني ما هو ذلك الشيء كانت قد أكملت سيرها الى حجرة المكتب.

ورفعت لورا رأسها وتلاقت أنظارهما بلا ضجة اصطدام او استنكار. وكنت قد وصلت إلى الحجرة، ووجدت سانتي واقفة في وسطها. . ووجهها شاحب قليلا وعيونها زائغة، تنظر أكثر ما تنظر إلى الأرض والحرج لا يزال واضحاً جداً في ملامحها.

ولم تكن قد قالت بعد ذلك الشيء الذي نسيت أن تخبرني به.

ومرة واحدة اندفعت إلى نفسي تلك النشوة التي كانت خواطري قد حبستها. . أبداً. . من أجلي أنا جاءت، ومن أجلي ها هي ذي تعرض نفسها للحرج. . يا سلام! أجمل من شعور البدو في عام مجدب حين

تضن السماء بالمطر، وتتطوف عيونهم وهم يترقبون الغيث ويبتهلون لمجيئه، ويقضون أيامهم ولياليهم وهم يحلمون بذلك الرذاذ الخفيف الذي يسبق هطول المطر. أجمل من هذا كان استقبالي لرذاذ الغيرة وسانتي تجود به في النهاية.. غيرتها علي، لأول مرة أحسها، ولأول مرة لا تستطيع اخفاءها.. ما أطول ما انتظرت وما أعذبه من رذاذ!

وكالبدو رحت أفتح فمي، وعيني، ونفسي، وكل مسامي، لأتلقاه.. وكم استعذبت حرجها، أعذب وأجمل حرج.. حرج جعلني أنسى حتى أن أسألها عن ذلك الشيء الذي نسيته. وهي ايضاً كان يبدو أن ارتباكها أكبر من أن يسمح لها باختراع كذبة أو أنساها الكذبة التي كانت قد أعدتها.. كانت واقفة تنظر في إضطراب تائه إلى كل شيء في الحجرة دون أن يستقر نظرها على شيء بعينه، وقالت فجأة: آه.. مبروك، قالتها وهي تشير إلى صورة منقولة عن لوحة لسيزان، وكانت عندي من زمن.. وكان كسلي يمنعني من عمل برواز لها وتعليقها.. ولكني حين شرعت في تجميل الحجرة التي أقابلها فيها كنت كل يوم أضيف لها جديداً.. وهكذا علقت اللوحة المهملة.

وأدركت أن حرجها هو الذي دفعها لتهنئتي على هذا العمل الذي لا يستحق التهنئة.. وغمغمت بكلام مدغوم فقد كنت محرجاً أنا الآخر. ماذا أقول، وماذا يجب علي أن أفعل؟ وهل أحاول إخراجها من حرجها؟ وكيف أصنع هذا وأية محاولة مني لمساعدتها قد تزيدها حرجاً؟

والظاهر أنه لم يكن أمامها أي حل آخر. فقد وجدتها تستدير خارجة وهي تردد اعتذارات مبتورة لأنها عطلتنا.. مع أنه كان واضحاً لها ولنا أنها لم تعطلنا في شيء.

وحين أصبحت معها في الصالة شبه المظلمة، قالت بنبرة مغايرة منخفضة، وكأن ما تقوله هو الشيء الذي كانت نسيت أن تقوله: سأراك غداً.. هه؟

وكان مفروضاً أن أراها في الغد دون أن تنسى، ودون أن تكلف نفسها مشقة صعود خمسة أدوار ومائة درجة. وقلت لها: طبعاً. وسلمت علي. ولأول مرة مددت لها يداً ثابتة قوية لا تهتز، ولأول مرة منذ أن عرفتها أسلم عليها وأنا أحس أني أسلم على امرأة، واني رجل. لا أعرف ماذا تريد؟ وعدت سكران حقيقة بالنشوة الى لورا.

وظللت معها فترة طويلة تتحدث وأرد عليها، وأنا اطلاقاً لست معها إنما في كون أثيري آخر لا أفقه شيئاً مما يدور بيني وبينها، الى أن وعيت مرة، وكأنما قد آن لي أن أعود من ملوكتي فأجدها تسألني: أنت طبيب أليس كذلك؟

وكانت لا تسأل بلهجة التساؤل ولكن بصيغة التقرير.. ومن بقايا النشوة فاجأني الغم. فحتى لو كنت في حالة عادية فأنا لا أضيق بشيء قدر ضيقي بأن يسألني كائن من كان في وقت غير مناسب عن أحدث علاج للأنفلونزا، أو ما الحكمة في أخذ بعض الأدوية قبل الأكل وبعضها بعده؟

وعلى هذا ظللت ساكناً. وسمعتها تكمل:

ـ كنت اريد أن أسألك.

وسكتت سكوت المحرجة، ثم استطردت:

ـ أنت تعلم.. نحن لا نأخذ تلك الأشياء في المدارس، ولكني كنت أريد أن أعرف حقيقة المسائل الخاصة بالحمل والولادة و...

وفتحت عيني وواجهتها. لم يكن وجهها أحمر من الخجل، ولو كانت

قد سألتني في جو مناقشة حامية لكانت قد تكلمت بصراحة أكثر وما همها.

واعتدلت وقلبي يخفق.. فمهما بلغ تبلد احساسي تجاهها فللتبلد حدود. وجرأتها كانت قد استثارتني فعلا فقد فاجأتني بسؤالها ونحن وحدنا، وهي فتاة، وأنثى جميلة على أية حال، ثم إني حين كنت في النادي معها كنت مشغولاً عنها بسانتي وتأرجحي بين الشك واليقين في حقيقة شعورها نحوي. أما في لحظتنا تلك فقد كنت واثقاً أني استحوذت على سانتي وإني وصلت معها إلى مرحلة اليقين، أو على الأقل إلى الدرجة التي أستطيع أن أستريح من التفكير فيها قليلا، وتصل بي ثقتي بنفسي ورجولتي إلى درجة استطيع أن آخذ منها أجازة دقائق أتفرغ فيها لهذه الفتاة لورا التي لم يعد ينقصها إلا أن تنقض علي وتغتصبني.

وقلت لها وأنا لا أكاد أصدق:

ـ تريدين أن تعرفي..

قالت بحماس:

ـ أجل.. أجل..

قلت بكل استمتاع:

ـ كل شيء؟

قالت «ولعلها أرادت أن تستمتع بالسؤال هي الأخرى»:

ـ ماذا تقصد؟

قلت:

ـ أقصد كل شيء عما يحدث قبل الحمل والولادة.

قالت ببراءة علمية لم أكن أشك لحظة واحدة في أنها مصطنعة وإن عجز إدراكي عن تبين هذا)

ـ أجل.

البيضاء

قلت:
ـ حسن جداً!

وقمت إلى المكتبة وأخرجت كتاب التشريح، وجاءت وجلست بجواري على الكنبة، وبالاستعانة بما في الكتاب من رسوم توضيحية وفوتوغرافية مضيت أشرح لها وهي تهز رأسها علامة الفهم والإدراك وأحاول أن ألمح أثر كلامي على وجهها فلا أجد له أي أثر، ولكني لاحظت أنها كفت عن هز رأسها وأن وجهها قرب النهاية قد بدأ يتجمد ويبهت لونه قليلاً وذراعها القريبة من ذراعي أحسست بها قد أصبحت باردة برودة طلب الخطيئة.

وبلغ ضيقي بنفسي حداً أوقف لساني عن الكلام، فقد اكتشفت فجأة أني أقف مما يحدث موقف متفرج عابث، وأني قد بعثت الرعب الأبيض الخائف في جسد الفتاة، وأنها تحيا الموقف بكل عصب من أعصابها وخلية من خلاياها، وأنا ـ باعث هذا وفاعله ـ لا أحس بأي انفعال.

تضايقت جداً لأني أفقت لنفسي فوجدتني أعبث بلورا ،مسكينة أوقعها سوء حظها في حجرة محب مشغول بغيرها تماماً، لا مكان لها عنده إلا لاجراء تجاربه النفسية المريضة عليها.

وبكلمات قصيرة متلعثمة أنهيت الشرح بسرعة. وأحست هي أني تغيرت وحاولت أن تتغير هي الأخرى، ولكن ملامحها وانفعالاتها لم تطاوعها وظلت تعاني من حالة التجمد المضطرب. وتألمت، فقد أدركت أني بتغيري السريع آذيت شعورها وجرحتها، فأمسكت بيدها وضغطت عليهامبتسماً ،وكأنما لأسهل عليها الأمر أو أواسيها. وتضاعف ألمي حين وجدت أنها لم تتقبل ضغطاتي تقبلا عادياً، وأن يدها ذابت تماماً في يدي

وعينيها ذابتا في عيني. . ولعنت نفسي آلاف المرات وحاولت أن أغير نظرتي وأشيع البرودة والجد في يدي وأصابعي، غير أن الحنان المؤنث لم يكف عن التدفق من عينيها. وقلت لابد مما ليس منه، وعليّ أن أرغم نفسي على مجاراتها، ولكن عبثاً ما حاولته. شيء ما داخل نفسي، أهم ما في نفسي، روحها ومركزها ونواتها، البذرة التي يتجمع فيها كل ما هو شخصيتي وعواطفي وأحلامي ورجولتي، هذا الشيء، كلما حاولت كان يغوص كحيوان القواقع - إلى قاع داخلي ليس له قرار. وكلما استجمعت قواي وركزت جهودي لأمنعه عن الغوص يزداد انكماشاً ويغوص أكثر ويبتعد عن متناول يدي بسرعة مذهلة. وهناك دائماً عينا سانتي ضاحكتين، ساخرتين بي، غيورتين حبيبتين جداً، تزغللان ولا أرى سواهما. حواسي كلها معها، وروحي في بريق عينيها، ولم يبق لي، لم يبق للورا الجالسة تصطك أسنانها فعلاً من البرد الخفي الذي يسبق الدفء الكامل، لم يبق لي معها الا رأس غائم مضطرب، وأفكار خجلى تحتمي بغيوم رأسي. ورغم هذا ترى لورا وترثي لها وترثي لي، وتكاد تحترق بحثاً عن مهرب أو خلاص من ذلك الموقف.

وأحسست أن أفكاري هي الأخرى قد تلاشت وهجرتني، فسكت وظلت أسنان لورا تصطك برهة اصطكاكاً خفيفاً كالأزيز المتصل، ثم توقفت وبدأت تسترد نفسها قليلا. وفجأة وجدتها تتكلم عن الفتى الأول في حياتها وكيف طلب منها ذات يوم أن تعطيه نفسها. وبحب استطلاع سألتها إن كانت قد فعلت. . وبنفس براءتها العلمية أجابتني أنها رضيت بعدما استطاع اقناعها أن لا ضرر هناك من المحاولة. وأصبحت في غاية الحرج! وسألتني ان كانت لي فتاة فقلت لها: طبعاً. واحترت بماذا أجيبها لو سألتني أكثر عنها، وهل أحكي لها عن تلك الفتاةالتي لم أكن أعرف إلا

اسمها الأول وظللت على علاقة بها لسنوات ثلاث تزورني بانتظام كل يوم ثلاث وتأتي دائماً في منتصف الليل وتذهب في الفجر، ولا أعرف ماذا تعمل ولا أين تقيم، وهي أيضاً لا تعرف غير اسمي الأول. وكيف تقابلنا ذات ليلة في مكان نسيته واستصحبتها في نفس الليلة الى الشقة، ومن ليلتها ظلت تتردد بانتظام لا يختل، ترفض النقود والهدايا، وكلما حاولت سؤالها عن نفسها ابتسمت لي ابتسامتها ذات اللمعة.. ابتسامة مستكينة خاضعة غير طموحة.

وكيف انقطعت فجأة، وكيف حز انقطاعها في نفسي، وكيف لم أنسها تماماً حتى عرفت سانتي.

وهمت لورا أن تسألني سؤالاً ولكنها أمسكت لسانها في آخر لحظة ومع هذا استطعت أن أتبين السؤال، وكأنها كانت تريدني أن أذكر لها ماذا أفعل مع فتاتي تلك. أمسكت لسانها ونكست رأسها وأحسست أنها تعاني من ذبحة شعورية ذليلة مفاجئة.

ولا أدري لم وجدت نفسي أنفجر في ضحكة لا مناسبة لها بالمرة وحين رفعت رأسها ووجدتها تبتسم من خلال ذلتها تحولت الضحكة إلى نوبة تشنج ضاحك لم أستطع إيقافها.

وأغرب شيء أني وجدتها هي الأخرى قد تخلت فجأة من كل ما تكظمه وتحس به، ومضت تقهقه، ولاحظت انها تقهقه كالرجال، فدفعني هذا الى عاصفة ضحك أخرى اقتلعتني من فوق الكنبة ومددتني على الأرض.

١٠

وحين استيقظت في الصباح، وقبل أن أسترد حواسي وأفتح عيني في تلك اللحظات التي نستعرض فيها بسرعة خاطفة ما حدث لنا في اليوم السابق بسرعة خاطفة، قبل أن أفتح عيني كان أول ما خطر لي هذا السؤال:

ـ أليس من المحتمل ورغم كل شيء أن تكون سانتي قد جاءت بالأمس لتبحث عن شوقي؟

ولكني بعد ثوان من التدبر، كنت أبتسم في هيام مغمض جميل.

وأفطرت جيداً ـ لأول مرة منذ شهور، ولأول مرة أيضاً وجدتني آخذ الطريق إلى عملي في السابعة والنصف مع جيوش الطلبة والموظفين والكادحين. وفي الثامنة تماماً كنت جالساً إلى مكتبي في الورش واكتشفت أشياء غريبة، فلم يكن أحد من موظفي المكتب قد حضر بعد. لم يكن هناك إلا التومرجي العجوز. ولم يكن أحد من العمال المرضى أو المتمارضين قد حضر أيضاً. كنت قد عودتهم أن آتي متأخراً في التاسعة والنصف أو العاشرة، وما دام الرئيس يحضر هكذا فلماذا يأتون هم مبكرين؟ وبدلاً من أن أثور وجدتني أعذرهم وألقي اللوم على نفسي وأعاهدها أن كل شيء سيصير إلى ما يرام، وكل الارتباك الذي ساد حياتي

سيزول حالاً. كنت كالناقه من مرض، الفرح بشفائه وعودته إلى دنيا الأحياء.

وكل من جاء في ذلك اليوم من العمال منحته ما يريد من إجازات ودفعت لفراش المكتب شلناً ثمن فنجان القهوة تقبله الرجل بتجاعيد مندهشة ألغيت من صدغيه وملأت جبهته.

وقابلت عنتر وعبلة وبترحاب حين جاءا بعد انتهاء العمل يستخفي كل منهما في الآخر ويقدم رجلاً ويؤخر الثانية، إذ كنت قد دأبت في الأيام الأخيرة على استقبالهما بلا اهتمام وعلى الضرب بمشوراتهما عن العمل في العيادة عرض الحائط. وانعكست حالتي على وجهيهما فوراً، وبدأت ضحكاتنا نحن الثلاثة تجلجل في أنحاء المكتب وكأننا في غرزة. واستمعت لمشاكل عنتر مع أخواته البنات بآذان عاطفة متفتحة. كان لا يكاد يطرق سيرة خلافه مع شقيقاته حتى أسد أذني وأروح أستمع إليه يتوهاني وسرحاني. واكتشفت أعجب وأغرب حقيقة، فقد عرفت أنه رغم هذه الخناقة المستعرة بين عنتر وأخواته حول ميراثهم من أبيهم فأبوهم كان لم يمت بعد. كل ما في الأمر أنه كان شبه مقعد في فراشه وقد بلغ من العمر أرذله، وكان يحب عنتر لأنه ولده الوحيد ففضله على بناته وكتب له البيت الذي فيه العيادة. وثارت البنات على الوضع وأقمن دعوى، وأقام عنتر أخرى، وطعون وحجوزات ودفوعات فرعية وقصة طويلة ظللت أستمع لها، وأنا مشوق لتفاصيلها وكأنها قضيتي الخاصة. وبلغ بي حب الاستطلاع درجة أن طلبت من عنتر أن يريني أباه هذا، خاصة وقد حكى لي أن أباه كان سائق قاطرة السلطان حسين الخاص، وأن جده كان السائق الخاص للخديو اسماعيل أيضاً.

ـ أمال إيه يا بيه؟ وشرفك عندي أنا متربي في قصر القبة، أوعى ألاقي روحي بلعب الحجلة هناك.

وأقول له ساخراً:

ـ مع ولاد السلطان يا عنتر؟

فيقول:

ـ لا، الكذب على الله حرام.. كان فيه ولاد تانيين.. إنما ولاد السلطان حد كان يستجري يشوفهم.

والحديث يدور بيننا ونحن في طريقنا إلى حي الفرنساوي القريب من العدوية حيث يقيم عم مبروك والد عنتر. حي مزدحم متلاحم بالبيوت شوارعه حوار وحواريه شقوق ضيقة متعرجة، والشوارع والحواري ممتلئة إلى حافتها بمظاهرات دائمة من الخلق الذين لا تعرف من أين يأتون وإلى أين هم ذاهبون. وفي بيت من داخل بيت، ومن سلم مبني بالأحجار إلى كومة تراب عالية يقولون أنها كانت بيتاً في يوم من الأيام وحين سقط لم يحفل أحد برفع أنقاضه، إلى شارع مقام فوق دور أول كامل، وصلنا حجرة عم مبروك الذي لم يتعظ بقصة الملك لير وكرر مأساته وأورث ابنه وبناته كل عقاره وممتلكاته وهو لا يزال حياً يرزق فكانت النتيجة أن غضبت عليه بناته لأنه اختص عنتر بنصيب الأسد وتقززت منه زوجة عنتر حين جاء ليقيم مع ابنه فاضطر الأخير مرغماً لاستئجار هذه الحجرة له، الحجرة التي يقول عنها:

ـ والله بدفع فيها خمسين قرش بقطعهم من أكل العيال.

وبطريقة لا رهبة فيها ولا احترام مضى عنتر يزعق في أذن أبيه ويخبره أنه أحضر له دكتوراً ليفحصه، ويعتدل الأب في نومته ويجلس القرفصاء

على المرتبة السمراء المتسخة، جلسة قرد عجوز له نحافة القرد وشكله المضحك، وابتسامته التي لا تنتهي لو كان للقرد ابتسامات.

ومن أول لحظة أدركت أن العجوز دمه خفيف، فبرغم تبرم عنتر به كان أول ما قاله أنه ليلة الأمس فقط أحس بدبيب الرجولة يعود إلى جسده وبظهره يسخن، وأن عليه أن يعد العدة لزواجه في القريب العاجل. .

وسألته عن ذكرياته مع السلطان، وترجم عنتر سؤالي إلى زعيق راح يصبه في أذنه وهو يغمز لي بعينه ويسخر من ثقل سمع أبيه. وضحك العجوز ضحكته ذات الكحة القصيرة وقال:

ـ ما بتدومش. . عمره ما ركب القطر إلا برجله اليمين. ومرة نسي وركب برجله الشمال فخلاني وقفت القطر في السكة ونزل وركب برجله اليمين. ودايماً كان مكشر ما يكلمش إلا تركي.

وانخرط في ضحك متقطع قصير.

وقال عنتر وكأنما يعتذر:

ـ الراجل ده شاف عز كتير. . كان بيلعب بالفلوس لعب وما كانش يمشي إلا مع لا مؤاخذة ستات خواجات وأروام.

ولا أعرف لماذا ضحكت وقد تذكرت لومضة نفسي، ولماذا تضايقت من الحجرة والزيارة كلها فجأة ولم أهدأ إلا حين وجدت نفسي هناك أعبر كوبري«أبو» العلا في الطريق إلى بيتي، أرقب حركة المرور فوق الكوبري ويتسع بصري ليشمل النيل كله، وسانتي مطمئنة في صدري كالفرحة الدافئة مصونة والدنيا من حولي كلها ونس وسلام.

وحين جاءت الثالثة والنصف ـ موعد حضورها ـ كان وجهي حليقاً

ناعماً، وبخار الحمام لا يزال يضمخ جسدي وملابسي كلها انتقيتها بعناية.

وكنت جالساً أدخن راضي النفس وأنتظر.

ولاح شبحها خلف زجاج الباب. وقبل أن أفتح قلت لنفسي أنها لا بد قادمة هذه المرة وقد تغير فيها شيء. ولم يخب ظني فقد كانت ترتدي التايير الأنيق الأسود الذي دخلت به السينما معي، وبلوزة بيضاء ناصعة البياض، وكانت تضع تواليت كاملاً. ومع أني كنت أفضلها بلا مساحيق وأحب فقط«روج» شفتيها، إلا أني أحسست بفرحة مضطربة خفية لرؤيتها كاملة الأناقة.

وفي تلك المرة كنت أنا الضاحك الباسم الطليق، وكانت هي قليلة الحركة كثيرة السرحان وكأن شيئاً يحيرها وتريد اخفاء حيرتها. وابتسامتها كانت على الدوام تتتابع مشرقة متحمسة منطلقة تتابع الصواريخ الملونة في ليالي الاحتفالات، في تلك المرة ابتساماتها كانت ممدودة رخوة كابتسامات الأنثى في حضرة رجل.

وكنت كلما رأيتها منكمشة، وكلما وجدت نفسي منطلقاً منفوشاً مقهقهاً كالديك الرومي أحس بشفقة حب طاغية عليها، وأكاد آخذها بين ضلوعي وأطبق عليها نفسي وأحميها حتى من ذلك الاحساس الذي يدعوها للانكماش.

وقلت لها وأنا أعني حقيقة ما أقول:

ـ أتعلمين شيئاً؟

قالت بنبرة حافلة بشكل المغلوب على أمره:

ـ ماذا؟

البيضاء

قلت: بودي لو أستطيع فعلاً أن أصغرك بطريقة ما وأحملك معي هنا في جيب صدري، وتصبحين معي أنَّي ذهبت.

وابتسمت في امتداد وقالت:

ـ تصغرني أكثر من هذا.

وضحكت فقد لمحت في إجابتها ذلك النوع الـذي أعرفـه جيداً من اهتزاز الثقة بالنفس، وكأنها خائفة أن أرى في صغر حجمها قبحاً تريد أن تتأكد أني لا أراه كذلك، ولـم تكن هذه عادتهـا. كانـت دائمـاً تتكلـم وتتحدث وكأنها واثقة من نفسها جداً، أو واثقة على الأقل تلك الثقة التي تجعلنا نفقد الاحساس بأنفسنا وبما قد يكون فينا من عيوب.

ولأول مرة أحس أني، وأنا جالس معها، لست على عجل من أمـري ولست قلقاً ذلك القلق المدمر الذي أحسب فيه كل حركة من حركاتي وأعد لكل كلمة ما بعدها من كلام. لأول مرة أحس أني فعلاً جالس على كرسي وأنها جالسة أمامي، وأن الوقت أمامنا فسيح ممتد، وأنها أبداً لن تطيـر وباستطاعتي أن أقترب منهاوأبتعد،وأنا واثق تماماً أنها طوال الوقت هناك في متناول يدي.

ولأول مرة رحت أمتص وجودها على مهل وأتملى في تقاطيعها التي ما كنت أبداً أستطيع أن أحدق فيها. كنت دائماً لا أراها، إذاالتقت عيناي بعينيها خفضت عيني،وإذا واجهتها وحدثتها يتشتت بصري حين يقترب من ملامحها. أعرف أنها موجودة وأن هذا وجهها، وأعجز عن النظر إليه عجزنا عن رؤية قرص الشمس في منتصف النهار. وكم حاولت مراراً أن أتغلب على خجل نظري وأرغم عيني على رؤيتها فلا أستطيع ولا تقوى عيناي على الصمود، وكأن كهارب خفية تصدر عن ملامحهـا وتحيطهـا

بمجال محرم لا تملك عيناي اختراقه. كنت أعرفها باحساسي أكثر مما كنت أعرفها ببصري. حتى صوتها كنت وأنا أسمعه يصيب سمعي نفس الخجل، وأدرك باحساسي فقط أنه صوتها. لم أكن أراها وأسمعها وأعرفها بعينيَّ وأذنيَّ وحواسي، كنت أفعل هذا بأجزاء من عقله أكثر بدائية وعمقا نفس الأجزاء التي كان يستقبل بها الكائن الحي المؤثرات من حوله قبل أن تخلق له العيون والآذان، ولهذا كنت أراها وكأنها شيء لا يمكن تحديده إنسانة لا أراها بقدر ما أرى نفسي وهي تنجذب إليها. . إنسانة لا أستطيع بالدقة أن أحدد أين أنتهي أنا وأين تبدأ هي.

هذه المرة رأيتها رأي العين وتأملت تفاصيلها ببصر لا يشتته الخجل ورحت أشاهد كل ما فاتني منها. رحت أرى لون عينيها وتسريحة شعرها وأذنيها البالغتي الصغر، وأفعل هذا وأنا أزداد إحساساً أنها أروع من كل ما خمنته عنها، وأنها هي أمامي كائناً حياً منفصلاً من دم ولحم وجمال وأعصاب، أكثر قرباً مني والتصاقاً بروحي من تلك الانسانة التي لم أكن أعرف أين انتهي أنا وأين تبدأ هي.

وسألت نفسي: هل أحاول الآن. وجاءتني الإجابة على غير استعجال: ولم الآن أمامي الليلة كلها وغد وبعد غد وعشر سنوات مقبلة. فيم العجلة وتلك هي اللحظات التي عملت الكثير من أجلها وترقبتها مئات الأعوام؟ هذا هو النصر، لماذا لا أرشفه ثانية ثانية، وأتلذذ به قطرة قطرة، ككوب الماء المثلج بعد ظمأ متوحش مغتال.

وسألتني عن لورا، سألت بطريقة تعمدت أن تكون عادية جداً. ولأول مرة أراها تبذل جهداً غير عادي لتكون عادية في سؤالها عن شيء.

وشعرت لتعمدها وسؤالها بفرحة صبيانية رحت أكتمها في نفسي وأمنع انبثاقها وأحس بها تسري في كياني كله وتسكرني، وأنتشي إلى درجة لا أحاول معها حتى أن أتقن تمثيلي ،وأنا أقول عن لورا أشياء تبعث غيرتها. وحين ضبطتني مرة وأنا أتحدث عنها هكذا وتلاقت نظراتنا، غمزت لها وضحكت، فضحكت هي الأخرى وتضرج وجهها باحمرار قرمزي كنت أراه لأول مرة، لا شك أنه لون خجلها الذي أمضني انتظاره ودوخني التلهف عليه.

ووجدتها تتحدث بلا مناسبة عن شوقي، وعن طرقه الفكهة المرحة في تناول الناس والحوادث، وعن النوادر التي حدثت لها معه.

والعجيب أني تضايقت قليلاً. . مع أني كنت شبه متأكد أن ما تحكيه إما أنها تقوله ببساطة وببراءة، أو هو مجرد رد مباشر على حديثي عن لورا.

وافترقنا حين هبطت من التاكسي الذي كنت قد أصررت على استصحابها فيه إلى قرب بيتها. وحين سلمت عليها مودعاً كانت يدها طرية في يدي وكنت أنا الذي أشد على قبضتها بقوة، وأنا متأكد أنها قبل أن تختفي عند الناصية ستستدير لتراني.

وعاد بي التاكسي وحدي، وقال لي السائق:

ـ هيه. . على فين يا أستاذ؟

ـ والواقع لم أكن أدري إلى أين، تماماً مثل ليلة افترقنا ذلك الفراق المؤلم المرير.

١١

وفي المساء قررت أن أخرج واتفسح، وأدخل السينما، وأقص شعري، وأرى القاهرة في الليل، وأقابل أصحابي. . وأفعل كل تلك الأشياء التي ما حفلت بالقيام بها طيلة الأسبوعين الماضيين، وكأني كنت غائباً عن الوعي بالدنيا.

* * *

ولا بد أن حياتنا سلسلة متشابكة من ملايين الصدف الصغيرة التي قد يغير وقوع إحداها قبل الأخرى بثوان أو بعدها بثوان مجرى حياتنا كله.

وإذا لم يكن الأمر كذلك، فأية صدفة تلك التي دفعتني حين عدت إلى البيت بعد توصيل سانتي الى أن أجلس على المكتب بدلاً من أن أستريح فوق كرسي بعيد أو كنبة ؟ وأية صدفة دفعتني لأن أخرج القلم من جيبي وأبدأ أعبث به في الورقة الفاضية أمامي وأكتب حرف « ن » دون غيره من الحروف الأبجدية، أكتبه أكثر من مرة ثم أكمله وأجعله « نصر » ؟ ثم أضع القلم وأسبح في جلستي الماضية مع سانتي، وتعود عيناي من لا نهائيتهما لأرى الورقة وما عليها، وأرى كلمة نصر وأتذكر كلمة نصر التي كانت تطبعها دعاية الحلفاء أيام الحرب وتلصقها على الجدران وتملأ بها

البيضاء

كل مكان، وأتذكر صورة تشرشل وهو يرسم بأصبعيه علامة النصر، ثم يخطر لي سيف النصر وله بعض سمنة تشرشل وأتبين أني لم أره من مدة، وأحس بأني مشتاق إليه بالذات، مع أني كنت أيامها زاهداً في مقابلة كل من أعرفهم من أصدقاء؟ ثم أعود الى هيامي وسرحاني وأنسى كل شيء عن أحمد سيف النصر ورغبتي في رؤيته، ثم أتبين أن السينما قد حان ميعادها وأن علي مغادرة المنزل في الحال.

وأركب أتوبيس ٧ «وكان أيامها يمر بالزمالك في طريقه إلى العتبة» وتأتي وقفتي قريباً من السائق، وتسترعي انتباهي نمرة الأتوبيس وقد انزلق عنها الحاجز الذي يحجبها عن داخل العربة وبدت اللمبة الكهربائية الصغيرة التي تضيء الرقم. وأدرك أن شكل رقم ٧ لا يتغير إذا نظرنا إليه من الخلف، وتعلق هذه المشكلة بتفكيري، وأتذكر الدرس الانجليزي الذي أخذناه في رابعة ابتدائي عن أصل الأرقام، وكيف أن الرومان أخذوه عن العرب، وأتذكر أنه في هذا الدرس بالذات قال لنا معوض أفندي مدرس الانجليزي أن هناك كلمات انجليزية أصلها عربي وانتقلت إلى أوروبا أثناء الحروب الصليبية، كلمات مثل «درب» Dubr بمعنى اضرب التقطتها الآذان الأوروبية من أفواه فرسان العرب وهم يهاجمونهم ويقولون اضرب. وفي ومضة أتذكر معوض أفندي وتختتي في الفصل والمؤشر الذي أمسكه بيده ليمثل أمامنا فرسان العرب وهم يهاجمون ويقولون أضرب، وتنقلني طريقته في الشرح إلى القرون الوسطى والعرب وهم يطردون الغزاة، والناصر صلاح الدين.. وبالذات الناصر صلاح الدين. وكيف تصورته لحظتها في ضخامة معوض أفندي ولكن بلا منظاره الكابي الأسود أو عينيه الضعيفتين. وفجأة وجدتني أترك القرون الوسطى ورابعة ابتدائي وأعود إلى الورقة التي كنت أعبث فيها وكلمة نصر التي

كتبتها وأحمد سيف النصر.

ويحدث هذا كله وأنا أغادر الأوتوبيس عند شارع سليمان، وأخترق الممر الجانبي في طريقي إلى السينما، وألقي نظرة على دكانة السجائر التي في الممر وألمح التليفون فأجد نفسي بلا تفكير أتوقف وأتناول السماعة وأطلب نمرة أحمد سيف النصر، ولو وجدت الخط مشغولاً لمضيت في طريقي إلى السينما ببساطة، ولكني وجدته «بالصدفة» ليس مشغولاً، وبالصدفة أيضاً كان سيف النصر هناك وهو الذي رد علي وبصدفة ثالثة كان خالياً ليس وراءه عمل، وهكذا وجدتني أتواعد معه على اللقاء. ونختار أين فقد كنا نفضل إذا التقينا أن نجلس في مكان هادىء يسمح لنا بحديث متصل لا تزعجنا أثناءه ضجة. وأخيراً يقع اختياره على بار سيسيل.

وأعدل عن مشروع السينما وأذهب إلى البار وأجلس أنتظره، ويغيب أحمد وتتجاوز الساعة الميعاد الذي كنا قد اتفقنا عليه بربع ساعة، وأقرر القيام وقد فرغ حماسي للقائه أو انتظاره، ولكني أكتشف أني بالصدفة كنت قد ناديت على ماسح أحذية وأنه لا يزال ينظف الحذاء ولا بد من البقاء في مكاني حتى ينتهي، ولو كان الرجل قد انتهى من الحذاء قبل هذا بثوان أو لم أكن قد طلبت منه أن ينظفه أصلاً لكنت قد قمت ولما قابلت سيف النصر، ولما ترتبت على مقابلتي له تلك الأحداث الهائلة الخطيرة.

ولكن الذي حدث أنه بعد دقيقة واحدة من قراري أن أغادر البار، كان سيف النصر قد جاء.

دخل ممتلئاً، رأسه الدسم محني إلى الأمام، ويده اليمنى مرفوعة قليلاً وتتقدمه كالعادة، ونظراته تائهة فيما أمامه مشتتة لا تستقر على شيء

بذاته كنظرات المجانين. وكان اللقاء صاخباً ضاحكاً عكر هدوء البار الدائم إلى حين.

ثم بدأنا نتحدث ذلك الحديث الذي يعقب اللقاء. . آخر الأخبار وما جد على كل منا من جديد، وانتهى ذلك الحديث السريع وكنا قد انتهينا من جرد محتويات البار من رجال وأثاث على حد سواء، وتبادلنا الأحكام الخاطفة التي أصدرناها بشأن كل منهم، وحلت فترة الصمت التي لا بد أن تحل لنهضم فيها ما فات وننتقل منها إلى آفاقنا الأخرى.

في تلك اللحظة فقط أدركت بهدوء وبلا استنكار لماذا طاردتني صورة أحمد سيف النصر في ذلك المساء، ولماذا أردت لقاءه.

كان هو الحكيم المبشر والنبي الانسان الذي اخترته ليحاكمني ولأعرف منه أين أقف وإلى أين أسير.

كنت قد وصلت إلى تلك المرحلة من مراحل عواطفنا. . المرحلة التي لا بد أن نفضفض فيها ونقص. ولم يكن الأمر بالنسبة إلي سهلاً فأنا لا أستطيع أن أقص علاقتي بسانتي على أحد، وكل المحيطين بي من أصدقاء وزملاء لا أستطيع أن أحكي لهم شيئاً، أما الناس العاديون فكيف لهم أن يفهموا قصتي ووقائعها وهي أشياء لا يمكن فهمها إلا لمن احتك بهذا النوع من العمل، وإلا لمن يعرف خطورته ويقدر موقفي؟ وسيف النصر كان الحل. كان جراحاً بأحدمستشفيات القاهرة،وكان يسبقني بعدة أعوام في التخرج، وكان قد اشترك في الحركة الثورية التي سرت في بلادنا عقب الحرب العالمية الثانية ثم ابتعد عنها لأسباب لا أعرفها، وحين جمعتنا ظروف عملنا كأطباء في مستشفى واحد كان هو أحد نجوم الجراحة الشبان فيه، وكنت أنا لا أزال حديث التخرج ومع هذا فقد كنت أنظر إلى

سيف النصر باحتقار على اعتبار أنه أحد «الفارين» من الحركة الوطنية. وكان هو ينظر إلي بإشفاق كبير على اعتبار أنـي لا أزال من المتحمسين الذين يحول حماسهم بينهم وبين أن يروا الحقيقة. غير أن علاقة العمل والاحتكاك اليومي أزالا الكثير من شعورينا المتبادلين، وأصبحت شديد الاعجاب بقدرته العلمية الخارقة وبشخصيته وآرائه. كان لطيفاً غريباً ينظر إلى الأمور أحيانـاً من زوايا قل أن تخطر على البال، وينسـى نفسـه في أحيان كثيرة وهو يحكي أو وهو يلقي درساً عن أحد الأورام فيسكب على نفسه فنجال القهوة، أو يسهو عن القاء نهاية سيجارته فتظل تحترق حتى تلسع أصابعه أو تنطفىء من تلقاء نفسها وتظل مطفأة إلى أن ينتبه ويلقيها.

وعلى مر الأيام بدأت علاقة أعمق تنشأ بيننا، وبدأ هو يكتب بعض مقالات للمجلة وبدأت أنا الآخر أسلم بكثير من آرائه وانتقاداته عن نشاط الجماعة، وبدأنا نشعر أننا متفقان في نقط كثيرة وأننا متجاوبان.

وقلت له: اسمع يا أحمد. أنا عايز أحكي لك مشكلة خاصة ودقيقة جداً، فهل أنت مستعد لسماعها؟

قال :وليه لأ؟ قوي.

وحكيت له ما استطعت من القصـة، فلـم يكن في مقدرتـي ولا في مقدرة أحد أن يحكي له ما حدث بالضبط. هناك دائمـاً أشياء لا يمـكن حكايتها ولا يمكن التعبير عنها، وقد تكون أهم من الوقائع الكثيرة التي تحكى والتي يبنى الحكم على أساسها.

وحين انتهيت قال سيف النصر:

ـ طيب. . وإيه المشكلة؟

وتضايقت، وأحسست أني أخرجت جزءاً عزيزاً من نفسي ووضعتـه

أمام أنظار غريبة حتى لو كانت أنظار صديق. شعرت أني فعلت شيئاً ما كان يجب عليّ أن أفعله. وفي نفس اللحظة أدركت باعثاً آخر حدا بي إلى لقاء أحمد سيف النصر وتجهيز هذا المشهد كله. كنت أريد منه أن يفتيني. كنت أريد من شخص محايد مثله أن يعرف من مجرد ذكر الوقائع إن كانت سانتي تحبني أم لا. وإذا كانت تجبني فماذا يجب علي أن أفعل؟ وإذا لم تكن كذلك فكيف أتصرف؟ وعلى الرغم من صلتي الوثيقة بأحمد فقد كنت محرجاً جداً أن أسأله ذلك السؤال فقد يبدو له سخيفاً، بل من المحتم أنه سيبدو في غاية السخف. وتصوروا هذا الشيء الذي كنت أحس أن حياتي كلها معلقة به، كان من الممكن أن يبدو شيئاً سخيفاً في أعين بعض الناس.

ولكن في ليونة وبلباقة قدت الحديث إلى هذه النقطة، وقلت له في النهاية:

ـ هل تعتقد أنها تحبني فعلاً؟

كان سيف النصر على وضعه، يمسك بقدح البيرة الفارغ وكأنه يهم بالشرب منه، وابتسامته غير محددة المكان تائهة في وجهه، وعيناه تنظران إلي بطيبة من خلف منظاره الرخيص الذي لم يغيره من أيام التلمذة، حتى بعد أن أصبح جراحاً كبيراً بالمستشفى.

وقال:

ـ ونعرف ليه؟ فلنفرض أنها تحبك.

قلت:

ـ ينحل المشكل.. أتزوجها.

قال:

ـ ولكنها متزوجة.

قلت:

ـ تتطلق.

قال:

ـ فلنفرض أنها تحب زوجها.

قلت:

ـ إذا كانت تحبني فمعنى هذا أنها لا تحب زوجها. إن الزواج لا يقوم بغير الحب، فإذا انتهى الحب انتهى الزواج.

قال:

ـ مش ضروري.

قلت باستنكار:

ـ إزاي؟

قال:

ـ ده كلام الناس اللي بيكتبوا روايات ويألفوا عن الحب. خلاص مفيش حب مفيش زواج، وكأن الحكاية معادلة جبرية، مين قال كده؟ الحب شيء فعلاً والزواج شيء ثان، حتى اللي بيحبوا بعض ومجوزين بيحبوا بعض مش كحبيبين ولكن كزوجين. الحب مسألة عاطفية والزواج مسألة اجتماعية، حاجة بيخش فيها المجتمع طرف ثالث. وما دام دخل المجتمع بيتغير نوع العلاقة، وبيتساوى فيها اللي اجوز عن حب واللي اجوز كده. بتصبح عشرة وعادة ومسئولية وثقة وكله قدام الناس، فين العلاقة دي وفين الحب اللي زي حبك كده؟

وغضبت في سري فقد أحسست أنه يهين أعز ما في نفسي، واستطرد هو يقول:

البيضاء

ـ انت عارفها؟ شفتها وهي صاحية م النوم؟ شفت أخلاقها؟ اتخانقت معاها مرة واصطلحتوا تاني؟ مين دي؟ دي بالنسبة لك وهم.

ولم أستطع صبراً. اندفعت أقول له إن كل ما يتحدث عنه أشياء ثانوية تأتي في المرتبة التالية بعد أن يكون أساس العلاقة قد وجد، أي بعد الحب.

وابتسم وقال:

ـ وايش عرفك؟ دا يمكن الواحد ما بيحبش الثاني إلا بعد ما يشوف منه الحاجات الثانوية دي اللي بتقول عليها ثانوية. دا يمكن هي دي الانسان، هي دي الشخص نفسه، هي دي اللي بتنحب.

وسكت، وسكت أفكر في كلامه. كنت أحس لسبب ما أنه على خطأ ولكني لم أعرف كيف أرد عليه. ووجدت ملامحه تتخذ طابعاً جاداً نوعاً ويضع كوب البيرة الذي كان قد نسيه فارغاً معلقاً في يده ويقول:

ـ اسمع يا يحيى! انت أناني جداً. تصور! إنسانة كويسة تتمتع بسمعة طيبة جداً في الجو اللي بتعمل فيه، ومتزوجة وتحب زوجها وتفضح نفسها وتتزوجك. ألا تعرف معنى هذا؟ معناه أنك تقضي عليها. معناه أنك تحطم حياتها ومستقبلها. لا أنت ولا هي عايشين وحدكم في الدنيا، أنتم في مجتمع. وأنت مضطر سواء أردت أم لم ترد لمراعاة القيم السائدة فيه. والزواج قيمة كبيرة جداً، والزوجة التي تحطم هذه القيمة من أجل إعجاب عابر بشاب أو برجل مهما كانت صادقة ومهما كانت بتتحب من المجتمع مش ممكن يغفر لها العمل ده، وبيعاقبها عقاب جماعي وبتمتد ألسنته حتى إلى حياتها الجديدة وتفضل تهدم فيها لغاية ما في يوم تلاقي نفسها في الشارع أو على الرصيف.

وأيضاً لم أجد في نفسي أي ميل لمجاوبته ونقاشه. فالرأي الذي كان يقوله كنت أعرفه تمام المعرفة، إذ هو رأي الناس جميعاً في مشكلة كتلك.. رأيهم أن ما أفعله خطأ.

وليس هذا بجديد علي. فحين أحسست ببوادر الانتصار على سانتي والاستحواذ عليها، بدأت أحس بشيء خفي صغير يهيب بي أن ما أفعله خطأ، وأردت أن يشجعني سيف النصر عليه إذ كنت أعرف عنه أنه أحب وغامر وله في هذا الشأن باع طويل، ثم عودني أن يحكم على الأمور حكم عالم لا يهمه إبداء الآراء المتعارف عليها أو التقاليد إذا تعارضت مع منطقه العلمي. ولكن ها هو ذا يبدو من ردوده الأولى أنه يقول كلاماً مخالفاً تماماً لما كنت أعتقد أنه سيقوله.

وقال مواصلاً كلامه:

ـ لا، لا، لا يا يحيى. ده عيب.. خطأ، سيبك منها.

قلت وأنا غير مهتم اهتماماً جدياً بمناقشته، ولكني أقول لنفسي لعل وعسى:

ـ ده كلام كان ينفع الأول، ولكن أوانه فات.

قال سيف النصر:

ـ ما فاتش ولا حاجة. الحكاية في إيدك.

قلت:

ـ إزاي؟

قال:

ـ اقطع علاقتك بيها نهائياً.

وضحكت في رثاء لسذاجته العلمية.

فقال:

ـ لأ، صحيح، بكلمك جد. لازم تقطع علاقتك بيها.

وضحك ضحكة قصيرة من ضحكاته التي تشبه النحنحة وقال:

ـ أحسن.. مش كده؟ أحسن تقطع علاقتك بيها.

قلت:

ـ فلنفرض إني بحبها وما أقدرش؟

ـ إذا كنت بتحبها ـ واخد بالك؟ ـ إذا كنت يعني.. اقطع علاقتك بيها عشان خاطرها هي. دي زميلتك وسيدة.. وتصور حتى إذا تطلقت واجوزتها الناس ح تفضل زفاكم على طول. يبقى استفدت إيه؟ المجتمع لا يرحم في عقابه أبداً، وما فيش فيه نقض أو إبرام. بكره تحب غيرها.. ثم يا أخي اللي بيحب لازم يراعي شعور اللي بيحبها.

وتنحنح ضاحكاً وقال:

ـ والا إنت أناني؟

الكلام كلام طيب ولطيف ومعقول حتى ولو لم أكن أتوقعه من سيف النصر. ولكن كلام سيف النصر ليس ككلام الناس.. قد يشبه إلى حد كبير ما يقوله كل الناس ولكن الفرق أنه يؤمن به، وتحس أنت هذا، تحس ولو لم تستطع كلماته نفسها أن تعبر عنه.

وفي الحقيقة لم أكن أتوقع أن ألقي بالاً كثيراً إلى «نصيحة» أحمد سيف النصر هذه، بل كان يخيل إلي أنه هو نفسه يعرف أنني لن ألقي إليها بالاً.

وفعلاً لم يستمر نقاشنا في الموضوع طويلاً، أخذنا نتحدث كعادتنا في الأحوال والسياسة والأدب، والطب والنساء عامة ثم افترقنا. ومن

الجائز جداً أن يكون سيف النصر قد نسي كل شيء عن الموضوع بعد ما غادرني، ومن الجائز جداً أنه لم يكن يؤمن إيماناً كاملاً بما قاله، ولكني حين أصبحت وحدي في الفراش بدأت أفكر. وكل ليلة كنت أفكر، بل لم يكن لي عمل طوال الوقت إلا التفكير في سانتي. ولكني هذه المرة كنت أفكر فيها من زاوية أخرى، فقد تصورت أن ما يحدث بيننا سراً قد عرفه كل الناس بطريقة ما، ترى هل أستطيع حينئذ مواجهتهم بشجاعة؟ تصورت أن هذا الغرام المستعر قد عرفه أحمد شوقي وفتحي وكل الأصدقاء والزملاء، ترى بأي عين ينظرون إلي؟ ألن يقولوا عني أني إنسان فاسد منحل أستغل فرص العمل لتحقيق مآربه الشخصية، وجر معه في فضائحه فتاة لم يدفعها للانضمام إلى كفاحنا إلا حماسها لقضيتنا وشعبنا؟ ثم ماذا يكون موقفها هي؟ وكيف أواجههم حينئذ وأواجهها؟

الأهم من هذا كله كان العمل الثوري المشترك، كان احساسي المستمر المتوقد الذي لا ينطفىء بضرورة أن أصنع دائماً عملاً من أجل المبادىء التي أؤمن بها. قال لي صديق صاحب عزبة ذات يوم: أنت تحيرني. شاب مثلك يحتل مركزاً اجتماعياً يحسده عليه الآخرون، لماذا يهب نفسه لهذا النوع من العمل ويعرض نفسه للسجن والتشريد؟

وفي تلك الليلة قبل أن أنام طرحت أنا على نفسي هذا السؤال، وقلت: الشعب، القضية، المبادىء والمثل، وعشرات الشعارات التي كنا نتداولها بكثرة وحماس، وضعتها للاجابة على السؤال، ولكن هذا كله لم يشف غليلي. كنت أحس على الدوام أنها إجابات ناقصة، إذ أنها لا يمكن أن تعبر أبداً عن السبب الذي من أجله أضحي راضياً. كنت أحس على الدوام بشيء عميق جداً في نفسي شيء لا أستطيع إدراك كنهه. المبادىء أؤمن بها

البيضاء

بعقلي، الوطنية تعلمتها، الشعب عرفته حين قرأت المقالات والكتب التي تتحدث عن قداسة قضيته، ولكن الدافع الذي يدفعني لبذل نفسي من أجل الأخرين دافع يكاد يكون غريزياً كغريزة الدفاع عن النفس مثلاً أو الابن أو العائلة. كنت إذا قرأت تصريحاً لأحد رؤساء الوزارات وأدركت أنه يضلل أو يكذب استشيط غضباً. غضباً حقيقياً، وكأنه أهانني شخصياً. بل لو أنه كان أهانني شخصياً لما أحسست بغضب كهذا. فلماذا كنت أغضب؟ وما هو ذلك الشيء الكامن في نفسي والذي كان يهيب بي دائماً أنني قصرت اليوم وأنني لم أؤد واجبي؟ واجب أحسه من تلقاء نفسي، لا أحد يفرضه علي، ولا أحد يحاسبني عليه. هل كان أصدقائي وزملائي في المجلة يحسون بمثل ما أحس به؟ والحب الذي أحببته لسانتي؟ ألم يكن من وراء نفسي، ومن وراء الاحساس المتقد بالواجب؟ كلما أردت أن أخطو تجاهها خطوة كنت أحس أني ارتكبت خطأ ما، وكنت أصهين معتقداً أني أنا وحدي الذي أحس بهذا الخطأ، وبهذا فيمكنني أن أتجاوز عنه لأن القوة التي تدفعني تجاه سانتي أكبر من القوة التي تدفعني تجاه الواجب الشخصي.

ولكن سيف النصر بكلامه اللطيف الطيب العادي قد كشف لي أن خطئي الشخصي أصبح خطأ عاماً، اتفق الناس على أنه خطأ. بكلامه وضح لي أن المسألة لم تعد بيني وبين نفسي، ولكنها أصبحت ظاهرة وواضحة بحيث يراها الجميع. وبهذا يجعلني أفيق قليلاً ويجعل ذلك الجزء الذي كان يؤنبني دائماً يسقط ويكبر ويصبح على قدم المساواة مع جزئي الآخر الذي يندفع تجاه سانتي.

وما أسهل القرارات في أمثال هذه الأحوال! ما كدت أكتشف أني

تراخيت في أداء الواجب، وأنني تركت لأهوائي الشخصية العنان، حتى قلت لنفسي: أجل. لا بد أن أقطع علاقتي بها.

وليتني أيضاً لم أتخذ هذا القرار. . كانت علاقتنا تنمو نمواً متوازياً متطوراً تزدهر بلا كلام أو سلام أو تلميح، وفجأة قررت أن أصارحها بحبي فكانت تلك العاصفة. وما كادت العاصفة تهدأ وتعود علاقتنا تنمو نموها الطبيعي حتى هأنذا أقرر أني لا بد أن أقطع علاقتي بها.

وغمغمت وأنا أستعد للنوم والساعة جاوزت الرابعة: أجل، لا بد! أما كيف ومتى؟ فقد تركت التفكير في كل هذا للصباح.

وجاء الصباح، واستيقظت بقلب بارد كأنه بات طول الليل محفوظاً في ثلاجة. حزيناً قبل أن أنام، ويبدو أن عواطفنا لا تنام معنا. . إنها تظل مستيقظة في أعماقنا تجتر آخر إحساس مارسناه وتعمل على مهل وبهدوء فنصحو على طعم الاحساس البائت في فمنا.

ولمجرد أني كنت قد قررت هذا في الليل، كان الصباح لا معنى له بالمرة. بدا لي كل شيء بارداً كئيباً. . الحجرة والفراش وصوت الخادم الذي كان يعمل في الصباح في البيت وبعد الظهر في العيادة وهو يسألني ماذا أفطر؟ وكنت جوعان، ولكني حين رحت أستعرض ما يمكنني تناوله وجدت أني لا أريد أي طعام في العالم. كل الأطعمة سواء وكلها لا أريدها الآن.

وقمت وجلست إلى المكتب وقرأت الجرائد، وبدا لي كل ما فيها من أخبار وكأنه يتحدث عن عالم آخر لا أمت إليه ولا يهمني أمره.

كان مفروضاً أن تحضر سانتي بعد ظهر اليوم كالعادة، وكان مفروضاً أن أنهي في تلك المقابلة كل ما بيننا، أو على الأقل إن لم أستطع هذا مباشرة فعلي أن أغادر البيت حتى لا تجدني هناك حين تجيء. . وكنا لا نزال في

البيضاء

الصباح وباق على مجيئها ساعات وساعات. وكان من الممكن أن يظل الصراع قائماً في نفسي إلى ما قبل مجيئها بساعة مثلاً أو بساعتين، ولكن الذي حدث أني كنت قد أدركت، منذ ساعات الصباح الأولى، أنني لا يمكنني بأية حال من الأحوال ليس فقط أن أقطع علاقتي بها، ولكن لا يمكنني حتى أن أتهرب من مقابلتها في ذلك اليوم. بدا لي شيء كهذا مستحيلاً كل الاستحالة.

وببساطة خطر لي ذلك الخاطر. . ما دمت لا تستطيع قطع علاقتك الحالية فلماذا لا أفعل معها شيئاً يقطع علاقتنا؟ لماذا لا أحاول أن أنالها؟ وأنالها فعلاً، ففي تلك الحالة سأحس أني انتصرت وأني استحوذت عليها تماماً، ويمكنني حينئذ أن أقطع علاقتي بها. أما قبل هذا فمستحيل مستحيل.

حسن اذن! على أن أهيىء نفسي لكي أنالها. أما ماذا بعد تهيئة نفسي فأمر أتركه للظروف وللمقابلة الهامة التي ستحدث قبل انتهاء اليوم.

وإلى أن تحين المقابلة رحت أتصور نفسي وأنا أحقق حلمي بنوالها. وأغرب شيء أني لم أستطع هذا أبداً. كنت أتصورني جالساً معها مثلاً أتحدث إليها، أضحك معها، أقترب منها، أقبلها. . أما أن أتصور نفسي نائماً معها في فراش واحد فذلك أمر لم أستطعه. وحين تكرر هذا في خيالي بدأت أفطن إلى الحقيقة الغريبة المذهلة التي لم أكن قد فطنت بعد إليها. حتى في الخيال لا أستطيع أن أتصور نفسي في وضع جسدي معها. كيف هذا؟ كنت أثور على نفسي وأعاندها وأروح مرة أخرى أتصورها وأبدأ بالكلام معها لكي أنتهي بالفراش، ويمضي كل شيء على ما يرام حتى نصل إلى الفراش، وحينئذ يجمح بي عقلي بالقوة ويأبى المضي وكأنني سأتصور نفسي نائماً مع إحدى المحرمات علي. . مع أمي مثلاً أو أختي أو عمتي.

وازداد عجبي، وقلت لعل حالتي النفسية هي السبب. ولكنني حين جربت نساء أخريات، حين جربت الحيلة مع لورا أو جارتنا أو أي إنسانة أخرى كان الخيال يمضي بي إلى حيث أشاء دون تردد أو جموح. بل كنت أجد لذة في تتبع خيالي.. لذة غريبة، لذة الخلسة. ولكن حين كنت أقترب من سانتي وأتصورها معي كان كياني كله يتغير، فتختفي الرغبة العارمة من جسدي وتهدأ حواسي الفائرة، وإذا أمعنت في الخيال توقف بي الخيال نفسه وأبى أن يمضي.

والذي روعني أن كل هذا كان حقيقة صماء لا مبالغة فيها ولا تهويل ولا حيلة لك معها.

وحين أجهدت نفسي مرات ومرات وفشلت، رفضت ـ حتى بيني وبين نفسي ـ أن ألقي اهتماماً كبيراً للأمر وقلت: لعل هذا يحدث لأنها الوحيدة التي أحبها، ولعلي لهذا لا أجرؤ عليها. أو ربما لأني لم أتعود أن أنظر إلى سانتي نظرة جسدية، كنت دائماً مشغولاً بإخضاعها هي.. بإخضاع روحها، ما هو أقوى من الجسد فيها.. شخصيتها، ولم أنظر لها أبداً على أنها امرأة عادية، مجرد امرأة عادية لها جسد وصدر وشفاه.

لم ألق إلى الموضوع أهمية كبيرة حقيقة، ولكني في نفس الوقت كنت قد صممت على أن أعود نفسي على النظر إليها كامرأة عادية، أعود نفسي على أن أنظر إليها كرجل، وأن يبدأ هذا في المقابلة القادمة حالاً، ولنر ما يكون.

وجاءت سانتي.

وارتبكت كثيراً وأنا استقبلها، وأنا حائر بين طريقتي التي اعتدت أن أنظر إليها بها وبين هذا القرار الذي اتخذته. غير أن قراري الجديد لم يدم طويلاً، سرعان ما نسيته في غمرة انفعالي بوجودها. وكنت أحياناً أتنبه إليه

وأحاول أن أنفذه فيحدث لإرادتي وعقلي ما حدث لخيالي، وأدهش وأعجب وأغضب، ولكني لا أستطيع إزاء الأمر شيئاً.

ولاحظت شيئاً على سانتي لم يكن موجوداً.. نوعاً من الاستكانة أو شيئاً يشبه هذا. كانت فيما مضى تأتي متفتحة نشطة يشع بريق الدنيا كله من جسدها وعينيها، فإذا بها في المرة الماضية وهذه المرة قد انتاب حركاتها بعض الكسل الأنثوي، وحالتها العامة فيها استكانة من نوع وافد غريب.

لاحظت هذا، ولكني لم أكن متأكداً منه، ولو كنت متأكداً لتغير الوضع تماماً. ولكن أنّى لإنسان يجب أن يتأكد؟ أننا نرى الشيء حينئذ ولا نصدقه أو نصدق أشياء لا نراها أبداً. وما نتخيله قد يكون لدينا أقرب إلى الحقيقة مما نلمسه، وما نلمسه قد نعتبره محض خيال. لم لا تكون هذه الاستكانة التي أحسها فيها مجرد إرهاق؟ خاصة وقد مضت تحدثني عن أمها المريضة وكيف أنها لا بد لها من إجراء عملية جراحية في الرحم. وسمعت منها الحديث ولكني للحظة واحدة لم أصدقه. لم أكن أتصور ـ أو على الأقل لم أكن أريد أن أتصور ـ أن سانتي إنسانة مثلنا لها أم، ولها متاعب، وأنها ابنة، وأنها كانت في المدرسة مثلاً، وأنها تذهب إلى الحمام مثلما نذهب.

كان من الممكن أن تحدثني عن أشياء كهذه ساعات طويلة وساعات ولكن كان لا يمكن أن يعلق بذهني شيء منها. وفجأة قلت لسانتي: أتذكرين؟

قالت: ماذا؟

قلت: ذلك اليوم؟

كنت قد فطنت إلى أنني يجب أن أبدأ خطتي، وكان لا بد أن أدور وألف لأصل إلى ما أريد، ولكني كنت أفعل هذا بجبن شديد، خائف خوف الموت أن أخطىء، ولو مجرد خطأ بسيط.

وأشاحت سانتي بوجهها حتى لا تلتقي عينانا وقالت: أوه أنت خبيث.

وأغمضت كل عيوني الداخلية وآذاني وكأنني أهم بالقاء نفسي في بحر غريق.

ووجدتني أقول وأنا واقف مستنداً بظهري إلى المكتب وهي أمامي على الكنبة: صحيح يا سانتي، ماذا يمكن أن يحدث لو لم أكن نادماً على ما فعلت؟ أنا. . هذا شيء يحدث بالرغم عني. . صدقيني إنه يحدث بالرغم عني. أنا لا أعرف ماذا يدفعني إليك؟ قوى أكبر منك يا سانتي، انظري إلي! أنا لا أضحك. أنا أقول الحقيقة. أنظري إلي.

كنت قد أمسكتها من كتفيها واقتربت بوجهي من وجهها. وكالأعمى الأصم كنت أريد أن أقبلها.

وأحسست بذراعيها تقاومان يدي، وأحسست بمقاومتها تنتقل إلى جسدها كله، وحاولت دفعي بلا إحراج وهي تردد: يحيى يحيى. يحيى أنا لن آتي إلى هنا مرة أخرى. هذه آخر مرة.

ولو لم أكن أحبها لأخذت هذا الكلام على أنه شيء ضروري من الواجب أن يقال في أمثال هذه الأحوال، تلك هي عادة المرأة في كل زمان ومكان. . أن تقاوم. ولكني كنت أحبها، وكل كلمة منها كانت شيئاً مقدساً بالنسبة إليّ، وكل كلمة منها كنت آخذها جداً لا هزل فيها.

وتركتها حينئذ وأنا ناقم ساخطيائس، أستدير وأضرب كفي بقبضتي وأعض على شفتي وأتمنى أن أموت.

وكانت هي قد وقفت وأخذت تصلح شعرها بالرغم من أني لم أكن قد مسست شعرها أو غيرت نظامه. ولمحت أنها تستعد لمغادرة الشقة.

وقلت لها وأنا أغمغم: أرجوك. . لا تغادريني. . أرجوك. . وحين

البيضاء

رأيت أنها لم تدفعني قلت: فقط دعيني أشم رائحة شعرك.. أني أحبها جداً.

وحقيقة أني كنت أحب رائحة شعرها. وأجمل من رائحة شعرها كان أحساسي أني أشمه وأنها تسمح لي بهذا.

ظللت أمرغ أنفي بين خصلات شعرها الأسود اللامع، وأحدق بعيني في رأسها وأنا أعب من رائحته، وأرى جلدة رأسها البيضاء من خلال جذور الشعر الأسود فأقشعر وكأني أراها عارية.

وقالت لي بفمها البعيد عني: أنت تفعل كما يفعل أي ذئب يا يحيى. أنت ذئب.

وانتفض قلبي لدى قولها هذا، وبقوة حاولت أن أديرها ناحيتي لأقبلها وكأني وجدت في كلامها ما يشجعني. ولكنها قاومتني بعنف وابتعدت. وبسرعة وجدتها قد جمعت أشياءها وأصبحت على باب الشقة. وقد فتحت الباب ووقفت على عتبته تقول: يحيى. أنا ذاهبة.

انطلقت في أثرها قائلاً: سانتي.

فمضت إلى السلم بسرعة قائلة: أنا ذاهبة.

وناديت عليها مرة أخرى، ولكنها كانت تهبط الدرجات.

وفي الحقيقة لم أتمن كثيراً أن تعود.. فيكفي ما حدث اليوم، وحتى لو عادت فإن اضطرابي سيزيد الأمر تعقيداً.

وجلست على الكنبة في المكان الذي كانت جالسة فيه. وأشعلت سيجارة، وابتسمت. فلأمر ما لم أحس بالندم هذه المرة ولا بمرارة الفشل.

واعتبرت ما حدث جولة.. مجرد جولة في تلك المعركة الرهيبة الدائرة بيني وبين نفسي، وبيني وبين سانتي.

١٢

كان ميعاد الاجتماع في السابعة والنصف، ولم أكن أول الحاضرين جئت متأخراً واختلقت عذراً واهياً، وسلمت وأنا منكس الرأس ثم جلست وأنا لا أزال مرتبكاً. وخيل إليّ أن زمناً طويلاً قد مضى قبل أن أفيق وأحس أني حقيقة في الاجتماع الأسبوعي للمجلة. كان أحمد شوقي يرأس الاجتماع وكان جالساً مستغرقاً كالعادة في الأجندة والمواد، وعلبة سجائره الأميركية بجواره يسحب منها السيجارة بين الحين والحين، وتعجبني جداً أصابعه وهي تتحرك من تلقاء نفسها وتتسلل إلى فتحة العلبة بينما هو مشغول بالنقاش لتسحب السيجارة وتضعها في فمه.

كان هناك فتحي سالم الذي طالما تمنيت أن أكون مثله، فقد كان شاباً وسيم الملامح ذا عينين خضراوين طويلتي الرموش لا تجرؤ على التحديق فيهما طويلاً، وكان أصغر مني بعامين، وكان طبيباً أيضاً. ولكن أيامها كان لا يزال طبيب امتياز. ومع هذا فقليلون هم الذين كانوا يعرفون أنه طبيب، إذ كان يكتب قصصاً للمجلة ويوقع باسمه المجرد من اللقب وقصصه كانت محبوبة ورائجة وينظر إليها النقاد باعتبارها فاتحة مدرسة جديدة، والكل مجمع على أنه فنان. وكان قليل الكلام كثير الابتسام وكانت تحيرني ابتسامته التي يوجهها لي فقد كنت ألمح فيها تعبيراً ما، لعله

الترفع، لعله السخرية مني ومن الباب الأسبوعي الذي كنت أنفرد بكتابته في المجلة، لعله رثاء لابتسامتي المعوجة، لعله مزيج من هذا كلـه.. ولكن الذي لا شك فيه أنني لم أكن أستريح أبـداً لابتساماتـه ولا حتـى للحديث معه. ثم كان هناك محمد حلمي عطـوة القصير القامـة الدسم الـملامح، الذي تحس وكأنه قطعة دهن كبيرة تشكلت على هيئة انسان. يحرص دائماً على أن يحذف عطوة من اسمه كلما وقع مقالاً أو تحقيقاً في المجلـة، وقليلاً ما كان يسمـح له بالتـوقيع فقـد كان حديث الالتحـاق بالمجلة.. ومع هذا كنت إذا انفـردت به صارحـك بآرائـه في المجلـة وكتابها وفي الحركة الفنية والأدبية بشكل عام. ولن تجد كتاباً واحداً يعجبه أو عملاً واحداً يكن له أقل تقدير.

وكـان هناك أيضاً سانتي ولورا ومحرران آخران وجودهما مثـل عدم وجودهما. وأدهشني وجود لورا إذ لم تكن قد حضرت معنـا اجتماعـات تحرير قبل هذا، ولكنني علمت فيما بعد أنها ـ حين عرفت أني سأحضـر الاجتماع ـ رجت شوقي أن يسمح لها بالحضور فقبل على مضض. ولم يكن قد مضى على مقابلتي العاصفة لسانتي في بيتي وخروجها غاضبة أكثر من ساعة.

وحين بدأت أصغي كان محمد حلمي عطوة هو الذي يتكلم، وكانت طريقته في الكلام في الاجتماعات تضحكني، فقد كان يتوجه بكلامه أول الأمر إلينا نحن المجتمعين، ويكسب صوته طابعاً خطيراً تظن معـه أنـه سوف ينهي كلامه بنتائج تاريخية لا بد ستغير من مصير الشعب والبشرية عامة. ويبدأ يتكلم فتظن أنه يعارض ما يقوله شوقي أو ينقده، ولكنك لا تلبث بعد حين أن تتبين أنه ما تكلم إلاّ ليؤيد ما قاله شوقي تمام التـأييد ويحاول تبريره، وافتعال حيثيات سخيفة له. وفي الفترة الأخيرة لم أكن

راضياً أبداً عن كلام شوقي. . كان اتجاه المجلة قد بدأ يميع وسياستها قد بدأت تتخذ طابعاً غامضاً غير مفهوم، ولم أكن أعرف ماذا يسخطني بالضبط.

ولم يطل إصغائي. سرعان ما أدركت أن الاجتماع خطير، فقد كان يدور حول خطاب وصلنا من البارودي رئيس التحرير السابق، والذي كانت حكومة ذلك الوقت قد اعتقلته ووضعته في السجن. والواقع أن البارودي لم يكن رئيس تحرير مجلتنا السابق فقط، كان الجميع ينظرون إليه باعتبار أنه واحد من أخطر الشخصيات في البلد وإن كانت شهرته لم تتعد نطاقاً ضيقاً من هؤلاء الذين يعملون تحت الأرض. حتى أنا كان بالنسبة إلي شخصاً أكاد أرفعه إلى مرتبة التقديس. كانت آراؤه في نظري هي دائماً أسلم الآراء وذكاؤه أحد ذكاء، وكان يخيل إلي في أحيان أنه معجزة وأن أية معضلة لا يمكن أن تستعصي على مخه. وأعصابه كانت من حديد. . لم أره مرة ثائراً، ولم أضبطه مرة مرتكباً خطأ ما، حتى كدت أومن إيماناً تاماً بأنه لا يمكن أن يخطىء. في أحلك الظروف تجده رابط الجأش! إذا كنا في الاجتماع مثلاً وجاءنا نبأ خطير، نبأ يزلزل كيان انسان كان يناقشه. . ويناقشه في هدوء قاتل، وحتى لا يغفل أثناء النقاش عن أشياء صغيرة جداً مثل « أعتقد أننا جعنا. . نأكل أولاً ثم نكمل النقاش » أو يفاجىء الواحد منا وهو هارب ومطلوب القبض عليه بهدية صغيرة في عيد ميلاده أو باحتفال.

هكذا كنت أراه قبل أن يسجن حين كنت أعمل معه. والحقيقة أني كنت أحس بفخر لا حد له وأنا أعمل معه. وإذا كلفني بعمل ما أكاد أطير فرحاً وأنا أبذل كل ما في طاقتي من جهد لتنفيذه. ومع أني كنت وثيق الصلة به وكثيراً ما بتنا معاً في بيتي أو في بيته ورأيته بالفانلة والسروال

البيضاء

ورأيته وهو مريض وعالجته، وانتشيت وهو يمتثل لأوامري كطبيب، كأي مريض، مع هذا كله إلا أنني كان بيني وبينه نوع من الاحترام الغريب الذي لا يمكن وصفه ـ حتى أني لم أجرؤ مرة على مناداته باسمه مجرداً. وإنما كنت أقول له يا أستاذ بارودي، ولا أذكر أني حدقت في وجهه مرة بعيون لا ترمش، أو واجهته مواجهة الند للند.

حقيقة كانت أحياناً تبدر منه آراء لا يهضمها عقلي، ولكني كنت إذا ناقشته يقنعني بل يفحمني، ومع هذا أبقى غير مقتنع تماماً بما يقول. كان يتكلم عن الفلاحين مثلاً ويدافع عنهم، ولكني كنت أعتقد أنه يدافع عنهم دون أن يعرفهم. وكان يتكلم عن «مصر» ولكني كنت أحس أن «مصر» التي يتكلم عنها غير مصر التي أعرفها. وكان يتكلم عن «الثورة» ولكني أحس من أعماقي أن الثورة التي يتكلم عنها غريبة تماماً عن نفسي وكأنها ثورة أجنبية، أو ثورة لا يمكن تحقيقها إلا في الكتب. وحتى الكتب التي كان يحملها كان معظمها كتباً فرنسية، والأشعار التي يحفظها كان معظمها لبيرون وشيلي ولافونتين وبول ايلوار وعشرات غيرهم، ويردد أمامي بعض مقاطع من شعرهم ويدعوني لأتأمل جمالها، وأتأملها فلا أحس أنها جميلة، أو أحس أنها جميلة جمالاً لا أستطيع إدراكه.

لأمر ما كنت أحس أن البارودي مصري دماً ولحماً، أعرفه وأعرف أباه الشيخ المتخرج من الأزهر وأعرف بيتهم في المغربلين ومع هذا فعقله أحس به عقل خواجة، حتى وهو يتكلم الفرنسية أحياناً كنت أحس أنه يغير الطريقة العادية التي يتكلم بها العربية ويكسب صوته وتعابير وجهه إجلالاً ما ويتأمل كلماتها بتقدير عظيم وهو ينطقها.

ولأني كنت أكاد أقدسه كما قلت، فقد بدأت أشك في كنه هذه

الأحاسيس التي كنت أشعر بها ناحيته وناحية آرائه، بل بدأت أعتقد أنني لا بد مخطىء في أحاسيسي تلك، وأنني أشعر هكذا لأنني كما يقولون أحياناً «فلح» أو متعصب لقوميتي وشعبي أكثر من اللازم، وأن على أن أساير العلم والحضارة والتقدم والغاء كافة الفروق بين الشعوب والخبرات والثورات.

بل ذهبت في هذا الاعتقاد بعيداً. . وبدأت أستعذب الفرنسية والنطق بها وأشعار أيلوار وموسيقى سترافنسكي، وأقرأ كثيراً من تلك الكتب التي طالما استنكرت من البارودي قراءتها.

والواقع أنه لأمر محير ولكنه كان الحقيقة، كنت بطبيعتي ـ ولا أدري لماذا ـ أعشق كل ما هو أوروبي وخاصة الأوروبيات. . كنت إذا ذهبت مثلاً إلى الاسماعيلية أو بورسعيد، ورأيت الذوق الأوروبي يصبغ المدينتين، ويصبغ منطقة القنال. . البيوت ذات الطابق الواحد والأسقف المائلة الحمراء والمدافىء والمداخن، والنظافة والسكون والنظام. النظام الذي نكاد نكرهه نحن،ينقلب بين أيديهم إلى فن، فن النظام. . الطعام بنظام، والحرب بنظام، والحب بنظام. . كنت إذا رأيت هذا كله أحس بشجن، برغبة خفية ملحة أن أصبح ونصبح جميعاً مثل ذلك الكائن الأبيض المعقد ذي الوجه الأحمر، غير أنني ـ وهذا هو العجيب ـ لم أتمنى قط أن أكون أوروبياً. . كنت أتمنى في أحلامي أن يصبح لي مثل قدرتهم العجيبة على الابداع والنظافة والنظام. . ولكن لي أنا، وأنا ابن عرب هكذا، دون أن أكون مستعداً إلى تغيير شعرة واحدة مني، بل كنت أحياناً أفيق لنفسي وأنا في المظاهرات التي كنا نقيمها ضد الاحتلال البريطاني وأنا أهتف «تسقط انجلترا». . كنت أحياناً أفيق لنفسي فأجدني أهتف بصدق حقيقي،بل وبغل وكراهية شديدين تكاد تقترب

البيضاء

درجتهما من درجة إعجابي الشديد بهم. وبما رأيتهم قد صنعوه أو يصنعونه في الاسماعيلية أو الاسكندرية أو بور سعيد.

أما في عملنا الثوري فقد كنت شيئاً آخر. كنت لا أطيق كل ما يمت إلى الأساليب الأوربية بصلة.. كنت هكذا بطريقة غريزية تلقائية.. حتى الاشتراكية الأوربية بنظامها وثورتها[1] كنت أحس دائماً أنها غريبة عني بقدر قرب النظرية مني.. أحس أنها أسلوب، أما ماهية تلك الطرق فلم أكن أعلم عنها شيئاً، ولكني كنت متأكداً أنني أستطيع التعرف عليها حالاً لو وجدت أو لو عثر عليها أحد.

وبنفس هذا الشعور المركب المتناقض اندمجت في الحركة الثورية وكل ما حدث أن اندماجي هذا كبت اعتراضاتي وشعوري بالغربة، بل انقلب هذا الكبت إلى نوع من الموافقة والتأييد حتى جاء على الوقت الذي أصبحت أرى فيه أن الأوروبية في كل شيء، حتى في الثورة، هي المثل الأعلى.

اندمجت وأصبحت واحداً من الحركة التي تتلمس طريقها في الظلام الكامل، وليس هناك ما يهديها إلا شعاع أبيض واحد قادم عبر البحر.

وفي تلك الظروف عرفت البارودي. كنت في بيت شوقي أزوره ووجدت عنده شخصاً طويل القامة رفيعاً يبدو أكبر من سنه بكثير. وعجبت لأن شوقي لم يقدمني إليه ولم يقدمه لي.. وخجلت أنا أن أسأله. وتكلمنا، ولم يتكلم ذلك الشخص الغريب الطويل. وكنت أتحدث عن مظاهرة قدناها نحن طلبة الطب، وفرقها البوليس. وانتهت زيارتي لشوقي

---

(١) من الانصاف أن نقول أن هذه الاراء للبطل كتبت قبل شيوع هذه الفكرة بزمن طويل.

وحين كنت آخذ طريقي إلى الخارج سألني ذلك الضيف الرفيع إن كان من الممكن أن يقابلني مرة أخرى. ورحبت بالمقابلة واتفقنا على ميعاد، وفي الميعاد ذهبت ولم أكن أعرف ماذا يريد مني ذلك الشاب العجوز الطويل ولكن كان لدي احساس مبهم أنه منهم.. من هؤلاء الناس السريين الذين يدبرون للثورة وهم مختفون. وكنت أعرف أنه سيكون لي معه شأن، وأي شأن، وإن لقاءنا هذا لن يكون الأخير.

وفعلاً لم يكن لقاؤنا هو الأخير.. كان مجرد اللقاء الأول. ومن يومها بدأت شيئاً فشيئاً أدخل إلى ذلك العالم الغريب.. عالم الأبطال الخفيين. عالم ظللت فيه إلى أن بدأنا نخرج للناس ونصدر المجلة وأصبح من محرريها. عالم كنت أندفع فيه بكل طاقتي وحماسي وقدرتي على العمل والتضحية والمثابرة.

والزمن كان قد أفلح في تعليمي أشياء كثيرة، فلم يعد ذلك العالم ظلاماً مثلما كان، تعلمت أن أرى من خلال ظلماته، وأن أتلمس الأشياء، وأتعرف الخطأ من الصواب، وكنت مستعداً لأن أفعل أي شيء في سبيل إنقاذ بلدنا، ومدرك تماماً أن لا سبيل لانقاذه إلا بواسطة ذلك العالم الصغير، وتلك المجموعة القليلة العدد الخطيرة الشأن من الناس..

كان يبهجني أن أسمع عن بطولاتهم، ويبهرني أن أراهم يفكرون ويعملون وينظمون، فقد كنت أعلم أن كل هذا من أجل بلدنا، ومن أجل الشعب. الشعب الذي لا أعرف متى أدمنت حبه أو لماذا أدمنته. والبلد الذي نشأت أحس به كأمي الكبيرة التي لا تموت، ولا تهرم ولا تنتهي. حبي له لم يكن حباً بتعقل كحبنا للرجل الأب، كان حباً بلا حدود كحبنا للمرأة الأم.

وظل البارودي يقودنا ويرأس تحرير المجلة، نجمع تكاليفها من التبرعات، ونرتب حروفها، ونحمل رصاصها، ونشترك في توزيع نسخها، ونجتمع بعد سهر أسبوع أو أكثر، حول طبق فول أو عدة سندويتشات جبنة نتخاطفها ونحن نضحك، ونحن نختلف ونتناقش ونعمل ونقترح، وفي داخلنا قوة يخيل إلينا أنها كفيلة بسحق أقوى الأعداء، قوة إيماننا بما نفعله وإيماننا بأن ما نفعله حق.

وفي يوم جاءنا من يقول: البارودي اتمسك.

ولم يكن البارودي هو وحده الذي قبض عليه، كانت الحملة ممتدة وواسعة حتى أننا ـ الجزء الذي بقي من المحررين ـ لم نصدق أننا أفلتنا من الحملة، وظللنا كل يوم نتوقع أن تمد يدها الغادرة وتشملنا. . ولكن مهما كان الوضع فقد كان علينا أن ندبر أمر المجلة بعد البارودي. وتولى أحمد شوقي رياسة التحرير وازددنا نشاطاً وحماساً، غير أن الظروف ظلت تسير من سيء إلى أسوأ، والمجلة أصبحت مشبوهة يخاف الناس تداولها، والعقبات تتكاثر، وضربات حكومة ذلك الوقت تنهال علينا وبعض المترددين كفوا عن دفع الاشتراكات والهبات. وما لبث عملنا نفسه أن عانى من كل تلك العوامل فبدأ يتأثر، وبدأ ينقلب في أحيان إلى روتين وبدأنا نثور.

والحقيقة أن ثورتنا لم يكن سببها تلك العقبات، كان سببها راجعاً أساساً إلى أمور أدركناها. . بعد دخول البارودي السجن، شيئاً فشيئاً بدأنا ندرك أن عملنا يضيق لأن أساس عملنا نفسه كان في حاجة إلى تعديل جذري.

ولا أعرف كيف حدث هذا بالنسبة لبقية الزملاء في المجلة، ولكني

أذكر أني بدأت أحس بالتناقض داخل نفسي أنا. كانت خواطري القديمة وعدم هضمي لكل تلك الأساليب الأوروبية في العمل الثوري، نفسها قد بدأت تعود إلى تفكيري. بل بدأ يخطر لي أحياناً أن كل ذلك العالم السري الذي عشت فيه وقضيت أهم سنوات عمري أخوضه، لا يمكن أن يؤدي بنا إلى ثورة حقيقية ننقذ بها بلدنا.

وكنت أكافح ما استطعت لاحتفظ بخواطري تلك لنفسي، غير أني أحياناً كنت أصارح شوقي بها. كان لا يدهش ولا يستنكر. كان في مبدأ الأمر يحاول إقناعي بصلاحية أشياء ويوافقني على عدم صلاحية أخرى. . ولكني كنت أجده في أيام وكأنما طفح به الكيل، وكأنما هو الآخر قد أدرك ما أدركته، واحدثه حينئذ عن ضرورة التغيير الجذري فيصغي لحديثي ويطول صمته.

وكنت طوال الوقت أحاول أن أطرد خاطراً مخيفاً يحوم حولي، خاطر مخيف حقيقة، فقد كنت أحياناً اتساءل. . أليس من المحتمل جداً أن يكون البارودي قد قادنا طوال تلك الأعوام في الطريق الخاطىء، الطريق الذي يؤدي إلى أوروبا، ولكنه لا يمكن أن يؤدي إلى بحري أو الصعيد؟

واعترف أني كنت أخاف أن يكون الخاطر صحيحاً، إذ معناه أني ضيعت أخطر فترة من حياتي في طريق خاطىء، ومعناه أيضاً أن هذا الشخص الذي أكاد أقدسه. . البارودي. . ممكن أن يكون عبقرياً وخطيراً ومعجزة ولكن حسابه أفلت هذه المرة، وإذا استمررنا وراءه ضاع وضعنا.

وعلى الرغم من أنني أنا وشوقي وكل من كانت تحدثه نفسه بأشياء كهذه من الزملاء كنا نؤجل حكمنا النهائي على تلك الخواطر المخيفة، إلا أن هذه الخواطر كان لها انعكاسها في عملنا. فبدأ حماسنا للعمل يفتر

وبدأنا نغير تغييرات لا إرادية في سياسة المجلة واتجاهاتها ونبحث فيها بعض مشكلات بلادنا بالطريقة المحلية وباللغة التي يفهمها شعبنا. وبدأنا نردد شعارات أقرب إلى طبيعتنا وروحنا من الشعارات «العالمية» التقليدية المحفوظة.

وفي تلك الظروف عرفت سانتي.

عرفتها واليأس قد وصل بي إلى مرحلة كنت أكاد أقرر كل يوم فيها أن أقطع صلتي بالمجلة وبالمجموعة كلها، وأن أبدأ في البحث عن طريق آخر أكون مقتنعاً به وبصحته ومؤمناً بفائدته.

وكل يوم كنت أؤجل القرار،لا بحكم العادة والكسل فقط ،ولكن لأني كنت ـ رغم إيماني المطلق بخطأ هذا الطريق ـ أخاف أحياناً أن أكون أنا المخطىء.. وبصراحة ليس هذا كل شيء، فقد قضيت سنوات طويلة أكافح جنباً إلى جنب مع تلك المجموعة من الناس، وفوق رباط العمل تآلفنا كاشخاص وكأصدقاء.. حتى لم يعد لي أصدقاء آخرون. أصبحوا هم كل أصحابي وأقربائي ومعارفي.. هم شلتي التي أسهر معها والتي لا أرتاح إلا لمناقشاتها، شلة افقدتني الاحساس بطعم الناس العاديين، بل جعلتني أمج هذا الطعم وأمج الحديث العادي الذي قد أجبر عليه حين يأتي لزيارتي قريب أو أوجد في حضرة أطباء أو موظفين.. وأصبح الانفصال الكامل أمراًصعباً،أو أهم من هذا لم أكن أجد أمامي طريقاً آخر لأسلكه، وأحقق به كل ما يجيش في صدري وأرد به على تلك الهواتف الخفية التي تهيب بي أن أعمل دائماً عملاً من أجل بلادي وأناسي. وعلى هذا كنت أقول لنفسي: عمل خير من لا عمل، وحتى العمل في طريق مشكوك في صحته خير من لا عمل بالمرة، وأؤجل القرار.

وحين عرفت سانتي فرحت. ولعل جزءاً كبيراً من فرحتي كان راجعاً إلى أنها جعلتني أؤجل ذلك القرار إلى الأبد، وجعلتني أعود لمحبة طريق كدت أكرهه رغماً عني. . جعلتني أعود اتمنى أن تحدث المعجزة وأن ننجح فعلاً في تغيير كل ما كنا نراه غير قابل للتغيير.

وهكذا بدأت في الاجتماعات أناقش وأجادل وانفعل، وكنت قبلاً قد دفعني اليأس إلى حضورها ساكناً ساكتاً مطرق الرأس. . كنت آتي إلى الاجتماع وأنا أكاد انفجر بالثورة وانفجر بها فعلاً ويصغي إليّ شوقي حتى أنتهي من كلامي ثم يبدأ يفند أقوالي. والعجيب أنه كان ينجح بلباقة في تفنيدها كلها وفي إقناعي أن كل شيء على ما يرام وأن سياسة المجلة هي أسلم سياسة ممكن اتباعها، وأنه إذا كان هناك عيب فالعيب يكمن في أنا. . والأعجب من هذا أني كنت دائماً أقتنع. بل يحدث أحياناً أن أقر بخطئي وأعترف صراحة أني مقصر واتعهد باصلاح ذات نفسي. ولكنني كنت أخرج من الاجتماع وأنا في أعماقي أكثر إيماناً بآرائي قبل دخولي إليه، معاهداً نفسي أن يكون هذا آخر اجتماع أحضره. وكالعادة لا يكون، وكالعادة آتي للاجتماع التالي ،وكلي ثورة وأغادره بتصميم فاشل آخر وعهد آخر.

البيضاء

١٣

موضوع الاجتماع كما قلت كان هذا الخطاب الذي جاءنا من البارودي في سجنه، ومن ملامح الزملاء كان واضحاً ان الخطاب خطير وانه مفاجأة لم نكن نتوقعها. والمجلة رغم كل القيود ـ كانت تصل البارودي وبانتظام وهو في السجن، ويبدو انه ادرك من اعدادها الأخيرة كنه التغييرات التي بدأنا ندخلها على سياسة المجلة بقصد تعريبها وتمصيرها. والخطاب في الواقع لم يكن يناقش هذه التغييرات، كان يناقش المبدأ. . مبدأ أن نجري نحن الذين بقينا بالخارج اي تغيير يمس سياسة المجلة، ويصر على ان امثال هذه التغييرات مسألة من اختصاص «القيادة» حتى لو كانت القيادة بعيدة عن ارض المعركة ومقطوعة الصلة بالمجلة والكفاح. . مشكلة كادت تضحكني، اذ هل من المعقول ان نمنع نحن الذين نخوض المعركة من قيادة انفسنا ويعطى هذا الحق للقيادة القديمة سواء كانت داخل السجن أو في المنفى؟ وهل من المعقول ان نظل ننتظر التوجيه من قائد مسجون أو منقطع الصلة بنا ولا يدري من امرنا او امر المعركة التي نخوضها شيئاً، ولا نتحرك الا اذا جاءنا الأمر منه؟ وكل هذا لكي لا يصبح من حقنا ان نقود انفسنا ولكي تظل القيادة هي القيادة؟ وجه لا يعقل. . وجه كنت أعرف حقيقته واعرف انه

موجود ،ولكن لم يخطر ببالي مطلقاً ان اراه مجسداً امامي على تلك الصورة وفي خطاب من البارودي.

كان عطوة هو أول من طلب الكلمة للتعقيب على الخطاب، ودائماً كان هو أول من يطلب الكلمة. وبدأ كلامه بطريقة ظننت معها ان معجزة قد حدثت وانه سيندد بما جاء في الخطاب. ولكني وجدته يلف ويلف ويعود يتكلم عن خبرة القيادة وضرورة احترامها وتقديسها، وان هناك مشاكل أعلى من مستوى تفكيرنا ولا يملك البت فيها الا امثال البارودي. ولم يكتف بهذا بل اكسب ملامحه في النهاية كل ما يملكه من جد وخطورة وخاطبنا بجفون مسبلة ودون ان ينظر الينا قائلا.. يا زملاء.. في نهاية الكلمة بتاعتي عندي اقتراح أرجو أنكم تقبلوه.. اقترح اننا نبعث لقائدنا البارودي خطاب شكر وتأييد.

ثم فتح عينيه وأدار فينا نظرات سريعة خجلة وقال: بس. دا كل اللي أنا عايز أقوله.

وسادت فترة صمت، طلب مني شوقي بعدها ان أتكلم. وكان في نيتي أن أبدأ كلامي في خفوت، وان اتحدث على مهل وبرزانه كما يفعل محترفو الاجتماعات وهواة الكلام. ولكني ما ان بدأت حتى وجدت الضيق يكاد يكتم انفاسي.. ضيقاً مادياً حقيقياً احسست ان لا منفذ لي منه الا بالانفجار. وانفجرت وتكلمت بحدة وانفعال وقلت رأيي بصراحة.. رأيي في سياسة شوقي المترددة، ورأيي في تذبذب المجلة وفي خطاب البارودي والتعفن الذي سادنا، وسببه الوحيد أننا لا نتصرف في أنفسنا بأنفسنا، وكيف أننا من المستحيل ان نستمر على هذا الوضع وكيف لابد من اتخاذ خطوة ايجابية نحصل بها على حقنا في قيادة انفسنا

البيضاء

ونحيل بها هذا الكلام الميت الذي ننشره على الناس إلى شعلة نار وحماس، خطوة نخرج بها من الدائرة القاتلة المغلقة التي احتوتنا وامتصت كل ثورتنا واحالتنا إلى كائنات بيزنطية لا عمل لها إلا أن تجتمع وتناقش وتنفض لتعود إلى النقاش.

وقال شوقي: انتهيت يا زميل يحيى؟

قالها بتكشيرة رسمية جعلتني أضيق به هو الآخر، ولم اكن قد انتهيت ولا قلت ربع ما عندي ولكني أجبته: أيوه.

وتنحنح شوقي وأخذ يتكلم. ومشكلة شوقي في نظري انه كان يناقش معي بطريقة، ويتكلم في الاجتماعات بطريقة. بيني وبينه كان يوافقني بايمان على ما اقوله وفي الاجتماعات يلبس ـ عن ايمان ايضاً ـ رداء المسئول ويتكلم كالمحافظين، ولا أعرف أي الشخصين هو، وأحتار دائماً بأي شيء يؤمن أو إن كان يؤمن بشيء على الاطلاق. تنحنح وقال:

ـ كلامك ده كلام فوضويين، واحنا ناس ميزتنا الحقيقية اننا ثوار منظمون.. بعض الناس زيك بيعتقدوا ان الثورة فوضى، إنما الحقيقة الثورة نظام بل هي قمة النظام.. وأي خروج على النظام هو عمل ضد الثورة على خط مستقيم.. والنظام يعطي البارودي الحق انه يقودنا، فاذا احنا خرجنا على النظام واخذنا قراراً بفصله وعزله من رئاسة التحرير كده.. ولمجرد انه بيرى ان القيادة من حقه.. يبقى بنخرب.. نبقى فوضويين يبقى هو راخر ياخذ قرار بفصلنا ونقعد نلطش في بعض ونحطم العمل والمجلة.. دي تبقى ثورة اطفال.

وكانت أصابعه قد أوصلت السيجارة إلى فمه فأشعلها وقد عاد إليه هدوءه وأكمل:

ـ عايز تغير الشيء غير من داخله.. وبنفس قوانينه.. إنما كل واحد يعمل قوانين على كيفه عشان يغير بيها اللي يغيره، ح تنقلب المسألة فوضى.

ولم أكن اسمع هذا الكلام للمرة الاولى، كنت دائماً اسمعه ودائماً أعرف نتيجته ودائماً اضيق به.. وقاطعته قائلا:

ـ يوهوه! مهوده مش معقول. احنا عايزين تغييرات جذرية، ودي مش ممكن تحصل من داخل الشيء أبداً.. علشان الشيء يتغير تغيير جذري لازم قوة خارجية هي اللي تغيره. واذا كان قانون المجلة بيدي للبارودي الحق إنه يفضل رئيس تحرير حتى لو خرج برة البلد، يبقى هذا القانون لا يمكن يغير نفسه لازم التغيير يتم بقانون آخر. احنا اللي نضعه، القوانين دي مش نازلة من السماء ولا وضعها أنبياء.. وضعها بشر ويغيرها بشر.

ولم يفعل كلامي أكثر من أنه زاد انفعالي، وفجأة وفي غمرة ذلك الانفعال التقى بصري بسانتي كانت جالسة قبالتي ترقبني بعينين اتسعت حدقاتهما في مزيج غريب من الحماس والاستنكار.

ولكن نظرتها لم تكن هي الشيء الذي اثار انتباهي. رقبتها كانت هي ذلك الشيء، أو على وجه الدقة جيدها اذ هناك فوق هذا الجيد بقعة حمراء أنا السبب فيها، احدثتها محاولتي منذ ساعات ان اقبلها عنوة.

وتوقفت عن حديثي الغاضب برهة، ثم لم أدر كيف أنهيته بسرعة ولا حتى ماذا كانت اجابة شوقي عليه. كنت من لحظة ان لمحت البقعة الحمراء في جلدها قد بدأت أهوي في بئر خجل عميقة.. اتحدث عن الثورة والقوانين والشعب بكل هذا الحماس، واوزع الاتهامات والتقصير

يميناً ويساراً وأنا ما فعلت شيئاً يذكر طوال اسابيع الا التعلق بسانتي والغرق في مشكلتي معها.

ظممت غائباً عن الوعي الكامل بالاجتماع وبما دار فيه، أخجل واصنع من خجلي اصابع حديدية أحاول ان اخنق نفسي بها إلى أن بدأ يطرق مسامعي حوار يدور بين شوقي وسانتي. كانت ـ ولا اعرف لماذا ادهشتني هذا؟ ـ تهاجم رأي البارودي وكلام شوقي عنه، وتدافع هي الاخرى عن حقنا في قيادة انفسنا. وكان شوقي يرد عليها، وتدرج رده كالعادة إلى الحديث عنها هي، ولم يكن حديثاً كان تأنيباً لبقاً ومريراً في الوقت نفسه إذ لم تكن قد أنجزت شيئاً مما عهد إليها به وكانت تتملص وتحاول أن تعتذر بمشغولياتها العائلية، وشوقي يحاول تذكيرها بحالها منذ مدة لا تزيد عن الشهر، وكيف كانت مثلا رائعاً في انجاز كل ما يكلفها به وفي انجازه بحذق وبراعة.

كان شوقي يسألها: ماذا حدث لك؟ لم تكوني هكذا.

قلت لنفسي: أجب عنها يا سيدي الذئب، أجب انت السبب. لماذا لا تواجه الموقف بشجاعة الرجال وتعترف؟ لماذا تصمت؟ لماذا تجبن هنا وتستذئب هناك؟

أجب.

ولم أجب. عدت مرة اخرى أهوي في بئر الخجل ولا اريد ان اخرج منها.

وانتهى الاجتماع.

وكنت أول الخارجين. وكنت تقريباً مغمض العينين لا اريد ان ارى احداً او يراني احد. كل ما اريده ان أسرع إلى البيت بأقصى ما استطيع

وهناك أغلق على نفسي باب حجرتي واطمئن إلى أن احداً لا يرانـي او يراقبني، واستخرج على مهل ما في اعماقي وأتأمله وأجد حلا للمأساة.

خلال الأسابيع التي مضت كانت سانتي هي كل شيء في الحياة بالنسبة إليّ حتى لم أعد نفسي، اصبحت مجرد شخص يحبها. في الاجتماع أحسست أني أعود قليلا إلى وعيي واني أدرك أن حبي لها ليس هو كل شيء. في الاجتماع كان شوقي وفتحي سالم وعطوه وكلهم يبدون لي بيضاً ناصعي البياض شرفاء، ثواراً حقيقيين ليس لديهم ما يثقل ضمائرهم، وكنت احس بنفسي وكأني ميكروب له كل قذارة الميكروب ودناسته. ولم اكن اريد لنفسي هذا، ولم اكن اريد لها أن تفقد كبرياءها وتتلوث، ولم اكن اريد ان الوث سانتي معي.

ومع هذا.

وبينما كنت أنهال على نفسي بصفعات مكتومة.

بينما نفسي كلها في جنازة خجل قائمة كان جزء صغير من نفسي يكاد يرقص فرحاً، جزء أحاول اسكاته فلا يسكت، أحاول سحقه فلا يموت ابصق عليه فيزداد مرحاً وفجوراً، ويفعل هذا لأن معنى أنها اهملت في عملها طوال تلك المدة انها كانت مشغولة بشيء آخر، مشغولة بي. كانت سانتي طوال تلك المدة مشغولة بي، بي أنا. ولم اكن اكذب في كلا الانفعالين، كان اغلب نفسي في جنازة حقيقية أقطر لها مرارة وألماً، وذلك الجزء الصغير في مرح حقيقي يكاد يهزني طرباً، وكلا الانفعالين لا يستطيع التغلب على الأخر أو محوه، وصراعهما وتنافرهما يمزقانني ويدميانني.

وماذا كان يمكن أن يحدث لو أغلقت على نفسي سبعة أبواب وابتعدت عن العالم كله بمن فيه؟ اقصى قرار كان ممكناً أن أصل إليه كان

أن اقطع علاقتي بها. سخف ما بعده سخف. من أول يوم عرفتها فيه واحسست اني منجذب اليها وانا في كل ساعة بل في كل دقيقة آخذ قراراً بأن أقطع علاقتي بها. . كانت كلها محاولات جادة لقطع علاقتي بها. . وربما نحب احياناً لأننا نريد ان نمنع أنفسنا من أن نحب، ويكون حبنا بها سلسلة متصلة من محاولاتنا لكي نمنع أنفسنا من أن نحب.

القرار ليس جديداً بالمرة، ولكن تنفيذه تنفيذاً حقيقياً اصبح واجباً لابد منه حتى لكي اعيش، فلم يعد بامكاني ان اعيش هكذا.

حسن اذن! كيف يمكن ان انفذه؟ بأن انالها فتخف حدة عواطفي ويمكنني حينئذ ان أقطع علاقتي بها؟ هذا ايضاً ليس جديداً بالمرة، فقد سبق وقررته، وسبق ولم أستطع تنفيذه. وهذا اليوم بالذات حاولت، واليوم ايضاً فشلت.

المشكلة اني كنت اعرف انه مهما طال بي التفكير وتفرع وتشعب فقد كنت متأكداً سلفاً انني لا يمكن أن أصل إلى طريقة استطيع ان اقطع معها علاقتي بسانتي بارادتي. تماماً مثلما لو قضيت مئات السنين افكر فلا يمكن أن أصل إلى طريقة أستطيع بها أن أقتل نفسي بارادتي، فعلاقتي بها بالرغم من كل خجلي وتأنيب ضميري وسخطي، لم تعد مجرد علاقة. . اصبحت حياتي هي علاقتي بها.

لم يعد املي إلا أن أحاول ذلك الحل، وأحاوله وانا عاجز وحزين. لم يكن حلا جديداً ولكني تصورت في ضباب ما قبل اليوم نجاحه وتصورت فعلاً اني سأظفر بها ثم أتركها. . وقبل النوم أيضاً حاولت أن اتخيلني معها، ولكني أحسست بخيالي يجمع ويأبى أن يمضي بي خطوة واحدة، ودسست رأسي بين كوعي والصقتها بالمخدة ونمت.

وعجبت حين استيقظت، فقد أدركت أني نمت مبكراً حوالي التاسعة

أو العاشرة، وهأنذا أستيقظ والدنيا لم تصبح نهاراً بعد.

ولم اندم على يقظتي التي جاءت في غير اوانها، في الواقع سررت. الضغط الهائل الذي كان يسحق اعصابي قد زال، والتوتر الذي ساد نفسي كان قد خف وتلاشى، واصبحت المسائل في نظري ابسط. ولاننا كنا لا نزال في الليل فخواطري كانت لا تزال دافئة ممكن أن اعيد صياغتها كما احب، وممكن ان اصنع بها ما أشاء من خطط وأشكلها كما اريد.

وكان السؤال الذي واجهني حين اوقدت النور الصغير واحسست بدفء اللحاف وبخدر النوم لا يزال يسري في اطرافي، كان السؤال هو: ماذا أفعل لاظفر بها؟ كان الاجتماع والخجل وتأنيب الضمير قد زايلتني كلها نهائياً، أو على الأقل اصبح همي الأول أن أفكر في حل للمشكلة وبعدها المجال فسيح للخجل وتأنيب الضمير.

وكما جاءني الخاطر أول مرة فكرت أن أعبر لها عما يجيش في نفسي، فقد جاءني نفس الخاطر مرة اخرى وعلى نفس الصورة، لماذا لا أكتب لها خطاباً اسطر فيه كل ما اعجز عن قوله أمامها؟ وما اكثر ما كنت اعجز عن قوله امامها.

وأحسست فقط بالخاطر حين واتاني، أما احساسي الثاني فلم اشعر به الا وأنا جالس على المكتب وإلا وأنا أكتب.

والواقع اني كنت أجد لذة في الكتابة اليها لا تقل عن لذتي في رؤيتها ومحادثتها. كان احساسي اني اكتب «اليها» يملؤني بالنشوة، واحساسي انها ستقرأ كلامي - ستقرأ كل كلمة، وتتوقف لدى كل تعبير، كان احساسي هذا يدفعني الى الاتيان بكلمات وأفكار انتقي كلا منها بدقة وشغف وحب، وكأنما أنتقي هدية يسعدني أن أقدمها لها. وأعبر عن نفسي

البيضاء

بأرفع صدق أملكه، على الأقل، لأريها ذاتي الحقيقية التي لا تظهر الا بكلماتي.

والموضوع كان شائكاً، والاقتراب منه في حاجة إلى براعة عظمى والذي أعجبني في نفسي انني لم أتوقف لأشحن قلمي بالبراعة أو لأفكر فيما يجب قوله. وجدت الكلمات تنساب من قلبي برفق وحماس وحرارة وتأتلف من تلقاء نفسها وتصنع طريقها وتقترب من الموضوع بأبرع مما كنت أتصوره. وكانت المشكلة التي حاولت أن أجسدها لها هي موقفها الغريب مني.. كنت أعلم أن ما سأقوله سيحرجها، ولكنني لم أتردد في قوله، فقد كان هدفي واضحاً وكنت اريد أن أصل إلى النتيجة بسرعة.

قلت لها أنها أنانية، فهي تراني احترق ولا تكلف نفسها مشقة ايقاف هذا الاحتراق. قلت لها انها تسخر مني، لأنها لا تعارض في أن أحدثها عن الحب وأصف لها كيف أتعذب وكيف أهفو إلى كلمة أو نظرة منها، لا تعارض في سماعي وأنا احدثها عن الحب من بعيد لبعيد، ولكن إذا حاولت مزاولة هذا الحب والاقتراب منها تتراجع إلى الخلف مذعورة وتتهمني بأني بدائي وذئب. وكأنها لا تريد من حبي لها إلا أن يداعب أذنيها ويسعدها، أو يجعلها تحس بأنها محبوبة مرغوبة، أما أن يمس هذا الحب شعرة واحدة منها فتلك هي الجريمة البشعة في نظرها.

بدأت الكتابة باحثاً عن طريقة للاقتراب مما اريد، ولكني حين عثرت على الوتر الذي بدأ لي منطلقاً ومعقولاً رحت أداعبه واعزف عليه واعمقه حتى آمنت أنا به، وتحمست له، ودفعني الحماس إلى أن أظل أكتب وأكتب حتى ملأت ما يقرب من العشر صفحات.

وحين انتهيت كان نور الشمس قد بدأ يملأ الدنيا، والمدينة قد بدأت

تدمدم فيها الحركة وتصحو. وحتى لم أقرأ الخطاب، جمعت أوراقه ودبستها ووضعتها في مكان من درج المكتب ثم ذهبت إلى الفراش ونمت.

وطوال اليوم التالي كنت مستريحاً نوعاً ما، كان كل شيء فيّ هائماً نائماً يترقب لقائي القادم معها وما سوف يدور فيه. ولم أفكر فيما يمكن أن يحدث بعد أن تجيء، تركت التفكير والتنبؤات جانباً. وكنت أحياناً أقول لنفسي: لماذا لا آخذ الأمر مأخذاً طبيعياً جداً، انها مهما كانت فهي امرأة وأنا مهما كنت فأنا شاب. وما يحدث بيننا حدث مثله لملايين من قبلنا وسيحدث لملايين من بعدنا. فلماذا أعقد الأمور وأحملها فوق ما تحتمل؟

ولكني كنت موقناً اني اكذب على نفسي، فقد كنت آخر من يعتبر ان ما يدور بيني وبينها شيء عادي. كنت في قرارة نفسي مؤمناً ان ما يحدث لي لم يحدث لانسان من قبل، وكأنني أول واحد شعر بعواطف كهذه تجاه انسانة مثلها، وسانتي في يقيني كانت لا يمكن ان تكون مجرد فتاة أو امرأة عادية، كانت تكاد تقترب في نظري من ظاهرة شاذة، كائن خارق للعادة كائن احس ناحيته بأحاسيس لم أحسها قبلا تجاه أية أنثى او تجاه اي انسان آخر.

ورغم حالتي فالعمل يومها لم يكن سهلاً بالمرة. فمنذ أسابيع قليلة كانت ادارة الورش قد أصدرت قراراً باعتبار يوم الجمعة راحة أسبوعية اجبارية للعمال بدون أجر. ولا اعرف ما حدث بين العمال نتيجة لهذا القرار، ولكن ما عرفته بعد هذا أنهم ـ أو على الأقل عدد كبير منهم ـ بدأ يبحث عن حل، حتى ولو عن طريق باب خلفي، فالظروف لم تكن تسمح بحلول عن طريق الأبواب الامامية ومواجهة الادارة بصراحة واجماع.

البيضاء

واكتشف العمال، ولا ادري كيف، انهم اذا بلغ الواحد منهم انه مريض يوم الخميس مثلا وأعطي الخميس والجمعة اجازة مرضية، فان يوم الجمعة يحتسب بأجر. وغير مهم حينئذ أن اليومين سيخصمان من اجازته المرضية، فأهم لدى العامل الذي يدبر حياته يوماً بيوم أن يفرط في رصيد من الاجازات المرضية، على أن يأتي ليقبض في نهاية الشهر أو الاسبوع فيجد يوميته تنقص كل سبعة أيام يوماً.

وأول شيء فكر فيه العمال في بحثهم عن هذا الباب الخلفي هو الطبيب، وقدرته على منحهم أو عدم منحهم أجازات.. وهكذا فوجئت في أول اسبوع بمائة زيادة قد ابلغوا أنهم مرضى يوم الخميس، وكان اشكالاً! وفي الاسبوع التالي تنبهت ادارة الورش لهذا الباب فاصدرت قراراً بأن يوم الجمعة لا يحتسب اجازة مرضية إلا إذا وقع بين يومين من الاجازة المرضية، وعلى هذا فالعامل لكي يحتسب له يوم الجمعة باجر- عليه أن يأخذ الخميس والجمعة والسبت اجازة مرضية. ومع أن هذا حل غير علمي اطلاقاً، لكي يحتسب العامل لنفسه الأربع جمعات التي في الشهر عليه أن يفقد اثني عشر يوماً من اجازته السنوية التي لا تتعدى العشرين يوماً، أي أن إجازة العام المرضية كلها لا تكفي لكي تحتسب له أيام الجمع في شهرين اثنين، مع هذا الا اني وجدت العدد يتضاعف في ثاني اسبوع. وفي ذلك الاسبوع الثالث، حاول بعض العمال أن يتلافوا ازدحام يوم الخميس وما قد يحدث فيه، فابلغوا بمرضهم ليوم الأربعاء، وقضيت يوماً طويلاً مزدحماً أحاول أن أفهم فيه العمال بخطأ ما يرتكبونه في حق أنفسهم، وأحاول أن أفهم فيه أعضاء النقابة ان يتحركوا وان يفعلوا شيئاً غير اللجوء إلى هذا الحل الخلفي، ولم أجد أية فائدة في الكلام مع العمال، أو مع أعضاء النقابة ورئيسها السني

النحيف، وأمين صندوقها الحاج الذي لا يفقه من أمور الدنيا شيئاً وأدركت حينئذ حرج الموقف الذي سأقفه في الغد، الخميس، وفي كل خميس، فقد كنت اريد أن أقف الموقف الصحيح كمكافح يؤمن بالشعب، حتى ولو جاء هذا الموقف على حساب وظيفتي. وكان لابد أن أستشير شوقي في الموضوع.

وهكذا في عودتي إلى البيت.. مررت على المجلة. كان شوقي هناك، وجلست وطلبت قهوة ودخنت وراقبت شوقي طويلاً وهو يكتب ثم طرحت المشكلة. وكنت اعتمد اعتماداً كلياً على رأي شوقي فمفروض انه أنضج مني سياسياً، وأكثر خبرة بالموضوع، وفوق هذا وذاك فقد كان يعمل مهندساً في فترة من حياته قبل أن يستقيل وينضم إلى نقابة الصحفيين ويصبح رئيس تحرير مجلتنا. وكان رأي شوقي واضحاً محدداً صريحاً، إذ رأى انه لا يجب عليّ ابداً أن أساعد العمال على الهروب من مواجهة المشكلة بمنحهم تلك الاجازات. وأن أجبرهم برفضي، على مواجهة الادارة وأخذ حقهم المغتصب. ورغم أني أفهمته بوضوح ان الظروف لا تسمح أبداً بتلك المواجهة العلنية الا انه أصر على رأيه واعتبر رأيه مجرد رأي،ولكنه أمر لي علي أن انفذه.

وربما لو كان شوقي قد تخيل ما سوف يحدث في الغد نتيجة لمشورته هذه لتردد قليلا مثلا وهو يقولها لي، أو لطلب مني ان يؤجل رأيه حتى يدرس المسألة، ولكنه ابداً لم يفعل هذا. ببساطة وحسم افهمني ان المسألة مسألة مبدأ.

وعدت إلى البيت، وما كدت اضع قدمي فيه وادرك أن الساعة تقترب من الثانية وانه لم يبق على الثالثة والنصف ـ ميعاد سانتي ـ الا تسعون دقيقة، حتى بدأت أنسى شيئاً فشيئاًمشاكل العمل والورشة والعمال، وبدأت

البيضاء

تعود إليّ من جديد حالة التوهان الهائم، وبدأت اهيىء نفسي لاستقبالها.

وحين جاءت الثالثة والنصف ومرت، ومرت وراءها الرابعة والخامسة ولم تأت سانتي، لم أحس بخيبة أمل كبيرة. فشيء ما لابد كان سيحدث نتيجة لما دار بيني وبينها بالأمس، ونتيجة للاجتماع الذي اعقب ما دار أقل ما يكون ان يحدث ان تمتنع عن الحضور ثاني يوم. لابد أنها هي الأخرى متأثرة ولها الف عذر، بل الحقيقة سررت لأنها لم تأت، وتصرفت حسبما اعتقدت انها ستتصرف، إذ معنى هذا أنها تتصرف بطبيعتها معي لا تدعي شيئاً ولا تجبر نفسها على فعل شيء.

وكعادة لحظات السرور القليلة التي نادراً ما كنت أسعد بها، لم تكن لحظة سرور خالصة، فقد شابها في الحال بعض الخوف.. الخوف الذي أعرف أنني ما ان أبدأ أحس به يتكاثر بسرعة مذهلة إلى أن يخنق سروري ويمحوه.. وخوفي هذه المرة بدأ باحتمال صغير، احتمال ألا تأتي في اليوم التالي.. لماذا لا تكون هي الأخرى قد قررت أن تقطع علاقتها بي تماماً مثلما قررت انا؟ كل الفرق بيننا انها قررت ونفذت، وبدأت التنفيذ في الحال.

سموها لعب عيال ومراهقين، ولكن ركناً رئيسياً من اركان العلاقات بين المحبين ليس في مزاولة الحب فقط، ولكن في أي الطرفين يقطع علاقته بالطرف الآخر أولا. واذا كان الحب مزيجاً من مزاولة العلاقة والخوف من قطعها، أو على وجه الدقة الخوف من أن يقطعها الطرف الآخر قبل أن نقطعها نحن. اننا فى هذه الحالة نصاب بغصة مزمنة لا نبرأ منها.. والمهجور لا ينسى هاجره أبداً.

وخوفي هذه المرة لم يكن أن أهجر، فحتى اذا كانت ستهجرني

فالسبب لن يكون لأنها كرهتني، السبب في هذه الحالة خارج عن ارادتها تماماً.

ورغم هذا فقد كنت خائفاً الا تجيء فيفسد تدبيري، اذ في هذه الحالة لن انجح في قطع صلتي انا بها. فالمهم ليس ان تنقطع صلتنا، او تقطع هي صلتها بي، المهم أن أقطع أنا صلتي بها. انانية ما في ذلك شك: ولكن الحب نفسه، اليس هو الرغبة في الاستحواذ على انسان آخر؟ اليس هو قمة الأنانية؟ وقد يبدو اني سمحت لنفسي بالاطالة والتبحر في أشياء سخيف أن يتبحر الانسان فيها. ولكني لا اعتقد ان كل من مر بتجربة حب ـ وكل منا لابد قد مر ـ سيعتبر هذا تبحراً سخيفاً. . انها تبدو لحظتها لنا وكأنها كل الحياة، وكأنها أهم من الحياة. لقد ظللت أفكر في تلك التفاصيل التافهة، ولم أفق منها طوال اليوم كله وجزء كبير من الليل حتى نمت. وكنت أحس طوال الوقت اني افكر في أهم شيء في دنياي وأن هذا العمل هو أهم ما يمكنني مزاولته. . بل حتى اليوم التالي لم أنقطع عن التفكير على هذا النحو. ولم أكن ضيقاً بتفكيري ولا حزيناً، بالعكس كنت أحس اني كلما أوغلت في التفكير احسست بشجن خفي، شجن رائع حبيب، وتوهان، ورغبة ممدودة في بكاء طويل، وأمنية دفينة في سعادة كبرى، وتصور غير واضح لآمال، ويأس غير مر يعصف بالآمال. حالة لم أكن أريد أن افيق منها ولا ان تنتهي او تتبدل. حالة استنفدت فيها احساسي بأني مظلوم مرة واحساسي باني ظالم مرة اخرى، غالب مرة ومغلوب في المرة التالية، مرة احس اني احب ومرة احس اني محبوب مرة احس اني شرير ومرة احس اني ضحية شرير خبيث، مرة احس اني كل شيء ومرة احس اني لا شيء، مرة انا اضيق بنفسي اشد الضيق ومرة انا سعيد بنفسي اقصى سعادة.

وأنا مستسلم لهذه الموجات لا اريد أن يكون لي ارادة في ضبطها أو تكييفها، كالمدمن حين يستسلم سعيداً لمفعول العقار، ويشل بنفسه ارادته ليترك لارادة العقار ان تحدد سعادته ونشوته، انا ايضاً كنت تاركاً هذه الحالة تقرر افراحي واشجاني، سعيد بأني مستسلم لها، لا ارادة لي في فرحي أو حزني، ولا في سعادتي أو شقائي.

ولم أكن أعرف ابداً أن تلك هي آخر حالة تصلح لمواجهة الموقف الذي كان عليّ أن أواجهه صباح اليوم التالي، ولا حتى بعد الظهر حين جاءت سانتي.

أجل! في الصباح حين ذهبت وبي من الهيام ما بي إلى الورشة فوجدت المكتب الطبي غارقاً في وسط بحر زاخر الأمواج من العمال.. عشرات ومئات وربما آلاف.. جاءوا كلهم يطلبون الخميس والجمعة والسبت اجازة.. ومدير الورشة في مكتبه حائر ساكت يترقب، ومعظم العمل في الأقسام قد توقف.. وآلاف من عيون العمال تترقب.. والقسم الطبي يترقب.. وحتى الباشتمرجي بوجهه الوردي السمين يترقب.. وكلهم يترقبون ما سوف أفعله.. وليس في ذهني فكرة مما يمكن أن أفعله.

ولمقدمي تحرك العمال يفسحون لى الطريق، تحركوا في بطء وتكاسل ووجوه لا تتوقع خيراً ولا تبشر بخير، كانوا على الأقل قد حسبوها بينهم وبين أنفسهم قبل حضوري وأدركوا أن عددهم كبير، أكبر مما يجب بكثير، أكثر من نصف عمال الورشة. وعرفوا أنه وان كان الحل في يدي الا أنه صعب حتى لو كنت في أحسن أحوالي، فمعنى أن يمنحوا كلهم

أجازات ان يتعطل العمل في الورشة تماماً ويقف، ولكن لانهم كانوا كثيرين جداً فقد كانوا متأكدين انهم بكثرتهم سيحلون المشكلة، وعلى اي وجه.

ووصلت إلى مكتبي بعد جهاد، وحاول الباشتمرجي أن يخرج العمال المنتظرين في الحجرة يكادون يملئونها ويغلق الباب كعادته كل يوم فلم يستطع، لا لأن العمال رفضوا الخروج ولكن لأنهم لم يستطعوا، اذ كانت جميع ممرات المكتب وحجراته وما حوله تعج بغيرهم من المنتظرين ووقف عم مرسي في النهاية مشبكاً يديه أمام كرشه في عجز واستسلام ينتظر أوامري.

والمشكلة اني كنت لا اعرف بالضبط ماذا يجب علي أن أفعل، من لحظة أن وضعت قدمي في الورشة ورأيت هذا العدد الهائل وأنا أحاول أن أعثر على شيء محدد استطيع أن أفعله أو آمر بفعله بلا فائدة. ضجة العمال في الخارج تصلني كهدير محيط عميق، وهمسات العمال الواقفين في الحجرة تتلاصق أجسادهم وتتدافع أحتار في تفسيرها وفهم معناها وأكثر ما يضايقني عيونهم المنصبة كلها على ترقب اي انفعال تفلته ملامحي، أو أية رمشة يرمشها جفني. وأحسست أن وجودهم وانفاسهم ونظراتهم وحفيف أنفاسهم وهمساتهم يشلني تماماً ويبقيني عاجزاً عن الحركة أو التصرف. وكان أول ما قلته: أخلوا الحجرة. وكأني كنت اتمنى ان تفشل عملية الاخلاء فأجد عذراً وجيهاً لكي لا أتصرف أوأن يخلوها فعلاً فأستطيع أن أجمع نفسي واحدد ما أريد واتصرف، على ضوء ما أحدده. فيستحيل أن «يفكر» الإنسان وهو في حضرة جمهور يراقب عملية تفكيره، بل هو حتى لا يستطيع أن يتنفس بانتظام إذا وجد في حضرته جمهوراً يراقب عملية التنفس.

القيت الأمر لعم مرسي بهدوء حاسم، وسكت انتظر التنفيذ، وأنا فاتح عيني مغمض بصري لا ارى احداً ولا اسمع شيئاً، ولا اعبأ ابداً للأيدي التي تشوح والأصوات التي بدأت تعلو وتحتج.

واستغرق اخلاء الحجرة ربع ساعة بأسرها.

ثم أمرت باغلاق الباب.

واستغرق اغلاق الباب، مجرد دفع المتزاحمين في فتحته عدة سنتيمترات الى الوراء واغلاقه، استغرق عشر دقائق.

ورفعت سماعة التليفون وطلبت من العامل ايصالي بمدير الورش. وكنت اعرف سلفاً ان العامل سيستمع للمحادثة ثم ينقلها إلى العمال كلمة كلمة.. فهو عامل مثلهم، والتومرجي الواقف على الباب عامل، وكاتب القسم الطبي عامل، وانت وحدك في وسط هذه الكتلة العمالية المتصلة المتداخلة التي لا تخفى عليها خافية. وحياني المدير بفتور وسألني عن الصحة والمزاج، ومن أول كلمة شعرت أنه يعتبر نفسه خارج المشكلة تماماً، إذ كان يشغل وظيفة كبيرة في الوزارة ثم غضبوا عليه وجاءوا به مديراً للورش، وان يتعطل العمل في الورشة شيء لا يهمه بالمرة طالما هو ليس مسئولا عن التعطيل.. قال ببراءة:

ـ احنا ما نقدرش نعمل حاجة يا دكتور.. أي عامل يحب يبلغ انه عيان نديله ارنيك.. وحضرتك تشوف اذا كان عيان تديله اجازة.. ما كانشي ترجعه الشغل.

ـ بس اذا رجع الشغل يبقى متمارض وبيعاقب وبيتخصم منه أيام ودي تنفع في عامل واحد أو اثنين، أنا أعمل إيه في الفين أو ثلاثة آلاف؟

ـ والله يا دكتور.. أنا آسف.. ما أقدرش أعمل حاجة.

وقبل ان تنتهي المحادثة احسست انها قد اذيعت بالنص في السويتش وان اخبارها وصلت الى المتجمهرين في الخارج، فقد بدأت اسمع قهقهات.

وقلت لعامل التليفون: اديني مدير القسم الطبي.
وشرحت لرئيسي المشكلة. فقال بحسم:
ـ اللي عيان اديله أجازة. . واللي مش عيان ما تديلوش.
قلت:
ـ كلهم مش عيانين.
قال:
ـ خلاص. . ما تدلهمش.
قلت:
ـ أفرض. .

وسكت إذ كنت اريد أن أسأله عما يجب ان افعله لو حاولوا الاعتداء عليّ أو قاموا بعمل عنيف، ولكني لم اشأ أن يسمع العامل والعمل شيئاً كهذا.

ـ أفرض ايه يا دكتور.

ـ أفرض اني حاولت أن أكشف عليهم وخد كل واحد منهم ثلاث دقائق كشف، يبقوا عايزين ١٥٠ ساعة يعني عايزين أسبوع فأعمل أيه؟
ـ اكشف على اللي تقدر عليه والباقي أجله.

وأدركت ألا فائدة ترجى من مناقشته فانتهت المكالمة وقد وصلت إلى قرار، فلا أحد يريد أن يواجه المشكلة ويحلها، ولا أحد يريد أن يتحمل مسئوليتها. وقد كان من الممكن أن أتهرب أنا الآخر من حلها، فأنسل من

المكتب بأية حجة وأذهب إلى القسم وآخذ اجازة وأفعل مثلما فعل المدير البيضاء
وزميله الآخر.

ولكن كيف أصنع مثلهما وأنا ناقم أشد النقمة على موقفهما ومحتقره؟ وكيف يمكن أن أفر من مواجهة موقف لابد أن يواجهه واحد، سواء أنا أو غيري، فلماذا لا أواجهه أنا؟ هناك أناس وسيلتهم في الحياة أن يتفادوا الاصطدام، ويبدو أني كنت من صنف يرحب به.

قلت لنفسي: ان شوقي على حق. هؤلاء العمال الواقفون في الخارج يتلمظون ويضعونني بين موقفين.. إما أن أوافقهم على كذبهم وادعائهم فيتركوني بسلام، وإما أن ارفض فيعتبروني عدوهم الأول، هم في الواقع يحجمون عن مواجهة عدوهم الأول، لا يستطيعون الاصطدام به فيتشطرون علي، فكيف أسهل لهم عملية خداع أنفسهم؟ ألكي لا أواجههم؟ ألخوفي من مواجهتهم؟ أأعيب عليهم أنهم يخدعون أنفسهم وأخدع أنا نفسي وأكتب الف « أسهال» وألف «نزلة» بينما لا أسهال هناك ولا مغص ولا نزلة؟

قلت لعم مرسي في هدوء.
ـ دخلهم.

ودب النشاط في جسده المستقيم العجوز في الحال، واستعاد صوته وجعجعته، وتخبطت ضلف الباب مدوية في الحائط تحت الطابور الهائل. وعلى حافة المكتب وقف عامل يرتدي بدلة وفانلة برقبة ينظر لي باتهام ووقاحة وشرر الرذالة يقدح من وجهه الشرس وشعره الأكرت المستفز، وهدير المحيط في الخارج كان قد اندفع إلى الحجرة في سيل مكتسح يجمع الصفافير والزعيق وسب الدين.. وبهمسة خفية من

همسات عم مرسي التي لا ترى ولا تضبط أفهمني أن هذا الـذي يتقـدم الطابور هو سكرتير النقابة.

وتكون للمشهد الدائر أمام بصري عمق آخر لم يكن موجوداً. . أخيراً ظهر سكرتير النقابة وأطل يتقدم طابور العمال «الناخبين» في هجوم ساحق على طبيب الورش يريه العين الحمراء، أو يلقي الرعب في قلبه وينتزع منه الاجازات بالقوة ويوزعها على العمال في حركة جماهيرية مسـرحية يذكرها له العمال أياماً وشهوراً وربما سنوات.

وكنا في زمن تصنع فيه النقابات وتفرض ويتاجر بسكرتيريتها وأمانـة صناديقها، وكنت قد جئت بعد أجيال من الأطباء الذين عودهم العمـال وعودا العمال أن تؤخـذ الأجـازات بالتسـعيرة. . اليومين بريال والثلاثـة بخمسين قرشاً والأسبوع بجنيه.

وكان كل شيء بيسر وسهولة. . كل ما في الأمر أن الطبيب تحول في نظرهم من معالج وانسان حكيم إلـى قابض اجبـاري للـريالات ومانـح للاجازات ومخلص من الزنقات. فـإذا جاء على آخر الزمن طبيب يريد أن يقوم بمهمة الطبيب فمعناها أنه مجنون، واذا استمر جنونه هذا فمعناه أنه في حاجة إلى درس يلقى عليه ويعيده إلى الصواب ويفهمـه مركزه. ومن أولى بالقاء الدرس من سكرتير النقابة؟ هذا الرجل الشرس الـواقف أمامي الذي يرتعد رعباً أمام المدير ويشرب السجائر «الكرافن» وتسهل له الادارة مهمة انتخابـه كل عام في مقابـل أن يسهـل للادارة مهمتهـا، ما أحوجه الآن إلى حائط منخفض يقفز عليه ويرى العمال براعته في الدفاع عنهم واقتحام المخاطر من أجلهم، ويغطي بهذا العمـل «البطولـي» كل مخازيه وراء الستار.

البيضاء

قلت له بصوت طغى على كل الضجة واسكتها:

ـ مالك؟

قلتها بحقد حقيقي وجدته ينفجر في نفسي كما ينفجر الدمل، حقد على الأوضاع التي تجعل من أمثاله زعماء للعمال وسكرتيرين.. الأوضاع التي تجعل من الأطباء لصوصاً ومرتشين، والقرارات التي تصدر وتجبر الناس على التحايل والكذب وطرق الأبواب الخلفية وتخلق من الأبرياء أعداء وهميين.

قال بفظاظة:

ـ عيان.

كان السكون قد عم الحجرة وخارجها، سكون ملتهب فائر كسكون الظهيرة، سكون جمهور غير محايد.. ولكن كلمة «عيان» حتى مع أنها قيلت بفظاظة وأعلم سلفاً كذبها، إلا أنها ردتني إلى عقلي فوراً وجعلتني أسقط من وعيي أي اعتبار آخر سوى أن الذي أمامي عامل مبلغ بمرضه وأني مجرد طبيب للورش.. بل أكثر من هذا جعلتني الكلمة أصمم أن أواجه الموقف كله كطبيب عليه ألا يغضب أو يواجه التحدي بالتحدي أو يعادي من أمامه حتى لو عاداه من أمامه.

وعادت إلى صوتي طبيعته وبساطته وقلت:

ـ عندك أيه؟

وانقلبت فظاظته إلى غطرسة وقال:

ـ أمال أنا جايلك ليه؟ امال دكتور ايه؟ انت اللي تعرف أنا عندي أيه مش أنا.

قلت وكأني لم أر شكله ولم أسمع لهجته:

ـ يعني بتشتكي من ايه؟

قال بغطرسة اكثر:

ـ اهو كل جسمي تاعبني.

ـ يعني ما فيش حاجة معينة تاعباك؟

ـ قلتلك كل جسمي تاعبني.

ـ طيب نشوفك.

قلتها وأنا اشير لعم مرسي أن يخلي منضدة الكشف من الواقفين عليها والجالسين، ثم أشرت له ان يذهب ويخلع ملابسه ويرقد.

ولمحت الغيظ يغلي داخله، اذ لم أعطه بكلامي أو بتصرفاتي حجة ولو واهية يستطيع أن يقيم معها المشهد الذي استعد له، بل لم اعطه الفرصة حتى ليعصي امري. . وذهب ليرقد على المنضدة، وباخلاص حقيقي لعملي كشفت عليه، ولم اجد به ـ كما توقعت ـ اي مرض او شبه مرض.

وعدت إلى المكتب، وحتى قبل ان يكمل ادخال قميصه في بنطلونه عاد إلى وقفته المستهترة المتحدية أمامي.

قلت:

ـ هات الأورنيك.

فقال:

ـ ح تعمل به ايه؟

قلت له ببساطة وحسم:

ـ ح أقول فيه انك ترجع شغلك.

قال وكأنه يقهقه:

ـ أرجع شغلي ازاي؟

البيضاء

قلت له:

ـ لأنك ما عندكش حاجة.

فقال:

ـ أنت كذاب.

وعم سكون هائل.. وأحسست بدم يتفجر في صدري ويصعد الى رأسي ويعمي عيني. وحين عدت للرؤية كانت الحجرة قد تسرب اليها اضعاف اضعاف الموجودين فيها، والكلمة لا تزال ترن في اذني وآذانهم جميعاً، والتحدي سافر على وجه سكرتير النقابة.. وجسدي وأجساد الحاضرين ترتعد ارتعاد التربص للحركة التالية لتندفع تقتل أو تخمد. واللمحة الخاطفة التي قرأت فيها وجوه العمال كانت قد أنبأتني انهم استكثروا الكلمة، ولكن اي رد مني سيقلبهم الى وحوش. والكلمة ايضاً كانت قد ازهقت روح الطبيب في.. ولم أعد سوى رجل يواجه جمهوراً على استعداد للانقضاض عليه لدى أية بادرة. وهانت عليّ حياتي وعمري وآمالي.. وفي اللحظة التي قررت ان ألكمه فيها وجدت صفعتين متتاليتين سريعتين توجهان اليه، والتفت.. كان الغضب قد احال وجه عم مرسي العجوز الأحمر الى كتلة لحم بيضاء غير محددة الملامح، لا يميزها غير بريق أهوج صادر من العينين. واستغربت كيف تحول صوته الهامس الناعم المؤدب إلى ذلك الرعد المتحشرج الذي قال به:

ـ أخرس قليل الأدب.. ازاي تشتم الدكتور؟

وثانية سكون واحدة اعقبت هذا. ثانية خيل إلي فيها أن كل من بالحجرة كف عن التنفس وقد أخذته مفاجأة ويترقب مفاجأة تالية. والسكرتير المصفوع يقف مذهولا يحدق في عم مرسي، والعمال المتزاحمون من حوله واقفون مذهولون هم الآخرون وكأن كلا منهم نالته

صفعة، وحتى أنا نفسي كنت في حاجة لبرهة أتبين فيها حقيقة ما حدث وأعد نفسي لما سيحدث. . ثانية سكون واحدة تفتحت بعدها أبواب الأقفاص غير المرئية، وخرجت من الصدور نمور غاضبة تترقب اللحظة المناسبة لتنقض.

وفي جزء الثانية التالية كانت الحجرة قد امتلأت بأعنف حركة شهدتها. . حتى لقد بدأت أرضيتها المصنوعة من كمرات حديد تتذبذب وتتلوى. ولو كنت أنا الذي صفعته لاختلف الوضع، ولكن عمهم مرسي العجوز المهيب هو الذي صفعه. . ألف واحد منهم لا يرضى أن ترد له الصفعة. وعشرة أحاطوا السكرتير وكتفوه وحالوا بينه وبين عم مرسي والحاضرون جميعاً في ارتعاش واهتزاز، يدفع الغضب صفوفهم البعيدة فتتدافع وتدفع من أمامها، وتتكون للجمع الحاشد موجات غضب تظل في مد وجزر حتى تصل إلى البقعة التي أقف فيها أنا وعم مرسي، ولا يوقفها عن اكتساحنا وتمزيقنا ارباً إلا ذلك الحاجز الرقيق من الهيبة الذي كان لا يزال يحيطبي وبه هو بحكم السن، وأنا بحكم المهنة والتعود. . حاجز قد تكفي يد طويلة تمتد أو كلمة نابية توجه وتسمع، لكي يتهلهل وينمحي ونبقى عرايا من الحصانة تحت رحمة أكف غليظة وسواعد لا ترحم.

كان الموقف جديداً على تماما. .لم أواجهه من قبل ولا تعلمت كيف أواجهه، وحتى الخبير المجرب يتردد في مواجهته. . لم أكن خائفاً ولا متردداً بل كنت مندهشاً مستغرباً. . ماذا فعلت لهؤلاء الناس لكي يعادوني على تلك الصورة؟ اني لا أذكر أني آذيت أحدهم أو قدمت اليهم اساءة. كل ما قدمته كان تحزباً لهم واستعداداً دائماً لمساعدتهم. . وبينما الحركة في الحجرة قد عنفت وازدادت حتى لكأن محتوياتها الآدمية قد بدأت

تغلي وتفور، كان صفاء مفاجيء قد سيطر على تفكيري وعقلي، صفاء غريب كصفاء ما قبل الموت، صفاء جعلني أدرك الأمر.. فلست في نظرهم سوى جزء لا يتجزأ من الادارة ومن الخصم والفصل والقرارات التعسفية. أنا رمز كالأوتوبيسات التي كنا نحرقها حين نتظاهر ونحن طلبة ما كان هناك عداء بيننا وبين شركة الاوتوبيسات.. ولكن كنا نحرق فيها الظلم والحكومات الخائنة وأعداء الشعب. وليس بيني وبين هؤلاء العمال عداء، ولكنهم قد يقتلونني ويقتلون في شخصي الظلم والظالمين.

وعلى حين بغتة سمعت شيئاً لم أتبينه أول الأمر ولكني حالا تبينته كان هتافات ضدي.. عدة أصوات تقول: يسقط طبيب الورش. ورعداً هائلا أعنف وأبشع وأقوى رعدا يردد ويقول: يسقط طبيب الورش. وتكهرب شيء في نفسي وكأنما صعقته الشحنة الهائلة التي ولدها الرعد.. لحظتها عرفت لماذا يقشعر الملوك والحكام من الهتافات والمظاهرات، من هذا الصوت العريض المكتسح الذي يتصاعد من حنجرة خرافية مكونة من آلاف الحناجر، الصوت الذي يهدر به فم واسع أوسع فم، فم الجماهير حين تفتحه ويصبح لها فك في السماء وفك في الأرض، وتهدد بابتلاع كل ما بين الأرض والسماء.

هم يقشعرون لأن هتاف الجماهير ليس مجرد تعبير عن سخط ولا عن ضيق من حاكم أو شخص. انه حكم.. حكم باتر ساحق لا راد له، يصل إلى الملوك حتى في مخادعها وإلى الحكام ولو كانوا في ابراج محصنة فيرتعد له الملك ويقشعر له الحاكم، اذ لحظتها يتبدد على الفور كلام المداهنين والمتملقين ويدرك كل منهم أن حكماً قد صدر عليه، وانه قد أدين، وانه لأول مرة يسمع الحقيقة، يسمعها من فم هادر عريض لا يعرف

سوى قول الحقيقة. . لحظتها يدرك ـ مهما اعتقد بينه وبين نفسه انه بريء ـ أن حكماً أبدياً قد صدر عليه. حكماً لفرط قوته وصلابته وصراحته يجعله يشك حتى في براءة نفسه، فيبدأ يسألها وفرائصه ترتعد: ألا يمكن أن أكون قد أجرمت؟

لحظة قصيرة جداً، أقصر من أن تقاس أو تحسب، ولكنها جعلتني احس وكأني في يوم الحساب، وكأني بين يدي الجلالة العليا، وكأن الهتاف الذي سمعته نار مقدسة تعرضت لها وأصبح عليها أن تظهر بكل ما فيها وأن تبدو على حقيقتها. . لحظة جعلت جدراناً كنت قد أقمتها لنفسي وعشت اتحرك بها تتهاوى وتنهار، ولم يعد أمامي إلا أن أرى ما كنت أتجاهله وأتعامى عنه، اذ لست في الواقع والحقيقة سوى جزء من ذلك الجهاز الضخم الكبير الذي يسير هؤلاء العمال ويتحكم في مصائرهم. . كنت وأنا أقول لنفسي: أبداً أنا شيء آخر، أنا لي رأي آخر أنا لي موقف آخر، أنا مع العمال، ألم أكن أضحك على نفسي حينئذ؟ . . فهأنذا في ساعة الجد أختار جانب الجهاز الذي انتمي اليه وأدافع عنه بدفاعي عن نفسي ووظيفتي.

تصاعد هتاف بسقوطي مرة اخرى. . وكان آخر هتاف. اذ تكلفت أصوات كثيرة باخماده، وانطلقت السنة لا اعرف اصحابها وربما لن اعرفهم تندد بالهاتفين وتنصفني، وتقول اني كنت دائماً في صفهم. والسبب في موقفي اليوم راجع فقط إلى كبر العدد.

وكان الموقف قد نضج لتدخلي. فقلت بأعلى صوتي:

ـ أسمعوا!

وخرجت الكلمة آمره حامية سكتت لها الضجة في الداخل والخارج وجعلت الآذان تصغي ولو بدافع حب الاستطلاع.

وبدأت أتكلم. . لم أشعر بما قلته بالضبط ولكني كنت غاضباً أشد الغضب من موقفهم وطريقتهم. . كان باستطاعتي أن أجنب نفسي مشقة مواجهتهم بمفردي وأستعين بفرقة بوليس النظام، ولكني آثرت أن أعاملهم كرجال ووثقت فيهم وأمنت لهم. وكانت النتيجة انهم يريدون أن يستغلوا كثرتهم ويأخذوا الأجازات بالذراع وبالعنف، وأية اجازات يريدون أخذها؟ . . ثلاثة آلاف عامل يريدون مني أن أمنحهم جميعاً ثلاثة أيام اجازة مرضية. من يظنونني؟ رئيس الحكومة! . . ان كلا منهم لا ينظر الى الا من زاويته الضيقة، يريد أن تحتسب له الجمعة. . ومعنى أن أوافقه على رغبته أن أوافقهم جميعاً على رغباتهم، فهل هذا في قدرتي؟ . . ان معناه ببساطة أن أفصل من وظيفتي وأقدم للمحاكمة بعدة تهم، وحتى لو حدث هذا فلن تحل مشكلتهم أيضاً لانهم في الجمعة التالية سيواجهون بطبيب جديد آخر، وحتى لو غامر هو أيضاً بمستقبله ووظيفته فأجازاتهم المرضية لن تكفي إلا لاحتساب أيام الجمع في أقل من شهرين، فماذا يفعلون في بقية العام؟

ـ أنا مستعد أعطي كل واحد فيكم ثلاثة أيام ويتحسب له يوم الجمعة وأترفد أنا وأتحبس. . أنا مستعد، فهل أنتم مستعدون؟

هل يقبل الواحد فيكم أن يأخذ أجرة يوم مقابل أنه يرفدني أنا ويحبسني؟

ألقيت السؤال وسكت انتظر الاجابة.

وكانت الاجابة ضجة عظمى تصاعدت. . فكل منهم مضى يجيب على السؤال بفهمه الخاص وطريقته الخاصة، ومن مئات الاجابات الصاخبة أدركت أنهم يفهمون ويقدرون، ولا يرضون ابداً بفصلي وسجني. . ولكن المشكلة انهم ايضاً لا يزالون يريدون الاجازات، بل

أكثر من هذا. . وجدت فجوة تحدث بين المتزاحمين أمامي ويبرز منها سكرتير النقابة ويقف وقفة مستهترة ويقول:

- إذا كنت صادق في كلامك ده. . مالكش دعوة. . ادينا الاجازات واحنا نحميك.

وضغطت غيظي تحت أسناني وقلت:

- أسمع. . أنا عاملتك كصنايعي فرديت عليّ رد بلطجية. . وبعدين عاملتك كعيان فرديت عليّ رد فتوات. . واذا كنت فاكر إنك لما تحتمي في زملائك وتتهجم علي تبقى جدعنة فتبقى غلطان. . الجدعنة مش ان الواحد ينتهز فرصة أنه قوي ويقل أدبه. . الجدعنة انه لما يحس بنفسه قوي بزملائه يبقى مؤدب. . تصرفك ده مش تصرف عمال. . ده تصرف ح سيب زملائك دول انهم يحاسبوك عليه ويعاقبوك. أما أنك تقول انك مستعد تحميني فتبقى انت الكذاب، لأن بدل ما تحميني أنا كنت احمي نفسك وزملاءك وواجه اللي أصدر القرار وخليه يغيره ويعدله.

وطبعاً لم يدعني أنطق جملة ما كاملة، ظل يقاطعني ويتحرش بي حتى أجبره العمال على السكوت، وحين انتهيت كان وجهه قد بدأ يشحب وبدأ يعد خطة التراجع، وما لبث أن طبقها في الحال وراح يصرخ في زعيق عال متواصل:

- أمال بس ح نعمل ايه؟. . نكفر؟. . مهي دي مش عيشة دي. . والله الواحد يقتل له حد ويروح فيه. . ح نلقاها منين والا منين؟

وآب صراخه إلى السكوت. لم يلبث أن قطعه عامل من الواقفين قريباً من الباب حين قال:

- معلهش بقى يا دكتر. . ادينا اجازة المرة دي وبعدين تفرج.

ولم أتمالك نفسي، وضحكت وما لبثت ضحكات اخرى ان تفجرت البيضاء في الحجرة حتى عمتها واهتزت لها جدرانها.

ولكن المشكلة ـ رغم الضحكات ـ كانت لا تزال باقية بغير حل.

والأهم من هذا اني كنت موقناً انه لابد أن تحل على وجه ما قبل أن ينتهي اليوم. . أما ما هو ذلك الوجه فذلك هو السؤال.

١٤

وكنت موقناً أيضاً أني بعد ساعات سأكون في حجرة مكتبي جالساً فوق ذلك المقعد بالذات، وقد انتهى اليوم وانتهت المشكلة، جالساً أسترخي وأحاول أن أنسى كل ما حدث، ورغم محاولاتي يظل ما حدث يفرض نفسه علي ويأبى أن يغادر وعيي.

المحادثة الثانية التي دارت بيني وبين مدير الورش وصوته الدافىء الكسول الممتد وهو يقول لي يا دك.. تو.. ر.. واحتداده فجأة حين أنذرته بأنه ما لم يتدخل فوراً ويحل المشكلة فسأتصل بالوزير. ومهزلة الاتصال بالوزير.. إذ كيف لموظف صغير أن يتصل بالوزير مباشرة مهما بلغت خطورة السبب، ثم الإحالة لوكيل الوزارة، وأخيراً اقتناع الوكيل وإيفاده مدير مكتبه، ومجيء مدير المكتب مستصحباً قائد فرقة بوليس ب أو ج لا أعرف، ضابط بوليس سمين ملظلظ على كتفه وصدره إشارات حمراء وخضراء، وتيجان ونجوم، سكتت لها ضجة العمال، وجعلت سكرتير النقابة يخاطبه ويقول: يا سعادة الباشا، ثم الاتفاق الذي تم في النهاية.. أن يعود العمال إلى عملهم في ذلك اليوم بلا أجازات وبدون أن يوقع على أحدهم خصم أو جزاء، وسكرتير النقابة وهو يزف للعمال الخبر وكأنه يزف إليهم البشرى، وكأن أيام الجمع قد ووفق على احتسابها، مع

أن عودة العمال إلى عملهم كان ممكناً أن تتم بلا وزير أو قائد فرقة، ولكن السكرتير راح يؤكد للعمال أنه لولا جهوده وكلامه «اللاذع» لمدير مكتب وكيل الوزارة لكان من المؤكد أن الوزارة ستصدر قراراً بفصل جميع العمال.

زعيق وخناق وأيمان مغلظة وأعصاب مشدودة قطعت ولم ينته المشهد الحافل إلا في الثانية والنصف، وما أكاد أبتعد عن الشارع الذي تستقر في نهايته الورش وأصبح بعيداً عن كل ما يمت إليها بصلة، حتى أحس وكأني أوشك على السقوط إعياء وتعباً. لم أكن قد أغمضت عيني وآلاف الوجوه تسبح في خيالي.. وجه سكرتير النقابة الصفيق الذي لا أدري لم بدأت أحس بشفقة عليه، ووجه قائد الفرقة الدسم المستريح، ووجه مدير المكتب الرفيع الجاد الذي لا يني عن ترديد: كده لا يا شيخ، ووجه عم مرسي، ووجه العامل الذي كان متشبثاً بحديد النافذة لم يبرحه طيلة ما حدث، وجوه تسبح في خيالي، وآذاني فيها صرخات وطنين وهمسات.. وهناك من أبعد مكان في شرق خيالي بدأ وجه ما يظهر ويتضح ويتكامل ويقترب، كان وجه سانتي، حياً ومبتسماً ورائعاً، بدأ مجرد وجه بين آلاف الوجوه وأخذ نوره يزداد حتى بدأت الوجوه التي حوله تظلم، وظلامها يبهت ويبهت إلى أن أصبحت نفسي سماء ليلية صافية ليس فيها مضيء غير وجه سانتي، وما كنت قد قررته والخطاب الذي كتبته، والنية التي بيتها وعزمت على تنفيذها بعد زمن لن يزيد عن الساعة وبعد كل ما رأيت.

وحين دق الباب في الثالثة والنصف من ذلك اليوم، دبت حياة عنيفة في جسدي، واستعدت أقوى إرادة أمتلكها في حياتي. لقد جاءت.

وحتى قبل أن أفتح الباب، في تلك الأجزاء من الثواني التي كانت لا تزال واقفة فيها بالخارج وأنا في الداخل وزجاج الباب يفصلنا، في تلك الأجزاء من الثواني أحسست بدفقة انفعال ساخنة تنسكب في دمي وتسري في كياني كله. فرحة ونشوة وأمل كبير في سعادة حقيقية، وأهم شيء يقين.. يقين لا شك فيه أنها تريدني مثلما أريدها، وأن لديها هي الأخرى دوافع خاصة لي جعلتها تأتي.

وفتحت الباب وأنا أحاول أن أخفي سخونة انفعالي، وكل ما فعلته المحاولة أنها جعلتني أرتبك، بل وجعلتني يخيل لي أنها هي الأخرى مرتبكة.

ودخلت.

كنا في يوم من أيام فبراير،ولكنه لم يكن كسائر أيام الشهر، كانت حرارته تكاد تقترب من حرارة أيام الصيف وكأنه يذكرنا بقرب مجيئه. وكانت سانتي تحمل جاكتتها على نفس اليد التي تمسك بها حقيبتها وكانت ترتدي بلوزة سماوية على هيئة قميص و«جيب» رمادي. وكانت حرارة الجو قد وردت جسمها كله، وخديها بالأخص، حتى بدت عيناها شديدتي السواد، وكذلك بدا شعرها.

دخلت بخطوات سريعة نشطة ذكرتني بخفتها في أيامنا الأولى. ولأمر ما أحسست بإحساس طاغ حين تجاوزتني وأولتني ظهرها وهي تأخذ طريقها إلى حجرة المكتب.. أحسست أني أحبها حباً عارماً مجنوناً. إحساس نادر ما كان يخالجني بل لم أحسه بمثل تلك القوة إلا في هذه المرة التي أولتني ظهرها فيها. ربما كانت حين تواجهني يشغلني عنها محاولاتي لتبين ملامحها وانفعالاتها وكل خلجة من خلجاتها. أما وأنا أراها من ظهرها فأنا أحس بها ككل، ليس نفس الكل الذي أحس به حين

أتذكرها مثلاً، ولكنه «كل» أراه فعلاً وأحس تجاهه بأضعاف أضعاف الانفعالات التي أحس بها إذا تخيلته، تلك اللحظة التي أراها فيها وكأنها خيال حقيقي.

شعور طاغ جرفني كالفيضان وجعلني أوقن أنني مستعد أن أفعل أي شيء لإسعادها، مستعد أن أقف ضد العالم كله من أجلها، مستعد أن أموت أكثر من مرة لأمنعها أن تصاب بالضيق لحظة.

ولم أكن أفكر وأنا أحس، كنت أدرك هذا بلا وعي. كانت أبشع جريمة في نظري أن أمسها، مجرد مس، بكلمة أو حتى بإشارة. لحظة أتمنى فيها أن أشف وأشف حتى أتلاشى إذا كان مجرد وجودي لا يريحها ترى ماذا يحدث لو اطلعت على ما كنت قد أعددته لها في نفسي؟

دخلت الحجرة وألقت بجاكتتها وحقيبة يدها جانباً، وألقت بنفسها على الكرسي الأسيوطي ثم ما لبثت أن مدت ذراعيها في استرخاء من يستريح بعد طول عناء. وأمالت رأسها قليلاً وراحت تنظر إلي بوجنتين شديدتي الاحمرار، وتبتسم، وترمقني بنظرات لا أدرك كنهها ولكنها مطمئنة لذيذة يتمنى الانسان لو ظلت تنظر إليه بها سنين وسنين.

وكنت أراقبها أنا الآخر وأنا واقف قبالتها، مرتبكاً، أبتسم وأنا خجل من نفسي، وأنا غير مستريح أبداً أو مطمئن إلى الأفكار التي تدور في خاطري. ووجدت نفسي أذهب إلى المطبخ وأنا أزعق وأقول لها إني سأصنع لنا كوبين من القهوة. وفي المطبخ أيضاً كنت مرتبكاً متردداً أحاول التفكير ولا أجرؤ عليه، وأحاول أن أطرد أي تردد جانباً وأغمض عيني وأسير قدماً في الخطة التي كنت قد وضعتها. وعدت بالقهوة وجلسنا نحتسيها. وقبل أن يفرغ القدح قلت لها: أريد أن تقرئي شيئاً.

نظرت إلي بمكرها اللذيذ وقالت: خطاب؟

قلت: أظن هذا. . أتحبين أن أقرأه عليك؟

قالت بمرح صبياني: لا لا لا، أرجوك. . أحب أن أقرأه أنا.

ولكن لأمر ما. . ربما لأني أحب أن يبدو الأمر على أنه حديث موجه مني إليها ـ كنت أريد أن أقرأ أنا الخطاب، فقلت: ولكن خطي كما تعلمين.

ـ معلهش، دعني أنا أقرؤه.

ـ على رسلك.

قلت هذا وأنا أبحث بحث المرتبك الشديد الارتباك في أدراج المكتب عن الخطاب الذي خيل إلي أن فوهة سحرية قد ابتلعته. ولكني أخيراً وجدته وأعطيته لها. تأملت حجمه قليلاً وهي تبتسم وأنا أقشعر من الخجل وكأني بسبيلي لاطلاعها على ملابسي الداخلية. وتركت مكانها وجلست على المكتب ووضعت الخطاب أمامها وراحت تقرؤه. . وقلت لها:

ـ الخطيعني. .

ولكنها قاطعتني وهي تضع أصبعها على فمها تحذرني من الكلام وكأنها تحذرني من قطع لذة كبرى، وأحسست بارتباك أكثر حتى لقد غادرت الحجرة نهائياً ورحت أدور في الشقة أحاول بطريقة ما أن أداري خجلي من نفسي ومنها. وكل ما كنت أتمناه لحظتها أن ينتهي الموقف على أية صورة وأن ينتهي بأسرع ما يمكن. وكنت في عجب من نفسي لهذا الخجل، ولهذا الاشمئزاز الذي أشعر به حيال ما يدور في عقلي في

تلك اللحظة. . بالأمس فقط كنت متحمساً شديد الحماس لما أقوم به الآن. بالأمس كان كل شيء يبدو لي منطقياً ومعقولاً، وكنت أمام نفسي على حق إلى درجة أن كتبت هذا الخطاب لها، ولحظتها ماذا حدث؟ ولماذا تغيرت المقاييس؟ ولماذا فقدت حماسي لهدفي وخطتي ولكل شيء؟ ولماذا أريد للموقف أن ينتهي بأقصى سرعة وكأنه موقف مخجل؟.

وكانت احتمالات الدنيا كلها تدور داخل صدري والوساوس تنهش أعماقي. . ترى ماذا يكون بعد قراءتها الخطاب؟ ماذا تظن؟ ماذا تفعل؟ على أي محمل ستأخذ كلامي؟ لم أنتظر حتى أن تنتهي من القراءة لأعرف النتيجة، تسللت عائداً إلى حجرة المكتب دون أن أحدث صوتاً لأحاول أن أعرف انفعالاتها وهي تقرأ الخطاب.

وحين أصبحت قامتي الطويلة تسد فتحة الباب تجمدت في مكاني كالمأخوذ، فقد فوجئت بمشهد لم أكن قد أعددت نفسي له أبداً ولا حسبت له حساباً. . كانت سانتي تبكي. لم تكن تشهق أو تنهنه، كانت عيونها محمرة شديدة الاحمرار، وبياضها محتقن والدمع يتساقط من عينيها دون أن تحاول مسحه أو ترفع نظرها عن سطور الخطاب.

ودارت بي الدنيا.

كانت هذه أول مرة أرى فيها سانتي تبكي، بل لم أكن أتصور مطلقاً أن مثلها مثل سائر البشر يمكن أن تبكي، وأعجب من هذا أنها تبكي في موقف لم أكن أتخيل أبداً أنه ممكن أن يدفعها للبكاء. . والمذهل أنها لا تبكي بقصد أن تريني أو ترى أحداً، ولكنها تبكي بلا وعي، ولا يمنعها انفعالها وبكاؤها أن تكف عن قراءة الخطاب.

ولم أصدق ما أراه برغم تأكدي من حدوثه، خيل إلي أنها تعد عدتها

لتمثيل دور غضب آخر، أو أن هذا البكاء ليس حقيقياً بصورة ما.

ووجدت نفسي أتقدم منها في وجل، وأتحدث بصوت مسموع لتتنبه إلى وجودي. بل حاولت أن أضحك ولكني أنهيت المحاولة في الحال فقد بدا ضحكي سخيفاً لا مكان له ولا معنى. ووصلت إلى المكتب وانحنيت أواجهها وأحدق فيها، كان احمرار عينيها احمراراً حقيقياً ودموعها دموعاً حقيقية. ومع أني كنت قد أصبحت قريباً جداً منها إلا أنها أيضاً لم ترفع عينيها عن سطور الخطاب، ولا أتت بأية بادرة تدل على أنها أحست باقترابي أو وجودي.

وإحساس غريب تملكني لحظتها حتى لقد دفع إلى ملامحي بابتسامة خفيفة باهتة لا تكاد تلحظها العين، فحين مضت فترة صدمتني الحقيقة وبدأت أنفعل وأحس. كان أول ما أحسست به لمحة اغتباط عابر فالمعنى الواضح لبكائها أنها قد تأثرت بكلامي تأثراً دفعها إلى البكاء.

وأنت إذا تكلمت وأبكيت شخصاً ما بكلامك فهو دليل على أنه يحبك ما في ذلك شك. . إن كلامنا لا يبكي من يكرهنا مهما أسرفنا فيه وقسونا كلامنا يبكي فقط من يهتم بنا، من يحبنا.

ولكن اغتباطي لم يطل، فلم ألبث أن أحسست بشفقة طاغية جارفة تتملكني. لا لم تكن شفقة، إن الشفقة نحسها فقط تجاه من هم أضعف منا. أما هذا الإحساس تجاه ند لنا أو تجاه من نعتبره أعلى منا فلا أعرف ماذا أسميه؟. ولكني أحسسته، وأحسست معه أني وغد لأني جعلتها تبكي، مع أن غبطتي لأني أنا الذي أبكيتها كانت لم تزايلني بعد. وهكذا دخت في هذا المزيج الغريب المسكر من الفرحة والشفقة والفروسية والندم والرغبة في القيام بأي عمل عاجل يمنعها من الاسترسال في البكاء

والرغبة في عدم الإتيان بأي عمل من شأنه أن يوقفها عن البكاء. . فقد كنت آسف له واستعذبه، وأدوخ ألماً حين أرى تساقط دموعها الحقيقية قطرة متبلورة وراءها قطرة متبلورة على صفحات الخطاب تذيب حبره وتبلل ورقه وتصنع دوائر شفافة متناثرة على صفحاته، وأحس في نفس الوقت بسعادة محرمة خفية لعجزي عن إيقاف هذه الدموع.

وكان لا بد أن أصنع شيئاً، ورحت أردد: سانتي. . سانتي. . ما هذا؟

ولم يأتني جواب على تساؤلي، ظلت سادرة في قراءتها وبكائها فاستدرت وعانقتها محاولاً أن أمنعها عن متابعة القراءة، ولكنها لم تستسلم لمحاولتي ومضت تقرأ وتبكي. ويأساً من المحاولة ـ التي كنت أتمنى لها الفشل في قرارة نفسي ـ رحت أضمها وأمرغ وجهي وأنفي في شعرها وأقبل عنقها وآخذها كلها بين ذراعي، وهي جالسة على الكرسي. . جسدها في حالة استرخاء تام، ولأول مرة أحس بها مستسلمة استسلاماً كاملاً لي، ولذراعي، ولقبلاتي. .

وحتى وأنا في قمة نشوتي لم أستطع أن أمنع السؤال الملح من أن يطرق بالي ويوالي طرقاته. . ماذا أبكاها؟

ورغماً عني انتقل السؤال من عقلي إلى لساني ورحت أقول:

ـ لماذا تبكين يا سانتي؟. . لماذا تبكين. . لماذا؟

ولم ترد في الحال، ظلت تقرأ البقية من الخطاب وهي تائهة، وحين انتهت منه رفعت رأسها وقالت:

ـ أنت قاس يا يحيى. . أنت قاس جداً. .

قلت لها وقد فرحت لأنها نطقت:

ـ لماذا يا سانتي؟

قالت وهي لا تزال تبكي:

ـ خطابك هذا. . أنت قاس جداً.

قلت لها وأنا لا أزال أضمها وأقبل عنقها من الخلف:

ـ ولكنه حقيقي. . أليس كذلك؟

ـ لست أدري. . ولكنك قسوت علي. . أنا لست كما ذكرت. . أنا لا أعبث بك. . أنا لم أعبث بك أبداً. . أنا لا أريد التفرج عليك وأنت تتعذب، أنا لست هكذا أبداً أبداً. . أنا لست هكذا. .

وبعنف وبكل إرادتي رحت أحاول أن أمنع قلبي من أن يدق ذلك الدق الجنوني الذي كان يدق به، لا لكلماتها ولكن لأنني في تلك اللحظات بدأت أتبين حقيقة غريبة ينكشف عنها الموقف. . كانت سانتي تمر بالحالة التي أعرفها جيداً في النساء، الحالة التي تحس فيها بالمرأة جسداً وشخصية وروحاً قد بدأت تفقد صلابتها الطبيعية وتلين بين يديك حتى ليمكنك أن تفعل بها ما تشاء.

ولم يكن قلبي يدق من الفرح، ولا من الإحساس بالانتصار العظيم الذي عملت من أجله طويلاً، ولم أكن أعرف لحظتها لماذا يدق، ربما من الخوف. . ربما من رهبة الإقدام على عمل هائل مروع.

وبدأ ريقي يجف وينضب.

ورحت أردد من خلال حنجرة جافة ولسان جاف: لماذا يا سانتي؟ لماذا؟ لماذا أردد الكلمات فقط وأنا أفهم معناها ولا أعيها. بل حتى المناقشة الصغيرة التي نشبت بعد هذا لم أكن أعنيها، ولا كنت أفكر فيها لا لأني كنت مشغولاً بالتفكير في شيء آخر، إذ الواقع لم أكن أفكر في أي شيء بعينه، ولا حتى في سانتي. قلت لها:

البيضاء

ـ ولكن كلامي حقيقي، أليس كذلك؟ أنت فعلاً تتفرجين على حبي لك ولا تريدين أن تتبيني أني أتعذب، ولا حتى أني أحبك فعلاً حباً حقيقياً مجنوناً. انظري إلي! انظري إلي! افتحي عينيك الجميلتين وانظري إلي! تبينيني ولو مرة واحدة.

قالت ودموعها تتساقط بسرعة أكثر:

ـ أنت قاس يا يحيى، أنت قاس.

ـ لا يا حبيبتي، لست قاسياً. أنا أحبك يا سانتي. أنا أحبك. هل تعرفين هذا؟ أنا أحبك.

كنت أود في تلك اللحظة، حتى وأنا لا أفكر، أن أقول كلاماً جميلاً حواراً من النوع الذكي المنمق الجميل الذي نقرؤه في الكتب ونراه في الروايات، ولكن لم أكن أجد شيئاً أقوله سوى أن أردد: أحبك يا سانتي أحبك.

وأخذتها تحت إبطي فطاوعتني ووقفت معي، وقبلتها في عنقها وأنا أرتجف إذ كنت قد بدأت أرتجف، وأنا خجل أريد أن أداري ارتجافي عنها. وكلما حاولت هذا ازدادت حدة رجفتي ومشيت وأنا أدفعها أمامي برفق ولين، حتى صرنا أمام الكنبة. وجلست وجذبتها معي فجلست بجواري. ولم تجلس كما تعودت أن تجلس، خلعت حذاءها وألصقت ركبتيها بصدرها وأنا بجوارها وذراعي ملتف حولها وأحتويها ولا أزال أرتجف. اللحظة التي انتظرتها سنين طويلة طويلة وسنين، آلاف السنين، خيل إلي أني حتى قبل أن أولد كنت أنتظرها، ها هي ذي قد جاءت، ها هي ذي سانتي أمامي، ساكنة مستسلمة كالعجينة أستطيع أن أفعل بها ما أشاء.

وقبلتها في فمها. ولأول مرة أحسست بنشوة عارمة حين وجدتها لا تشيح بفمها عن فمي وأنها تسلمني فمها. ولكني لم أحس أنها قبلتني فقبلتها مرة أخرى وأخرى.

وازدادت بكاء وقالت: لا تفعلها يا يحيى.. أرجوك.. لا تفعلها.

ودق قلبي بعنف جديد أشد، وبدأت أسناني من الارتجاف تصطك. إنها تطلب مني أن أدعها.. مستسلمة وتطلب مني أن أدعها وتبكي.. أحتويها بذراعي وهي مستسلمة إلى صدري وتطلب مني ألا أفعلها وتبكي.

قلت: لماذا يا سانتي؟
قالت: لأنني لا أريد.

ما زالت كل دقيقة من دقائق المشهد حاضرة محفورة في ذاكرتي لا تنمحي.. سانتي منكمشة على نفسها في ركن الكنبة، وأنا بجوارها أحتضنها بذراع وبيدي الأخرى أرفع وجهها وأقربه من فمي ووجهي والشمس تغرب، والحجرة غير مضاءة، والمكتب والكراسي والستارة الرقيقة المسدلة على النافذة، والدنيا كلها تمر بلحظة سكون لا أعرف سببه. ربما كانت كلها واجمة تنتظر نتيجة ما يدور، ودوي ما حدث في الورش في الصباح ووجوه العمال الراسخة في ذاكرتي تنتظر أيضاً وتترقب، بل كان واضحاً أن سانتي هي الأخرى تنتظر النتيجة، وتنتظر مني أن أفعل شيئاً، أو لا أفعل شيئاً بالمرة..

وفيما تلا هذا من أحداث، ربما لو لم تحدث بالطريقة التي حدثت بها لما كان ما كان، ربما لو تقدم حدث عن حدث أو استبدلت كلمة بكلمة لتغير المشهد، ولتغير مصيري ومصير سانتي، ولخطت لنا الحياة

مصيراً آخر. أحداث صغيرة قد تبدو تافهة كل التفاهة ـ ولكنها في أوقات في وقت كهذا كانت مهمة عظيمة الأهمية إلى درجة قد لا يصدقها العقل بل لم أصدقها أنا نفسي حين رحت أستعرض ما حدث فيما تلا هذا من أيام.. وأعوام..

للحظة خاطفة ألقيت نظرة على نفسي وعلى أعماقي، فروعت للنتيجة. لم أجد لدي أية رغبة في سانتي، بل لم أستطع أن أفكر فيها لثانية واحدة ـ وكمجرد تفكير ـ وهي أمامي امرأة مستسلمة تبكي ـ وكأنها امرأة حرن بي تفكيري كما كان يحرن خيالي. وكم قضيت الساعات الطويلة أفكر في الأحداث القليلة التي احتواها المشهد، وأحاول تحليلها وتعليلها، ووصلت إلى نتائج ،ولكنها أبداً لم تستطع أن تشفي غليلي، لم أستطع أن أعثر على سبب وجيه يفسر لي كل ما حدث. أحياناً كنت أقول أن السبب هو أن سانتي ـ حتى تلك اللحظة ـ لم تكن قد قامت بأي تصرف يدل على رغبتها في. وكان السؤال إذن لا يزال يلح: هل تريدني مثلما أريدها؟ هل تحبني سانتي؟ ذلك هو السؤال. تلك هي المأساة التي كانت تشلني.

بل حتى حالة الاستسلام التي كانت فيها، لم أحدثها أنا الرجل فيها لم يحدثها كلامي أو ضغطاتي، ولا قبلاتي، كتابتي هي التي أحدثتها. ولم أكن أريد أن تستسلم لي ككاتب، ولا أن تحبني كمحرر في المجلة وصاحب قلم وأسلوب.. كنت أريد أن تحبني أنا، أنا الرجل، أنا الجسد والشكل والروح.

كل ما كنت أريده تلك اللحظة هو نفس ما أردته دائماً ـ أن أبيع حياتي من أجل أن أظفر بلمحة منها تدل على أنها تريدني هي الأخرى. طيلة علاقتي بها كنت في انتظار هذا، وفي تلك اللحظة كنت أيضاً لا أزال

أنتظر. والموقف يستدعي أن أتصرف بإيجابية وأنالها. فكيف أنالها وأنا أنتظرها؟ وكيف أتحرك وأنا أنتظر منها أن تتحرك أولاً لأريدها وأرغب فيها. كان مستحيلاً علي أن أتحرك ما لم تتحرك هي، ما لم تعاملني كامرأة تحبني لأعاملها كرجل يحبها.

واللحظة رهيبة وفاصلة، حقيقة فاصلة. فإحساس مبهم غامض وكأنه الحاسة السادسة، قارئة المستقبل، ومدركة البعد الآتي في أي وضع حاضر، كانت تهيب بي أن تلك اللحظة سوف يكون لها أعمق الأثر في علاقتنا، سوف تحدد مصير العلاقة. كنت أدرك أن العلاقات تبدأ بمناورات مزدحمة من جانب المرأة والرجل على حد سواء، ويظل الاثنان يحاوران بعضهما حتى ينضج مابينهما ،فإذا جاءت ولم يتم لا تلبث العلاقة أن تفتر وتبرد ثم تنهار. ترى، لو لم يتم ذلك الاتحاد بيننا في هذه اللحظة وانتهى المشهد على غير تلك النهاية، فهل أغفر لنفسي هذا؟ وهل إن غفرت أنا ستغفر لي هي الأخرى وتسامح؟

وحتى إذا كنت قد تغلبت على كل قيودي الداخلية، فكيف ستواجهني هي بعد ما يحدث شيء كهذا بيننا؟ كيف ستجلس في اجتماعاتنا، كيف تستعيد نفسها وتتكلم وتعمل وكيف أجلس معها، وبأي عين نناقش حينئذ نشاطنا وثورتنا؟ وكيف أستطيع أن أحمل على سياسة المجلة وأطالب بالقيادة لنا وأتهمها بما تستحقه، كيف أدعي الشرف بعد هذا والبراءة وكيف أعود نظيفاً كالبلور مثلما أريد؟

ولا أكذب على نفسي وأقول أن أفكاري الأخيرة تلك كانت حوائل رئيسية في نظري، ولكنها هي الأخرى كانت تعمل، ولقائي مع أحمد سيف النصر وكلماته، وكلمته بالذات: والله أنت أناني! ووجه العامل

المتشبث بحديد النافذة لا يبرحه، تلك الأشياء المتباعدة التي كانت تبدو لي قليلة الأهمية كانت تدق فوق رأسي بعنف ـ وأحياناً أتفه الأشياء هو الذي يدق فوق رءوسنا ويأخذ الأهمية الكبرى في لحظات كتلك.

وفجأة أنتبه لأجد نفسي أفكر في شيء غريب، وكأني مذهول من استسلام سانتي لي، وكأني لم أكن أتوقع أبداً أن تستسلم وتصنع كما تصنع أية امرأة أخرى، إلى درجة أني أكاد أنهرها بنظراتي وأنهاها وأستنكر أن يكون ما تصنعه لحظتها أن يثبت في النهاية أنها امرأة ككل النساء. كنت أشك وأومن، وأظن أنها لا يمكن أن تفعل هذا أبداً، وأنظر إلى الواقع فيكاد الواقع ينطق ويكذبني. بل أحد الدوافع الرئيسية التي كانت تدفعني للمضي في المشهد إلى نهايته هو أن أتبين بدرجة لا تقبل الشك أن كانت ستستسلم حقيقة في النهاية كغيرها أو أنها لن تفعل.

وفجأة أيضاً أضيق بكل شيء، بها وبنفسي وبعلاقتنا وبالدنيا كلها وأكاد أنفجر في سانتي سباً ولعناً، فلم أكن أريد بخطابي لها إلا مجرد افتتاح الحديث ليدور بيني وبينها.. حديث تنضج فيه لحظتنا ونتجاوب خلاله، وينتهي إلى هذه النهاية نفسها. كنت أريد أن أوقت أنا المسألة ولا يكون الموضوع كله مفاجأة لي، فإذا بتأثرها بالخطاب يصل إلى درجة يصبح معها أي حديث بعده سخيفاً سخفاً لا حد له، وإذا بما رتبته ينقلب رأساً على عقب، وإذا بي واقف عاجز لا أكاد أعرف ما يجب علي أن أفعله.

وبدأت أختنق.

والكلمة تستعمل أحياناً للتهويل، ولكني حقيقة بدأت أحس بأشياء

تتصاعد من داخلي وتلتف حول عنقي، وبدأت أحس بروحي ترف في صدري وأنني حالاً قد لا أستطيع التنفس.

لم يكن قد مضى منذ جلست معها على الكنبة أكثر من دقيقة أو دقيقتين، في أثنائها دارت كل تلك الاحتمالات والافتراضات والتصورات في عقلي، وكانت لا تزال تدور حتى كدت أحس بعقلي يجأر كموتور عربة تصعد مرتفعاً وهي تحمل فوق طاقتها. وكانت سانتي لا تزال على جلستها،ودموعها قد بدأت تسيل في وهن، ولأنها كانت ترتكز برأسها على ذراعي فدموعها كانت قد صنعت خطين لامعين فوق وجهها المحتقن. لأول مرة كنت أرى دموعاً حقيقة تصنع بسيلها خطين لامعين كلما قاربا الجفاف بللتهما دموع جديدة. وبدت لي مسكينة ضعيفة واهنة لا حول لها ولا قوة، هي سبب الدوامة التي تجتاح عقلي وحياتي ولا أستطيع لومها، وكل ما أحسه أني أريد حمايتها حتى من نظرة لوم تفلت مني، ولا أريد منها أكثر من أن تسمح لي بأن أحميها.

ولا أعرف كيف جاء هذا الخاطر اللعين إلى تفكيري. ربما كان عقلي قد وجد فيه مخرجاً للأزمة العنيفة، وربما لم أكن قد لاحظت علامة واحدة أحسست منها أنها تحبني مثلما أحبها، مع أني كنت أقول لنفسي أنها ربما تدخر إحساسها كله لتعبر لي عنه بعدما ينتهي المشهد إلى نهايته الطبيعية، أي بعد أن أصل معها إلى مرحلة الاتحاد الكامل. هناك فوق قمة تلك المرحلة وبعد أن نجتازها ممكن أن تأخذ رأسي بين راحتيها وتقص عليّ قصة أحاسيسها ناحيتي بصراحة ودون أن تخفي شيئاً، فالمرأة أحياناً تدخر اعترافاتها لنهاية الشوط وبعد أن تكون قد اطمأنت إلى أنها الكاسبة. ولكني كنت أستبعد أن تكون سانتي من هذا الصنف من النساء، بل لم أكن أريدها أن تكونه. لماذا تضن علي بعواطفها وأنا لم

البيضاء

أضن عليها بعواطفي؟ ولكن دموعها، لماذا تبكي هذا البكاء المتصل المرير وكأنها في جنازة أو مساقة للذبح؟ لماذا لا أحس أنها في حالة هيام عاطفي مثلما أنا هائم؟ لماذا تقابل انفعالي العظيم بذلك الانكماش المطلق؟ لماذا هي غير منفعلة مثلما أنا منفعل؟ مرة أخرى لا أعرف كيف واتاني هذا الخاطر، ولكني وجدته ينصب أمامي ويصفر في عقلي صفيراً طويلاً كئيباً يورث الوحشة ويهز الكيان.

لماذا لا تكون المسألة كلها مجرد أحاسيس عارمة من جانبي أنا وحدي؟ لماذا لا تكون قصة الحب التي تخيلتها مجرد خيالات دارت في عقلي أنا فقط؟

جفلت للخاطر وكأني قد اصطدمت صدمة مفاجئة مروعة بحاجز صلب قاس. بل أحسست حقيقة بأني أشم في أنفي رائحة كالتي تحدث حين يصوب لنا أحدهم لكمة هائلة في الأنف، ووجمت. ولكن وجومي لم يستمر إلا للحظات خاطفات، بعدها استعدت نفسي تماماً، بل جمعت كل نفسي وكل كياني وكل شغفي بها وخوفي عليها ورغبتي فيها وهززتها برفق بين ذراعي وأنا أقول لها في همس ملح: إذن أنت حقيقة لا تريدين يا سانتي؟

وتململ جفناها، وبشريط ضيق من عينيها واجهتني وقالت في كلمات نطقتها وكأنها تذرفها حتى كان لها نفس دفء الدموع: أكنت تظن أنت غير هذا؟

فقلت وصفارة الخاطر لا يزال صداها في رأسي: كنت.. كنت.. أجل كنت أظن غير هذا.

وكنت أتوقع أن تتكلم، ولكنها سكتت، فعدت أسألها وأستحثها:

ـ صحيح يا سانتي. . لم تريدينى. . وكنت فقط تتحملينني؟
وقالت:

ـ أجل. . أجل. .

ودفعت رأسي بعنف من صدرها وأنا أقول: يا للفظاعة!

وتنبهت سانتي تماماً، وأمسكت بيدها وجذبت رأسي بحماس لكي أواجهها وقالت:

ـ مالك يا يحيى. . مالك؟

فقلت لها وأنا بالكاد أركب الكلمات وأصنع منها جملاً وأكملها بتعبيرات وجهي وتقلصات يدي وأصابعي:

ـ تصوري! كنت فقط تتحملينني. لم تكوني تريدينني وكنت أنا أثقل عليك بسخفي وبعواطفي. . وأنت طيلة الوقت تتحملينني. هذا مريع. . حقيقة. . سيء جداً.

وبصوت متناه في الخفوت أنهيت كلامي بسؤالها: صحيح يا سانتي صحيح لم تكوني راغبة في أي شيء مما بيننا فقط تتحملينني؟

ـ أجل. . أجل يا يحيى. . كنت أتحملك. هل كنت تعتقد شيئاً غير هذا؟

وكمحاولة يائسة أثبت بها لنفسي أن كلامها غير صحيح ضممتها وقبلتها، فعادت تقول بلهجتها الدامعة السابقة:

ـ أرجوك يا يحيى. . لا تفعلها أرجوك.

ورغماً عني أحسست أني لم أعد أحتمل، ووجدت نفسي أنتفض واقفاً وأغادر الحجرة إلى الصالة كمن أصيب بلوثة. وعند باب الحمام

توقفت ورحت أشهق محاولاً أن أبكي. لم أكن أعرف لماذا قمت وغادرتها ولا لماذا أحاول أن أرغم نفسي على البكاء ولا السبب في هذا الضعف الشديد الذي شعرت به يمتص كل قواي وإرادتي ،وكأني إنسان آخر غير الذي كنته في الصباح ، إنسان آخر غير الرجل الناضج القوي الذي وقف وحده يواجه آلاف الرجال وتحيطه نمور غضبهم. أين هذا منه الآن وهو يواجه هذه الفتاة التي لا حول لها ولا قوة بأضعف ضعف وأسخف موقف؟

ولكن كنت في حالة غريبة لا أستطيع أن أوجه لنفسي سؤالاً أو أجيب عليه وأي شيء لم يعد يهمني ولا حتى رأيها فيّ وفي تصرفاتي أصبح لا يهمني . . كنت أحس أني لا أستطيع أن أفعل إلا ما أفعله، إلا أن أتفرج على ما أفعله ، وكأنما ركبتني إرادة أخرى أصبحت هي التي تسيرني .

ولم تمض سوى لحظات قليلة جاءت بعدها سانتي ورائي وأمسكتني من كتفي ومضت تهزني وتقول: ماذا حدث يا يحيى؟ ماذا حدث؟ ماذا جرى لك؟ فقلت لها وأنا أستدير وأواجهها وأحاول أن أبتسم: لا شيء لا شيء . . نوبة .معلهش! لم يحدث شيء أرجوك، انسي ما حدث .

وكنت أقول هذا وأنا أراقبها، فحالتها كانت مختلفة تماماً عن الحالة التي كانت عليها منذ برهة فوق الكنبة ، وكأنما أفاقت تماماً، وكأنها كانت مندمجة في دور ثم انتهت منه فانتهى تقمصها له. صوتها استرد حماسه وتدفقه ، وملامحها استردت حيويتها، وابتسامتها أصبحت حائرة بين الاستنكار الخفيف والشفقة الخفيفة، وليس فيها أي حب استطلاع أو دهشة وكأنها كانت تعرف أني سأفعل هذا .

والمضحك أنني رغم أي اعتبار آخر كنت في تلك اللحظة بالذات أقول لنفسي: لو دموعها التي كانت تسيل كانت حقيقية ، لو كانت منفعلة

انفعالاً حقيقياً أوصلها لدرجة البكاء، لما كانت قد استطاعت أن تسترد شعورها ونفسها بمثل تلك السرعة.لو كانت تحبني حقيقة لظلت سادرة في انفعالها السابق ولظلت تبكي. المحب الصادق لا يكون انفعاله انعكاساً لانفعال حبيبه، ولكنه يتصرف بوحي من نفسه ولا يملك إلا التصرف بما يمليه عليه شعوره هو. انفعاله يكون أقوى منه، وأقوى من إرادته. . أما التحكم في الانفعالات وتغييرها حسب الحاجة وضبطها فأمر لا يستطيعه المحب.

أكثر من فتاة تحب رأيتها. . وباستطاعة الانسان أن يلتقطها من بين الآلاف. . إنها تبدو كمن يعاني من جنون الإيمان بفكرة ثابتة. . ولكنها ليست فكرة. . شخص تؤمن به وتحبه ويشغلها عن العالم كله حتى ليصبح لها شكل المهاويس وتصرفاتهم.

وكانت سانتي أمامي في أتم قواها وتحكمها بنفسها.

وقلت لها: سامحيني. . لقد أزعجتك. . لم أكن أقصد هذا. . ولكنه حدث برغمي. . أرجوك انسيه.

ولم يكن لدي ما أقوله غير هذا. . فقد شعرت إني لو حاولت التوضيح، لو حاولت التحدث عما أحسه وأشعر به لكنت وكأني أكشف عن عواطفي لغريب أو على الأقل لمحايد.

وسكت. . حتى الكلمات القليلة التي تلتها بعد هذا كانت مجرد صدى لصدمتي. ما فائدة الكلام؟ لو أردت الكلام حقيقة لخنقتها أو انتحرت وأشعلت النار في البيت. . في جوفي بركان انفعال يذيب الصلب. وحين عدنا من أمام الحمام وجلسنا مرة أخرى في الحجرة جلست صامتاً لا أكترث. وحتى سانتي لم تتكلم كثيراً. حاولت أن تطرق

البيضاء

موضوعات وقالت: نسمع موسيقى. وأدرنا أسطوانة أو اثنتين وتبادلنا الابتسامات، وأخيراً جمعت سانتي أشياءها في تكاسل وارتدت الجاكيت وقالت: أنا ذاهبة. ها أنا ذاهبة.

ابتسمت وقلت وأنا مخفض رأسي: أوكي.

وبطريقة روتينية محضة قالت: أراك غداً.

قلت: طبعاً.. طبعاً..

قلت هذا وأنا أسير وراءها إلى الباب، وكانت تسير أمامي وأنا أراها من ظهرها. هذه المرة كنت أحس بضيق منها يكاد يعادل إحساسي بالحب لها حين دخلت. وكانت تمشي إلى الباب لا تتلفت ولكن مشيتها يبدو منها أنها تتوقع حدوث شيء. وفتحت الباب وأبطأت في فتحه متوقعة، واستدارت وهي تقف على العتبة وابتسمت وقالت: باي. قالتها وهي أيضاً متوقعة، ثم راحت تهبط السلالم، سلمة سلمة وعلى مهل.. وحين أغلقت الباب كنت أسمع أصداء قدميها آتية من بعيد وكل صدى كان يحمل في طياته توقعاً، وكأني سأفتح الباب وأنادي عليها. ولم أفتح أي باب. تمددت على الكنبة وأمرت نفسي ألا أفكر. ولم تكن نفسي في حاجة إلى أي أمر. من تلقاء نفسها كانت لا تريد شيئاً بالمرة.

ولا حتى مراجعة ما حدث..

وأغمضت عيني، أغمضتهما بعنف وكأني أخاف أن تنفتحا رغماً عني وتريا..

كم من الزمن مضى وأنا على هذه الحال؟ كل ما أذكره أني سمعت ـ وكان هذا قد حدث مباشرة بعد خروج سانتي ـ أن الباب يدق. ولم أتعب نفسي بمحاولة تخمين إن كانت هي الطارقة، قمت إلى الباب وفتحته..

ولم أفتح الباب مرة واحدة، ثلاث مرات فتحته. في المرة الأولى كان شوقي وقد حضر ليعرف نتيجة ما حدث في الورش في ذلك اليوم وغمغمت له بأن كل شيء على ما يرام وإني نفذت نصيحته ولم أمنحهم إجازات رغم أنهم كادوا يمزقونني تمزيقاً. وعبثاً حاول أن يعرف مني التفاصيل فقد كنت بارداً ضجراً لا أريد الحديث. ولم تضايق شوقي لهجتي أو طريقتي، كان واضحاً أنه سعيد بالنتيجة فقد تخللت حديثه كلمات كثيرة عن نفوذنا وسط العمال ووجوب تدعيمه وما حدث يعتبر بداية لتوسيع أكثر. . وأشياء أخرى كثيرة لم أحفل بتبينها.

والطارق الثاني كان آخر إنسان أتوقعه أن يطرق بابي. . كان سكرتير النقابة، أنيقاً جداً يرتدي بدلة كحلية ورباط عنق أحمر ومنديل صدر من نفس اللون. . واعتذاراته كانت أول ما واجهني حين فتحت الباب. . اعتذارات أكثر سماجة من تصرفاته في الصباح فقد كانت تنزلق من فوق لسانه انزلاقاً دون إيمان حقيقي بها. . ولم يلبث سبب زيارته أن اتضح فقد بدأ يعرض علي عرضاً غريباً ويبرره بقوله إنه كان نظاماً متبعاً مع جميع الأطباء الذين عملوا قبلي في الورش، والعرض كان أن تدفع لي النقابة ماهية شهرية «لا يطلع عليها غيري وغيره»؟ لكي أتساهل مع العمال وأمنحهم إجازات. وأعجب شيء أني كدت من فرط حقدي على نفسي وعليه وعلى الدنيا الخانقة المقبضة التي تركتني فيها سانتي، كدت أقبل العرض. . ولكني رفضته بوقاحة وأمرته بمغادرة البيت في الحال. وظن أني أستشوي العرض فأعاده بمبلغ أكبر، بخمسة عشر جنيهاً في الشهر. وفكرت فجأة في قتله، ومن درج المكتب أخرجت مشرطاً جراحياً كنت أستعمله لبري الأقلام. ودهش وظن أني أهزل معه ،ولكنه ما أن رأى وقفتي ونظرتي والمشرط المشرع في يدي حتى خاف خوفاً كاد يدفعني لطعنه، ولو

كان قد بقي في الحجرة لحظة لفعلتها ولكنه جرى ناحية الباب كالأطفال وهو يصيح : دا أنت باينك مجنون صحيح .

وما كدت أتمدد على الكنبة وأغمض عيني وألتقط أنفاسي وأعود إلى حالة السكون التي كنت عليها قبل أن يبددها شوقي والسكرتير، حتى دق الباب مرة ثالثة، وقمت وفي اعتقادي أنه السكرتير قد عاد ومعه البوليس أو عاد ومعه رفاقه، ولكن الطارق كان لورا. ولم أسأل نفسي لماذا جاءت ولا ماذا تريد؟ انتباهي كله انصب على أمر غريب، فبشرتها كانت تلمع لمعاناً غير عادي وكأنها خارجة لتوها من الحمام.

وأحسست أني لست بكامل قواي العقلية وأنا أرفع صوتي أكثر مما يجب وأقول لها: هالو.

ورفعت حاجبين خفيفين أصفرين في دهشة وقالت: حسبتك نائماً. وقلت وأنا أمد يدي وأتناول يدها، قلت وكأنني لا أخاطبها وإنما أخاطب جمعاً حاشداً، أخاطب يوماً عاصفاً مزدحماً جرت فيه أحداث هائلة كثيرة تستغرق عاماً: أبداً أنا لست نائماً، أنا مستيقظ. . مستيقظ جداً. أنا أنتظرك. . لي يوم بطوله وأنا أنتظرك. كنت أقول هذا وقد أغلقت الباب ووضعت يدها تحت ابطي وسحبتها ورائي وهي تسير بتردد وخوف قليل وقالت: تنتظرني؟ لماذا؟

قلت: أتذكرين يا لورا الدرس الذي أعطيتك اياه هنا؟
قالت ببراءة حقيقية: درس العربي؟
قلت: لا . . الدرس الآخر. . درس وظائف الأعضاء.
قالت: أوه.
قلت: لقد كان درساً نظرياً يا عزيزتي.

وكنت أكلمها وظهري لا يزال إليها وواجهتها مكملاً: أما الآن فموعد الدرس العملي.

وبوغتت وظهرت الدهشة واضحة أكثر من اللازم على ملامحها وقالت بروح مسحوبة:

ـ ماذا تعني؟

قلت:

ـ أعني..

وجذبتها من يدها واحتضنتها بشدة وقبلتها.

فقالت وهي تحاول أن تتملص:

ـ لا.. لا.. أرجوك.

ولكني لم آبه لاعتراضاتها وأخذتها بين ذراعي وأنا محموم.

وحاولت لومضة أن أتصورها سانتي.. ولكني كدت في هذه الومضة أن أهمد وأدوخ، وعدت أكثر عنفاً. وشيئاً فشيئاً بدأت أعي أن لورا تتكلم وحين أنصت كانت تقول: أنت تحبني أليس كذلك؟ أنا أحبك جداً جداً جداً. أحبك لدرجة لا تستطيع أن تتصورها، وكنت أكتم عنك ولا أريد البوح. أرجوك.. أستحلفك قل لي. قلها لي.. هل تحبني أنت؟ إني مستعدة أن أموت لأعرف إن كنت تحبني. أرجوك أجبني. إنك تفعل كالمحبين فلا بد أنك تحبني. أجبني أرجوك.

وفجأة وجدت نفسي أبكي بكاء حقيقياً، بكاء كان يهزني ويهزها معي وقد أصبحنا كتلة واحدة، بكاء يهز الحجرة كلها، بكاء كنت أحس أنه يتصاعد من كل جسدي وروحي وضياعي وحتى من أطراف أصابعي أبكي وأبكي والمسكينة لورا تلحس دموعي بقبلاتها ولسانها وتمسك

البيضاء

رأسي في حنان، وتغـوص بأصابعهـا في شعـري وتضمنـي إليهـا بشـدة وتقول:

ـ لا حاجة بك للكلام يكفيني هذا يا حبيبي. أنا أعبدك، أنا التي كنت أعتقد أنك لا تحبني، يا حبيبي الصغير يا رجلي، أحب رجولتك، أحبها. كفى بكاء يا حبيبي، كفى. لا بد أني أحلم، فأنا أحس أني أسعد فتاة في العالم. لا أستطيع أن أصدق أنك أنت وأنني أنا، ولكنك أنت أنت وأنا وأنا، . ما أروع هذا يا حبيبي، ما أروع هذا!

١٥

خيل إلي أن أياماً كثيرة قد مضت وليالي، ولكن الساعة لم تكن قد تجاوزت منتصف الليل إلا بدقائق، وكانت لورا أول من غادر حجرة النوم، وجلست أنا في حجرة المكتب أتفرج وحدي على الكرنفال الحادث. . فمن لحظة أن غادرت لورا الحجرة امتلأت الشقة بضجيج عظيم متباين الأسباب. كانت في حالة نشوة كبرى ترقص وتغني، حتى وهي في الحمام تأخذ دشاً كان صوت غنائها يصلني عالياً واضحاً وكأنها تستحم معي في حجرة المكتب، وحين خرجت من الحمام خرجت صاخبة وزاعقة في أغرب لباس، جسدها كله يكاد يكون عارياً، وقد لفت فوطة الحمام حول رأسها في عمامة ضخمة. . خارجة لا تمشي ولكنها ترقص الفالس وتضحك، وأسألها عما يضحكها فتأخذني من يدي وهي لا تزال مندمجة في الفالس وتجري بي وأتبعها، وفي الحمام تريني صرصاراً انسلخ من جلده البني وأصبح عارياً أبيض، وتضحك وتقول أنه لا بد أن يستعد لاستعمال الحمام. وتصفر بفمها كما يفعل الشبان، وتتحدث في وقت واحد عن فائدة الاستحمام بالماء البارد في الشتاء، وأنواع الصراصير وشقيقها الصغير العفريت الذي يتجسس أحياناً عليها.

وتنتقل فجأة إلى الحديث عن الشقة وتقترح تعديلات ضخمة في

نظامها، ولا تكتفي بالاقتراح بل في الحال تشرع في التنفيذ فتنقل المكتب من مكانه وتجعلني أعدها بشرفي أن أشتري بوتاجازاً لأنها لا تطيق البوابير ثم تتوقف مرة واحدة عن كلامها وضجيجها وصفيرها وتقول: أتعلم أن ما يلزمك هو حمام.. بالضبط الحمام هو ما يلزمك.. تعال.

وفعلاً أمسكتني بكلتا يديها، وحاولت التملص فجذبتني بقوة شاب وأدخلتني الحمام وشرعت تخلع عني ملابسي بالعافية.. وأحاول مقاومتها فلا تفعل المقاومة أكثر من أن تزيدها إصراراً كإصرار الأطفال حين يعثرون آخر الأمر على لعبة سمجة يلعبونها، وكانت لا تزال سادرة في خلع ملابسي تضحك وتقهقه لاحتجاجي ومقاومتي حين صرخت فيها بأعلى صوتي مطالباً منها أن تخرس وتسكت وتدعني.

واستغربت أنا نفسي للدهشة الشديدة التي اعترتها وأسكتتها تماماً وأسكتت معها الشقة والحمام وخرير الماء من الحنفية.

ولو ظلت ساكنة لما حدث شيء ولكنها شرعت تبكي. لم تبك،ولكن ملامح وجهها بدأت تتقلص وترتفع في أمكنة وتنخفض في أخرى، وفمها يتسع وحاجباها يرتفعان من الناحية الملاصقة لأنفها فقط، وعيناها تغلقهما الجفون المنضمة. وبدت لي بشعة، بشاعة قد تثير في النفس أي شيء إلا الشفقة، ووجدتني أقول لها بكل عنف وقسوة: اسمعي.. أنا لا أحبك ولا أي شيء.. لا بد أن تعلمي هذا وتتصرفي على أساسه.

وتهدلت عمامتها الضخمة في تلك اللحظة بالذات، وسقطت فوطة الحمام على كتفها وبقي جزء منها صغير عالقاً بشعرها المبلل المنكوش وكذلك تهدلت ملامحها فقبر مشروع البكاء إلى الأبد وحل محله استغراب بريء حزين وقالت: ولماذا إذن..

ولم أدعها تكمل، قلت لها وأنا أعود لارتداء جاكتة البيجاما التي كانت قد خلعتها عني: هذا لا يدل على شيء.

وتركتها واقفة في الحمام وعدت إلى حجرة المكتب، وما يشغلني ليس هو لورا ولا ما قلته لها، ما يشغلني هو المفارقة العجيبة التي كشف لي كلامي للورا عنها. آه لو تقف مني سانتي حتى نفس هذا الموقف الخشن الذي وقفته أنا من لورا! آه لو تنهرني مرة واحدة وبقسوة وتفهمني بشكل قاطع أنها لا تحبني! لو تفعل لأراحتني، فمشكلتي معها أني لا أعرف حقيقة شعورها، ومشكلتها معي أنها لا تريد أن تعرفني..

جلست في حجرة المكتب وسمعت بكاء صادراً من الحمام ولم آبه له بالمرة. كنت في حالة غثيان واشمئزاز.. وكم نتحول في حالات إلى كتل صخر قاس لا أثر للآدمية فيها، جلست على مضض ومنتهى أملي أن تغادر لورا الشقة بأسرع ما يمكن لأعود إلى وحدتي، إلى نفسي، إلى مأساتي.

وليلتها لم تغادر لورا الشقة، بعد أن ارتدت ملابسها وتهيأت للخروج، فجأة وأنا أكاد أتنفس الصعداء قالت لي أنها تذكرت أن والديها لن يناما الليلة في منزلهم، بل سيبيتان عند عمتها في مصر الجديدة. وكان معنى كلامها واضحاً جداً، وكان إحساس بالشفقة والندم لما قلته لها بدأ يخالجني فعرضت عليها أن تبقى، ولم توافق أو تلح، مضت تخلع ملابسها في صمت وتستعد لقضاء الليلة عندي.

وعلى عكس ما توقعت لم يكن ما قلته لها قد أغضبها كثيراً، فما كدت أبتسم لها مرة حتى عادت إلى طبيعتها في الحال، وظلّت طوال الليل تحيطني بذراعيها وتهدهد علي، وكانت رقيقة في حُنانها كأم، وكنت مذهولاً كيف نسيت ما قلته لها بهذه السرعة وتناسته؟ لو كنت في مكانها لما أريتها وجهي بعد ما حدث، ولكن يبدو أن للنساء طابعاً آخر. إنهن لا

يتعاملن بالكلمات الجوفاء التي يتعامل بها الرجال. إنهن يعتبرنها مجرد كلمات قد لا تعني شيئاً بالمرة في معظم الأحيان، نفس الكلمات الجوفاء التي يقتل الرجال بعضهم بعضاً من أجلها.

وتركت للورا الحرية في أن تقبلني وتحدثني وتناجيني كما تشاء، فلم أكن معها. كنت مع سانتي لا أفكر في أي شيء بذاته مما حدث لي معها ولا فيها هي نفسها، ولكني كنت معها.

وفي الصباح وطوال اليوم التالي، يوم الجمعة، كنت قد تركت كل شيء جانباً وأصبح ما يسيطر على عقلي هو ماذا ستفعل حين تأتي في ذلك اليوم، كنت متأكداً أنها لا بد قادمة، وكنت خائفاً جداً أن تكون الشفقة هي مبعث قدومها، أو على الأقل حب الاستطلاع، بل الواقع كنت خائفاً جداً أن تكون قادمة لأي سبب كان إلا رغبتها في المجيء، بطريقة لا أعرفها ولا أدريها وجدت نفسي وكأن شيئاً لم يحدث بالأمس، بل وكأن شيئاً لم يحدث بيني وبينها بالمرة، وأصبح كل همي هو ذلك اللقاء الآتي وكأنه أول لقاء لي معها.

وكنت مستغرقاً في هذا إلى درجة لم أشعر معها بما قالته لورا، ولا بالطريقة التي غادرت بها الشقة، كل ما أذكره أنها أشركتني للحظات طويلة ـ وأنا ضيق النفس فاتر الإحساس في الكذبة التي يجب عليها أن تخترعها إذا حدث ووجدت أن والديها لم يبيتا في مصر الجديدة وعدلا عن الذهاب إلى عمتها ماتيلدا وقضيا الليلة في بيتهم، لا بد سيقلقان حينئذ قلقاً عظيماً، ومن المحتمل أن يقدما على ما لا تحمد عقباه.

وقلت لها لأتخلص منها:

ـ فكري أنت من ناحيتك ودعيني أنا أفكر في كذبة مناسبة.

وهكذا شغلتها عني، ورحت مرة أخرى أحـوم ـ غير مقاطـع ـ حول سانتي وحول مجيئها المقبل، وأفقت مرة فلم أجد لورا بالشقة.

وأحسست براحة عظمى. . واسترخيت وسعدت بوحدتي مع نفسـي في الحجرة،وكأنها كانت مكتظة بازدحام هائل ونجحت في التخلص منه.

وفي الوقت المحدد تماماً، في صبا العصر تلقفت أذني الدقة الطويلة نوعاً، والأخرى التالية القصيرة التي تشبه النقطة في إشارات موريس.

ومع أني كنت متأكداً أنها ستجيء وواثـق من هذا ثقتـي أن العصـر سيعقب الظهر حتماً، إلا أنني فرحت للدقات وكأني كنت فاقد الأمل في مجيئها، وكأنها معجزة أن يعقب العصر الظهر.

وفتحت الباب وأنا في حالة غير عادية، ذائب في مزيج من الفرحـة والحساسية الزائدة لأدق انفعالاتها وخوالجها، كأن في عقلي ألف سؤال ينتظر الإجابة، وكلها أسئلة عما حدث بالأمس. . رأيها فيَّ وفي كل كلمة قلتها وكل تصرف قمت به، وكنت أعلم أني لن أستطيع أن أسألهـا عن شيء، وعليَّ أن ألتقط الإجابة من بسمة أو طريقة نطق كلمة، وربما من تسهيمة.

ودخلت سانتي وهي تحاول أن تكون عادية. . ازيك؟ كويس جداً. الكلمتان العربيتان اللتان كنا نتبادلهما دائماً، وهذه المرة زادت عليهمـا بالعربية أيضاً وهي تبتسم وعيونها تلمع: ايه أخبارك؟ فقلت بالفصحى: لم يجد جديد. وأردفت بالانجليزية: ماذا يمكن أن يكون قد حدث منذ الأمس؟ لم يحدث شيء. .

وجلست وهي تنظر ناحيتي بهدوء متعمد، وفي كل مرة كانت تخرج علبة سجائرها كنت أشعر بلذة متجددة، فحين تعارفنا كانت تدخن سجائر أمريكية وحتى كانت لا تدخنها بكثرة. . ولكنها أخرجـت علبتهـا ـ نفس

ماركة سجائري ـ وكأنها تريني علامة من علامات تأثرها بي وانفعالها، ولم تكن السجائر هي العلامة الوحيدة. . من كثرة ما تكلمنا معاً وتناقشنا كنا قد تبادلنا بلا وعي كثيراً من خصائصنا، أردد بلا وعي أنا تعبير «ده موش كلام» (الذي كثيراً ما كانت تستعمله) أردد أول الأمر في تقليد ساخر للهجتها ولكني لا ألبث أن أستعمله في حديثي العادي ويصبح جزءاً من لغتي وهي أيضاً كثيراً ما ضبطتها تتعمد عوج ابتسامتها. لكي تشبه ابتسامتي ثم أصبح الاعوجاج جزءاً من ابتسامتها.

أخرجت سانتي هذه المرة علبة سجائرها وتناولت سيجارة وقدمت لي واحدة، وشددت في عزومتها حتى أخذتها. . ومن دخانها، والطريقة التي نفثت بها دخان سيجارتها، ودقات أصابعها على مسند الكرسي والابتسامة الصغيرة البارزة من فمها، أدركت أنها هي الأخرى جاءت وفي عقلها ألف سؤال، وحب استطلاعها لمعرفة ما يدور في نفسي يكاد يعادل حب استطلاعي لمعرفة ما يدور في نفسها.

وكان مفروضاً أن يسعدني هذا الاستنتاج وأكتفي به، وأجلس هادئاً مطمئناً وأترك الحديث يقود نفسه بلا خطة أو تعمد، فأروع النتائج تأتي أحياناً لمن لا ينتظرها. . ولكني لم أهدأ وأسعد إلا للحظة قصيرة جداً. . القلق الناري المدمر الذي كان يجتاحني كلما رأيتها أو حتى فكرت فيها ذلك القلق كيف كان باستطاعتي أن أهرب منه؟

قلت لنفسي: ها هي ذي قد جاءت بقدميها كما يقولون، لم تغضب ولم تستنكر، بل وأكثر من هذا جاءت متسائلة محبة للاستطلاع. اعتبر إذن أن ما حدث بالأمس كان تجربة فاشلة، وأبدأ معها الآن فوراً تجربة ناجحة.

وكان ممكناً أن ينتفض عقلي علي ويثور، ويتصور ما يحلو له من

أوهام وأوضاع، أما أن أنفذ هذا فشيء مستحيل تماماً. سانتي كانت أمامي، على بعد خطوة واحدة مني، أستطيع أن أشل مقاومتها كلها بأصبعين اثنتين من أصابعي وأنالها عنوة، ثم أنفض يدي منها كما أريد.. ولكنني لم أكن أستطيع، أبداً لم أكن أستطيع.. كنت متأكداً أنها لو غضبت حتى من فعلتي فستصفح عني بعد هذا وتغفر لي، بل من الممكن أن تذكرني بها بعدئذ وتضحك وأضحك معها. كنت متأكداً أن لا بروتوكولات في الحب، فإذا ما وجدت في مكان واحد مع شخص تحبه وتعتقد أنه يحبك، فأسلم تصرف هو أي تصرف طالما أن الحب دافعه..

كنت مؤمناً بهذا ومتأكداً منه، ولكن ما فائدة الإيمان به والقيود التي تغلني في مكاني وتربطني إلى مقعدي أقوى ألف مرة من كل الحقائق التي أؤمن بها وأعرفها؟.. ما فائدة إيماني وأنا كلما أدركت أن نوالها أمر سهل لا يكلفني إلا فك قيودي أحسست بالقيود تتضاعف وتضيق، وكلما وجدت سانتي قريبة مني راضية ومستعدة لأن ترضى أحسست بها تبعد عني وتبعد حتى لتصبح أبعد من أن أنالها ببصري أو حتى بخيالي.

ظلت سانتي تجذب أنفاساً من سيجارتها حتى تكونت لها بقية طويلة متماسكة من الدخان المحترق، وقمت من مكاني وقدمت لها الطفاية. وبينما هي تدق على السيجارة بأصبعها السبابة وعيناها تنظران إلى السيجارة من خلف جفون تكاد تكون مغلقة، عاودني مرة أخرى ذلك الخاطر.. لقد جاءت يدفعها حب الاستطلاع لمعرفة أثر ما حدث بالأمس، والموقف بيننا قد سكن وهمد ولا بد من عمل أقوم أنا به لأبدد ذلك الجو. وأكثر ما كان يضايقني هو هذا الإحساس الملح بضرورة أن أقوم بعمل.. كلما وجدت معها في مكان يبدأ القلق ينهش صدري وأحس أنني أنا الذي يجب عليه أن يتحدث، وأنا الذي يجب عليه أن

يقطع الصمت إذا حل الصمت، وأنا الذي يبدد الوجوم إذا حل وجوم. . وعليّ في هذه المرة أيضاً أن أرد على حب استطلاعها، عليّ أن أفسر موقفي وأوضحه. إنها تنتظر مني وتتوقع . . فكيف أخيب أملها فيّ؟

وتلاقت نظراتنا لقاء سريعاً خاطفاً، وابتسمت هي ابتسامة سريعة هي الأخرى خاطفة، وما لبثت أن خفضت عينيها وركزتهما على السيجارة التي بين أصابعها، وفجأة عادت تنظر إلي وتبتسم. . حين التقت نظراتنا للمرة الثانية قالت وكأنما تذكرت شيئاً:

ـ أراك لم تكتب لي خطاباً آخر. .

وانتهزت الفرصة وقلت لها في مكر:

ـ ومن أين لك أن تعرفي؟ ربما أكون قد كتبت. .

قلتها على سبيل المزاح، ولكنني تذكرت أنني حقيقة قد سجلت خواطري عما دار بالأمس على شكل خطاب موجه مني إليها، وفعلت هذا وأنا لا أحس أني أسجل شيئاً أو أوجه لها خطاباً. . وكأنما فعلته في غيبة وعيي، ثم نسيته.

ويبدو أن تذكري لهذا الأمر جعل بريقاً ما يشع من ملامحي، فقد وجدتها تعود تقول:

ـ صحيح ألم تكتب خطاباً؟

وسرني شغفها هذا. . وقلت:

ـ لست أذكر تماماً. ولكن. . هيه. . دعينا نرى. .

وقمت إلى المكتب وبحثت طويلاً حتى عثرت على الأوراق مهوشة غير مرتبة. . وما كادت تراها وتدرك أن هناك حقيقة خطاباً حتى هبت واقفة وقالت بفرح طفولي: دعني أقرؤه. . دعني أقرؤه.

فرح لم أكن أشهده في عينيها حين تلقاني أو تتحدث إلي، فرح غريب وكأنه فرح للقاء حبيب وليس لقراءة خطاب.. ومع هذا أصررت علي أن أقرأه أنا لها، فقد كان مكتوباً بطريقة لا يمكن لأحد أن يحل ألغازها سواي.

ووافقت سانتي على مضض وكأنما حرمت من متعة خفية خاصة وجلست على الكرسي أمامي، وأشعلت سيجارة أخرى قدمتها لها حرصاً مني على أن يكون مزاجها وهي تستمع في حالة اعتدال تام.

ومضيت أقرأ.. ولم أكد أنتهي من الفقرة الأولى حتى كنت قد بدأت أصغي رغماً عني لصوت غريب محايد يصدر من نفسي، ويدلي بوجهة نظر في المشهد لم تخطر على بال.. فأنا شاب في الخامسة والعشرين من عمره، مطلع ومجرب وتحمل من المسئوليات ما يعجز عنه أحياناً رجال أكبر منه سناً وتجربة واطلاعاً. شاب يحب هذه المرأة الصغيرة المتزوجة والاثنان يجمعهما معترك ثوري واحد، وبينهما كل ما يستطيع الانسان أن يتصوره من حرج وارتباك، وقد جاءت بعد حادثة فشل ضخمة، ومعنى مجيئها أنها لا تخاف من أن تخوض التجربة مرة أخرى، لا تخافِ حتى لو نجحت ونالها ذلك الشاب.. ومع هذا فكل ما يستطيعه شاب كهذا هو أن يجلسها أمامه ويقرأ لها خطاباً كتبه في الليلة الماضية؟

كان من المحتمل أن تكون هذه أيضاً وجهة نظر أي مشاهد يدخل علينا فجأة ويرانا ونحن على هذا الوضع، وجهة النظر التي كنت كلما فكرت فيها أزداد ارتباكاً فوق ارتباكي. وكيف لا أرتبك وأنا أؤمن بأن ما أفعله شيء وأن ما يجب علي عمله شيء آخر.

وكيف لا أتعثر وأسخط على نفسي وأنا أرى أن الطريقة التي أتبعها هي

آخر طريقة تصلح أن يتبعها محب، ومع هذا فلا أستطيع سلوك غيرها أو الخروج عنها؟

ولكني بتوالي سطور الخطاب وصفحاته بدأ الصوت في داخلي يخفت، وبدأت أنسى ويقل ارتباكي وأحيا شيئاً فشيئاً فيما كتبته وما كنت أقرؤه. . كان الخطاب طويلاً أكثر من عشرين صفحة، ومكتوباً بخط محموم رديء، وكنت لا أملك نفسي في أجزاء منه فأكاد أقشعر. . أجزاء كانت تنفذ مباشرة إلى إحساسي حتى بغير أن أعي معانيها وعياً كاملاً. . أجزاء أحس أنها ليست كتابة ولا مجرد خواطر سجلتها، ولكنها قطع صغيرة حية استخرجتها بطريقة ما من أغوار جسدي، قطع حية تتشابك أمامي وتنبض وأحس فيها دفء الحياة، وأكاد أرى فيها صراخي وعذابي وتمزقي وقد تحول إلى أنين طويل حتى لا يموت. . كنت كمن يتفرج على نفس أخرى غير نفسه، نفس أخرى تحب بقوة وقسوة وظمأ وحشي وتحاول أن تجد قطرة حب تمتصها فلا تجد. فتئن وتعوي وتتلوى. كنت وكأني قد أصبحت شخصين. . شخصاً يعذب وشخصاً يتفرج ويستغرب، والأعجب من هذا أن كليهما يحب سانتي، وأني بكليهما أحاول أن أظفر بها.

ونص الخطاب غير مهم. . فوأنا أكتبه، وأنا أقرؤه، وأنا أرقب سانتي وهي تسمعني، لم يكن يدور في ذهني غير شيء واحد فقط، هو أن أحاول أن أعرف إن كانت قد أحبتني هي الأخرى مثلما أحببتها أو لا. كان كل همي وهم خططي، وحتى الهدف الحقيقي من وراء محاولاتي أن أنالها لم يكن الهدف أن أجعلهاتحبني ،ولكن أن أعرف إن كانت قد أحبتني فعلاً. لم يكن مهماً عندي حتى لو تأكدت أنها حتماً ستحبني غداً مثلاً كل همي كان أن أعرف إن كانت قد أحبتني في نفس الوقت الذي كنت أحبها فيه أم لا.

توقفت هنيهة عن القراءة، ثم بلعت الغصة التي تكونت في حلقي ومضيت أقرأ، ومن تلك اللحظة بدأت أقرأ بنصف انتباه، فنصف انتباهي الآخر كان مركزاً تركيزاً غير ملحوظ على ملامحها. . فإذا كنت في المشهد السابق لم أجد لديها علامة واحدة من علامات إرادتها لي فقد بقي سؤال لماذا تواظب على مجيئها إذن، ولماذا جاءت في هذا اليوم بالذات؟ وكان هناك جوابان لهذا السؤال: إما أنها جاءت لتتفرج على إنسان يحبها وتحس بأنها مرتبطة به بشكل ما لأنه يحبها، وإما أنها جاءت بدافع من نفسها وعواطفها. مضيت أراقب ملامحها لأعرف إن كانت تتفرج أم هي تحيا المشهد ومنفعلة به وبكلمات الخطاب.

أما الانفعال فقد كان هناك حقيقة انفعال، أما سبب الانفعال فتلك هي المشكلة. ترى أهو انفعال متفرجة أو انفعال محبة؟ إن المتفرج أيضاً ينفعل وخاصة إذا كان يتفرج على من يحبه، بل أحياناً يتطلب الموقف من المتفرج أن يمثل دور الحبيب ليرضى هذا الذي يعذب نفسه في حبه.

وانتهيت من قراءة الخطاب ولم أكن قد انتهيت من تحديد نوع الانفعال.

ولم تعقب سانتي في الحال، مضت تعبث بأظافرها. وحتى في أثناء ذلك الصمت القصير كنت أحاول أن أخمن أية كلمات سوف تقولها.

ولكنها بعد قليل قالت وهي تائهة، وكأنما لا تزال تحيا في الجو الذي خلقته كلمات الخطاب:

- يحيى. . هل كنت تقول الحقيقة وأنت تكتب هذا الخطاب؟

ولم أجب على سؤالها. كنت أريد أن أعرف الدافع الذي حدا بها إلى هذا السؤال. ولما لم أستطع قلت:

البيضاء

ـ إن ما في هذا الخطاب لا يصور إلا جزءاً واحداً مما أشعر به. إني عاجز. أنا عاجز. أنا عاجز، وقلمي عاجز، وقدرتي على التجسيد عاجزة.

وسكتت وهي تنظر إلي، ثم قالت بضحكتها المعهودة وقد عاد البريق إلى عينيها وكأنما أفاقت:

ـ أعطني الخطاب.

وناولتها إياه ببساطة، فطبقته بعناية ووضعته في حقيبة يدها وهي تقول:

ـ لقد أصبح عندي مجموعة رائعة من خطاباتك.

قلت: تحتفظين بها؟

فقالت ببراءة:

ـ طبعاً. أنا أحتفظ بها كالكنز.

قلت وأهدافي ماكرة:

ـ وزوجك، ماذا يفعل لو رآها حين يحضر؟

قالت:

ـ اطمئن، إني أخبئها في الجزء الخاص بي من دولابنا. وافرض أنه عثر عليها، فماذا في هذا؟

ـ ماذا في هذا. كيف؟

ـ إنها ليست خطابات مني. . إنها خطابات إلي.

وارتبكت وأنا لا أعرف إن كان يجب علي أن أحزن أم أفرح أم أسخط لهذا الذي قالته.

وقلت لنفسي في النهاية: ها هي ذي تسمع خطاباتي وتحتفظ بها وتغفر لي تهجمي عليها ومحاولاتي معها، ألا يكفيك هذا؟

وفي الثانية التالية كنت ثائراً على نفسي فقلت لها فجأة:

ـ بصراحة أريد أن أسألك سؤالاً. أجيبيني عليه.. أرجوك.. أجيبيني بالحقيقة.

قالت وهي تبتسم وكأنها تعرف ما هو ذلك السؤال:

ـ اسأل..

ـ هل تحبينني يا سانتي؟

ولم يهمني البسمة التي أفلتت منها فقد كنت أنتظر إجابتها على نار. وبيني وبين نفسي لم أكن أنتظر منها الكثير، بل أن تقول أنها تحبني. كنت أسأل السؤال ولا أريد أن أعرف سوى كيف تجيبني عليه.

قالت وهي تسدل جفنيها على عينيها:

ـ ولكنك تعرف إجابتي.

قلت:

ـ ولكن افرضي أني غير مقتنع بإجاباتك السابقة. أريد جواباً محدداً وصريحاً.

قالت وهي تضحك:

ـ إذن أنت أعز أصدقائي.

ولم أشأ أن أقول: إني أسأل عن الحب لا عن الصداقة.

سكت محرجاً، ولكني أدركت أني قد بلغت في حرجي إلى آخر حد فلماذا لا أسألها عن كل ما يدور بخلدي. قلت:

ـ ولماذا تأتين إذن يا سانتي؟ ولماذا جئت اليوم؟

وهنا قامت قومة المفزوع، وقالت:

ـ يحيى.. يحيى.. هل أنت تفسر مجيئي هذا التفسير؟

وطبعاً أجبت بكل حروف النفي التـي أعرفهـا وقـد رأيت انزعاجهـا لسؤالي، وقلت على سبيل الكلام، مجرد الكلام:
ـ أنا فقط كنت أسأل. . مجرد سؤال.

ومن جديد عاد الصمت المشبع يخيم على جلستنا، صمـت كنـت أخافه وأخشاه وأكافحه بكل ما أستطيع من قوة، فقد كنت أخاف أن ينهي جلستنا فتقوم، وأخاف أن أقول كلمة لأقطعه فتجرحهـا الكلمـة ويتعـكر الجو، وأخاف أن سكت أن تغير هي موضوع الحديث. أخاف أن أتكلم وأخاف أن أسكت وأخاف إن تكلمت هي وأخاف إن سكتت.

ولكن صمتنا هذا سرعان ما قطعه دق الباب.

وتضايقت، وقمت لأفتح وأنا أحاول أن أخمن من يكون الطارق في مثل تلك الساعة، خاصة وبيتي الجـديد لـم يكن قد عرفـه نفـر كثير من أصدقائي ومعارفي.

قمت لأفتح فإذا بها لورا، وما كدت أجذب ضلفة الباب حتى دخلت وكأنها تهوي إلى بئر، شاحبة اللون مغمضة العينين وكأن الأشباح كانت تطاردها.

ولم تترك لي وقتاً أو فرصة لإيقافها أو الاعتذار إليها أو الحيلولة بينها وبين الدخول، فقد كان من غير اللائق أبداً أن تجد سانتي عندي في مثل تلك الساعة، ولم أكن أريد أيضاً أن أقطع حديثي مع سانتي.

وهي على الباب بدأت تتحـدث وتقـول بصـوت لاهـث متقطع لا ينقطع:

ـ حدثـت مصيبـة. تصـورا والـداي لـم يبيتـا لدى عمتـي في مصـر الجديدة. لم يجداها. وعادا إلى المنزل ليلة الأمس وطبعاً لـم يجـداني

ولما لم أعد أبلغا البوليس. يا لغباوتهما! أبلغا البوليس. وحين عدت في الصباح يا لهول ما حدث.. بي بي بي بي..

كانت تتكلم وهي تواجهني وتتشنج بيديها وكتفيها علامة المصيبة الكبرى. ولكنها بلفتة واحدة كانت قد رأت سانتي في حجرة المكتب فتصنعت «أو دهشت حقيقة» هذه الدهشة العظمى وقالت بترحيب مبالغ فيه:

ـ أووه.. هالو..

وطبعاً حدث السلام المليء بالحرج والارتباك، وتلاقت العيون بنظرات صريحة ونظرات لا تمت إلى الصراحة أو البراءة بصلة.

وما لبثت الحجرة أن احتوتنا نحن الثلاثة، سانتي التي أحبها، ولورا التي تحبني. سانتي التي أريدها ولورا التي تريدني. سانتي التي لا أعرف ماذا يدور في عقلها، ولورا التي كان يلفحني لهيب الغيرة البدائية الذي تشعه نظراتها. أنا أراقب كل همسة من حركات سانتي وأقوالها، ولورا تراقب كل همسة من حركاتي أو حركات سانتي، وأنا الحائر المتسائل بحق عمره وحياته لأعرف ما هو رأي سانتي في هذا كله.

بل لكي أعرفه تعمدت أن أنكش لورا. والواقع لا أستطيع أن أحدد أنني كنت السبب أم أن لورا تعمدت أن تثبت ملكيتها لي أمام سانتي وبالمرة تغيظها حين جرى الحديث إلى قصة والديها ومصر الجديدة ولمحت لورا بما يفهم منه أنها قضت ليلة الأمس، وليلة الأمس بالذات عندي، وأنها لهذا وقعت في ورطة وتطلب مني إنقاذها.

وبمثل ما يغفر الحب إساءة للحبيب، بمثل ما نكره أي شيء من اللا حبيب. وقد كرهت لورا وورطتها ووالديها والساعة التي عرفتها فيها

ودللتها على بيتي، خاصة وكل ما حدث لسانتي حين أدركت الورطة وما تعنيه أنها هزت رأسها في جمود وتخابث، وهمهمت همهمات لم أعرف إن كانت همهمات غيرة أم همهمات اشمئزاز.

ولم أنقذ لورا ولا حتى أبديت أي استعداد لإنقاذها، ولـم أتبين أية غيرة جدية في عيني سانتي. وحرصت لورا على أن تنتحل المعاذير لتبقـى وجاء وقت انصرافهما، وقامت لورا فلحقتها سانتي ومضيا معاً. وأغلقت الباب وعدت إلى الحجرة.

عدت وأنا أقول لنفسي: لماذا لا تترك هذا كله وتثوب إلى رشدك؟ لماذا لا تضرب عرض الحائطبسانتي ولورا والمجلة وكل هذا العمل الذي لا طائل من ورائه؟ لماذا لا تقوم بأي عمل آخر ترضى عنه أنت وتحس أنه أكثر جدية وفاعلية؟ لماذا تغرق نفسك إلى أذنك في تلك الدوامة التـي تختنق فيها بإرادتك بكل إرادتك. لماذا؟

١٦

والاجابة على ثورتي لم تأتني لحظتها. كانت الاجابة تأتي أحياناً في شكل خوف شديد من الفشل، وكأني غامرت بكل حياتي على علاقتي بسانتي، وكأنها إن لم تحبني أو إن لم تكن تحبني فمعنى هذا أن لا فائدة مني ومن رجولتي بل من وجودي نفسه، وكنت شديد الثقة بنفسي أؤمن إيماناً كاملاً بأن لا بد لي أن أنجح مثلما لا بد لي أن أعيش أو أتنفس. إذا لم تكن الحياة نجاحاً فلا كانت الحياة. حتى وأنا أخوض أية تجربة فاشلة لا بد أن أنجح فيها، وإذا لم يكن بد من الفشل فليكن الفشل بارادتي أنا. أما أن أفشل رغماً عني، أما أن تهزمني الحياة أو تهزمني سانتي فما فائدة حياتي وأنا مهزوم؟ شاب قوي ممتلىء بالثقة في العالم وفي نفسه يكتسح الدنيا بناظريه ويقول، الحياة هي النجاح والفشل هو الموت. سني خمسة وعشرون عاماً ومعركتي الجدية مع العالم لم تكد تبدأ، بالكاد بدأت أحس أني أخوضها حين عرفت سانتي. وحبي لها لم يكن في الواقع حباً خالصاً لها، كان أيضاً وقبل كل شيء حباً لحياتي أنا نفسها وتعلقاً بحياتي أنا نفسها، وإصراراً على أن أحيا وأن أنجح.

حتى وأنا أعلم أن الاصرار والعناد قد يصلحان في أي شيء إلا في الحب، كنت مصراً أيضاً على نجاحي في هذا الميدان الذي لا يصلح له

الاصرار، مصراً على نجاحي وكأن النجاح عمري، فالموت عندي كان أهون من الفشل. . أعظم فشل يصيبني كان في نظري فشلي مع سانتي.

ولم يمض سوى يومين، وجاء الصباح وظهرت الأهرام والمصري والأخبار والأثنين ولم تظهر مجلتنا. . لأول مرة منذ شهور كان يحدث هذا، وأنا ذاهب في الصباح إلى الورش كنت أتطلع وأسأل فلا أجدها معلقة فوق الأكشاك، ويهز الباعة رءوسهم نفياً وأسفاً. . وبالكاد مكثت في المكتب ساعة، وحوالي العاشرة كنت في بيت شوقي أتعاون أنا وزوجته على إعادة الحياة إلى جسده النائم، فلم يكن نومه نوماً، كان وفاة مؤكدة تحدث له بين الثالثة والرابعة من صباح كل يوم ولا تعود إليه الروح إلا هناك قرب الظهر أو أحياناً بعده. . وأكثر من ساعة لا بد أن يمضيها في مواء ورفس وتحديق أجوف في السقف والوجوه التي حوله قبل أن يعود الوعي إلى رأسه، وكان أول سؤال وجهته له عن المجلة. . وأجابني بمواء وإشاحة،وكأني أطلب منه أن يعيد على مسامعي قصة «أبو»زيد وقد رواها ألف مرة. . ولم أهدأ إلا حين عرفت منه بالضبطما حدث. . ولم يكن قد حدث شيء كثير،كانت موارد المجلة قد نضبت والخوف قد تولى إنقاص عدد القراء إلى درجة لم يكن مستغرباً أن تتوقف معها عن الصدور يوماً ما. . وجاء ذلك الأحد ومنعهم صاحب المطبعة من دخولها وانتشروا في القاهرة كلها ليجمعوا الثمن ولكنهم عادوا بوفاض خال. . ومتى حدث هذا كله؟. . في الوقت الذي كنت جالساً فيه بين سانتي ولورا.

وقلت لشوقي:

ـ وبعد؟

قال وقد بدأ يستيقظ ويفرك عينيه ويتثاءب:

ـ تفرج. .

ـ أمتى؟

ـ الأسبوع الجاي لازم تفرج . .

وضحكت في تهكم، وسألني عما يضحكني . . فقلت أن الفلاحين في بلدنا المؤمنين بالله والمتوكلين عليه توكلاً تاماً يدبرون مستقبلهم بنفس هذه الكلمة: تفرج . . فما فائدة أن نكون ثواراً إذن وعلماء ثورة؟

وكانت راقية زوجته قد أحضرت لنا الشاي في كوبين . . كل كوب منهما شكل . . وجلست تستمع لحديثنا برهة وتحاول المشاركة فيه ولو بهز الرأس .

ولكن يبدو أنها وجدته يدور في نفس الدائرة فقامت إلى المطبخ .

وفتح شوقي فمه فتحة واسعة حتى خفت أن يتمزق صدغه وتثاءب في صوت كصوت صفارات البواخر وقال :

ـ فتحي اتمسك .

وتثاءب مرة أخرى .

وأعدت عليه السؤال فعاد يؤكد لي أن فتحي سالم قبض عليه من يومين . ولأمر ما لم أستطع أن أتخيل فتحي سالم مقبوضاً عليه ، كاتب القصة المرهف ، وعينيه الخضراوين الواسعتين وطريقته في نطق المصطلحات الطبية حين يناقشني ويريد أن يشعرني بالرابطة الخاصة التي تربطني به ، إذ كان مثلي يكتب ويعمل في المجلة ، وكان طبيباً هو الآخر وإن كنت قد تخرجت قبله بعامين . . لم أستطع أبداً أن أصدق أو أتصور أنه اعتقل أو قبض وفكاهاته كثيرة ناعمة تكاد تذوب قبل أن تلتقطها الآذان . . وها هم قد أمسكوه . . وكان السؤال هو : لماذا فتحي سالم بالذات . . وهناك من هم أخطر منه وأكثر فائدة؟

البيضاء

وقال شوقي وهو يكاد يتركني ويعود للنوم:

- إنت عايزهم يفكروا زيك؟ مفيش منطق عندهم.. كله زي بعضه.. إحنا متصورينهم أذكى مما هم بكثير.

ولم أوافقه أبداً على كلامه.. فهم فعلاً أذكياء، وأقوياء وبعضهم يحس أنه بما يفعله إنما يهب نفسه لأشرف عمل. ولكننا في معركة دامية معهم.. والمعركة دائرة في خندق سفلي لا يحس به أحد من السائرين في الشارع، أو راكبي الترام أو من يملئون المتنزهات والقهاوي والسينمات.. مجموعة صغيرة من الناس تحيا في حماس ملتهب.. اجتماعات وقرارات وأوراق صغيرة شفافة ورونيوهات ومواعيد محكمة بدقة ولها مواعيد احتياطية وأسماء غير حقيقية وأحقاد وخلافات وتناحر واتهامات وبطولات.. مجموعة لا تراها العين العادية، ولا تلقاها ولكنك تسمع بها وترن أسماؤها في أذنك رنيناً غريباً. مجموعة لا تراها إلا عيون مجموعة أخرى، وظيفتها أن ترى الشرارة قبل أن تصبح ناراً وتخمد النار لو اشتعلت النار، خندق سفلي، والناس تغدو فوقه وتروح والمعركة لا حس لها ولا صوت. خطى تترسم خطى، وإشاعات تضلل إشاعات، وذكاء يقدح ذكاء، وخيانات للجانبين ومن الجانبين. عالم سفلي يموج بأصوات عالية غير مسموعة وحركة دائبة غير ملحوظة وبراكين غير مرئية تتفجر وتهدد ويعود غيرها يتفجر، وبين الحين والحين يختفي واحد ويجيء الخبر ثاني يوم: «اتمسك».. أو يجيء الخبر ثالث يوم: «أفلت وساب».

وعقب كل خبر كهذا تتبلبل الخواطر وترتفع الأسماء وتهوي كالأسعار حتى ليلتبس الأمر على الرائي في الظلام، وهو لا يلحظ فارقاً كبيراً بين الخائن والشريف وبين الانتهازي وصاحب المبدأ، ويعشش الشك حتى

ليشك الواحد أحياناً في نفسه فالظلام يضاعف الشك. . والشك يقطر في العيون ظلاماً. وكنت أعتقد أن التصرفات المهتزة التي تصادفني سببها مجرد شك أكثر من اللازم في الناس، الشك الذي يورث الرعب، ولم أكن قد آمنت بعد أن الشك المركب إذا طال بقاؤه في النفس يأكلها ويهرؤها كماء النار، وان نفوسنا كأكبادنا ممكن أن تصاب بالتضخم والتليف وتفقد احساسها الانساني وطيبتها ونكهتها، وتمرض وتموت ويظل صاحبها يحيا بلا نفس، وما أبشع أن يحيا الانسان بلا نفس عملها الأساسي أن تتذوق طعم الحياة، وتحبب صاحبها في كل ما هو حي وتحبب كل الأحياء فيه.

ونفس هذا الظلام كان يحدث أثراً مختلفاً تماماً عند بعض آخر. . كنت تلقاهم قبل أن يطئوا بأقدامهم أعتاب ذلك العالم شباناً مستهترين أو تافهين ومنطوين كل ما يشغلهم حفلة سينما، أو بنت حلوة، أو أحلام يقظة، وإذا بهم لا تكاد تمضي شهور حتى يحيلهم ذلك العالم الخافت الضوء البارق بشهب الاتهامات إلى رجال أقوياء، تنبت لهم شجاعة لا أعرف من أين، ويصح لهم حكمة غريبة على سنواتهم الغضة، وتحس أنهم إذا قالوا فعلوا ولا يقولون إلا ما يفعلون، وتحس بفخر أنكم من شعب واحد، وأن جهودكم كلها ذاهبة إلى هذا الشعب.

وبنفس هذه الروح كنت أنظر إلى شوقي وقد ارتدى ملابسه وفي نيته أن يخرج معي لنبدأ جولة إصدار العدد القادم من المجلة.

كان من الواجب ألا يغادر البيت، أو يغادره متخفياً إلى مكان آمن فمعنى القبض على فتحي سالم أنه هو الآخر مقبوض عليه لا محالة، فماذا يكون فتحي كاتب القصة بجوار شوقي رئيس التحرير المسئول؟ . . ولكنه

البيضاء

سخر من مخاوفي وقال أن الطريقة الوحيدة لكي لا أعتقل أن تزول الظروف التي يعتقل الناس فيها، ولكي تزول الظروف لا بد أن نصدر المجلة، ولكي نصدر المجلة لا بد أن نعمل، والعمل هو الطريقة الوحيدة للمحافظة على سلامته. فلكي يحافظ على سلامته لا بد أن يخرج.

ثم التفت إلي وابتسم وكأنه يصالحني وقال:

ـ على العموم أنت عندك حق في حاجة واحدة.. أني لازم أعزل م البيت ده النهاردة

وجاءت زوجته وكأنما كهربتها الكلمة، هي التي يعذبها التعزيل. ونشبت خناقة.. ولم تدم طويلاً.. فضضتها بأخذ شوقي والخروج به.

وحين أصبحنا في الشارع، وأصبح القبض على فتحي سالم مجرد خبر يأخذ طريقه ليسكن في هدوء الذاكرة، وشوقي بجواري كالعملاق ومحفظته البنية الغامقة تحت ابطه، دفعت سانتي أثقال ما كنت أفكر فيه وأستعيده وخطرت لي.. وساءلت نفسي إن كنت أحبها حقيقة وأنا أحيا في هذا الجو الملبد المشحون الذي يصبح الحب فيه شيئاً مخلاً يعاب ويستنكر. ساءلت نفسي ولم أحتج للاجابة، كنت كمن يضيق أحياناً ويرفع بصره ويتساءل: أين السماء؟ والسماء كبيرة ضخمة هائلة ممتدة من أفق لا بداية له ولا نهاية إلى أفق لا نهاية له ولا بداية.

نعم كنت وأنا ماش بجوار شوقي أحبها، وأنا أحيا تحت الأرض أراها.. وفوق الأرض أراها.. وأراها وأنا أريد أن أراها، وأراها وأنا لا أريد أن أراها.. هي شوقي ومحفظته والمكان الذي كنا ذاهبين إليه والمجلة وفتحي سالم وخوفي وشجاعتي، ولولا أني مدرك ومؤمن أنني مأراها اليوم ما كنت قد صحوت من النوم أو ذهبت للورش أو ضحكت أو

حزنت أو احتملت وجودي على ظهر الدنيا لحظة واحدة، ولجزء على ألف من الثانية.

أحاول أن أتخيل العالم بغيرها، أو أتصور نفسي حياً من غير أن أراها، فأحس كالواقف فوق ناطحة سحاب حين يلقي بنظره مرة واحدة إلى الأرض، فيحس وكأنما هي التي تخلو به وتسقط من أعلى في سرعة مذهلة لتستقر على بعد سحيق، وليصبح بينه وبينها هوة تورث الغثيان والدوار. ودوار وغثيان هما ما يحدث لي كلما حاولت أن أتصورني بغيرها أو أتصور العالم بغير أن تكون فيه وأن ألقاها، بل لا أستطيع التصور أكثر من ذلك الجزء، وكما يرتد البصر عن الأرض السحيقة أرتد أنا عن التصور، لتعود الروح تسري في، ويعود إلى العالم الجمال الذي يحببني فيه.

وأظل في تلك الدوامة، أرى شوقي بحافظته أو يكلمني فأتذكر عملي الثوري، فإذا ما تذكرت قصوري فيه، والقصور يذكرني بسانتي، وتأنيب الضمير الذي يصاحب تصورها يذكرني بتقصيري، وتقصيري يذكرني بها.

ظللت إلى أن وصلنا إلى المجلة، وهناك وجدنا مفاجأة في انتظارنا لم نكن قد أعددنا لها أنفسنا.

كان الباب مغلقاً ومشمعاً ومختوماً، وما كدنا نقف هنيهة حتى جاء عسكري معين على ما يبدو لحراسة الباب، وحين وجدنا نحوم حوله جاء مصوباً إلينا نظراته الشاكة الحادة، وبسؤال أو سؤالين كنا قد استطعنا تضليله إلى حد ما وهبطنا في السلالم على عجل. وحبن رآنا عم حسن بائع السجائر نتستر بالمارة لنغادر الحي كله بسلام خرج من دكانه ونادى

علينا، وكدنا نتجاهل النداء لاعتقادنا أنه يريد «الحساب»، ولكنه انزوى في ركن معنا يفهمنا أن البوليس جاء في منتصف ليلة الأمس وفتش المجلة، وهبط ومعه دوسيهات وأوراق كثيرة وترك عسكرياً ومخبرين.. الجدع اللي واقف هناك دهه مدخل ايده في فتحة الجلابية واحد منهم والثاني راح باينه يتغدى.

وفقط حين ابتعدنا كثيراً حتى أصبحنا قريباً من ميدان الاسعاف بدأت أشعر بحقيقة ما حدث.. والتفت لشوقي وكانت في وجهه نظرة جادة عميقة قليلاً ما كنت أراها.. وقلت له:

ـ انت عارف الرد يكون ايه؟

وكل ما فعله أن ألقى عليّ نظرة جانبية، قلت:

ـ إن المجلة تطلع بكرة.

وأنا نفسي عجبت لكلامي، فليلة الأمس بالذات كانت أقصى أماني أن أترك سانتي والمجلة وهذا العمل الذي لم أعد أؤمن إيماناً عميقاً بجديته، فكيف يعاودني الايمان بهذه السرعة وبتلك الدفقة المفاجئة من الحماس؟

قال شوقي:

ـ تفتكر نقدر؟

قلت:

ـ مش أفتكر.. د لازم تطلع بكره.. ونقول فيها برضه اننا نأسف لأن المجلة لم تصدر بالأمس لأسباب «فنية».

ولاحت بسمة خفيفة سريعة في حدقتي شوقي وهو يقول:

ـ ونخللي المانشيت: أيها الشعب تحرك.

وحسبته يهزل ولكنه كان جاداً، وبدأنـا نضـع الخطـة والبحـث عن الزملاء المحررين وتجميعهم، والبحث عن مطبعـة جديدة غير مطروقـة وإكمال كتابة المواد أثناء جمع المواد الموجودة ثم الطبع.

وأعجب ما حدث لنا يومها أننا حين ذهبنا إلى مطبعة الدار الصحفية التي كنا نطبع فيها وعرف صاحب الدار بوجودنا، فجأة رأيناه يقبل ناحيتنا. كان علينا بعض الديون ولكن الابتسامة الغريبة التي كان قادماً بها لم تكن ابتسامة مطالب بدين. سلم علينا وما لبث أن وصع احدى يديه على كتفي والأخرى على كتف شوقي وقال:

ـ ما جيتوش تطبعوا امبارح ليه؟

اكتفينا بأن نظرنا له كمن نقول:

ـ أنت أدرى بالسبب.

وأدار فينا بصره والسيجارة في فمه لا ينزعها يخرج دخانها من نارها ومن فمه، وكان ضخماً طويلاً كالعمالقة لا تستطيع أبداً أن تقسم مهما قال أنه في صفك. أدار فينا بصره ثم قال:

ـ أنا عارف كل حاجة، وأنا تحت أمركم.

قلنا:

ـ تحت أمرنا إزاي؟

قال:

ـ أنا والمطبعة وجرائد الدار ومجلاتها تحت أمركم، وابقوا هاتوا تمن العدد في الوقت اللي يريحكم.

وكدنا نضرب كفاً بكف دهشة وذهولاً. فلم نكن نتوقع أبـداً تصرفـاً كهذا من أحد عمد «الرجعية» كما كنا نسميه. وخمنا أن يكون الموضوع كلفة فخاً منصوباً، وتريثنا وترددنا وتحججنا، ولكن تبين لنا أن لا فخ هناك

ولا مصيدة وأنه حقيقة يعني ما يقول، بل أكثر من هذا وقف بنفسه أكثر من ساعة واضعاً السيجارة مطفأة ومشتعلة في فمه يراقب عملية الجمع والتوضيب، وقد أصدر أمره باخلاء حجرة المصححين لنا لنكمل العدد كتابة. البيضاء

وجلست أنا وشوقي وعطوة الذي كان قد جاء أصفر الوجه يرتعش بالانفعال. جلسنا نناقش أولاً هذا الموقف الغريب لصاحب الدار.

وقال شوقي:

ـ وماله؟ احنا بيحصل تناقض بين الرجعية والحكومة. ممكن يحصل.. ولازم نستفيد منه.

وكنت أسمع كلامه وأنظر من خلال الزجاج الذي يكون جزءاً من جدار الحجرة إلى صاحب الدار ووقفته المهيبة في وسط المطبعة والحركة الدائبة السريعة لاتمام جمع العدد وتوضيبه وطبعه وأكاد لا أصدق ما يحدث، ولا أصدق أيضاً ما يقوله شوقي ويفسر به ما يحدث. هذا الرجل الواقف كان يمثل الدعامة الأولى للحكومة التي كانت قائمة في ذلك الوقت، ومع ذلك فهو نفسه يضع كل إمكانياته تحت تصرفنا لنهاجم تلك الحكومة، ويحدث هذا منه فجأة وفي وقت أغلقت فيه مجلتنا وكاد نشاطنا يتوقف.

ومع هذا، وصدقنا أم لم نصدق، فقد كان علينا أن نعمل. فمجرد تصورنا أن المجلة في الغد سوف تغمر السوق وينادي عليها الباعة كما كانوا ينادون، مجرد تصورنا هذا كان يلهبنا فننكب على العمل كالمجانين غير مبالين ماذا يمكن أن يحدث غداً أو حتى بعد ساعة.

وأفتح عيني أحياناً فألمح وجه سانتي، وألمحه مشرقاً ومبتسماً وراضياً

عما أقوم به فيلتهب حماسي أكثر، وأحس أني مستعد أن أموت أنهاكاً وعملاً وتعباً لأرى وجهها مشرقاً ومبتسماً، ولأراني راضياً عن نفسي غير خجل ـ لأول مرة منذ عرفتها ـ من علاقتي بها.

وفتحت عيني مرة فلمحت وجهها أيضاً، ولكنني لمحته من خلف الزجاج، وحسبتني قد بدأت أخرف ولكنها حقيقة كانت هي. ظللت أتابع وجهها وعينيها وهي تستعرض الموجودين بالحجرة حتى رأت شوقي وحينئذ استدارت ودخلت واتجهت إليه فوراً، وأخرجت من حقيبة يدها ظرف جواب خاصاً بالبريد الجوي وأعطته له، وتبادلت معه حديثاً خافتاً قصيراً ثم استدارت لتنصرف، وفقط وهي تستدير لمحتني، وبأسرع ابتسامة حيتني ومضت كسندريللا، كما جاءت.

ولكن اضطرابي ودق قلبي والرجفة التي أصابتني واهتز لها كل ما كنت أفكر فيه لم تكف إلا بعد مضيها بكثير. وعبثاً حاولت التغلب على انفعالي والتوهان المفاجىء الذي اعتراني لأنجز ما في يدي والوقت أمامنا ضيق ومشحون. بأية قوى سحرية تؤثر عليّ هذه المرأة الصغيرة وتحدث فيّ هذا كله؟ بأية قوى غيبية تفرز في دمي كل تلك الكمية من «الأدرينالين» الذي يجعل قلبي يدق هكذا وينبت العرق من جبهتي وتتهدج له أنفاسي؟ ولماذا هي وحدها دوناً عن العالم كله؟

وحتى حين عدت للعمل بعد هذا لم أكن قد رجعت إلى حالتي قبل مجيئها، وكل مرة كنت أرى فيها سانتي كنت لا أعود أبداً إلى حالتي قبل رؤيتها، وكان كل مرة كنت أراها فيه كانت تحدث فيّ تغييرات ما، وتترك بصمات ما، وتظل موجودة وباهتة ولكنها موجودة لا تزول ولا تمحى وتظل موجودة إلى أن أراها مرة أخرى فيتراكم فوق التغييرات تغييرات.

ولم أشأ أن أسأل شوقي عن سبب مجيء سانتي وماذا قالته وقدمته مع أني كنت أتحرق شوقاً لمعرفة كل كلمة قالتها وحتى الطريقة التي قالتها بها. وأعفاني شوقي من مهمة السؤال حين جاء إلى المكتب الذي أعمل عليه ليناقشني في اختيار عنوان. ولمحت ظرف البريد الجوي بارزاً قليلاً من جيبه ومفتوحاً. . ومن خلال الفتحة المتناهية الضيق لمحت الحافة الجانبية لبضعة جنيهات. وضبطني شوقي وأنا أحدق فقال وهو يبتسم:

ـ نجدة جاءت آخر لحظة.

ـ من مين؟

قلتها رغماً عني، وتوقعت أن يزوغ شوقي من الجواب ولكنه قال:

ـ من اسكندرية.

ـ من مصريين؟

ـ لا من خواجات.

مرحى لخواجات اسكندرية الذين يبلغ حماسهم لقضيتنا هذه الدرجة.

ـ بس مش خطر انها تيجي هنا؟

ـ توصيل الفلوس أهم من الخطر. . بنت كويسة.

وهززت رأسي أوافقه وأتأمل وجهه لعلي ألمح شيئاً آخر.

ولم تلبث حمى العمل أن قطعت الحديث واجتاحتنا.

وفي الرابعة صباحاً ونحن في باب الحديد نطمئن على شحن الأعداد المخصصة للأقاليم، كنا ننتهز فرصة الظلام البارد والأنوار القليلة ونختلي جماعة صغيرة في ركن ونفرد المجلة بين أيدينا ونتأمل أقوى وأعنف عدد

أصدرناه، وفي أحلك ظروف، وأيضاً لا نكاد نصدق أننا فعلنا هذا، وأن الفكرة التي عنت لي ونحن سائرون في الشارع بعد ظهر الأمس قد أصبحت حقيقة، وأن العدد فعلاً يتوجه مانشيت مكتوب بخط أحمر وبحروف ضخمة غليظة يبعث مرآها في أجسادنا قشعريرة انفعال ورهبة وحماس: أيها الشعب تحرك!

البيضاء

١٧

وعدت مرة أخرى إلى المواعيد والاتصالات والاجتماعات، لا يهمني كثيراً نهاية الطريق الذي أسير فيه بقدر ما يهمني أنني عدت أسير، ومع نفس الناس، أتغاضى عن العيوب ولا أفكر في الفرق بين الحق واللاحق فيما نفعله، وأحس أحياناً أني أغالط نفسي وعودتي للعمل تقدم لي في كل ساعة شواهد جديدة على أني كنت في تساؤلي وشكوكي على حق. وأتجاهل إحساسي هذا، كالمدخن الذي يعرف أكثر من غيره أضرار التدخين ولا يملك إلا أن يستمر يدخن، وكأن فترة ضيقي بالعمل واستنكاري لهذا الطريق «الخوجاتي» في التفكير وفي الثورة كان مجرد امتناع مؤقت عن التدخين عدت بعدها إليه، إلى نفس ما ضقت به.. نهماً.. خرماناً، أريد أن أعوض كل ما فات.

وحقيقة صغيرة أخرى كان لها دور في عودتي.. فان أمتنع أنا عن التدخين شيء، أما أن تمنعني أنت بالقوة الغاشمة عنه فمسألة أخرى. واغلاق المجلة والقبض على فتحي سالم واستمرار عمليات القبض والاعتقال. هذا المنع بالقوة والارغام فيه امتهان لقدرتنا على الارادة والاختيار، وأي امتهان للتفكير والارادة لا يمكن إلا أن يقابل بالتحدي وبفرض للارادة. إنك لا يمكن أن تحرم النملة أصغر الكائنات من

ارادتها، كما لا يمكنك أن تمنعها من روح الحياة التي تدفعها للحركة والتناسل والبحث عن الطعام. فكيف باستطاعتك أن تمنع الانسان أعظم الكائنات وأقواها من روح حياته.. من إرادته.. انك مهما فعلت وخيل إليك أنك انتصرت فأقصى ما يمكن أن تكون قد فعلته هو أن تكون قد أجبرت الكائن الحي الانسان على أن يسلك طريقاً قد لا يحب هو سلوكه، ولكنه يفعل هذا فقطليثبت إرادته ووجوده، لكي لا يحس أن إرادة أخرى قد سيطرت عليه فالموت عنده أهون من إحساس كهذا.

إلى أن فوجئت في يوم بأعجب خبر! ولا أذكر من قاله لي، هل هو شوقي؟ هل عوعطوة؟ هل سمعته همسات تتردد على ألسنة بعض الصحفيين؟

كان البارودي قد أفرج عنه.
أية مفاجأة مذهلة؟

مفاجأة دفعتني لأن أصغي رغماً عني إلى الهمسات التي راحت تدور على ألسنة بعض الأفراد في ذلك العالم الخافت الأضواء.. ولم تكن هذه أول همسات أسمعها عن البارودي، فمنذ عرفته واسمه يقرن على الدوام بقائمة طويلة من الألقاب والتهم. الانتهازي، عميل الرجعية، الخائن، الذي يعمل لحساب أقلام المخابرات الاستعمارية.. الخ.. الخ..

وكانت اتهامات كهذه تتساقطكأوراق المهملات قبل أن تصل إلى أذني، إذ كنت أعزو معظمها إلى حقد شخصي على البارودي باعتباره أذكى العاملين تحت الأرض وأكثرهم قدرة على استعمال عقله ووعيه، بل كنت آخذها على أنها نوع من التقدير المعكوس، ولكن بعد ذلك الصراع غير المنظور الذي دار بيني وبينه حول رئاسة التحرير، وإصراره بطريقة

البيضاء

غير معقولة على أن يظل هو الرئيس، وبعد ردنا عليه بدأ تقديري له يقل فان نضبط العبقري في موقف لا يقفه إلا الأغبياء أو غير المخلصين مسألة لا تدفعك للاعتقاد بأنه «أخطأ» كما يخطىء غيره من الناس، ولكنها تفسر على أنه يفعل هذا عن عمد، وأن وراء «خطئه» الظاهر هدفاً ذكياً خبيثاً. وهكذا لم تتساقط الهمسات التي رحت أسمعها تعليقاً على خبر إطلاق سراحه في ذلك الوقت بالذات تساقط الأوراق المهملة، بدأت أصغي لها وأفكر فيها. همسات منها أن البارودي خرج من السجن لأن وزير الداخلية في ذلك الوقت ساومه، ومنها أنه أخرج ليكون أداة في يد الوزارة تستعملها للقضاء على التيار الثوري الجديد الذي أصبح يسيطر علي المجلة بعده، وعشرات غيرها من الاحتمالات والتأويلات، وكنت أستمع إليها غير مستغرب، فلدى اعتقال أي فرد من أفراد ذلك العالم أو الافراج عنه دائماً ما كانت تصاحب أياً من العمليتين إشاعات وأقاويل واتهامات يثبت في معظم الأحيان بطلانها، وفي أحيان قليلة جداً تثبت صحتها ولكن أحداً لا يسلم منها.

وحين كنت في المطبعة أصحح العمود الأسبوعي، ودق التليفون وقالوا لي أن شوقي يطلبني، كان الخبر لا يزال طازجاً وما زلت أقلبه على وجوهه. وأهم من هذا أني كنت في شوق شديد للقاء البارودي مهما تكن الحالة التي خرج عليها. كان خبر الافراج قد دفعني دفعاً لمراجعة تلك الفترات الباهرة من حياتي التي عملت معه فيها، وعلاقتنا الطويلة الغريبة التي بدأت ذات مساء في منزل شوقي، والأيام التي كنت أحمل عنه فيها كل ما معه من أوراق سرية خطيرة وأمشي بجواره أو بعيداً عنه، حتى إذا دهمه البوليس في الطريق لم يجد معه شيئاً، وأفعل هذا غير مكترث أبداً لخطورة ما أفعله. كنت مستعداً أيامها أن أفقد رأسي إذا طلب مني هذا

وحتى فترة خلافنا والصراع الذي نشب بيننا وبينه بدت لي باهتة شديدة البهوت ،وكأنها لم تحدث أبداً، فقد كنت حقيقة أعارضه وأختلف معه ولكني أفعل هذا بروح غير المتأكد تماماً من صحة رأيي ، وحتى لو كنت متأكداً من صحة رأيي فلو كنت قد خيرت بين رأيي الصحيح ورأيه الخطأ لاخترت رأيه لاعتقادي أن خطأه قد يكون وراءه حكمة تخفى علي.

أمسكت بالسماعة وأنا على يقين أن شوقي سيخبرني عن شيء خاص بالبارودي، وفعلاً أخبرني شوقي أن أملي قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من التحقيق، وأنه سيقيم احتفالاً صغيراً بمناسبة خروج البارودي من السجن، وأن علي أن أذهب إلى المنزل الجديد الذي انتقل إليه في الساعة الثامنة. وقلت له: والبارودي سيكون هناك؟

قال: طبعاً طبعاً.

وفي ذلك المساء، في السابعة والنصف كنت آخذ طريقي إلى بيت شوقي الذي اختاره في تلك البقعة شبهه المهجورة الكائنة في نهاية حدائق شبرا.

وبصعوبة وصلت فقد كان علي ألا أسأل، والشوارع في تلك البقعة لا تزال جديدة لم تركب لها اللافتات بعد، بل أسماؤها لا تزال محل خلاف، والسكان معظمهم لا يعرفون بعضهم بعضاً.

وطرقت الباب تلك الطرقة التي كنا متعارفين عليها، وفتحت راقية زوجة شوقي وهي كعادتها تضحك. . وما كاد الباب يفتح حتى فوجئت بضجة لم أكن أتوقعها، ضحكات خافتة وأصوات أناس يتحدثون كلهم في وقت واحد، وصراخ بنت شوقي ذات الستة أعوام. وحين دخلت لم أستطع أن أحدق في الموجودين أو التعرف عليهم. انتابني كالعادة ذلك

الوجل الذي ينتابني حين أواجه جماعة، ومع هذا كنت قد لمحت البارودي، كان جالساً في ركن يتحدث بصوته المنخفض وابتسامته الطفلة، وملامحه هي هي التي أعرفها لم تتغير وإن كان وزنه قد زاد قليلاً ووجهه امتلأ امتلاءة المفرج عنهم بعد سجن طويل.

وأحسست بكل حبي له يتجمع في الصيحة التي أطلقتها:

ـ حمداً لله ع السلامة.

وتوجهت إليه وفي غمرة الانفعال الدافق عانقته وقبلته وحملته من فوق الأرض، وهو يبتسم ويقول:

ـ ازيك يا يحيى. ازيك يا راجل؟

وكان جو الحفل قد انقطع بمجيئي! ولكن الجميع سرعان ما عادوا إلى ما كانوا فيه.. وكل الحاضرين كنت أعرفهم، والحفل متواضع جداً عماده بضع زجاجات بيرة وطعام قليل أعدته راقية وأحاديث كثيرة نصفها ضاحك، والبارودي الذي كان نجم أية مناسبات كتلك.. هو الذي يعزم ويتحرك وينكت ويخلق الجو الصاخب المرح بطريقة لا يمكن أن تعتقد معها أنه هو نفس البارودي الزعيم الخطير، هذه المرة كان جالساً صامتاً يزوغ من أسئلتنا عما حدث له في السجن، وأحيانا يتطوع برواية أشياء صغيرة غريبة عن الطعام أو المهازل التي كانت تقع في أثناء الذهاب إلى الحمام.

وما كادت تمضي بضع دقائق حتى كانت كل وساوسي قد زالت وحتى كنت مرة أخرى أحس أني في حضرة البارودي الذي عرفته دائماً والذي لم يغير منه السجن جزءاً واحداً من تفصيلاته، وحتى كنت أحس بسعادة حقيقية مبعثها إحساسي بالعودة إلى الحياة وسط مجموعة مترابطة

قوية أكن لها أقوى الحب ويملؤني وجودي بينها بالفخر. ما أروع الانتماء! كل ما يحدث أنه في أحيان، كأصوات الطلقات البعيدة يدهمني شعور مربك، ترى ماذا يحدث لو عرف هؤلاء جميعاً قصة علاقتي بسانتي؟ أي خزي يصيبني حينئذ وأي عار! وكلما حدث هذا كان رد الفعل عندي يقوى، وأحس أني كنت في كابوس طويل عليّ أن أستيقظ منه، وفي الحال يجب أن أخرج سانتي من حياتي تماماً وأعود كما كنت مستقيماً كحد السيف. .

وفي لحظة حماس مددت يدي في جيبي وعددت ما فيها من نقود. . وجدته مبلغاً أكثر قليلاً من الثلاثة جنيهات فقمت وانتحيت بالبارودي ركناً وقلت له هامساً: أنا ما قدرتش أجيب هدية، إنما الهدايا بيننا ممكن تأخذ شكل القرض، خذ دول.

ومددت له يدي مقبضة بالجنيهات الثلاثة، فقال وهو يبتسم بلا خجل:

ـ متشكر جداً. . ايه الكرم ده!

ومد يده، واستغربت فقد ظل يمدها في اتجاهات كثيرة دون أن تقابل يدي، فقلت له:

ـ خد يا أخي. . مالك؟

فقال وأغرب شيء ما قاله:

ـ ايدك فين؟

قلت وأنا أضحك:

ـ مش شايف ايدي؟ أوعى تكون عميت في السجن.

ـ الظاهر كده.

وسدرت في ضحكي ومررت يدي أمام عينيه لأهوشه، فلم يرمش له جفن.

ومن فمه عرفت الحقيقة الغريبة التي لم أكن مستعداً أبداً لتصديقها. علمت أن البارودي أصيب بالعمى داخل السجن ولهذا أفرجوا عنه.

والساعات التي قضيتها في الحفلة بعد هذا مرت وأنا مصدوم حائر، لا أكاد أصدق أن عيني البارودي المفتوحتين أمامي كالفناجيل لا تريان.. وأنه حقيقة أعمى، وأن كل هذا حدث له داخل السجن، والأهم من ذلك أنه، وشوقي، وكل الحاضرين غير حزانى ذلك الحزن الشديد الذي كنت أحسه أنا، وأنهم يضحكون.

ولم أفق من الصدمة إلا بعد أن استعدت معلوماتي الطبية، وقلت له ممكن أن يكون أصيب بنوع من العمى النفسي وأن من السهل علاجه.. وناقشت البارودي في هذاالاحتمال،ولكنه أخبرني أن طبيب العيون في السجن يعتقد أن عماه عضوي ولولا هذا ما أفرجوا عنه.. وأضاف أنه حتماً سيعرض نفسه على اخصائيين كبار في العيون ولكنه يائس، وأغرب ما في الأمر أنه كان يناقش المسألة بهدوء وبلا اهتمام كبير خاص،وكأنه يتحدث عن مشكلة كليشيه ناقص في أثناء الطبع.

واعترتني نوبة تأنيب ضمير أشد.. البارودي الذي شككت يوماً في الطريق الذي يقودنا خلاله كان في السجن وأصيب بالعمى وتحمل ما لا يطيقه انسان، في وقت كنت ألعب فيه أنا وأفقد حماسي للعمل وأعارض وأتهم وأنا طليق؟

في تلك الليلة لم أعد وحدي من منزل شوقي، كان معي البارودي وقد شدَّدت عليه حتى قبل أن يقيم معي في شقتي إلى أن ندبر له مسكناً خاصاً.

وعرضي هذا كان أبسط شيء يمكنني أن أصنعه وأكفر به عن كل ما اعتراني من شك، وكل ما لم أتداركه من تقصير، وكنت سعيداً لا للفرصة التي أتيحت لي لأكفر، ولكن لأنه قبل الاقامة معي. وطوال علاقتنا لم أكن أراه إلا في أثناء العمل، أو لشيء خاص بالعمل، وأمنيتي الكبرى أن يطول نقاشي معه مرة أو يتاح لي أن أجلس معه جلسة لا تقطعها ارتباطاته الكثيرة ومواعيده، أية سعادة إذن أن يقيم معي وأقضي بجواره ما أشاء من أوقات!

وطوال اليوم التالي، وأنا أقوده إلى دورة المياه، وأنا أقرأ له وأكتب ما يمليه علي، وأنا أطعمه ونحن نأكل وأسرح له شعره حين يغتسل. كنت أفعل هذا بحماس التائب، بحماس الضال حين يعود إلى حظيرة الايمان وبحب ممزوج بشفقة غريبة بدأت تتسرب إلى نفسي.. الشفقة على البارودي الذي لم أكن أتصور أبداً أن يأتي عليه يوم يصبح فيه محل شفقة أحد، وبالذات محل شفقتي أنا.

ولكن اليوم ما كاد يقترب من نهايته حتى بدأت أدرك فداحة الموقف الذي وضعت نفسي فيه، في الرابعة والنصف دق جرس الباب، وكنت أعرف أنها سانتي.

وبدأت أفيق.

أو بالأحرى بدأت مرة أخرى أروح في الغيبوبة التي اعترتني منذ عرفتها.. غيبوبة علاقتي بها.. تلك الغيبوبة التي قطعها لفترة وجيزة خروج البارودي.. الغيبوبة التي أصبح فيها مجرد كائن لا يربطه بالحياة إلا تلك الساعات القليلة التي يقضيها يتحدث فيها معها أو يتخيلها حين تغيب، ويحلم بها، وكان لا بد أن أفتح الباب.

واستأذنت منها أن تنتظر لحظة.

البيضاء

ولم أتردد. قلت للبارودي ان قريبة لي قد جاءت تزورني واستصحبته إلى الغرفة الداخلية وهو مستسلم لا يضايقني منه إلا ابتسامة عادية جداً لم تبرح فمه، وهو يستند إلى ذراعي في طريقه إلى حجرة النوم الداخلية.

وجلست مع سانتي ولم تكن الجلسة ممتعة لكلينا. كانت قلقة وكنت قلقاً، ويبدو أنها أدركت أنني أعانى من حرج ما فقالت على الفور:

ـ هل عندك أحد؟

ـ عندي البارودي. . هل تعرفينه؟

وترددت هنيهة بين أن أكذب أو أقول الحقيقة، وأخيراً قلت:

ـ ولمحت اصفراراً مفاجئاً خفيفاً يلون وجهها لومضة، وقالت بصوت شابه بعض التغيير وكأنما لونه الاصفرار:

ـ سمعت عنه كثيراً. . ولكني لم أقابله.

وبأسرع مما خمنت وجدت اللهفة تعود تنتابها، والشغف يكاد يفقدها سيطرتها على نفسها وهي تقول:

ـ كيف هو؟ يقولون أنه رفيع وذكي جداً. . هل هو عبقري صحيح؟ هل ممكن أن أراه؟

قلت لها وأنا أريد أن أخيب أملها عن عمد:

ـ طبعاً غير ممكن.

ويبدو أن كلماتي ولهجتي فعلت فعلها فلم يلبث حماسها أن برد وذهبت اللهفة عنها، وقالت بعد فترة صمت وهي تفتعل عدم الاهتمام:

ـ سمعت أنه خرج أعمى من السجن. . هل صحيح؟

كان السؤال بسيطاً وطبيعياً، ولكني لم أكن أستطيع الإجابة عليه فمنذ عرفت الخبر وهاتف قوي داخلي يلح علي ويؤكد لي أن البارودي لا يمكن أن يكون فد فقد بصره حقيقة داخل السجن. أما لماذا يفعل هذا ويدعي العمى فسؤال لم أكن أجرؤ على مواجهته ومحاولة الاجابة عليه، إذ

معناه أن أكفر بالبارودي وبكل الطريق الذي سلكته ردحاً طويلاً من الزمن وعدت أسلكه بحماس أشد، ولم أكن أريد أن أكفر به وبالطريق، ولكني في نفس الوقت لم أكن أريد أن أخدع نفسي وأخالف ضميري.

فقلت لها وأنا أبتسم: يقولون هذا.

قالت: وأنت؟ ألم تره؟ هو هل أعمى فعلاً؟ هل فقد بصره؟

قلت بضيق قليل: يبدو هذا.

قالت باستنكار: يبدو؟ ألا تعرف أنت؟

قلت: نحن بانتظار تقرير أحد الأساتذة.

وحاولت أن أغير الموضوع. وكانت المحاولة صعبة، فلم يكن عندي موضوع حقيقي جديد أستبدل به الحديث. الوضع بيني وبينها كان قد وصل إلى حد معين، ذاك الحد الذي يصبح فيه الكلام نوعاً من السفسطة والتفاهة، كان مفروضاً بعد المشهد الذي حدث بيننا إما أن تنتهي علاقتنا عند هذا الحد ونفترق، أو أمضي معها إلى آخر الشوط فتستمر علاقتنا إنما على مستوى آخر غير المستوى الذي كانت فيه.. ولكن علاقتنا لم تنقطع وأيضاً لم تنتقل إلى هذا المستوى، وظللنا في فترة الترقب والانتظار التي تتبع أي هجوم فاشل. علاقات الحب هي الأخرى تنمو كما ينمو الكائن الحي ولا بد أن تستمر تنمو، وكل مرحلة من مراحل نموها لها خصائصها والحديث يصلح لعلاقات الصداقة أو المعرفة الجديدة. أما وقد وصل الموقف بيننا إلى تلك المرحلة الحرجة، أنا أصارحها بحبي وهي تقف موقفاً مائعاً لا تريد أن تقبله ولا تريد أن ترفضه. فأي حديث يصلح لهذا الموقف؟ لا بد أولاً من حسم الأمر والانتهاء من هذه النقطة لنصعد بعلاقتنا درجة أخرى، ونتبادل أحاديث من نوع آخر.

البيضاء

وهكذا كان الحال بيني وبينها هذه المرة، نظرات أصوبها إليها أحاول أن أقول بها كل ما لا يستطيعه لساني، وتهويمات حول حبي لها من بعيد أحاول بها أن أدفعها بتؤدة ورقة لأن تتكلم هي عن علاقتنا، ولكنها تدرك بالغريزة كنه نظراتي وتهويماتي، ولا تفعل شيئاً أكثر من أن تبتسم بملامحها الشديدة الدقة الشديدة البياض. ابتسامات محيرة، ابتسامات مراقبة، لا تريدني أن أعتقد أنها تشجعني أو تثبطني، ولكنها تترك لي حرية أن أبدأ ثم أتراجع، وأتقدم ثم أتأخر، وأرتبك وأتلعثم، وأحياناً أفلح في نطق بضع جمل متكاملة لها معنى.

وغيرت هي الحديث مرة وسألتني: هل رأيت شوقي أخيراً؟

وكنت قد رأيته طبعاً، فعملي معه يحتم علي أن أراه عدة مرات في اليوم ولكني قلت: كويس.. ولو أني لم أره من مدة.

لا أعرف لم كذبت، ولا أعرف أيضاً لم رحت أتحدث عن شوقي معتمداً أن أشيد بمواهبه وشخصيته وحبي له.

ولكني كنت في أثناء حديثي عنه أفكر بطريقة أخرى، لماذا تسألني عن شوقي، ربما لتخلق موضوعاً للحديث، وربما لأنها لا تراه، وربما لأنها مشتاقة إليه.

وعند هذه النقطة الأخيرة بدأت ملامحي تتجمد.

وبدأت أنظر لها نظرات الزعل الخافت المستطلعة التي تريد أن تسأل ببراءة ودون أن توجه إليها تهمة السؤال.

ولم أجد في ملامحها شيئاً. كل ما وجدته تعب. كانت ملامحها تبدو تعبة وكأنها لا تجد شيئاً ينشطها.

وكان علي لكي أنشطها وأستثيرها أن أبدأ معها محاولة جديدة، ولكني سررت فوجود البارودي في الحجرة المجاورة كان عذراً وجيهاً أقنع به نفسي بعبث المحاولة.

وحين آن الأوان وتهيأت لمغادرة الشقة، حرصت على أن أسألها متى ستجيء ولم أكن في العادة أسألها، وحين أجابتني: غداً طبعاً. . استعدت إجابتها وقلت وأنا أشد عليها: لا بد أن تأتي.

وابتسمت وفتحت الباب وخرجت.

وجاء البارودي إلى حجرة المكتب وهو يستند إلى حائط الصالة ويتعرف على الباب والمقعد، ولم أشأ أن أساعده ورحت أراقبه وهو يتحسس طريقه وكأنما لأدرك من طريقته في تلمس الأشياء، هل هو أعمى فعلاً أم يمثل دور أعمى.

وجلسنا نتحدث وأنا أحملق فيه بعيني، وعيناه مفتوحتان إلى آخرهما تحملقان في، وأبتسم فجأة لأرى إن كانت ملامحه ستتبدل تحت وقع ابتسامتي ويكون معنى هذا أنه يراني، ولكن ملامحه لا تتبدل، ومع هذا أبقى غير مصدق أبداً أن عينيه هاتين لا تريان. . عيني ذلك الذكي الداهية الذي ما رأيت في حياتي أذكى ولا أبرع ولا أخطر منه.

قال لي، وكانت له طريقته التي لا يبذل فيها أي جهد لاستخراج أية معلومات يريدها مني، قال:

ـ هيه. . وازاي قريبتك؟

وضحك.

ما فائدة أن أكذب وهو حالاً سيعرف، فقلت:

ـ دي صديقة أجنبية.

قال:

ـ وجاية ليه؟

قلت:

ـ باساعدها في اتقان اللغة العربية.

ـ هيه. .

البيضاء

همهم هكذا وهو يهز رأسه وملامحه هزة كنت أعرف ما تعنيه جيداً.
وقال كأنما يحدث نفسه:

ـ أيتها اللغة العربية، كم من الجرائم ترتكب باسمك؟

وضحكت على مضض لأجعل ما قاله يأخذ شكل النكتة، وضحك هو الآخر،ولكني كنت متأكداً تماماً أنه يتكلم جاداً ويعني ما يقول. وقطع مرة كلامه الجاد الهازل وقال لي بلهجة مغايرة:

ـ إذا كنت عايز رأيي، بيتهيأ لي أن أحسن بلاش حكاية العربي دي.

قلت باستغراب واستنكار ودهشة، والدهشة وحدها كانت مفتعلة:

ـ ليه؟ اشمعنى؟

قال:

ـ دي لخبطة دي بيتك مطروق وأنت معروف وناس كتير بييجوا هنا دي لخبطة دي.

وسكت.

وسكت أنا الآخر، فقد كان من المستحيل علي أن أقتنع أنها لا يمكن أن تجيء. فليفعلوا أي شيء، ولكن لا بد أن تجيء سانتي كل يوم كما تعودت أن تجيء.

وبدأ إحساسي بالضيق من البارودي ووجوده معي في المنزل يزداد إلى درجة بدأت أفكر معها في وجوب التخلص منه والعودة الى الحرية الوحيدة التي لا أريد سواها، حريتي في أن أقابل سانتي في مكان آمن خال.

ولم يكن التخلص من البارودي بالأمر السهل، فقد كنت أريد أن أفعل هذا دون أن يشعر أو يحس أني دبرت هذا الأمر أو أن لي فيه يداً ونوبة صغيرة من تأنيب الضمير راودتني،فقد كنت أعرف أن لا مكان لإقامته، لا مال لديه، ولكن أي شيء في الدنيا كان لا يمكن أن يحول بيني وبين لقائها.

وكتبت خطاباً لوالدتي وأختي أدعوهما للقدوم إلى القاهرة للتفرج على المعرض. وحين كنت ألقي الخطابات في صندوق البريد تنبهت إلى حقيقة ما أفعله. البارودي الذي كنت على استعداد دائم للتضحية بروحي وبكل ما أملك من أجله. هأنذا أدبر عن عمد وإصرار طرده من البيت وهو خارج من السجن مفلس أعمى. وأدهى من هذا أني لا أتردد فيما أفعله ولا أستطيع التردد،وكأني أتصرف رغم إرادتي. ولا أقول رغم إرادتي مجازاً ولكنها الحقيقة، فقد كنت لا أملك منع نفسي من عمل ما أقوم به، كالميت من الظمأ حين يضحي بأعز الناس لديه، بابنه حتى، في سبيل أن يبلل شفتيه بجرعة ماء، وكأنه قد تولد بينه وبين الماء انجذاب أخطر من أي قوى طبيعية، انجذاب يصل إلى درجة الجنون والتوهج انفس الدرجة التي تحدث الشرارة الكهربائية بين قطبين، أية إرادة تستطيع أن تمنع حدوث أي شيء وقد وصل الأمر درجة التوهج؟

بعد أن ألقيت الخطاب في الصندوق لم أحس إلا بنوبة صغيرة أخرى من تأنيب الضمير، ونوبات تأنيب الضمير كلما قمت بعمل أشك في صحته كانت تطول عندي وتطول. وكمن يتبين الشيء وهو على الحافة الكائنة بين اليقظة والمنام. أدركت بذهول قليل أني قطعاً لم أعد نفس الشخص. أن علاقتي بسانتي غيرتني. لم أعد أنا. يحيى لم يعد يحيى. أصبح يحيى الذي يريد سانتي وبلا إرادة لسانتي لا يكون يحيى. لا أكون أنا. لا أكون حياً. لا أستطيع أن أحيا إذا لم أردها.

وخفت.

أحسست بأخطر ما يمكن أن يحس به إنسان. أحسست بأن حياتي ووجودي كله يعتمد على شخص آخر، أو على رغبتي في هذا الشخص الآخر. تصور حين تحس أن حياتك أنت تعتمد على استجابة شخص آخر لك، وكأنكما جنينان يعتمدان في حياتهما على حبل سري واحد! ماذا يحدث

لو أراد الشخص الآخر أن يستقل بوجوده؟ ماذا يحدث لو لم يستجب هذا الشخص الآخر لرغبتك ونفر منـك؟ ألا يكون هذا يقطـع حبـل حياتـك نفسها؟ يقتلك؟

أحسست بالخطر، بل بأغرب خطر تعرضت له حياتي مذ وعيت، خطر أخطر ما فيه أن شعورك به يزيد الأمر خطورة. . لأنه يزيد من ارتبـاكك ويزيد من عدم ثقتك بنفسك وذوبان شخصيتك، ويزيد من خوفك على علاقتك بهذا الشخص، وبهذا يزيد من احتمال أن تنقطع علاقتكما، فأحياناً لا تنقطع علاقتنا بالآخرين إلا لخوفنا من أن تنقطع.

روعني أنـي أدركت أخيراً أن علي أن أواجه ذلك الأمر الذي كنت دائماً أريد أن أتجاهله. . أدركت أنـي خائف خوف الموت أن تنقطـع علاقتـي بسانتي، وأني في سبيل هذا مستعد أن أفعل أي شيء. والمصيبة أنـي قد أفعل أي شيء وكل شيء ومع هذا تنقطع علاقتي بسانتي، لأن علاقتي بها لم تكن تتوقف على بطولات أو تضحيات أقوم بها، ولكنها كانت تتوقف عليها هي وعلى مزاجها ورأيهـا. والرأي والمزاج أشياء لا يمكن لشخص غير صاحبها أن يتحكم فيها، بل حتى صاحبها نفسـه أحيانـاً لا يستـطيع أن يتحكم فيها. أليس من المعقول إذن أن يتولاني الرعـب حـين أحس بأن حياتي، بل ما هو أكبر وأغلى من حياتي، بالعالم نفسه بالنسبة إلي، كل ذلك متوقف على مزاج سانتي، بل حتى لا يتوقف على مزاجها وإرادتهـا وإنما على قوى وعوامل غامضة لا يمكن التنبؤ بحكمها أو بما يؤدي إليه؟

ألقيت الخطاب في الصندوق وعدت إلى البيت، وطوال الطريق كنت أصمم وأقسم وألح على نفسي وأشتمها وألعنها وأطلب من إرادتي كلها أن تتجمع ومن كياني كله أن ينتفض، ومن ماضي وذكرياتي وكل شيء يخصني في هذا العالم أن يأتي لنجدتي ويساعدني لأستطيع أن أتخلص من علاقتي

بها ، أو على الأقل لأقاوم علاقتي بها . . أقاومها وكأني أقاوم طاعوناً أبيض غير مرئي يتقمص روحي .

وكالعادة وكما كان يحدث دائماً ، أحسست مثلما كنت أحس في كل مرة أدرك فيها شيئاً كهذا أني قوي قـوة لا حد لها . وأني أستطيع أن أقاوم أي سانتي فأمحو صفحتها من نفسي مهما كانت صفحتهـا ، وأتحـرر ـ أجـل ـ أتحرر ، وأعيش ـ أجل أعيش . فكيف أكون حياً إذا كانت إرادتي في أن أحيا ملغاة ، وإرادة شخص آخر ،ولتكن سانتي هي التي تقرر مصير حياتي؟

والمشكلة الكبرى أنني كنت أنا الذي صنعت بنفسي كل هذا ، وصنعته بإرادتي . قيدت نفسي إليها بإرادتي ، وبإرادتي أريد أن أكسر قيودي ، فمن أين آتي بإرادة لي تلغي إرادتي؟ وكيف أحطم بنفسي بنياناً لا تملك نفسي إلا أن تبنيه وتستمر تبنيه .

فلأثـر إذن ما شاءت لي الثورة ، ولأحس بنفسي قوياً ، وبإرادة جديدة تنبعث في نفسي ، فأنا خير من يعرف أن هذه كلها إن هي إلا انفعالات وقتية لا يمكن أبداً أن تصمد لتجربة .

بنفس هذه الروح وصلت البيت ، وبنفسها أيضاً بدأت نقاشاً جاداً مع الباروي ، واختلفنا اختلافاً جذرياً هذه المرة . . اختلافاً أدركت معه أننا لو مددنا خطوط تفكيرنا إلى آخرها لوجدناه يؤمن بطبقية التفكير مع أنه يطالب بالغاء الطبقية في المجتمعات . كان الخلاف حول سياسة المجلة .

وكان من رأيه أننا يجب ألا نخضع للنزوات الوقتية للجماهير، ولكن علينا أن «نقود» الجماهير إلى الأهداف التي نؤمن بها . والحقيقة أني كنت قد بدأت في الفترة الأخيرة ، وخاصة بعد عملي في الورش واحتكاكي المبـاشر بالعمال ، بدأت لا أؤمـن كثـيراً بخدعــة «قيادة» الجماهــير هذه لتحقيق الأهداف التي نؤمن نحن بها .كل من هب ودب يدعي أنه يقود الجماهير

البيضاء

لمصلحتها التي أدرك بفطنته وبعد نظره كنهها، والمنادون بهذا في كل الدول والبلاد يتنافسون في الأهداف المثالية التي يريدون أن يقودوا الجماهير إليها.. عوالم أفضل، مجتمعات بلا مشاكل، ديموقراطية كاملة، دنيا بأزرار.. كلها أهداف جميلة ورائعة جدا.. والكل يعمل لمصلحة الجماهير وباسم الجماهير، ولا أحد يتفضل ويسأل هذه الجماهير عن كنه ما تريده هي. كلهم يعتبرون الشعب مجرد طفل قاصر لا يعرف مصلحته، ويعينون أنفسهم أوصياء عليه بالزلفى وبالقوة، حتى ليصبح الخارج على إرادتهم خارجاً على إرادة الشعب، والمعارض خائناً لمصالح الشعب.

ذلك رأي، ولكن هناك رأياً آخر لا يقر مبدأ الوصاية على الناس باعتبارهم قاصرين، إذ حتى الجاهل منهم أكثر فهماً لظروفه ومصالحه ممن يزعم لنفسه أنه أفهم منهم وأوعى، رأي يرى أن «التقدم» ليس هو في جر الناس جراً لتحقيق أهداف نضعها نحن لهم،ولكن التقدم الحقيقي هو أن نهيىء للناس فرصاً أكبر وأوسع لكي يحددوا أهم أهدافهم ويسيروا نحوها بالسرعة التي يرونها تتناسب ومقدرتهم، بأن نرفع العقبات من طريقهم بأن تصبح لديهم مجالات أوسع للاختيار والتفضيل.

التقدم ليس هو أن نفرض على حقل من الزهور أن ينتج لنا كمية معينة من الرحيق في كمية محددة من الوقت.. التقدم هو أن نهيىء الفرصة لكل زهرة في الحقل كي تتفتح، كي تصبح أولاً زهرة، فإذا ما تفتحت كل الزهور ربما حصلنا على رحيق أكبر وأكثر تنوعاً.. ربما حصلنا على أنواع منه لم تخطر لنا ولا كان باستطاعتنا أن نحددها قبل أن توجد.

شيء جميل أن تعي الأزهار أنها منتجة للرحيق، ولكنه خطير في نفس الوقت، فإنتاج الرحيق وظيفة واحدة من وظائف الأزهار. فإذا كرست الأزهار نفسها من خلال هذا الوعي الواحد الضيق لكي تصبح مجرد آلات صماء لا عمل لها إلا إنتاج الرحيق، فاقل ما يحدث هو أن تتوقف بقية

وظائفها الأخرى، يتوقف تطورها، يتوقف تكوين الثمار والبذور. . وبهذا تتحول من مجرد أزهار، مجرد حلقة في سلسلة متصلة الحلقات من عمليات النشوء والتحول والارتقاء، إلى عامل معطل، يصبح الوعي المحدد الناقص في النهاية سلاحاً يصيب الأزهار نفسها أول ما يصيب.

باحتداد النقاش بدأت أتبين أن خلافي مع البارودي خلاف أساسي هو يرى أن وعي الإنسان بنفسه يجب أن يكون هو القيمة العليا، وأنا أرى أن الإنسان نفسه بوعيه وبلا وعيه وبصوابه وخطئه هو القيمة العليا. . المشكلة في نظره هي الغاية والمبادىء بصرف النظر عن الوسيلة لتحقيقها والمشكلة في نظري هي الناس الذين سيحققون هذه المبادىء، أو يحققون غيرها، هو يرى أن نسخر الناس لتحقيق الأهداف التي رسمناها لهم، وأنا أرى أن نسخر أنفسنا لتحقيق أهداف الناس مهما بدت ساذجة في نظرنا وقصيرة المدى. هو يرى أن الناس أقل وعياً منا، وأنا أرى أن وعينا مهما بلغ ليس أكثر من قطرة في محيط وعي الناس باعتبارهم جسد الحياة وعصبها الأكبر.

هو يقول: قيادتنا للمجلة لا تعجبكم وتريدون أنتم أن تتولوا أمرها أنتم بهذا تتجاهلون أننا أكثر منكم خبرة وثقافة ووعياً.

وأنا أقول: معنى هذا أنكم ممكن أن تظلوا ترأسون التحرير إلى الأبد لأنه لا يمكن أبداً أن ينشأ جيل يصبح أكثر منكم خبرة وثقافة ووعياً لأنكم دائماً ستظلون السابقين.

فيقول: وما الضرر في هذا؟

فأصرخ: الضرر أنكم بهذا تنصبون أنفسكم قادة أبديين لنا. . الضرر أنكم تدعون احتكار الوعي واحتكار الخبرة والثقافة، وتطلبون من الناس أن يسلموا بولايتكم الأبدية هذه. . بلا نقاش أو جدال.

فيقول: الضرورة التاريخية تحتم هذا.

فأقول: الضرورة التاريخية؟ . . خاتم الملك الذي باستطاعة أي منا أن يضعه في أصبعه ليعطي نفسه الحق في الجلوس على العرش، فإذا حاول أحد أن يسأله أو يناقشه اتهمه بالوقوف في وجه حقه المقدس، في وجه الضرورة التاريخية. . أنت مثلاً غبت في السجن سنوات جرت فيها أحداث وتبدلت أحوال، ومع هذا تصر على أنك أوعى بما حدث منا، ونحن الذين عشنا هذه السنوات ومشاكلها، فإذا جرؤنا على معارضتك أصبحنا متمردين على القيادة نعترض طريق التطور والتاريخ. القيادة في نظرك هي إرادة التاريخ هي وراثة الحق الإلهي في حكم الناس، هي المنزهة عن الخطأ.

قل لي بربك: لو أخطأت هذه القيادة مثلاً، أو لو خانت وتواطأت مع الأعداء، أو انحرفت عن الطريق فمن يبصرها، ومن يحاسبها، ومن يقول لها لا؟ وهي التي باستطاعتها، ومن حقها أن تفصل وتدمغ وتتهم أي خارج عليها،وبهذا تضمن لنفسها بقاء أبدياً لا يعكره معارض أو محاسب.

وضاق البارودي بالنقاش وقال: اسمع . . نحن نتناقش على أساس خاطىء، فليس مفروضاً أن تخون القيادة لأنها حينئذ إنما تخون نفسها وأيضاً ليس المفروض أن تخطىء فإذا أخطأت فعليها هي أن تكتشف الخطأ وتصلحه. هي العقل المفكر إذا أردت أن تقول هذا . . وعلى العموم أنا غير موافق أبداً على الروح التي تناقشني بها، والتي لا تتحدث فيها بالاحترام الواجب عن قادتك وقيادتك.

وأصبحت بإجابته هذه أكثر ضيقاً، بل بدأ شيء باهت يتسرب إلى نفسي ويوسوس لي أن البارودي ليس فقط مخطئاً في رأيه، ولكنه يخطىء عن عمد ولأهداف خفية. وما العمى والإفراج وادعاء المسكنة والإفلاس إلا أجزاء متكاملة لخطة واحدة.

وكنوبة الغروب التي يطلقها نفير البحرية، وبحزن مندى بالعتب والغضب والاستنكار، وجدت الخاطر يعود ليطرق عقلي.. أيمكن أن يكون البارودي قد أفرج عنه في هذا الوقت بالذات، وقد كدنا نضع أيدينا على المجلة وسياستها ليحول بيننا وبين ما نريد، وليعود التيار المتهافت القديم يسيطر على المجلة من جديد؟

وفتحت فمي أسأله سؤالاً ولكنه قال:

ـ أرجوك.. أسمعنا موسيقى أفيد.

ورحبت بالاقتراح الذي أعفاني من مهمة السؤال، ومن تلكؤ الخاطر أطول من اللازم في عقلي.

ولم تفعل الموسيقى أكثر من أنها مضت ـ كنار المدفأة الهادئة أو كحرارة أفران الخمائر ـ راحت تسوي أفكاري على مهل وتنضجها وتساعد على تفاعلها. أشياء كثيرة أصبحت تشغل بالي، أشياء ليست متعلقة بالمجلة وسياستها فقط، ولكنها عموميات تبدو المجلة جزءاً صغيراً من أجزائها.

هذا النقاش الذي دار مع البارودي أنا نفسي كنت أعجب له، لم أكن قبلاً أفكر هكذا، بل قبلاً لم أكن «أفكر» أبداً. كنت أحيا كالسهم المطيع المندفع، ولكني أردت أم لم أرد ـ هأنذا قد وصلت إلى مرحلة بدأت أفكر فيها. لم أعد أهضم إقدامي على عمل ما لم أكن مؤمناً تماماً بصحته وأمثالي لا يرحب بهم أمثال البارودي كثيراً. أنهم متعبون، أو كما درجوا على تسميتهم «مثقفون ليبراليون» يفكرون لأنفسهم بأنفسهم، وهم يريدون جنوداً وعساكر لينفذوا فقطما يفكرون هم فيه، ويريدون جيشاً هم وحدهم أصحاب الحق في أن يفكروا له، وما على البقية إلا السمع والطاعة، يريدون «جسداً» لهذا «العقل المفكر».

وحتى حين أمرت نفسي بالتنازل عن كل آرائها وأفكارها وعدت كنت

أخدع نفسي. فمن تعوَّد أن يفكر لا يمكنه أبداً إلا أن يظل يفكر، بل ما أكثر ما تمنيت أن أناقش البارودي مرة مثلاً فيقنعني بخطئي وأعود كما كنت. ولكن نقاشي معه كان يزيدني اقتناعاً بصوابي وبضرورة أن أستمر في طريقي. ورغم هذا أظل أتمنى أن يثبت في النهاية أني أنا المخطىء وأنهم كانوا على صواب. أتمنى أن يثبت أن خطأهم صواب وأن صوابي خطأ وأن ينجحوا هم وأفشل أنا.. ليكون هذا عزائي عن عدم قدرتي على عصب عيني وعقلي والمضي معهم في طريق واحد.

ونفس الموقف تجاه سانتي. فأنا أعذرها في موقفها مني وأعذر نفسي في موقفي منها. أنا حائر معها وهي حائرة معي، أريد استئصالها من نفسي لأريحها وأريح نفسي فلا أستطيع.. وأتعب وأتعبها معي. ثائر على ضعفي تجاهها ثورة عظمى، وثائر على قوتي التي تقف عاجزة أمام هذا الضعف ثورة أعظم. أحبها بضعفي وأريد قتل هذا الحب بقوتي فلا تستطيع هي أن تمد يد العون لتغلب ضعفي على قوتي أو تغلب قوتي على ضعفي.

وهأنذا كالتاجر الذي لم يعد يعرف مكسبه من خسارته، كلما خلا إلى نفسه أو كلما عزلته الموسيقى أو الوحدة أو الحياة عن واقعه وعما حوله أخرج دفاتره القديمة وأوراقه ومضى يعد ويحسب، ويخرج من عده وحسابه كما يخرج كل مرة دون أن يصل إلى نتيجة أو قرار.

١٨

قبل أن أغادر البيت إلى عملي في الصباح، كان شوقي قد جاء ليستصحب البارودي لحضور اجتماع على مستوى عال. وحين أصبحت وحيداً أو بعد عني البارودي بمناقشاته وملاحظاته بدأت أفكر في التراجع وفي أن أكتب خطاباً آخر لأمي وأختي أطلب فيه عدم الحضور ليظل هو معي. لا للأسباب التي أنبت نفسي عليها في اليوم السابق فقط، ولكن لأني من طريقته في نقاشه معي عن سانتي أدركت أنه لم يأخذ كلامي عنها ببراءة، وأن من المستحسن أن أنفي له ما قد يتصوره من ظنون وأن يبقى معي في البيت ليرى بنفسه أن تردد سانتي عليّ ليس فيه ما يدعو إلى الشك.

كنت قد قررت هذا، وفقط ظللت أنتظر إلى أن تتجمع جرأتي وأستطيع أن أنفذ القرار.

ولكني فوجئت بقرار آخر غير قراري، لم يكن لي على بال.

فقد عاد البارودي في الظهر مع شوقي، وتناولنا الغداء معاً. ومكث شوقي بعد الغداء قليلاً ثم مضى.

وبينا نحن نتأهب لنومة القيلولة قال البارودي وهو يخلع ملابسه:

ـ على فكرة.. سانتي دي بلاش تيجي هنا.

واستغربت لكلامه، فقد كنت أظن أن الموضوع لم يأخذ من انتباهه

كل هذا القدر. وقد تأكدت أنه أخذ مجيئها على المحمل الذي لم أكن أريده أن يأخذه عليه. وأحسست بالضيق وعدت مرة أخرى أشرح له أن ما تجيء من أجله لا يتعدى السبب الذي ذكرته له، ودارت المحاورة التي ذكرتني بالكثير من المحاورات التي كانت تدور بيني وبينه حين يكون الحق بجانبه في الظاهر وأكون أنا عاجزاً عن انطاق حقي فيفحمني، وأحاول الصمود ويعود فيفحمني فأزداد استمساكاً بموقفي.

وقال وكأنما يريد أن ينهي النقاش:

ـ على العموم ده مش أمر مني. . ده مجرد رأي بقوله لك وأنت حر.

وكان معنى هذا أن كلامه أمر غير رسمي. وأدركت أني كنت على حق في الحيلة التي لجأت إليها للتخلص منه.

ومضى يومان طويلان لم أر فيهما سانتي، إذ كان لا يمكن أن أراها والبارودي موجود. لورا هي التي جاءت أكثر من مرة، ولم يزحزحها عن الدخول وجود البارودي ولا تعليقاته الساخرة على بيتي الذي أصبح مدرسة وأصبح في حاجة إلى ناظر.

وخلال اليومين كنت أنتظر مجيء العائلة بصبر نافد، وأخيراً وفي صباح اليوم الثالث جاءوا. وكانت المقابلة الصاخبة وضجة الترحيب المعتادة. وفوجئوا بوجود البارودي في البيت، ولكن البارودي لم يفاجأ بمجيئهم بل لم يبد عليه أية بادرة تدل على أن في نيته مغادرة البيت، وكان من الطبيعي جداً أن يحيا معنا وفي وجود أخواتي البنات.

غير أنه قال لي حين انفردت به:

ـ أظن مفروض أني أمشي.

ولم تعجبني الطريقة التي سألني بها، فقد كان واضحاً أنها طريقة من يتوقع أن تجيبه بقولك مثلاً:

ـ لا . . لا داعي أبداً لهذا .

وفي إجابتي له حاولت أن أحوم حول الموضوع وأفهمه بطريقة غير مباشرة أن للقاطنين في الأرياف تقاليد، وأننا لسنا متحررين إلى هذه الدرجة.

وفهم البارودي أن عليه أن يغادر البيت.

وحين جاء شوقي بعد الظهر ناقشنا المشكلة، وقررنا أن ينتقل ليقيم مع عطوة في بيته. وخرجا سوياً وشيعتهما إلى الباب وأنا أحس بارتياح عميق فرغم كل ما فعلته ودبرته كان يخيل إلي في أحيان أن مغادرة البارودي للبيت مسألة مستحيلة، وإذا حدثت فلا بد أن تتم بمعجزة.

وعدت إلى العائلة الصغيرة، أمي وأختي الكبرى محاسن وأخي صفوت وعواطف الصغرى. . وتحدثنا، وتأملوني كعادتهم وتأملوا صحتي وشقتي وما استحدثته فيها من تغيير. وفرَّجتهم على المعرض وأدخلتهم السينما وتعشينا، وكنت أفعل هذا كله من وراء نفسي، إذ كنت أفتش عن ذرة رغبة واحدة تدفعني لكي أفعل ما فعلت دون جدوى، كنت طوال الوقت معهم وطوال الوقت أتمنى لو انتهت زيارتهم فوراً لكي يصبح في استطاعتي أن أقابل سانتي.

وحين عن لهم أن يقضوا يوماً آخر بدأت تصرفاتي معهم يشوبها نوع من الجفوة كانت تصدر مني رغماً عني، وأؤنب لها نفسي كثيراً، ولكني لا أملك منعها ولا التحكم فيها. ويبدو أنهم أحسوها أخيراً، ففي اليوم الثالث وجدتهم يوقظونني في الفجر. وحين صحوت وجدتهم جمعوا حوائجهم وارتدوا ثيابهم وإن كان النوم لا يزال يملأ عيون الصغيرة عواطف. كانوا قد تهيئوا للعودة ولم يبق إلا أن يسلموا علي. وقلت كلاماً فاتراً سخيفاً كثيراً عن ضرورة بقائهم أياماً أخرى، وأن هذا لا يصح، وأقسمت عشرات

الأيمانات آمرهم بها أن يلغوا مشروع السفر و. . و. . الخ هذه الأقوال الجوفاء التي نرددها في لحظات كتلك ولا نعني بها شيئاً، فقد كنت في قرارة نفسي أتمنى ألا يتراجعوا وأن يظلوا ماضين في مشروع السفر إلى نهايته.

ولم يتراجعوا. سلموا علي وهبطوا في السلالم شبه المظلمة، وهبطت معهم لأوصلهم إلى التاكسي وأنا أؤنب نفسي تأنيباً حاداً مريراً إذ لا أجد لدي أدنى رغبة أو إرادة تدفعني لتوصيلهم للمحطة.

وحين ركبوا العربة، ومضت ولم أعد أرى منهم سوى أيد خارجة من النوافذ تلوح ووجوه تطل علي من خلال الزجاج الخلفي وتلمع عيونها ببريق الوداع الخافت، أحسست أني أريد أن أبكي، وأني مجرم عاق، وأني أستحق كل ما يحدث لي من عذابات ومشاكل.

وعدت إلى البيت وضميري والدموع لا ترحمني. ضميري يكاد يخنقني والدموع تحتبس في حلقي وتطبق علي، أما في قلبي فقد كنت أحس بفرحة كبرى، إذ في ذلك اليوم بالذات، اليوم الذي يبدأ بنفس ذلك الصباح المبكر الجميل، سأرى سانتي وألقاها وتجلس معي، وحتماً سأعود أحدق في عينيها المشعتين بأروع ما في الدنيا. . بروحها.

ولم أكن أعلم من أين جاءني ذلك الشعور بأني سألقاها، فلم يكن بيننا موعد، ولم تكن لدي طريقة للاتصال بها، حتى عملها لم أكن أعرفه كل ما يربطني بها هو رغبتها في أن تأتي إلي.

عدت إلى الفراش أحاول أن أعود إلى النوم ولكني لم أستطع، كانت الساعة تقترب من السادسة صباحاً، ولكي أقابلها في كامل قواي العقلية والنفسية بعد الظهر فلا بد أن أكون قد نمت نوماً عميقاً، وأنا قد أويت إلى الفراش متأخراً في الثالثة أو الرابعة ولم أنم سوى ساعتين. عبثاً حاولت أن

أرغم نفسي على النوم، ووجدت نفسي أعود وأرتدي ملابسي وأغادر البيت وآخذ طريقي إلى النيل.

كانت الشوارع خالية أو تكاد، وأنوار مصابيحها مطفأة، والأتوبيسات قليلة ونادرة ونورها مضيء، والسكون مطبق لا تقطعه سوى قلقلة من هنا أو هناك لعربة كارو قادمة حاملة الخضار إلى المدينـة النائمـة، والنسمات طازجة لم يستنشقها أحد بعد. . نسمات يوم جديد. . يوم تخلصت فيه من كل ما كان يعوق لقائي لها، ويوم أنـا حر فيه لأراهـا. يا إلهـي! حريتـي تضاءلت فلم أعد أريدها لأسافر أو أكتب أو أتكلم، أريدها فقطمن أجل أن ألقاها. وأنا الذي اعتبرت في لحظة ما أن حبي لها يقيدني، وسخطت على هذا القيد وأردت تحطيمه وتحرير نفسي، أين أنا الآن؟ ها هي ذي سعادتي الكبرى أن أصبح حراً في تقييد نفسي بها. لا بد أننا كائنات معقدة جـداً أكثر تعقيداً من كل تلك النفوس المنبسطة المسطحة التي نراها ونقرأ عنها في الروايات والكتب، فهناك نلتقي بالعواطف والانفعالات وقد استخرجت ونقيت وصنعت منها كتل ضخمة ظاهرة للعيان، وما أبعد هذا عن نفوسنا وهي دائرة في تلك الحياة! ما أبعد هذا عنها وهي تحس في اللحظة الواحدة بعشرات العواطف وتتجاذبها عشرات النوازع، وتصدق وتخدع وتمر وتشف وكل ذلك في لحظة، الحب! هأنذا وأنـا سائر على شاطـىء النيل أتنفس بعمق، وأحب الصبح الباكر والنهر الدافق الممتد وطقطقـة العجـلات في عربات الكارو من بعيد، ونداءات باعة الفول، وصوصوة العصافير، أجد الكون كله مملوءاً بكلمة ضخمة، كلمة حروفها كل الكائنات والأشياء، كلمة «أحبها» وليست كلمة صافية، إنها كلمة معقدة مركبة كالكلمة حين نكتبها ونعيد الكتابة فوقها، كلمات بعضها فوق بعض، كلمات مثل: أنا سعيد بحبي لها،لا بد من قطع علاقتـي بهـا الآن، ليس قليلاً أن أهب

عمري كله لكي أحبها، لا يجب علي أن أراها. أنا مشتاق إليها. أنا أحبها لأني أحس أنها لا تحبني، أنا أحبها لأنها تحبني، كلمات بعضها فوق بعض تكاد من تعقيد تركيبها أن تطمس، ولكنها تكون بتعقيدها تلك الحقيقة الكبرى التي تجعلني سعيداً بالصباح الباكر، سعيداً بأني حي أعيش هذه اللحظات، سعيداً لأنه في مكان ما من تلك المدينة الكبيرة لي فتاة اسمها سانتي، إنسانة دقيقة صغيرة هائلة، في مكان ما من تلك المدينة لي حبيبة.

ظللت أمشي حتى تعدت الساعة الثامنة وأشرقت الشمس. أشاهد كل شيء وأحس به جميلاً من غير أن أراه، إذ في الواقع لم أكن أرى شيئاً بذاته أو لذاته. كانت سانتي هي أجمل ما كنت أراه في أي شيء، كلما أحسست بالجمال في الماء أو الشمس أحسست بها، وكلما أحسست بها رأيت الجمال فيما أنظر إليه ولو كنت أحدق لحظتها في أقبح الأشياء.

١٩

ورغم كل تلك التفصيلات فلا أستطيع أن أجزم إن كانت قد جاءت في ذلك اليوم أم لم تجيء، فمنذ ذلك الوقت وصور الأحداث في ذاكرتي أبقى أثراً من مواعيد حدوثها، ومع هذا فهي ليست أحداثاً كثيرة أو عظيمة الأهمية. إنها بسيطة إلى درجة لا يستطيع معها الإنسان العادي أن يصدق أنها كانت وقائع مأساة كاملة، فقد تعودنا أن تراق في المآسي الدماء وتزلزل الزلازل وتنفجر البراكي.

كل ما حدث أني بدأت خلال مقابلاتي التالية لها أحس شيئاً لم يكن موجوداً، كانت مقابلاتنا السابقة تتم بلهفة.. لهفة من جانبها ولهفة من جانبي، وطوال المقابلة أظل أتلهف على أية كلمة تخرج من فمها وتظل هي تترقب كل كلمة تخرج من فمي. أما أنا فقد ظللت على لهفتي، بل كادت لهفتي تتحول إلى نوع من السعار أو الجنون وإن كثرت محاولاتي لاخفائها أما هي فقد قل ترقبها لكلماتي أو انعدم كمن ينتظر حدوث حادث فلما طالت المدة ولم يحدث بدأ ييأس، وبدأ ينتابه شعور من اللامبالاة تجاه حدوثه، وأصبح سيان لديه أحدث أم لم يحدث. حتى مواضيع الحديث خيل إلي أننا استنفدناها كلها حتى لم يعد ثمة موضوع جديد نطرقه، أو أي جديد نطرقه يبدو قديماً معاداً لا جدة فيه، ولست أذكر متى بدأ هذا يحدث، ولكني أذكر أن سيرة شوقي جاءت مرة فلمحت بريق اهتمام

خافت في عينيها، وحرارة ما قد شملت صوتها، وهي تسألني عنه وعن أخباره.. ولاحظت مرة أنها اشترت علبة سجائر أمريكية وكان شوقي يدخن سجائر أمريكية.

وبدأت أشك.

أنا أعرف أن شوقي من نوع لا يأبه للنساء كثيراً ولا يهتم بعلاقته بهن أو باستلفات أنظارهن. لم ألحظه مرة أنيقاً ولم أضبطه مرة متلبساً بفرق ولو صغيراً بينه حين يتحدث لرجل وبينه حين يتحدث لسيدة. كان على النقيض مني في تلك الناحية، ولكن من يصلح لصرف أنظار سانتي عني إلا إنسان على النقيض مني تماماً؟ إنسان لا يبدو عليه أنه مهتم بها، إنسان غير محب للاستطلاع أو الاستلفات، إنسان يمضي في عمله كالسيف، إنسان كهذا لا يصلح سوى للتعلق به واحدة كسانتي.

وبدأت أحداث كثيرة تقع وكأنما وقعت كلها في وقت واحد. مرة دون أن أتوقع وجدتها تدق بابي وفتحت لها وجلسنا نتحدث، ولم يطل حديثنا ولم تطل فرحتي لمجيئها فقد دق الباب وإذا بالقادم شوقي، وكالشرارة لمع في ذهني خاطر. آه.. حتماً تواعدا على اللقاء عندي! وجلس شوقي وجلسنا وبدأنا نتحدث.

رحت أرقب نظراتها والطريقة التي تكلمه بها، والآن وأنا أكتب هذا قد أقول لنفسي إن البريق الملتهب الذي كنت ألمحه في عينيها وملامحها وهي تكلمه ممكن أن يكون بريقاً صوره لي شكي الملتهب، ولكني ساعتها كنت متأكداً تماماً من البريق الذي كان يشع منها كلما خاطبتني في أول علاقتنا. وفي تلك الليلة جاء البارودي يصحبه عطوة ورآنا جالسين، ومضى يعلق تعليقاته الخبيثة المغطاة. وكان لابد أن أعتذر عن مجيئها أمامه بعد ما أخبرني بأن مجيئها عندي أمر غير مستحب. وأخيراً انتقل من التلميح إلى الكلام

المكشوف، وقال ان وجودنا معاً في مكان واحد وبلا سبب ضروري مهزلة وأن على سانتي أن تذهب. ولعنته في سري آلاف المرات وأنا أتساءل عن كنه هذا العفريت الذي يركبه كلما رأى سانتي عندي، ولكنها قامت لتنزل. وطلبت من شوقي أن تكلمه قبل أن تنزل على حدة، وخرج لها شوقي ووقفت معه في الصالة قريباً من الباب، وجلست أنا والبارودي في حجرة المكتب يأتي همسهما الينا، ولا نتكلم نحن أو إذا تكلمنا أقول أنا كلمة فارغة تافهة أداري بها النار المتأججة في جوفي، أو يعلق البارودي تعليقاً خبيثاً مغطى.

وبدأ البارودي يضيق بصوت مسموع وينادي على شوقي، وسانتي تستمهله لتكمل الحديث معه. وأخيراً ذهبت وانضم شوقي الينا، ورحنا أنا والبارودي نصب عليه نظرات كاوية لاذعة وهو يقابلها بابتسامات محرجة كمن ارتكب ذنباً لا يعرف على وجه التحديد كنهه.

وكل هذا يحدث وعلاقة لورا بي تزداد، أو في الحقيقة مطارداتها تزداد تأتي كلما حلا لها المجيء. أعبس لها فلا ينفع فيها تكشير، وأعتذر فلا ينفع اعتذار، وفي فترات يأسي وضعفي أصمم على أن أسلي نفسي بها علها تفلح في اطفاء الحريق، وأعدها مثلا على أن نلتقي في الجزيرة، ونلتقي ونتمشى، وأضع يدي حول خصرها وأضحك معها، بينما مرارة قاتلة تتصاعد من جوفي لأني طوال الوقت أفكر في سانتي وخيبتي معها. ونلتقي مرة لنذهب إلى المعرض. وأفاجأ حين نقابل سانتي فوق الكوبري وتحيينا ونحييها. وأفرح لأنها رأتني ذاهباً مع لورا إلى المعرض، وأصاب بأشد خيبات الأمل لأني لم أجد في عينيها اهتماماً يذكر، وأقول لنفسي لابد أنها بعد أن نبتعد عنها ستستدير، وأظل أتلفت لألمح استدارتها فلا أجدها تستدير أو حتى تتمهل.

وتأتي سانتي لي ذات يوم صدفة، فأحس بأن زيارتها جاءت هكذا كأنما قد تعودت على زيارة مكان وانقطعت عنه مدة وتحس احياناً بضرورة زيارته بحكم العادة، أو بحكم انقطاع العادة. تأتي وأعمل لها قهوة مثل أيام زمان، ونجلس نتحدث، ويخيل إلي أن كل شيء سيعود حتماً إلى ما كان عليه، وستعود سانتي إلى حوزتي (وكأنها كانت في حوزتي)، ولأستثير اهتمامها أقول لها اني كتبت لها خطاباً، ويسعدني بريق الاهتمام الصادق الذي بدر من عينيها، وبمحاولاتها الصبيانية لتفتيش أدراج مكتبي بحثاً عن الخطاب. وطبعاً كان لا يمكن أن تعثر عليه فلم أكن قد كتبته اصلا. ولا كان في نيتي كتابته. ولكني أعاهدها أني سأقرؤه لها إذا جاءت في الغد، وقد آليت على نفسي أن أكتبه لها خلال الليل.. وأجلس على المكتب بعد ما ذهبت أحاول كتابة الخطاب ولا أستطيع، وكأن قوة غيبية قاهرة تمسك الكلمات في صدري وتحبسها ولا تستطيع ارادتي كلها بجماعها أن تخرجها وأخيراً جداً قرب الفجر، أكتب بضع صفحات لا حرارة فيها، كلها مرارة وكلها ألم وسخرية، سخرية المتكبر العاجز الذي لا يريد أن يعترف بعجزه وتهافته وضعفه.

وكما توقعت جاءت في الغد، جاءت لا كما تعودت أن تجيء... إذ كنت أحس قبلا أنها آتية هدفها الوحيد هو الجلوس معي ورؤيتي، تلك المرة أحسست أن مجيئها عندي محطة لا أكثر. مهمة تريد إنهاءها. وازداد ارتباكي. بعد مدة بدأت تتململ وتسأل عن الخطاب، وبدأت أبتسم وأحاول التخابث وأحاول أن أجرها لأحاديث زمان، أو على وجه أدق أحاول أن أجعل لحديثنا طعم الحديث أيام زمان، ولكن بدا وكأن الخطاب هو الشيء الوحيد الذي يشغلها.

وأخيراً أخرج الخطاب وأقرؤه لها، فتظل تنصت وتنصت، لا تبتسم ولا

تنفعل، وحين أنتهي تقول بلهجة جادة قليلاً: سآخذه، أليس كذلك؟ أين هذا من اندفاعها الصبياني الحبيب وهي تستولي على الخطابات السابقة عنوة وتضعها في حقيبة يدها.

وبعد الخطاب لم تجد موضوعاً للحديث، قالت لي بعد صمت: ألم تر شوقي؟ لم يعد اذن بيننا ما يقال إلا أن يكون شوقي موضوعه.

كنت أتألم وأسكت، أبتلع الألم وأزداد ارتباكاً ولا أجد ما أقول وأحياناً كنت أتطلع لها، وأراها وأرى أنها هي نفسها سانتي القديمة ولكن، وكأن شيئاً فيها كان يمت إليّ ثم لم يعد يمت إليّ، إحساس ربما بأني أنا قد أصبحت غريباً عنها مع أنها باقية قريبة جداً إليّ.

بعد ما أظلمت الدنيا بكثير قامت لتعود. قلت لها: أوصلك؟ ويبدو أن لم يكن لديها ما تفعله فقد وافقت، وكانت موافقتها مجرد استسلام لرغبتي واحساسي.

وفجأة ونحن في طريقنا إلى الباب وقفت أمامها في الصالة، وحدقت فيها طويلا.

وقالت لي بنفس طريقتها الآسرة في نطق اسمي:

ـ يحيى.. ماذا حدث؟

قلت: سانتي.

وأحسست أني أريد أن أنكفيء على الأرض وأظل أبكي حتى أختنق.

قلت: بودي لو تعرفين كم أحبك؟

قلتها بطريقة تمثيلية هازلة، مع أني كنت أتألم لمجرد أني مضطر لأن أسخر من هذه الكلمات نفسها.

وسكتت، وابتسمت ابتسامة لم أعرف كيف أفسرها.

وبدلا من أن أبكي جذبتها إلي بعنف فقاومت، فأمسكتها بكل قواي

البيضاء

ولم تتملص، ربما من شدة الألم. كانت الصالة نصف مظلمة لا يضيئها سوى النور الآتي من لمبة المكتب في الحجـرة. الشيء الـوحيد المضيء في الشقة كلها، وبين ذراعي كانت سانتي صغيرة دقيقة لو ضغطت عليها قليلا لتكسرت قطعاً، ولكني كنت أقبلها، عدداً لا نهاية له من القبلات، ومن يرانا هكذا يظننا حبيبين قد أوصلهما الغرام إلى الذروة، وما كان أبعدنـي عنها وأبعدها عني لا لأنها كانت تقـاوم، فالحبيبـة قد تقـاوم، ولـكن لأن مقاومتها كانت مقاومة انسانة غريبة غير منفعلة. ولماذا ألومها؟ هذه الرغبة التي نشبت في صدري فجأة لأحتضنها لم تكن رغبة في عمل شيء كهذا بقدر ما كانت رغبة في الاحتفاظ بها وامساكها عن أن تنزلق. كنت قد بدأت أحس أنها تنزلق بعيداً عني، تنزلق بطريقة لا يمكن ايقافهـا، وأنـا واقف أشاهد هذا الانزلاق ولا أستطيع منعه.

ولكني فوجئت، هكذا كما تحدث المعجزة كما ينشـق القمـر أو تغيب الشمس في اثناء النهار، فوجئت حين شبت سانتي على اطراف اصابعهـا وقبلتني قبلة سريعة خاطفة وهي تقول: من تظنني؟ . . هل أنا قطعة خشب لا تحس؟

ومن هول فرحتي لـم تشلني المفاجأة أو توقف تفكيري، ولم يعد مهماً عندي ان كانت قد قبلتني لأن حماستي أعدتها، أو لأن الموقف أثارها، أو لمجرد عطف انتابها. المهم أنها قبلتني قبلة لا طعم لهـا ولا عاطفـة فـيهـا ولكنها قبلة منها.

واحتضنتها بشدة وقد دبت في جسدي رغبة عارمة مشبوبة، وبـدأت تبكي وتقول: كنت أعتقد أني لن أتأثـر، ولكنـك هوستنـي بحبـك لـي أخذتني من حياتي ومن نفسي. . وأنا أحب حياتي وأحب زوجـي وأنـت

صديق.. صديق فقط، ولكنك أعز صديق، لا شيء غير هذا، لماذا أنت مصر على أن أحبك، لماذا؟

وظلت تتكلم ولا تتوقف، ولكني أنا كنت قد توقفت عن سماع ما لا يحلو لي، كنت فقط أسمع ما اريد، ثم اصبحت لا أسمع وحمى الموقف قد أصابتني بالصمم.

والعجيب أني لم احس ابداً بشيء يشبه فرحة النصر، أما هي فقد قالت:

ـ لو كنت مكانك لخجلت من نفسي.

وآذتني كلماتها وكأنها لعنات، وقلت وصدري قد امتلأ فجأة بالحقد عليها:

ـ لو كنت مكاني؟ انك أبداً لم تحملي نفسك مشقة الانتقال إلى مكاني.

قالت في شبه صراخ:

ـ وكيف أنتقل إلى مكانك وأنا لا أحبك.. ألا تفهم هذا؟

ـ أنت من صنف ينكر على نفسه ما يريد.

ـ أنا لست هكذا.. أنت لا تعرفني ولا تفهمني ولا أريدك حتى أن تعرفني أو تفهمني.. أنا مخطئة.. أنا المخطئة.

قالت هذا وهي تدق الأرض بقدميها، وتعمدت أن أكف عن الانصات اليها، ولم يعلق بأذني الا سؤالها الملح الذي كانت تبدأ منه الكلام ثم تعود اليه:

ـ لماذا أنت مصر على أن أحبك؟ لماذا؟

وربما لأن تساؤلها ذلك كان أقرب كلماتها إلى مأساتي فكرت أن أجيبها عليه اكثر من مرة، ولكني لم أكن أعرف ماذا أقول لها، ولا كيف أطلعها على جزء من نفسي لم يره أحد مطلقاً، وكان لا يمكن لأحد أن يراه.. حتى

البيضاء

أنا أيامها لم أكن أراه ولكني كنت أحسه. جزء عميق خفي ولكنـه يكاد يكون روح حياتي ومفتاح شخصيتي. احساس ربما يوجد لدى النـاس جميعاً دون أن يعرفوه ولكني كنت أحسه، ومتأكد أنه لدي. احساس بثقة لا حد لها بالنفس تجاه الحياة، الاحسـاس الـذي يلـون قمـة صبانـا وفجـر رجولتنا، الاحساس بأن لا مستحيل علينا تحت الشـمس، كل ما نريده نستطيعه، وكل ما نريد أن نحلـم به نحلـم به، وكل ما نحلـم به ففـي استطاعتنا أن نحققه. .احساس عدم الخبرة كمن لا يعرف المصارعة،ولكنه يؤمن أن في استطاعته أن يصرع أي انسان لو نازله. . احساسنا بالثقة في أنفسنا، الاحساس الذي يغادرنا حين نحتك بالحياة ونتبين من احتكاكنا بها كنه قوتنا وقصور قدرتنا عن تحقيق أحلامنا. . وحتى قصورنا عن أن نحلم. وكنت كغيري أعتقد أني إذا أردت أن أنال أية أمرأة فلابد أن أنالها، واذا أردت أن تحبني فتاة فلابد أن تحبني. . مهما كانت عيوبي، ومهما كانـت الظروف التي ألقاها فيها والطريقة التي أعاملها بها، سواء أكانت زوجة أم محبة، عجوزاً أم صبية، مليونيرة أم فقيرة، فقد كانت لدي ثقة تامـة انـي استطيع أن أجعلها تحبني. بل أكثر من هذا كلما كانت الظروف أصعـب فتنني الوضع وسلطـت عليه ارادتـي وكيانـي لأنتصر، وازداد ثقـة بنفسي وأزداد ثقة بثقتي بنفسي.

وربما أردت سانتي كل تلك الارادة لاعتقادي انها منيعة فعلا وبعيدة جداً، وصعبة المنال إلى أقصى حد، ولايماني أن ظروفي أسوأ ظروف ممكن أن يظفر فيها شاب بفتاة مثلها.

في الصالة نصف المظلمة، وأمامي سانتي أقصر مني. . أحاول أن أنتهز الفرصة لأقبلها. . ومع أني كنت قد حققت هدفي القديم منها ونلتها، الا أنها لم تكن قد أحبتني كما أردت. وها هي ذي لا تزال مصرة على أنها لا

تحبني ولن تحبني، فلأدعها اذن تتحدث كما يحلو لها وتصر كما يحلو لها، ففي نفس ذلك الوقت كنت أبتسم ابتسامة شيطانية ذات بريق، أقوى من البريق الصادر من عيني، فقد أدركت لأول مرة أنها ليست قصة حب اخرى تلك التي أواجهها، ولكنها تجربة حياتي. حقيقة كنت أحس أن صفارة البدء قد انطلقت واني انزل الحلبة لأبدأ أول صراع ينشب بين الواقع وبين ما أريد.

ويبدو أن ادراكي لكنه اللحظة التي أواجهها قد جعل البريق الصادر من عيني ينقلب الى شيء مخيف، فقد أحسست برعشة تجتاح ذراع سانتي وأنا قابض عليها بيدي، أقربها مني وأبعدها وهي تتحاشى النظر إلى عيني ومع هذا أحس بها تنزلق من قبضتي كالزئبق انزلاقاً مستمراً منتظماً من المستحيل أن يتوقف أو تفلح قبضتي في منعه. ورعشة من نوع آخر هي التي انتابتني.

ولم أفق الا حين وجدت سانتي تفلت مني فجأة، وتفتح باب الشقة وتختفي في لمح البصر داخل حلزونية السلم.. وأسرعت خلفها.. ووقفت على أعلى درجة منفعلا إلى أقصى حد وقلت:

ـ سانتي!

ولم تجب.

ومرة ثانية ناديتها: سانتي.

وأيضاً لم تجب.

ومرة ثالثة قلتها، وخرج صوتي متهدجاً يملؤه التأثر كمن ينادي على رفيقة الصعود إلى جبل حين تتركه فوق القمة وتهبط وحدها السفح، وهي عاجزة عن ايقاف نفسها عن الهبوط، وهو مقيد في مكانه لا يستطيع الا أن يبقى فوق القمة ويناديها لتعاود الصعود، وهو مؤمن أشد الايمان أنها لن تكف عن الهبوط، ومؤمن أشد الايمان ايضاً بأنه سينجح بطريقة ما، وحتى

البيضاء

بدون طريقة، بمجرد وجوده، بمجرد كيانه، بمجرد ثقته التي لا حد لها في نفسه، سينجح في ارجاعها الى القمة. . قمة حبها له.

مؤمن أن ارجاعها هذا أمر مستحيل، ولكنه ايضاً مؤمن أن من المستحيل أن يقهره المستحيل اكثر من هذا، مؤمن على أنه قادر على قهر المستحيل.

بعد أقل من عشر دقائق كنت انساناً آخر قد رش وجهه بالماء على عجل، وارتدى البدلة، ومضى يقطع طرقات الزمالك كمن فقد صوابه ويتشعبط على طرف السلم في أول أوتوبيس قادم ليقطع الثلاث محطات التي تفصل بينه في الزمالك وبين شارع بولاق الجديد، كان لي يومان لم أذهب فيهما إلى العيادة.

أدركت هذا فجأة بعد آخر نداء أطلقته وراء سانتي، وكمن يتخبط من النقيض إلى النقيض، وكمن يستخرج نفسه من الضياع الكامل ليلقي بها في أي طريق آخر لمجرد أنه يؤدي إلى شيء واضح محدد ممكن عمله، وجدتني لم أعد أفكر الا في ضرورة الذهاب فوراً إلى العيادة وبأي ثمن. وكان شارع بولاق الجديد مزدحماً كعادته طوال الليل والنهار. . مزدحماً بأناس أحس أني غريب بينهم، خجلا منهم ومن نفسي خجلا لا أعرف سببه وكأني خيبت آمالهم في شيء، وما كدت أقطع بضعة أمتار حتى فاجأتني صيحة:

ـ شوف الراجل يا خويا. . نستناه امبارح ما يجيش وأول ما يجيش. . حمد الله ع السلامة.

وعرفت أنه عنتر حتى قبل أن ألتفت، ولأول مرة وجدته وحيداً من غير عبلة، وسألته عنه، وهو بالكاد يحاول أن يلاحق خطوي الواسع، فأشاح بيده وقال:

ـ الولية مراته أصلها بتولد النهاردة. راح يشوف لها فرختين. . اصل خايف لحماته تدبح فراخ من اللي مربينهم فوق السطح، أصلهم بيبيضوا. . خسارة.

واستغربت لكلامه، فقد بدأ وكأنما يأتيني من عالم آخر، من دنيا مارست فيها الحياة يوماً ثم أصبحت في دنيا ثانية، أيهما الحقيقي يا ترى. . ما أحيا فيه أو ما أسمع عنه؟ الناس تحيا وتتزوج ونساؤنا تلد، والدجاج يبيض بغير مشاكل، وحتى إذا وجدت المشاكل فالحل جاهز لا يحتمل الا مجرد التنقيب. . أين هذا من مشاكلي أنا؟ عنتر وعبلة وهؤلاء الناس الذين يزحمون الشارع باسراعهم وصخبهم يضيقون بالحياة مثلما أضيق أنا بها، ولكنهم يحبونها ايضاً، يحبونها ويضيقون بها، أما أنا ما أتعسني! أنا لا أريد أن أحياها الا كما اريد. . هم يغيرون تفاصيل الحياة لتروق لهم، وأنا اريد أن أغيرها كلها جملة وتفصيلا لتروق لي. اريد أن أفعل المستحيل ولا أرضى بأقل من المستحيل.

إما حياة كاملة كما اريدها أو لا حياة. . لماذا لا أحيا مثلهم؟ لماذا ليس باستطاعتي أن أساوم؟ لماذا خلقت هكذا؟

لم أتوقف لألتقط أنفاسي أو أجمع شتات أفكاري الا حين وضعت قدمي على باب العيادة، ونظرة واحدة القيتها على الصالة أذهلتني وأوقفتني في مكاني لا أجرؤ على الدخول. كانت الصالة مزدحمة الى آخرها بالمرضى المنتظرين، ازدحاماً لم تشهد العيادة الصغيرة مثله، ازدحاماً بلغ من شدته أن بعضهم كان قد فضل أن ينتظر بالخارج، وحين ظهرت جاء يتبعني ويملأ المدخل. والنظرة الثانية القيتها على عنتر. كان قصيراً سعيداً متهدلاً كعادته، ولكن كان على وجهه ابتسامة من يخفي في جعبته شيئاً.

وقلت له همساً:

ـ إيه دول؟

قال:

ـ عيانين.. امال.. مش قلت لك يا دكتور ح تفرج.. ده بعضهم مستني هنا على الحرام من أول مبارح.. خش خش.

ودخلت. كنت قد حضرت وفي ظني أن العيادة ستتيح لي مكاناً جديداً استخرج فيه أفكاري على مهل وأعيد النظر فيها، ولكن شد ما خاب أملي:

الازدحام والضجة التي قابلتها بنفسي أول الأمر فرضا بعد قليل نفسيهما علي، وأعنف الأفكار وأحدها قد يذيبها من العقل تماماً وجودك في حضرة انسان. إنه وهو الكائن الحي المتحدث أشد مفعولا من أعمق الأفكار. فما بالك وهم عشرات من الكائنات الانسانية الحية التي جلست تحكي قصتها مع المرض، وتطلب بأمل والحاح علاجك ورأيك. ذهب فجأة كل ما كان يشغل بالي.

ولم يعد رأسي سوى مكان التقاء وتفاعل بين الداخل الى حجرة الكشف أو الخارج منها وبين كل ما درسته ووعته ذاكرتي من معلومات.. وفي خضم فرحتي بالعدد الكبير من الناس الذي أصبحت محل ثقته وملجأه لم يدهشني كثيراً أني وجدت بعضهم لا يعاني من أي مرض بالمرة. وعزوت هذا للوهم أو لذيوع صيتي في الحي ورغبتهم في عرض أنفسهم علي.

ولم يحتج الأمر وقتاً طويلا لتظهر آثار واضحة لهذا الإقبال غير المتوقع. فقد زارني صاحب الأجزخانة المجاورة ليلتها، وبدأ حديثه بعتاب طويل لأني أمر عليه ولا ألقي السلام ولم أزره ولو مرة، وأنهاه باستعداده لأية خدمة ولأي تخفيض، فقط ما علي إلا أن آمره. وكذلك جاء أناس أفندية وأولاد بلد من الحي لا أعرفهم كان عنتر يقدمهم لي ويضخم في اسمائهم

ويعدد مناصبهم ونفوذهم، وكانوا هم يحيونني ويشيدون بي وبمهارتي التي «طبقت شهرتها الآفاق» وكنت أخجل أنا وأتواضع وكأن شهرتي كطبيب قد طبقت الآفاق حقيقة. وكان عنتر في خير حالاته، يضحك ووجهه السمين يلمع بالعرق والاحمرار والانفعال. ولم تنته العيادة الا في منتصف الليل، وكان الايراد يسمح لي بأخذ تاكسي لو أردت، ولكني آثرت أن أقطع المسافة بين بولاق والزمالك سيراً على الأقدام، كنت في حاجة لدقائق أخلو فيها لنفسي بعد هذا الازدحام، حاجة ملحة لم يكن يمنعها الا العمل المستمر، وكنت اريد أن أفكر في الخلاء، في الخارج، بعيداً عن البيت وفراشي وحجرتي، وكأني كنت آمل أن يتغير طعم أفكاري اذا غيرت المكان، ومن يدري؟ ربما وجدت أيضاً ما أبحث عنه وما شيبني البحث عنه.

وعدت إلى البيت ماشياً أفكر كما أردت، ليس هذا فقط بل انقضت بضعة أيام ـ ثلاثة أو أربعة لا أذكر ـ وأنا أيضاً أفكر، لم تكن سانتي قد جاءت خلال تلك المدة أو سمعت عنها شيئاً. وكنت لا أزال في نفس الحالة، بل تقريباً أعيش في نفس اللحظة التي غادرتني فيها وأنا أنادي عليها وهي لاتجيب. وكلما كنت أغرق في التفكير كان اضطرابي يزداد، ولم يكن هذا لتخلخل أصاب ثقتي بنفسي ولكن لأني في الحقيقة لم أكن أعرف ماذا يجب علي أن أفعل تجاه هذا المستحيل الذي قررت أن أقهره وأنتصر عليه.

في كل ثانية من تلك الأيام القليلة كنت اذا رفعت الغطاء عن عقلي وجدته يسأل نفسه: ماذا يجب علي أن أفعل؟ يسأل وفي نفس الثانية يرفض كل ما يقترحه على نفسه من اجابات وحلول. كنت أحس أني عاجز عن التصرف تجاه هذا الموقف الجديد علي.. لو كنت قد قررت أن أخترع صاروخاً يوصلني إلى القمر مثلا باعتبار أن هذا شيء مستحيل على شخص

البيضاء

مثلي لكان الطريق واضحاً، ولكان علي أن أبدأ فوراً في دراسة كافة الحقائق المتعلقة بالموضوع. أما وهدفي كان أن أحتفظ بسانتي وأجعلها تحبني على الرغم من ادراكي أن هذا شيء مستحيل، فلم يكن أمامي ثمة طريق ممكن أن أتبعه. هل «أتقل» عليها؟ وكيف أتقل عليها وهي بعيدة عني؟ هل اذا جاءتني أتجاهلها وأقابلها مقابلة عادية جداً وأمثل أمامها دور الزاهد فيها المشغول بغيرها؟ ولكن ربما دفعها هذا لأن تزهدني هي اكثر وأكثر. هل أقبل عليها وأركع أمامها؟ ولكن سلوكاً كهذا لا يمكن أن يدفع امرأة في الدنيا للحب؟ هل أكتب لها؟ ولكني كتبت وكتبت وقلت كل ما يمكن كتابته، وتكلمت معها وتكلمت حتى قلت كل ما يمكن قوله، لدرجة اني ذات مرة قلت لها: أعتقد أني تحدثت كثيراً. فابتسمت وقالت بقليل من الجرأة: يبدو أنك تتحدث أكثر من اللازم فعلا. بل ما زلت أذكر ضمة شفتيها وهي تنطق «أكثر» بالانجليزية. هل أقدم على عمل آخر؟ ولكنها ضاقت بما فعلته بطريقة أزعجتني وأخجلتني. وحتى ما فعلته كان سببه ذلك الأثر الخاطف لقبلتها، كان شدة انفعال مني لا أكثر. إذ أني أبداً لا استطيع اغتصاب قبلة منها عن عمد واصرار. ثبت لي هذا وأعرف أكثر أن الذي يغتصب هو من لا يحب، أما من يحب انسانة ما فهو لا يستطيع أن ينالها رغم نفسها أبداً.

في كل ثانية كان السؤال يدور بالحاح في عقلي، وفي كل ثانية أطرح عشرات الاجابات وأرفضها وأحس بالعجز والتعب فأروح أحلم، أحلم اني استطعت أن أجعلها تحبني بطريقة ما، وأحلم بسعادتي حين يحدث هذا. . أحلم بالمستحيل، أو يدفعني العجز الى الشك فأقول لنفسي: لماذا لا تكون في هذه اللحظة بالذات التي تفكر أنت فيها مع شوقي مندمجة في حديث ساحر معه؟ لماذا لا تكون واهماً وعلاقتكما قد انتهت من نفسها

الى الأبد وهي الآن تبحث عن علاقة اخرى وشخص آخر؟

وهكذا أجد نفسي بلا وعي أبحث عن شوقي وأتعمد أن أقضي معه أكبر وقت ممكن. ولكن لم يكن باستطاعتي أن أبقى معه طول الوقت. كانت أعماله كثيرة وخروج البارودي قد أشاع موجة نشاط غامرة في المجلة وفينا بشكل عام، لا لأنه حمسنا، ولكن ربما لمقاومة آثار خروجه، وللحيلولة بينه وبين أن يعود رئيساً مرة اخرى للتحرير. ولكنا كنا نكبت رغبتنا الخفية هذه في أنفسنا ولا نعارض عودته جهراً، وهو ايضاً لم يكن يبدي رغبته في العودة عياناً بياناً، بالعكس كان يصرح دائماً بأن مرض عينيه سيعوقه، وأنه في حاجة لأجازة طويلة يعالج فيها بصره، وفي نفس الوقت تزداد حركته وتتضاعف، ويخرج من اجتماع ليدخل في اجتماع، ويناقش ويتدخل في كل كبيرة وصغيرة، ويقترح فاذا لقيت اقتراحاته معارضة يحاول شيئاً فشيئاً أن يفرضها. ولم يكن ينافسني في البحث عن شوقي والالتصاق به والبقاء معه ليلاً ونهاراً إلا وهو. بدا انه من أول وهلة لمس بذكائه الخارق أن شوقي هو رأس الرمح في التيار الثائر الجديد، وأنه قائده، وأن هناك اجماعاً على أن يبقى في منصبه كرئيس للتحرير حتى بعد خروجه هو- رئيس التحرير الأصلي. ولو كان شوقي ضعيفاً أو أقل كفاءة لسحقه، ولكن أحمد شوقي اسم وكفء ومحل ثقة الجميع؛ وفوق هذا وذاك تلميذ البارودي وصديقه. الطريقة المثلى اذن أن يحيطه ويأخذه تحت جناحه حتى إذا ما ابتلعه وأعاد صياغه تفكيره أصبح تحطيم بقية هذا التيار الصاعد مهمة سهلة. أفكار كهذه كانت كثيراً ما تخطر لي وأنا محموم أبحث عن شوقي، وأجد البارودي هو الآخر لا يقل عني شغفاً في البحث عنه. أنا اريده من أجل سانتي وهو يريده من أجل رئاسة التحرير. وكثيراً ما كان يختفي شوقي وأسأل عنه في المطبعة فلا أجده، وأسأل عنه في بيته فلا أجده، وأكاد أقسم لنفسي حينئذ

البيضاء

وأقول: لابد أنه معها. ويؤلمني تفكيري على هذا النحو لا لخوفي أن يكون معها ولكن لأني لم أكن أعتقد أن سيأتي يوم أنظر فيه لأحمد شوقي - الصديق وزميل المعركة ورفيق السلاح - تلك النظرة المغرقة في بعدها عن نوع علاقتي بسانتي وحبي لها الى هذا الدرك؟ الى هذا السرداب المظلم المتعفن الذي انسى فيه نفسي وقيمي ولا أعود أحكم على أعز الأشياء وأقدسها الا من خلال علاقتي بها؟

عذاب ما كنت أحسه، أبشع أنواع العذاب. اذا سألت نفسي ماذا أفعل عذبني السؤال، واذا أجبت عذبتني الاجابة، واذا حلمت تعذبت وإذا شككت أقاسي أمر الهوان.

كل قوتي وكل طاقتي وارادتي وقدراتي كنت أجمعها وأحشدها وأحيا بها المشكلة محاولا أن أجد المخرج.. وأفظع شيء أن تجمع قواك كلها لتفعل بها لا شيء، كياني كله يزأر، وكل خلية فيّ تعوي وتصرخ، وأعتصر نفسي كلها وأفكر وأخرج من هذا كله بلا شيء، حتى قارب تفكيري في نهاية تلك الأيام القليلة أن يصبح لوناً غريباً من التفكير، مجرد تفكير متصل طويل لغير ما هدف أو فكرة، تفكير على الفاضي، تحس في لحظات أنه على الفاضي وأنك لا تطحن به فكرة محددة، وانما تفري به عقلك ومع هذا لا تستطيع أن توقفه أو تكف عنه.

وبمثل ما توقفت توقفت الحياة من حولي، العمل لا أذهب إليه والطعام بالكاد أتناوله، وحتى الكتابة في المجلة كدت أتوقف عنها.

البيضاء

٢٠

وبكل هدوء ولا ضجة استغراب أو احتجاج، وكأن الدلائل كلها كانت أو تشير الى احتمال وقوعه، تقبلت ما حدث في اليوم التالي لذلك الاجتماع العاصف. كنت قد نمت على أمل أن أفكر في الغد، وجاء الغد بمشاغل العمل التي تتولى غسل المخ بكل ما فيه من خيالات وحقائق وبعد الظهر جاءني شوقي، جاداً قليلا على غير العادة، وفي ختام حديثه معي أبلغني بطريقة عابرة أن مجلس التحرير قد أصدر قراراً يقضي بمنع سانتي من المجيء إلى بيتي، وكذلك يأمرني بعدم الاتصال بها. اصطنعت الدهشة الغاضبة وأنا أحاول أن أجادل في أسباب القرار وجدواه، وأخذت أردد ألفاظاً جوفاء كثيرة لا معنى لها، لا لرغبة حقيقية في الجدل وانما لكي يبدو موقفي طبيعياً، غير أن شوقي قال بملامح غائمة: ولماذا تحتج والمسألة لا تعدو أن تكون اجراء وقائياً هدفه حمايتك وحمايتها؟

قلت له وكأني احدث نفسي: اذا كان الهدف الأمان فهم احرار في اتخاذه.. أما لو كان الهدف شيئاً آخر..

وأكملت بقية الجملة تحديقاً في ملامح شوقي لعلي المح الأسباب الحقيقية التي دعتهم لاصدار القرار، تراهم عرفوا، تراهم خمنوا، والى اي مدى بلغت بهم المعرفة أو التخمين؟ كنت أدرك أن الباروردي وراء القرار لا شك

وأدرك أكثر أن الأسباب التي دعته كي يوقفني وجهاً لوجه أمام هذا الاجراء «الرسمي» أسباب لا تمت الى البراءة بصلة. ولكني لم أجد في ملامح شوقي أية علامات تدل على انفعال حقيقي، لا غضب ولا لوم ولا برود.. ترى أهو قناع يغطي به وجهه وخواطره، أم أني أبالغ وأتصور وأجري وراء مبالغاتي وتصوراتي؟

وعجبت، لم أعجب منه ولكن عجبت من نفسي، طوال علاقتي الخفية بسانتي كان أخوف ما أخافه أن يعرف شوقي أو البارودي أو أي من الآخرين ما يدور بيني وبينها. وهذا القرار يدل بشكل قاطع على أنهم حتى إذا لم يكونوا قد عرفوا فثمة رائحة لا بد قد تسربت وكشفت عن وجود موضوع. فلماذا لا أحس بالخجل الشديد الذي كنت أتصور أني لا بد سأشنق نفسي لاتلافاه؟ أغرب من هذا، لماذا أحس بالراحة وكأن عبئاً قد انزاح عن كاهلي، وغيري هو الذي تولى مهمة ازاحته؟ لا أظن أني لحظتها عرفت الاجابة على وجه الدقة، وحتى إلى الأن، ولكن يخيل إليّ أن ما من شيء نفعله من وراء ظهور الآخرين ونخاف خوف الموت أن يعرفوه. إلا ونحن نتمنى في نفس الوقت لو يحدث ما يجعلهم يعرفونه ويعاملوننا على أساسه.

أحسست بنوع حرام من الراحة،ولكني لم أستمتع به، ففي الحال تذكرت سانتي ولم يلبث قلقي عليها أن أكتسح أمامه كل شعور آخر، فاذا كان كشف الآمر سيريحني فهو حتماً سيسبب لها المتاعب، سألت شوقي ان كانوا قد أبلغوها القرار فأجابني أنهم لم يفعلوا بعد، وأنه هو شخصياً مكلف بابلاغها اياه.

ورغماً عني وجدت نفسي، بغضب حقيقي هذه المرة، أحذره بكل ما أملك من قدرة على التأكيد والتهديد من مغبة أن تلمح سانتي من كلامه أو

البيضاء

طريقة ابلاغه أية بادرة تدل على محمل آخر للقرار. وبغير انفعال أو تأثر طمأنني شوقي. ومن لهجته ازداد يقيني، اذ لم يبد عليه أنه دهش لانزعاجي او تهديدي وكأنه كان يتوقع أن أنزعج وأهدد. لابد أنهم فعلا أصدروا القرار بهدف مبيت آخر، ولأسباب أكثر استخفاء من قصة الأمن التي ما عدت أصدقها.

ولم يمكث شوقي طويلا، فمنذ أن جاء لم يكن بادياً عليه أية رغبة من اطالة الحديث أو الزيارة، وكأنما قد جاء خصيصاً ليبلغني بطريقة مخففة مهذبة ذلك القرار.

وللحظة واحدة، وأنا أشد على يد شوقي مودعاً، عشت في أمنية بدت عريضة كالحلم العريض، خاطفة كبارقة الأمل، أن تكون النهاية في هذا القرار. أن يكون الخاتمة للمأساة المعقدة التي عذبتني، وللمرض الطويل.. أجل المرض الذي أخذت في تلمس الشفاء منه، ولعلي لهذا استرحت لأنهم عرفوا، فقد كنت دائماً أتخيل النهاية حين يعرف الموضوع وتصبح العلاقة أمراً علنياً مشيناً، بعدها قطعاً سأثوب إلى نفسي وتهبط حوافزي كلها وتخمد النيران.

ولكنها لحظة واحدة، ففي اللحظة التالية مباشرة بعد اختفاء شوقي كانت ابتسامة غريبة تعلو وجهي، اذ الخاطر الذي تملكني كان شيطانياً غريباً، النقيض تماماً للخاطر الأول، فما كادت الصدمة وكل ما خلفه القرار في نفسي من انفعالات تتلاشى حتى وجدتني سعيداً بالقرار سعادة خفية حقيقية، فمنذ اليوم الذي بدأ فيه البارودي يلاحظ تردد سانتي ويشير اشارات مبهمة ساخرة الى هذا المجيء! ومنذ بدأت راقية وشوقي والأصدقاء يرونها ويصبح مجيئها أمراً علنياً يعرفه الجميع، بدأت أشياء تحدث في نفسي وتجعلني لا أعود أرضى أو أعجب بتلك العلاقة التي أصبحت علنية. فحتى

لو بقي ما يدور بيني وبينها سراً لا يعرفه احد، فمجرد أن يرانا الناس معاً مجرد أن أوجد معها في مكان يحتوي أحداً غيرنا، مجرد احساسي أن طرفاً ثالثاً قد أصبح له وجود في علاقتنا مهما بلغت تفاهة هذا الوجود، كفيل بأن يفقدني الحماس للعلاقة التي أردت لها دائماً وعملت أن تظل خفية، متناهية الخفاء، تكاد الروعة كلها تتجسد في سريتها. والآن وبعد ذلك القرار، فأية علاقة مقبلة بيني وبينها لن تكون الا في الخفاء، لن تكون الا كما اردتها دائماً خفية وسرية ومتكتمة ورائعة الروعة كلها من أجل ذلك كله.

كم جاء حكيماً وجميلا وفي وقته ذلك القرار.

* * *

وضاعت ايامي.

ولم أعد استطيع الصبر. لقد نفذت هي القرار وكفت عن زياراتي واختفت تماماً من الوجود. ظلت تتفرج مستمتعة بمشاهدتي أحبها وبقراءة خطاباتي.. ثم جد الجد، اختفت. وكان هذا كله كفيلا بأن أكرهها وأنساها.

ولكن المشكلة اني كنت قد وصلت إلى مرحلة اليأس الكامل.. يأس من أن أشفى منها. نسيت مشاريعي وخططي، نسيت قراري بأن أستحوذ عليها وأهجرها، حتى لم أعد أذكر أني صممت ذات يوم على الكف عن التعلق بها. كان حنيني لأراها، مجرد أن أراها قد أصبح أقوى من كل شيء، أقوى من غضبي وضياعي. كان مرضاً.. كان جنوناً.. كان شيئاً اعتى من المرض والجنون.

وليال طويلة قضيتها على مقعد متنزه أمام منزلها، أصادق حراس الليل واسليهم على أمل أن أراها،وهي هابطة من منزلها الى عملها في الصباح،وفي احيان كثيرة لا أراها، وفي احيان قليلة جداً ـ نادرة ـ أراها، وارتجف ارتجافاً

البيضاء

حقيقياً أمام أعين اصدقائي من الحراس، لمجرد ظهور شبحهـا الحبيب في فتحة الباب.

العيادة أغلقتها وبعتها وقد عرفت أنها ستستخـدم بابـاً خلفياً للرشـوة والاجازات، وعملي أخذت منه اجازة، وسكرتير النقابة قد أصبح سكرتيراً للجنة «حركة التحرير». كيف أنساها وأعود أحيا؟

كيف وأنا قد عرفت عن يقين أنها لم تعد تأبه لي فقط، ولكنهاأنشأت مع شوقي علاقة وطيدة، وأن زوجته تهدد بالطلاق، وأنني رغم هذا كله لم أكف عن حبها ولن أكف. وأني قطعاً وبالتأكيد هالك، وقد بدأت أتناول الحبوب المهدئة وأنام بالمنومات وأستيقـظ بالمنبهـات،وعقلي كلـه أراه رأي العين ينفصل شيئاً فشيئاً عن واقع الحياة ويتصاعد متصوفـاً في عبـادتهـا وكأنها تجردت هي الأخرى ووصلت الى معنى الله.

خاتمة

بعد أسابيع قليلة فوجئت في الثانية من صباح ذات يوم بطرق خفيف متلصص على بابي. من أول طرقة أدركت أن ساعة السجن حانت ودخل الضابط، مؤدباً، أبيض الشعر يكاد يذوب رقة. فتش البيت واستغرق في تفتيشه ست ساعات، وفي الصباح اقتادني الى القسم ومنه الى السجن.

وفي السجن بدأت حياة جديدة.

وفي السجن وافاني شوقي بعد أسابيع من الهرب، وعلمت أن سانتي غادرت البلاد، وأن لورا اعتقلت هي الأخرى وأنها بجوارنا في سجن الحريم. وكم هفت نفسي لأراها، أنها البقية الباقية من سانتي وأيام سانتي.

أما البارودي فقد ظل أعمى يقود

وحين أفرج عني بعد عامين.

كانت سانتي قد أصبحت صورة وكلمات، وكانت أيامي المشحونة معها قد بردت وتقلصت واستكانت في زاوية من نفسي، ربما لتعود الى الوجود بشكل آخر.

ولو أن أحداً قد لوح لي أن سانتي ممكن أن تتحـول ذات يوم الـى ذكرى، مجرد ذكرى لخنقته احتجاجاً وغضباً.

ولكن أحداً لم يقلها، حتى أنـا لم أقلهـا لنفسـي، انمـا بلا قول أو ضجيج تكفل الزمن بكل شيء، وفي صمت وبلا مؤثرات.

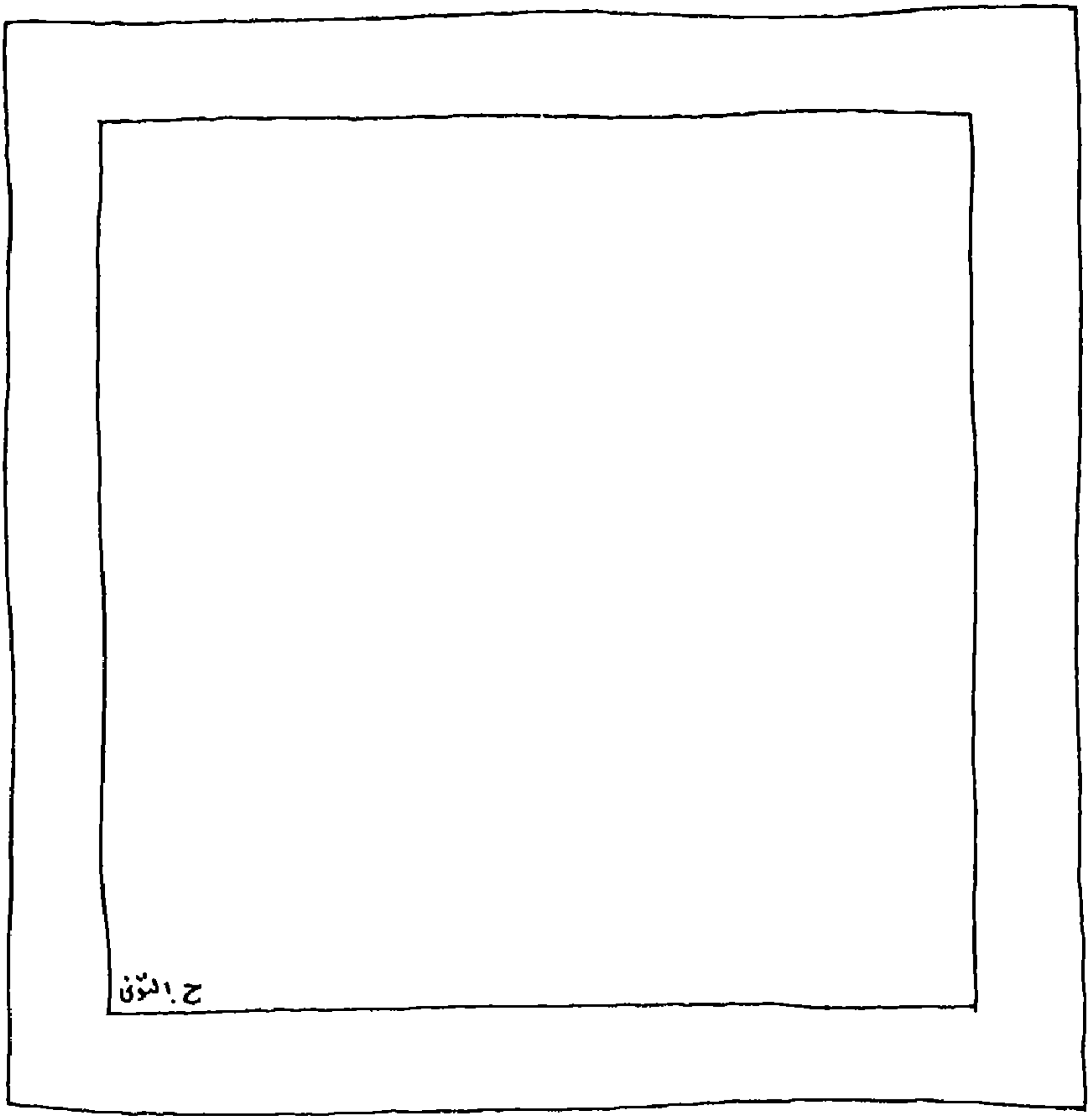
الزمن القاتل.

نهاية الأشياء..

القاهرة في صيف ١٩٥٥

«انتهت»

جمهورية فرحات



جمهـــوريـــة فرحات

المقدمة

بقلم: الدكتور طه حسين

هذا الكتاب ممتع أقدمه للقراء سعيداً بتقديمه أعظم السعادة وأقواها لأن كاتبه من هؤلاء الشباب الذين تعقد بهم الآمال وتناط بهم الأماني ليضيفوا إلى رقي مصر رقياً، وإلى ازدهار الحياة العقلية فيها ازدهاراً.

وكان كل شيء في حياة هذا الشاب الأديب جديراً أن يشغله عن هذا الجهد الأدبي وأمثاله بأشياء أخرى، ليست أقل من الأدب نفعاً للناس وإمتاعاً للقلب والعقل.

فهو قد تهيأ في أول شبابه لدراسة الطب، ثم جد في درسه وتحصيله حتى تخرج وأصبح طبيباً. ولكن للأدب استئثاراً ببعض النفوس وسلطاناً على بعض القلوب لا يستطيع مقاومته والامتناع عليه إلا الأقلون.

وقد كلف هذا الشاب بالقراءة، ثم أحس الرغبة في الكتابة، فجرب نفسه فيها ألواناً من التجربة، ثم لم يملك إلا أن يمضي في تجاربه تلك وإذا هو أمام كتاب يريد أن يخرج للناس فيخرجه على استحياء. ويقرأ الناس كتابه الأول «أرخص ليالي» فيرضون عنه ويستمتعون به، ويقرؤه الناقدون للآثار الأدبية فيعجبون له ويعجبون به ويشجعون صاحبه على المضي فيه ويظهر هذا الكتاب.

وأقرؤه فأجد فيه من المتعة والقوة ودقة الحس ورقة الذوق وصدق الملاحظة وبراعة الأداء مثل ما وجدت في كتابه الأول، على تعمق للحياة وفقه لدقائقها وتسجيل صادق صارم لما يحدث فيها من جلائل الأحداث وعظائمها لا يظهر في ذلك تردد ولا تكلف، وإنما هو إرسال الطبع على سجيته كأن الكاتب قد خلق ليكون قاصاً، أو كأنه قد جرب القصص حتى استقصى خصائصه ونفذ إلى أسراره وعرف كيف يحاوله فيبرع فيه. وكنا نعجب فيما مضى بطائفة من الكتاب المجودين في الغرب لم يتهيئوا للأدب عن عمد ولم يجعلوه لحياتهم غاية، وإنما أنفقوا جهدهم كله في درس الطب والتخصص فيه وفرض الأدب نفسه عليهم فرضاً فبرزوا فيه أي تبريز. ثم رأينا هذه الظاهرة نفسها تمس بعض أطبائنا فينشأ منهم شاعر بارع كالدكتور إبراهيم ناجي رحمه الله، وينشأ منهم الكاتب المتفوق الذي يتاح له من صفاء الذوق ونفاذ البصيرة وسعة العلم والفقه بأسرار الحياة، فيخرج في اللغة العربية كتباً أقل ما توصف به أنها تجمع بين الروعة والمتعة وتغنى حاجتنا إلى القراءة التي تلذ القلب والذوق والعقل جميعاً كالدكتور محمد كامل حسين.

وكاتبنا هذا يمضي في هذه الطريق ثابت الخطو، وما أشك في أنه سيبلغ من الأصالة والرصانة والتفوق ما بلغ الذين سبقوه.

وهذه ظاهرة جديدة في أدبنا العربي الحديث إن دلت على شيء فإنما تدل على أن سلطان الأدب العربي ما زال قوياً، وقدرته على الاستئثار بالقلوب والنفوس مازالت نافذة، وعلى أن جذوة الأدب يذكيها ويقويها أن تجاور العلم في بعض القلوب والعقول فتستمد منه قوة وأيداً ومضاء قلما يظفر بها الذين يفرغون لتنميق الكلام ويصرفون عن حقائق العلم صرفاً. وأي فنون العلم أجدر أن يفقه الناس بالحياة ومشكلاتها وما تكلف

الأحياء من ألوان العناء من الطب. فالطبيب يخالط الإنسان مخالطة لا تتاح لغيره من أصحاب العلم. يخالطه صحيحاً ويخالطه عليلاً ويبلو ألم جسمه وآلام نفسه أصدق البلاء وأعمقه، ويفتح له ذلك أبواباً من التفكير تنتهي به أحياناً الى الفلسفة العليا، وتنتهي به أحياناً أخرى إلى الأدب الرفيع الذي يحسن فيه الانسجام بين الحس الدقيق والشعور الرقيق والذوق المرهف والعقل المفكر. وتتيح له ذلك قدرة على التصوير الفني لحياة الناس وما يزدحم فيها من الألم والأمل، ومن السخطوالرضى، ومن الحزن والسرور، قلما يتاح لغيره من الناس.

وربما منحه قدرة أخرى على فهم الملكات الإنسانية، ورد أعماله وما يختلف عليه من الأحداث وما يكون لهذه الأحداث من تأثير فيه إلى أصولها ومصادرها التي أنشأتها وصورتها تصويراً لا يحسن فهمه إلا من يعرف دقائق النفس والجسم جميعاً، وما يكون بينهما من توافق أحياناً ومن تخالف أحياناً أخرى. وإذا أتيح الفن الأدبي للطبيب امتاز أدبه بالدقة والصدق وتجنب الألفاظ العامة المبهمة، والعبارات التي تبهر الأسماع ولكنها لا تصل الى القلوب ولا تحصل في العقول شيئاً.

وقد أتيح لكاتبنا من هذا كله الشيء الكثير، فهو لا يحب التزيد في القول ولا يألف تبهرج الكلام، ولن تجد عنده كلمة قلقة عن موضعها أو عبارة إلا وهي تؤدي بالضبطما أرادها على تأديته من المعاني.

هو طبيب حين يكتب يضع يده على معناه كما يضع يده على ما يشخص من العلل حين يفحص مرضاه، وينقل إلينا خواطره كما يصور أوصاف العلل، وكما يصف لها ما ينبغي من الدواء.

وله بعد ذلك خصلة تميزه من غيره من كتاب الشباب، فالميل إلى

تصوير الحياة الاجتماعية ظاهر عند أدبائنا من الشباب تختلف حظوظهم منه ويختلف توفيقهم فيه ،ولكن كاتبنا لا يميل الى تصوير الحياة الاجتماعية وما فيها من الآمال والآلام فحسب، ولكنه يحسن تصوير الجماعات ويعرض عليك صورها كأنك تراها.

فلم أر تصويراً لشارع أو ميدان تختلط فيه جماعات الناس على تباين أشكالهم وأعمالهم وألوان نشاطهم كما أرى عند هذا الكاتب الشاب.

ثم لا يمنعه ذلك من أن يفرغ للفرد فيحسن فهمه وتصويره في دقة نادرة، كل هذه الخصال تبشر بأن كاتبنا جدير أن يبلغ من فنه ما يريد ولكني أتمنى عليه شيئين. . أحدهما ألا ينقاد للأدب ولا يمكنه من أن يشغله عن الطب أو يستأثر بحياته كلها. فالأدب يجود ويرقى ويمتاز بمقدار ما يجد عند الأديب من مقاومة له وامتناع على مغرياته وانصراف عنه بين حين وحين. .

وما أشك في أن عنايته بالطب حين تتصل وتقوى ستمنح أدبه غزارة إلى غزارته وثروة إلى ثروته، وستزيد جذوته ذكاء وقوة ومضاء.

والثاني أن يرفق باللغة العربية الفصحى ويبسط سلطانها شيئاً ما على أشخاصه حين يقص كما يبسط سلطانها على نفسه، فهو مفصح إذا تحدث، فإذا أنطق أشخاصه أنطقهم بالعامية كما يتحدث بعضهم إلى بعض في واقع الأمر حين يلتقون ويديرون بينهم ألوان الحوار.

وما أكثر ما يخطىء الشباب من أدبائنا حين يظنون أن تصوير الواقع من الحياة يفرض عليهم أن ينطقوا الناس في الكتب بما تجري به ألسنتهم في أحاديث الشوارع والأندية. فأخص ما يمتاز به الفن الرفيع هو أنه يرقى بالواقع من الحياة درجات دون أن يقصر في أدائه وتصويره. .

جمهورية فرحات

والأديب الحق ليس مسجلاً لكلام الناس على علاته كما يسجله الفونغراف، كما أن المصور الحق ليس مسجلاً لواقع الأشياء على علاتها كما يصورها الفوتغراف، وإنما الفرق بين الأديب والمصور وبين هاتين الأداتين من أدوات التسجيل أنهما يصوران الحقائق ويضيفان إليها شيئاً من ذات نفسيهما هو الذي يبلغ بها أعماق الضمائر والقلوب، ويتيح لها أن تبلغ الأديب والمصور من نفوس الناس ما يريدان، وإلا فما يمنع الكاتب من أن يصطنع أداة من هذه الأدوات التي تسجل ألفاظ الناس ثم يضيف إلى أصواتهم صوته بلغتهم التي يتكلم بها هو حين يتحدث إليهم ثم يعرض عليهم ذلك، كما يعرض تسجيل الأصوات لا يتهيأ له ولا يتألق فيه.

ليصدقني الشباب من أدبائنا أن من الحق عليهم لمواهبهم وأدبهم أن يتمعنوا فهم المذاهب الأدبية أكثر مما يفعلون.. وألا يخدعوا أنفسهم بظواهر الأشياء فيفسدوا مواهبهم ويفسدوا أدبهم أيضاً.

أما بعد فإني أهنىء كاتبنا بجهده هذا الخصب، وأتمنى أن أقرأ له بعد قليل كتباً أخرى ممتعة إمتاع هذين الكتابين وتمتاز عنهما مع ذلك بصفاء اللغة وإشراقها وجمالها الذي لم تبلغه العامية، وما أرى أنها ستبلغه في وقت قريب أو بعيد.

«طه حسين»

جمهورية فرحات

ما كدت أدلف إلى القسم ومعي الحرس حتى أحسست بانقباض مفاجىء، لم تكن تلك أول مرة أدخله ولكنها كانت المرة الأولى التي أرى القسم فيها في الليل، ولهذا شعرت حين تخطيت الباب أني أدلف إلى خندق سفلي لا يمت إلى الحاضر ولا حتى إلى الماضي القريب.. جدران يكسوها حتى منتصفها سواد على هيئة طلاء وكآبة تكسو نصفها الثاني.. وبقع بيضاء مبعثرة هنا وهناك لا تخفف السواد بقدر ما تظهر بشاعته، وأرض لزجة لا تدري إن كانت من الأسفلت أو من الطين ورائحة.. رائحة لا تستطيع أن تحدد كنهها وإنما لا بد أن تحس معها بغثيان، وضوء باهت يأتي من مصابيح بالغة القدم عشش عليها الذباب وباض.. مصابيح معظم ضوئها محكوم عليه بالسجن المؤبد داخلها والقليل الذي يتسلل منها هارباً لا يبدد الظلام بقدر ما يحتمي به ويتستر وإن وقع على الأشياء والناس فإنما ليظهر كل ما بها من حزن وقبح وبشاعة..

وأحسست حين احتواني هذا كله وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منه والناس من حولي على سيماهم جد خطير يمشون كالمنومين، وصناديق الفاكهة وعربات اليد وكراسي المقاهي التي صادرها بوليس البلدية وهي

مكومة في ركن، وأصحابها متناثرون حول الجدران والأركان متهالكين على الأرض ورءوسهم مائلة على حجورهم، والعساكر يبدون في أرديتهم السوداء كعفاريت منتصف الليل. .

أحسست حين احتواني هذا كله أنني لا بد أنا الآخر قد ارتكبت جريمة ونسيت، وتمنيت أن أهرب من المكان بأسرع ما أستطيع. ولم أكن أستطيع مغادرة المكان فقد كان علي أن أحجز في القسم ليلة لأرسل إلى النيابة في صباح الغد. . واحتاروا أين يضعونني فالحجز كان ممتلئاً والحجرة الأخرى التي يوضع السياسيون فيها عادة تعج بالمراقبات وصاحبات الحرفة، ولم يجدوا لي في النهاية خيراً من حجرة الضابط النوبتجي. . وهناك تركت ومعي حارس. .

كانت الحجرة على سعتها تضيق بمن فيها، وكان أبرز الموجودين جميعاً الضابط النوبتجي. وحين رأيته جالساً إلى مكتبه كالحكمدار وعلى يمينه فوهات أكثر من خمسين بندقية مغمدة في فضاء الحجرة، وخلفه اللوحة الخشبية المثبتة في الجدران والمثقلة بألوان وأشكال من السلاسل والقيود والدروع والبلط والخوذات، وعلى يساره الخزانة الحديدية القديمة. . حين رأيته هكذا تخيلت أن لا حدود لرهبته وقوته، وأنه يستطيع ببساطة أن يقضم ذراعي أو يضع أصبعه في عيني، مع أني كنت متأكداً أن لا شأن لي به ولا شأن له بي. .

ووجدتني أترك كل ما في نفسي وكل ما يشغلني وأنضم إلى جيش العيون المنصبة عليه من الناس المزدحمين أمامه، والذين لا يفصله عنهم إلا سور خشبي منخفض. .

وبدا لي أول الأمر وكأنه ليس بكائن حي. . وإنما جسده قد صنع من

طلاء الجدران الأسود، ورأسه خوذة من الخوذات المعلقة وراءه، وعيناه فتحات بنادق، ولسانه لا بد كرباج . .

ولكني حين هدأت قليلاً واعتدت على المكان، وتأملت كيف وضع «الكاب» فوق رأسه في وقار مخيف، وزرر معطفه الضباطي - على غير العادة - إلى آخر زرار فيه، وشد جلد وجهه في تزمت صارم فاختفى كل ما فيه من تجاعيد وأصبح أملس كجلد الطبلة المشدود، وأضفى على نظرات عينيه بريقاً تحس معه أنه لا ينظر بهما إلى الناس بقدر ما ينقر ويلسع وحمل صوته ما لا يطيق وهو يشخط ويهدر بكلمات غير مفهومة كأصوات الرصاص . .

حين تأملت كل هذا بدا لي حينئذ كأحد الجنرالات الطليان الأسرى الذين كنا نراهم أثناء الحرب . . وحدث أن جاء شاويش أو بيتشاويش لا أذكر ووقف أمامه ونادى عليه:

- يا فرحات . .

عجبت كيف ينادي بلا تكليف هكذا، ولكن عجبي زال حين قال مرة أخرى:

- يا فرحات . . ياسي فرحات . .

ولم يرد الضابط النوبتجي إلا بعد أن قال له الرجل . . يا حضرة الصول . .

وكنت قد اقتربت حتى استندت مع غيري من المستندين على السور الخشبي وسمعت لهجته التي فيها آثار باهتة من ريف الصعيد، ونم صوته العالي عن الفضاء الواسع الذي ترعرع فيه، وعن مستلزمات الوظيفة من شخط ونطر وقد عملت عملها طوال تلك السنين فأتلفت صوته وأضافت

إليه حشرجة كالتي تلحق براديو القهوة البلدي من كثرة رفع صوته. وذهب الجنرال من خاطري تماماً ووضحت أمام عيني ملامحه التي كان يلفها ضباب الرهبة والسلطة، ورأيتها صعيدية خالصة بأنفه الكبير كأنف رمسيس، وجبهته الحادة العالية كجبهة منقرع، وشيخوخته التي تنم عن تاريخ حافل في خدمة البوليس إذ لا بد قضى أجيالاً حتى يصل إلى رتبة الصول، وقد دخل الخدمة «نفراً» ككل الأنفار. ورأيت جسده العجوز على حقيقته مستقيماً في أجزاء منبعجاً في بعضها الآخر، وقد فرضت عليه البدلة العسكرية والحذاء الثقيل و«القايش».. فرضت على جسده شكلها فرضاً كما يفرض قالب المكوى على الطربوش شكله وأبعاده. وكان من الواضح أنه يحب هذا المركز حين تسند إليه مهمة الضابط النوبتجي، ويحب أن يعامله الناس كضابط بحق وحقيق وهو الذي ـ بلا شك ـ قد قضى ثلاثة أرباع عمره يحلم بهذا وينتظر اليوم الذي يحمل فيه كتفه «النجمة».. وكان بادياً أن كتفه لن تحمل شيئاً من هذا القبيل، فهو وإن كان يقوم أحياناً بدور الضابط النوبتجي إلا أن الإحالة إلى المعاش كانت تبدو وشيكة، ونجمة الفجر أقرب إليه من نجمة الملازم الثاني.. وحين تركته وأدرت بصري في الحجرة ورأيت المكاتب الخاوية التي تركها أصحابها، ودولاب الدوسيهات، والمروحة القديمة الموضوعة فوق الخزانة والتي كان يبدو أنها لم تستعمل منذ عشر سنين على الأقل، وقد صنع التراب من نفسه عناكب فوقها، والمصباح الكهربائي الذي له «برنيطة» من الصاج، والذي يتدلى من السقف حتى يوازي رأس فرحات المائل على ما أمامه من أوراق، والناس المزدحمين حول الحاجز الخشبي والذين يكونون خليطاً ـ إن تنافر في أشياء ـ فإنه يتفق في نظرات القلق والحزن الغاضب والوجوه المنقبضة الجامدة. كان معظمهم متهمين عائدين من تحقيق النيابة

وتضمهم سلسلة حديدية طويلة، تبينت بعد حين أنهم لا يقيمون وزناً للسلاحليك أو السلسلة أو الصول فرحات نفسه. . فشخطته تقابل بزمجرة وأحياناً برد لا يقل عنها قسوة، حتى انفجر أحدهم مرة لأن فيشه وتشبيهه لم يكن بعد قد جاء من تحقيق الشخصية، وكان عليه لهذا أن يمكث في الحجز بلا إفراج حتى يجيء، انفجر ولعن الدنيا والحظ والفقر والذين كانوا السبب، ولولا الملامة للعن الضابط النوبتجي هو الآخر. ولمحت الضابط الذي في فرحات يعاني الحرج الشديد وهو يسمعهم يهدرون، ولكثرتهم وشراستهم وضربهم الدنيا صرمة لا يستطيع ـ كالضباط الحقيقيين في نظرة ـ إخماد ضجتهم. ولما انتهى منهم ومضوا وعسكري في أول صفهم وعسكري في آخره، والسلسلة ترن وتصلصل وهم لا يزالون يسبون ويلعنون، تنهد فرحات تنهد الذي وضع أصبعه في الشق.

حين تركته وأدرت بصري لكل هذا وعدت إليه وجدته حينئذ يبدو عجوزاً جداً. . عجوزاً إلى الدرجة التي تحس معها أنه عهدة من عهد الحكومة عثرت عليه ذات يوم أثناء «كبسه» على بلدته فصادرته، وختمته بالطربوش الأحمر والبدلة الميري، وظل في مخازنها حرزاً من الأحراز يبلى ويصبح كهنة ولا تبلى ما عليه من أختام.

وقال وهو يجوس بعينيه خلال الموجودين:

ـ أف. . أقسم بالله الأشغال الشاقة أرحم من دي شغله.

وتوقفت عيناه عليَّ وفيها دعوة واضحة، وكنت أنا الآخر لي ساعات وأنا صامت فوجدت نفسي أقول:

ـ ايه. . الشغل كتير والا ايه؟

وكمن كان ينتظر الفرج من زمن رأيته ينفجر:

ـ يو هوه يا أستاذ. . هو ده شغـل؟ . . دا سرك . . دا موريستـان . . الناس اجننت . . يعملوا ايه؟ . . حيخس عليهم حاجة؟ كله على دماغنا! والنبي أنا أشتغل في الحديد ميت سنة ولا أقعد هنا ساعة . . والأكاده أن كله كلام فارغ . . كله كدب . . تبالي وحياتك .

اللي معور نفسه . . واللي ضاع منه شاكوش . . واللي كان نايم قال وراحت طاقيته . . ونروح بعيد ليه؟ مش دي واقفة من الصبح؟ مالك يا بت؟ أبقـى مش الصـول فرحـات إن ما قالـت أنهـم ضربوهـا وأخـدوا سيغتها! . . مالك يا بت؟ فيه ايه؟

وكانت «البت» امرأة واقفة ضمن الواقفين ترتدي ثوباً كان أسـود ثم أحاله ساحر الحاجة إلى رمادي، وتتعصب بمنـديل كالـح لا يخفـي إلا القليل من شعرها البني الأكرت القصير وقد تلوت نهاياته وتنافرت، وكان وجهها غامقاً أسمر، وفي عينيها كحل أفسدته الدموع . .

وردت تقول في ذلة :

ـ أم سكينة والبت عيوشة وبنت أختها نبوية والواد . .

ـ مالهم؟ مالهم؟

ـ اتلموا علي وضربوني في بطني . . آه ياناي . .

وفي ومضـة خاطفـة كانـت في حالـة بكاء تام، وأضافـت والدمـوع والشهقات تختلطفي حلقها . .

ـ وأم سكينة . . عضتني . . هنا . . في كتفي . . وزغدتني في بطني . . والبت عيوشه قلعتني الحلق . .

وقهقه الصول وخشخش صوته وقال :

ـ شايف يا أستاذ؟ شايف؟ مش قلتلك؟ كله وحياتك كذب. . نصب واحتيال. . بقى بذمتك دي حيلتها البلى الأزرق؟ حلق ايه يا بت اللي خدوه؟ حلق حوش؟

ـ حلق دهب يا بيه وغويشتين. .

والتفت الصول إلي وقال بلهجة ذكرتني ينجيب الريحاني:

ـ تفتكر والنبي مين المجني عليه في الحكاية دي؟

ـ مين؟ . .

ـ أنا! . . أنا يا فندم. . ما هو الكذب العلني ده يبقى سرقة بالاكراه. . ومحضرها المصيبة من صورتين، والمصيبة الكبرى أن أنا اللي حاكتب الصورتين. .

واستدار إلى المرأة ولسعها بنظرة كاوية فيها آثار من لمعة الضحك وأمسك القلم وفتح دفتر المحاضر الكبير وكأنه يفتح بوابة المتولي وقال:

ـ هه. . إلهي وانت جاهي ربنا ياخدكم ويخدني معاكم خليني استريح. .

ولما انتهى من كتابة مقدمة المحضر سألها:

ـ اسمك ايه يا بت؟

ولم ينتظر أن تجيب أو يحفل بإجابتها، وواجهني مستأنفاً كلامه وأنا أحس أنه يحدث نفسه أكثر مما يحدثني:

ـ أنا والنبي المجني عليه. . ومش في الواقعة دي بس. . في ألف واقعة. . في دشليون. . يمكن ما تصدقش. . اتفضل آدي دفتر الأحوال. . اصطبحنا بهتك عرض في الطريق العام و ٥٩٢ اللي بعدها

نشل حافظة نقود قال فيها قال١٤٧ جنيه و٨٣ صاغ وورقتين بوسطة.. أقسم بالله ما كان فيها إلا الورقتين. ويمكن لجل الحلفان خمسة تعريفة كمان، واللي بعدها قال سرقة نحاس.. قايلين في البلاغ أن النحاس وزنه ٥٠ رطل ومتهمين الخدامة.. حتة بت قد كده.. متطلعشي كلها على بعضها عشرة أرطال.. وغيره وغيره.. من الصبح وأنا ايدي ما وقفت من الكتابة.. وكله ملاليم وكلام فارغ وكدب.. يا شيخ فضل.

والتفت إلى المرأة يسألها:

ـ ما تنطقي يا بت.. اسمك ايه؟

وقبل أن تجيب ضحك وقال كمن تذكر نكتة:

ـ واللا الجثة اللي لقيوها في الخرابة مالهاش صاحب.. قصدي صاحبها مجهول.. لقيوا السر الإلهي طلع منه كده لوحده ومن غير ما حد يكلمه.. قوللي؟.. اشمعنى نقى الخرابة دي يموت فيها؟.. يعني ضاقت الدنيا في وشه.. ماكنشي يتمشى لحد شبرا مثلاً؟ الله يرحمه مات.. وأتعذب أنا ليه؟

نهايته.. كتب عليكم الهم والغم كما كتب على الذين من قبلكم..

وأدار رأسه إلى المرأة:

ـ يا وليه اسمك ايه؟..

ـ خديجة..

ـ خديجة ايه.. انطقي..

ـ خديجة محمد..

ـ يا وليه تحركي.. محمد ايه..

وقبل أن تجيب أرقد قلمه. . وأسند كوعيه إلى الصفحة ووضع رأسه بين يديه وقال من تحت حافة «الكاب»، والمصباح الذي أمامه يهتز كالبندول فيتحرك ظل رأسه على الحائط الذي خلفه. . يتحرك رائحاً غادياً كقرد كبير:

ـ أنا المجني عليه والنبي. . هي حكاية محضر؟ هو أنا عجزت من شوية؟ ثلاثين سنة خدمة وحياتك ويومياً بهذا الشكل. . جبتها من المنزلة لعنيبة ومن العريش لمرسي مطروح. . وشفت اللي أدبح عشان عود قصب، واللي حرق جرن عشان كوز دره. . الناس أجننت. . هو الواحد شاب من شوية؟. .

وأنهى كلامه فجأة وانقض على يد كانت تمتد إلى المكتب وخبط عليها بعنف وعصبية قائلاً:

ـ قلتلك ميت مرة شوفلك نشافة تانية. . هو ما فيش في القسم كله إلا دي؟. . أعوذ بالله أحنا في سوق النور؟

قال هذا وانتظر حتى اختفى صاحب اليد مهيض الجناح، والتفت إلي بوجهه الجاد المشدود الملامح:

ـ والواحد يبقى حارق دمه. . وأولاد الـ«. . .» ولا هاممهم وعمالين يهزروا. .

وكان يشير بعينيه وهو يتكلم إلى حجرة التليفون حيث اجتمع بعض العساكر حول زميل لهم بدين مترهل وله كرش كبير، وكان بعضهم يكتفه والآخرون يحاولون جذب بنطلونه وإنزاله، والرجل يلهث ويناضل بكل ما يسمح به شحمه من قوة. .

وبركن عيني لمحت الصول فرحات يبتسم ويضحك ويقهقه، ثم

ينسى كل شيء ويمد رقبته يتابع المعركة. وظهر عليه أسف حقيقي حين انتهت المعركة بانتصار صاحب الكرش وتخلصه ممن حوله، ورفع حينئذ صوته قائلاً بلهجة صعيدية خالصة:

ـ آه يا نسوان. . ما قادرنشي على أبو كرش كليته «شغت»؟!

وما كاد يتم كلامه حتى فتح باب جانبي وظهر المعاون في الفناء وأصبح القسم فجأة أصم أبكم وهبطت الصرامة تجمد كل شيء، وقال الصول للمرأة في حزم:

ـ بتقولي اسمك خديجة محمد ايه؟ . .

وتركته يحقق وشغلتني عنه داورية الليل وقد بدأت تتجمع في الفناء وحين تجمعت بدا منظرها عجيباً. . صفان من الظلام التام ليس فيه إلا بريق الزراير النحاسية الصفراء، وفوق الظلام نار من الطرابيش الحمراء الفاقعة. . وأمام كل صف صف آخر من الأيدي الممدودة تسند البنادق بلا حماس. . وتسمع في الظلام همهمات وضحكات تموت سريعاً كالشهب، وقد يشذ عن الأيدي الممدودة كوع ويلكز جاره.

وفتش عليها المعاون وأنفه ـ كالديك الرومي ـ في السماء، وعينه على زرار لا يبرق أو حذاء نفض عنه بعض سواده، وراح وجاء ثم دخل حجرته، والظاهر أنه تعشى فقد خرج وهو ما زال يمضغ وعلى شفتيه لمعة وفتش مرة أخرى وهو يجفف يديه بعد أن اغتسل. .

واندكت الأرض بالأحذية وكعوب البنادق مرات، وعوقب بعض وكدر آخرون. .

ثم. .

جنبـان سلاح و . . كتفـان سلاح . . و . . داورية . . معتـادان مارش . .

وخرجت داورية الليل تئز وتتمـايل وفـي آخرهـا العسـكري البـدين يحاول عبثاً أن يوفق بين جسده غير المنتظم وخطواته المنتظمة . .

وأصبح فناء القسم بعد خروجها خاوياً كعربة قطار الليل حين يقترب من آخر محطة، وعدت إلى الصول فرحات فوجدتـه لا يزال يحقـق مع المرأة ويسألها:

ـ اتلموا عليكي فين؟ . .

ـ جوه السيما . . .

ـ وايه اللي دخلك السيما يابت؟ . .

ـ محمود . .

ـ محمود مين؟ . .

ـ محمود! ! . .

وهنا بدت على الصول فرحات صعيديته، وسألها وجبهته معقودة دون أن يكتب في المحضر:

ـ محمود دا ايه يابت؟ . .

ـ ابن خالتي . .

ووضع القلم من يده وهو يقول:

ـ آه يا بلد كابوريا يا ولاد الـ . .

وأخرج من جيبه علبة صفيح قديمة من التي تباع فيها السجاير الغالية ولمحت فيها سيجارتين سادة وواحدة بفله وعلبة كبريت. وأشعل السادة

وغمغم بأشياء مبهمة تمس الآباء والأجداد وانجاب الابهام حين قال لنفسه:

ـ سيما . . هه . . قال سيما قال؟ . . وتدخلوا السيما تنيلوا ايه؟ . . هو انتو بتوع سيما؟ . .

وانفلت من حديثه لنفسه يسأل المرأة وقد ثنى ظهره إلى الوراء ووضع ساقاً فوق ساق:

ـ وتدخلي سيما يابت مع واد زي ده ليه؟ . .

وبحث بعينه ناحيتي ولعله كان يود أن يشهدني على إجابتها فقلت له:

ـ ايه . . هو المحضر لسه؟ . .

ـ آه . . لسه . . هو هيخلص؟ . . حاضر . . أنا عارف إني عطلتك . . دقيقة واحدة وأفضالك . .

والظاهر أنه حسبني شاكياً أو مبلغاً . . ربما هذا . . وربما وجدني أصلح مستمعاً يفضفض لي بما عنده في ليلة من لياليه الطويلة فآثر أن يؤجل انصرافي . . وكتب شيئاً وهو يبتسم ويقول لي:

ـ وادي انت بتتسلى . . مش بذمتك أحسن ما لسيما؟ .

وتنهد وسأل المرأة . .

ـ هيه . . وطليقك سلطعليكي ليه؟ تروحي السيما تنيلو ايه؟ . . ما تتكلمي يابت طليقك سلطعليكي ليه؟ . .

ـ أصلي واخده عليه حكم نفقة . .

وكتب كلمة أو اثنتين والتفت إليٍّ بنظرة فيها استنكار:

ـ روايات؟ سيما؟ روايات ايه اللي بيعملوها دي؟ يبلوها ويشربوا ميتها أحسن!

ـ ليه مبتعجبكش؟ . .

ـ تعجبني؟ تعجبني ازاي؟ الفيلم لازم يملا مخ الواحد.. إنما ايه المسخرة والرقص اللي لا تجيب ولا تودي..

وأمسك القلم ووضع سنه على الدفتر وبدلاً من أن يكتب قال لي بفتور:

ـ أنا مثلاً لما قرفت من الروايات عملت مرة فيلم..

ولم تجعلني قلة حماسته أصغي إليه تماماً، ولكن كلامه وقع في أذني موقعاً غريباً فقلت:

ـ عملت ايه؟..

ـ عملت فيلم.. رواية..

ـ عملته ازاي؟ مثلت فيه والا ايه؟!

ـ لأ.. فيلم ألفته مخصوص عشان السينمات..

وكدت أستخف بالأمر كله وأضحك فقد اعتقدت أنه لا بد شاهد حادثة أو جناية من جنايات التي تحفل بها حياته ويريد بسلامة نيته أن يجعلها فيلماً، فقلت وأنا أكتم ضحكي:

ـ فيلم ايه بقى؟

فقال ببساطة ودون أن يتنحنح أو يعتدل أو يضع القلم، أو حتى يلقي بالاً إلى المرأة والناس الذين عند الحاجز:

ـ كان واحد هندي جه يزور مصر. راجل غني قوي.. من الجماعة اللي عندهم فلوس قد الفقر اللي عندنا. الراجل جه. وقعد في لوكاندة فخمة قوي زي ما تقول لوكاندة مينا هاوس واللا شبرد.. وكان فيه جدع غلبان زي حالاتنا كده..

وانتبهت حواسي كلها فجأة..

وملت على السور كثيراً حتى لا تفوتني كلمة من كلماته . .

وأقبلت امرأة تستغيث في شبه صراخ، وكانت بيضاء حلوة وحواجبها مخططة بعناية فائقة . . وزمجر فيها الصول فرحات :

ـ مالك يا وليه؟ . . مالك؟ القيامة قامت؟ . .

ـ الحق يا خويا . . الحق . . الواد موت أمه م الضرب!

ـ واد مين يا وليه؟

ـ الواد ابن جارتنا . .

ـ واحنا مالنا؟

ـ يوه . . مش أنت يا خويا النبي حارسك البوليس؟

ـ وهو يصح أن البوليس يدخل بين الواد وأمه؟

ـ يه . . ولما يموتها الدلعدي يا خويا؟ !

ـ تبقى تفرج . . نبقى في الحالة دي نروح نمسكه . .

ويئست منه المرأة فانتحت ركناً قصياً بالعسكري الذي كان يحرسني وراحت تهمس له بالقصة وتهمس له أكثر بحواجبها، ثم غادرت القسم والعسكري ساهم وكأنما أعجبته همسات الحواجب .

وعاد إلى الصول فرحات وقال :

ـ أما مصايب صحيح . واد قال! . . بس . . الجدع الغلبان ده كان خالي شغل . . يعني زي ما بيقولوا موظف في كوبانية الشمس . . يعبي الشمس طول النهار في قزايز ويسرح بيها في الليل . . هيء هيء . . أمال! . . آه . . فتك في الكلام . . الراجل الهندي ده مرة طالع م اللوكاندة فوقع منه فص ألماظ يسوى النهاردة بالميت سبعين تمانين ألف جنيه، شافه الجدع المصري قام واخده ومديه للغني الهندي . .

ـ فص ايه يا راجل يا بكاش؟

والتفتنا سويا، وكان الذي قال هذا شاويش طويل معه دوسيه ما لبث أن سأل فرحات:

ـ عملت ايه في المتوفى المجهول الاسم؟

وهب فيه فرحات:

ـ حاعمل ايه يعني؟ أمشي في الشارع أقول ياللي ضايع له ميت؟ . .

ـ أنا رحت المستشفى وشفته . .

ـ تشرفنا . .

ـ شوف يا سيدي عينه عسلية وشعره شايب وعلى صدغه الأيمن . .

ـ وبتقول لي الكلام ده ليه؟ . . هو أنا بعتك تخطبه؟ . . روح شوف شغلك أحسن . . عسلية ايه يابو طويلة يا هايف؟

ثم التفت إليَّ قائلاً: الراجل الهندي جه يدي للمصري فلوس إلا رأسه وألف سيف ما ياخد ولا مليم، يهديك يرضيك ما فيش فايدة فكبر قوي في عين الهندي واكيف منه تمام . . راحت الأيام وجت الأيام وروح الغني بلده وهو محتار يجازي المصري ده إزاي، فلقي أن أحسن طريقة أنه يشتري باسمه ورقة لوترية . . تعرف البريمو كانت تكسب كام؟ والا استنى أما نشرب شاي . .

وصفق كثيراً حتى جاء صبي البوفيه، وطلب الشاي واختلف معه طويلاً على الطلبات التي تناولها في يومه . . الصبي يقول ثلاثة وهو يقول اثنين، ولم ينته الخلاف حتى بإحضار الشاي.

وسمعنا باب المعاون وهو يفتح والمعاون يخرج ويقف في الفناء ويتمطى، وعاد فرحات يسأل المرأة:

ـ هيه. . ايه الحكاية؟

ـ لماخدت عليه الحكم. . لف عليّ عايزني أتنازل. . مارضيتش فبعتلي أمه وأخته وبنت خا. .

ـ هوس. . كفاية لحد هنا. . واتلموا عليكي في السيما؟

ـ أيوه وفضلو يضربو فيه لما كانوا حيسقطوني. .

ـ ايه؟

ـ أصل أنا حامل في ست أشهر. .

وترك الصول فرحات المحضر وقد استولى عليه حب الاستطلاع وأعجبته القصة وسألها:

ـ يخرب بيتك. . حامل من مين يابت؟

ـ منه يابيه. . من طليقي. .

ـ امتى؟

ـ قبل ما يطلقني. .

ـ وجوزك ده طلقك ليه وانت حامل؟

ـ عشان وقع علي اليمين. .

ـ يمين ايه؟ وطلقك امتى؟

ـ ليلة أول رمضان اللي فات. . كسرت قلة أمه وأنا قايمة أتسحر فحلف طلاق بالتلاته ليكسر قصادها دراعي! . .

ـ وكسر دراعك؟ . .

ـ لا. . طلقني. .

ـ أنا قلبي كان حاسس والنبي. . بقى قلة أمه هي السبب؟

بقى عشان قلة أمه اكسرت في رمضان اللي فات، يتحرق دمي النهارده طول اليوم. . قلة تمنها ساغ يا عالم أروح أنا ضحيتها؟

ـ اسمعي يا بت! هل لديك أقوال أخرى؟ عايزة تقولي حاجة تانية؟ . .

ـ أيوه يابيه . . عيوشة هي اللي مقلعاني الحلق . . وأمها هي . .

ـ أف . . يابت أقوال أخرى غير اللي قلتيها؟

ـ هو أنا لسه قلت حاجه . .

ولم أتمالك نفسي فضحكت، وتحول غضب الصول هو الآخر إلى قهقهة عالية وانتهى من المحضر، وتنهد وتثاءب وهز رأسه . .

وخرجت المرأة ومعها خطاب اللكشف عليها، ولدهشتي خرج معها كل الناس الواقفين.

ـ هيه . . كانت البريمو تكسب كام؟ . .

ـ انت لسه فاكر؟ . . تكسب مليون جنيه . . ما هي كانت غالية كمان!

واشترى ميت ورقة عشان يضمن المكسب، وجه السحب واحدة منهم كسبت البريمو . . مليون من غير الضريبة، وفكرشي الراجل أنه يطمع عليها ولا حد شاف ولا حد دري؟ أبداً . . عمل ايه؟ راح شاري غليون بضاعة كبير قوي . . ووسقه حرير هندي من اللي على أصله . . واشي عاج . . واشي ريش نعام . . واشي جوخ وكشمير ومابوليا محترمة . . وراح باعت المركب بالطقم بتاعها باللي عليها على اسكندرية، وراح باعت عقد البيع والبوليصة خالصة كل حاجة لصاحبنا على مصر . . يعني ما عليه إلا يستلم.

وهب . . وصلت المركب اسكندرية . . حاجة باسم الله ما شاء الله . . وبتاعة مين يا جماعة؟ . . بتاعت فلان . . بالاختصار الراجل باع البضاعة اللي عليها واشترى بيها مركب تانية، وخلى مركب رايحه بلاد بره شاحنة ومركب جاية شاحنة، وإذا كان حتة الطرد قد كده الواحد بيخلص عليه في

السكة الحديد بكذا.. شوف بقى مركب زي دى تكسب قد ايه في السفرية..

واندفع في هذه اللحظة إلى الداخل رجل قصير نحيل يرتدي جلباباً كله زيت وبقع ورأسه عار.. ويرتدي قبقاباً له صوت مزعج، اندفع كالسهم داخلاً وهو يقول وعلى وجهه ألم عظيم:

ـ يافندي.. يافندي..

وضايق دخوله الصول فرحات، وكأن أحدهم قد صوب إلى أرنبة أنفه لكمة فاستدار إلى الرجل وأرعد فيه:

ـ مالك؟

ـ ما ليش يافندي.. واد ابن حرام حدف طوبة كسرت لوح القزاز بتاع بترينة الدكان.. لوح القزاز اللي معرفشي أجيبه النهارده.. بنور بلجيكي من الأصلي اللي قبل الحرب.. تلاتة متر في تلاتة.. روح الله يخرب بيتك يا بعيد زي ما خربت بيتي..

ـ دكان ايه؟..

ـ بقالة المودة والإخاء في الشارع العمومي..

ـ عارفها.. اللي عالناصية قدام الجاراج؟..

ـ أيوه.. إلهي يعمر بيتك.. ربنا مايوريك..

ـ البترينة نهين اللي أكسرت.. اللي عالشارع والا التانية اللي ع الحارة..

ـ الكبيرة يافندي اللي ع الحارة.

فقال الصول وهو ينفض يده من الأمر ويستعد لمتابعة الرواية:

ـ تبقى مش تبعنا.. تبع بولاق..

ـ إزاي يابيه والبيت تبعكو..

ـ الناحية اللي ع الحارة تبع بولاق.

ـ يافندي اعمل معروف. .

ـ قلتلك مش تبعنا. . روح قسم بولاق. .

ـ ياف. .

ـ روح. . جك ريح خماسي. .

واندفع الرجل يقبقب خارجاً كالسهم: وانتظر فرحات حتى اختفت دقات القبقاب ثم رجع محاولاً أن يستعيد الجو الذي عكره البقال. . وثنى ظهره إلى الوراء كثيراً ومال الكرسي لانثنائه. . وخلع الكاب وأمسك به في يده يديره أحياناً وأحياناً يهف به وقال:

ـ الراجل كان طهقان من مراكب الخواجات، ففي ظرف سنة ربنا اداله واتسع قوي. . وحبه بحبه راح شاريلك مراكب اسكندرية كلها. . وما أصبحشي فيه مركب إنجليزي. . طلياني. . تلتاني. . كله رفع العلم الأخضر. .

ولاحظت أن ملامح الصول فرحات قد تراخت وانزاح عنها كل ما فيها من صرامة واشمئزاز واتخذت طابعاً عجوزاً راضياً، وعيناه هامتا في سماء الحجرة كفراشتين حالمتين، وصوته خلا من كل تشويش وحفل بنشوة طارئة حلوة كانت تخرج الكلمات من فمه لذيذة وكأنها محلاة بعسل النحل، فلا تملك إلا أن تحبها وتحب رعشتها الممتلئة بالرنين وهي تنساب في تؤدة من خلال السكون الحزين الذي خيم حتى أصبح القسم كسرادق المأتم في آخر الليل، حين لا تسمع فيه إلا فحيح الكلوبات. . وهمسات المعزين:

ـ وأصبح للراجل مراكب لا تحصى ولا تعد. . أصغر ما فيهم تيجي قد القسم ده عشرة خمستاشر مرة. يسكتشي على كده؟. أبداً. . الفلوس

مالحستشي عقله فراح شاري بالإيراد بتاع المراكب مصنع نسيج كبير قوي.. وشغل فيه ييجي نص مليون عامل.. بعد شهر واحد مصنع النسيج عمل مصنع قزاز. والقزاز عمل مطاحن.. ومضارب رز.. وبعد كده اشي محالج واشي سكر. واشي جاز. واشي ورق.. واشي مكن.. واشي صلب.. المهم إنه جه يوم عليه امتلك فيه مصانع مصر كلها..

وما عجبوش الحال الملخبط ده فراح لأمم المصانع وبناها على حتة تطلع ألف فدان لأ.. ألف ايه؟.. هي الألف تنفع. ييجي عشرة آلاف فدان.. خمستلاف منهم مصانع والخمستلاف التانية سكن فيها العمال.. مش سكن كلشنكان.. لا.. سكن.. بيت.. بجنينة ببلكونة وحاوي مما جميعه حتى فيه عشش الفراخ والأرانب. ومش بس كده كان ما يخدش من عرق العامل حاجة.. اشتغل بخمسة ياخد خمسة.. بعشرة بعشرة.. ما هو لا مؤاخذة في دي الكلمة العامل لما ياخد اللي يقضيه يشتغل ويتفرعن في الشغل.. واحنا شعب وارث الفرعنة أباً عن جد.. فبدل ما يطلع متر يطلع مترين.. وبدل جزمة جوز جزم.. مهو كده هات وخد.. اديني حقي وخد حقك.. انت راخر العامل أصبح حاجة تانية.. هدوم نضيفة أربعة وعشرين قراط، عفريته مكوية يروح بيها الشغل وييجي بعد الضهر يلبس بدلة الأيافة والطربوش النسر والجزمة الأجلسيه. وقهاوي ايه وجناين ايه وكازينات ايه وأبهة ايه.. والناس بقوا حلوين وفرحانين ومبسوطين.. ولا قرف ولا بلاوي.. طول النهار ضحك وفرفشة والليل يروحوا السيمات.. والسيمات دي مهمة قوي.. في كل شارع سيما وبالأمر لازم كل كبير وصغير يخش.. والأفلام، أفلام تمام.. وبوليس، مفيش بوليس.. العسكري بدل ما يتلطع ٨ ساعات في

الداورية له كشك قزاز في قزاز في وسط الشارع . . ومكتب صغير واللي عايز حاجة يجيله . .

استنى بقى لحسن الواغش بعيد عنك جه . . أما نشوف إيراد النهارده حيبقى كام . .

وحقيقة كنت أسمع الضجة القليلة التي أخذت تترى من ناحية الباب ، ولكنني كنت أنا المنساق هذه المرة وراء ما يقوله فرحات وما ذهلت له تماماً . .

والتفت ناحية الباب فوجدته قد ازدحم بأربعة مخبرين أو خمسة طوال عراض أيضاً ويرتدون اللبد ، وقد أمسك كل منهم في كل يد من يديه قبضة أطفال مشردين ، ومتسولين عجائز وكل منهم يجر ما في يديه جراً وقد ربط جلباب الطفل في جلباب الآخر . . وكان المخبرون يبدون كالعمالقة الطوال ، والأطفال يبدون بجوارهم قصاراً صغاراً كالكتاكيت المذعورة ، وعبروا الفناء ووصل ركبهم إلى السور الخشبي ، وكذلك وصلت ضجتهم فأنهى الصول فرحات كل الأصوات بقوله :

ـ بس . . أخرس انت وهوه . . وقفهم طابور يابو طه قدامي . . بطل كلام عمى في عينك . .

وذهب باقي المخبرين واصطف الطابور في سكون . .

ورجع الصول فرحات الى الوراء كثيراً وهو لايزال في نشوته فقلت :

ـ وبعدين . .

ـ ولا قبلين . . حالاً مكن من ألمانيا جه . . والمهندسين والعمال اشتغلت . . وراحوا زارعينلك الصحرا كلها . . شوف بقى الرملة دي كلها لما تزرع ؟ . . الاكس يمشي فيها سبع تيام ما يحصلش آخرها . . وأهم من ده

وده إن ما فيش قولة حاجة اسمها توابيت محاريث.. سواقي.. كلام فارغ من ده.. كله مكن.. الري بمكن والدراس بمكن والسباخ بمكن.. وحتى كان فيه مكن يجمع القطن ويحش البرسيم.. والفلاح اللي عليه العمل.. مفيش قولة جلابية.. طاقية.. بشت.. أبصر ايه معرف ايه.. أبداً كله بدل.. بنطلونات كاكي لحد الركبة وبرانيط بيضة نظيفة وجزم بنعل دوبل ما يدوبش أبداً. والفلاحين يسرحوا طابور يشتغلوا لغاية الضهر بس وبعدين يرجعوا طابور.. والنسوان كذلك.. بس دول في غيط ودول في غيط. والبيوت كلها حجر.. ولمض جاز تبطل خالص كله كهرباء والسحب على صاحب الأرض.. وكل صف بيوت له ميز ياكلوا فيه ويرجعوا لبيوتهم يقيلوا، وبعدين العصر طابور على المدرسة يقروا ويكتبوا ويعرفوا اللي لهم من اللي عليهم. بس يا سيدي ما طولشي عليك الراجل من كتر الفلوس عنده زهد فيها كانت أرخص من التراب.. وحاكم الفلوس لما تبقى بالشكل ده الواحد لازم يقرف منها. اللي ياكل تفاح كل يوم بيقرف منه.. ففي يوم من الأيام أعلن في الراديو.. أيوه.. مهو نسيت أقولك إنه عمل محطة إذاعة وعمل ليها في كل بيت من البيوت وصلة.. أعلن في المكرفون أنه متنازل عن جميع..

وكان الصول فرحات ينظر إلي ويقول كلماته الأخيرة وكأنه يفكر في مشكلة أخرى..

وقال للعسكري فجأة:

ـ انت واقف بتعمل ايه يا جدع؟! انت ما وراكشي شغل؟..

وقال العسكري في صوت متقطع:

ـ أصل.. الأ.. الأفندي.. أنا مستلمه..

ـ مستلمه؟ ليه؟

ـ حرس عليه . .

واستدار إليَّ الصول فرحات وألقى علي نظرة ما رأيتها منه قبل الآن واستمر يحدجني طويلاً، ولا ريب أنه لم يجدني أصلح كي أكون قاتلاً أو سارقاً أو خاطف طفل ولست أدري ما كان يعنيه حين قال في بطء وشك كثير:

ـ آه . الأفندي ده . هو انت منهم؟ . .

فقلت وأنا أبتسم:

ـ من مين؟ . . المهم . . الراجل أعلن ايه في الإذاعة؟ . .

واستمر ينظر إلي ثم قال بصوت تائه:

ـ آه . . والله مانا فاكر . . يا شيخ فضك . . أهو كلام . . أنت بتصدق؟

ثم شد جلد وجهه حتى عاد كالطبلة الصارمة، وجذب «الكاب» حتى بلغ موضعه التقليدي من جبهته تماماً، وهوى على «المتسول» العجوز الواقف في أول الصف بنظرة صاعقة من عينيه، وانطلقت جعجعته المعهودة:

ـ ما تنطق يا بجم . . اسمك ايه؟!

الطابور

تتشابه الأسواق في الأرياف ولا تكاد تختلف، فكل منها فضاء واسع يحده سور، وله باب وعلى أرضه دكاكين بضاعة ذات رفوف فارغة قد لوحت أخشابها حرارة الشمس وليالي الشتاء، ثم مصاطب مبعثرة مصنوعة من تبن يؤلف بينه طين. .

ويوم السوق هو بلا شك أروع الأيام وأشهرها، وهو الزحمة التي تحدث كل حين مرة معلنة وكأنها ساعة بشرية هائلة انقضاء أيام سبعة وفراغ جيوب وامتلاء جيوب، وقبض أجور واختلاس أجور، وشبع ناس وجوع ناس، وتقيس العمر. .

وبعد أن ينفض السوق يبقى الفضاء لا تؤمه إلا الغربان وأسراب الخرفان والماعز الطوافة، وفرق الرياضة من التلاميذ، والمباريات وكرة القدم. .

وتتشابه الأسواق في الأرياف إلا سوق السبت في تلك الناحية، فقد كان يتميز بظاهرة غريبة، فسوره كله كان مصنوعاً من حدائد لها أطراف مدببة ما عدا جزءاً صغيراً منه لا يتجاوز المترين قد بني من الدبش والأسمنت وأحكم بناؤه. .

ومن قديم والناس يختلفون في أمر ذلك الحائط الصغير. .

كانوا يقولون أول الأمر إن تحت الحائط كنزاً يفتح على ديك يؤذن ذات فجر ويكون للموعود، ولكن ما لبث هذا القول أن بهت وأصبح التسليم به كالإيمان بطلوع ليلة القدر، حكاية تذكر من قبيل التمني. .

ثم قالوا إن الحائط اقيم فوق فوهة بئر كانت تتسرب منها الجن من باطن الأرض إلى ظاهرها، فأقيم الحائط ووضع فيه مصحف وبخاري وأحجبة وقطع زجاج مكسور ليمنع تسرب الجان، ولكن هذا القول كسابقه لم يعمر طويلاً. .

ثم شب جيل كان أقل خيالاً من سابقيه رأى في الحائط الصغير تجربة كان القصد منها بناء السور كله من الدبش والأسمنت، وفشلت التجربة. .

ولا يكف الناس أبداً عن إيجاد تعليل. .

ومع هذا بقي السبب الحقيقي لا يكاد يصدقه أحد. .

فالسوق أول الأمر لم تكن سوقاً وإنما كانت قطعة أرض بور لا ينبت فيها زرع. . رأى أهل القرى المجاورة أنها أقرب مكان يفدون إليه مثقلين بالغلة والبلح والجبن، ويعودون وقد خفت أحمالهم بالدمور والمرايا والسكاكين الخارجة لتوها من تحت يد الحداد. وكانت تلك الأرض جزءاً من الأملاك الواسعة التي آلت لأحد أعيان الجهة الذي ينحدر من سلالة من ترك أو مماليك. . الله وحده يعلم. .

ورأى المالك في قدوم الناس ومواشيهم إلى أرضه البور كسباً له وطريقة لإخصاب الأرض حتى يزرعها بعد حين، ولهذا سمح لهم

بالقدوم بل كان يشجعهم على القدوم حين يمر وسط زحمتهم راكباً فرسه وموزعاً ابتساماته الراضيات . .

ولما رأى أن الأرض قد استوت للزرع بما خلفته فيها المواشي من بقايا، أراد حرثها وحرثها، ومع هذا قدم إليها الناس مثقلين وغادروها خفيفين، وبططوا الحرث وأقاموا السوق. .

وطرد الناس وحرثها مرة أخرى. .

وفي الأسبوع التالي أقيم السوق أيضاً وبطط الحرث.

وأشار عليه أيامها ناظره العجوز أن يستغل الأرض بطريقة أخرى فيترك الناس يجيئون على أن يأخذ ضريبة على المتسوقين. وأخذ المالك بنصحه، وفي الأسبوع التالي انطلق محصلوه يترصدون القادمين ويجمعون الأتاوة، ولكي يزيد الإيراد ويقلل المصاريف أقام حول الفضاء سوراً من الخشب جعل له باباً على الطريق الزراعي وجعل على الباب محصلاً واحداً. .

وهكذا وجدت سوق السبت، وما لبثت أن عمرت وازدهرت وأضيفت إلى بلادها بلاد، وأضيفت إليها هي سويقات للحمير والجمال، واكتملت أصنافها حتى من «البوظة السادة» والعرقسوس. .

وكنت تعرف أن السبت يومها حين تجد الناس في الصباح الباكر يزحفون صوب السوق من كل اتجاه، وتجد الطرق المؤدية إليه قد حفلت بلابسي العمائم والجلاليب والذين بلا عمائم أو جلاليب، وراكبي الحمير وساحبي الأبقار، وحاملي المقاطف وطالقي الجواميس والمتوكلين على الله . .

ولم يكن على أهل القرى الغربية أكثر من أن يعبروا الطريق الزراعي ويدخلوا من الباب ليصبحوا في قلب السوق. أما أهل القرى الشرقية

فالمسألة بالنسبة إليهم كانت أصعب، فالمشايات التي تنحدر من قراهم كانت تلتقي عند الساقية القديمة في مشاية واحدة ضيقة تنتهي عند نقطة في السور الشرقي تقابل الباب في السور الغربي، وكان عليهم لكي يدخلوا من الباب أن يلفوا حول السور كله وفي هذا تعب ومشقة ودوشة لا لزوم لها. فاختصروا الطريق إذن وكسروا خشبة من أخشاب السور وأصبح الأمر لا يكلفهم أكثر من المروق بين خشبتين ليصبحوا في قلب السوق.

وبمضي الوقت أصبحت المشاية الضيقة طريقاً معترفاً به من السوق وإليه، وأصبحت الفجوة التي في السوق باباً كأحسن ما يكون الباب. .

وكان لصاحب الأرض «سرايه» تطل على السوق، كلها مشربيات وشرفات وسلامليكات وأشياء من هذا القبيل، والظاهر أنه كان واقفاً في شرفته ذات يوم فرأى طابوراً لم يكن يعرف كيف يبدأ ولكنه رآه ينتهي في السوق من خلال السور، فجن جنونه وركب رأسه، وركب كذلك حصانه، وانطلق يرى الأمر. وهناك رأى الفتحة فشلضم وبرطم وأمر بإصلاح الخشبة المكسورة في الحال. .

ويوم السوق التالي وقف في الشرفة يشمت في الطابور الذي لا ريب سيتكسر عند السور، ولكن آلاف العفاريت ركبته حين رأى الطابور يواصل سيره المعتاد. .

ولما أسرع يعاين وجد الخشبة الجديدة مكسورة، ويقولون إنه جلد النجار الذي أصلحها وجلده مرة أخرى ليصلحها، بل وقف على رأسه حتى أتمها وامتحن متانتها بنفسه. وفي السبت التالي روع الرجل بالخشبة مكسورة.

واحمر وجهه بالحمق حتى كاد يدمى. وقطع شجرتين من أشجار السنط وكومهما حتى سدت الفجوة. .

وما مر الأسبوع حتى كانت الشجرتان كل في أقصى ناحية والطابور لا يزال لا بداية له، ولكنه ينتهي داخل السوق من خلال الفجوة. .

وكاد شريان من شرايين الرجل ينفجر، وهذه المرة كلفه استعمال عقله ليلة بأكملها. وفي الصباح أحضر فرقة من الصعايدة بكريكاتهم وفئوسهم وما انتهى الأسبوع حتى كانوا قد حفروا ترعة حول السور كالخندق وأطلق فيها الماء.

ولم يتعب نفسه ويقف يوم السوق في الشرفة ولا ما بعده من أسواق فقد كان متأكداً تماماً من انقطاع الرجل. .

والذي حدث أن شجرتي السنط جيء بهما ووضعتا في الخندق وبقي ظاهراً منهما ما يكفي ليخطى الإنسان عليه في أول سوق بعد الترعة، ثم قلقلت كتل من الطين الجاف، نفس الطين الناتج من حفر الترعة وأسقطت فوق فروع السنط وبعد أسابيع ردم جزء من الترعة أصبح يصل بين المشاية والفجوة.

ويبدو أن الرجل كان راكباً فرسه يتنزه ذات يوم فوجد المشاية واصلة إلى السور وظل يسب ويرطن أياماً، وظل كذلك يكظم غيظه، وقد أصبحت المسألة مسألة كرامة وعند وتحد من الفلاحين العبط. فانتقى من بين خفرائه ثلاثة طوالاً عراضاً وقال لهم: خراب بيوتكم إن نفذ أحد. .

ويوم السوق تلكأ الطابور لأول مرة وما لبث أن توقف، فقد نشبت عند السور خناقة كبيرة، وفي الضحى حمل الطوال العراض إلى السراية ودمهم يسيل. .

واستعاد الطابور بقية اليوم سيره وسرعتـه. وطـاب الخفـراء وعـادوا يحرسون الثغرة، ونشبت معارك أقل حدة، وتلكأ الطابور مراراً ثم كف عن تلكئه واستأنف سيره تحت وابل من حفن الجميـز، أو خيارتين، أو طورة بلح، أو نفس دخان، أو حتى عواف عليكو يا رجاله..

وذات مرة رأى صاحب الأرض خفـراءه جالسين يستظلـون بشجـرة الجميز وتأتيهم المنح من الذاهب إلى السوق والعائد منه فطرد الخفراء وأحضر بنائين وأحجاراً وبنى ذلك الحائط العالي الذي أغلق الفجوة تماماً وجار على ما حولها، وأغلق كذلك كل فجوة في نفسه ممكن أن يتسرب منها الشك فى احتمال فشل الحائط.

ولم يكد سبت واحد يمضي حتى اكتشف الرجل مخبولاً أن الخشبة التي بجوار الحائط تماماً قد كسرت، وأن فجوة جديدة قد صنعت..

وأقسم يومها أن يبيع السوق..

ولم يتح له أن يبر بقسمه إذ استولت عليه شركة الأسواق، بناء على مرسوم وامتياز وبأقساط طويلة الأجل..

ومع أن الشركة قد أقامت بدلاً من الخشب سوراً من حديد كلما بلي جددته، ومع أنها لم تركب رأسها كالصاحب القديم فتستأجر فتـوات أو تقيم حيطاناً، بل استعانت بالمركز فجعل لها كل سبت كوكبة صغيرة من الخيالة تجوب السور رائحة غادية..

مع هذا إلا أنك إذا وقفت في الصباح الباكر من أي سبت، فسـوف تجد المشاية تحفل بالطابور الذي لا تعرف كيف يبدأ، ولكنك تراه ينتهي في السوق من خلال السور.

ودائماً ستجد هناك حديدة مكسورة..

رمضان

كان فتحي ـ وهو صبي في العاشرة من عمره ـ ثائراً جداً على الرجال الكبار وعلى أبيه بنوع خاص، فمن حوالي ثلاثة أعوام على ما يـذكر طلب من أبيه أن يصوم رمضان فقال له أبوه: لا يصبح قبل أن تبلغ الثامنة. وكظم فتحي صبره وانتظر عاماً طويلاً على مضض. وحين حلت مقدمات رمضان من العام التالي وبدأ يرى «الفطرة» و «النقل» و «عين الجمل» تملأ الأجولة أمام الدكاكين، لم ينتظر حتى يفاجأ بالأمر الواقع ،وإنما قبلها بكثير انتهز لحظة انسجام من لحظات أبيه ـ وفتحي يعرف أن لحظات الانسجام تلك تأتي في أول الشهر ـ انتهز الفرصة وذكره بما قاله في العام الماضي وأردف هذا بقوله أنه خلاص قرر أن يصوم. وادعى أبوه النسيان التام في أول الأمر، ثم لما أخذ يذكره ويضيق عليه الخناق قال له : لا صيام لمن لا يصلي.

وكانت إجابة فتحي حماسة صريحة إنه حتماً سيصلي.

وحسب أن الأمر لن يكلفه أكثر من الوضوء والصلاة، ثم يتاح له بعد ذلك أن يصوم.

وكان في هذا متفائلاً جداً إذ لم يتح له أبداً أن يصلي كما أراد.

فقد توضأ كما تعلم في المدرسة، وفرد «سجادة» أبيه ليصلي عليها فإذا بأبيه يسبقه ويطويها. ولما سأله فتحي عن السبب أجابه بأنه يشك في وضوئه وطهوره، ويخاف على السجادة أن تلحقها النجاسة. فترك السجادة وصنع لنفسه مصلى من جلبابه القديم النظيف، ولم يعترف أبوه أبداً بطهارة الجلباب وبالتالي لم يعترف بصلاته. وقرر فتحي حينئذ أن يجبر أباه على الاعتراف فيذهب ويصلي في الجامع.

وملأه الجامع روعة وأحاسيس رنانة فيها دمدمات موسيقية ضخمة.. يكح المصلي من هؤلاء فيكح فراغ الجامع الهائل كله، وإذا قيلت: بسم الله الرحمن الرحيم فسرعان ما تتضخم، وترن وترن، وتكبر وتكبر وتتموج وتلد بسملات أخريات تتصادم وتتكسر عند الجدران العالية الملساء.

ويكون الجو في الخارج ناراً وقيظاً والجامع وحده هو الذي يحفل بطراوة ممدودة حلوة ترد الروح. ويكون الضوء في الخارج فظيعاً في كثرته وقوته ،ولكنه يتهادى في النهار إلى الجامع من البرج الذي في أعلاه المصنوع من زجاج ملون ويسقط منه على المصلين فيلونهم تلويناً جميلاً.. وجه يبدو أحمر والرقبة التي بجواره زرقاء، وعمامة صفراء وعين بنفسجية.. وفي الليل تضيء الثريات.. يا سلام على نورها الكثير الذي يشع وينور ويزغلل.

أما المصلون أنفسهم فكان فتحي لا يحبهم إلا إذا صلوا جماعة واصطفوا صفوفاً وراءها صفوف في نظام وخطوط مستقيمة، ويقول الإمام: الله أكبر فيردد المصلون جميعاً وراءه: الله أكبر، وكلهم في نفس واحد وكأنهم رجل واحد، كبير جداً أكبر من سيدنا الحسين، وصوته ليس

مرتفعاً يخيف إنما صوته يرن رنيناً حلواً يحس معه فتحي أنه لا يصدر عنه وإنما يصدر عن ملائكة كثيرين يملئون صدر ذلك الرجل الكبير.

ثم الأروع من هذا حين يسجد المصلون ويراهم فتحي باركين على الأرض . . باركين، مئات الظهور المنحنية كلها متشابهة وإن اختلفت في ألوان ملابسها، صانعة بهذا سجادة عالية محببة مزخرفة بكل الألوان تفرش المسجد من الحائط للحائط . .

وفي الجامع أيضاً لاقى الأمرين . . فإذا ذهب يتوضأ من الحنفيات ترك الرجال الكبار وضوءهم ومضوا يترقبونه ويتمنون له الخطأ. ويتدخل أحدهم قائلاً: اغسل اليدين حتى المرفقين يا ولد . . فإذا غسلهما للمرفقين تصدى له آخر: يا ولد . . ذراعك التي غسلتها لامست ذراعك التي لم تغسلها . أعد الوضوء . . ويعيد الوضوء مع أنه يكون متأكداً أن ذراعه لم تلامس ذراعه الأخرى ولا قاربتها. أو قد يبتسم له شيخ له لحية طويلة ابتسامة صفراء ويقول: انت استنجيت يا شاطر؟! ويخجل فتحي جداً ويهز رأسه، ولكنه يترك الوضوء كله وينفض يده منه ويذهب ليتوضأ في بيتهم حيث لا رجال ولا شيوخ . .

وإذا ما وقف ليصلي جماعة لاقى الصعاب، فإن الذي بجواره يدفعه من كتفه قائلاً: روح للصف الثاني. والصف الثاني يدفعه إلى الثالث وهكذا إلى أن يجد نفسه في النهاية واقفاً في الآخر بلا صف. ويجد نفسه هو والصغار الآخرين الذين ذهبوا يصلون منبوذين مطرودين فيصنعون وأمرهم إلى الله صفاً أخيراً. وما أسرع ما أدرك فتحي أن الوقوف في الصف الأخير له ميزة إذ يتاح له من مكانه هناك أن يشاهد المصلين جميعاً وهم راكعون أو ساجدون، ومن فرط ما أحب فتحي مشهدهم ذاك كان إذا صلى جماعة وركعوا هم كلهم أو سجدوا يبقى هو بلا ركوع أو سجود، ليستطيع

أن يستمتع بمشهدهم. . حتى إذا ما قاربت الحركة على الانتهاء سارع هو بالركوع أو السجود لئلا يلحظه أحد. .

وهم في صفهم الأخير ذاك كان لا يعدم الأمر أن يأتي مصلٍ مسن متأخراً ليلحق بصلاة الجماعة، فما أن يرى صفهم حتى يهب فيهم: صلاة ايه دي اللي كلها عيال. . امشي قليل الأدب منك له. ويتفرقون ويتبعثرون ويطيرون تاركين المسجد كله للكبار. .

وإذا كان سعيد الحظ ورضي إبن حلال أن يوقفه بجواره في الصف فلا بد أن أحدهم سيخرج من صلاته ليقول له: يا وله. . انت بتصلي من غير طاقية. . امشي شوف لك طاقية عمى في عينك!

ولهذا لم يتح لفتحي أبداً أن يصلي بانتظام، وكذلك لم يتح له أن يوفي الشرط الواجب للصوم. وكان يهمه جداً أن يصوم. . ولم يتحمل كل هذا العناء سدى. . كان يهمه أن يصوم ليستطيع أن يتناول السحور فلا يتناوله إلا الصائمون. .

وكان السحور عند فتحي تعادل لذائذه كل القصص التي قرأها والأفلام التي شاهدها ومرأى الأسود والقرود في حديقة الحيوان. . وكل لذائذ أخرى موجودة في العالم. ولم يكن قد أتيح له أن يحضر السحور أو يتناوله، كان يسمعه. .

فحين يعود بعد أن يكون قد شبع نطاً وجرياً وصراخاً ولعباً مع غيره من أطفال الحارة ـ والظاهر أن رمضان يغير من عادات الكبار ـ فالكبار يودون للأطفال دائماً أن يحيوا حياة مثل حياتهم. . حياة كلها جد وخطورة، فهم لا يلعبون ولا يودون لهم اللعب، وهم لا يستسيغون الصراخ والقفز ولا يودون للأطفال أن يقفزوا أو يصرخوا، بل يريدونهم دائماً أن يظلوا

جالسين مؤدبين متزمتين مثلهم. وكان رمضان إذا جاء وأكل فيه الكبار وشربوا ـ ورمضان الذي هو شهر الصوم يأكل فيه الناس أكثر مما يأكلون في أي شهر آخر ـ إذا أكلوا وشربوا، تحدثوا وسهروا وتناقشوا وأصبحوا أكثر إنسانية، فليس غريباً إذن أن يسمحوا للأطفال أيضاً باللعب وبالبقاء خارج البيوت وقتاً أطول.

كان فتحي يعود وقد استهلك كل طاقته الصغيرة من النشاط، ومع هذا.. ومع ما يكون فيه من تعب لا يأتيه النوم، فبعد وقت قد يطول وقد لا يطول يبدأ السحور، وحينئذ يرقد في فراشه وكأن قد انتابته نوبة ملاريا خبيثة تؤرق جسده فينقلب إلى اليمين وسرعان ما يمل اليمين فيفتعل الحركة إلى اليسار، ويطوح بيده ويشد الغطاء ويرخيه، وأذناه وعقله وانتباهه كله.. هناك.. في الحجرة المجاورة حيث أبوه وأمه يتناولان السحور..

كانا يبدآنه بصمت لا يسمع فيه إلا تثاؤب أبيه، وأمه وهي تغمغم بآهات وتشكو من تعبها ومفاصلها ومن الجيران ومن قطط الجيران وكلابهم والعيش الذي جف. ثم كان أبوه يتطوع ويقول كم الساعة وقتها دون أن تسأله أمه، ولا ريب أنه يفعل ذلك ليفتتح حديث السحور وما ألذ حديث السحور..

كان أبوه هو الذي يتحدث في الغالب، وإذا تكلمت أمه تقول كلمات مقتضبة أو تعيد الشكاية من مفاصلها. وكان فتحي يحب أباه لحديثه ذاك حين يتكلم بصوت فيه تلك الرنة التي تصاحب صوت المستيقظ لتوه من النوم، ويخرج كلامه إلى الظلام والسكون فيبللان ذلك الرنين ويحيلانه إلى نغمة حبيبة تنفذ إلى قلبه وتنغزه، فيتمنى لو قام في التو وعانقه وقبله..

وحين يتحدث أبوه وفي فمه بقية من طعام. . ويمضغ قليلاً ثم يتابع الحديث الذي تحيطه هالة موسيقية من أصوات الملاعق وهي ترن في دقات معدنية هامسة، كان حينئذ يتصور أن أباه ينطق شهداً، ويستعذب الطعام الذي يمضغه دون أن يعرف ما هو حتى لو كان طعمية، ويطوح بيده ويشد الغطاء ويرخيه ويتمنى أن يقفز من الفراش ليكون قريباً من حديثه ونبراته. .

وحين كان الحديث يعرج على الأولاد ـ أي على فتحي وأخوته ـ كان يتمنى أن يتعثر بائع الزبادي الذي ينادي بصوته المزعج في الخارج ويسقط في حفرة فيسكت، وأن يضرب جارهم امرأته التي تصرخ بصوتها الملسوع ولا تتوقف ويأمرها بالسكوت، وتصمت الدنيا كلها ليستطيع أن يسمع أباه وأمه وهما يتحدثان عنه. فأمامه في النهار لم يكونا يتحدثان إلا ليلوماه أو يأمراه بإحضار شيء أو يشتماه، أما حديثهما من ورائه ـ وهما معتقدان أنه نائم ـ فقد كان يود بحياته كلها أن يسمعه، ويسمع المشاريع التي يدبرانها له. يقول أبوه: نشتري له بدلة كاملة للسنة الجايه، ويدق قلب فتحي وكأن البدلة جاءت وارتداها. وتقول أمه: أحسن نوديه الزراعة المتوسطة يخلص بسرعة. ويغتاظ فتحي ويكاد في مرقده يقول لا بأعلى صوته، ولكن أباه يتولى الاجابة ويصر على دخوله الثانوي، فيقول فتحي في سره: يحميك يا أبي.

ويصبح حينئذ طرفاً ثالثاً في الحديث، طرفاً بعيداً يسمع ويرضى ويفرح ويسخط ويثور، وهو آمن أنه يستمع إلى الحقيقة المجردة، وأن ما يقوله أبواه هو الذي سيقرر مصيره وليس الكلام المنمق الذي في النهار. .

ثم الكارثة. . حين يحس فتحي ـ وقد تربى له من أجل ذلك إحساس

مخصوص ـ أن الطعام قد انتهى. . فيبدأ بطنه يمغص ولعابه يسيل، حين تنساب إلى أذنيه أصوات أبويه وهما يغمغمان في إبهام، وتبدأ أصوات مضغهما تأخذ طابعاً معيناً يعرفه فتحي جيداً، إذ في هذه الأثناء يكون دور «الكنافة» أو «قمر الدين» أو باقي القائمة قد أتى، ومع أن فتحي يكون عالماً تماماً أن سيناله من كل صنف نوب في الصباح، إنما فرق كبير بين أن يأكل الكنافة في السحور هكذا والسكون شامل والدنيا ظلام والنور جميل، وبين أن يأكلها في وضوح الصبح وشمسه الكثيرة وذبابه وضجيج أخوته ومنازعاتهم. . فرق كبير. .

حين يبدأ السحور كانت تبدأ سعادات فتحي. . وكذلك تبدأ متاعبه فإذا لم يعجبه الطعام ظل راقداً مستيقظاً أسعد ما يكون برقدته واستيقاظه وسماعه حديث السحور، أما إذا لم يعجبه الحديث وسخط على مشاريع المستقبل أو هفت نفسه إلى صنف من أصناف الطعام، كان حينئذ لا يتحمل الرقاد فيقوم مدعياً الذهاب إلى دورة المياه ماراً بالصالة، وحريصاً على أن يري نفسه لوالديه في ذهابه وإيابه، وأن يريهما بالذات وجهه المتجهم الذي يكاد يبكي. . بل أحياناً كان يبكي، وأحياناً كان يسأله أبوه عن سبب بكائه فيبكي أكثر، فإذا ألحف أبوه ادعى بعد لأي أن عنده مغصاً مثلاً أو أن برغوثاً قرصه، فإذا ضحك أبوه ازداد بكاؤه. . وكل همه أن يشعرهما أنه غاضب. وأحياناً كان يدعي أنه يحلم ويصرخ فيجري عليه الوالدان ويمثل دور المستيقظ لتوه من كابوس تمثيلاً ـ والحق يقال ـ رائعاً، حتى أن واحداً من والديه لم يشك أبداً فيه. وكان ما يضايقه جداً أنهما لم يفهما أبداً ولم يدعواه أبداً إلى مشاركتهما السحور أو حتى الجلوس والاستماع إلى الحديث. . كل ما يقولانه. . نام يا خويا. . نام يا

حبيبـي. . اسـم الله عليك. . وكلام مثـل هذا من كلام الشبعـانين المتحدثين المستمتعين. .

كان من الضروري جداً أن يصوم فتحي. .

وظل ساخطاً على الكبار وعلى أبيه بصفة خاصة، حتى أجابـه إلـى مطلبه أخيراً.

جاءت ليلة النصف من شعبان وأنذرهم فتحي بأنه لا محالة صـائم فطبطب أبوه على كتفه وقال: إن شاء الله.

وافرح يا فتحي وأخبر كل الأولاد والقرايب والعمـات والخـالات. . خلاص انتهى كل شيء وابتسمت الدنيا، أجل سيصوم! قال له أبوه هذا وانتزع التصريح من أمه.

وجاء رمضان، وليلة أول سحور لم ينم بل حتى لم يخرج من البيت ليلعب مخافة أن يغافله أبـواه وهـو في الخـارج ويتسحـرا. فإذا أصبـح الصباح قالوا معلهش لقد فاتك السحور فلا ينبغي أن تصوم. .

وحين جلس الثلاثة في النهاية هو وأبوه وأمه، كان فتحي حريصاً جداً ألا يحدث صوتاً أو يسقط شيئاً، فقد كان خائفاً خوف الموت أن يصحو أحـد أخوتـه الصغـار ويصـر علـى السحـور، قائـلاً وهـو يبـكي بكاء سخيفاً: اشمعنى فتحي؟. . ومن يدري فقد يرق قلب الوالدين ويوافقان؟ فتفسد الوحدانية التي يتمتع بها معهما ويفسد تعب السنين.

وحدث لأمر ما أن قام أخ من أخوته وعبر الصالة إلى دورة المياه، فقال لأبيه: على فكرة. . دا قايم يتمحك وبس. . أوعوا تسألوا عنه. .

ومهما كان ما حدث في ذلك السحور. . وكان أول سحور في رمضان

جمهورية فرحات

ويزخر كالعادة بأطايب الأطعمة. . مهما كان ما حدث فإن فتحي لم يجد له ذلك البريق الذي أحرق خياله أياماً وليالي، بل ناله ما يناله دائماً إذا وجد في حضرة الكبار: هات دي. . ودي دي. . ناولني ده. . شوف ايه اللي بياكلني في ضهري.

ونام فتحي. .

وصحا متأخراً، بل استيقظ مبكراً ولكنه آثر أن يبقى متناوماً حتى يغادر الفراش في الضحى كما يفعل الكبار تماماً. . صحا وفي عقله حقيقة واحدة: ألا يسهو ويشرب فقد حذره أبوه مراراً من هذا. .

وراح ينظر إلى أخوته وهم يحدثون بكلامهم وعبثهم ضجة الصباح الوجلة، التي تكفيها شخطة واحدة لتنتهي. . راح ينظر إليهم ويستصغرهم ويستصغر ما يقومون به قائلاً في سره: لهم حق. . فهم فاطرون. ولكنهم بدءوا يحلون لغزاً كان وارداً بإحدى المجلات.

ووضح من كلامهم أنهم يلفون بعيداً عن الحل، وكان لا بد أن يقنعهم بأنهم صغار وأنه ذكي ولا بد أن يحله هو قبل أن يصل واحد منهم إلى حله. فتخلى عن الفراش وقام ببطء وهو يحس أن شيئاً كبيراً ثقيلاً يملؤه، وأن في فمه طعماً غريباً قابضاً. .

وحين جلس معهم وحاول حل اللغز ففشل أدرك أنه لغز تافه لا يستحق اهتمامه، بل بدا له أن كل ما يحدث في العالم إن هي إلا أشياء تافهة لا تستحق عناء الجلوس، وعاد إلى النوم مرة أخرى. . عاد وهو مطمئن فهو في إجازة، ورمضان كان طيباً فجاء في الصيف هذه المرة. .

واستيقظ فتحي لا لأنه كان يريد أن يستيقظ، ولكن لأن شيئاً أقوى منه

أجبره على أن يتململ ثم ينتبه ويصحو. وكان الطعم الذي في فمه قد تغير وأصبح فمه جافاً يكاد يكون لا طعم له، وأحس لحظة أن فتح عينيه أنه عطشان. وفي الحال قام ووجهته الماء.. ولكنه توقف حين طردت الخطوات القليلة التي خطاها البقية الباقية من النوم في رأسه، وأدرك أنه صائم. وفرح وكأنه كان سيسقط في حفرة ثم تبينها.. ولكن عجيب هذا.. أنه ما أن أدرك أنه صائم حتى ازداد عطشه.

وجلس على الكنبة التي في الصالة.. كانت أمه في المطبخ غارقة لأذنيها في إعداد الطعام، وأبوه في الشغل وأخوته لا يبدو لهم أثر، والساعة حوالي الثانية عشرة. وكان عليه أن يتخلص من ذلك الاحساس السخيف الذي يملأ فمه.

حاول أول الأمر أن يتخلص منه بتجاهله فذهب يبحث عن شيء يشغله، وكان من زمان يريد أن يفك «المنبه» ويتفرج على «العدة» التي بداخله.. وأسرع يبحث عن معدات الفك، ولكن مسماراً استعصى عليه ورفض أن يدور إلى اليمين أو إلى اليسار، فرمى المنبه. لم يكن يقصد أن يرميه وإنما وجد نفسه هكذا يدفعه مرة واحدة من فوق الترابيزة فيسقط وتتكسر زجاجته. وانحنى يلم الزجاج المكسور ويخفي الجريمة ويخفي المنبه هو الآخر..

وهبط من المنزل بعد تجربته العقيمة تلك يبحث عن أخوته أو عن أطفال في الحارة فلم يجد، كلهم كانوا في تلك الساعة الملعونة في بيوتهم، والحارة ليس فيها إلا الشمس الحارقة والتراب وما عليه من ذباب..

وعاد إلى البيت وهو أكثر عطشاً، والضيق قد بلغ به حداً جعله يتمنى

أن يقف موقفاً من المواقف التي كانت تخذله فيها شجاعته ويتغلب عليه فيها حياؤه وخنوعه . . كان يتمنى أن يجابه موقفاً كذاك ليرى الناس العين الحمراء، والضيق من العطش قد طرد منه كل خنوع وحياء . .

وحاول أن ينام لما لم يجد موقفاً ولا ناساً . . وباءت محاولته بفشل ذريع . وسرعان ما مج الفراش وفكر في أن يجري ويلف في البيت ويكركب أشياء ثم ينظمها عله يساهي الشعور بالعطش الذي كان يفري نفسه . .

ولكن ما إن بدأ يتحرك ويلف حتى جلس على أقرب كرسي وقد أيقن أن كل حركة تزيده عطشاً على عطش، وأن نتيجة محاولاته لنسيان المشكلة أنها تعقدت وازدادت حدة وخطورة، وأصبح فمه ينبح ويصرخ ويتلوى،وكأنه تناول حفنة من الشطة واستشرت حرارتها تلهب كل جوارحه . .

وبدأ فتحي حينئذ يفكر . . بل هو في الحقيقة بدأ يتململ من الصيام ويدرك وعورة الطريق الذي اختاره . . بل الذي تمناه وهفا إليه عدة رمضانات . بدأ يفكر ويقارن بين العذاب الذي هو فيه واللذة التي حظي بها ساعة السحور . والحق أنه لم يقارن ، فكل ما كان يشغله هو العذاب . . وكل ما كان يبحث عنه هو المهرب . .

كان من لحظات قد سمع الراديو يدق عند جيرانهم معلناً الواحدة، أي باق من الزمن خمس ساعات حتى يستطيع أن يشرب . . خمس ساعات؟ يا للهول . . خمسة في صفر بصفر وخمسة في ستة بثلاثين ومعانا صفر . . يعني ٣٠٠٠ دقيقة . لا يمكن! لا يمكنه أبداً أن يستمر حياً يعاني ما يعانيه ٣٠٠٠ دقيقة . يبدو أن هناك خطأ . لا . هناك صفران فقط . يعني ٣٠٠

دقيقة. ولو. . لا يمكنه أبداً أن يمكث ولا حتى ٣٠٠ ثانية. اسمع يا ولا يا فتحي. . خليك جدع. . واصبر وصابر. . وتحمل الألم حتى يحين موعد الافطار وتشرب ثم تسترخي كما يفعل أبوك والصائمون، وتتحدث عن العطش الذي لازمك من أول النهار وتبالغ في وصف أهواله. . آه. . يجب أن يحتمل. . خصوصاً وأنه سمع شيخاً من الذين يكثرون من زيارتهم في رمضان يقول: إن الجزاء يزداد بمقدار ما يتحمله الصائم من ألم. . هه. . يعني ايه؟ سيتحمل ولن يهمه. . كلها كم ساعة وينتهي. . كم ساعة؟! ٣٠٠ دقيقة. يعني واحد اتنين تلاتة. . عشرة عشرين. . تلاتين. . مضت دقيقة. . يا نهار أبيض. . باقي ٢٩٩ مرة مثل هذه. . لالالا. . لن يستطيع التحمل! سيموت، ويستشهد، ويذهب الى الجنة حدف، والجنة فيها ماء. . يا للهول! ليس فيها ماء. . لقد سمع أن فيها أنهاراً من الخمر واللبن والعسل. . أف. . أعوذ بالله. . إنه لا يطيق ذكر العسل فهو يعطش. . أنهار عسل ولبن، ولكن ليس فيها ماء. وإذا عطش عطشاً مثل هذا في الجنة فكيف يشرب؟ وهل يرتوي من اللبن؟. . اللبن الأبيض السميك الذي. . أعوذ بالله. . إخص. . ما هذه الخواطر؟ إنه الشيطان. . لابد أنه الشيطان يوسوس في صدره. ابعد أيها المنجوس لن أسمع كلامك. . أبداً أبداً أنت تدلني على الفساد. . لن أسمع كلامك. .

وسمع فتحي في تلك اللحظة ـ رغم ضجة الوابور ـ الحنفية مفتوحة في المطبخ والماء يندفع منها كر كر كر كر. . لا ريب أن الشيطان هو الذي فتحها أو وسوس لأمه حتى فتحتها. . سحقاً لك أيها اللعين! والله لو حتى صببت الماء في فمي لن أشرب.

وضم فتحي فمه بشدة وكأن هناك ماء حقيقياً سيدخله، وظل على

وضعه ذاك مدة وقد خيل إليه أنه إذا فتح فمه فسيفطر لا محالة . .

ولكن الشطة استعرت حرارتها داخل فمه المضموم، وكان حلقه قد أصبح جرحاً كبيراً مليء بها وأشعلت فيه ناراً وألماً. وحاول أن يبتلع ريقه ومصمص ودار بلسانه داخل فمه كله محاولاً عبثاً أن يجد نقطة بلل واحدة. . وكان الماء لا يزال يهطل بشدة من الحنفية ويدخل أذنه حتى خيل إليه أنه يشرب الصوت من خلال أذنيه، فسد أذنيه ومع هذا ظل خرير الماء ـ أو إبليس ـ يخترق أصابعه ويداعب أذنيه . .

وطوف خاطر في عقله وحوم. . إنه لن يفطر قطعاً ولكن ماذا يفعل بذلك العطش؟ إنه يذكر أن ذات الشيخ قال إن المضمضة ليست حراماً فلماذا لا يتمضمض؟ وكان ما يخيف فتحي هو أن يتسرب بعض الماء إلى بطنه إن هو حاول ذلك، ولكن إلحاح الخاطر أقنعه أنه لا بد أن يثق في نفسه. وقام وذهب إلى نفس الحنفية اللعينة التي أرهقت أعصابه ووقف يردد النظر بين أمه وهي منهمكة في إعداد الطعام وبين الحنفية، ثم مد يده وملأها من السيل المنهمر. ورأته أمه وهو يدفع الماء إلى فمه فشهقت شهقة عظمى وسألته عما يفعله؟ فأجابها بأن ريقه جاف وأنه يبلل فمه. فابتسمت ابتسامة من يشمت وقالت: مش قلتلك؟ . . عامل لي راجل. . أما أشوف. .

واغتاظ فتحي جداً فأفرغ كل ما في فمه من ماء وراح يبصق بشدة حتى أتى على كل ما أحدثه الماء من بلل وريق، وعاد إلى حيث كان في الصالة وفي صدره تصميم مانع قاطع أن يثبت لأمه ولكل الناس أنه رجل. . وأنه قادر على الصوم مثلهم وليكن بعد ذلك ما يكون. .

ولكن المضمضة التي لم تتم أججت فقط كل النار التي في جوفه وجعلت العطش يمتد داخل زوره الى بطنه حتى بدأ يحس ان عاموداً من نار وفلفل يحشو رقبته ويملأ فم معدته. .

لو يشرب مرة واحدة فقط لسكت هذا النباح واستطاع أن يواصل الصيام إلى منتصف الليل إن شاءوا، ولكن الشرب معناه أن يفطر ولا يدعه أحد يتناول السحور بعد الآن وتسقط رجولته في أعين والديه، ويعدانه طفلاً فاطراً مثل أخوته الفاطرين. .

ولكن هل من الضروري أن يعلم الناس أنه شرب هذه المرة؟ ماذا لو شرب خفية دون أن يراه أحد، ثم أمضي بقية اليوم في صيام ما بعده صيام وسمح لنفسه حتى أن يشكو مما لاقاه من ظمأ بعد الافطار؟ ماذا لو حدث هذا؟ إنه لن يفقد شيئاً بالمرة ولن يعيره أحد بما فعل إذ إن أحداً لن يراه فهناك في الصالة قلة ماء لا تزال فيها بقايا من ساعة السحور، سيأخذها ويذهب إلى حجرة الجلوس ويغلق الباب ويفرغها في فمه بأسرع ما يستطيع، ثم يفتح الباب ويتأكد من خلو الصالة ويضع القلة في مكانها ويلعب بعد هذا أو ينام ويمرح بقية اليوم. .

ولكن. . رمضان!!

إن رمضان سيعرف لأنه يرى الناس ولا يرونه، ويعرف إن كانوا يفطرون أو لا يفطرون. .

وارتسم رمضان في عقل فتحي هائلاً في حجم الدنيا كلها. . يجلس على عرش من ذهب وألماظ. . بعيداً. . بعيداً خلف الشمس ووراء كل النجوم والسحب. . يعرف دون أن ينظر من الفاطر ومن الصائم. . ويبطح الفاطر. . يلقي عليه حجراً يصيب منتصف جبهته ويسيل الدم.

وارتعش فتحي للرؤيا. . وأفاق منها قليلاً وحاول أن يتذكر واحداً فقطيعرفه بطحه رمضان لأنه فطر فلم يجد. . ولكن من يدري ربما يكون هو أول واحد ستناله البطحة.

وسأل نفسه سؤالاً مفاجئاً. . ألا يمكن أن تكون حكاية رمضان هذه كذبة وأنه لا يرى ولا يبطح ولا هو حتى موجود بالمرة؟ لم يدر فتحي من أين جاءه السؤال. . لعله الظمأ. . ولكنه ظل حائراً بين الخوف الذي يدفعه إلى أن تكون الاجابة لا والظمأ الذي يهيب به أن يكون الجواب نعم، ظل حائراً إلى أن عنت له فكرة: سيعد إلى ثلاثة ثم يحاول رفع ذراعه، فإذا كان رمضان لا يريده أن يرفعها فليمنعه. . وعد. . واحد. . اتنين. . تلاتة. . وحشد كل قوته وقد خيل إليه أول الأمر أنه مهما حاول فلن تتحرك. وقفزت الذراع فجأة من جانبه في الهواء. وملأه الرعب ولكن بعد أن اطمأن قليلاً وبدأت الثقة تأخذ طريقها إلى نفسه، رأى أن يجرب تجربة جديدة فوقف وقال: سأمد رجلي وأخطو، فإذا كان رمضان يراني ويستطيع منعي فليمنعني. ومد رجله فامتدت، وخطا خطوة وثانية وثالثة وكاد ألا يتوقف، وازدادت في نفسه الثقة وقلت الرهبة، بل انتابه غير قليل من الاستخفاف برمضان ومحاولة تحديه، ورأى أن يتحداه أكثر ليبين قوته إن كانت له قوة، ويجرب تجربة أخيرة. . وأخذ القلة إلى حجرة الجلوس وقال سأتذوق قطرة واحدة من الماء، فإذا كان رمضان يستطيع أن يكسر القلة قبل أن تصل إلى فمي أو أن يقطع لساني إن كان جدعاً فليفعل.

ومع امتلائه بالثقة والتحدي فقد رفع القلة في وجل وهو يحملق في انبعاجها وكأنه يتوقع في كل لحظة أن تنفجر. ولم تحدث الكارثة وأيقن حينئذ أن رمضان وحجارته وبطحاته لا بد خرافة، وأفرغ كل ما تحتويه

القلة من ماء في جوفه . . وكان يتوقف ليتلذذ بطعم الماء ويتساءل كيف لم يفطن أن للماء طعماً من قبل، بل وطعم حلو ساحر لم يتذوق مثله أبداً.

ورجع إلى جلسته في الصالة ينتقم من الوقت الطويل الذي أمضاه في لهيب العطش بوقت طويل آخر يمضيه في نعيم الري.

ولكن شعوراً بالانقباض بدأ ينتابه. كان هيناً أول الأمر،ولكنه ما لبث أن ثقل وتعمق. أحس بشيء يهبش صدره ويخيفه ويرهبه. . ولم يكن خوفه كخوفه من العفاريت أو الجن أو «أبو» رجل مسلوخة وإنما كان يحس بأنه خائف من شيء داخله، وكأنه يخاف من نفسه. .

ولم يسكت ذلك الاحساس بل راح يدب ويتسلل إلى عقله ويملك عليه كل تفكيره. وأيقن أن لا بد أن تحدث كارثة، لا بد أن رمضان سينتقم منه ويجازيه. . فمن غير المعقول أن ينال متعة الشرب بعد الظمأ هكذا وبدون ثمن. وكان مستعداً أن يتقبل أي عذاب أو أية مصيبة، فقط لو كان يعرف نوعها أو ما هي. أجل، إذا كان رمضان لم يفعل شيئاً قبل الشرب فلا بد أنه فاعله بعده. ولكن متى؟ وكيف؟ ذلك هو ما يخيفه. هل يبطحه؟ هل سينقم منه بأن يجعله يرسب في الامتحان؟ هل تقع فوق رأسه الصخرة المعلقة بين السماء والأرض والتي كثيراً ما حدثته عنها جدته وقالت إنها صعدت وراء النبي؟ هل يمرض أخوه ويموت؟ . .

وتوقع أن تحل الكارثة في العصر. ولما لم تحل قال بعد المغرب. . ومضى المغرب والعشاء، وقبل أن ينام ضربه أبوه علقة، وقال فتحي: بس. . هذا هو عقاب رمضان. ولكنه فطن حين رقد يبكي في فراشه إلى أن أباه ضربه لأنه كسر زجاجة المنبه وليس من أجل إفطاره، وبالتالي لم يكن ما حل به هو العقاب المتوقع.

وانتظر فتحي أن تحل المصيبة في الأيام التالية ولكنها لم تحل، حتى بعد أن تكرر ظمؤه وتكرر شربه خفية. .

لم تحل إلا حينما ضبطته أمه وهو يشرب ذات يوم. وبعد أن انجابت لحظة مفاجأته وانتهت من تأنيبه وتعنيفه فرح فتحي في قرارة نفسه لأنهم سوف يقولون إنه لا يستحق الصيام ويجعلونه يفطر، ويستطيع بعد هذا أن يشرب ويأكل دون عقاب أو وجل. ولكن المصيبة الكبرى أنهم هذه المرة قالوا إنه باظ. . وضربوه علقة، وأرغموه على الصوم بالقوة، وراقبوا التنفيذ بدقة.

واضطر فتحي أن يصوم بعد هذا ويواظب على الصيام لا خوفاً من رمضان وبطحاته، ولكن خوفاً من أهله الذين لا يفيد معهم رفع ذراع أو إجراء تجارب، إذ هم يعرفون كل شيء إن آجلاً أو عاجلاً، وهم الذين يتولون بأنفسهم العقاب، ويضربون العلق ويبطحون ولا يرحمون. .

قصة حب

١

ليست أول محطة ترام في شبرا البلد بداية خط فقط، ولكنها قبل هذا مركز تفاعل مستمر بين القاهرة وضواحيها وبين المدينة والمصانع الكثيرة المبعثرة حولها. تجد عليها الفلاحين القادمين الى مصر وقد أخذتهم رهبة المدينة مبهورين بطنين الحركة الزائدة والدنيا الجديدة، وتجد العمال الزاهدين في تلك الحركة الحاقدين على المدينة ولا يجدون منها خلاصاً.

وتجد، في ذلك اليوم من يناير حمزة واقفاً كعادته ينتظر الترام الذي يترك الصف الطويل من العربات المكدسة في أول الخط ويأخذ طريقه إلى «العتبة». . ينتظر وهو يتنفس بارتياح فتلك المحطة كانت أيضاً مركز تفاعل مستمر بين الحياة الخانقة التي يحياها في الصباح في المعاطف البيض وأحواض الصبغة وأنابيب الاختبار، وبين الحياة الرحبة والواسعة التي كانت تبدأ حين يضع قدميه على رصيف المحطة. .

كان واقفاً وقد أغمض عينيه قليلاً خلف نظارته ليستطيع الرؤية بوضوح، وكان يرقب الناس ويتململ قلقاً، وكانت الوجوه التي تقع عيناه عليها جادة صارمة يخيل إليه أن بريقها شرر رغبات كامنة تتحرر، وانطلاق ثورة، وعندما كانت تتناهى إليه الأصوات كان يحسبها دائماً حفيف

مظاهرات أو جئير اضرابات، ورغم البرودة والغيوم التي تحجب وجه الشمس فالدنيا كلها كان لها رائحة.. رائحة خاصة ينتقض لها الجسد كرائحة فوهة بندقية حديثة الاطلاق.

واندفع ترام من أول العربات بادئاً رحلته الطويلة.. وبالكاد قفز اليه حمزة واحتل مكاناً بين الناس الكثيرين الواقفين. وما انتهى الكمساري من بيع التذاكر حتى كان الناس قد تآلفوا تماماً ورفعت من بينهم أحجبة التحفظ والغربة.. واستمع حمزة إلى أحاديثهم وهو يرهف آذانه.. لا مشادات ولا اعتذارات أو نكات.. الانجليز.. الانجليز.. والكتايب والفدائيين وكفرعبده والدبابات.. أرسكين والعساكر المصريين.. أربعة انجليز اتقتلوا.. محطة الميه اتنسفت.. ليهم يوم ولاد الكلب.. والله لنطلعهم من مصر بزفة.. لو فيه سلاح.. لازم السلاح.. نجيبه منين؟ منين؟ م الدنيا الواسعة.. بس لو كانوا يطلعوا لنا واحد لواحد!..

وجاءت محطة حمزة بعد ثلاث محطات من بداية الخط في منتصف المسافة بين القاهرة وشبرا البلد.. وحين هبط لم تكن هناك منازل ولا عمارات.. مساحات واسعة من الأرض المخضرة وأعمدة تليفون وعشش مصنوعة من الصفيح وأكوام هائلة من القمامة..

ومشى قليلاً في أرض مهجورة حتى وصل إلى المكان الممهد الذي نصبت فيه خيمة، وصنعت في طرف منه «تبة» ضرب نار، وأقيمت في الطرف الآخر موانع من الخشب أمامها خندق محفور. وعند الخيمة وجد أيضاً اليافطة المكتوب عليها بخط صغير: اللجنة العامة للكفاح المسلح وأسفلها وبخط كبير: معسكر تدريب شبرا. ووجد اليافطة معوجة فعدلها.. وأشار بيده محيياً ورد تحيته شاب أسمر ضخم يرتدي بنطلوناً طويلاً أصفر وفانلة لها رقبة وأكمام.. وكان الشاب قد رآه قادماً فغادر

جلسته على التبة وأقبل ناحيته، وسلم عليه حمزة ثم دخلا إلى الخيمة يحتميان من الزمهرير. وجلس حمزة على صندوق له مقابض على جانبيه وجلس الشاب على الأرض بجواره. وفرك حمزة كفيه ليدفئهما ونفخ في يديه دون جدوى فقال وأسنانه تصطك:

ـ الدنيا برد. .

ـ أوي. .

ـ يا سلام على كباية شاي يا حسن!

ـ عاوز تشرب شي؟

ـ يا سلام يا بو علي. .

ـ شي. . نعملولك شي. .

ومضى الشاب إلى وابور غاز برجلين اتنين، وكوز صفيح وإبريق فخار كبير مملوء بالماء وعلبة فيها سكر، وأخرج من جيب بنطلونه باكو شاي نصف أوقية. . وبينما كان يشعل الوابور سأله حمزة:

ـ حدش جه؟

ـ ولا نفاخ النار. .

ـ فيه واحد كان مواعدني الساعة اتنين ودلوقتي وربع. . ما جاش يا حسن؟

ـ ما جاش. .

ـ غريبة. .

ـ ما غريب إلا الشيطان. .

ثم نظر إليه الشاب وابتسم وأضاف:

ـ أنا موش مصدق. .

ـ ايه يا حسن؟

ـ ان حنعملو معسكر تدريب . .

ـ ليه يابو علي؟

ـ مش باين . .

ـ بكره يبان فاهمني ازاي . .

وهب الوابور وملا الخيمة لهباً ودخاناً وكاد يأتي على سقفها، فسب الشاب «ديك» الوابور وأصحابه، وبعد أن هدأت العاصفة قال لحمزة:

ـ تحبه تقيل؟

ـ لأ . . نصنن نص . .

ـ بس يا أستاذ حمزة شوية السلاح اللي عندنا دول كرب قوي . . دول ما ينفعوش ببصلة.

ـ متخفش . . البرتا عندك . . وريهالي.

ـ ليه؟

ـ وريهالي بس.

وقام الشاب إلى صندوق آخر وفتح قفله وأخرج «برتا» لها ماسورة تلمع . . وتناولها حمزة وتفحصها واغمض عيناً ونظر في ماسورتها بالعين الأخرى وهو يغمغم:

ـ مليانه وساخة . . إديني شوية جاز وحتة اسطبة . . دى طلياني . . خدوها الانجليز من الطلينه . . واحنا خدناها من الانجليز.

وغادر الصندوق الجالس فوقه، ورفع غطاءه وعسعس حتى وجد «مفك»، وأغلق الصندوق وجلس ومضى يعبث بمسامير «البرتا» ويفكها . .

وتناهى إلى سمعهما صوت حركة في الخارج، فرفع الشاب الأسمر

طرف الخيمة ونظر وقال وهو لا يزال ينظر:

ـ أما غريبة! ايه اللي جاب الناس دولم هنا؟

ـ مين يا حسن؟ . .

قالها حمزة وهو منهمك في فك مسمارٍ عاص ، فعاد الشاب يقول:

ـ واحد أفندي وواحدة ست. .

ـ فين يابو علي؟

ـ جنب الخيمة. .

قالها الشاب الضخم ثم رفع صوته من خلال الفتحة:

ـ عاوز ايه يا فندي؟

فرد صوت أخنف قليلاً:

ـ حمزة فين؟ . .

فرد حمزة وهو لا يزال مشغولاً:

ـ دا لازم سعد. . تعال يا سعد. . خش. .

ودخل سعد. . عصبي وأصفر وقصير،ويرتدي «بلوفر» من الجلد ومنظاراً أسود واندفع يقول:

ـ ايه ده؟ ساعة أدور انت فين. علق يافطة يا أخي. ارفع علم على الخيمة لما تكون فيها. صباح الخير.

فرد حمزة:

ـ صباح الخير. . اقعد يا سعد. .

ـ مش قاعد. معايا ناس. . شغل. عشان تقوللي ما بتشتغلش. . كفاح لا يهدأ. تعالي يا آنسة فوزية. . اتفضلي. . خشي ما تخافيش. بني آدمين والله اللي هنا.

ومن باب الخيمة الصغير انحنت فتاة داخلة، ووقفت عند الباب حائرة

مترددة تحدق في حمزة و «البرتا» التي أصبحت أجزاء سوداء بين يديه وفي الشاب الآخر الذي كان واقفاً في منتصف الخيمة بفانلته الصوف الزرقاء ذات الرقبة الطويلة كمارد خرج لتوه من قمقم . .

ورفع حمزة بصره ونظر إليها . . كانت متوسطة الطول مثله وأكثر منه نحافة ، لها وجه صغير أبيض وشفتان شديدتا الحمرة وشعر غزير ، وكانت ترتدي معطفاً «بيج» ورغم هذا كانت ترتجف من البرد وفي وجهها شحوب وارتعاش ، ورغم ارتجافها كانت في عينيها لمعات دفء ونشاط زائدين. وأحدث دخولها حركة في الخيمة . . قام حمزة من فوره وأفسح لها مكاناً فوق الصندوق ومد يده ليصافحها ، وحين وجدها تنضح بالجاز وسواد الصدأ مد لها ذراعه ، وأحس بأصابعها وهي تلتف حول ذراعه باردة كالثلج ، ولكن قبضتها على غير ما توقع كانت قوية . .

وقبل أن يعود الهدوء قال سعد بكلماته المتقطعة السريعة :

ـ أهو ده الأستاذ حمزة يا ستي عضو اللجنة المسئول عن معسكر التدريب . .

فقالت بلا وجل : أهلاً وسهلاً . .

وأردف سعد بسرعة :

ـ ودي يا سيدي الآنسة فوزية سكرتيرة لجنة المدرسات للمقاومة الشعبية . .

وتغيرت نظرات حمزة في الحال وصافحها مرة أخرى ، وهذه المرة بيده التي كان قد نظفها.

وأضاف سعد :

ـ دول لهم كفاح مدهش . . زي ما انت عارف كنا بنلم تبرعات ورحت أجمع من المدرسة بتاعتهم في المنيرة فتعرفت بيها . ولقيت أن

المسألة أكثر من كده. . وأصرت على أنها توصل للجنة حالاً. قلت أجيبها لك. . مش كويس. . هنيني بقى.

وكان حمزة ينظر إليه وهو لا يدري أيثني عليه أم يوبخه، فقد كان من الضروري أن يحدثه بهذا قبل أن يفاجئه بها على تلك الصورة. وقبل أن يقرر ماذا يفعله كان الشاي قد أعد وصبه الشاب الضخم في ثلاث كوبات من الزجاج الرخيص الأزرق ذي القاعدة السميكة، وصب البقية في كوز صفيح كان يغطي فوهة الابريق، وقال لفوزية بصوته الغليظ وهو يمد لها يده بكوب:

ـ خدي. . لحسن دا انتي نازله رجف الأرا. .

ورغم هذا فقد تناولتها منه فوزية وأحاطت الكوب بيديها. . وأصر سعد على أن يشرب هو الشاي الذي في الكوز، ولم تفلح المحاولات التى بذلت ليقلع عن إصراره. .

وحفلت الخيمة بأصوات رشف الشاي الذي كان يتصاعد بخاره من الكوبات ومن أفواههم، ويشيع فيهم نشوة دفء طارئة في يوم له برودة الرصاص. .

وكان حمزة طول الوقت يختلس نظرات خفية إلى فوزية. . كانت تلك تكاد تكون أول مرة يجمعه العمل مع فتاة، وفي أعماق نفسه لم يكن يثق بالفتيات ولا بما يمكن أن يقمن به وإن كان يردد دائماً أن لا فرق بين الرجل والمرأة، وأن لها مثل ما له من حقوق. . وصحيح كيف يمكن لفتاة ترتجف من البرد هي ومعطفها هكذا. . ولها رفع كهذا أن تخوض معركة مثل التي يخوضونها وتقف معه جنباً إلى جنب:

وقال سعد:

ـ كويس خالص مجهودكو. حاجة عظيمة.. انتو عملتو الخشب اللي بره ده امتى؟!

ـ امبارح.

ـ كويس جداً عظيم خالص. وحيبتدي التدريب امتى؟.

ـ بكرة..

ـ دا شيء غريب! دا شيء عظيم! مدهش! بكره بكره!

ـ أيوه..

ـ عال جداً، دي حاجة تستاهل التهنئة.. دي عايزة حفلة. وإن شاء الله كده حتبدو بميت واحد. لازم على الأقل ميه.

ـ حنبتدي بعشرة..

ـ شوية جداً. قليل قوي.. شوية خالص.. ايه ده؟

ـ كويسين. انت اتأخرت ليه؟ مش كان معادك اتنين؟

ـ أبداً.أبداً أبداً. كان اتنين ونص. أقسم بشرفي كان اتنين ونص. لا لا لا أنا في مسألة المواعيد دي دقيق.. دقيق جداً. اتنين ونص يعني اتنين ونص. أقسم بشرفي كان اتنين ونص. أنا دقيق في مسألة المواعيد دي بالذات.

ـ كان معادك اتنين. وبلاش حكاية شرفك دي فاهمني إزاي.. ياللا بينا..

قالها حمزة وهو يقوم، وخرج الجميع والشاي يشيع فيهم الثقة لمواجهة البرد. الفضاء ساكن سكوناً مذهلاً والبقعة جرداء.. والسماء ملبدة بالسحب وكأنها توشك أن تمطر. وهناك على مرمى البصر القاهرة في سمائها غبرة رمادية، ومنازلها تبدو مكدسة لا تشذ منها سوى عمارات

قليلة ومآذن تظهر من بعيد، وكأنها مداخن مصنع مهجور كبير، والأرض الواقفون فوقها رخوة تكاد تنوء بالأرجل، وهواء خفيف أصفر يهب في حدة ويداعب القش الكثير الذي يغطي وجه الأرض فتطير له قشاشات وتخرفش له الباقيات. وسألت فوزية:

ـ هو ده المعسكر؟

فرد حمزة وهو ينظر إليها ويتأمل أنفها الصغير الذي احمرت قمته المدببة من البرد:

ـ آه . .

ـ وفيه متطوعين كتير؟

ـ مش كتير إنما كل يوم بيكتروا، بكره دي كلها حتتملي طوابير وتمرينات . .

ـ ومين اللي حيدرب؟

ـ ضباط متطوعين . .

ـ منين؟

ـ من الجيش . .

ـ بس ده ايه؟ . . بتصريح؟ . .

ـ هو فيه حاجة اسمها تصاريح!

ـ يعني الحكومة تسكت؟

ـ هو فيه حكومة؟

ـ الله! . . طبعاً! . . أمال مين اللي بيحكم؟ . .

ـ احنا . . احنا اللي بنحكم! . . الشعب . .

وحملقت فيه فوزية برهة وكأنها لا تصدق . .

وكان سعد في هذه الأثناء قد تركهم وراح يقفز من فوق الموانع

الخشبية ويتفرج على الخندق، وينام على بطنه عند تبة ضرب النار ممسكاً ببندقية وهمية، فقالت فوزية:

ـ أما غريبة قوي سعد. . شوف بيعمل ايه؟ . .

ـ آه. . هو متحمس. .

ثم سكت هنيهة وقال:

ـ ألا قولى لي يا آنسة فتحية. . انتو اديتو سعد تبرعات؟

ـ أصدك فوزية. . انا اسمي فوزية. .

واحمرت أذنا حمزة احمراراً شديداً وتلعثم كيانه. .

وأضاف فوزية:

ـ بس أنا جاية مخصوص علشان أعمل علاقة مباشرة مع لجنتكم، لأن هدف لجنتنا الأساسي هو خدمة الكفاح المسلح. .

وقال حمزة باهتمام وبحرص وهو لا يزال يؤنب نفسه:

ـ كويس أوي. .

ـ وأحنا كنا لمينا شوية فلوس عشان نشتري بيهم إسعافات طبية للفدائيين، إنما الظاهر انكو انتم في حاجة أكثر للفلوس دي.

ـ الحقيقة إن احنا دايماً في حاجة لفلوس. .

ـ طيب ممكن أقابلك بكرة وأديهملك. .

ـ ممكن جداً. .

ـ فين؟ . .

ـ أيوه يا ستي. .

وأخرج حمزة مفكرة صغيرة من جيبه قلب أوراقها، ثم رفع رأسه

ولمعت نظارته بشعاع من أشعة الشمس استطاع اقتحام السحاب والنفاذ من بينه، وقال:

ـ تقدري تيجي هنا؟

وفكرت فوزية لحظة ثم قالت:

ـ الساعة اربعة.

ـ يناسبني جداً.

ثم رفع حمزة صوته ونادى على سعد وانتحى به مكاناً وظلا يتهامسان فترة، ثم شد على يده مودعاً وكذلك فعلت فوزية، ولاحظ حمزة أنها تسلم بقوة غريبة على بنى جنسها وكأنها صديق قديم..

وكان آخر ما رآه منها ابتسامة، وحزام معطفها المفكوك والهواء يجذبه وراءها ويعبث به..

وعاد حمزة إلى مجلسه في الخيمة، وإلى «البرتا» وقطعة الجاز والقماش، وكان أحياناً يهز رأسه ويقول: غريبة!. فيسأله الشاب الضخم.. هي ايه اللي غريبة؟! فيقول حمزة تائهاً: ولا حاجة..

٢

وفي الرابعة من اليوم التالي كان المعسكر قد دبت فيه حياة عشرة شبان يرتدون ملابس التدريب، وتهتز الأرض تحت أقدامهم وهم يروحون ويجيئون صفوفاً، وبين الحين والحين تتصاعد صرخات معلمهم آمرة. وكان حمزة في قلب الخيمة ومعه الشاب الضخم ممسكاً كل منهما بفأس وهو يحفر ويعمق إذ كان العمق غير كاف.

ورفع حمزة رأسه يقذف بالتراب اللين مرة فرآها، وهنا فقط تذكر أن ميعاده معها قد حان وأحس بنوع من الفرحة وهو يرى شبحها قادماً من بعيد. وانتظر حتى اقتربت فغادر قاع الخندق ومضى إليها وهو ينوء بحذائه الذي كان محملاً بما لا يطيق من الطين اليابس، حتى لم يجد بداً آخر الأمر من خلعه..

وشدت فوزية على يده بنفس طريقتها القوية المتحمسة.. وهي تكاد تضحك على بنطلونه الذي شمره وقميصة المزدان بنياشين لا عدد لها من الوحل وجوربه الذي تطل منه أصابع قدميه متحدية البرد والأناقة..

وأخذها بعيداً عن المعسكر، وقد وجد الطابور الصغير من الشبان يلخبط ويسهو ويتغامز خفية حين رآها..

وقبل أن يبدأ أي حديث فتحت حقيبة يدها وأخرجت منها قبضة جنيهات ناولتها له قائلة:

ـ سبعة وعشرين جنيه ونص . .

ثم أضافت مبتسمة:

ـ دفعة أولى . .

وأحس حمزة بفرح حقيقي . . سبعة وعشرون جنيهاً . . بندقيتين «لي أنفيلد» وكذا طلقة ، وقال وهو يعيد ترتيب النقود:

ـ برافو والله . .

ودعاها للجلوس بجواره على الأرض وفعلت هذا دون تردد وانطلقت تحدثه عن لجنتها وعن نفسها حين طلب منها هذا . . مدرسة في مدرسة المنيرة . . قرأت كثيراً وفهمت كثيراً ولكن لم يكن لها أي نشاط فحين جاءت معركة القنال اندفعت من نفسها تناقش الأمر مع زميلاتها المدرسات وتم النقاش الى تكوين اللجنة.

وكان حمزة يهز رأسه ويحثها على المضي بايماءاته ، ولدى كل كلمة يكاد ينظر إليها من جديد ويحاول أن يقنع نفسه أن المرأة ممكن فعلاً أن تقوم بعمل . .

وقبل أن يصافحها مودعاً قال لها وهو يقلب مفكرته:

ـ يوم الأربع زي النهاردة حكون من بعد الساعة سابعة في مصر الجديدة على طول ، فممكن نتقابل هناك علشان ننسق الاتصال . .

ففكرت لحظة ثم قالت:

ـ ولو أن يوم الأربع عندي ست حصص إنما حاجي . .

ـ الساعة تسعة جنب قصر البارون امبان . . ممكن؟

ـ ممكن . .

ـ وإذا حصل ومقدرناش نتقابل.. عارفة تعملي إيه؟

ـ ايه؟..

ـ يبقى نفس المكان والزمان بس الأسبوع اللي بعده.. فاهماني ازاي؟

وكان هو الذي شد على يدها بقوة هذه المرة حتى كاد يخلعها.

ومضت.

ووجد حمزة نفسه تمضي وراءها وتفكر فيها.. في حجمها الصغير الدائب الحركة وكأن ثمة مولداً خفياً يغذيها بطاقة لا تنفد من نشاط وانفعالاتها السريعة التي تتلاحق على وجهها واستجاباتها السريعة لانفعالاته، يضحك فتكاد تضحك ملامحها، ويأسف فيقرأ الأسف بوضوح في وجهها، ودائماً وهو يحدق فيها يعجب من الاحساس الذي يتملكه.. الاحساس بأنه قوي قوة لا حد لها وأنه ممكن أن يصنع معجزات، ثم ملامحها الدقيقة الأنيقة التي في كل دقيقة منها وسامة وأمل. أنها حقيقة تبدو كصبية صغيرة لا ينقصها إلا المريلة لتصبح تلميذة بإحدى المدارس.

وكاد حمزة ألا يتوقف عن التفكير فيها لولا أنه نهر نفسه بشدة، وعاد يغوص في قاع الخندق ويشذب حوافه..

٣

في مساء اليوم التالي كان حمزة جالساً على إحدى قهاوي «القرين» بمديرية الشرقية. . قهوة في وسط القرية تطل على ميدان جاء صدفة في وسط البيوت ولم يقصد به أن يكون ميداناً.

وكانت القرين أيامها تحيا على أخبار المعارك التي تدور وقصص البطولات واستعداد الانجليز. . وتتحفز لضرباتهم. وكان حمزة قد انتهى من الاتفاق على صفقة سلاح. . ثلاثة رشاشات وخمسة مسدسات وصندوق ذخيرة. . يتم تسليمها في القاهرة في صباح باكر من أحد مقبل. .

والمساء في قرية كتلك كان شيئاً جديداً على حمزة. . «كلوبات» شاحبة قليلة. . ومصابيح غاز بزجاجات وبلا زجاجات. . وأناس رائحون وغادون يأتون من ظلام شارع ويختفون في ظلام آخر. . وحركة بطيئة ميتة، وبهائم سارحة وبهائم راجعة، وبلد لا يمكن أن يصدق أحد أنها قتلت وحدها في خلال سنوات مئات من عساكر الإنجليز، حتى قدم بشأن نشاط أهلها المعادي للامبراطورية البريطانية استجواب في مجلس العموم.

ودقت الساعة الثامنة والنصف واستمع حمزة الى الأخبار التي تجمع

أهل البلدة جميعاً لسماعها، وعم لدى تلاوتها سكون عميق كالسكون الذي يسود صلاة الجمعة والإمام يخطب، والغريب أن حمزة لم يسمع الراديو يعقب بكلمة واحدة على مذبحة المحافظة التي حدثت في اليوم السابق. . وكانت الأخبار عادية. . وعن لصاحب القهوة أن يسمع تعليق الإنجليز على الأخبار من محطة لندن، فأتى بمنضدة ووقف عليها وأخذ يبحث بين المحطات. . وكان حمزة منتبهاً أكثر الى الرجل ووجهه الضئيل النحيل المنكب على الجهاز في حماس بالغ وهو يتابع مؤشر المحطات ومنتبهاً أكثر الى الناس الذين لم يتفرقوا بعد ولا تزال أفواههم تفسر الأخبار وتتناقلها وتتنبأ، وتتوعد. . ولكنه تنبه فجأة واستيقظت كل حواسه على صوت المذيع في لندن وهو يقول إن الأحكام العرفية قد أعلنت في مصر. . وأسرع حمزة يغادر مكانه ويقف بجوار الراديو ويكاد يلصق أذنه بالميكروفون. . الحرائق تجتاح القاهرة. . الأجانب يذبحون في الشوارع. . السلب والنهب والقتل يدور على قارعة الطريق. . الانفجارات تترى في أنحاء العاصمة والدماء تسيل في شوارعها. . النحاس يطلب إعلان الأحكام العرفية. . قوات من الجيش تستدعى. . الحالة تنذر بخطورة بالغة. .

ولم ينتظر حمزة لحظة واحدة واستأجر عربة أقلته حالاً إلى التل الكبير، وهناك ظل يشير لكل عربة مارة على طريق المعاهدة حتى رضيت واحدة أن تأخذه. .

وأوقعته أفواه الناس وهي تتنافل شائعات مبهمة سوداء لا رابط بينها في دوامة، ولكنه حين أصبح في محطة مصر ورأى الأدخنة تنعقد كالحة في السماء، ومباني كثيرة تتلظى الجحيم وتبدو حمراء غامقة في سواد الليل وألسنة اللهب تطل منها كألسنة الشياطين، وناراً تتفحم وأخشاباً تتوهج

ومحلات منتزعة الأبواب مدشدشة المحتويات، والقاهرة الحبيبة تنزف أطرافها خرائب وأنقاضاً وتتساءل بناياتها الواجفة عن المصير، وعساكر الجيش بلباس الميدان وخوذاته، ودوريات بوليس في عربات، والوزارة أقيلت وأحكام عرفية جاءت أسود من الأدخنة التي في السماء وأفظع من اللهب الذي يجتاح الأرض.. حين رأى وسمع شعر بالجو مشبعاً بظلال أيد سوداء أثيمة، ورائحة مؤامرة تختلط برائحة بارود أجهض انفجاره والعلامات تشير الى مستقبل قاتم..

وبين حمزة والأحكام العرفية ثأر مبيت وتاريخ دام طويل يرجع الى سنة ١٩٤٨، ولذلك رأى ضرورة البحث عن مكان آخر يلجأ إليه وقد أصبحت حجرته في ظل الأحكام الجديدة غير مأمونة أبداً..

واضطر إلى ركوب تاكسي فلم تكن هناك أية وسيلة أخرى للمواصلات.. وكان في جوفه غليان لا يرحم والسؤال يطفو الى وعيه بين الحين والحين: ترى هل يسعفه بدير هذه المرة أيضاً؟..

وتوقفت العربة في شارع من شوارع الدقي وهبط ودق جرس الشقة رقم ٩ وظل يدقه باستمرار فالساعة كانت حوالي الثانية عشرة والظلام يغمر الشقة، وفتح الباب في النهاية وأطل بدير برأسه الضخم وجسده الممتلىء الشاهق وهو يوحوح من البرد..

وباختصار أطلعه حمزة على الموقف وأبى بدير ان يصدق.. وجلسا إلى الراديو والمذيع يردد بين الآونة والأخرى: أيها السادة.. نحن في انتظار انباء هامة..

وجاءت الأنباء في الثانية عشرة والنصف.. وفي الواحدة تلى مرسوم تشكيل الوزارة الجديدة. وطلب حمزة من بدير أن يبقى لديه بضعة أيام ووافق بدير وخيل لحمزة أنه يوافق على مضض..

٤

وقضى حمزة أياماً كئيبة خانقة في الشقة الفاخرة يروح ويجيء كالطلقة الحبيسة..

الجرائد التي ينكب عليها طول اليوم فارغة خاوية.. اختفت منها تماماً أنباء الكتائب والمعركة وحفلت بتأييد التجار والشركات لرئيس الحكومة الجديد منقذ البلاد وحامي حمى الأوطان، نفس التجار والشركات الذين كانوا لا يتركون مناسبة تمر أيام الكفاح المسلح إلا ويعلنون تأييدهم التام للفدائيين وتبرعاتهم للكتائب.

تاجر الأسلحة اللعين لم يحضر في صباح الأحد الباكر ولا في ضحاه.. حظر التجول مفروض والقاهرة تموت مع الغروب والشتاء بارد.. والخروج قد أصبح مخاطرة عظمى فالبوليس السياسي منتشر والحملات تتزايد كل يوم وهاكستب قد فتح أبوابه يستقبل الوطنيين وصلته قطعت تماماً بأعضاء اللجنة، وحين طلب من بدير أن يذهب لمقابلة أحدهم قال له: اسمع يا خويا يا حمزة.. تقعد عندي في الشقة على عيني وراسي.. إنما تشغلني في الأمور بتاعتكو دي.. يفتح الله.

والنقود التي معه مرصودة للسلاح ولا يملك فيها تصرفاً وما عاد معه نقود، وفقد العمل..

ومع كل هذا كان شيء ما في نفس حمزة يأبى أن يصدق ما يحدث وينكر أن كل شيء قد انتهى، فكان أحياناً كثيرة يتحدث مع نفسه ومع بدير وكأن المعركة ما زالت قائمة، وكأن الضربة المفاجئة الغادرة لم تكن. .

وأحياناً كثيرة كان يفكر في فوزية ويعجب من الأمل الكبير الذي يعلقه على مقابلتها، فلحظات معرفته لها لم تتعد الساعة ومع هذا فميعاده معها كان يبدو وكأنه كل ما تبقى له من أمل.

غير أن ذلك الأمل الأخير تبدد حين تذكر حمزة مفجوعاً أن ميعاده معها في التاسعة، وأن حظر التجول يبدأ من السادسة ومن المستحيل عليهما أن يلتقيا. .

وجاء يوم الأربعاء، ميعاد اللقاء. ومضى اليوم وحنق حمزة يتضاعف ويتضاعف حتى ليكاد يطغى على حنقه لمؤامرة الحريق كلها. .

وفي صباح الخميس لم يغادر الفراش. . وهم قابض يخنق روحه وإحساس يتملكه أنه فقد شيئاً غالياً كان يعتز به، وكأن فوزية ماتت من حياته بل كأنها قتلت، وكان قاتلها في نظره هو نفس حارق القاهرة وفارض النوم من الغروب، وخائن المعركة وسارق الأقوات. .

وتبين حمزة بعد أن انجابت موجة حنقه قليلاً أنه فعلاً قد انتزع من حياته الحافلة انتزاعاً، وأن كفاحه قد تلخص فجأة في جدران بيضاء ملساء أنيقة، ووجه الأستاذ بدير المحامي وجسده الضخم، ويأس كبير قاتل. .

وأيقن أنه لا يمكن أن يقضي في حياته الجديدة تلك ساعات، وأنه قطعاً إذا بقي فيها سيفقد عقله. ومع أنه لم يمت ولم يفقدعقله، بل راح يمارس هوايته المحببة في التهام الطعام والتلذذ بأصنافه، ويهيىء للوجبة

نفسه وكأنه ذاهب الى أهم المواعيد، ويستخرج كل ما لدى بدير من كتب ويختار منها ويقرأ، ويصادق الخادمة الصعيدية العجوز التي كانت تأتي كل ثلاثة أيام لتنظيف الشقة، ويناقش«بدير»كثيراً في السياسة حتى استطاع آخر الأمر أن يقنعه أن الملك والإنجليز هم الذين حرقوا القاهرة.. وكان قبلاً يقول.. ملك ايه اللي يحرق البلد؟ بقى دا كلام؟.. أنا معاك صحيح أنه خموجري وبتاع نسوان إنما حرق البلد دي مسألة تانية..

مع هذا إلا أنه كا يقوم بما يقوم به من أعمال بميكانيكية لا روح فيها كمحكوم عليه بالاعدام انتهى أمله..

غير أن أشياء صغيرة قد تحدث فتغير من حياة الناس.. وسمع حمزة في الراديو مرة أن حظر التجول قد رفع الى العاشرة وكاد يمط شفتيه في ابتسامة من يقول:

ـ وماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟

لولا أنه في أجزاء من الثانية كانت قد تجمعت في عقله متباعدات وانتصب أمامه أمل كاد من فرط الثقة به أنه يتخيله حقيقة واقعة.

لقد تذكر انه قال لفوزية شيئاً كهذا: إن لم يتم اللقاء فيكون الميعاد في نفس المكان والزمان من الأسبوع التالي..

ولكن. هل لا تزال فوزية تذكر هذا؟ وهل من المعقول ـ إن هي تذكرت ـ أن تأتي وقد انتهت المعركة؟

ومن أين يأتيه ذلك اليقين الذي يملأ عليه نفسه ويؤكد له أنها لا بد قادمة؟..

أسئلة مثل تلك عاش عليها الأيام الباقية من الأسبوع، وكانت لا تزال تراود عقله وتلح وتتجسم في خياله،وهو واقف مساء ذلك الأربعاء بجوار

قصر البارون إمبان ومنظار أسود على عينيه، وأنفه يشم من بعيد رائحة الآدميين ويتوقع في كل لحظة أن يضع البوليس يده على كتفه ويقول: ياللا بينا يا حمزة. .

وفي تلك البقعة الموحشة من مصر الجديدة، وفي ليلة شتاء كليلتها كان البرد متوحشاً لا يهذبه نور ولا تقلم أظافره مساكن، وكان السكون لا تقوى عليه أعصاب. . سكون بارد مخيف وكان سكون قصر إمبان المهجور قد عم الدنيا. . سكون يكاد يتلون فيصبح كالظلام المحيط ويكاد يتجمد فيصبح كتلاً سوداء كأسفلت الطريق. وكان الظلام ميتاً لا حياة فيه وكأنما قتله البرد المتوحش وقبرته كتل السكون المتجمدة السوداء.

وقف حمزة وطالت وقفته، وعقله ـ من فرط ما كان للحظات قيمة ـ يكاد يتحول إلى ساعة تعد الدقائق وتحصي ما تبقى على موعد حظر التجول وتضطرب إذا مرت الثانية، وتكاد تتوقف إذا ما أحصت دقيقة كاملة. .

وتلاحقت ضربات قلبه فجأة، ثم رأى شبحاً صغيراً قادماً من بعيد ووجد نفسه يتحرك ناحيته بلا أي تمعن أو انتظار ويا لروعة الوجه الأبيض الدقيق الذي أطل عليه من الظلام.

ـ أهلاً. .

قالها وهو يودعها اسبوعاً بأكمله من اليأس المر والأمل الخافت والترقب الذي دام أكثر من مائة ساعة. وما كادت الكلمة تغادر فمه حتى حس باندفاعه اكثر من اللازم، وحين سلم عليها فعل هذا بوعي حتى لا يعتصر يدها. .

وسارا جنباً إلى جنب، وكانت فوزية تبتسم باستمرار وتلمع عيناها

دافئتين نشيطتين في الظلام كلما سقط عليهما ضوء بعيد. وسألته لماذا النظارة السوداء في الليل؟ فأجابها:

ـ أصلي مختفي.. والنظارة تساعد..

ـ ولا تساعد ولا حاجة.. دانا عرفتك على طول.. عامل ايه بعد اللي حصل؟..

ولم يجب حمزة فقد خيم عليه صمت ما لبثت عدواه أن انتقلت إليها. كانت الضربة قد عادت بكاملها الى وعيه وكأنما قد صوبت إليه لحظتها. وأخيراً قال:

ـ خسارة!

ـ أيوه.. خسارة!

ثم أضافت:

ـ تعرف إني رحتلك المعسكر النهارده.

ـ ليه؟

ـ أصلي قلت يمكن تكون قصدت بنفس المكان المعسكر، فقلت أروح هناك وإن ما جتش أجيلك هنا..

ـ وازي المعسكر؟..

ـ يدوب عرفته.. دا معدش فيه حاجة.. الخيمة طبقها الهوا.. والخشب مهدود.. ولقيت هناك نقطة عساكر.

وعاد حمزة يقول من بين أسنانه:

ـ خسارة!

وتنبهت الساعة التي في عقله إلى الزمن فجأة، وكانا قد اقتربا من الشارع الرئيسي فقال حمزة بعد أن نظر في ساعته:

ـ إحنا لازم نرجع مصر بسرعة. . باقي تلت أرباع ساعة على حظر التجول. .

قال هذا وجرى يبحث عن تاكسي، وسألها وهو يجري:

ـ انتي ساكنة فين؟

فأجابته وقد بدأت تجري هي الأخرى:

ـ في شارع خيرت. .

وقال حمزة وهو يزيد من سرعته: ياه!

وبدا عثورهما على تاكسي في تلك اللحظة يكاد يكون مستحيلاً ولكنهما وجدا واحداً كان في توصيلة الى مصر الجديدة، وما كادا يضعان أقدامهما فيه حتى انطلقت العربة كالقذيفة وسأل السائق:

ـ على فين؟

ـ شارع خيرت أولاً وبعدين الدقي. .

فقال السائق وهو يضغطعلى البنزين:

ـ أما نروح شارع خيرت الأول. . وإذا كان فيه وقت نشوف حكاية الدقي دي. .

ومد حمزة يده واستخرج سيجارة من جيب سترته الأعلى فسألته:

ـ أنت بتشرب سجاير والا ايه؟ . .

ـ أبداً. بشرب سيجارة كده كل ٣ أيام. . مش كيف فاهماني إزاي؟

ـ بس بالطريقة دي حتبقى كيف. .

ـ متخفيش. .

وسكتت فوزية قليلاً ثم قالت:

ـ أنا كنت ناوية أجيبلك فلوس المرة دي، إنما ٢٦ يناير ده لخبط الدنيا. .

ـ معلهش . .

ـ إنما لازم حا ترجع كل حاجة زي ما كانت . . بل أقوى مما كانت . .

ـ لازم . .

ـ حترجع المعسكرات والكفاح المسلح وكل المعركة . .

ـ لابد حترجع . .

وسكت حمزة قليلاً ثم أضاف:

ـ دلوقت أنا بقيت في حاجة ماسة ليكي عشان نخلص بعض حاجات . . وأنا مش حاقدر أقابلك بعد كده بره ، وحالياً قاعد في شقة واحد صاحبي محامي ، وأنا معرفشي استعدادك ايه؟ فاهماني إزاي ممكن تواصلي والا . .

وفاجأته بقولها . .

ـ اديني عنوان البيت . . وأجيلك امتى؟

ـ أنا مش عارف نمرة البيت انما حوصفهولك . .

وبعد دقائق كان التاكسي يتلوى مع شوارع مصر ثم يقف لدى بيت في شارع خيرت قريباً من ميدان لاظوغلي . ورفض السائق أن يوصل حمزة إلى الدقي ، ولكن تحت إلحاحه والورقة ذات الخمسين قرشاً قبل . .

ودق جرس الباب . . وفتح بدير وقد ارتدى الروب دي شامبر فوق جلباب كستور وحبك طاقية صوف على رأسه وتعمم فوقها بكوفية . .

وقال له بدير وهو يعود إلى جلسته:

ـ يا أخي سيبت ركبي . . أنا افتكرت إنك أكيد اتمسكت . . كنت فين؟

ـ كنت بدور على شغل . .

ـ ولقيت؟

ـ أيوه . .

ـ ايه؟

ـ حادي دروس خصوصية . .

ـ فين؟

ـ هنا . .

وقهقه بدير، واهتز الفوتيل بقهقهته وكذلك جريدة الزمان التي كان يقرؤها، وأصبح الروب في أزمة . .

ـ هنا فين يا سي حمزة؟

ـ في الشقة هنا . .

ـ لأ كويسة . . ما انت دمك خفيف أهه . . أمال بيقولو عليك الكلام الفارغ ده ليه؟ المهم . . اتعشيت؟

ـ مليش نفس .

ـ أهو ده مش معقول . دا انت بسم الله ما شاء الله عمر ما كان مالكشي نفس . . دي معجزة دي . لازم واحد يهودي مات . نفس ايه يا شيخ؟ لازم تتعشى . . اتعشى عشان عايز أكلمك شوية . .

ولم يستطع حمزة أن يقاوم اكثر، واضطر للجلوس وازدراد اللقم . .

وقال له بدير وقد اتخذت سيماه طابع الجد :

ـ اسمع يا حمزة . . انت تعرف أن مصلحتك هي مصلحتي وانت زي أخويا تمام . . وبقى لنا ييجي ١٥ سنة زملا وأصحاب . . وأنا عايز أقول لك حاجة . .

ـ ايه؟

ـ ما تهدى بقى يا خويا يا حمزة وتفضك من الحكاية دي . . كفاية بقى

ضيعت كام سنة من عمرك هدر وما عدشي في العمر قد ما مضى. . انت طول عمرك كده حتفضل هربان ومرفود وما انتاش لاقي تاكل. لا مؤاخذة يعني يمكن يكون كلامي شديد شوية إنما الحقيقة كده. .

وابتسم حمزة وسأله:

ـ دا نفس الكلام اللي بتقوله امي بالضبط. اهدي إزاي بقى؟ . .

ـ تهدى. . تشتغل وتتجدعن وتتجوز وتعمل لك بيت وعيلة وتفوق لنفسك بقى. . واحد مثقف زيك ما يصحش يعيش كده.

ـ بس أنا سعيد جداً بالحياة اللي أنا عايشها دي. .

ـ سعيد؟ سعيد إزاي بقى؟

ـ سعيد لأن المهم مش الواحد عايش إزاي والا فين المهم الواحد عايش ليه؟ المهم الواحد بيعمل إيه للناس؟

ـ أنا موش فاهم. . خدني على قد عقلي يا أخي. . انت بتقول إيه؟

ـ ما هو طبعاً لازم تكون موش فاهم. . انت راجل ليك حياتك الخاصة وبيتك الخاص وعملك الخاص. . أنا ماليش حياة خاصة. . أنا واضع نفسي وحياتي في خدمة الشعب. إذا استدعت الحاجة إني أهرب أهرب. . أسجن أسجن. . أموت أموت. .

ـ ده مش معقول. . بقى يعني انت خلاص بقيت نبي والا ولي ما انتاش عايز حاجة من الدنيا؟ مالكشي يعني مطامح خاصة؟

ـ مطامحي الخاصة هي بالضبطمطالب الشعب العامة.

ـ ايه الحكم دى؟ أفهم من كده بقى إن سعادتك لا حتتجوز ولا عمرك حايبقى لك بيت يعني؟

ـ لازم حتجوز واخلف. . بس لازم جوازي يخدم قضيتنا مش يكون

على حسابها. . ولازم حيبقى لي بيت بس بيت يهيألي فرصة اكبر لخدمة الشعب.

ـ يبقى إن شاء الله حتفضل كدهه متشرد زي ما انت على طول. .

ـ أبداً. اللي مشردني هو نفسه اللي مشرد ملايين المصريين، ومش ممكن الملايين تفضل مشردة على طول.

وسكت بدير طويلاً ثم قال:

ـ هيه. . طيب الظاهر ما فيش فايدة. . هيه. . تصبح على خير.

وجذب الغطاء وما لبث أن تصاعد شخيره وراح في النوم.

ولم ينم حمزة فقد ذكرته المحاورة التي دارت بالغربة التي أحسها منذ أن جاء إلى الشقة الفاخرة. حتى كلمة «الشعب» وهو ينطقها بدت غريبة هي الأخرى، لا تكاد تجد لها مكاناً بين النجف والأبسطة وقطع الأثاث المنمقة. وكذلك بدت الرؤى التي راحت تنبثق في خياله. . أمه. . أبوه. . أبوه عامل الدريسة، وشاربه الغزير الكث الذي ينثني فجأة عند أطرافه. . عزب الدريسة حيث مرتع طفولته وصباه. . العزب التي تقيمها المصلحة في مكان ما بين محطتين للعمال الذين يصلحون القضبان. . المجتمع المغلق المقفول على من فيه كل قاطنية من العمال. . الحياة يزاولها الناس معاً. . الأسرار ملك للجميع والفقر موزع بالعدل على الجميع. . الزوجات يستحممن معاً في صباح الجمعة ويتباهين بما حدث ليلتها، والأزواج يغطسون معاً ليتطهروا في الترعة. . العزبة يتولاها النساء من الصباح فتبدأ الخناقات التي لا تنتهي على الأوز الضائع والبط. البيض هو العملة السارية بين النساء والسجاير اللف هي السارية بين الرجال والنقود هي العملة التي لا بد من سريانها بين الرجال والنساء وإلا كان ما كان. في كل عزبة ذئب يلتحي احياناً لحية ويتستر أحياناً

بزوجة، الرجال قد لا يعلمون والأطفال والنسـاء له بالمرصـاد. في كل عزبة بخيل منبوذ يجمع المليم فوق المليم وأمله قيراط ارض يشتريه في بلده. في كل عزبة سنى مهووس يسخر منه الرجال وتتبرك به النساء. في كل عزبة جميلة وغيرة ومشاحنات، وأطفال يولدون بالعشرات، وناموس وملايين الحشرات، وكلاب وعواء كلاب تحرس الفقر والقلل والستر.

في كل يوم مشكلة وشكلة وزعيق وشجار، ومحـاولات للـريس أن يفرض سلطانه ومحاولات من العمال أن ينزعوا عنه السلطان. وكلام عن الكادر وكلام عن الخصم، ونساء يبحثن عن الحبل ورجال يبحثون عن السلف، ومناطيل صفراء في صفارها رقع، وطاقيات صوف طويلة وأحذية من مخلفات الجيش المصري ثقيلة، وصفير قطار آت وصفير قطار ذاهـب وبنت بكر تفتح الشباك وتتأمل الآتي والذاهـب وتتنهـد وتحلـم بالبنـدر والأفندية وثلاث أساور قشرة. .

في كل يوم شكلـة وشكلـة وزعيق وشجـار، ومـا يكاد اليوم ينتهـي والشمس تغيب ودخان المواقد يهمد ودخان القطار ينقطع، حتى يئوب الرجال إلى البيوت في الشتاء وإلى ما أمامها في الصيف، وتوضع الطبلية وحولها الأفواه، وينتهي عشاء ما كاد يبدأ ويعقبه استرخاء وحديث قصير متباعد بين الزوج والزوجة فيه من النوم أضعاف ما فيه من اليقظة، وفيه من التفاؤل أضعاف ما فيه من تشاؤم. الزوجة قلقة والـزوج راسي، المرأة خائفة والرجل يؤكد، الزوجة تتثاءب والزوج يغمغم متعباً: بكره تتعدل.

هـو والأولاد. .

النهـار لهـم. . نهـار كلـه جري ونـط واستحمـام في الترعـة، وعـد «فلنكات» السكة الحـديد، ومحاولـة السير دون معاونـة فوق القضيب الواحد، وعمل «أزنده» تقـدح الشـرر من الزلـط تشبهـاً بالآبـاء، وصيد

العصافير بالنبال والحصى الصغير. . وأروع لعبة وضع مسمار على القضيب حتى إذا ما مر عليه القطار بططه ورققه وأصبح حاداً كالسكين والتين الشوكي الذي يغطي جانبي الخط الحديدي، وموسم التين الشوكي والمطاردات التي لا تنتهي مع التاجر الذي يشتريه من المصلحة ويخفره. .

هو والأولاد. .

كلهم مثله مرضوا بالبهارسيا والانكلستوما والحصبة والملاريا والرمد وخرج بعضهم بصفرة ليس بعدها حمرة، أو بطحال.

والشيخ زيدان وكتابه والمدرسة الالزامية وعلقها، وابتدائي بالبدلة. . أول بدله والطربوش الكالح الحقير، والتفوق في الابتدائية ٨٥٪ مجاناً في الثانوية. أبوه فرحان وأمه تريده صنايعي وكفى. أبوه يريده مهندساً يعمل أيضاً في السكة الحديد مثل رئيس رئيس رئيس رئيسه. أمه ترقيه من الحسد وأبوه يريه بنطلونه الذي يشبه الغربال ويقول: يا الأول يا كده. . ويكون الأول. وبعد توجيهي الويل. . الألم. . الكفاح الرهيب من أجل جنيه، خمسين قرش لحمزة في غربته في بلاد الناس في اسكندرية. عام مضى ولم يبق إلا ثلاثة أعوام. . يا مسهل يا رب! وفي هذا كله يبوظ. . بوكر وكنكان وروم حامض ونساء ذوات شعر أكرت وروج فاقع الحمرة كختم السلخانة فوق الذبيحة، وكذب على أبيه ونصب على أصدقائه ورسوب عام وإخفاء الرسوب وإيهام أبيه أن «الأول» نجح، وخداع ومناورات. الأب يكفر. . المطالب تخنقه. أمه تتعلم شغل المناديل بأويه، العزبة كلها تساعد حتى الريس يدفع كل شهر نص جنيه. أخوه الأصغر منه يخرجه أبوه من المدرسة ليكمل هو فهو الأكبر والأقرب الى قبض الماهية. ٦ مارس والمظاهرات واللجان والمؤتمرات، أخوه عامل

منارات في السكة الحديد والقطار يلهف قدمه ذات صباح.. ستة شهور في مستشفى المديرية. أخوه يعود الى العمل بقدم واحدة خفير مزلقان. حمزة يتخرج ويعمل في مصنع.. أول ماهية يطبع بها منشور النقابة سياسة واجتماعات ومناقشات وكفاح ومواعيد، البوليس السياسي يتعقبه.. أول فصل القضية التي حاولوا تلفيقها، معتقل ٤٨.. عشرون شهراً في الطور وهاكستب وسجن الأجانب في اسكندرية. يوم الافراج. كلما قدم لمصر مستر أو مارشال قبضوا عليه.. في كل مناسبة وطنية أو عالمية الحجز في القسم أياماً قد تمتد الى أسابيع حتى ليستطيع في أول كل عام أن يضع قائمة بالأيام التي سيزور فيها القسم كما توضع أيام العطلات الرسمية في أول النتائج.. بدلته الواحدة التي فصلها عقب تخرجه، ونظارته التي عملها في وحدة الجامعة بجنيه، وحذاؤه الذي هو ثاني صاحب له. النقود التي يرسلها لأبيه أحياناً، والشبشب الأسود الذي طلبته أمه ولم يستطع إرساله، أمه لا تزال تطرز المناديل بأوية وأبوه أبيض شاربه وكبر ولم يصبح بعد «ريس»، وأخوه لا يزال يعرج ويغلق البوابة للقطار ويفتحها حين يمر، وأخته نبوية عانس ما زالت، وعزبة دريسة أخرى يعيشون فيها. تدعو له أمه بالهداية وأبوه يتحدث بأخباره الى الرجال ويلعن الحكومة ومصلحة السكة الحديد، والعزبة كلها تنسج حوله أقاصيص بطولة ويقول الصغار إذا ما مر القطار.. دا رايح لحمزة.

ـ انت مش حتنام يا حمزة واللا ايه؟

ـ أيوه حنام يا بدير..

٥

وفي اليوم التالي وفي حوالي الخامسة دق الجرس، وكان بدير قد خرج الى عمله بعد الظهر وفتح حمزة وفوجىء بفوزية أمامه بدمها ولحمها. وابتسمت وقالت وهي تدخل:

ـ أنا طول السكة خايفة لاغلط في الشقة. إنما كويس.. أصلي كنت عند واحدة صاحبتي هنا في الدقي فقلت أفوت أعرف البيت..

ومع أن حمزة لم يصدق حجتها في المجيء إلا أنه لم يدر السر في الراحة العميقة التي أحدثها مجيئها في نفسه.

وجالت فوزية ببصرها في الشقة وقالت:

ـ ايه؟ هو صاحبك دا مليونير؟ دي شقة فخمة قوي!

وجلس على مكتب بدير وجلست هي على الفوتيل الذي أمامه، وما لبثت ان قالت:

ـ قول لي.. مش ممكن أشرب قهوة؟

فقال حمزة على الفور وهو يغادر مكانه:

ـ ممكن قوي جداً.. بس كده؟

وذهب الى المطبخ الأنيق ذي الفريجيدير الضخم والبوتاجاز، والطلاء الأبيض الناصع الذي يلون جدرانه وأرففه ودواليبه ويحيله إلى شيء يكاد

يقترب من حجرة العمليات كثيراً ما فكر حمزة أن ينام فيه، وسمع صوتها يأتيه من بعيد:

ـ عاوزه كباية كبيرة. . سكر مظبوط وحياتك. .

فرد عليها بصوت مرتفع:

ـ بس كده؟. .

وبحث بعينيه في الدولاب حتى وجد كوباً يصلح. .

وبعد برهة كان ينقل قدميه بحرص وهو يحمل صينية عليها كوب القهوة المضبوط وفنجان سكر زيادة صنعه لنفسه وماء مثلج، وما أن رأته حتى ضحكت وقالت:

ـ ياه! أشكرك جداً! . . دا انت ولا جروبي!

وأخذت رشفة من الكوب ثم قالت:

ـ تصور إني أديت ست حصص النهادره! أنا دماغي خلاص. . والمشكلة إني بعد ما بارجع البيت بافتح مدرسة تانية لأخواتي. .

ـ انتي ليكي أخوات؟

ـ بنتين أصغر مني. .

ـ وحلوين زيك كده؟

قالها حمزة مدفوعاً بطاقة الحديث ليس إلا، وأنَّب نفسه بسرعة وفظاعة على ما قال وكأنه ارتكب إثماً.

وساد سكوت لم تكن تسمع خلاله إلا رشفات القهوة. وكان من العسير والمكتب يفصلهما وكل يتحاشى النظر في وجه الآخر ويتلهى باحتساء القهوة، والهدوء مخيم وجميل والظلام قد بدأ يدب إلى الخارج والجو يوحي بالصمت. . كان من العسير استئناف الحديث. ولكن حين

بحث حمزة بيديه وأخرج سيجارة من درج المكتب قالت فوزية:

ـ مش قلتلك. . حتبقى كيف؟

فقال حمزة وهو لا يزال يبحث عن الكبريت:

ـ أبداً، أصل الواحد أعصابه. .

وأخيراً أشعل السيجارة وقال وهو يكح:

ـ أظن نبدأ العمل. .

ـ أيوه. .

ـ بقى شوفي يا ستي. . أنا بقيت زي الفار في المصيدة بعدما فقدت كل اتصالاتي. ودلوقتي انتي الصلة الوحيدة اللي باقية لي. فاهماني إزاي؟ أنا معرفشي استعدادك إيه. معرفشي اذا كنت فاضية. . ممكن تشتغلي ولا ما تشتغليش. .

وقاطعته فوزية:

ـ بقى شوف يا سيدي! بلاش مقدمات وحياتك خش في الموضوع . . عايز ايه؟

ـ عايزك تروحي لواحد وتقوليله إنك متصلة بي، وتوضبي معاه إزاي أقدر أقابله. .

ـ أسمه إيه وساكن فين؟ . .

ـ اسمه حسن محمد حسن ما انتي لازم تعرفيه. . مش فاكره الجدع الطويل الضخم اللي كان معايا في الخيمة يوم ما جيتي. .

ـ أيوه. .

ـ أهو ساكن في القبيسي في حارة كشك نمرة ٥ .

ـ اكتب لي العنوان.

ـ أهه.

ـ عاوز حاجة تانية؟

ـ أيوه، ده عنوان الأوضة اللي كنت ساكن فيها وده مفتاحها . . تروحي هناك وتفرزي كل الورق اللي تلقيه مهم هاتيه معاكي، واذا كان ممكن تجيبيلي الغيارين اللي هناك. وخلي بالك البيت لازم مراقب . .

ـ حاجة تانية؟

ـ أيوه تبعتي الايجار لصاحب البيت في جواب مسوجر على نفس البيت . . وآدي الفلوس . .

ـ بس؟!

ـ بس . . كلميني بقى عن جمعيتكم، فيها كام مدرسة . . استعدادهم إيه؟ ممكن يعملوا إيه؟ . .

ـ شوف . .

وأخذ حمزة ينصت إليها ويكتب في ورقة اسمه وحضرة المحترم وفوزية وأشياء من هذا القبيل، ويحسن في خطه وأحياناً يرسم دوائر وزهوراً، وكان ينصت ووجهه الى الورقة. ورفع مرة بصره إليها. كان الضوء في الحجرة يأتي من النجفة قوياً باهراً، ويتكفل الكريستال المدلى ببعث الحياة فيه وإعطائه ألوان طيف جذابة تبرق وتختلط بدخان سيجارته الذي كان قد تجمع وانعقد حول البلور وعشش بينه، وأحال النجفة الى خميلة ذات زهور وأكمام يلفها ضباب صبح ندي.

وكانت فوزية جالسة قبالته على طرف الفوتيل تتحدث وتنفعل لكل كلمة تقولها وتكاد تقوم وتقعد، وقد استدارت إليه بوجهها الذي أشاع فيه التعب حمرة وأشاعت القهوة في الحمرة حياة، وبشفتيها الصغيرتين المكتنزتين ويديها ذاتي الأصابع النحيلة الطويلة التي تنتهي بأظافر من ورق الورد.

واكتشف حمزة من نظرته تلك أن فوزية أنثى وأنثى جميلة، نادرة الجمال..

وسكتت فوزية فجأة وضيقت عينيها وزمت شفتيها، ثم قالت بلهجة تقريع:

ـ انت سرحت واللا إيه؟

فأجاب بسرعة وهو يعود من جولته:

ـ أبداً أبداً.. أصلي كنت بافكر في حاجة كده.

ـ طيب أقدر أكمل؟

ـ طبعاً طبعاً.. أيوه.. كنا وصلنا لفين؟

ومضت لحظة وهي ساكتة ثم قالت في مزيج من اللوم والعتاب:

ـ كنت بقول إن بهية دي واحدة من أحسن العناصر اللي في المدرسة وأنها .

واستأنفت كلامها والعتب لم يغادر نبراتها بعد وعيناها لا تتركان عينيه، وتقول له بمعدل مرة في الدقيقة:

ـ معايا؟..

ـ فيرد في التو:

ـ معاكي..

إلى أن قالت: فإيه رأيك بقى؟..

واعتدل حمزة وبدا عليه الجد، بل حتى كلامه خرج جاداً فيه ثقة مطمئنة وإصرار زائد وكأنه قد أصبح شخصاً آخر.

ـ خليكي على اتصال دائم بيهم.. فهميهم أن المعركة لم تنته.. فهميهم أن الشعب بيستعد لانقضاض أشد وأقوى. الظروف اللي بنمر

بيها ظروف طارئة.. نكسه لا أكثر ولا أقل إنما الغليان مستمر. دي حاجة.. والحاجة التانية من كلامك فهمت أن فايزة عندها مشكلة وافتكر أن أحسن حل لها..

وأخذت فوزية تنصت باهتمام شديد إليه وتود أن تلتقط الكلمات حتى قبل أن تصنعها شفتاه كلمات، كان في كلامه حكمة وكان يقول لها أشياء غريبة ويحدثها عن حلول تبدو لبساطتها ساذجة، ولكنها في الوقت نفسه ممتنعة تحار فوزية وتستغرب كيف لم تفكر في حلول مثلها.. وأخيراً قال وهو يغادر كرسيه:

ـ أنا منتظر، وأتمنالك التوفيق.

وقامت هي الأخرى، وتمطت متثائبة وهي تقوم.

وسمعا مفتاحاً يدور في الباب الخارجي أعقبه وقع أقدام ثقيلة وحيدة في الصالة، وصوت غليظ يغني أحدث أغاني عبد الوهاب إذ ذاك:

ـ على ايه بتلومني.. بتلومني ليه؟

فقال لها:

ـ دا الاستاذ بدير المحامي.

وفي أعقاب كلماته دخل بدير وهو يقول:

ـ يا ما قلبي شكا.. يا ما دمعي..

وسكت فجأة حين وقعت عيناه على فوزية وحملق فيها كأنه يحملق الى إنسان له أربع أيد ورأسان.

وقال حمزة:

ـ جيت بدري يعني؟

وكافح بدير طويلاً ليقول:

ـ أصلي.. خلصت بدري.

قالها وهو لا يزال ينظر إلى فوزية ويكاد ـ لولا الحياء ـ أن يسأل عمن تكون.

وتنحنح حمزة وقال:

ـ يا أستاذ بدير. . اقدم لك الآنسة سميحة. . تلميذتي.

فقال بدير وقد عاد إليه ذهوله:

ـ تلميذتك؟

ـ أيوه، مش قلت لك إني حا ادي دروس خصوصية.

ـ دروس خصوصية؟

ـ أيوه.

ـ آه! دروس خصوصية! طيب يا أخي. . مش تقول م الصبح دروس خصوصية؟ أهلاً وسهلاً! . شرفتي يا آنسة سميحة. . أهلاً وسهلاً!

وسلم عليها، وفي الجو الذي ظل فترة تسوده علامات الاستفهام والتعجب قالت فوزية:

ـ الساعة كام؟

فقال حمزة:

ـ تمانية. .

فقالت وهي تلتقط حقيبتها:

ـ ياه أنا أتأخرت قوي. . سلام.

فوقف بدير كالمطعون قائلاً:

ـ أبداً لسه بدري. . دا إحنا بدري قوي. تمانية إيه يا راجل دي ما تجيش سبعة وشوية. اقعدي والله. . أسمعك مزيكة. عندي عربي وافرنجي، تحبي إيه؟

فقالت فوزية وهي تعلق الحقيبة في كتفها:

ـ معلهش والله . . سلام .

ويبدو أن اللهجة الفاترة التي نطقت بها جملتها حسمت كل شيء .

وسار الاثنان حتى الباب الخارجي يودعانها. وابتسم بدير وهو يغلق الباب وراءها ابتسامة واسعة ذات معان، ثم لكز حمزة قائلاً:

ـ بقى بتدي دروس؟ . . في إيه يا ترى؟

وابتسم حمزة ابتسامة أخرى ذات معان وقد سره أن يفهم بدير المسألة على هذا الوضع، وعاد بدير يقول:

ـ بقى دروس! . . يا نمس! . .

وعاد حمزة يبتسم وهو يقول قاصداً أن يفهم بدير من قوله أنه يحاول تغيير مجرى الحديث:

ـ الأخبار إيه؟

ـ ألا عرفتها إزاي دي يا واد؟

ـ يا جدع سيبنا من الحكاية دي . . الأخبار ايه صحيح؟

ـ بيقولوا مفاوضات . . بقى دي تلميذتك يا دبور؟

ـ مفاوضات! ازاي؟

ـ رئيس الوزارة طلب مقابلة السفير الانجليزي .

ـ سمعت الخبر ده فين؟

ـ من واحد صديقي صحفي . . بقى دروس؟ . . دا كمان لقيته مكتوب في الزمان . .

ـ فين؟

ـ أهه . .

وناوله الجريدة وانكب عليها حمزة من فوره، بينما كان بدير يخلع ملابسه ويقول:

ـ يا خويا الجدع ده بيقول إنه مختفي وبيعرف النسوان دي إزاي؟.. والواحد زي الشحطوما يعرفشي يكلم مرة. قسمتنا كده يا سي بدير.. نصيبنا كده. بت حلوة عاجبها في حمزة إيه مش عارف؟ على إيه بتلومني.. بتلومني ليه.. يا ما قلبي شكا يا ما دمعي بكى.. ما رحمتنيش ليه؟

٦

وفي الساعة السادسة والنصف صباحاً استيقظ حمزة فجأة منتفضاً وكأنما قد حدثت أهوال أثناء نومه، وعرف بعد ثوان أن الذي أيقظه هو جرس الباب الخارجي الذي كان يدق دقاً متواصلاً.

وفي الثواني التالية استعاد وعيه وأصبح على استعداد لمجابهة الخطر. وهز كتلة الشحم واللحم التي تكون الأستاذ بدير الراقد بجانبه محاولاً إيقاظه ولكن عبثاً ما كان يحاوله، فما كان يظفر على تنبيهه لبدير أن الباب يدق إلا بغمغمات وتأوهات، وأخيراً قال بدير وهو بين اليقظة والمنام:

ـ دا لازم.. بتاع اللبن الله يخرب بيته.. روح افتحله.

وقام حمزة وهو نصف مكذب متوقعاً أن يجد بدل زجاجة اللبن فوهة مسدس، وفتح «شراعة» الباب.. ومرة واحدة فوجىء بفوزية واقفة، وفي وجهها قلق كثير. وفتح الباب في الحال فقالت في همس سريع خطير:

ـ اسمع.

ـ إيه؟

ـ حسن اتقبض عليه.

ـ اتمسك؟

ـ أيوه.

ـ إزاي؟ مش معقول!.. طيب ادخلي الأول.. أدخلي.. مش معقول!.. قولي لي بالظبط أيه اللي حصل؟

ـ رحت لقيت واقف قريب من البيت راجل عليه كده.. أهو ما عجبنيش شكله والسلام. فشكيت وما رحتش على البيت.. رحت على قهوة في الحارة كانت لسه بتفتح وسألت عليه الجرسون وقلت له إني قريبته.. فبص ليه كده واستغرب وخاف مني شويه.. وبعدين حكيت له حكاية كده فقال لي إنهم راحوا له البيت من يومين وخدوه.. فركبت تاكسي وجيت على طول.

ـ جيتي على طول؟

ـ لأ، نزلت من التاكسي في الميدان وجيت ماشية لحد هنا.

وسكت حمزة ولم يتكلم فقد راح يهز رأسه بين الحين والحين وهو يردد:

ـ غريبة.. غريبة.

ثم التفت إليها قائلاً:

ـ رحتي له إمتى؟

ـ دلوقت.

ـ دلوقت؟

ـ أيوه، ما أنا قلت أروح بدري قوي أضمن وأحسن.

وابتسم حمزة رغم ما به وقد أعجبه منها ما قالت ثم قال:

ـ طيب حصل خير.. استني شوية.

وغاب لحظة في حجرة المكتب ثم عاد ومعه ورقة صغيرة وقال:

ـ اطلبي النمرة دي، وإذا ردت قولي له إني عايز أقابله.

ـ طيب.
ـ ضروري النهارده.
ـ ضروري.
وجاءهم صوت بدير من غرفة النوم:
ـ إيه يا حمزة؟ . . مين؟
فزد حمزة: بتاع اللبن.
ثم التفت لفوزية وقال:
ـ إذا ماردتشي النمرة ابقي كل ما تفضي اضربيها.
ـ حاجة تانية؟
ـ لأ . .
ـ طيب أنا جاية بعد الظهر عشان الحاجات الباقية... سلام.
ـ سلام.

وفي حماس مضطرب سريع اختفت فوزية واغلق حمزة الباب، وعاد على مهله الى حجرة النوم ويداه خلف ظهره وزوبعة في عقله . . حسن «أبو علي» كما كانوا يسمونه الذي كانت الأمور تتعقد أحياناً وتشتبك ويظل هو صامتاً، ثم يتكلم آخر الأمر . يقول كلمة او اثنتين . . ولا يرفع صوته ولا يجادل كثيراً، فقد كان يعمل كثيراً لا بتهور واندفاع ولا ببطء وشك، وإنما باتزان وتؤدة واستمرار. .

كان في الفترة الأخيرة متعطلاً وقد فقد العمل، وكان ليل نهار في المعسكر يحرسه ويبنيه . . وكانوا دائماً في حاجة إلى كلمته الواحدة أو كلمتيه الاثنتين . . والآن!

وقال له بدير:
ـ هو اللي جاب اللبن . . إيه؟ واحدة ست واللا إيه؟

ـ أبداً . راجل.
ـ أمال اتهيأ لي اني سمعت صوت نواعمي.
ـ لازم كنت بتحلم.
ـ يجوز.

قالها بدير وهو يرعد ويبرق ويموء ويتثاءب ويعود للنوم.

وجلس حمزة على حافة السرير يفكر في فوزية وكيف استيقظت لا بد في الرابعة صباحاً لتأتيه في السادسة والنصف بعد جولتها الرهيبة.

ولم يفكر في هذا إلا هنيهة ثم دلف الى المشكلة الكبرى «الأسمنت». كان هو وحسن الوحيدين اللذين يعرفان مكانه، وقد قبض على حسن وهو لا يشك أبداً في إخلاصه ولا يمكن أبداً أن يفقد الثقة فيه لحظة واحدة، ولكن الطبيعة البشرية لها حدود والاحتمال مهما طال لا بد أن ينتهي، ولا أحد يستطيع أن يخمن ما قد يحدث فلا بد من نقل «الأسمنت» من مكانه اليوم.. بل الآن! وكيف يكون هذا؟ تلك هي المشكلة.

واستمر حمزة يفكر حتى بعد أن استيقظ بدير وارتدى ملابسه وجلسا يتناولان الأفطار. وللمرة العاشرة أو أكثر راح بدير وهما على المائدة يتأسف ويشرح له نظريته:

ـ مش كده أحسن بذمتك؟ خدامين إيه؟ أولاً كل الخدامين بلا استثناء حرامية.. وثانياً بيكلفوا كتير.. وثالثاً تبص تلاقي الواحد منهم مشاركك في عيشتك.. على إيه ده كله؟ غسيل؟ جبت غسالة بالكهربا. كنس؟ جبت برضه مكنسة. طبيخ؟ ما لوش لزوم آكل في المطاعم أحسن. وإن هف على الواحد حاجة يبقى يعملها بنفسه على الأقل يضمن

جمهورية فرحات

نظافتها ويتسلى وبتبقى لذيذة جداً. . مشفتش انت المكنسة اللي بالكهربا؟ أصلي كسلت اليومين اللي فاتو. . إنما دي حاجة مدهشة قوى. . شوف.

وقام بدير من فوق المائدة وفي فمه بقية من طعام، وأحضر المكنسة ووضع «كبسها» في «الفيشة» وضغط على الزر ولكنها لم تعمل، فأصيب بالذعر وانحنى عليها يرى ما هنالك، ولما أتعبه الانحناء وجعله يتفصد عرقاً جلس على الأرض ببدلته وأخذ يفحصها بعناية ويجرب. .

وكان حمزة قد انتهى من تفكيره الى قرار، فلا بد أن يذهب هو ينقذ «الأسمنت» مهما حدث، ولتكن مخاطرة وليقبض عليه، ولكن لا بد من انقاذ الأسمنت فقال لبدير:

ـ أنا رايح أجيب هدومي النهارده.

فرد بدير وهو لا يزال منهمكاً:

ـ هه؟

ـ عاوز شنطتك الكبيرة.

ـ هم.

ـ وسبلي المفتاح.

ـ إيه؟

ـ بس يا خويا البتاع البارز ده ليه؟ يمكن هو السبب؟

وفجأة اشتغلت المكنسة فذعر بدير للمفاجأة، ثم ما لبث أن ابتسم وقال:

ـ شفت مدهشة إزاي؟

ولكن حمزة أجاب:

ـ هات المفتاح.

ـ مفتاح!

واضطر حمزة أن يعيد ما قال، ويمد يده آخر الأمر ويتناول المفتاح.

وخرج بدير.

وذهب حمزة إلى غرفة النوم حيث الحقائب الغالية موضوعة على قاعدة ـ الصغيرة منها فوق الكبيرة ـ مكونة هرماً مدرجاً من الحقائب الأنيقة.

واختار حمزة أكبرها. وجرب طربوشاً من طرابيش بدير، ولكنه وجده أوسع من رأسه، ولم يجد ما يصلح له إلا طربوشاً قديماً مهملاً فنظفه ما أمكنه وحشاه بورق جرائد ليستطيع ارتداءه.. وقبل أن يغادر الشقة نظر الى شكله في المرآة الكبيرة الموضوعة في الصالة واطمأن الى وضع الطربوش والى حبكة المنظار الأسود والى حواجبه التي كثفها بسواد حصل عليه من رماد قطعة ورق أحرقها.

وغادر المنزل وهو ينظر الى الناحية البعيدة عن البواب حتى لا يلحظه.

واستوقف أول عربة قابلته وقال للسائق: باب الخلق.

ومضت العربة.

كانت الدنيا لا تزال صبحاً والشمس توزع صفرتها على الناس والأشياء بسخاء، وتألم حمزة لمنظر الناس وكأن قد مضت شهور وهو في سرداب تحت الأرض خرج منه يومها. كانت فيهم ملامح أهل القاهرة الذين يعرفهم ما في ذلك من شك، ولكنهم كانوا غير الناس الذين رآهم لشهور طويلة قبل الحريق.. كانت زحمتهم هي هي، وإسراعهم الى

أعمالهم هو هو، ولكن كان يخيم عليهم صمت بغيض، وكانت سرعتهم غريبة هي الاخرى فهي ليست سرعة الإنسان النشيط ولكنها سرعة المرعوب، سرعة الذي يجري خوفاً من الكرباج. وكان الترام لا يزام يعوي ويسير والعربات الكارو تتأرجح وتجعجع وتركض أحصنتها، والتاكسيات لا تزال تحوم حول الزبائن، والدكاكين مفتحة الأبواب والكناسون يعملون، وأحياناً تسمع في سماجة الصبح ضحكات وشتائم.. ولكن كل ما كانت تقع عليه عيناه كان خالياً من الحياة، كله خال من أية حياة. الناس شخوص، والحركة في الشارع تدور وكأنها تدور على شاشة باردة في فيلم رسوم متحركة، والحديث والضحكات تخرج لا معنى لها أقرب الى الأصوات التي تخرج عن الأحجار إذا سقطت أو الأخشاب إذا احتكت، منها الى أصوات تخرج عن أفواه بشر.

وتساءل حمزة: أين الروح في هذا كله؟ وهل يصدق إنسان أن تلك هي القاهرة التي كانت قبل ٢٦ يناير، وهؤلاء هم الناس الذين قاموا بمظاهرة ١٣ نوفمبر والذين أمسكوا وزيراً ذات يوم من تلابيبه وقالوا: أين السلاح؟

ومن العتبة مضى التاكسي في شارع محمد علي.. حتى الموسيقى التي كانت تعزفها فرقة صغيرة كحيانة تزف إعلاناً عن فيلم في سينما الحلمية.. حتى تلك الموسيقى كانت أقرب الى نهيق حمير أو عواء أبقار منها الى نغمات آلات.

ووصل التاكسي إلى باب الخلق.

وأوقفه حمزة وحاسبه. وركب تاكسياً آخر كان قادماً من شارع الخليج وقال للسائق:

ـ حود في شارع الدرب الأحمر واطلع على باب الوزير.

وهدأ السائق من سيره وهو يجتاز الشوارع الباقية الضيقة المتلاحمة المزدحمة ، وهدأت كذلك بقية الحياة الباقية حتى انتهت في آخر الأمر إلى أصوات عمال الأحذية في الحوانيت المتباعدة المتناثرة وهم يدقون المسامير في القوالب، وطرقات صانعي النحاس وهي تترى في استدامة مملة على السندان.

وعند باب الوزير غادر حمزة العربة حاملاً الحقيبة وهو يتلفت في كل اتجاه ويزن كل رجل يصادفه. وصعد في الطريق المؤدية الى المقابر وعيناه أمامه وخلفه وعلى جانبه، وحين وصل إلى المرتفع سار في اتجاه المدافن، وما كاد يمضي بضع خطوات حتى أشرف على أولها وتوقف حينئذ ودار بعينيه باحثاً.

وفي الظل الذي يجاور مقبرة وجد هناك رجلاً يبدو عليه أنه يمت بصلة ما إلى المكان.

ـ سلام عليكم.

ـ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وحدق حمزة في الرجل وفي عمامته ووجهه الأسمر وعينه الحولاء والجلباب الصوف البني الذي يرتديه، واطمأن إلى أنه ما دام أحول فلا يمكن أن يكون بوليساً فقال:

ـ والله ما تعرفشي سيد فين؟

ـ سيد مين؟

ـ سيد اللي بيشتغل هنا.

ـ ما هو فيه لا مؤاخذة في دي الكلمة سيدين. . سيد شطا وسيد محمد براهيم.

ولم يكن حمزة قد فكر في مشكلة كتلك فقال:

ـ سيد يا أخي . . الطويل قوي ده الرفيع.

ـ آخ قول كده أمال . . سيد محمد براهيم . . أيوه انت لازم قصدك سيد محمد براهيم . . مش كده والله أنا من غير مؤاخذة غلطان؟

ـ لأ، لازم هو . . هو فين؟

ـ هو . . هو من غير مؤاخذة راح يعمل زي الناس وجاي . . زمانه جاي. اتفضل! هو حضرتك يعني لا مؤاخذة عايز حاجة؟

ـ آه . . أصل أنا طالب في كلية الطب وباجي آخذ منه عضم . . بس ده بيني وبينك.

ـ عيب يا بيه، هو أنا لا مؤاخذه عيل صغير والا عبيط؟ دانا ياما أفندية وبهوات ولاد حلال زي جنابك جولي كتير . . كانوا بييجوا بعربيات فخفخة قوي ويقفوا هناك هنا هه وأروح أنا أجيب لهم العضم أشكال وألوان، ويقولوا لي عايز كام يا عم سماعين أقول والله ما يتبعني ولا مليم . . هو أنا أشتريته والا تعبت فيه؟ من هنا لهنا يتحايلوا علي واللي يديني نص جنيه واللي جنيه . . مش كله حاكم صوابعك مش زي بعضها . . ومرة واحد إداني بريزة، طب تصدق بإيه؟ صعب عليَّ وادتهالو تاني.

ـ هو حضرتك بتشتغل هنا؟

ـ إلا دي . . دانا مولود هنا وإن مت بإذن الله حموت هنا واندفن هنا «وأشار الى مقبرة قريبة». دانا جاني علي باشا إبراهيم الله يرحمه ويحسن إليه ياخذ مني عضم . . كان أياميها لا باشا ولا حاجة كان زي حضرتك كده لابس طربوش برضه . . أمال! دانا هنا وأبويا كان هنا وجدي هو اللي

ناشيء الملك دا كله. طب تصدق بإيه؟ أنا مرة جبت لواحد بيه زي حضرتك كده جثة كاملة واداني يومها عشرة جنيه في ايدي دي اللي بكره حياكلها الدود.. أنا هنا؟ وإن ما كنتش أنا هنا يبقى مين هنا؟ بس تقف عند باب الوزير وتقول سماعين أبو دومه فين يجيبوك لغاية عندي.. أيها خدمة يا بيه؟ عايز بقى عضم مشكل والا هيكل بحاله قول بس وفي دقيقة تبص تلاقيني جايبلك اللي انت عاوزه.. عايز ايه جنابك؟

ـ أنا عايز سيد.

ـ آه سيد.. زمانه جاي. أصله من غير مؤاخذة راح يعمل زي الناس.. ما هو أنا وسيد واحد ما فيش فرق كلنا أخوات.

وجاء سيد، بدا من بعيد لطوله ونحافته وكأنه شاهد قبر هبط فجأة على الأرض وأخذ يمشي. وما إن لمحه حمزة حتى أسرع إليه تاركاً أبو دومة يقول:

ـ أي خدمة يا بيه؟ كلنا اخوات.. بس تقول فين سماعين أبو دومة الف من يدلك.

وسلم عليه سيد بحرارة، ولم يتبادلا كلمة واحدة حتى ابتعدا كثيراً وتاها في كثرة المقابر، وحينئذ قال سيد:

ـ خير إن شاء الله؟

ـ اسمع يا سيد.

ـ إيه؟

ـ انت فاكر حسن؟

ـ أوي! ماله؟ دا واد جدع قوي.

ـ اتقبض عليه.

جمهورية فرحات

ـ يا نهار اسود! إزاي؟

ـ كده. . لازم ننقل الأسمنت النهارده.

ـ وحسن اتقبض عليه؟

ـ أيوه ما قلتلك.

ـ يا خسارة! يا فتاح يا عليم يا رب! ما تخدوني بقى يا أخي. . الواحد قرف من العيشة دي.

ـ حييجي يوم ناخذك بس كل حاجة بأوان والا إيه؟

ـ وحنعمل إيه؟

ـ ياللا هاته عشان نعبيه في الشنطة دي.

ومشى سيد وقد اكفهرت ملامحه وتغضن وجهه المتغضن وازداد نحولاً.

ومشى حمزة وراءه يراقب قدميه الحافيتين الكبيرتين وهما تتركان آثارهما على الرمال، وجلبابه الذي عقد ذيله من ناحية والعقدة تتأرجح لكل خطوة. وكانت المقابر تسبح في هدوء يوم الشتاء ذاك. . هدوء مهيمن كبير أكبر من السماء والأرض، وأشعة الشمس ما تكاد تصل حتى يشلها الهدوء فتكمل رحلتها إلى الأرض زاحفة عليلة. . وكانت رياح باردة تهب. . رياح ذات طعم مختلف تماماً عن رياح المدينة وكأنها تهب من فجوة خاصة في أحد المدافن، والقبور متراصة مزدحمة تكاد تحسبها قطيعاً مهرولاً من ركائب مسرجة، ولا يستطيع الإنسان أن يميز شيئاً بذاته فهو يرى القبور من خلال يوم الشتاء البارد، ويحس بالريح من خلال القبور والزمهرير، ولا يرى الشمس إلا مضيئة مدفناً أو زاحفة أشعتها فوق تراب حفرة. . وتنبه حمزة من تأملاته على آثار قدمي سيد وهي تنقطع وتؤدي إلى باب فتحه سيد

وأحدث فتحه في الهدوء الشامل صريراً مزعجاً. ودخل سيد ودخل حمزة وراءه. . كان المكان مظلماً لا يتسرب إليه الضوء إلا من خلال شقوق موجودة بين ألواح نافذته. وكانت هناك رائحة لا تستحب لا لأنها كريهة ولكن لأن فيها شيئاً ما ينفر. . كانت بلا ريب الرائحة التي تصاحب عملية تحول الإنسان الى تراب. . وما أشد نفور الإنسان من رائحة تحوله الى تراب!

وانقض سيد على بقعة في ركن المكان وأعمل فيها أصابعه، وظل يعمل بلاهوادة، وحمزة قد مل الوقوف فوضع الحقيبة وارتكز عليها. وتكشف التراب الذي كان يزيحه سيد عن «مجاديل» مصنوعةمن أحجار طويلة موضوعة بعضها إلى جوار بعض وتغطي فجوة.

وأدخل سيد أصابعه الجافة بين مجدالين وناضل بقوة حتى اقتلع واحداً .وخف حمزةليساعده، ولكن«سيد»رفع إليه وجهه الذي كان مغطى بتراب وبعرق كثير يلمع في ظلام تضيئه رقائق الضوء وقال:

ـ عنك انت يا أستاذ خليك مستريح. . هيه!

قال «هيه» وهو يعتل ويقتلع حجراً آخر.

وبعد أن رفع الأحجار كلها وجفف عرقه بجلبابه حدق في الحفرة. . وحدق حمزة كذلك، وتبين بعد أن تعودت عيناه ظلام الحفرة أن بها درجات تؤدي إلى القاع ما لبث سيد أن هبطعليها بغطائها.

وجاءه صوته بعد فترة مخنوقاً محشوراً:

ـ خد يا أستاذ.

وفي وجل قليل هبطحمزة ثلاث درجات ومد يده وقبض على الشيء بيد من حديد، وفي حرص بالغ وضع «الجربندية» التي كانت من مخلفات

الجيش، وضعها بجوار الحائط. وما كاد يفعل حتى جاءه الصوت المخنوق:

ـ خد يا أستاذ.

وتناول «جربندية» أخرى.

وثالثة ورابعة.

وخرج سيد في النهاية قائلاً:

ـ الحاجة تمام يا أستاذ؟

ـ تمام.

وأحضر حمزة الحقيبة الكبيرة وفتحها وأمر سيد أن يمسك.

وفي دقة بالغة عالج «أبزيم» أول جربندية حتى رفع غطاءها وتناول أول قالب «ديناميت» وتفحصه وشمه واطمأن إلى أن الرطوبة لم تنفذ إليه ووضعه بحرص أيضاً في ركن الحقيبة.. ثم مد يده واستخرج قالباً آخر وأرقده في قاع الحقيبة.

ومضت ساعة.

وتنفس حمزة بارتياح وهو يقول لسيد:

ـ ابقى اتخلص من الجربنديات دول.. ارميهم احرقهم اتخلص منهم والسلام.

وأجاب سيد بإيماءة الفاهم من رأسه.

وحمل سيد الحقيبة وهو النحيف رغم إلحاح حمزة، وعادا من نفس الطريق. وما أن وصلا إلى أول المقابر حتى وجدا هناك «أبو»دومة ومعه آخر. وطلب حمزة من سيد أن يحضر له عربة، ومن بعيد كانت تأتيه الكلمات التي يتبادلها أبو دومة وصاحبه:

ـ وبياخدوا العضم ده يعملوا به ايه يابو دومه؟

ـ أنا عارف يا خويا بيدرسوا عليه . . بيركبوه ويعملوه بني آدم تاني . . حد عارف؟

ـ إلا أنا سمعت يابو دومة انهم بياخدوا العضم ده يسحروا بيه ويعملوا بيه عمولات ، وإنهم لاهم دكاتره ولا حاجة .

ـ يمكن . . مش بعيده . أنا مرة جاني واحد وقال عايز عضمة صباع رجل يمين بتاع واحد كان أعور شمال!

وجاء التاكسي .

وحمل حمزة الحقيبة برفق شديد ووضعها الى جواره وقال لسيد :

ـ شد حيلك .

فقال سيد :

ـ شدوا حيلكوا انتوا .

وقبل أن تنطلق العربة وقف أبو دومة وأشار لحمزة مودعاً :

ـ مع السلامة يا بيه . . أيها خدمة . . بس عند باب الوزير تقول عمي سماعين أبو دومة فين ألف من يدلك . . مع السلامة . . كل اسمنت وأنت طيب ! !

ولم يسمع حمزة الجملة الأخيرة . .

٧

حين استقر مرة أخرى في شقة بدير جلس على الفوتيل ووضع الحقيبة بجواره على السجادة، وراح يفكر في تفاصيل ما حدث منذ غادر ترب باب الوزير قاصداً العباسية حيث يقطن صديقه السيد محمد رشدي. كان وهو يصعد بالحقيبة إليه ليطلب منه أن يبقيها عنده يكاد يجزم بما حدث ويكاد يخمن الارتباك العظيم الذي انتاب رشدي وخروجه ودخوله أودة الجلوس عدة مرات، وصوت امرأته حين علا، والابتسامة الحزينة الخجلة التي ظلت طول الوقت لا تغادر وجهه والكلمات ترتج عليه محاولاً أن يعتذر بالأولاد والحالة الصعبة، قائلاً آخر الأمر إنه لا يستطيع أن يخفي أي شيء..

كان حمزة حائراً.. هل يحقد على رشدي أم يرثي له؟ ويكاد يكون لدى البعض رغبات خفية تراودهم أحياناً أن يضبطوا غيرهم متلبساً بلحظة ضعف، ليرى الواحد منهم نفسه بالتشفي به وإذلاله وإثبات قوته هو وجبروته وصلابته.. غير أن رغبات مثل تلك لا تراود إلا الضعفاء.. وكان حمزة أبعد عن أن يفكر في التشفي أو تحقير صديقه لموقفه ذاك، فقد كان يعلم أن لكل إنسان قدرة محدودة على المضي في الطريق، وأن على الذين في استطاعتهم مواصلة المسير أن يرثوا للمتخلفين وألا يفقدوا فيهم الأمل.

ولكن مشكلة الحقيبة كانت لا تزال قائمة وبدير لن يسمح أبداً أن تمكث في شقته ثانية، بل لو علم لما أبقاه هو. وعليه أن يودعها في مكان أمين، وأين المكان الأمين في ظروف كتلك؟

ودار المفتاح في قفل الباب.

ودخل بدير وما أن رأى الحقيبة حتى قال:

ـ جبت الهدوم؟

ـ آه.

ـ وخدت الشنطة الكبيرة ليه؟ إياك عندك هدوم كتير؟

ـ آه.

وكان بدير يتكلم وهو يروح ويجيء مبتهجاً ويدور في الحجرة وينظر أحياناً الى الحقيبة. ولا أحد يدري مصدر النزوة الغريبة التي راودته والتي تراود الناس كلما رأوا حقيبة كبيرة أن يجلسوا عليها، وقال بدير وهو يكف عن مشيه ويهبط بجسده الضخم فوق الحقيبة:

ـ هه.. وازيك؟ مالك مبوز كده؟

واندفع حمزة يصرخ:

ـ اوعه.. اوعه.. قوم.

وانتفض بدير واقفاً في ذهول لا يدري سبباً لهذا الصراخ المفاجىء.

وقال حمزة في نبرات متقطعة محاولاً إصلاح الأمر:

ـ أصل.. الهدوم تكسر.. الشنطة ما تستحملش.

ـ يا خويا خوفتني.. هي هدومك قزاز والا إيه؟

ـ أبداً.. هه.. أما أشيلها أحسن.

ورفع حمزة الحقيبة وتكلف جهوداً شاقة ليستطيع أن يبدو أمام بدير وهو يحملها في خفة، وكأنها تحتوي ملابسه فقط. وعاد الى الحجرة وجلس

صامتاً ناظراً في ساعته. كانت الساعة الرابعة وما تبينها حتى أحس بجفاف في حلقه وبشيء من الرهبة ودق القلب. . أحس بهذا كله دون أن يدري له سبباً. كل ما في الأمر أنه تذكر أن ما بعد الظهر قد حان، ولكن الحديث الحقيقي كان يدور بين حمزة ونفسه. وكان الحديث يدور حول فوزية.

ماذا حدث؟

لقد تم أول لقاء بينهما وكل شيء هادىء وعادي.

فلماذا أدمن بعد ذلك التفكير فيها؟

ولهفته على لقائها في مصر الجديدة لم تكن أبداً لهفة لقاء عادي.

وما الذي فعلته فيه أصابعها الطويلة النحيلة وهي تلتف على يده بقوة تصافحه؟

وما تلك الاشعاعات الظاهرة التي تنبعث من عينيها كلما نظر في عينيها فتسلبه إدراكه؟

وما مصدر تلك القوة الغامضة التي تدفعه إليها دون وعي أو تفكير كما يندفع الحديد الى المغناطيس؟

أبداً. . لم يحس بشيء كهذا في حياته. كان يستلطف بنات وأحياناً يهذر مع بنات ويقبل بنات ويصادق بنات ولكنه لم يشعر أبداً بإحساس خفي مثل ذاك الذي يجذبه بقوة لا يستطيع مقاومتها إلى فوزية؟

هناك شيء ما محير يحيط بتلك الفتاة. . لا بد أن في الأمر سراً لا يدريه. إنه لا يحبها إذ الحب في نظره علاقة لا تنمو هكذا بمجرد نظرات وكلمات ولقاءات. الحب الحقيقي علاقة مادية يقتضي وجودها زمناً وعشرة وتجربة يمر بها الرجل والمرأة فتصهرهما في بوتقتها. . فإذا لم يكن يحبها فماذا يدفعه إليها؟ ولماذا أصبح حلقه يجف وقلبه يخفق كلما مرت

بخياله أو سمع اسمها أو خيل إليه أنه يسمع اسمها، أو حتى إذا جاء في حديثه مع بدير ذكر لأي كلمة فيها الفاء والواو والزاي. . أو حتى الـزاي وحدها؟ ولماذا راح دون وعي منه يستعرض كل النساء اللائي رآهن خلال رحلته الى باب الوزير ويقارن أيضاً دون وعي بينهن وبينها وتكون هي الرابحة دائماً. . بل كل النساء الى جوارها رجال أو هن أقرب؟

لماذا هذا كله؟ ولماذا دأب في الأيام الأخيرة على حلق ذقنه كل يوم والوقوف أمام المرآة طويلاً؟ ولماذا يغالط نفسه ويدعي أنه يرى في المرآة أمامه إنساناً وسيماً؟

ولماذا راح يفتش عن لمحات جمال في نفسه. واكتشف الآن فقط أن أنفه جميل وأسنانه ناصعة البياض وذقنه الغزير كلما جار عليه بالموسى وهو يحلقه أصبح له لون رمادي باهت يتلاءم تماماً مع لون بشرته؟

إنه شخص علمي يؤمن بالعقل والعلم ولا بد من تفسير لتلك الظاهرة. . لا بد من وجود سبب، ولا بد أن يدرس انفعالاته حين تأتي ويراقب نفسه ويحصي عليها حركاتها وسكناتها، ويتفحص فوزية بدقة إذ لا بد له من العثور على تفسير.

ومع أنه كان جالساً في حجرة المكتب بعيداً عن باب الشقة إلا أنه سمع حفيف الأقدام التي تصعد السلم وجف حلقه للحفيف وازداد جفافاً حين توقف الصوت لدى الباب. ولم ينتظر دق الجرس بل انطلق من فوره وفتح الباب ليجد فوزية واقفة على عتبته تحمل حقيبة من القماش بيد ويدها الأخرى على الزر، وحين ابتسمت له عبقت الدنيا برائحة بسمتها واستحال شخصاً آخر. . لا نقاش ولا جدال ولا علم ولا عقل. . قلب يخفق، وريق ينضب، وعرق خفيف ينبت، وطاحونة دائرة في رأسه

وقوة خارقة تدفعه مغمض العينين إليها. . وجاءه صوتها ساحراً في لطفه رقيقاً عذباً يقول:

ـ إيه؟. . مش عايزني أدخل؟

وتعثرت بسماته وتعثر اضطرابه وهو يقول:

ـ أبداً. . أبداً. . اتفضلي.

ـ ياه. . انت مؤدب قوي النهارده.

ودخلت فوزية وسبقته الى حجرة المكتب.

وأحس باطمئنان أبدي حين احتوتها الشقة، وهبط الخوف الذي كان يملأ صدره ولا يدعه يستريح. . الخوف من أنها لا تجيء، أو إذا جاءت يحدث حادث مثلاً ولا تدخل الشقة، أو يكون وراءها عمل آخر فتأتي لتعتذر، أو يقبض عليه قبل حضورها.

وقام الأستاذ بدير يرحب بها في ضجة، ومع أنها كانت قد اختارت أن تجلس على كرسي إلا أنه ألح عليها بإمعان أن تجلس على الفوتيل ولم يتركها إلا بعد أن نفذت إلحاحه. . وانطلق إلى المطبخ وعاد بعد ثانية بزجاجة عصير فواكه مثلجة وقدمها وهو يعتذر بأن الزجاجة مش قد المقام.

وبعد ما انتهت ضجة الترحيب سكت الثلاثة. . سكت حمزة لأنه كان يتأمل فوزية ولا يحس بأدنى رغبة في الكلام، وسكتت فوزية لأن كلامها كان يحتم انفرادها بحمزة وكان يبدو على بدير أنه أضيق الثلاثة بالصمت وأنه يود فتح أي باب للحديث ويود إطالة الجلوس.

غير أن الباب ظل مغلقاً لا يكاد يجسر أحد على فتحه، ولم يجد بدير فائدة فخبط على فخديه وهو يقول:

ـ طيب. . هه. . اسيبكو بقى للدروس وأقوم أنا.

ومع هذا لم يقم وكأنه ينتظر أن يشفق عليه أحدهما ويستبقيه، غير ان واحداً منهما لم يقل حرفاً.

واعتدل بدير في تراخ وترك الحجرة، وظل يروح ويغدو في الشقة ويغني أحياناً ويدخل عليهما الحجرة ويبحث في أدراج المكتب عن اشياء ولا يجد هذه الأشياء، وهذا كله يحدث وحمزة وفوزية لا ينطقان بحرف، حتى اذا ما قام بدير أخيراً وقد فتح الباب الخارجي وأمسكه بيده:

ـ هه. . أوروفوار بقى.

قال الاثنان: أوريفوار.

واستعادت فوزية نشاطها المتيقظ ولمعة عينيها والتفتت الى حمزة قائلة:

ـ الهدوم أهه. . وآدي الورق والباقي مكنشي فيه حاجة مهمة، وآدي وصل الجواب المسوجر. . والنمرة مردتش.

ـ نمرة ايه؟

ـ الله! انت نسيت؟

ـ لأ انسى ازاي. . مردتش؟ انتي عارفة معنى كده ايه؟

ـ ايه؟

ـ اني خلاص فقدت آخر صلة لي باللجنة. . والله كل ما تلقي نفسك فاضية اضربيها يمكن ترد. . يمكن يرجع.

ـ فيه حاجة تانية؟

ـ لأ.

ـ ووجد شيئاً يدفعه إلى أن يضيف:

ـ أهو دلوقتي اتعزلنا احنا الاتنين. . يعني كأنني «في جزيرة معك».

جمهورية فرحات

وسرح خياله مع التعبير.. في جزيرة معها هي والطبيعة واللامسئوليات.. كم يبدو هذا رائعاً! وهل ستسير حياته كلها هكذا معارك وكفاح وتربص وحذر؟ كم تبدو الراحة والمتع الصغيرة التي لا يزاولها حلوة.. كم يبدو بيت هادىء وزوجة وأولاد جميلاً! أحياناً يهفو الى قضاء يوم على شاطىء البحر في مصيف. أحياناً يود الذهاب الى الأوبرا أحياناً يريد أن يرى أوروبا.

وعاد يريد أن يحدق فيها ولم يجد لديه جرأة كافية، بل لم يعد في استطاعته أن تلتقي أبصارهما ولا عاد يرى فيها الإنسانة التي من لحم ودم والتي تعود أن يراها، بل أصبح ينظر إليها وكأنها استحالت الى شيء معنوي له قدسية وخشوع، أصبح يراها كما يتأمل العاشق القمر فلا يجد فيه كوكباً آخر يضيء بأشعة الشمس المنعكسة، وإنما يرى فيه وجه الحبيبة وأسعد ما عاش من ساعات، والهمسات الدافئة وكل الذكريات.

وكان الصمت قد طال حتى بدا وهو في أشباه أحلامه يحس به ويحس أن لا بد له من نهاية فقال لها:

ـ تعرفي أن كل معلوماتي عنك لا تتعدى أنك مدرسة وسكرتيرة اللجنة وبس..

ـ وعاوز تعرف إيه؟

ـ كل حاجة.

ـ ياه.. دا انت الظاهر فاضي.

ـ وورانا إيه؟

وبدأت تتكلم بعد تردد وحمزة يستمتع بكلامها وبحالة السلبية التي تملكته والتي كان سعيداً بها. هي الابنة الكبرى لمدرس أيضاً ولها أختان

وولد، أبوها تعلم في المعاهد وتخرج من دار العلوم ويدرس العربي وله في كل مشكلة رأي ويعتبر نفسه عصرياً بكل ما تحمل تلك الكلمة من معان. وبينه وبين أقربائه الذين يكونون جيشاً عرمرماً من موظفي الدرجة السابعة فما تحت ما صنع الحداد حين قالوا له: عيب تشتغل بنتك. مط لهم شفتيه وقال: ما عيب إلا العيب، والذين يعملون أشرف من الذين لا يعملون. وحين نقلت الى طنطا وكان لا بد أن تسكن هناك بمفردها وأشفقوا عليها من المصير قال لهم: اللي ما يقدر يحافظ على نفسه حيحافظ عليه غيره؟ وحين رآها بعض ذوي قرباها محمولة على الأعناق في عابدين في مظاهرة ١٣ نوفمبر وهي تهتف وذهبوا اليه يستنكرون ويتبرون قال: كلموها هي. . أنا ابوها مش سيدها.

ليس هذا فقط بل إنه يحفظ رباعيات الخيام، ويرى أن نصف مشاكل العالم تحل بعد حمام دافىء. وأن الوسيلة المثلى لإخراج الإنجليز من مصر هي ما اتبعه غاندي، وأن المعيز والمغازل أقوى مليون مرة من المدافع والدبابات، وإن كان يستدرك بعد هذا ويقول: بس ده رأيي الخاص. . وأنا احترم رأيك جداً مهما كان. . أنا كما يقول فولتير: أنا وإن كنت لا أرى رأيك إلا أنني مستعد أن أفقد حياتي دفاعاً عن حقك في إبداء رأيك.

وقطعت فوزية حديثها فجأة قائلة:

ـ قوللي؟

ـ أيوه.

ـ انت لابس البدله ليه؟

وتذكر حمزة كل ما دار في يومه الطويل وقال:

ـ أصلي خرجت. .

ـ خرجت؟ إزاي؟ إزاي تخرج؟

ـ كان لازم.

ـ ليه؟

وتردد حمزة مرة أخرى ولكنه آثر أن يفضي إليها وقال:

ـ حسن كان يعرف مكان ديناميت مخبيينه، فكان لازم أروح بنفسي وأجيبه.

ـ ديناميت.

ـ أيوه ديناميت.

ـ وجبته؟

ـ جبته.

ـ فين؟

ـ جوه.

ـ هنا؟

ـ أيوه هنا.

ـ إزاي مخليه هنا؟ مش خطر؟

ـ خطر.

ـ وهنا مش كويس!

ـ مش كويس أبداً.

ـ لازم ينشال.

ـ لازم.

ـ وحتعمل إيه؟

ـ حنقله.

ـ فين؟

ـ ما اعرفشي.

ـ وده كلام؟

ـمعلهش. . لازم أوجد حل.

وسكت وسكتت وهي تهز ساقها الموضوعة فوق الأخرى في عصبية وأخيراً قالت:

ـ تشرب قهوة؟ أنا عايزة قهوة.

ـ تعرفي تعملي؟

ـ طبعاً أعرف! انت فاكرني مثقفة متعفنة! دانا اللي شايلة بيتنا كله وشغله. . دلوقتي حتشوف القهوة!

ـ ورينا شطارتك.

وبعد قليل رجعت وقدماها تزحفان ببطء وعلى الصينية كوب لها وكوب آخر له، وبخار القهوة يتصاعد ويملأ الغرفة برائحتها التي يتفتح لها الشم والبصر.

وأخذت فوزية تحتسي قهوتها في رشفات سريعة حتى أتت عليها وحمزة ما يكاد يتذوق كوبه، وسألته فوزية ونشوة بهيجة تطل من عينيها:

ـ إلاّ قوللي.

ـ أقولك إيه؟

ـ انت بتشتغل إيه؟

وضحك حمزة ضحكة طويلة مغتصبة وقال:

ـ انتي لسه لدلوقتي ما تعرفيش. . خمني باشتغل إيه؟

ـ مدرس؟

وضحك حمزة مرة أخرى وقال:

ـ اشمعنى يعني؟!. . لا.

ـ طالب؟

ـ لأ.

ـ محامي! أمال إيه صحيح؟

ـ تسمعي عن الناس اللي بيسبغوا الهدوم أهو أنا منهم.

ـ كنت بتشتغل في مصبغة يعني؟

وضحك حمزة وأجاب:

ـ لأ كنت باشتغل كيماوي في مصنع شركة الحرير.

ـ أمال ايه اللي خلاني افتكرك مدرس.. انت لازم سبت الشغل بقى؟

ـ ياما سبت شغل.

ونظرت إليه فوزية، أكانت علامة إعجاب نظرتها؟ لا يدري فقط جعلته تلك النظرة يخجل ويسقط عينيه الى الأرض.

وقالت فوزية في عصبية مفاجئة:

ـ تعرف أنا النهاردة كنت حاضرب الناظرة، إيه ده؟ الناس بقى دمهم تقيل قوي.. ناظرة آخر رجعية وسخافة في العالم. تصور هي بنفسها اللي بتفتح كل الجوابات الواردة للمدرسة وتقراها.. امبارح فتحت جواب لي.. الله ما تشرب القهوة.. انت سارح في إيه؟ بتبصلي كده لي؟

وكان حمزة تائهاً فعلاً في وجهها لا يكاد يعي، وعيناه مثبتتان على بشرتها يرى كلماتها ولا يسمعها، ويراقب ذرات النور وهي تتساقط على ملامحها الدائمة الانفعال، ويفكر في أشياء كثيرة لا يعرف ما هي.. وانتبه فجأة على سؤالها فقال:

ـ أبداً.. آه.. أصل أنا ساعات باسرح كده.

ـ الظاهر إنك تعبان.

أبداً.. أبداً.

ـ أمــال عينيك شكلهــم غريب، وبتبص كده. . كده. . كده فيه حاجة؟

ـ أبداً. . أبداً.

ـ طيب أنا لازم أمشي. . ياه! أنا أتأخرت قوي.

ـ تمشي إزاي؟ لسه بدري. . لا يمكن حتمشي دلوقت.

ـ لا، لازم أمشي.

ـ لسه بدري جداً. . مش ممكن. .

ـ طيب أقعد خمس دقايق، لغاية لما تبقى تمانية.

وأحب حمزة أن يشارك في حديث يجعلها تبقى فسألها:

ـ هيه. . عاملة إيه؟

فقالت وهي تقف في ضيق عصبي مفاجىء:

ـ تعرف أنا النهارده كنـت حنفجـر. النـاس خلاص استسلمـوا. . عاملين زي التمساح الميت مهما تنغز فيه ما يحسش. . ايه ده؟ ده لو كانوا عشرين مليون دوده ما كانوش استموتوا بالشكل ده.

وكان حمزة مستمتعاً بحالة الاسترخاء السلبي الذي كان يستقبل بهـا حديثهاوملامحها،ولكنه لم يعجبه كلامهـا الأخير، وتـردد برهـة بين أن يسكت ويواصل الاسترخاء وبين أن يرد فينشب جدل يعكر الجو الحالم الذي ساد الغرفة. ولكنه وجد نفسه يقول:

ـ بس أ نت غلطانة إذا كنتي فاكره إن الشعب مستسلم.

ـ غلطانة إزاي والناس ميتانة خالص ؟ دا ولا كأن البلد بلدهم وملك حقير عمال بيخون ويلعب بقضية البلد زي ما هو عايز. .

ـ إنتي شايفه الظاهر بس. . وعمر المظاهر ما تصلح أساس لحـكم فاهماني إزاي؟

ـ يا شيخ مظاهر إيه؟ إحنا أصلنا شعب مسالم استعمر آلاف السنين وخد على الذل. . حتى الحرب الأخيرة ما حركتشي فيه ساكن. . أصل طبيعتنا الزراعية وأرضنا السهلة وجونا اللي مفهشي تغيرات كبيرة مش ممكن يخلق شعب مقاوم زي الشعب اليوناني مثلاً. . إحنا ناس عاديين ومش ميالين للعنف.

ـ برضه أنا مصر أن دي نظرة سطحية محضة. . شعبنا ده فيه قوة مقاومة لا يمكن تصورها. . قوة مريعة مستخبية ورا السبح والصهينة وضرب الدنيا صرمه.

ـ بس الزمن عمل عمله في الناس يا حمزة والظلم اللي استمر آلاف السنين ترك أثره. . أنت مش متصور. .

ـ انا متصور كل حاجة. . والظلم اللي بتقولي عليه ده مش أضعف المقاومة دا زودها. . فاهماني إزاي؟ إنتي لو كنت في اسكندرية يوم ٦ مارس وشفتي العيال وهم فاتحين صدورهم وداخلين على المترليوزات ماكنتيش تقولي كده.

ـ دا كلام بيني وبينك بنقوله إحنا بس. . إنما الحقيقة. .

ـ أبداً الحقيقة إن ده حصل فعلاً وشفته أنا بعيني. .

ـ حصل إزاي؟ مش معقول. . هو ده معقول حد يدخل على الرصاص بصدره؟

ـ بس ده فعلاً حصل. . كان الانجليز الأربعة فاتحين المدافع والرصاص زي المطر، والعيال كانوا واقفين في الميدان فعلاً ونازلين فيهم ضرب بالطوب والحجارة.

ـ انت حتجنني! اسمع يا حمزة. . أنا مش ناقصة حماس. . مفيش داعي تبالغ.

ـ بشرفي ما ببالغ. . أنا كنت في المظاهرة يومها. . ومش أنا بس اللي شفت. . على الأقل ٥٠٠٠ واحد شافوها يوم ٦ مارس.

ـ كان في اسكندرية الكلام ده؟

ـ آه. . يوم ٦ مارس بالذات ده كان يوم تاريخي بالنسبة لي شخصياً. . كنا أيامها بنمر بفترة رهيبة من تاريخنا. . كنت طالب في كلية العلوم في اسكندرية وكل يوم والتاني مظاهرة ومؤتمر، وكان لي صديق اسمه أمين كان طالب في كلية الحقوق. . دلوقتي بقى وكيل نيابة. . قابلته في الصيف اللي فات. . كنت أنا وهو ما نكاد نسمع عن مظاهرة أو إضراب إلا ونطير على هناك ، وكان لأمين بالطو مربعات مشهور جداً في المظاهرات كان أصله بالطو جبردين وقلبه، والجبردين قماشه من جوه مربعات. . كنا لما نعرف أن فيه مظاهرة يلبس هو البالطو ويجري على هناك. . وكانت مصر بتتوالى عليها حكومات صدقي والنقراشي والبلد كلها ثائرة وواقفة ضد أي تسليم في حقوقها. وكنت أنا مجرد طالب عادي من اللي بتشفيهم يملوا الشوارع في المظاهرات. . خرجت من بيتنا الصبح ، واسكندرية يومها كان مفروض أنها في حالة حداد على الشهداء اللي ماتوا في ٢١ فبراير في القاهرة. . وليلتها بالليل كان في البلد رأيين : رأي ينادي بوجوب أن يمر اليوم هادئاً وهذا كان رأي الإخوان ، والرأي الثاني كان بيصر على أن تقوم مظاهرات واسعة النطاق لتخلد اليوم ويصبح جديراً بذكرى الشهداء. وانتصر الرأي الثاني والصبح كانت البلد كلها تعج بالمظاهرات. خرجت من البيت وفت على أمين وذهبنا للبحث عن مظاهرة نشترك فيها.

وعند محطة الرمل وجدنا مظاهرة كبيرة ممتدة من المحطة الى شارع

جمهورية فرحات

سعد زغلول، ولأول مرة كنت باشوف مظاهرات مش فيها طلبة وبس، إنما فيها طلبة وناس كبار وناس بجلاليب وتجار وكمسارية ترماي وعمال وأولاد من اللي بيلموا سبارس ويمسحوا جزم وصبيان ورش. . الأولاد اللي بيقولوا عنهم الغوغاء. ومرت المظاهرة بكشك استعلامات إنجليزي كان مبني بالأسمنت المسلح وأصبح مكانه الآن منتزه، مرت من أمام الكشك وكانت له شبابيك بتطل على محطة الرمل وعليها يفط مكتوبة بالانجليزية تحمل تعليمات الى العساكر. بعض الأولاد اللي بيمشوا دائماً على حواف المظاهرات حاولوا خلع يافطة فمنعهم الرجالة الكبار، إنما كما يحدث في مثل هذه الأحوال الناس وقفت والتفت حول الكشك. . وانتبه الناس له وكأنهم لم يروه من قبل. . وكانت نتيجة توقف المظاهرات أنها تفرقت حول الكشك فحاصرته. أنا كنت في الناحية البعيدة عن شارع سعد زغلول فسمعت من الناس أن الكشك فيه سلاح وإن الواحد ممكن يدخل ويشيل زي ما هو عايز. وحكاية السلاح دي عندي حساسة جداً . . فمثلاً أنا مرت علي فترة أيام أن كنت في توجيهي وأولى جامعة كنت عاوز مسدس وبس. . كانت كل حياتي متبلورة في حصولي على مسدس مش المهم أستعمله في إيه المهم كنت عايز مسدس وبس. . وسمعت مرة أنا وأمين إن مصر الفتاة بتصرف مسدسات لأعضائها، فاتفقنا أن يدخل هو فيها فإذا أعطوه مسدس أدخل أنا أيضاً. وتستطيعي أن تتصوري مبلغ شوقي ورغبتي في دخول الكشك في تلك الساعة عشان أقدر أحصل على مسدس. . الميدان كان ساعتها مليان ناس، عدد كبير جداً من الناس، وما شعرت بنفسي إلا وأنا بابحث عن باب الكشك. . لقيته ولقيت ناس داخلين فيه. . دخلت، دخلت كده من غير أي تفكير ولا عقل. . كان فيه إحساس غريب كبير بيحركني. . الكشك من جوه كان مظلم وكان الواحد أول ما يدخل يلاقي أوضه كبيرة واسعة من غير شبابيك

وفيه باب بيؤدي الى أوضة تانية جوانية. . ويدوبك أصبحت في وسط الأوضة البرانية ومعايا ناس إلا وسمعنا أصوات غامضة . . تك . . تك . . تك . . سريعة وورا بعضها. أنا عمري ما سمعت مترليوز بيضرب، وما كنتش أتصور أن صوته لما يضرب بيكون واطي كده. . شعرت برهبة شديدة. . وجدت الناس خارجين من الأوضة الجوانية جري، وبعضهم بيقع على الأرض وينام، وبعضهم بيصرخ وكل اللي قادر يجري بيجري. . فجريت خرجت بره وفضلت أجري بعيد عن الميدان والحتة كلها لغاية ماطلعت على الكورنيش وأنا مذهول ومش فاهم حاجة ومش عارف حاجة. اعتقدت إني لازم أصبت ولسه لم أشعر. وأنا كنت سمعت أن الواحد لما بيضرب بالرصاص لا يشعر بإصابته في الأول. فتشت جسمي كله لقيتني سليم، ومن غير ما أدري لقيت نفسي راجع للميدان. . ولقيته ساعتها منظره رهيب جداً. الكشك ولو أنه كان كشك استعلامات كل ما فيه أشغال مدنية، إلا أنه كان فيه أربع عساكر إنجليز ومعاهم أربع مترليوزات وقاعدين مستعدين في الأوضة الجوانية من الصبح، ومنتظرين الناس لما يدخلوا عليهم فيروحوا فاتحين عليهم المدافع.

فلما الناس جريت ومات اللي مات واتعور اللي اتعور، العساكر خافت وراح كل واحد منهم مصوب مدفعه من شباك ونازل ضرب في الناس اللي في الميدان علشان يبعدهم عن الكشك. . وفي دقيقة كان الميدان اللي كان بيموج بالناس فضي خالص. كل أصحاب البدل اختفوا لما أصبحت الحكاية جد. . وكل أصحاب الجلاليب استخبوا في [illegible] العمارات اللي بتطل على الميدان، وتعرفي مين اللي فضل واقف لواحده في الميدان والضرب شغال من كل ناحية؟ تعرفي مين؟ الأولاد اللي

الإنسان لا يعرف لهم أهل ولا يعرف لهم لبس ولا صنعة. عيال صغيرين أكبر مافيهم لا يزيد عن ١٥ سنة . . سمر ومعفرين وشعرهم منكوش وهدومهم خرق. . يعني اللي فضل هم اللي بيسموهم الغوغاء.

وقفت أنا في مدخل عمارة قريبة، وكان ممكن أضرب وكان ممكن أموت، وكان عقلي بيراودني أن أرجع إنما كانت قوة خفية بتمنعني منع عن الحركة. وقفت اتفرج، المدافع نازلة ضرب والأولاد غير مكترثين اطلاقاً ونازلين ضرب بالطوب والحجارة. . تصوري! بيضربوا طوب قصاد متراليوزات. . والحاجة المذهلة ان الواحد منهم كان يصاب زميله اللي بيضرب جنبه ويقع ويموت وهو واقف ونازل ضرب بالطوب. .

وبعد شوية لقيوا أن الطوب أصبح لا يجدي. . فبصيت لقيت واحد منهم راح قالع جلابيته الخرق وبلها بنزين من عربية واقفة ووطى وفضل يجري لغاية ما قرب من الكشك وراح رامي الجلابية المولعة من الشباك جوه الكشك، وكان ده بداية تحول في المعركة. . بقى الأولاد يجروا ويجيبوا أي حاجة. . ورق. . خرق. . خشب، ويبلوها بنزين من العربيات ويجروا والرصاص حواليهم وفوق دماغهم كأنه ناموس بالضبط ويفضلوا يجروا ومش يحدفوها من بعيد وخلاص، لأ يصروا على أنهم يوطوا خالص لما يقربوا جداً من الكشك ويروحوا حدفينها من نفس الشبابيك اللي بتضرب منها المتراليوزات.

لما اشتدت المعركة بقوا يدخلوا محل الحلواني المطل على الميدان، ويجيبوا كراسيه ويولعوا النار فيها ويطلعوا وهم بيصرخوا صرخات الحرب ويجروا ويرموها على الكشك.

وبدأت النار وامتلأ الميدان دخان . . دخان كثيف جداً. واصبحت المنطقة كلها مليانة دخان ورصاص ونار وصراخ وتكتكة متراليوزات. .

وفي وسط الدخان، وفي وسط الهول دا كله تبصي تلاقي العيل من دول اسمر لونه زي التراب وعريان وجسمه مهبب وبيزحف على بطنه وشايل كرسي مولع والرصاص حواليه وهو ماشي بالكرسي في ثقة واعتداد ومصر على توصيله لحد الكشك.

وفي مدخل العمارة اللي كنت واقف فيه مع الناس كنا عمالين نبص ونستعجب ونخبط كف على كف. كنا زي ما نكون بنتفرج على أبطال قصص خرافية عمالين يقوموا بأعمال خارقة قدام عينينا. كان شيء عجيب يذهل. كانت لحظة من اللحظات اللي تشوفي فيها شعبنا. . الشعب اللي بيقولوا عليه طيب ومستسلم. . اللي بيقولوا عليه ساذج ومتسامح. . تشوفيه فيها عملاق . . تشوفيه فيها مارد لا يمكن لأي قوة ان تقتله. . تشوفيه في العيال اللي كان أكثرهم يمكن يومها ما فطرش واللي كان الرصاص بيدبحهم دبح، وعمالين يقاوموا ويحاربوا وعارفين انهم بيحاربوا الانجليز، وعارفين ان الانجليز معاهم مدافع وانهم هم ممعاهمش حاجة، ومع هذا مصرين على حرق الانجليز الأربعة اللي قتلوا الناس مهما مات منهم. كنت واقف وجسمي فيه حمى، وعيني بتشوف حلم غريب تكشف لي فيه شعبنا على حقيقته. . كتير جداً شفناه في أوقات ضعفه وكتير كنا بنلعنه ونستهين به، انما كنت عايز كل اللي بيمطوا شفايفهم لما تيجي سيرة الشعب. . كنت عايزهم يكونوا هناك ويشوفوا الميدان مليان جثث. . شبان وطلبة وعمال مفروشة جثثهم على الأرض والاسعاف عمالة تحول. . كانت بتيجي عربة الاسعاف مش تشيل واحد وتمشي؟ لأ. . كانت بتنتظر لما تتملي جثث وتطلع ويبجي غيرها يتملي ويمشي . . والناس مش عايزة تتحرك من مكانها. . والغوغاء اللي بيقولوا عليهم عمالين يتقتلوا وما بينتهوش كان بيتهيأ لي أنهم بيزيدوا. . كان بيتهيأ لي انهم عمالين ينضم لهم أولاد من تحت الأرض

فعلاً. كل العيال اللي في اسكندرية كل ما كانوا يسمعوا وهم بعيد عن المعركة كانوا بييجوا جري عشان ماتفوتهمش. والعجيبة ان في وسط دا كله، في وسط الموت والدم والدخان والرصاص فجأة تحولت أنظار الأولاد الى طيارة ركاب كانت فايته واطيه جداً وقعدوا يبصوا عليها ويشاوروا ويهللوا، في نفس الوقت اللي بيضربوا فيه بالطوب وبيرموا الخرق المولعة. وكان البوليس المصري جه ووقف في أول شارع سعد. . ماكانش بيعمل حاجة أبداً، وكان العساكر والضباط شايفين الأولاد الأبطال عمالين بيقعوا واحد ورا التاني وهمه حينفجروا من الغيظ.

وحاولنا أن نقنع ضابط انه يتدخل ويأمر العساكر المسلحين بضرب الإنجليز، فبقى يكاد يبكي وهو بيقول أنه لا يستطيع، وإنه ليس لديه أوامر. . بل بكى فعلاً.

ونجح الأولاد أخيراً. . الكشك ولع كله وبقى كتلة نار. ونطاتنين من العساكر اللي كانوا جواه رافعين أيديهم وسلموا نفسهم للبوليس فأحاطهم بقوات كبيرة علشان يقدر يحافظ عليهم. . وبقت بنادق العساكر المصريين هي المرة دي اللي بتضرب عشان تحمي الانجليز. . والعسكري التالت ما طلعشي أبداً وقالوا بعد كده انه اتحرق.

أما العسكري الرابع فنط من الشباك اللي كان قريب من العمارة اللي كنت واقف في بابها وطلع جري. فواحد ابن بلد اسكندراني كان واقف جنبي في مدخل العمارة طلع جري وراه وراح مشنكله فوقع في الشارع فراح بارك فوقه وحط رجله على صدره وطلع من جيبه مطوه لها سلاح طويل وسنها شوية على حجر الرصيف، وبعدين راح دابحه من الودان للودان. ومسح المطوة وحطها في جيبه، وتف على العسكري ومشي.

بعد كده شفت العسكري ده في المستشفى الأميري كان راقد في أوده كبيرة قوي ومليانه جثث الشبان والأولاد اللي ماتوا. . كان ضخم زي العجل وراسه كبيرة وشعره أحمر وزوره مقطوع لغاية العضم.

تاني يوم رحت الكلية لقيت الطلبة عاملين مؤتمر. ومؤتمرات زمان في الكليات كانت أكاديمية قوي فكان العميد والأساتذة بيحضروها. قعدت أسمع . . وكان فيه أستاذ بيخطب. . كان لابس بدلة نظيفة قوي وقميصه بيلمع ووشه محلوق ناعم وعمال يتكلم بصوت واطي وبرزانة مصطنعة عن أن القوة مش ممكن تخرج الانجليزي. . وأننا لو حسنا أخلاقنا ومعنوياتنا وروحانياتنا فلن يستطيع الانجليز البقاء في بلادنا.

فقمت واقف وقلت : ده كلام فارغ . فبان على وجهه الغضب الشديد مش لأني بأسخف كلامه انما لأني قاطعته وخرقت النظام. . فراح قايل: اللي عايز يتكلم يبقى ييجي هنا ويتكلم. . يجب أن نتعلم النظام لأن النظام هو الذي سيخرج الانجليز. أحنا علشان شعب فوضى ظللنا مستعمرين. . مين عايز يتكلم؟ انت؟ تعال. وشاور علي فرحت قايم في عاصفة من تصفيق الطلبة لأنهم كانوا الظاهر متضايقين جداً من كلام الراجل.

وصلت الى المنصة وأنا كنت يومها عمري ما خطبت ولا أعرف أخطب أزاي. ولكن اللي حصل اني انفجرت، وكل ما قلته كان هو اللي شفته في محطة الرمل. كنت باتكلم بحماس فقط. كنت بقول اللي حسيته واللي آمنت به. ومش فاكر أنا قلت إيه انما فاكر إني انهيت الخطبة بحاجة زي كده: لن يخرج المحتل إلا بالقوة وبالقوة فقط سيتحرر الشعب.

واستقبل الطلبة كلامي بتصفيق وهتاف كالرعد وفضلت الهتافات أكثر

من ربع ساعة. والظاهر ان الأستاذ لم يعجبه ان يهزم أمامي فبعدما هدأت الهتافات طلع على التختة بطريقته اللبقة المهذبة عشان يرد على الخطبة الطويلة بتاعتي.. فمسك طباشيرة وكتب رداً على كلامي من أن القوة وحدها هي طريق التحرر، كتب : العلم = قوة..

وراح قاعد تاني..

وهلل الطلبة واعجب بعضهم بالرد واعتبروه بليغاً.

وتملكني ضيق شديد وحماس، فرحت طالع وماسك الطباشيرة وأضفت الكلمة دي :

العلم «في بلد مستقل» = قوة

وهاج المدرج وماج.

وكان سيعقب المؤتمر انتخاب مندوبين عن الكلية في اللجنة التنفيذية للجامعة كلها وانتخبت.

وكان ده أول الطريق..

٨

كان حمزة يتحدث وينساب التاريخ القريب من بين شفتيه ويغرق فوزية في فيض من الأحداث والمواقف والذكريات، وتتشنج أصابعه وهي تحدد وتجسد، وتتحرك يداه ملوحتين، ويتقارب حاجباه ويبتعدان ويهتز منظاره، وترتجف نبرات صوته وترتعش وكأنها لا تنطق الكلمات فقط، ولكنها تعزف أيضاً لحناً عارماً يصاحب ما كان ويخلد المواقف.

وكان حديثه يملأ الحجرة بالأحداث، ويحيل الأثاث الى مواقع والجماد الى كائنات حية تقاوم وتصرخ وتموت. ولهذا مضى وقت طويل قبل أن تكف فوزية عن تحديقها في لا شيء وتسترد نفسها وتعود الى الحجرة، والى الليلة، والى الدقي، وتنظر الى حمزة الجالس أمامها لا يتحدث ولا يتحرك ولا تطرف عيناه.

وقالت:

ـ ياه! . . دا فعلاً لينا تاريخ.

فرد حمزة في بطء:

ـ تاريخ وبس؟

وسبح كل في واد، ثم عادا حين قالت فوزية:

ـ أنا قلت لغاية الساعة تمانية ودلوقتي قربت على عشرة.

وأضافت بلا حماس :

ـ لازم أروح.

وفي خطوات تعبة تكاد تتخاذل أخذت طريقها الى باب الحجرة الذي كان مغلقاً.

وفتح لها حمزة الباب وخرج الضوء من الحجرة ينير جزءاً كبيراً من الصالة، وسقط النور على كرسي فيها وعلى إنسان ضخم جالس فوقه.. كان بدير.

ـ الله.. أنتَ هنا؟

ـ آه مارضتشي أزعجكو. قلت اقعد هنا أما تخلصوا.

ولم يكن هناك وقت.. سلمت فوزية وأسرعت خارجة وظل بدير جالساً في مكانه.

وما كاد الباب يغلق حتى دق الجرس وفتح حمزة.. كانت فوزية.

ـ أنا نسيت حاجة.. نسيت آخذ الشنطة.

ـ تخديها إزاي؟ مش ممكن.

ـ والله مش عايزة نقاش كتير. حاخدها يعني حاخدها.

ـ توديها فين؟

ـ عندنا.

ـ عندكم. بس؟

ـ عندنا كويس جداً.

ورأى حمزة من تصميمها ومن نظراتها أنها لن تتزحزح عن قرارها.

فمضى الى حجرة النوم وعاد حاملاً الحقيبة الكبيرة. وكان بدير ينظر ولا يتدخل ولكنه قال:

ـ الله . . إيه الحكاية؟

فقال حمزة :

ـ أصل سميحة حتاخد هدومي عندها.

ـ وليه؟ وده يصح ما هو ده بيتك يا أخي . .

ـ لا أصل الهدوم عايزة غسيل . . و . .

ـ ما الغسالة اللي بالكهرباء هنا . . أهه . . اغسلهملك دلوقتي.

ـ لا . . لا . . معلهش . . كده أحسن.

وردت فوزية :

ـ معلهش يا أستاذ بدير علشان خاطري .

فقال بدير :

ـ يا ستي الغسالة هنا والله . . في نص ساعة تغسل ياما . .

ـ معلهش . المرة الجاية .

ـ آه . . الظاهر دي بقى والله حاجات خاصة ما اعرفهاش . أنتو أحرار.

وشدت فوزية على يد بدير، ولمعت عيناه كثيراً وقبضتها القوية تغوص في أصابعه المنتفخة بالسمنة.

وعاد حمزة بعد أن أوصل فوزية وأركبها عربة . . وما كاد يغلق الباب وراءه حتى ابتسم بدير ابتسامة حملها كل ما يملكها جسده الضخم من مكر، وقام وأمسك بكتف حمزة قائلاً:

ـ قوللي بقى يا شاطر . . كنتوا بتعملوا إيه؟ أظن حتقوللي درس ؟

وابتسم حمزة في رثاء ولم يجب ، فاستأنف بدير جاداً هذه المرة :

ـ صحيح قول لي يا حمزة. . وصلت معاها لفين ؟
ـ هي مين ؟
ـ أحنا حنلف على بعض؟ وصلت والا ما وصلتش؟
ـ يا جدع بلاش هزار في الحاجات دي.
ـ بستها؟ أنا ميهمنيش حتى إذا كنت وصلت الى ما بعد البوسة.
ـ يا بدير بطل كلام فارغ.
ـ وحياة أبوك لانت قايل. . عملت معاها ايه؟

ولم يأبه حمزة بالرد عليه ونفض يده منه. . وتجسدت له الحكاية مرة اخرى وبصورة جذابة جديدة. وراح عقله يدور حول نفسه ونغمات حزينة تتصاعد من وجدانه وأنات وعذابات وقهر. تلك الشابة الممتلئة بالحيوية والحركات ذات الجسد الدقيق والملامح الدائمة الانفعال الدائمة الابتسام. . تلك الشابة الصغيرة قد أصبحت عزيزة جداً عنده. . حتى بعد جلسته الطويلة تلك معها لا يزال يهفو اليها كما يهفو مدمن التدخين الى سيجارة الصباح ويحن الى وجودها كما يحن عباد الشمس الى الشمس والنبات الى الماء، وكما يحن الغريب الى أرض الوطن.

لماذا كلما تذكرها يدوخ تفكيره ويكاد يهوي؟ لماذا اذا خطرت بعقله تخطر خلسة وخلف ستار وكأنها جريمة؟

وقال بدير وهو يدخل في بنطلون بيجامته :
ـ قوللي يا حمزة؟

وقال حمزة دون انتباه :

ـ إيه؟

ـ إلا بشرفك وشرف والدك ما عملت في البنت دي حاجة؟.

ورد حمزة في غضب لا يستدعيه الموقف وبلهجة حادة:

ـ بطل تخريف يا بدير. . وبلاش سخافة فاهمني إزاي؟

ـ يعني مؤدبة؟

دي من أحسن البنات اللي قابلتهم في حياتي. . وانا امنعك انك تتكلم عنها بالشكل ده، فاهمني إزاي؟

ـ أمال بتسلم على الواحد كده ليه؟ مؤدبة يعني؟ انت وذمتك بقى.

وأخيراً رقدا جنباً الى جنب في الفراش وكان السرير يحتل منتصف الحجرة، والغرفة وثيرة فيها أشياء كثيرة أنيقة ولكن لا روح فيها ولا انسجام.

وكان بدير يقلب صفحات «المصور» كعادته حين يستعد للنوم، ولكنه لم يكن يقرأ، وفجأة القى المجلة فوق «الكومودينو» واستدار الى حمزة واستجار السرير وهو يستدير:

ـ قوللي يا حمزة. . هو فيه قاعدة أنه اذا كان الواحد بيحب واحدة يبقى لازم تكون بتحبه؟

ـ لأ.

ـ طب يعني مثلاً افرض مثلاً، يعني انك بتحب واحدة وعايز تعرف اذا كانت بتحبك وإلا لأ تعمل ايه؟

ـ أنام.

ـ لا. . أنا بتكلم جد.

ـ وأنا بتكلم جد.

ـ أمال أنام إيه يعني؟ .

تنام شوية فتصبح الصبح أعصابك أهدأ وتقدر تفكر.

ـ وان ماجنيش نوم؟

ـ تاخد منوم.

ـ بيعمل صداع.

ـ تاخد سم.

ـ طبعاً. . ماهو المسألة يايكون فيها وطنية وكفاح يا بلاش. . يا كلام في السياسة يا مافيش كلام. . يا أخي ما تفضونا بقى وتخلوا الناس يكلوا عيش.

ـ متخلي انت الناس تنام.

وكان حمزة في الحقيقة لا يريد أن ينام ،ولكنه يريد أن يهدأ كل شيء ويبقى عقله يعمل، يريد أن يستعيد الغيبوبة اللذيذة التي يدلف اليها كلما اتخذ فوزية مادة لتفكيره، كانت أحاسيس متناقضة تحاصره، كان يريد أن يسبح الى كل ما يستطيع ان يصل اليه خياله من مدى، وكان شيء ما في نفسه يكبحه ويوقفه ويبعث في نفسه رهبة وخوفاً. كان يحس أنه شيئاً فشيئاً لم يعد ينظر الى فوزية كزميلة في الصف، كان يحس أنه شيئاً فشيئاً تبدو له المرأة التي في الزميلة، وكلما بدت حاول طردها، ويهرب منها إن فشلت محاولته. ولكنه مهما يفعل فإنه يغوص دائماً الى التفكير فيها. . في الزميلة المرأة المكافحة الجميلة المتجددة الحيوية الدائمة الانفعال. . وانتبه على قول بدير :

ـ بس والله يا حمزة انت ما تعرفش أنا باقدرك قد أيه ؟ أنا بيعجبني

تفكيرك جداً. وبيعجبني الذكاء اللي بتعالج بيه المشاكل.. ففيه مشكلة أهيه.. ان كنت جدع حلها.

ـ مشكلة إيه يا بدير بس؟ الساعة تيجي واحدة.. خلينا ننام.

ـ يا أخي ما طول عمرنا بننام جد علينا إيه؟ اسمع.. والنبي لانت سامع.

ـ إيه؟

ـ فيه واحد صاحبي واقع في مشكلة.

ـ يا أخي وده وقته ؟ ما صاحبك ده يستنى للصبح حيموت يعني؟

ـ أصلها بجد مشكلة حياة أو موت.

وهنا جلس حمزة في الفراش ومد يده وظل يبحث عن زر النور المعلق في السرير حتى وجده، وأشعل النور وقال:

ـ خلاص بلاش نوم.. نحل المشاكل.. آدي النضارة وندور على السيجارة الباقية.

وأشعل السيجارة وراح ينظر الى بدير الذي كان يرقد بجسده المرتفع كجسد الدرفيل، والذي لم يعتدل ولم يحرك رأسه من فوق المخدة وإنما قال وعيناه تائهتان في السقف مفتوحتان كالفنجان :

ـ إسمع.

ـ إيه؟

ـ افرض انك بتحب واحدة جداً.

ـ طيب فرضت.

ـ وما تعرفش إذا كانت بتحبك والا لأ.. تعمل ايه؟

ـ أولاً ـ أنا مش سفسطائي علشان أقعد أفرض حاجات في الهواء. . لازم اعرف إيه هي المشكلة؟ ومين صاحبها؟

ثانياً ـ ما تحاولش التنكر لأن عيبك إنك كذاب فاشل ومش معقول، يعني إنسانيتك تحبك دلوقتي وتهتم بواحد صاحبك ومشكلته الساعة اتنين. فقوللي بتحب مين بقى سعادتك؟

ـ والنبي بلاش الحداقة دي ياخي. . والا إيه يعني؟ أفرض حتى الشخص ده هو أنا. . افرض أن أنا بحب واحدة وعايز أعرف إن كانت بتحبني والا لأ. . أفرض. .

ـ ما أفرضش. . بتحب واحدة فعلاً والا لأ؟

فسكت بدير طويلاً وأطبق أجفانه على عينيه ثم حملق في السقف وقال:

ـ أظن كده.

ـ بتحب مين؟

ـ واحدة. . حلوة. قوي قوي. . بحبها. . جداً.

ونام.

ولم يكتشف حمزة أن «بدير» كان نائماً وهو يحدثه إلا بعد فترة. فأطفأ النور وظل جالساً يحلم وأحياناً يضحك وأحياناً أخرى يفكر جاداً في إيقاظ بدير وقضاء بقية الليلة في الحديث.

٩

وفي السابعة من صباح اليوم التالي كان بدير لا يزال نائماً أيضاً، وكان حمزة يقوم باحتياطاته اليومية ففتح نافذة حجرة المكتب قليلاً وتمم على البوابين الموجودين في العمارة المقابلة واطمأن الى ان عددهم لم يزد مخبراً. ثم فتح النافذة كلها بحيطة وأطل برأسه وراقب أبواب البيوت الممتدة أمامه كلها والمكوجي والبقال، ثم أخرج رأسه كثيراً ليتمكن من رؤية صف المنازل الذي توجد فيه العمارة واطمأن أخيراً الى أنه لا جديد هناك وأنه لا تزال أمامه بحبوحة من أمان.. وراح يتجول في الشقة.

لم تكن به حاجة الى التجول فالصباح كان له برودة الثلج، والشقة كانت مظلمة ونوافذها مغلقة والبرد يفرخ في ظلامها ويتكاثر، وهو قد اكتفى «بالبلوفر» الذي ارتداه فوق البيجامة وكان يأبى أن يرتدي أحد أرواب بدير الصوف ذات الدفء الفاخر المعلقة فوق الشماعة، فقد سمعه يقول مرة إنه لا يحب أن يستعمل أحد أشياءه. ولهذا فمن لحظة ان وضع قدميه في الشقة لم يتطفل على شيء من أشيائه حتى الفوطة لم يكن لديه فوطة وجه فكان يجفف رأسه ووجهه في «جاكتة بيجامته» النظيفة ثم يغلسها ويعلقها حتى تجف.

ورغم البرودة فلم يكف عن تجواله.. كان هناك شيء يؤرقه فلا

يستطيع معه ان يستقر على قرار أو مكان. فتح حجرة المكتب . . كان مزيج من النور والظلام يغطي المكتب ذا السطح الزجاجي اللامع والفوتيل الذي أمام المكتب. . هناك جلست مراراً. ثم حجرة النوم ، بدير لا يزال يغط في نومه وقد اختلى بالسرير ومد أطرافه كلها الى آخرها ليستمتع بالفراش. . هرم الحقائب موجود تنقصه الحقيبة الكبيرة. . ترى أين ذهبت بها؟

وغادر حجرة النوم واتجه الى المطبخ. . المنضدة الرخامية البيضاء والفريجيدير. . والبوتاجاز لا يزال يحمل سطحه آثار القهوة التي كان يصنعها بالأمس. القهوة . . ما أجملها حين تشرب القهوة ويحمر وجهها. . وتبتسم وتتسع عيناها الضاحكتان بالتساؤل وبالدهشة. ودق جرس الباب وفتحه وهو نصف ذاهل. . وتسلم اللبن وأخذ الجرائد التي دسها البائع منذ الصباح الباكر أسفل الباب وراح يعد الافطار. . فقد كان من العبث أن ينتظر حتى يصحو بدير، وغلى اللبن وأعد الشاي وحفلت المائدة الراقدة في ركن من الصالة بأدواته، وايقظ «بدير» وجلسا أخيراً يتناولان الطعام ويتبادلان الجرائد.

وقال له بدير وهو يغادره الى المكتب إن الخادمة العجوز ستأتي واعطاه نقوداً لكي تعد لهما « صينية» في الفرن.

وانكب حمزة على الجرائد حين أصبح وحده. . وكان له غرام غريب بقراءة الجرائد، كان يقرأ الصفحة حرفاً حرفاً ولا يدع شيئاً إلا وفكر فيه وحلله، ولا يدع خبرين إلا استنتج منهما ثالثاً. . وكان ولعه بالأخبار جزءاً صغيراً من حب استطلاعه الكبير. . كان به شغف دائم الى معرفة الحادث حتى قبل وقوعه والى الاستماع للخبر من أكثر من مصدر حتى يصل الى حقيقة أمره.

غير أن انكبابه لم يطل. . فقد وضع الجرائد جانباً وخلع منظاره وفرك عينيه ولم يرفع أصابعه عن عينيه ، بل ظل واضعهـا فوق مقلتيه وقد أسند رأسه الى ظهر الفوتيل وقتاً غير قليل. كان يؤنب نفسه كثيراً. . كيف سولت له تلك النفس ان يحس باحساسات اخرى غير رباط الكفاح بينـه وبين فوزية ؟

كيف ؟

وضايقه الجلوس. . فقام وظل يدور في الشقة

ودق الجرس.

وفتح.

ودخلت المرأة.

وعاد الى جلسته على نفس الفوتيل في مكان فوزية المختار. وأحياناً تبدو حلول اعقد المسائل في ومضة. . وكان هو قد استقر على حل.

إنه رجل يؤمن بالعلم ويؤمن بالحب ويؤمن ان الناس وجدوا ليحيوا ويحبوا ويسعدوا، فليس عيباً ان يحب فوزية إذن. ولكن هل هو يحبها فعلاً؟ وهل ممكن أن يقع انسان مثله في الحب بمجرد ان يقابل فتاة مثلها بضع مرات؟ أليس الحب عشرة وتجربة هائلة تذيب الانسان في الإنسان؟ وأين هذا مما بينه وبين فوزية؟ .

وأتاح له الصباح ان يجعل عقله أكثر سيطرة على نفسه، خاصة وان الصباح كان بارداً برودة ترد الصواب، برودة تجعل الانسان يرى الأشياء في وضوح، بل وتفقد أشياء كثيرة ما يحيطها من بريق وتبدو على صورة أقرب ما تكون الى الواقع الذي مسح عنه الخيال.

ليس هكذا تخيل الحب، ولكن ما يحس به ناحية فوزية ليس عبث

أطفال أيضاً ولا هو وهم. . إنها أحاسيس حقيقية تجرفه وتغرقه وتأخذ عليه كل مسالك تفكيره فلا يملك أمامها إرادة ولا روية ولا عقلا. هذه حقيقة علمية أخرى. . وهو رجل يؤمن بالعلم.

ولكنها حقيقة ناقصة إذ أنها لا يمكن ان تكمل ابداً. . ولا يمكن لهذه الأحاسيس أن تتجسد وتصبح حقاً إلا إذا كانت هناك أحاسيس أخرى تقابلها عند فوزية.

فهل هناك أحاسيس مثل تلك؟

وهل تحس فوزية ناحيته مثلما أو نصفما أو ربعما يحس به ناحيتها ؟

هل ؟

كان السؤال بسيطاً، حتى حرف الاستفهام فيه صغير وساذج، ولكن الاجابة عليه تحتاج من حمزة ربما الى مجلدات فكرية ومراجع ذهنية ضخمة إذ لم يكن هناك جواب واحد شاف. لم تكن هناك علامة واحدة أكيدة تنفي أو تؤيد. كل ما يستطيع أن يفعله هو أن يراجع لحظة فلحظة وحركة فحركة ومرة فمرة كل ما دار بينهما وكل ما بدر من فوزية ناحيته. نظراتها. . دائماً فيها بريق، ودائماً عيناها لا تطرفان ولا يتطرق اليهما خجل. . نظرات دوغري. . لا تخفي شيئاً ولا تعني غير ما ظهر منها.

كلامها. . واضح وصريح. . فيه الحماس البالغ. . فيه الثقة ، وليس فيه أي شيء آخر.

سلامها. . دائماً له نفس قوته، ودائماً أصابعها تضغط نفس الضغطة وبنفس القوة. لم تمكث يدها في يده أكثر من اللازم مرة، ولم تتراخ قبضتها أو تلن مرة، ولم يتدلل لها بنصر ولم يتشنج خنصر. .

أو . . أمن المعقول انها كانت تعني شيئاً آخر حين سألته عن عمله؟ ولماذا اهتمت بسؤاله ؟ أكانت بهذا معجبة به؟ أممكن أن يحتمل السؤال واحداً على ألف من أي احتمال آخر؟ وحين نظرت إليه وخجل من نظرتها، ربما كان فيها شيء تلك النظرة. . ولكن أي شيء هو؟ إعجاب ؟ احترام ؟ حب ؟ استنكار ؟.

أممكن أن تكون البهجة التي تقابله بها؟ ولكنها منذ أن عرفها تقابله مبتهجة ، وفي كل مرة نفس كمية البهجة لا تنقص ولا تزيد.

وحين جاءت أول مرة الى الشقة، لقد اتفقا في مصر الجديدة أن تأتيه يوم الجمعة فجاءت الخميس قائلة أنها كانت في زيارة صديقة، أممكن أن يكون هذا صحيحاً؟ أم أنها حجة؟ وإذا كانت حجة. . أممكن أن يكون الدافع اليها سبباً يمت الى العاطفة؟

أممكن أن يكون إصرارها على الحضور اليه وفي المواعيد بالدقة يحمل هدفاً آخر غير ارتباطهما في معركة؟ خاصة وأن هذا الارتباط قد ضعف بضعف اتصالاته ؟

أممكن أن يكون تنفيذها الدقيق الرائع لكل ما يكلفها به يحمل طاعة غير الطاعة التي تفرضها علاقة الجندي نحو زميله وقائده ؟

أممكن كل هذا ؟

كان حمزة قد وصل في تفكيره الى آفاق مثل تلك وأبعد، ولكنه كان كعادته يوغل في الخيال والافتراض ثم يعود به برد الصباح الى طبيعته التي تأبى ان يتحكم فيها شيء غير العلم والعلم يقول إن أقصر ما يوصل بين نقطتين هو الخط المستقيم . قد يكون أصعب الطرق، ولكنه دائماً أحسنها. فليجرب إذن الخط المستقيم.

وحين انتهى الى هذا استراح وانطلق بلا وعي يصفر وغادر مكانه وذهب يبحث عن الصعيدية العجوز وقد شعر برغبة في الحديث وفي الضحك بل وفي الغناء .

ولم يجد المرأة انما يجد « السلطة» معدة والشقة أرضها تلمع بالغسيل والمسح.

وفي هدوء سمع المفتاح يدور في الباب . ودخل بدير يحمل كيساً من البرتقال « ابو صرة» الضخم الحجم.

ـ الله . . حمدالله على السلامة! يعني جيت بدري النهارده . . الساعة يدوبك اتناشر.

ـ والله بصيت لقيت نفسي زهقان يا حمزة . . الواحد الأيام دي ملوش نفس للشغل مش عارف ليه .

ـ أنا عارف ليه .

ـ ليه؟

ـ لازم ليلى التي في الدقي مريضة!

ـ ليلى مين يا شيخ؟ انت عارف أنا باتأثر من الحاجات دي . . ما يغركشي دا محسوبك واد تقيل يعجبك .

ـ إزاي؟

ـ أنا مش امبارح كنت باسألك عن حكاية .

ـ آه .

ـ النهارده لقيت الحل .

ـ بالذمة؟ إيه؟

ـ الحل بسيط جداً . . مفيش داعي الواحد يتعب نفسه ويحاول

يعرف. . يستنى ويتقل لما هي من نفسها تقع بعضمة لسانها وتتكلم.

- يعني لما تعترفلك هي بحبها؟

- لأ مش للدرجة دي. . لما يبان عليها قوي. . حاكم الحاجات دي عايزة تقل.

- معقول. . معقول جداً.

ودخل بدير حجرة النوم وعاد وقد ارتدى الروب وهو منهمك في تقشير برتقالة ضخمة، وقال وفمه ممتلىء بنصفها :

- هي الولية فين؟

- خالتك أم عبده. لازم راحت تجيب الصينية. . ما فيش أخبار خاصة ؟

- مافيش. . بس فيه إشاعة كده إن الوزارة حتستقيل.

- ما هي أدت دورها. . خلصت على المعركة واعلنت الأحكام العرفية.

- والله الحكاية بقت نيلة قوي. . تفتكر يعني حنفضل كده على طول ؟

- طبعاً لأ. . بس لا يمكن حا يحصل أي تغيير إلا إذا استؤنفت معركة القتال.

- يا جدع بطل بقى. . ماراحت الهوجة بتاعة زمان دلوقتي والناس خلاص سكتت، وكل واحد يقول ابعد عن الشر وغني له.

- أبداً.

جمهورية فرحات

ـ أبداً أزاي؟ كل الناس كده . . ما إنت أهو مثلاً . . كنت عامل زي النحلة زمان وأدي انت مستخبي وساكت دلوقتي.

وضحك حمزة وسأله :

ـ إنت فاكر إن أنا مستخبي خايف من الحكومة ؟

ـ أمال يعني أنا اللي خايف.

ـ إنت لسه برضه مش فاهم يا بدير. . انا مختفي وباتفادى القبض علي مش علشان خايف من السجن أو الاعتقال. . أبداً. . أنا شايف بس إن الشعب محتاجني ومحتاج لغيري عشان ننظمه وندخل بيه معركته الفاصلة، ولذلك أنا باعتبر نفسي أمانة من أمانات الشعب لدى نفسي لازم أحافظ عليها ولازم أحميها عشان تقوم بدورها.

ـ إنت يا أخي عايز تمخولني والا تأكل بعقلي حلاوة؟ بقى عايز تقول إن نفسك يعني أمانة لدى نفسك. . إيه يا خويا الكلام ده ؟

ـ بعدين نبقى نتناقش في المسألة دي. . بس المهم دلوقتي إنك توافقني على أننا لا يمكن أن نتخلص من الوزارات الخاينة دي إلا باستئناف الكفاح المسلح ضد الانجليز، لأن هم العدو الأساسي.

ـ والله ما اعتقدش.

ـ ليه؟

ـ ما اعتقدش.

ـ ليه بس؟

ـ مزاجي كده! الله ! أنا حر يا أخي في مزاجي.

ـ طيب أمال تعتقد ايه؟

ـ أصل شوف. . علي ماهر ده راجل ناصح قوي. . دا أنا أعرفه معرفة

عائلية واحنا حتى نسايب. . رجل ناصح قوي لازم تلقاه موضب مقلب محترم. . مش ده المهم. . الواحد جعان قوي. . الله يخرب بيتك يا أم عبده . . يكونشي الولية غلطت وبدل ما تروح الفرن راحت جهنم.

وجلسا الى المائدة في انتظار هلال « الصينية ». وكان حمزة ساخطاً على ذلك التأخير فقد كان يريد أن ينتهي الغداء بسرعة حتى يغادر بدير الشقة مبكراً بعد الظهر ليكون أمامه متسع من الزمان والمكان لما قرر أن يقوم به.

ولكن بدير لم يزعجه التأخير بل بدا مستريحاً إليه، ولا يهمه إن لم تأت أم عبده أبداً. . وكان هذا غريباً.

وزالت الغرابة حين جاءت الصنية وتناولا الغداء واقتربت الساعة من الرابعة ولم يبد على بدير أية علامة تشير الى أنه يود التحرك من مكانه وحين سأله حمزة مذكراً إياه بميعاد المكتب قال وكأنه يفضي بشيء مفروغ منه :

ـ والله مكسل النهارده. . مش رايح. . مليش نفس. . إيه اللي الواحد خده يعني ؟ الصبح في المحاكم وبعد الظهر في المكتب. . نفسي في يوم كده ما أروحش. . نفسي كده. . حيجري إيه ؟ حتخرب الدنيا؟ أقله الزباين تعرف قيمة الواحد . . مش رايح.

وكان عناده هذا الذي يشبه عناد الأطفال مثار ضيق شديد لحمزة. فمع أنه لم يكن بينه وبين فوزية أي ميعاد إلا أنه كان يعتقد تماماً أنها لا بد قادمة في الخامسة من ذلك اليوم. . ليس هذا فقط، بل إن ما سوف يدور في تلك المقابلة خطير خطير، وإذا بالاستاذ بدير هكذا وبدون مناسبة يحرن.

وحاول حمزة بشتى الطرق أن يثنيه عن عزمه هذا وأن يجمل له الخروج ويبتكر له محاسن لا يتصورها في عمل ما بعد الظهر. ولكن بلا فائدة . .

وانتهت المحاولات بحفيف الأقدام الذي دق له قلبه بشدة هذه المرة وبالشبح الحبيب يبدو على زجاج الباب . . وكالعادة وقبل ان تدق الجرس كان حمزة يفتح وكانت فوزية أمامه متعبة مبتسمة ، في ابتسامتها الحياة وحتى في تعبها نشاط ما بعده نشاط . . ولاحظ حمزة بريقاً غريباً جديداً في عينيها .

دخلت ، وارتبك بدير ولم يستقر في مكان واحد . غادر الحجرة وما كاد حمزة ينفرد بها لحظات حتى كان قد عاد وعلى فمه ابتسامة وجلس دون أن ينطق حرفاً، ثم قام وعاد بعد قليل بزجاجة عصير الفواكه المثلجة والاعتذارات المرافقة لها وجلس، وقبل أن يحدث شيء آخر قام حمزة وغاب وترك «بدير» صامتاً مع فوزية الصامتة هي الأخرى، وعاد يحمل الصينية وينقل قدميه باحتراس والقهوة يتصاعد بخارها من الكوبين والفنجان الصغير الذي كان قد صنعه لبدير.

وما كاد يضع الصينية حتى قال بدير من فوره :

ـ تسمعي فريد الأطرش . . عندي كل اسطواناته ؟

فأجابت فوزية في شيء قليل من الامتعاض :

ـ لا . . إذا كانت عندك حاجة كلاسيك يبقى أحسن . . ولو إني . .

وأرادت أن تقول شيئاً ولكنها سكتت . .

وكان حمزة لا يتاح له أن يستمع الى كثير من الموسيقى ومع هذا كان

يختلس لحظات استماعه اختلاساً عند بعض أصدقائه، وأحياناً كثيرة كان يذهب الى متحف الفن الحديث حيث يستمع مع شلة المغرمين الدائمي الجلوس هناك . . يستمع معهم الى بيتهوفن وموزار وبرودين ، ولكنه كان دائماً يفضل تشايكوفسكي ويرى في موسيقاه عواطف يعبر عنها بأقصى ما قد يستطيع فنان.

ولم يطمئن حمزة لبحث بدير فقام هو بنفسه ينقب معه في درج الأسطوانات الملحق بجهاز « البيك آب » الأنيق. ولم يجد من كل الموسيقى الكلاسيكية إلا « مارش العبيد » لتشايكوفسكي، وكان لهذه الاسطوانة بالذات مكانة خاصة في نفس حمزة فقد كان يرى في نغماتها أنين البشرية كلها تحت لسعات العسف، وبحثها المرهف عن المصير.

ودارت الاسطوانة.

وما بدأت تدور حتى أغلق بدير « شيش » النافذة ، وبقيت الحجرة في شبه ظلام وجلس يستمع في أدب، ورغبته في التأدب أكثر من رغبته في الاستماع.

وبدأت الظلمات تتراقص وكل شيء يموج والحجرة تخفق بأنات تحوم كالأشباح ، وآلام سوداء تمور ثم تصهر ثم ترق وتشف حتى تبدو من خلالها أضواء الأمل. وفوزية جالسة تسترق يدها الطريق الى كوب القهوة وتختلس منه الرشفة في سكون وامتنان، ثم تسند رأسها الى ظهر الفوتيل المواجه للمكتب وتسرح بعينيها تهيم بهما في الحجرة، وأحياناً تلتقيان بعيني حمزة فتبرق عيناه ويبتسم وتعود هي الى سرحانها ورشفاتها المختلسة .

والشيء الوحيد الذي لم يرتح له حمزة هو القلق الذي لا يهدأ والذي كان يبدو في نظراتها حتى وهي تسرح بعينيها.

والظاهر أن «بدير» أحس فجأة بشيء ما، شيء مثل أن لا مكان له في كل ذلك ولا مكان لأدبه أو ضخامة جسده، فقد انتصب فجأة واقفاً ثم غادر الغرفة. وقال له حمزة:

ـ على فين؟ خير.

ـ رايح.. بقى.

ـ فين ؟

ـ المكتب.

ـ الله! ما انت قلت..

ولم تتح له الفرصة ليكمل كلامه فقد كان بدير يجيبه وصوته يبتعد وقبل ان تتم المحادثة كان بدير قد غادر الشقة وصفق الباب خلفه.

وسألت فوزية :

ـ الله.. ماله ؟

ـ مش عارف.. غريبة.. دا ما كانشي عايز يروح المكتب.

وانتهى «مارش العبيد».

وبحث حمزة عن شيء آخر يسمعانه فلم يجد.

وعاد الى مكانه، وبدلاً من أن يفتح الشيش أوقد لمبة المكتب فأضاءت سطحه الزجاجي اللامع، واضاء النور المنعكس من السطح وجه فوزية فأضيفت اليه روعة جديدة.

والحقيقة أن أحاسيس جامحة تملكت حمزة وهو يلتهم وجهها الدقيق المسمسم التهاماً. كان لو أطاع براكين ثائرة تدور في أعماقه لقام واختطفها

ووضعها تحت ابطه وحارب من أجلها الدنيا ، أو لاحتواها بين ذراعيه وأخذ يضغط عليها حتى تستحيل الى شيء دقيق صغير يغلق عليه ضلوعه ولا يتركه أبداً.

كان يتساءل في ضيق عما أبقاه بعيداً عنها كل تلك المدة، إنه يعرف من لحظة أن رآها ان ما يحسه الآن سيكون النهاية حتماً.

ساعة أن رآها لم يفكر لحظة واحدة أنه يمكن ألا يراها.

وبلا مناسبة برقت في خاطره صورة فوزية حين رآها أول مرة . . حين دخلت الخيمة منحنية . . صغيرة . . نحيفة . . ترتجف من البرد. وذهبت الصورة خاطفة كما جاءت فوجد نفسه في التو يتساءل : مالها فوزية ؟ وعلى ماذا أحبها هذا الحب كله ؟ ولماذا يجعل منها الهة ؟ أليس ما يعنيه الآن وما يدور في خاطره انفعالات الحالمين والمنحلين والمتعفنين ؟ أليست هي نفس الخواطر التي يضحك بها الكتاب الناعمون على الناس ؟ مالها فوزية ؟ إنها جالسة أمامه لا ضخامة فيها ولا ألوهية. . صغيرة كالتلميذة. . متعبة . . غلبانة . . من الممكن أن يناقش معها أي موضوع .

ـ اسمعي يا فوزية! عملتي إيه في المدرسات ؟

فأجابت فوزية :

ـ ماشيين كويس قوي . . فيه واحدة منهم اتجوزت والا اتخطبت معرفشي. . لا ياربي. . اتجوزت. . واتنين كمان بيحاولوا يتجنبوني الأيام دي. . إنما الباقي كويسين.

ـ والشنطة عملت فيها إيه؟

ـ نقلتها النهاده عند محاسن.

ـ عند مين؟

ـ محاسن أحسن واحدة فيهم. . دي إنسانة رائعة. . تصور أنها مستعدة تخبي ناس من الهربانين عندها في شقتها. . مستعدة تعمل أي حاجة. . تدفع فلوس. . تجمع تبرعات . . وحتى مستعدة لو اقتضى الأمر تروح القنال . . اسمع يا حمزة . . إحنا مش حينفع كده . . لازم نشتغل أكثر من كده بكثير . . داحنا ما عملناش حاجة خالص .

وكانت تتكلم بلهجة حامية وتوجه الحديث الى نفسها أكثر مما توجهه إليه ، فأجاب حمزة من فوره :

ـ كويس جداً . . أحنا حنبتدي من نفسنا . . فأنتو وأنا حنعمل نواه للعمل الضخم اللي بينتظرنا.

وظلت فوزية تهز رأسها تبعاً وهي تحملق في حمزة وتراقب حماسه في إعجاب مخلص . . حتى لتخاف عليه من الخطأ ومن أن ينطق بحرف لا يقع في نفسها موقعاً حسناً . . وقالت في انفعال :

ـ أيوه . . فعلاً . . لا بد من الاستمرار بأقصى قوة :

ـ بالضبط. . إنما إزاي. . دي عايزه استعداد، وعايزة جهود واصرار. فاهماني إزاي ؟ ولا بد حنوصل.

ـ لا بد.

وران عليهما صمت لم يستمر سوى لحظات خاطفة ، ثم بدأ حمزة يتململ في مكانه ويبتسم محاولاً ان تكون بسماته جادة على قدر الامكان ثم قال :

ـ بس فيه موضوع تاني عايز أناقشك فيه .

ـ موضوع الفلوس ؟
ـ لأ . . موضوع . . خاص كده .
ـ خاص ؟
ـ أيوه .

وعاد ينظر الى فوزية ليؤكد ثقته بنفسه . ولكن اضطراباً عظيماً ألم به وهو يرى أن من أمامه لم تعد فوزية. . لم تعد الصغيرة . . المتعبة . . المتحمسة . . التي تكاد أن ترتجف من البرد . . إنها أمامه قبس من نور ساطع براق لا يستطيع مواجهته . . إنها تكاد تستحيل في عينيه الى شيء مقدس كقسم المكافحين . . كالتضحية . . كأمل الملايين في يوم الخلاص . ولكنه لم يعد في إمكانه التراجع . . عليه أن يستمر :

ـ فيه موضوع .
ـ إيه. . اتكلم يا حمزة .

وابتسمت. . يا لبسمتها تلك وفي ذلك الوقت بالذات ! البسمة التي تذيب الارادات إن شاءت وتصنع الأبطال إن ارادت . . البسمة التي قد يواجه الإنسان جيشاً ولا يستطيع مواجهتها .

ـ بقى شوفي يا فوزية ، أقصر خط بين نقطتين هو الخط المستقيم وأنا مش عارف أبتدي إزاي. . إنما دي حاجة مليش بيها أي دخل. . حصلت غصب عني. . بصيت لقيت حاجات عمالة تتجمع وتتراكم لغاية ما ماقدرتش أستحمل فاهماني إزاي؟ . . وإذا كنت بكلمك النهارده فلأني معنتش قادر أستنى لبكره. . خلاص فاض الكيل فاهماني إزاي؟

وتساءلت فوزية في دهشة كبيرة:

ـ إيه الحكاية . . إيه المشكلة ؟

فواصل حمزة كلامه وهو كثيراً ما يحدق في سطح المكتب الزجاجي المضيء وقليلاً ما يحدق فيها :

ـ المشكلة إني أنا من مدة ابتديت أحس ناحيتك باحساسات تانية غير إحساسات زمالتنا في المعركة وزمالتنا في الكفاح . . قاومت هذه الانفعالات من أول دقيقة . . إنما كان بيحصل حاجة غريبة قوي . . فكل ما كنت بقاومها كل ما كانت بتزيد بشكل خطير . والمشكلة إني حسيت إني لازم أناقش معاكي بصراحة المسألة دي . . فإيه رأيك ؟

وبدأت فوزية تتخذ أهبتها للرد، ولكنه واصل كلامه :

ـ أرجوك حاولي تاخدي المسألة بعمق وبشكل جدي . . أنا عمري ما مريت بحالة زي اللي أنا فيها دي .

وبدأت فوزية تستعد للرد ولكنه استطرد قائلاً :

ـ المشكلة خاصة جداً . . ومهما كان رأيك فيها . . ومهما كان جوابك فأرجو إن ده لا يؤثر على العمل اللي بنؤديه مع بعض . . أهم شيء هو المعركة باستمرار.

واعتزمت فوزية هذه المرة أن ترد ولكنه استوقفها بإشارة راجية من يده :

ـ أرجوكي برضه انك تفكري أكثر في المشكلة . . مش عايزك حتى تتكلمي دلوقت . . فانت لا تتصوري أهميتها عندي.

وهنا قاطعته فوزية وأرغمته على التوقف وانطلقت تقول :

ـ متتكلم بصراحة أكثر . متقول يا أخي إنك بتحبني وتنتهي وإنك عايزني أحبك . . مش هي دي المشكلة ؟ مش هي دي الحكاية اللي

اجتمعنا علشنها ؟ إحنا ورانا إيه غير كده . . لا كفاح ولا يحزنون . . فضينا للحب .

وحاول حمزة أن يقاطعها ويتكلم ولكنها استمرت :

ـ أنا كنت فاكرة إن الناس اللي زيك حاجة تانية . . كنت فاكره إن العمل الخطير اللي وراهم أهم من الحاجات التافهة اللي بيجري وراها كل الناس.

وهنا أصبح الحوار من الصعب أن تعرف قائله ، وأصبح صاحب الصوت الأعلى هو المسموع حين رد حمزةقائلاً :

ـ دي مش حاجات تافهة يا فوزية . . دي حياتنا .

ـ حياتنا أسمى من كده . . حياتنا وراها حاجات أهم من كده . . المفروض إننا نحترق عشان غيرنا يعيش .

ـ أبداً . . إحنا يجب نعيش ونكافح علشان الناس تعيش . . إحنا مش رهبان ولا ملائكة . . إحنا بني آدمين . . إحنا عايزين نحب وكل الناس تحب .

ـ بلاش كلام فارغ . . حرمانا هو الضريبة اللي بيفرضها علينا الكفاح .

ـ إذا عملنا كده نبقى شواذ . . نبقى بتخرف وكفاحنا يبقى كله تخريف . .

طبعاً . . أمال حتقول إيه غير كده ؟ إنت عاوز تفلسف انحلالك . . إنت اللي كلامك كله تخريف . . أنا اللي غلطانة . . مش ممكن كنت أتصور . . دا منتهى الانحلال . . إنت بتخون دورك وثقتي فيك . . إنت انتهيت . . أنا لازم أناقش زملاءك دا منتهى الشناعة . .

وكان وجهها يشحب باستمرار كمن طعن غيلة ، ونقاط عرق تبزغ فوق جبينها وتتجمع نقاط أخرى من غضب جامح فوق أنفها الدقيق ، وملامحها

قد اتخذت طابعاً غريباً متنمراً لا يمت بصلة إلى ملامحها ، وما كادت تلفظ كلماتها الأخيرة حتى كانت يدها على حقيبتها وحتى كانت أسرع من نداءات حمزة عليها وهي تأخذ طريقها خارجة.

وحتى لم تقفل الباب وراءها.

١٠

ظل حمزة على الأقل ساعتين لا يدري أين هو ولا في أي مكان من الكرة الأرضية يستقر، كانت أفكاره كثيرة يزدحم بها عقله.. يمسك الواحدة فتهرب وتختلط بالأخريات، ولا يستطيع أن يفكر في شيء بذاته ولكنه يحس دائماً أن هناك أشياء تتلاطم في مخه وتسد عليه مسالك تفكيره.. ويذكر اجزاء من المحادثة ويستعيدها ويستعيد بدقة الكلمات التي قالتها ويتأملها، ثم يرجعها مكانها في ذاكرته ساخطاً لاعناً..

كانت ـ ربما لأول مرة ـ تخونه ثقته في نفسه، وهو لن يخدع هذه النفس بعد الآن. كان في قلبه شعور دائم أنها لا بد تحبه أو أن لم تكن تحبه فهي على الأقل لن ترفض إذا طلب منها أن تحبه، أخداع ما كان يحسه في أحاديثها وإشاراتها من علامات لذلك الانتظار؟ كان يحس دائماً أنها تود أن تقول له شيئاً مثل ما قاله لها الليلة وإن الحياء فقط هو ما يمنعها.. من أين جاءه ذلك اليقين؟.. يا لحمقه وغبائه وضياعه.. أقصر خط بين نقطتين!.. كلام فارغ وسخافات.. كان يجب أن يكون أكثر لباقة.. كان يجب أن يحسب حساب الفشل.. كان يجب أن يعد العدة للرفض.. كان لا بد من استعمال الدبلوماسية. أحسب المسائل العاطفية بغبائه مشكلة من مشاكل الكفاح اليومي من السهل طرحها على بساط

البحث بطريقته الساذجة العقيمة تلك؟ أمان سوداء ظلت تلاحقه وتطارده وتخرق عقله كمسامير حامية، تمنى أن يدهمه وابور أو يختفي بطريقة ما من الوجود حتى لا يراه الناس وحتى نفسه. وراح يكز على أسنانه ويضغط بيديه فوق ضلوعه وتتقبض كل عضلاته محاولة أن تجعله ينكمش وينكمش حتى لا يبدو للعيان، ومضى يكوم على نفسه أحقاداً ذات لفح رهيب ويذيقها من ألوان التأنيب والتقريع ما لم يذقها إياه في حياته كلها وقد أفاق من الأحلام التي عاشت معه أياماً طوالاً ليجد جبهته تقرع البلاط، ويجد نفسه ممددة على الأرض الجرداء حزمة جافة من الفشل لا أمل فيه. .ولم يكن ما حدث فقط هو ما يكتم أنفاسه، بل ما هو آت كذلك فقد فقد بفقد فوزية عنصراً هاماً من عناصر كفاحه، ومناضلة قوية إذ قطعاً ستبتر كل صلة لها به، بل يحتمل أن تنفذ تهديدها وتناقش قصة «حبه» التافه مع بقية زملائه أعضاء اللجنة العامة للكفاح المسلح. وحين يتصور ماذا يكون موقفه حين تحيطه هالة الزملاء متعجبة مستنكرة. . حين كان يتصور هذا يتوقف فكره في الحال ويأبى أن يمضي، ويأبى إلا أن تبتلعه دوامات أخرى من الألم الهائل.

وجاء بدير بعد منتصف الليل. لم ينتبه إليه حمزة كثيراً فقد لاحظ أنه في حالة انبساط غير عادي وأنه يتكلم باستمرار ودون توقف ويضحك، وأنه خلع ملابسه وظل بالفانلة والسروال في جو ملتهب بالبرد. وأنه أخيراً جلس أمامه وتطلع إليه قبل أن يقول:

ـ اسمع يا حمزة يا خويا. . بقى انت عندي على العين والراس مستعد أخبيك وأروح معاك في ألفين وستميت داهية. . انت عارف أنا باعزك قد ايه حتى من أيام المدرسة الثانوية، ومفيش مرة جتني تطلب فلوس إلا أما اديتك نص اللي معايا. . وأنا راجل بتاع مزاج، وانت بصراحة داخل في

مزاجي. عاجباني شخصيتك يا أخي، حد شريكي؟ أنا كده واللـي مش عاجبه يشرب بيرة زي ما شربت. . أنا كنت عايز أقول ايه؟ أقول ايه؟ أيوه يا سيدي. . أيوه. . بقى انت في عيني دي من جوه وعيني دي. . وعيني دي بالمناسبة ستة على ستة ودي ستة على أربعة وعشرين. . انت في نني عيني كمان، إنما الست اللي بتجيلك دي اللي اسمها. . سميحة والا فوزية ماني عارف. . هي اسمها إيه؟ هو أنا عبيط ؟ هو أنا مش فاهم؟ آه الست دي مسألة تانية يا خويا يا حمزة. . فحكاية الدروس دي طبعاً لا تخيل علي ولا تخيل عليك. . ويمكن البوليس يكون مراقبهـا، يمشي وراها، يتحك فيها، تكون مشبوهة، تكون قابلت واحد مشبوه تودينا أحنا الاتنين في داهيـة. . آه زي ما بقولك كده وربنا المعبود. . دا مـا فيش أبسط اليومين دول من المرواح في داهية. وأنا بصراحة من غير أي احراج لك أو لي. . انت عايز الصراحة. . عايز الصراحةيعني. . أنا مش عايزها تيجي هنا.

وسمع حمزة هذا وانفعل ولكنه سكت فعاد بدير يقول:

ـ أيوه هي الصراحة كده. . وفيه أحسن من الصراحة؟ أنا راجل مش بتاع لف ولا دوران. . انت في عينيه من جوه. . إنما هي. . حد ضامن؟ حد بيقراعلى ضهر ايده؟ حد عارف حاجة؟ مين عارف؟ يمكن. . يمكن قوي. .ما يمكنشي ليه؟هو لولا شوية البيرة اللي ملخبطني دول كنت كلمتك أحسن من كده. . الله يخرب بيتك يا مين النهارده. . آه ما أنا لما بزعل بشرب بيرة، ولما بفرح بشرب برضه بيرة. . إلا من حق طيب. . أنا شربت بيرة ليه النهارده؟ يا ترى كنت زعلان والا فرحان النهارده لمـا شربـت؟ حاكم أنا لما بزعل بشرب مع الجدع ده اللي اسمـه دايمـاً با انســاه. . الباجوري. . الباجوري. . ولما بفرح باشرب مع الواد منعم وأنا شربت

مع منعم النهارده.. يبقى لازم كنت زعلان.. زعلان قوي.. آه.. ما هو بصراحة كده يا حمزة.. انت في عنيه من جوه.. إنما هي.. حد ضامن؟ حد عارف؟ يمكن.. ما يمكنشي ليه؟

ونام حمزة لدهشته نوماً عميقاً.

وحين استيقظ في الصباح كان بدير لم يكن قد فرغ من استيقاظه بعد فقد كان يفعل هذا على دفعات. ووجده حمزة حينئذ جالساً على طرف الفراش يفرك عينيه ويتثاءب، وما إن لمح عيني حمزة تفتحان حتى قال وهو يموء:

ـ اسمع يا حمزة.. صباح الخير الأول.. والله أنا عايز الشنطة ضروري.

فقال حمزة في امتعاض:

ـ هي هتروح فين يا أخي؟ اشمعنى افتكرتها دلوقتي؟

ـ أصل عايزها ضروري.. دي كمان شنطة المرحوم والدي.. وزي ما قلت لك بقى خليك فاكر. لما تيجي الست دي تفهمها.

ـ أهي مش جاية.

ـ ليه؟ حتيجي بكره يعني؟

ـ ولا بعده.

ـ الله.. هو حصل حاجة؟

ـ لا أبداً.. ظروف.

ـ ايه يعني ظروف ايه؟

ـ ظروف.. هو انت لازم تعرف كل حاجة؟

ـ لا مش لازم.. إنما حصل حاجة يعني؟ سوء تفاهم؟

ـ انت مش مش عايزها تيجي؟ أهي مش جاية.

ـ بس يعني والسبب ايه؟

ـ انت مالك يا أخي . . خلاص . . ما عدتشي جاية . . استريح .

وانتظر بدير قليلاً ثم سأل ولعله كان بسؤاله يقصد إعادة الحديث إلى مجراه ليس إلا :

ـ طيب . . والشنطة؟

ـ يا أخي ما تفلقنيش بقى . . ما قلت لك حجيبهالك .

وحين غادره بدير إلى عمله مضى حمزة ينزف .

كانت جروح المساء قد بدأت تنبح ، وما أشد إيلام جروح المساء إذا طلع عليها صباح .

كان بدير قد تركه وحيداً مع إحساسه القاتل بضياعه وتفاهته وخيبته حتى راح يراجع حياته كلها، ولم يخرج منها إلا بحفنة من المواقف المخزية والقذارات ، وخيل إليه أنه لم يفعل شيئاً في حياته يستحق معه أن يعيش . . بدا له ماضيه ساعتها أبشع من ماضي الخائن وأوهى من حجج المتردد . وكم هي قاسية ساعات الألم . . أنها بقدر ما ترهف الاحساس تحرقه ، وبقدر ما تفيد في تجنب الخطأ تضر بالكائن الذي سيتجنبه أبلغ الضرر . . إن السعادة لا بد أن تكون هي الحياة بلا آلام .

وكما راجع حمزة ماضيه أتى على حاضره أيضاً ، وأية مهانة وجدها وهو يرى نفسه فاشلاً مختفياً والأيام تنقضي والمعركة تخمد جذوتها وتهمد نيرانها الراقدة تحت الرماد ، وهو جالس يلعب ويحب ويناقش مشاكله الخاصة .

ومن لحظة أن فتح عينه لم يستقر على حال ، جلس ووقف وخبطرأسه بيده كثيراً وراح يلصق جبهته أحياناً بالحائط ويفكر ، وهو في وضعه ذاك مستعد أن يطحن الجدار برأسه في أية لحظة . . وبدا له يوم الشتاء البارد

الذي كان فيه يوماً سقيماً مريضاً تفوح منه النتانة، كغريق استخرج من الماء بعد أيام.. بل رأى كل أيام الشتاء وكأنها جيف متراصة ينهشها برد كالح أغبر، شتاء.. وخيبة.. وعزلة.. وبدير.. وفوزية.. ووجهها الذي طالعه مخيفاً حين تنمرت ملامحها.. ماذا أحبه فيها؟ وأي شيء فيها يستحب؟ وأية أحلام بغيضة وتصورات مخدرين عاش فيها وهو حبيس جدران بيضاء وأيام سود.

وغلى دمه بأحاسيسه تلك، كأنه يكشف لحظتها فقط أنه قد هرب من السجن الأميري ليواجه حتفه في ذلك السجن الحقيقي الذي يحيا فيه ويحيا لماذا؟ ويختبىء ليفعل ماذا؟ كل ما فعله أنه أحب، وكل ما اختبأ من أجله كان هو اللحظات التي يقضيها مع معبودة الفؤاد..

هراء ما فعله وهراء ما يفعله، وهراء تلك الساعات التي تمضي والأيام التي تنقضي والمعركة تموت ولا تنتظر، هراء.. لن يخرج الانجليز ترتيبه وتنظيمه وقيادته المزعومة للمعركة وهو مختبىء في القاهرة.. مكانه هناك في التل الكبير أو القرين أو الاسماعيلية أو أية مصيبة.. يجب أن يغادر ذلك المكان فوراً.. يسافر الليلة.. ويحارب الليلة أيضاً.. يجب! وأمه جالسة زمانها على جوال قديم أمام بيتهم في عزبة الدريسة تطرز المناديل وتتطلع إلى ابنها الكبير؟

والرصاص الذي كان يتحدث عنه، و٦ مارس والأولاد الأبطال وفوزية التي كان ينظر إلى كفاحها على أنه كفاح تلامذة مجتهدين، فوزية هذه تقول: لنا تاريخ، وهو يقول ـ هو الأستاذ القائد الذي كان عليه أن يتعهدها ويسقي عودها ويقدمها لشعبه مكافحة صلبة ـ هو يقول فيه موضوع خاص عايز أناقشه.. عواطف بتنمو.. مش قادر.. يا شاطر..
يا حدق يا روميو، وما محل مش قادر هذه من الكفاح ومن معركة الوطن؟

وتعود الجروح إلى النزيف، وتعود أسنانه تئز وعضلاته تتقبض وشيء داخله يهيب به أن يحطم ويقتل ويثور أو ينتحر.

ومر اليوم بلا بدير على الغداء وبه بلا غداء، ثم جاع في العصر فمضى إلى المطبخ يبحث وأسكت ما وجده آهات، وولد المطبخ والمائدة الرخامية وعليها آثار بن آهات.

وفي الخامسة فوجيء أكبر مفاجأة.

دق جرس الباب وفتح، وروع بفوزية واقفة تلهث وشفتها السفلى ترتجف محاولة أن تبتسم، وأهدابها تسترخي على عينيها وهي تقول وكأن ليس بها رغبة في الدخول:

ـ أنا جيت.

وتمتم حمزة بأشياء، وخطت إلى الداخل في تراخ وأغلقت شيش النافذة وأشعلت مصباح المكتب وأضاءت الحجرة بالضوء الباهت المنعكس، وجلست على نفس الفوتيل ووضعت ساقاً غير ثابتة فوق ساق ثم قالت:

ـ عايزة قهوة. . في كباية كبيرة وحياتك.

١١

كان المطبخ لحمزة في ذلك الوقت نجدة أتته من حيث لا يدري ولا يعلم، فالمطبخ ودورة المياه وزنازن السجن وكل تلك العلب المبنية الصغيرة التي لا تكاد تسع الانسان، في هذه الاماكن يحس الانسان أنه أقرب ما يكون إلى نفسه، ويحس حالما يغلق الباب عليه بأمان غريب وكأنه قد أصبح بينه وبين العالم ومآسيه سد منيع. وكان حمزة وهو يعد القهوة يحس بالمطبخ ببياضه ونظافته وكأنه أخته العانس الطيبة التي تعود أن يعترف لها بأدق اسراره دون حياء أو ندم أو رغبة، ولذلك ترك عقله يتشتت وتذهب كل قطعة منه في ناحية، حتى أنه وضع البن والسكر في الكنكة ثم وضعها على الموقد دون أن يضيف إليها ماء حتى تصاعدت رائحة السكر المحترق، فتنبه وباشر اعدادها مرة أخرى بحرص أكثر. كان يحس بنفسه خفيفاً خفة غير عادية وكأنه بالون ممتلىء بغاز أخف من الهواء، وكان يحس بالسعادة ويريد أن يتجاهل إحساسه بها حتى لا يحزن وييأس حين يفقدها.

كان به فرح غير عادي ورهبة غير عادية أيضاً. إن مجيئها ليس له إلا معنى واحد.. أنها استجابت وجاءت، وأن الظلام الذي تراكم في نفسه وشوه أمامه طريق المستقبل قد انقشع فجأة وحفل الطريق بنور باهر

فياض. أنه بالأمس وحين طرح ذات نفسه أمامها فإذا بكلامها ينهال عليه لاسعاً ملتهباً، وإذا بالألم العظيم يجتاحه وقد قدم لها قلبه فكوته بالنار.. أحس بالأمس أن كل شيء قد انتهى وأن الأمر لم يكن سوى وهم عابر أيقظته منه قرصة واقع أليم. كان بالأمس وبعدما حدث يبحث في نفسه عن بقية باقية من عاطفة تجاهها فلا يجد.

ولكن ماذا حدث؟ أمجنون هو؟ وهل نفسه أرجوحة صبيانية تصعد في لحظة إلى السماء، وما تكاد تتكامل اللحظة حتى تكون قد هوت إلى الأرض، وما تكاد تبدأ لحظة جديدة حتى تكون مرة أخرى وجهتها السماء؟ لقد أحس وهي واقفة على الباب تقول له: «أنا جيت» عبر شفتها الراجفة الباسمة، أحس أنه حقيقة يحبها حباً كفيلاً بملء الكون كله، حباً لو وزع على ملايين من الناس لأشعل في قلب كل منهم ناراً، وأحس بأن الأمر جد وأن عاطفته ناحيتها لم تكن عبياً ولم تكن انحرافاً ولا جريمة وإنما كانت حقيقة مادية ظلت تترسب طبقة وراءها طبقة في أعماقه. ليس هذا فقط، بل أنه أدرك فجأة أنه كان يحبس عواطفه في قمقم ويأبى عليها الانطلاق، وأنه كان مثل الميت من الجوع حين يذهب في زيارة ويجيء الطعام ألواناً أمامه ويأبى أن يتذوق منه شيئاً لأنه مكسوف ولأنه عيب ولأنه معقد تعقيداً يسد عليه مسالك الحياة.

لماذا يلف ويدور ويسخطويبتئس ويضحك على نفسه وينوح؟ لقد أحبها وهي الآن معه.. له.. جاءته بملء ارادتها وباختيارها؟.. لماذا هو مغرم بإقامة العراقيل واختلاق السدود، والطريق أمامه واضح وصريح وفوزية كلها على قيد خطوات منه؟ ولماذا هو واقف كالعبيطيفكر ويحلل ويصنع القهوة ويدعها تنتظر ويؤجل اللحظة الحاسمة؟

وقبل أن يتحرك حمزة شعر بيد توضع على كتفه، نفس الأصابع النحيلة الطويلة وكأنها امتدت إلى قلبه مباشرة ومست شغافه، والتفت إليها ليجد نفس وجهها الذي لا يمل رؤيته، ونفس ابتسامتها ونفس عينيها العسليتين، وكم كانت جميلتين عيناها، وكم كان جميلاً أن يحدق فيهما ويرى صورته واضحة وناطقة حتى بنظارته ومنعكسة على كل حدقة من حدقتيهما، صانعة ستاراً رقراقاً محلى بصورته ومسدلاً فوق عسلية عينيها لا يخفي جمالها بقدر ما يبرزه ويثيره.

كانت هناك ويدها على كتفه، والقهوة في يده، وفوزية في قلبه وحمزة في عينيها، وابتسامتها لا تزال ترتجف ورجفتها في أنفاسه وأنفاسه تتلاحق، وأفكارها معلقة بأنفاسه، وأفكاره غائبة، والغيبة في ملامحها، وغيبتها طالت ثم جاءت، ومجيئها سعادة، والسعادة في صدره رضاء، ورضاؤها واضح، وفي وضوحه هيام، وهيامه خائف، وخوفها يتلاشى، وخوفه يمت إلى الأمس، وبالأمس كان يهدر وهديره الآن مسموع، وهديرها فائر، والقهوة هي الأخرى قد بدأت تزن تفور.

وصعدت يدها في تردد واجف إلى رأسه، ومرت بأصابعها بسرعة في أرجاء شعره فنكشته وهي تقول:

ـ هيه.. ازيك؟..

وعاد ينظر إليها، كانت حافية وقد خلعت حذاءها وجوربها وكانت تضيق بالأحذية والجوارب، مرتدية شبشب بدير وقدماها صغيرتان دقيقتان تائهتان في كبره، وأصبعها الصغير كان يرقد منكمشاً على نفسه وملتصقاً بشدة في الأصبع الأكبر الذي بجواره كأخ صغير أصابه ذعر فمضى يحتمي بشقيقه. كانت واقفة، رائعة وهي واقفة، فيها كل ما كان لها من حيوية ونشاط وتتأمله بطريقة لم يعهدها.. طريقة مختلفة تماماً عن طريقتها

الدغري في الكفاح. ففي نظرتها حنان رقيق وفي وجنتيها حمرة وفي ملامحها سرحان تائه، يحملق فيه ويبحث ويكاد ييأس من البحث فينبض ويدق ويهمس بأشياء وأشياء.

وقالت مرة أخرى:

ـ مش كويس إن أنا جيت يا حمزة؟

وأحس ل «حمزة» وهي تنطقها بنكهة تمشت في أوصاله.. كان مجرد أن يتصور كلمة «حمزة» تتصاعد حروفها من مكان ما حول قلبها وتحمل دفء أنفاسها وتتجمع الحروف في فمها وتتعطر برضابها، ثم تتكامل وتتهيأ وتودع شفتيها منطلقة إلى الفضاء وقد تشبع كل حرف فيها بذكريات حبيبة عن رحلته الغالية.. كان مجرد تصوره هذا يجعله يحس براحة عميقة،وكأنه هو لا اسمه الذي نبع من مكان ما حول القلب وكأنها بمجرد أن تنطق اسمه تبعث له مع كل حرف منه بآهات حب واعزاز.

ومع ذلك فقد كانت لا تزال به رهبة ولا يزال متردداً غير واثق.

وعبثت بشعره عبثة أخرى سريعة وقالت:

ـ أنا غلطت امبارح.. وفضلت طول الليل أأنب نفسي.

ـ ليه؟.. على ايه؟

ـ لأني كنت امبارح بغالط نفسي، بغالط شعوري لك في طول المدة اللي فاتت، بغالط حتى شعوري بتاع أول امبارح.

الموضوع أصله كبير قوي ومفيش داعي نتكلم فيه دلوقت. خد الجواب ده أقرأه.. مش دلوقت.. خليه بعدين قبل ما تنام أحسن.. حتلقى فيه كل حاجة. أنا كنت معقدة قوي يا حمزة.

أنا ساعات كده بتطلع في دماغي حاجات وأصمم عليها.

ـ ده عيب المثقفات.

وتلجلجت فوزية كمن يريد قول شيء ثم يعدل، وأجابته:

ـ ودا برضه عيب المثقفين. ليه ناقشتني امبارح؟. ليه كنت عايز «تقنعني» بحبك؟ ليه هاودتني وقتلت لحظة الحب الجميلة دي بالنقاش؟ الحب لا يناقش وإذا نوقش يدبل. الحب يتاخد.. يتاخد كده!

قالت هذا وشبت على أطراف أصابعها وقبلته فوق شفتيه.. وأحمر وجهها وتلاحقت أضلعها صاعدة هابطة وتوقفت كلماتها، وعادت تنظر إليه بتدله وعاد هو يحتل عينيها.

وبلغت العصبية بحمزة حداً لا يوصف.. أخذ منها الخطاب ووضعه في جيبه وضحك وأسرف في الضحك، ونظر إلى قدميها وأحس بالبرد يلسع قدميه، وصعبت عليه فوزية وأحس بها ضعيفة صغيرة، وخجل وابتسم ونظر إليها، ولم يستطع الاحتمال فأحاطها بذراعيه وجذبها ناحيته بقوة. ولم تنتظر فوزية فقد شبت مرة أخرى على أطراف أصابعها وقبلته وضمها بقوة أكثر وأحس بجسده يتفصد أنهاراً وبملايين من قطرات سعادة وافدة تسبح مع دمه، وكان وجهه لصق وجهها ورقبته ترقد في منحدر جيدها وشريان رقبتها ينتفض ويحس به يضغط على جلد وجهه ضغطات مقشعرة وسريعة ومملوءة بالانفعال. ورفع رأسه حتى واجهها وأصبح لا يرى عينيها فقد كانتا لصق عينيه، وشفتاها في ارتعاش دائم كارتعاش الخائف، ولمعة عرق تكسو شفتها العليا، وأنفها الدقيق ترتجف فتحته وتتسع وتضيق كلما مرت به أنفاسها اللاهثة، وهبط بفمه على فمها واحتوت شفتاه الغليظتان فمها الصغير الذي كان لا يزال يرتجف، وضم شفتيه وأحس بفمها يستكين إلى فمه وتذهب عنه قشعريرته وينعم باطمئنان دافىء.

ولم يكن لحظتها غائباً عن الوعي. . كان في أتم وعيه. لم يكن ينظر إلى نفسه وكأنه لا يزال قطرة في محيطها ولا كانت هي القبس المتجسد ولا المعنى المجرد الذي له قدسية لا يجرؤ على الدنو منها. كانت صغيرة دقيقة بين ذراعيه، وكان الفم الذي يطبق عليه هو فم فوزية الثائرة الزميلة والقلب الذي يدق بعنف في حضنه هو قلب امرأة ناضلت وتناضل والرأس الذي بين راحتيه هو ما يدور فيه القلق الدائم الشريف على مصير شعبه، والأصابع التي تضغط على ذراعيه وتسترفقه هي نفسها الأصابع التي حملت حقيبة الديناميت وحملت إليه الجنيهات، والتي من يدري ماذا تحمل غداً. . لم تكن هناك أنثى في ناحية وزميلة كفاح في ناحية ولم يكن نصفه حمزة الثائر ونصفه الآخر حمزة الرجل، بل لم يكن هناك فوزية وحمزة كان هناك لقاء ضخم رائع. . نبضات قلبها تحرك قلبه وأنفاسها تصب في أنفاسه، وصدرها ملء صدره، وفم واحد أصبح لهما وأذرع تحيطهما، والتحام لا ينتهي يؤلف بينهما ويضم شتات انسانين وفرحتين وتاريخين، وحياتين طويلتين بكل ما فيهما من عناد وبسمات ويأس وأمل، وماض وحاضر، ومدرس وعامل دريسة، وأم ماتت وأم على قيد الحياة، ورجال ونساء وعائلات وذكريات.

وفارت القهوة وسالت غزيرة على جوانب الكنكة، وأغرقت شعلة الغاز وتصاعد طليقاً يملأ المطبخ، وتنبهت فوزية وكأنما تفيق من حلم طويل غريب ومدت يدها تقفله وهي لا تزال تحيا في روعة الحلم ولم تكن تعرف كيف يقفل، وكاد حمزة في ارتباكه أن ينسى هو الآخر أي مفتاح يدير.

وعادا إلى الحجرة ذراعاً في ذراع، وعينين تنهلان من عينين، وأحلاماً في أحلام، وسعادة تكمل سعادة، وبلا قهوة.

وبالتأكيد لم يكونا هما الشخصين اللذين غادرا نفس الحجرة من وقت قليل. كان قد حدث في كل منهما حادث سريع خاطف غير مجرى حياته، وكأن أحدهما كان موجباً فلامس السالب وسرت كهرباء، أو كان حرفاً لا معنى له لاقي حرفاً آخر فصارا كلمة لها وقع وثقل ومعان.

وجلست فوزية على الفوتيل وجلس حمزة على ذراعه العريضة وكأنه لم يحتمل أن يبتعد عنها لحظة، وفتح فمه يقول:

ـ تعرفي؟

فأغلقت فمه بأصابعها الرقيقة قائلة:

ـ استنى شوية.. خلينا ساكتين.. أحياناً بيكون للسكون معنى وسكوتنا حيدي معنى للسكون.

وإن كان حمزة لم ينطق بحرف إلا أنه لم يسكت بل راح يتأملها بعينيه وأصابعه ولمسات شفتيه ويخاطبها بكل ما يملك من لغة السكون، وما أبلغ لغة السكون! وكان حديثه مع شعرها فيه كلام وكلام.. وقد راح يجوب بأنفه ويوسده خصلاتها السوداء الكثة وتنفذ إليه تلك الرائحة التي تتدغدغ لها أعصاب أنفه وتسكر.. خليط من عرقها وزيت شعرها والنظافة التي كانت تشع منها كانت لها رائحة هي الأخرى كرائحة قلب جوزة الهند الأبيض، أو مكنون الوردة إذا فرقت عنه أوراقها وشممته.

وقال حمزة وهو مغمض العينين مفتح الحواس:

ـ أنا كان حبك بالنسبة لي ترف، دلوقتي أصبح ضرورة.

فردت وفمه هو ما كان يلتقط الكلمات.. وقالت وهي تتدلل وأحياناً يكون الدلال له أنوثة:

ـ أنت عارف أنا رجعت ليه؟

ـ ليه؟

فقالت: رجعت. .

وسكتت لحظة ثم أضافت: عشان. .

وسكتت لحظة ثم أضافت وهي تبتسم:

قررت. .

اني. .

ثم سكتت كمن لا يدري ما سوف يقوله، ثم خرجت الكلمة رغماً عنها:

أتجوزك. .

واحتواها ذراعاه مرة أخرى وشفتاه وقال:

ـ وده أحسن قرار في حياتي حاقوم بتنفيذه.

فقالت وأصابعها تتعانق خلف رقبته:

ـ أنا كنت خايفه أحبك لانتهي. . أنا با أحس أني بابتدي دلوقتي.

ورفعت وجهها إليه. . كان في عينيها ندى بكاء وكان في عينيه احتقان نشوة. . وقال وهو يأخذ وجهها الصغير بين كفيه وفي صوته حشرجة انتصار:

ـ انت عزيزة عندي جداً يا فوزية. أنا مش باحبك حب عادي. . أنا حبيت مصر فيكي. حبيت النيل اللي ف دمك وبياض القطن اللي ف وشك وشمسنا الحلوة اللي عسلت ف عنيكي.

فقالت وفي صوتها دموع فرحة:

ـ أنا يا حمزة زمان كنت بحفظ وأقول شعر. . نسيتني اللي فات ومن هنا ورايح حقول حمزة.

ـ كلامك جميل يا فوزية. . ايه كلامك ده؟

ـ دلوقتي هو الحلم اللي ينطق الساكت ويحرك الصخر ويخلي الحديد يقول.

١٢

فوق حب الاستطلاع الذي ينفرد به حمزة كان الخطاب من فـوزية وبعد ماذا ؟ بعد أهوال جسام . ولهذا كان الأرق الـذي يحس به ناحية المظروف الموضوع في جيبه شيئاً طبيعياً ، كان لا يمكن أن ينتظر كمـا أرادت فوزية إلى ما قبل النوم حتى يعرف ما فيه ، ولهذا سرعان ما جمع أرقه وقال :

ـ أيه رأيك أنا مش قادر أستنى ، لازم أقرأ الجواب .

وعارضته فوزيةقليلاً ،ولكن قرأ في ملامحها أنها لن تغضب. فأخرج الخطاب باحتراس من جيبه وتأمل المظروف السميك على مهل كالـذي يتهيأ لالتهام وجبة دسمة . كان واضحاً أنه خطاب طويل ، واحتار حمزة أيستبشر بطوله أم ينزعج .

وقال لها قبل أن يفض الخطاب :

ـ إنتي متأكدة إن مافهش حاجات زي « لازم نحترق ونترهبن » ؟

فأجابته فوزية :

ـ يوهوه يا حمزة. . بلاش تعذيب.

فابتسم وفتح شيش النافذة وفض الخطاب ، وقرأ كلمة حمزة التي في

أوله وأحس لها وهي مكتوبة بخطابها بنفس فرحته حين سمعها وهي ترددها، وتأنى وهو يتأمل الكلمة ثم وهو يلقي على فوزية نظرة أخيرة قبل أن يدلف إلى محتويات الخطاب.

كان أهون عندي أن أموت قبل أن أقف منك هذا الموقف . . أنا ياحمزة أخجل حتى من أن أسمح لنفسي أن أناديك أو أكتب اسمك قلت لك أمس انك «تخون دورك وثقتي فيك» ويبدو أن الإنسان حين يكون مذنباً يتهم غيره بنفس ما يقترفه. كيف أبدأ ؟ وكيف أزف اليك أنباء الإنسانية التي أحسست نحوها « باحساسات أخرى غير إحساسات الكفاح »؟ يكفي أن أقول لك إنني مثلت أمامك دور البطولة وإنني فيما يظهر كنت موفقة إلى الدرجة التي لم تلحظها أنت . . كل ما عرفته عنك من سعد قبل أن ألقاك أنك «وطني مخلص ومكافح من حديد» ، وحين دخلت عليك الخيمة ورأيتك والبندقية أجزاء بين يديك وسوادها يلوثك، ونظرت إلي بعينين ساهمتين ثابتتين من خلف نظارتك ، تلك النظرة التي لا تزال راسخة في عقلي، قد يموت ولكنها لن تموت . . قررت من ساعاتها أن أعرفك معرفة وثيقة، ورحت أفتح لخيالي ودياناً رحبة وأماني خضراء جميلة ، وأنا حين جلست لأكتب لك هذا الخطاب عاهدت نفسي ألا أكتم عنك شيئاً بالمرة ، ولا تحسب أن هذه مهمة سهلة . . فليس سهلاً أن يقر الإنسان بأخطائه، فما بالك حين يستخرج خفايا نفسه ويعرضها أمام عين أخرى غير عينه حتى لو كانت عينك؟ لهذا فاعلم يا عزيزي أنه لم تكن هناك لجنة مدرسات بالمعنى الذي تناقشنا حوله وحول تنظيمه، كانت هناك بعض مدرسات متحمسات وكنت أكثرهن حماساً . . وأطلقنا على أنفسنا اللجنة.

حين وعدتك بإحضار التبرعات التي جمعناها لم نكن قد جمعنا شيئاً

ولا حتى فكرنا في الجمع ، ولست أدري ما دفعني إلى الكذب عليك ووعدك بإحضار التبرعات في اليوم التالي . وحقيقة أحضرت لك السبعة والعشرين جنيهاً ، ولكن أتدري كيف جاءت وبأي اسم اقترضت ؟

لقد درت على زميلاتي أقول لهن أن أبي مريض وأطلب منهن سلفة ودفعت من عندي سبعة جنيهات ولم أترك حتى الطالبات . . كنت أود مفاجأتك بمبلغ كبير، مائة جنيه مثلاً، حتى أبدو ضخمة في عينيك.

كان كل همي هو أنت والظهور أمامك . . ولما جاء ٢٦ يناير لن تستطيع أن تتصور مبلغ فرحي حين أمكن أن أعثر عليك بعدها . . ليس ذلك لأنني كنت مهتمة بقضيتنا الوطنية هذا الاهتمام، وإنما لأني كنت قد بدأت أهتم بك وأفكر فيك ، وأنا كنت طالبة في كلية الآداب ورأيت مئات الطلبة وقابلت في حياتي عشرات الرجال ، ولكني لم أهتز ولم أحفل بأحد غيرك وكأنهم جميعاً كان ينقصهم شيء وجدته لديك ، أو كأنني أنا كان ينقصني شيء ووجدته عندك . وأنا قرأت كثيراً وآمنت بما آمنت انت به من نظرة علمية للمجتمع . . ولكني ما كنت أتصور أن يوجد إنسان مثلك يهب النظريات التي في الكتب ما وهبته أنت لها ، ويضحي بما كنت على استعداد للتضحية به، ويتكلم عن أعقد المشاكل ببساطة كما كنت تتكلم .

وإذا كنت قد ناقشتك أحياناً وتحدثت معك عن الكفاح والعمل والواجب ، فما كان ذلك لإيماني ،بل كان لأنني وددت دائماً أن أرضيك.

ولما عثرت عليك بعد الحريق وعرفت أنك مختف، اجتذبت انتباهي الحياة الغريبة التي كنت تحياها ، الحياة التي تعادي فيها حكومة ويطاردك فيها بوليس الدولة ، الحياة التي تتنكر وتلبس من أجلها النظارات السوداء

والطرابيش، والتي فيها حذر وذكاء وتربص وقلق.

كانت حياة مثلها رائعة بالقياس إلى حياتي القانونية الراكدة . . تلميذات وبيت وكراريس وطبيخ . اجتذبتني إلى حياتك وما فيها من مغامرة، مغامرة كانت تضرب على وتر حساس في نفسي. فبرغم اهتزازي بشخصيتك واعجابي بك كنت أتصور أن لجنتكم هذه تحيطها أسرار وعملكم كله طلاسم، وأن لكم مثلاً رءوساء يختفون في بيوت تحت الأرض متزمتين وصارمين ويرتدون ملابس غامقة ويملون عليكم أوامرهم بالتليفون، ومن يخالف هذه الأوامر يضرب بالرصاص وهو ماش في الشارع. وكنت دائماً أتصور رئيسكم الكبير شاباً صغيراً وسيماً . . أبيض وله شعرأسود،وقد شاب فؤاده ويرتدي دائماً حلة سوداء ، جالساً طول النهار يتلقى الأخبار ويتكلم مرة واحدة في اليوم ثلاث أو أربع كلمات فيأخذها مساعدوه ويشرحونها في صفحات فلسكاب كثيرة ويوزعونها عليكم لتنفيذها . . لا تضحك يا حمزة فقد وعدتك أن أصارحك بكل خلجات نفسي وسأفعل . أجتذبتني أنت وحياتك والأسوار التي تحيطبكم تماماً . . ولهذا فلو لم تعرض أنت علي أن أتصل بك في مخبئك لعرضت أنا عليك، ولا يمكن أن تتصور مبلغ سعادتي وأنا أحس أنني أقابل شاباً يعيش حياة الخفاء تلك ، ولا يمكن أن تتصور ما كنت أحس به وأنا ذاهبة إليك آتية من عندك أنظر إلى الناس الجالسين معي في الأتوبيس وأشعر أنني الوحيدة التي تحيا في سر كبير خطير.

وانعكس هذا الاحساس على تصرفاتي فكنت أبدو أمام زميلاتي المدرسات جادة متزمتة ليفهمن إن قد يكون السر في جدي هو النشاط «الخطير» الذي كنت أقوم به. وكان إذا سألني أبي بالصدفة أين كنت أتعمد أن ألمح في إجاباتي إلى أشياء يفهم منها أن لي حياة أخرى سرية

أقاوم فيها الأعداء، وكنت أذهب مثلاً إلى زميلة من زميلاتي لتأخذ حصة أخرى بدلاً مني فتسألني عن السبب، فأبتسم لها ابتسامة رثاء وأقول :

ـ وهل أنا مثلكم نائمة ؟ الدنيا تتحرك.

وأزوم لتفهم من كلامي ما يحلو لها الفهم ، وكنت أكبت أحياناً شعوراً صبيانياً كان يراودني، مثل أن يقبض علي معك وتنشر الصحف في ثاني يوم صورتي وتحتها شيء مثل أخطر فتاة في الشرق الأوسط.

وهكذا عشت في إطار من الغموض فرضته على نفسي وكأنني كنت أود أن يعرف الناس جميعاً ما أقوم به في الخفاء. ومن جهتك أيضاً كنت مع بدايات عواطفي ناحيتك أشك أنك أحياناً تجيب اجابات غامضة ،وأنك تراوغني وتكذب .

وكنت أود دائماً أن أتعمق فيما يحيط بك وباللجنة من أسرار، حتى سمحت لنفسي بقراءة بعض الأوراق التي وجدتها في حجرتك ولدهشتي وجدت ما فيها أبعد ما يكون عما انتظرته من أسرار . كانت القصة في نظري مغامرة ليس إلا ، أحب فيها البطل الذي هو أنت وتنتهي بوادي الخيالات الذي تنبت فيه الأماني الخضر .

وحين حكيت لي عن يوم ٦ مارس ورأيت في عينيك الإعجاب الذي يقرب من التقديس «بالغوغاء» والرصاص يخترق أجسادهم العارية استفززت في كل نعرتي للبطولة وكل المعاني المثالية ، وصممت أن آخذ الحقيبة التي فيها الديناميت لأخفيها لدي وبهذا أتوج على عرش ثقتك .

إلى هنا كنت قد نجحت في تمثيل دور البطلة أمامك ولم يكلفني النجاح شيئاً سوى مبالغات وأكاذيب. ولم أكن أتصور وأنا أعرض عليك

أن آخذ الحقيبة إلا أن أمرها بسيط وستمر مسألتها كما مرت مبالغاتي السابقات.

ولكن. . .

ما أن أصبحت في العربة وحدي مع الحقيبة. . أي ما أن دخلت بها بعيداً عنك وراء الكواليس حتى انتابني شعور مفاجيء بالخوف من أن تكون الحقيبة فيها ديناميت حقاً، إذ أنني بيني وبينك كنت لا أعتقد في صحة محتوياتها «وكأنك أنت الآخر تمثل» ! . فوضعتها فوراً على الكرسي وفتحت أقفالها ومددت يدي ووجدت تلك القوالب الصغيرة المرصوصة وتخيلت أنها لا بد حجارة أو طوب مثلاً. واستخرجت واحداً منه وضغطت عليه وشممته فوجدته مادة غريبة لم تصادفني في حياتي ولا شممت رائحة مثل رائحتها أبداً . . وأغلقت الحقيبة في الحال وجلست أرتعش وأنظر اليها وأحس بوحدتي معها في العربة،وكأنني طفل أدخل نفسه من بين الحديد في قفص الأسد، وكان أول ما خطر لي أن اتخلص منها مباشرة . . أما كيف فلم أجد لي عقلاً أفكر به.

وأمرت السائق أن يغير من اتجاهه وييمم ناحية النيل لتتاح لي فرصة للتفكير، وظللت ارتعش وأفكر حتى وصلنا إلى الجيزة وكنت قد اهتديت لطريقة كانت مثلى في نظري. . أغير العربة وأذهب بأخرى إلى شارع فؤاد وأقف بها أمام عمارة من العمارات التي لها بابان، وأنزل وأقول للسائق انتظر لحظة وأدخل من باب وأخرج من باب آخر. وفعلاً وصلت بي العربة أمام الأمريكين وهبطت منها والسائق ضامن اني سأرجع إذ حقيبتي كانت لاتزال في عربته. . ودخلت من الباب الرئيسي وخرجت من الباب الذي على الشارع الجانبي.

وأسرعت في المشي.

ولن تتصور يا حمزة كثرة الأشياء التي فكرت فيها في هذه الدقائق القليلة . كنت أنت أول من خطر لي بوجهك ولحيتك ونظارتك وابتسامتك الهادئة التي لا تثور والتي لا تفارقك، وحجرتك في سطوح أعلى عمارة في شارع المبتديان، وملاءة سريرك السفري التي بليت من الوسط فقطعت ثم وصلت حتى تصبح الأجزاء البالية إلى الخارج، والمنضدة الصغيرة التي في ركن الحجرة وأدراجها وما فيها من أوراق لا أسرار فيها ، وصورة أخيك وهو يرتدي بالطو وجلابية وطربوشاً والتي كتب على ظهرها بخطه . . إلى شقيقي العزيز الأستاذ حمزة ثم بيتا من الشعر عن المحبة الدائمة والإخلاص المقيم ، وفانلتك القديمة التي فيها خروق كثيرة والتي كنت على ما يبدو تستعملها منفضة، وكتبك المتراكمة في كل مكان بالحجرة، وجهاز الراديو المصنوع صناعة محلية ولعلك أنت الذي صنعته ووضعته في صندوق من الأبلكاش الأغبر، والخطاب الذي كتبه لك أخوك على لسان أبيك يقول لك فيه أن أمك صحتها « مش ولا بد » وإنها باستمرار تشتكي من المغص وتدوخ وعندها صداع دائم، وصورتك مع دفعتك وقد وضعت فوق رأسك علامة × ، وفردة الشبشب المقطوعة المهملة التي تحت السرير، والجوابات الغرامية التي حاولت اخفاءها أسفل الجريدة التي فرشت بها درج المنضدة والتي تقول لك فيها « المخلصة L » تقول أواه حمزة ، ومنظرك يوم قابلتني مشمراً بنطلونك وجوربك ممزق وفيه طين ، ثم وأنت تهز رأسك في إصرار وتقول شعبنا ده فيه قوة مقاومة لا يمكن تصورها.

ثم تبينت فجأة أني هاربة كاذبة مخادعة لئيمة ، خنتك وأنت الذي أوليتني كامل ثقتك، وليس ذلك كل ما تبينت فلأول مرة منذ عرفتك فكرت

في هذه الثواني بالـذات في القضية التي تدافع عنها أنت دفاع المستميت تصـورت كم من الجهـد بذلـت لتشتـري الديناميت وتخفيه ثم تعـود وتأخذه ، وكم من النقود أنفقت وكم من المرات عرضت فيها نفسك للقبض والموت والنسف ، وتصورت كم ضحيتم لتهيئوا الناس للكفاح وتقيموا المعسكر وتدربوا وتعدوا بلادنا للوقوف في وجه العدو، وتصورت حسن الخشن وهو يعزم علي بالشاي وقـد قبض عليه ، وأولاد ٦ مارس الذين ماتوا وعلى أفواههم بسمات ، والخمسين عسكرياً الذين قتلوا في مذبحـة المحافظة، وأقسم لك يا حمزة أنني انتفضت في الشـارع حين فكرت في كل هذا،وأيقنت أنني أنا التي تطوعت مختارة لأخفي الحقيبـة وأنني أنا التي تقوم بهذا الدور القذر وتريد التخلص منها وحرمانكم جهود أيام وليال وحرمان شعبي من سلاح من أسلحتـه، وكأننـي جاسوسـة من جواسيس الأعداء. . ولا يمكن أن تتخيل مبلغ الاحتقار الذي شعرت به لنفسي ولتفكيري.

ولو كنت متأكدة انني سأموت ما كنت ترددت فيما فعلته حين استدرت وعدت أجري وألهث ، ودخلت من البـاب وخرجـت من البـابَ الآخـر ووجدت السائق يبحث عني بعينين زائغتين، فركبت وقلـت له : شارع خيرت .

وحين استقر بي المقام داخل العربة شعرت كأنني أفقت من كابوس مزعج ، وبدأت أتصور مبلـغ جريمتـي لو كنـت قد تركت الحقيبـة في العربة، إذ فضلاً عما فكرت فيه ألم يكن من المحتمل أن يعتقد السائق أن فيها ملابس أو أشياء ثمينة فيأخذها إلى بيته ويفتحها ويخطـىء فتنفجـر وتنسف البيت بمن فيه ؟ ألم يكن من المحتمل أن يأخذها إلى القسـم وتقع أو ترمى فتقتل عشرة أو عشرين أو مائة من الأبرياء ؟

وظللت أحدق في ظهر السائق السمين العجوز الطيب وأفكر فيما كان ينتظره ، وأزداد حقداً على نفسي واشمئزازاً منها .

وحين وصلت البيت أشفق على السائق ذو النوايا الطيبة فحملها عني إلى شقتنا، وقلت لأبي أنها ملابس فريق المرشدات التي أشتريتها لهن يومها ، وما دخلت حجرتي وأغلقت الباب ووضعت الحقيبة تحت الفراش حتى رقدت فوقه وقضيت هكذا ثلاث ساعات .

وإذا كان لكل انسان نقطة يتحول عندها مجرى حياته ، فهات الساعات الثلاث حولت مجرى حياتي.

حقيقة كان لي اهتمام دائم بالمسائل العامة . . فحين كنت في الكلية كنت أسهم في كل أوجه النشاط بقسط وافر حتى رشحت نفسي في انتخابات الاتحاد مرة ، ولكن زميلاتي الطالبات لم ينتخبنني على اعتبار أن ترشيحي ما هو إلا « تقليعة » و« لفت نظر » لا أكثر ولا أقل . . حتى السياسة كنت اهتم بها وأتابع اخبارها،ولكن الاهتمام شيء والإيمان شيء آخر. . واهتمامي بهذه الأمور كان فقط محاولة مني لأثبت للرجال أنني لست أقل منهم. وهكذا كانت صلتي بلجنة المدرسات وصلتي بلجنتكم. لم أكن أومن إلا بك أو بالأحرى بتمسكي بك ، أما القضية وعملك وكفاحك فكان سواء لدي أن تكون مسئولاً عن معسكر التدريب أو مدرساً زميلي أو حتى طالباً . . إلى أن كان ذلك اليوم الذي واجهت فيه حقيقة ما تكافح أنت من أجله، وكانت حقيقة هائلة . .

فلم يكن ما تقوم به مجرد عمل ككل الأعمال بل كان كفاحاً رهيباً من أجل غيرك ، ولم تكن تختفي ليطاردك البوليس وتستعذب المطاردة والمغامرة،ولكنك تفعل هذا لتكمل دورك من أجل وطننا . .اكتشفت انك

جمهورية فرحات

أنت مهتم بالقضية الكبيرة قضيتنا كلنا، وأنني فقط مهتمة بذلك الهدف المحدود . . علاقتي بك . . مهتمة بنفسي.

والإنسان يظل يمضي في الحياة مؤمناً بما شب عليه وتعلمه من أفكار وفلسفات ومبادىء دون مناقشة للأسس التي يقوم عليها إيمانه ، إلى أن يحدث حادث مثل أن يمرض بالسل نتيجة حياة كلها سهر وعربدة، أو يقترف جريمة ويقبض عليه . . حين يقع ويشعر انه يهوى .يبدأ حينئذ فقط في مراجعة الخطوط العريضة لحياته وتأمل إيمانه والتشكك في أفكاره وفلسفته وآرائه وتحميلها وزر ما اقترف ، أو قد لا يشك في نفسه وإنما يظل مغمض العينين يعتبر أن ما حدث له كان قسمة ونصيباً وكان مكتوباً وإن الدنيا والحظ هما السبب . وقد أدركت ليلتها أنني دلفت إلى مهاوي ما كنت أعتقد أبداً أن فوزية التي تثق فيها وتؤمن بها تدلف اليها .

وأخذت أتفحص حياتي وأتوقف عند تصرفاتي وأراجع علاقاتي بالناس ،وإحساساتي الداخلية التي لا يطلع عليها أحد سواي ، والطريقة التي أحدد بها مواقفي من الشرف والخيانة وأقيس بها ما يصح وما لايصح والفارق بينهما، وأدركت بعد هذا كله أن الحقيبة قد أنقذت بمعجزة . . وأن الطريق الذي كنت أمضي خلاله في الحياة كان يحتم أن أترك الحقيبة وأهرب من مسئوليتها لأني كنت لا أفكر إلا في نفسي وذاتي وسلامتي، ولا أفكر فيما أقوم به من عمل قدر تفكيري فيما يعود علي بالنفع من هذا العمل . . وبعض الناس لا تبدو أنانيتهم في نظرهم شذوذاً ولا قبحاً والبعض الآخريدري ،ولكنه يتعامى حتى إذا ما واجه ذاته ورأى فيها الأنانية مجسدة فلا بد أن يستبشع تلك النفس، ولا بد ستتفتح عيناه على حقائق ما كان يراها كفرد لا يؤمن إلا بنفسه ولا تتعدى نظرته حياته هو ورغائبه فقط . . سيرى حينئذ الناس والعالم والقيم والمسئولية من زاوية جديدة.

وكنت أنا الأخرى وكأني ظللت مغمضة العينين طوال حياتي ثم فتحت عيني لأجد نفسي وسط شعب كادح عريق . . كنت أراه كل يوم ولا أحفل به ولا أفكر فيما يمكن أن يكون مصيره ، ولأجد السائق العجوز الطيب الذي كدت أقتله، ولأجد ابناء الشعب من أمثالك أنت وحسن وسعد والآخرين . . شبان في صلابتهم فولاذ يعملون من أجل الناس الذين أمر أنا بهم مرور الكرام وأتسلى على حسابهم ، واعشق شباباً ورجالاً آمنوا بالغوغاء والحفاة والمظلومين جميعاً وعقدوا العزم على ان يذيقوهم السعادة وهم أحياء.

وأخذت كلمات كنت أسمعها منك ولا أعيرها التفاتاً تومض أمامي وتأخذ بيدي ، ولأول مرة فهمت أن النظريات التي كنت اقرؤها في الكتب لم تكتب فقط من أجل أن يقرأهاالناس،وإنما هي تعبير عن واقع علمي موجود وملموس يأبى بعض الناس لسبب أو لآخر أن يراه . . فهمت أن المجتمع الذي أوجد فيه ما هو إلا جسد حي كبير وما أنا إلا خلية من ملايين خلاياه. ولا حياة لي إلا داخل ذلك الجسد أردت أم لم أرد . . ولا أستطيع أن أعمل غير ما يعود عليه بالنفع وإلا نبذني وتخلص مني ومت .

ومقياس حياتي ليس هو ما أنعم به في لحظات حاضري لأن تلك الحياة تموت معي وتفنى. . إنما المقياس الصحيح هو ما أقدمه لذلك الجسد ، لأن ما أقدمه سيحيا مع المجتمع طالما المجتمع حي وسأحيا معه أنا الأخرى . . . إنكم وأنتم تفنون من أجل الناس لا تفنون، وإنما الذين يقولون . . أنا ، وحياتي، والمحافظة على كياني وعمري ومصالحي، هم الذين يموتون. أنتم تربطون وجودكم بوجود مجتمع سيظل قائماً أبداً ، ووجودهم الموقوت المحدود إذا قيس بكم يعد لا وجود ، ولن أحكي بقية ما فكرت فيه . . فقط أقول لك إنني أدركت إني

ضللت الطريق ومشيت في درب يؤدي إلى خارج الجسد الحي الكبير ويقودني في النهاية إلى داخل نفسي الضيقة المحدودة ودائرة رغباتها الصغيرة لأجف فيها وأموت . .

وكنت أنت بعد الثلاث الساعات مثلما كنت دائماً قائدي في ذلك الطريق الجديد، اعتزمت أن أضع يدي في يدك وأتعلم . . وأكبو ثم أنهض لأواصل المسير .

وإذا بي آتي اليك أمس وأنا حريصة ألا أشعرك بالمعركة التي دارت في نفسي ، وحريصة على أن استمر في القيام بدوري ،ولكن في الاتجاه الصحيح ، وحريصة على أن أكبت كل أحساس ذاتي وأحاول ان أراك من جديد وأفكر فيما تقوله من جديد وأتعلم منك الألف باء ، وحريصة على ألا أقول غير الحق ، ومع هذا سامحني يا حمزة فيومها غلبتني الرواسب الكامنة في نفسي وكذبت عليك ، وقلت اني نقلت الحقيبة عند محاسن وإنها رائعة ، فالحقيبة كانت وما تزال تحت فراشي .

كنت آتية وفي ضميري كل ما أملكه من إرادة لأحاول أن أصلح نفسي وأتعلم منك ، ثم أفاجأ بك تقول ما قلت وتعترف لي أنك أنت الآخر ضعفت مثلي وأحسست ناحيتي . . الخ . . ولك أن تتصور مبلغ خيبة الأمل التي أصبت بها ، ومبلغ الضياع الذي وجدت نفسي أعانيه . . وقلت لك ما قلت وقلت لي ما قلت ، وخرجت من عندك وأنا لا أدري ماذا أفعل . . وخطر لي كما أسلفت أن أنتحر وقد أنهار كل شيء أمامي . . قبلها بيوم انهارت نفسي ويومها أنهرت أنت . . فماذا كان باقياً لي ؟

وكنت أظن أنني سأظل ثلاثة أيام بلياليها أفكر فيما حدث ، ولكن ما أن وضعت نفسي على الفراش حتى نمت .

واستيقظت في منتصف الليل وجلست أفكر . . فيك . لماذا نخدع أنفسنا أحياناً ونتبرأ من عواطفنا وكأنها قذارات وتهم؟

ظللت في الفراش ساعات كثيرة أفكر في أحسن الوسائل لذبحك وتأنيبك ولفت نظرك . . كانت دوامة تدور في رأسي ، فلسبب ما كنت لا أتوقع أن تحبني، أو إذا أحببتني لا تصارحني بهذا الحب ، وكأن البطل الذي في خيالي يجب أن يفعل هكذا ، ولسبب ما حين يحاول أحد الطرفين أن يعترف للآخر يمثل المعترف اليه دوراً سلبياً أو حتى يأخذ موقف المدافع عن نفسه ، ولسبب ما نحرم على أنفسنا أن تنال ما تشتهي بكافة الحيل والعقبات .

ولا تدهش حين أقول لك إني فكرت في قطع صلتي بك نهائياً على اعتبار أنك « خنت ثقتي فيك وأنك أتخذت القضية التي تدافع عنها وسيلة لتحقيق مآربك الخاصة » ! وإنه أولى بك « أن تترك الكفاح للناس الذين وهبوا أنفسهم للقضية » . أقطع صلتي بك وأحاول أن أجد طريقة لخدمة الشعب الذي آمنت به وأجد قائداً آخر « لايفكر في ذاته ويهب عواطفه للناس أجمعين » .

ثم قلت أن هذا ليس بعقاب كاف ، بل يجب ان أكتب خطاب توبيخ حافلا بأقذع الشتائم وأرسله لك على عنوان بدير ويكون هذا آخر شيء أفكر فيه ناحيتك .

ونمت . . وصحوت في الصباح وأنا على عزم الليل . وطلبت من الناظرة أجازة عارضة يوماً لأتفرغ للتفكير في الانتقام . وهداني العقل إلى أن أكتب لك الخطاب ولكن بدلاً من أن يكون هناك احتمال لتسرب محتوياته لبدير أذهب بنفسي وأدق الباب وأقابلك بمنتهى التهجم

وأعطيك الخطاب من وراء الباب وأنزل فوراً . . وطوال تفكيري كانت الصور في ذهني تتغير، ولكن دائماً كانت « فهماني إزاي» ترن في أذني وتتردد وكأنها تهزأ بكل ما أفكر فيه، وجعلتني لازمتك أفكر فيما قلت لي كلمة كلمة وأنها جميعاً وأحاول حقيقة أن أفهمك، وسألت نفسي سؤالاً لأكيل الضربة الأخيرة لأوهامي وانتقاماتي ما ذنبك؟ وهل حرام أن تحبني ؟

وهل هذا مستحيل ؟ وهل هناك تعارض بين أن تحب وبين ان تكافح من أجل كل ما أنت مؤمن به ؟

وأيضاً لن تتصور مبلغ فرحتي للسؤال الذي ألجم أوهامي ، كدت أصرخ وأهلل لتلك الفتوى ، ولكني لم أجد وقتاً فقد ردتني إليك « فاهماني إزاي» التي كانت لا تزال تنبح في أذني وتجعلني أتصورك بعد ما قلته لك ، وأيقنت أني لا بد آلمتك أشد الألم . . أنت يا أعز إنسان .

وتنفعل صورتك في خيالي بهذا الألم وتنطقه ملامحك ، واتلوى أنا من العذاب وتزأر كل حشاياي تمنع عنك الألم وتناديك وتستعطفك. أنت الذي طالما تأملتك وتأملت خلجات حماسك وأحببتك وآمنت بك . . أنت الإنسان الكبير الذي يخدم أكبر قضية تعبر لي عن عواطفك التي طالما انتظرتها وتحرقت شوقاً إليها . . وأركلك هكذا!

أنا ولو أني فتاة إلا أني نادراً ما أبكي ، ولقد بكيت وأحببتك وأنا أبكي ، وهفوت إليك وإلى غزارة ذقنك وشعرك المنكوش ودمك ولحمك وسرحاتك ونظارتك الحبيبة الملحومة ، وحتى فانلتك التي تبدو فتحتها بالية من بيجامتك . أحببتك وهفوت إليك ،وتصورت أني ممكن أن أموت أو يمثل بي أو أجر، انما لا يمكن ان أتصور الا أذهب اليك أو أراك .

٩٩٤

وأنا على يقين إني حين أدق الباب سوف تفتح لي باسماً . . لا لأنك تحبني وكدت تفاتحني ، ولكن لأن الإنسان الذي فيك أوعى من أن يرفض خطئي، ولأن قلبك كبير لا يصد طارقاً حتى لو كان الطارق أنا .

١٣

ووضع حمزة الخطاب بجانبه وعقد وجهه فبدت فيه مأساة ، وألتفت لفوزية وقد أتعبها التحديق في أدق ملامحه لترى فيها انفعالاته بما قرأ حريصة على أن تخفي تحديقها ذاك . رفع حمزة رأسه والتفت إليها وسكت . . ولم تجرؤ هي الأخرى على النطق . . وقال أخيراً في كلمات بطيئة والمأساة لا تزال في وجهه :

ـ تعرفي انتي تستاهلي أيه على الجواب ده ؟

فقالت فوزية في اضطراب:

ـ إيه؟

وقام حمزة فجأة واحتضنها وقبلها ثم قال :

ـ تستهالي أكثر من كده .

ـ لا . . اسمع يا حمزة ما تخليش الحكاية تنقلب هزار .

ـ بقى ده هزار ؟ أنا فعلاً مبسوط من الجواب .

ـ مبسوط ليه ؟

ـ تفتكري لما تعرفي بعض أخطائك وتحاولي تصليحها مش يبقى حاجة تبسط؟

ـ بس . . دى أخطاء كبيرة .

ـ الأكبر منها هو إنك عرفتيها.

ـ وأنا ما كنتش مؤمنة بقضيتنا !

ـ مفيش حاجة اسمها ما كنتش مؤمنة يا فوزية . . انت كنتي دايماً بتتحركي تجاهها وده هو المهم. فاهماني أزاي ؟ الدافع باستمرار بيبقى مختلف عند الناس بس ما دام الهدف سليم خلاص . . دايماً الهدف هو اللي بيطور الدافع .

ـ أنا ما أخبيش عليك كلامك بيبسطني. . بس خايفه تكون بتقوللي كده عشان يعني العلاقة اللي بيننا.

ـ فعلاً لولا واثق منك ، وإنك حتمشي وإني حساعدك وإنك حتساعديني، كنتي ممكن تعتبري كلامي تبرير. . بس . .

ـ بس أيه ؟

ـ المسألة مش بتاعة يوم . . انتي اتغيرتي وكل يوم حتتغيري. . وأخذ القرارات شيء وتنفيذها شيء تاني، فاهماني أزاي ؟ كل ما حتخطي خطوة لقدام حتثقي في نفسك أكثر وتخطي أسرع .

ـ أنا مستغربة انت واخد الحكاية بالبساطة دي أزاي ! انت قريت الجواب؟ وفهمته كويس ؟

ـ الظاهر إنك كنتي متوقعة أضربك مثلاً عشان يبقى الموقف درامي قوي. . انتي نسيتي حاجات كثير وحملتي نفسك كل الخطأ. . نسيتي إن فترة نشاطك كانت فترة اقبال من كل الناس على المساهمة في القضية وإن الفترة اللي بدأت فيها اللي بتسميه مغامرة كانت فترة إرهاب، يعني الفترة اللي بتظهر فيها الانحرافات والمغامرات .

ـ بس انت مثلاً. .

ـ انتي واخده عني فكرة مثالية قوي . . أنا مش بطل ولا كلام من ده ، فاهماني أزاي ؟ أنا من دم ولحم وعندي نفس المشاكل الجنسية والنفسية اللي عند كل الشبان اللي زيي.

وأنا برضه لما اتصلتي بيه كنت مبسوط لأني حاشتغل مع واحدة حلوة زيك ، وبرضه لما ابتديت أعجب بك وأدخل في الغميق كنت فاهم إن فيه تعارض. . أنا إنسان زيك تمام . .

ـ يعني واثق فيه يا حمزة ؟

ـ أهي دي مسألة فيها نظر.

وضحك واغتصبت فوزية ضحكة وسألته :

ـ يعني لسة بتحبني ؟

ـ على فكرة أنا مش مؤمن بمبدأ السؤال ده .

ـ ليه؟

ـ دا سؤال لفظي . . احنا بنحس الحب زي ما بنحس الخوف والفرح والكره. . فعشان تعرفي إذا كنت لسه بحبك واللا لأ أسألي نفسك .

ـ وإذا سألتها وقالت أنك بطلت ؟

ـ ابقي في الوقت ده أقرصيها من ودانها وقولي لها تبطل كدب.

ـ انت رايق.

ـ يعني لازم أعيط عشان أثبت لك ؟

ـ لأ . . عايزاك تقول الحق.

ـ يعني عايزه أكدب عشان أقول « الحق» اللي انتي عايزاه ؟ أنا ما أقدرش أقول إلا الحق.

وقبلها قائلاً لها « الحق » كل الحق في فمها .

وتقبلته فوزية ساهمة.

فسكت ثم ابتسم وقال :

ـ بقى مش أنا اللي ليه الحق اني أسأل؟

ـ تسأل ايه ؟

ـ لحسن يكون الحب راخر صفى عندك على حاجة؟

ـ يوه يا حمزة. . كفاية تعذيب. . كفاية بقى.

ودلفت من الكلمات إلى الدموع ثم البكاء. . وانكفأت على ذراع الكرسي والدموع تنهمر وتبلل الذراع ، ومدت يدها تطلب منديلاً ولم يك لديه واحد نظيف.

فأسرع إلى الحمام وأحضر « فوطة وش » قائلاً :

ـ لا مؤاخذة. . إذا ما كانتش كفاية لما تتبل كلها أجيب غيرها.

وازدادت نهنهاتها وشهقاتها، فجلس حمزة على كرسي وأسند رأسه إلى الحائط وقال :

معلهش. . قليل من البكاء يصلح المهج. . الدموع وسيلة فسيولوجية لغسل العيون ، فإذا ازدادت غسلت القلوب أيضاً .

ولكن فوزية انخرطت في بكاء مؤلم لا يصلح في تلافيه الهذر. وما أدرك حمزة هذا حتى ترك مكانه ولف ذراعه حولها ورفع وجهها إليه وانبثقت في صدره لوعة عذاب حادة حين رأى عينيها الباكيتين ورأى كأن شمس يوم حزين تغرب فيهما، وقد تحول البياض الناصع إلى شفق وتوهجت العسلية المذهبة بأشعة الغروب كما تتوهج سنابل القمح حين يغيب وراءها القرص الأحمر ، والدموع تتساقط حزينة هي الأخرى تبكي وتدمع وتولد في عيون الآخرين الدموع.

جمهورية فرحات

ووجد نفسه يهدهد عليها برفق واحتراس وكأنها مصنوعة من دقائق زجاجية لا تحتمل لمسه، وكان يفعل ذلك بدهشة غير قليلة فتلك أول مرة كان يهدهد فيها على إنسان أو حتى قطة، فما باله بفوزية وهي مستكينة إلى التجويف الدافيء الكائن بين جنبه وذراعه، والتي يحسها بعضلات صدره هشة أليفة، ودموعها متلألئة يكاد من كثرتها وتتابعها أن يتذوق طعمها في فمه، وشعرها يجذب أنفه برائحته ورائحتها وهي مطمئنة إليه بكلها . . وبالشمس الغاربة في عينيها . . وبمكرها ومبالغاتها . . وبكل ما تحمله له من حب.

كان البيت من البيوت التي تقع في حواف الدقي، وكانت النافذة تضع بروازاً مربعاً للوحة حقيقية تغرب فيها الشمس نفسها عبر البيوت البعيدة والمزارع التي لا تنتهي، وجو الغروب يشحن بمقدمات التغيير العظيم الذي سيطرأ على الكون بعد ذهاب الشمس . . وكانت شعاعات صفراء وحمراء قد اخترقت النافذة وبرزت من اللوحة وأضاءت الحجرة. وأحس انه قد أصبح انساناً آخر . . شاعراً أو موسيقاراً . . أو فناناً مشحوناً بأحاسيس مرهفة ناعمة هفهافة تتصاعد من نفسه وتملأ الجو الذي تضيئه لهثات شمس أخيرة، بأبخرة معطرة وسحابات خفيفة مصنوعة من ذرات إنسانية خالصة. أحس أن قلبه يذوب وكأن عدداً لا نهاية له من العواطف الدقيقة الضعيفة الواهنة يتسرب إلى ذاته الحديدية وينهشها ويشبعها نبضاً وليناً وألفة ولا يستطيع مقاومتها، ويدفعه العجز إلى حنين جارف للبكاء وكأن لحناً جنائزياً تأتيه أنغامه من بعيد لا تشمئز له نفسه، ولكن يثير فيه أشجانه ويداعب أوتار حزنه المهملة في نفسه فتروح تعزف هي الأخرى وتنوح، ويتصاعد حزنها ألحاناً تحرض على الحزن والعجز، وتغري بأن يفضفض الإنسان عن نفسه بالدموع أو بالكلام.

وآثر حمزة أن يتكلم، وخرج صوته غليظاً قد جرحه البكاء الذي لم يتم، وكانت فوزية قد هدأت واعتدلت ومضت هي الأخرى تتحدث في وجل.

وغابت الشمس.

وحل المساء.

وكان إحدى أمسيات الشتاء وبدأت نسمات تهب. .نسمات ليس فيها جمود اليأس وإنما كان لها مخملية الأمل. . وكان حمزة قد أضاء النور وأصبحت الحجرة تسبح في بحر من عواطف متدفقة. كان في جوها ضحكات قصيرة مختصرة وطويلة لا نهاية لها، وأيد تدق على أيد، وقلق وطول بال، وتنقلات سريعة متلاحقة من حادثات فاتت إلى لحظات تصنع الحاضر، إلى ومضات عيون والتماعات خدود وبسمات راجفة كمناديل حريرية معلقة تجف، وكلام كثير يريد أن بنطق، ورهبة من الكلام . . وحمزة يجلس فلا يركن إلى الجلوس، ويتمشى في المساحة القليلة الباقية في الحجرة بغير أثاث فلا يركن إلى المشي، وأسلاك خطط طويلة تخرج من رأسه لتمتد إلى الغد وبعد الغد ومئات السنين، وفوزية تبدو فرحة تنظر إليه وتتحسسه بعينيها وتتأمله كالشيء الثمين الذي تقلق حوزته حتى وهو بجانبها، وفي قلبها وعينيها كانت قلقة لا تكاد تستقر على حال ولا تكاد تصدق أن حمزة أصبح لها وإنها ستصبح زوجة ذلك العزيز الثائر الذي يتوهج ذهنه بمنطق لماع مشع ينفذ إلى الأقوال والأشياء فيفصصها ويتأمل تركيبهاوقانونها كما كان يفعل « بالبريتا »، ثم يصدر عليها حكمه في بساطة وبلا ضوضاء.

ابتسامته وابتسامتها كانا هناك حين فتح الباب فجأة وظهر بدير مصفر

الوجه جامد الملامح ترتعش أصابعه التخينة الشاحبة ، وخطا خطوة واحدة إلى الداخل وتوقف قليلاً ، وجاب الحجرة كلها بعينيه وتفحص فوزية بدقة ، وكذلك فعل بملابس حمزة ثم قال له : تسمح .

وتبعه حمزة المذهول إلى الخارج ، وأغلق بدير الباب ومشى إلى حجرة النوم ، وما كادا يصبحان في الحجرة حتى التفت بدير قائلاً في مرارة غريبة على صوته :

ـ أنا مش قايل دي متجيش هنا؟

ـ دي مين ؟

فقال بدير وعيناه إلى الأرض وأسنانه تتضاغط :

ـ الشرموطة بتعاتك اللي في الأوضة التانية .

وكاد حمزة أن يصفعه ، وفعلاً قام بعمل المقايسات اللازمة بين حجمه وحجم بدير والمسافات التي على يده أن تقطعها لتستقر على وجهه ، لولا أنه عاد إلى وعيه ورأى أمامه طفلاً ضخماً لا يستطيع أن يمد عليه يده .

ـ تفتكر أن دي طريقة يا بدير؟

ـ ما هو ما فيش الا كده . . أمور الشرمطة دي ما أعرفهاش . . أنا راجل صعيدي . . يمكن يبان علي أني متساهل إنما في الحاجات دي أنا صعيدي قح .

ـ ويصح وانت صعيدي قح تشتم ناس متعرفهمش كده؟ . كده ؟

ـ بلا يصح بلا ما يصحش . . انت خليت فيها يصح . أنا قلت ما تجيش . . فما دام جت تبقى أنت وهي برة على طول .

ـ سيبنا من التهويش ده وبلاش جعير وقول لي أيه حكاية التقاليد الصعيدية اللي ظهرت فجأة دي ؟

ـ ما فيش حكاية . . بره يعني بره على طول بلا أي تفسير.

وألقى عليه حمزة نظرة أخيرة أيقن بعدها أن لا فائدة من مناقشته وأنه في حالة لا يعي معها ما يقول أو يفعل ، بل انه في حالة قد يرتكب معها جريمة. ولم يكن حمزة يتصور أن المسألة ممكن ان تتطور الى هذا الحد وإنها ستتفاقم إلى أن تصل الى هذه الدرجة.

وأشار إلى فوزية وتقدمها إلى باب الشقة بعد أن جمع حوائجه القليلة ووضعها في الحقيبة القماش، وأغلق وراءهما الباب ومضيايهبطان السلم . وفوجئا ببدير يطل برأسه من باب الشقة قائلاً في صوت مخنوق:

الشنطة الكبيرة . . تلاتة بالله العظيم أن ما كانت تجيني لأدفعك تمنها غالي.

وأغلق الباب. وخيل لحمزة وهو يهبط بقية الدرجات أنه يسمع وراء الباب المغلق شهقات ونهنهات.

وبعد خطوات كانا يحتويهما ظلام شوارع الدقي، حيث الليل والأشجار والفوانيس الغازية الشاحبة المتباعدة ونقيق الضفادع في الخرائب الكثيرة وهي تستقبل مقدم الربيع.

وكان هناك نقيق مشابه في رأس حمزة يعلو ويعلو . كان في رأسه بدير الذي زامله عاماً في مدرسة ثانوية وقابله بعد ذلك في القاهرة صدفة ونشأت بينهما منذ ذلك الحين علاقة لا هي سياسية ولا شخصية ولا لأن فيه اتفاقاً في الأمزجة، ومع هذا ظلت قائمة لاتموت ولا تنطفىء. . اختفى

حمزة عنده حين جاء بيفن إلى مصر، ومع ما حدث فلم يكن ساخطاً عليه بقدر ما كان ساخطاً على نفسه إذ الخطأ خطؤه. . كان من الواجب أن يحاول بجدية أكثر أن يكشف عن الإنسان الذي في بدير وينميه. أنه حتى وهو يطرده كان يحس ناحيته بالعطف والحب والألم ، وهي مشاعر نادراً ما كانت تطرق باله . وخيل لحمزة أن نظرته إلى بدير وإلى الناس عامة تغيرت ، بل لا بد أنها تغيرت ، ولا بد أنه كان مخطئاً إلى حد ما في استيعابه للجماعة البشرية. كان يؤمن إن الناس تتطور، ولكنه يدرك الآن أنه كان يرى ذلك بطريقة آلية . أن فهمه للناس كان شيئاً كهذا : المجتمع يكون كسراً اعتيادياً له مقام يعد بالملايين وبسط يعد بالآحاد أو العشرات ، وإن المجتمع يتطور بتناقض البسط مع المقام، كل إضافة للبسط على حساب المقام وكل إضافة للمقام تنتزع انتزاعاً من البسط وإن الإنسانية ستظل في عذاب وحروب حتى يطاح بالملوك والأبسطة وتتحرر المقامات وتصل البشرية إلى المجتمع الواحد الصحيح. إنه يدرك الآن أن فهمه ذاك كان ناقصاً. . إن الناس ليسوا آحاداً وعشرات لا تملك إلا أن تتكاثر وتتناقص وتصنع التاريخ بحركتها، ولكن الناس زهرات الحياة اليانعات فيهم أرق ما أبدعته الحياة من إحساس، وأثمن ما استطاع التاريخ أن يضيفه على البشر من عواطف، وإن الإنسان يمضي في الحياة وحوله هالة من أحاسيسه وعواطفه وأفكاره لها قدسيتها ولها هي الأخرى قوانين ووجود. وكأنما كان ينقص حمزة أن يحب وأن يمضي وفوزية بجواره في ظلام الدقي ليحس بها كالينبوع الفياض الذي يغذيه بإلهام جديد يرى على ضوئه الناس وأعماقهم، ويرى ما في أعماقهم من نبل وجمال، ويرى في بدير الإنسانية التي كان عليه أن يتعهدها ويرويها . .

وسألته فوزية وهو يلمح السؤال يلح عليها :

ـ ماله بدير؟ أتجنن ؟

ـ لا . . حبك.

ـ حبني؟ حبني أزاي؟

ـ دا مش حبك وبس، دا بيغار عليك كمان، وعشان كده طردنا . . هو انت حد يشوفك إلا ما يحبك ؟

ـ غريبة؟ يمكن . . أنا كنت حاسة إن نظرتـه لي مش عادية أبـداً . وبعدين . .

ـ ولا قبلين . . بدير كويس بس دي حاجة عارضة . . أنا حسيبه لما يبرد شوية وبعدين أبدأ أتصل به تاني . . الحقيقة أنا اللـي غلطـان مش بدير.

ـ ودلوقتي رايحين فين ؟

ـ أعرف شوية ناس . . حنجرب . . معـاكي فلـوس لحسـن حناخـد تاكسيات كتير.

ـ خد .

ـ تروحي انت بقى .

ـ أروح أزاي ؟ أنا معاك لغاية أما أشوف حتروح فين .

ـ الساعة ستة ونص دلوقتي .

ـ انشا الله تكون اتناشر .

وكأنما كانت هناك مؤامرة متفق عليها . . الطالب الذي يعرفه في الجيزة مش موجود، وعلي الباز لا أحد يعرفه في العنوان الذي ذكره له، وقريبته الساكنة في شارع خلوصي وجد زوجهـا جاء من السفـر وظهـر رفضهـا واضحاً في عينيها، وكان التاكسي لا يزال حائراً بهما كنحلة ضلت طريقها

إلى خليتها. . وشوارع القاهرة نهار وحاراتها فجر وأزقتها ليل بهيم .

والأحياء كثيرة شبرا وعابدين والسيدة ومصر القديمة والأزهر وطولون وشارع فؤاد والدرب الأحمر. . وبنايات ضخمة، خمسة ادوار وعشرة وعشرين، ومئات الآلاف من النوافذ وآلاف من الأبواب والبوابين وعمارات نام سكانها وعمارات لم تنم وعمارات لا تنام، وروّاد سينمات وروّاد شوارع وفسح وكباريهات، وملابس سهرات، وما بعد ظهر، وبدل وأصواف ومعاطف، وفساتين فاقعة الألوان ، ونساء جميلات في فتارين من البودرة والروج قد تقمصتهن فوريرات ثعالب ودببه، ويمكن نمور وأسود. وإشارات مرور حمراء وخضراء وصفراء، وأنوار نيون بكل الألوان ، وعمال نظافة وعمال بلا نظافة، وعساكر سود وبيض على عجلات وعربيات وداوريات، ومباني بنوك هائلات ترقد ثابتات كأحدث أهرامات .الأهلي ومصر والكريدي ليونيه والأمة العربية وبنك المستعمرات وما وراء البحار ، وخواجات وأروام وجريج ومن كل ملة ولون، وجامعي أعقاب وأصحاب عربات وشحاذين، وأناس ينتهي يومهم وأناس يبدءون اليوم، وأموات وأطفال يولدون، وراديو يذيع آخر الأخبار وبرقيات ومواعيد، وأسعار تهوي وأسعار ترتفع، وأناس يهوون ويرتفعون بلا أسعار، وخمور تخلط وحشيش، وعمليات اصطياد وصفقات، ومشاورات لتأليف الوزارة، وحناطير تنتظر وكاديلاك وتاكسيات تتجمع من أكوام كالذباب، كلما بصق وكان رواده، وسواقين يتشاتمون ويمسون ويهزرون، وهؤلاء جميعاً لهم مكان يأوون إليه وأمكنة لا يأوون إليها ولا حتى يعرفوها وفوزية وحمزة يتسللان وسط هذا كله يحتميان من الظلام بسواده ومن النور بالعربات .

ورهيب ذلك الإحساس الذي يعتري الإنسان حين يرى هذا كله

ويعيش داخله ، وهو مدرك أن لا مكان له فيه . .

وحمزة يسأل :

ـ طب والعفش يا فوزية حنجيبه منين ؟

ـ مش مشكلة . . حاخد أودة النوم بتاعة أمي .

ـ حتقولي لبوكي امتى؟

ـ الليلة . . ضروري حيوافق .

ـ حتى لو عرف ان أبويا عسكري دريسه .

ـ عسكري ايه؟ .

ـ دريسه .

ـ دريسة أيه ؟

عامل بيصلح سكك الحديد .

ـ أبوك عامل؟

ـ أيوه .

يعني من صميم الشعب ؟

ـ أيوه .

ـ يعيش أبوك .

ـ تعيشي أنت . . تفتكري أبوكي حيوافق ؟

ـ أظن كده . . مش عارفة . . بالكتير حيمط بوزه ويقول : أنت حرة . . دا مستقبلك اتصرفي فيه .

ـ يعني مش حايرفض ؟

ـ مش ممكن يرفض .

ـ يعيش أبوكي .

ـ وبعدين . . الدنيا دي كلها ومش لاقيين مكان نبات فيه الليلة بس!

ـ لازم حنلقى .

ـ يعني بالعافية حنلقى؟

ـ أيوه بالعافية . . أنـا متفائـل ومـع ذلك مش مصـدق اننـا خلاص حنتجوز.

ـ اعتبر الموضوع ده منتهي .

ـ دا لسه ما ابتدأش .

ـ دا انتهى من أول يوم شفتك فيه وايديك فيها جاز في الخيمة .

ـ وحيبقى لينا ليلة دخلة ؟ تعرفي ليلتها حا أعمل ايه؟ حاقفل الباب ورايا وأقول :

ـ يا زميلة فوزية حنتناقش . . ما تتكسفيش .

ـ يا جدع اتكسف انت .

ـ أحنا لسه قفلنا الباب؟

ـ هس . . الراجل ده باين عليه مخبر.

ـ مش باين .

ـ أنا أراهن .

ـ لو ختي بالـك كنتي عرفتي انه مش مخبر. . لأنه أولاً ماشي في وسط الشارع وماشي يتلفت . . وباين عليه بيدور على حاجة . . أهو لقاها . . ووقف يستنى الأتوبيس . . وأهوه ركب .

ـ دا أنا غبية قوي .

ـ لأ . . يمكن جديدة .

ـ وحا اتقدم ؟

ـ م . . م منظور.

ـ تعرف إنك لذيذ . . أنا كل دقيقة باكتشف فيك حاجات تتحب .

ـ وأنا كل دقيقة با أحس بالتغيير اللي عملتيه في نفسي.

ـ أنا عملت تغيير؟

ـ كتير. .

ـ مثلاً. .

ـ مثلاً. . كنت واخد الكفاح بشكل بطولي. . كنت فاهم أني با أضحي عشان الناس فلازم يحبوني ويفردولي مكانة كأني مسيح ، فاهماني ازاي ؟ ودلوقتي شعرت بقضيتنا كبيرة وبدوري فيها متواضع ، وكل ماباشوف ظلم باشعر إن اللي با أعمله مهما كان قليل. . مثل تاني . . كنت حاسس بالغربة واني صحيح بقوم بدوري اللي بيخدم الناس، انما كنت بعيد عنهم . . انت خلتيني أشعر بأني ارتبطت بالمجتمع ارتباط وثيق. . اني بقيت منه . . إننا كلنا عيلة، فاهماني أزاي ؟ أنا وانت أندمجنا في كل الناس وأصبح تعدادنا بالمليون . أنا وأنا ببص للناس حاسس كده . . شايفة دول اللي مروحين واللي جايين، واللي راكبين على العربية الكارو دي، والمتشعبطين على السلم، واللي قاعدين ع القهوة دول ؟ دول شعبنا. . شايفاه أزاي مضروب ومبعثر ؟ أنا حاسس دلوقتي إني با أحبه أكتر وإني عايز أفنى علشانه، وحاسس أكتر بحاجته للقائد اللي يلمه ويوصل بيه زي ما بتقولي للحب ولبكره، فاهماني أزاي ؟

ـ تعرف الكلام ده على لساني كنت عايزه أقوله . . تعرف أنا أكتشفت إكتشاف خطير!

ـ أيه ؟

ـ أنا مابقتش فوزية . . أنا بقيت فوزية وحمزة.

ـ وتعرفي أنا أكتشفت إكتشاف خطير .

ـ أيه ؟

ـ أنا مش حا أتجوزك بس، دا أنا حا أتجوز بيكي المجتمع فاهماني أزاي ؟

ـ أنا بيتهيأ لي إن كل كلمة من كلامك ده بتخليني أحبك أكتر من الأول.

ـ أحنا يا فوزية في كل لحظة حبنا بينمو. لأنه جزء من حبنا الكبير للناس والقيم الإنسانية، والناس بتتحرك وتتطور.. وهو برضه النهارده مولود وباستمرار راح يكبر.

ـ ولما نتجوز؟

ـ حايبقى شباب . . في عز شبابه.

ـ انت الليلة دي رائع.

ـ أنا شاعر بقوة جديدة . . بطاقة من النشاط بتسري في تفكيري ونفسي وتكويني. . دلوقتي حاسس بعمق إن بلدنا بلدنا فعلاً والناس دول ناسنا، وإننا لازم نعيش.

والليل يمضي لا يحفل بالمدينة، والمدينة تحيا غير حافلة بالليل بناياتها الكبيرة تبدو صغيرة وبيوتها عشش نمل وشوارعها أضيق من ثقوب الابرة، والناس كثيرون كثيرون . . وفوزية بجوار حمزة وفي كيانه وذراعها حول ذراعه، وصدرها قريب من صدره، وفي عينيها بريق وتحد والعيون كثيرة، والخطر في كل خطوة.

وفي مكان من شارع الملكة، والعربات طائرة كالريح والأسفلت يمتد طويلاً أسود يلمع بضوء المصابيح المنمقة الموضوعة على جانبيه ، خطر له خاطر فتوقف في الحال وقال:

ـ أما أحنا مسطولين صحيح. ما أروح عند صاحبتك دي اللي قلتي

انها مستعدة تخبي ناس . . اسمها أيه . . ما . . قولي معايا .

فأجابت وهي تضحك :

ـ مافيش داعي تتذكر اسمها.

ـ ليه؟

ـ لأنها موجودة هنا بس .

قالت هذا وهي تشير إلى رأسها .

ومن شارع الملكة إلى السكاكيني وإبراهيم باشا والعتبة مرة أخرى ولا أمل ولا شروع في أمل ، وفي شارع عبد العزيز قرر حمزة أن يذهب إلى حجرته في المبتديان ويقضي فيها الليلة ، هناك خطر ولكن ليس هناك مفر.

ووقف في الظلام المجاور لدار العلوم وأرسلها تستكشف . وعادت إليه بعد قليل مسرعة قائلة أنها رأت أربعة لا بد أن يكون أحدهم مخبراً .

وابتعدا بسرعة عن المنطقة كلها عن طريق شارع الفلكي ،وكان ما معهما من نقود قد انتهى، فاقترض حمزة من نقود السلاح التي معه على أن يسددها حين يحصل على مرتبه عن نصف الشهر الذي انقضى. وسأل فوزية أن تذكره أن يكتب لها توكيلاً لتذهب وتصرف المرتب من مقر شركة الحرير. وكان حمزة قد قرر أن يحاول مرة أخرى مع قريبته التي في شبرا ويقضي عندها الليلة بالعافية أو بالرزالة وليكن ما يكون، ولكن قريباً من باب اللوق قطع حديثه الساخط وسألها :

ـ مش ده سعد؟

ـ آه . . هو صحيح .

كان سعد مقبلاً من بعيد هو وثلاث شبان آخرين ، وكان واضحاً جداً

بينهم بقصره واصفراره ونحافته ، وكان يرتدي هذه المرة بدلة كحلية أنيقة ويضع منديلاً ابيض في جيب سترته الأعلى.

وتفتحت أمام حمزة أبواب الأمل على سعتها إذ لا بد أن يكون لديه مكان ، بل لا بد أنه على صلة ما باللجنة وممكن أن يعيد اتصاله. وطلب من فوزية أن تنتظره ثم أسرع ناحية سعد وزملائه ونادى عليه . ولم يسمع إذ كان الأربعة في تلك اللحظة منخرطين في قهقهة عالية تفرقوا على أثرها في أرجاء الشارع يضحكون. ثم عادوا يتجمعون. وقبل أن يصل إليهم حمزة كانوا قد توجهوا إلى عربة « فيات » واقفة على الرصيف المقابل لمحطة باب اللوق ودخل الثلاثة فيها . وقبل أن يدخل سعد كان حمزة أدركه وأمسك بكوعه ، والتفت سعد وامتلأ وجهه بدهشة واسعة الأطراف وقال :

ـ هاللو . . هاللو . . حمزة . . أنت فين ؟

وعانقه عناقاً حاراً وقبله على جانبي رقبته. وسأله حمزة :

ـ انت فين يا راجل ؟ بقى كده ماتجيش في الميعاد.

ـ أبداً مش صحيح . . دا ماحصلشي أبداً . . بالشرف رحتلك يومها قبل الميعاد بربع ساعة وفضلت واقف بعده ييجي نص ساعة لما نشفت من البرد . . بشرفي إني رحت ، وبالأمارة . .

ـ طيب بالأمارة الميعاد كان فين ؟

واحتار سعد وقلب رأسه وقد تزمتت ملامحه يميناً ويساراً وفوقاً وتحتاً ، وعوجها مرات ثم قال : آه آل . . طبعاً . . كان عند قصر النيل . . أيوه بالضبط عند قصر النيل . . لأ . . أنا في حكاية المواعيد دي ظبط قوي .

وابتسم حمزة وقال له :

ـ طيب وإيه رأيك إن ما كانشي فيه بينا أي مواعيد أبداً

وتوقع منه حمزة أن يضحك أو يقهقه ولكنه عقد جبهته قليلاً ثم قال :

ـ أبداً . . شوف . . شوف انت ناسي أزاي بقى . . شوف مين اللي مابيجيش في المواعيد وينساها . . عرفت بقى . . عرفت . .

وقاطعه حمزة . . قائلاً :

ـ أنا مختفي يا سعد وعايز مكان الليلة لأن فيه ظروف خلتني أسيب المكان اللي كنت فيه .

ـ مختفي ؟

ـ أيوه هربان فاهمني أزاي ؟

ـ هربان ؟

ـ ما عندكشي مكان ؟

ـ طيب وهربان ليه يا حمزة . . مش كويس كده . . ما افتكرشي فيه داعي لهروبك . . ما أفتكرشي حد يعرف عنك حاجة . . ما فيش داعي أبداً .

ـ اسمع يا سعد . . مفيش داعي انت تضيع الوقت ، أنا لابد عايز مكان دلوقت حالاً . . فأيه رأيك ؟

وقبل أن يجب سعد تصاعد صوت أنثوي من داخل العربة يقول :

ـ يالله يا سعد . . يا يالله يا سونة أتأخرنا .

ـ جي . . جي يافتفت . . . جي بسرعة . . بس فيه حاجة مهمة . . جي . . ثم التفت لحمزة وقال :

جمهورية فرحات

ـ بس مكان إيه يا حمزة . . مكان فين ؟ أصل دول جماعة قرايبي ومدعوين . . أيوه مدعوين في فرح . . فرح ابـن خالـي . . زميلـي في المدرسة دا كان عفريت قوي معرفشي ايه اللي خلاه يجوز .

وهنا سمع سعد وحمزة صوتاً أنثوياً قبيحاًصادراً من أنف وحلق واحدة من داخل العربة ، واحمر وجه سعد الاصفر جداً . . وثنـى جذعـه مرة أخرى وصاح في غضب :

ـ إيه قلـة الأدب دي . . دا مش كلام . . مش أصـول كده . . ياخوانا . . مش طريقة .

وقوطع سعد بصـوت مماثـل يرد عليه ، وهـذه المـرة كان صادراً عن شاب ، وهنا ابتلت حمرة وجهه بقطرات من العرق ثم قال لحمزة :

ـ لا مؤاخذه يا حمزة . . شبـان . . ماتآخـذهمش . . طيش . . قلـة أدب . .

ـ ما فيش مكان يا سعد ؟

فأجاب في صوت منخفض :

ـ والله يا حمزة انت عارف أنا ساكن مع أهلي . . ومش عارف أعمل ايه . . مشكلة غريبة . . طب مش تقوللي من يومين ثلاثة مثلاً كنتِ عرفت أتصرف . كنت عرفت أعمل حاجة . . لا مؤاخذة يا حمزة . . باردون .

قال سعد هذا وابتسم ابتسامة واسعة جداً ومفاجئة تشبه الضحكة ، ثم انقض على أذن حمزة في التو بابتسامته تلك وهمس :

ـ أصل الليلة عقبال عندك زي ما أنت شايف فيه شغل عاجل قوي.

واقشعر جسد حمزة ، ولم يكن ذلك لهمسة سعد وإنما لإحساس

غامر هبطعليه في تلك اللحظة . . الإحساس بالحذر، الإحساس بالموجة الصاعدة وهي تهبط وتتلاشى، ثم يبدأ التراجع الذي يسحب معه كل ما كان عائمــاً فوق المــاء ، وكل الفقــاقيع ، وكل ما ليس له جذور . . الأحساس بأنه واقف على شاطىء رملي والمـاء يتسـرب تسرباً خفياً وينسحب عائداً إلى البحر ويسحب معه رمالاً كثيرة ولا يتبقى إلا ما تحت قدميه فقط.

ووجد سعد يقول :

ـ وانت فين يا حمزة، فين أراضيك ؟ ابقى خلينا نشوفك يا أخـــي لازم نشوفك. دا ولا كأننا كنا نعرف بعض، دي مش أصول أبداً، كلام فارغ .

ولم يصدق حمزة أن كلاماً كهذا ممكنــاً أن يختتم عامــاً طويلاً من اللقاءات والاجتماعات والمعارك .

وكان يود أن يهب في وجهه ساباً لاعناً مذكراً أياه بما كان ، وبمنابر كلية الحقوق التي ارتجت بخطبه ، وبما ظل يقوم به من كفاح إلى أسابيع قليلة مضت .

ولكن الظروف لم تك تسمح ، ثم أن حمزة نفسه كان في تل اللحظة يملؤه الشعور القوي بالحاجة لا إلى سعد ـ ولكن إلى أوتاد حديدة تحمي ما فوق الشاطىء من الجذر المنسحب.

وقال له حمزة أخيراً :

ـ انت مش مكسوف من نفسك ؟ بقى انت ما تقدرشي تشوفلي مكان الليلة بس .

ـ انت عارف يا حمزة انت مش غريب. ما عنديش أي فكرة لو كنت

قلتلي . . لو أي حاجة تانية ممكن أعملها أنا مستعد أي حاجة ، بشرفي أي حاجة تانية . . أيوه ما قلتلك جي يا فتفت قلتلك جي . . أيه ده ؟ دا مش كلام . . عن أذنك بقى . . أوريفوار . . أوريفوار يا حمزة . . خلينا نشوفك .

وكان حرياً بحمزة أن يستسلم لما ألم به من اشمئزاز، ولكنه ناضل وسعد يهم بركوب العربة وقال :

ـ طيب ونشوفك أزاي يا سعد؟

فأجاب سعد ورأسه داخل العربة وجسده خارجها :

ـ أنا بقعد على قهوة ماتاتيا في العتبة . . هناك شلة بلعب معاها شطرنج . . ابقى خلينا نشوفك . . أوريفوار.

ومضت العربة وفيها ضحكات وبقايا أصوات الحلوق .

وعاد حمزة إلى فوزية وما حدث كان مرتسماً بكل تفاصيله على وجهه ، فلم تكن ثمة حاجة للإضافة خاصة وأن فوزية قالت له :

ـ أنا لمحت بنتين في العربية .

فغمغم حمزة ولم يجب.

كان قد قرر أن يذهب إلى قريبته في شارع خلوصي . ونادى على تاكسي وقد تهيأ لتنفيذ القرار.

لقد عرض نفسه منذ خروجه من بيت بدير إلى مئات الفرص التي كان يمكن أن يراه فيها رجال البوليس السياسي، وهو ليس غريباً عنهم فصورته يعرفها معظم المخبرين ، وقد قضى سنوات يعتقل ويراقب ويحجز

ويتحرى عنه. كان لا بد إذن من الذهاب إلى شبرا، وقالت فوزية وهـو يهم بالصعود :

ـ يا أخي ما بلاش عناد وتيجي عندنا .

ـ قلتلك يا فوزية ميت مرة مش ممكن. . أولاً مفيش مكان عنـدكو ليه . . ثانياً حتى لو فيه مكان ما أرضاش أنا لأن ده وضع مش طبيعي أبداً وحيكون صدمة كبيرة على أبوكي ، ثالثاً حتى لو كنت مجوزك فبتكو في شارع خيرت جنب وزارة الداخلية على طول ، فاهماني أزاي ؟

اطلع من فضلك يا أسطى على شبرا.

وما كاد حمزة يستقر في العربة حتى انتصب أمامه فجأة شبح سيد . . فأشرق وجهه بفرحة غير عادية وقال:

ـ بس وجدتها. . وجدتها .

١٤

ـ هي ايه اللي وجدتها؟

ـ خلاص.. اتحلت المشكلة.. لابد سيد يعرف مكان أو حتى أنام معاه.

ـ سيد مين؟

ـ حقولك دلوقتي.

ونظر حمزة في ساعته، وكان يخيل إليه أنها على الأقل تعدت الحادية عشرة من كثرة ما لف ودار، وفوجيء بها لا تكاد تتعدى التاسعة والنصف إلا ببضع دقائق. ومع هذا خاب أمله وغامت ملامحه في الحال. اذ هو يستطيع العثور على سيد في النهار فقط أثناء عمله في الجبانة أما في الليل فأين يعثر عليه؟

ومرة اخرى أشرقت ملامحه وقال في فرح صبياني:

ـ عند باب الوزير تقول فين عمي سماعين أبو دومه.. الف من يدلك.

فتشبثت فوزية بذراعه قائلة:

ـ ايه.. مالك يا حمزة؟ انت اتهبلت؟

ـ لا.. أبداً، أكيد أبو دومة عارف مكان سيد وح يدلنا عليه..

فرجت.. ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت.. وكنت أظنها لا تفرج.

- ايه أبو دومه وسيد والشعر ده؟

- دلوقتي حتعرفي كل حاجة.. يا أسطى من فضلك اطلع بينا على باب الوزير.

وقبل أن تصل العربة إلى الميدان قال لها:

- أظن بقى تسيبيني هنا وتروحي، فاهماني ازاي؟

ودقت فوزية أرض العربة بقدمها كالطفل الغاضب وقالت:

- قلتلك مش مروحة، انشاء الله أبات أنا وانت واقفين في الشارع.. لازم اشوفك حترسي على ايه.

وأوقف حمزة العربة وحاسب السائق، ثم طلب منها أن تنتظره على محطة اوتوبيس ١٩ إذ أن منظرهما معاً قد يسترعي الانتباه في حي الأغراب فيه قليلون.

ومضى وحده.. وأصبح في باب الوزير وقال في سره: يا سلام على العظمة! تقف عند باب الوزيروتقول فين أبو دومه؟ تقولشي ابن طولون. طيب فين أبو دومه.. هو معقول حد يعرفه؟

وكان الميدان الضيق قد خفت فيه حركة الناس، لا يبقيه ساهراً إلا القهاوي التي تحده من كل الجهات والناس القليلون الماشون قد كورهم البرد على أنفسهم ومضوا يتدحرجون في صمت شتوي حزين إلى مضاجعهم.

وحمزة له خبرة في السؤال لا تجارى من كثرة ما سأل عن ناس وأشخاص، ولهذا جاب الميدان كله قبل أن تختار عيناه «جرسون» قهوة

أنوارها قليلة وتقع في طرف الميدان. وبعد مساء الخير والذي منه سأله عن اسماعين ابو دومة، وهز الرجل رأسه وكأنه ينفي عن نفسه تهمة. وسأل ثانياً وثالثاً ورابعاً ولا أحد عمره سمع عن اسم كهذا. وكانت الناس وهو يسألها تنظر إليه باستغراب لهذا كان من الواجب انهاء كل شيء ومغادرة الحي قبل فوات الأوان.

وكاد حمزة ييأس لولا أنه رأى رجلاً جالساً على احد القهاوي واحس من منظره أنه ممكن جداً أن يكون حانوتياً.. وذهب إليه مباشرة وسأله وأنزل الرجل ساقه التي كانت موضوعة فوق الأخرى ونفى وتأسف، ولكن يبدو أن احد الجالسين بجواره كان قد استمع للسؤال، إذ بعدما استدار حمزة نادى عليه وقال:

ـ حضرتك عايز اسماعين أبو دومه مين؟ مش بتاع الجبانة؟
ـ أيوه تمام.

ـ آه.. دا بيقعد عند بتاع عصير القصب قريب هنهه.. تمشي من هنا كده على طول لغاية عامود النور اللي هناك دهه. الدكان على ايدك اليمين على طول.

ومشى حمزة حسب الوصف وانتعاشة أمل تشجعه، ولم يكن في كلام الرجل اية مبالغة فقد وجده حمزة هناك جالساً على دكة خارج الدكان بنفس جلبابه الصوف البني وعمامته وشاربه المشوش الذي يلتوي عند طرفيه فيبدو كقرني ثور.

ـ السلام عليكم.
ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
قالها الرجل وهو يمد فمه إلى «غابة جوزة» كان آخر يمسكها.

وانتظر حمزة حتى شد أبو دومه ما طاب له الشد في نفس واحد وسأله وهو يغالب ابتسامة كان يريد إيقاف تنفيذها:

ـ ما تعرفشي والله سيد اللي بيشتغل في الجبانة فين؟

وكان ابو دومة في هذه الأثناء يخرج دخان النفس. . أخرج ملء مدخنة من فمه ثم انتظر قليلاً وأخرج من أنفه ماسورتين رفيعتين كثيفتين لون دخانهما كلون البخار، حتى خيل لحمزة أنه سيصفر بعد هذا ويتحرك.

وقال أبو دومه في أدب ولا تزال سحابة الدخان قائمة، ولا تزال بقايا الدخان تخرج مع الكلمات:

ـ سيد مين؟ ما هو لا مؤاخذة ف دي الكلمة فيه سيدين. . سيد شطا وسيد محمد ابراهيم. . الله! حمد الله على السلامة يا بيه. . يا ألف مرحب. . أصل لا مؤاخذة متآخذنيش. . الدنيا ليل والعتب ع النظر. يا الف مرحب! ده نور ايه ده؟ حمد الله على السلامة.

وكان قد قام واقفاً وسلم على حمزة وشد على يده. . وأكمل ولا تزال يده في يد حمزة:

ـ والله يا بيه إن جنابك ابن حلال. . أنا كنت لسه في سيرتك من شوية. . الف حمد الله على السلامة.

وكان حمزة ينظر إلى الرجل وترحيبه ووجهه الجاف الأسمر الخشن الذي جمده البرد، وذقنه النابتة وشاربه. . وعينه الحولاء التي يخيل للإنسان أنها ليست في محجرها كالعين الأخرى وإنما موضوعة بطريقة ما فوق طرف شاربه وكأنها الكرة الأرضية التي تدور ويحملها قرن الثور. . كان حمزة ينظر وهو يراقب فم الرجل الواسع يتفتح عن الكلمات المصرية

جمهورية فرحات

الحلوة التي صنعتها إنسانية شعب عريق. . الكلمات التي قد لا تصفى على الربع،ولكنها رائعة في نفسها وكأنها رسل محملة بالدفء والسلام. كان قد أمضى ساعات طويلة وهو غريب بين مصريين، مبعثر مشتت في الأزقة والحواري، فكأن للكلمة الواحدة التي فيها نبض من ترحيب أو احتفال فعل السحر، فما باله وهو يرى في وجه الرجل فرحة حقيقية بلقائه وترحيباً به إيما ترحيب؟

وقال حمزة وهو منفعل:

ـ الله يسلمك يا عم اسماعين. . والله إنك وحشتني قوي. . انت وسيد. . هو فين أمال؟

فرد أبو دومة ولا تزال يده في يد حمزة:

ـ انت مادريتشي حاصل ايه.

وسقط قلب حمزة فجأة وسأله بلهفة:

ـ لأ. . حصل ايه؟

ورد ابو دومة في تأثر:

ـ مش الواد يسيبنا هنا كده وحنا كنا ع الخير والشر سوا ويروح يشتغل في الوابور. الله يخزي شيطانه البعيد. طب تصدق بايه؟ والله ان سيد محمد ابراهيم ده جاني زي ما جيتني جنابك كده من كام شهر. . سلام عليكم يا عم سماعين. . قلت له سلام ورحمة الله وبركاته. . قاللي عايز آكل عيش. . قلت له والنبي إن ما أكلتك بإذن الله فطير ما ابقى سماعين أبو دومة .

ـ والوابور دا فين يا عم سماعين؟

ـ أنت من غير مؤاخذة رحتش سجن مصر.

ـ ليه يا عم اسماعين؟

ـ أهو بيشتغل في الوابور اللي وراه على طول . . يعني من غير مؤاخذه تخش السجن كده يبقى هو على يمينك على طول .

ـ وقاعد فين أمال؟

ـ حد عارف له حته . . أهو مطرح ما بيجي عليه الليل بينام . . باينه بيبات في الوابور . . باينه بيروح عند قرايبه محدش عارف . . حمد الله على السلامة يا سعادة البيه . . أنا وسيد واحد . . كلنا أخوات . . أنا والله سيد ده كنت أعزه زي الاسطى حوده تمام .

ـ الاسطى حوده مين؟

ـ ابني لا مؤاخذه . . أنا وسيد مفيش فرق . . هو كويس كويس إنما لا مؤاخذه اصل شغلنا ده عايز صبر وطولة بال . ليه؟ يوم فيه وعشرة ما فيش . . واللي بيروح أكتر من اللي بييجي . وسيد مالوش خلق . . نفسه ضيق . . ما يقدرشي يستحمل ، ما يستحملهاش إلا اللي زينا كده واخدين ع الشقى . . . ألف حمد الله على السلامة . . أنا وسيد واحد . . كلنا أخوات .

وكان حمزة في ذلك الوقت يختنق في واد ضيق فقد انهارت فجأة آمال رحلة طويلة عريضة . . والعمل؟

ووقف يقضم أسنانه وأظافره ويداري حنقه عن أبو دومه ويتركه يتكلم .

ـ تعرف بعد ما مشيت سعادتك جاني حتة داكتور زي السكرة تمام . . قاللي يا عم سماعين اناجاي ع السمعة . . انت جنابك زعلان ليه كده كفى الله الشر؟ خير . . هو لا مؤاخذة حصل حاجة؟

ـ لا . . أبداً يا عم سماعين .

ـ ولا يهمك. . والله من يوم ما مشيت من هنا وأنا مشغول عليك وعلى الأسمنت. .

ـ ايه؟

ـ ازي الأسمنت؟

ودارت رأس حمزة دورات كثيرة قبل أن تستقر على ما يقوله أبو دومه.

الأسمنت؟

كيف عرف؟

هل أخبره سيد؟ وكيف يمكن أن يسكت أبو دومه عن شيء كهذا وهو لا يحتمل السكوت؟

ـ اسمنت ايه يا عم اسماعين؟

ـ اييه. .

قالها أبو دومه وهو يلوي رقبته ويضم ذقنه إلى صدره كمن يقول: اطلع من دول.

وخاف حمزة أن يستطرد الرجل في الكلام أمام صاحب المحل والرجل الآخر الذي كان ممسكاً بالجوزة. فاستأذن منهما وأخذ أبو دومه على ناحية وأعاد سؤاله، فاذا به يعرف من المرة الماضية أنه كان حاضراً لأخذ الديناميت وانه ليس بطالب طب ولا دكتور.

واستغرب وذهل، الرجل يعرف كل شيء ومع هذا تظاهر بالعبط كل هذا التظاهر وسأله:

ـ وانت عارف كنا بنعمل بيه ايه ده يا عم اسماعين؟

ـ إلا عارف. . هو أنا عيل يا سعادة البيه؟ بتعملوا بيه ايه؟ مش من غير مؤاخذة كده بالمفتشر بتموتوا بيه الانجليز. أنا ياما شفت وياما رأيت يا

سعادة البيه . . انت جنابك فاكرني شوية . . هو تفتكر إن فيه حاجة تبقى في جبانة باب الوزير وما أعرفهاش؟ دانا ما بقاش سماعين أبو دومة . . دانا عارف كل طوبة هنا . . وكل شقفة هنا خابزها وعاجنها . . إنما صوابعك مش زي بعضها . . فيه ناس تبقى مش عارفة حاجة وتتكلم وفيه ناس تبقى عارفة كل حاجة وتسكت . طب تصدق بالله؟ قول لا إله إلا الله . . قول . . تصدق بالله؟ أنا سنة سعد باشا جم الانجليز يفتشوا الترب فرحت قايل لاتنين منهم: جرج «جورج» جرج . . وانت زجزج جرج ، بري كود . . وانت بري كود . . زجزج كويس كتير . . وشاورلتهم راحوا ماشيين ورايا . . ورحت واخدهملك عند السبيل وقلت يا سيد يا رفاعي مدد . . حاكم دول تعابين فلازم الواحد يستعين عليهم بسيدنا الرفاعي . وكان في ايدي زقلة رحت عاينها وطاخ طيخ طاخ طيخ وينزلوا الاتنين ساكتين ورحتلك خافي رمتهم ولا حد شاف ولا حد دري . . وياما وياما بس الواحد أصله ما بيرضاش يكلم .

وهنا كان حمزة قد قرر أمراً فقال :

ـ اسمع يا عم سماعين . . .

ـ أيوه يا سعادة البيه . . أنا وسيد واحد وزمتي وديني .

ـ مش عارف حته أقعد فيها يوم والا اتنين؟

ـ عايز بقى من غير مؤاخذة شقة وإلا أوضة؟

ـ أنا مش عايز أوض وشقق ، فاهمني ازاي؟

ـ فاهمك ازاي ايه؟ أنا فاهم قوي يا سعادة البيه .

ـ أولا بلاش سعادة البيه دي . . انا اسمي . . اسمي حمزة .

ـ أهلا وسهلا . . الف مرحبة يا سي حمزة أفندي . . باب الوزير نور والله .

ـ انت مش فاهم يا عم اسماعين. . أنا مش عايز أوضة والا شقة. . أنا عايز حتة بعيد عن الناس.

ـ تبقى من غير مؤاخذة بقى تروح الدراسة. . هناك حاجات زي طلبك كده كتير.

ـ أصل يا عم اسماعين المسألة إن دلوقت الحكومة بتمسك الناس اللي كانوا بيضربوا الانجليز. . ودلوقت بتدور علي. . فأنا عايز استخبى في مكان ما يشوفنيش حد فيه. . تعرفشي حاجة زي كده؟

ـ الا أعرفشي حاجة؟ وده اسمه كلام يا سي الافندي؟ بقى عمك سماعين أبو دومة ما يعرفشي يخبيك. . يا سلام. . أي خدمة يا سعادة البيه. . أي خدمة. . بس كده؟

ـ تعرف صحيح يا عم سماعين؟

ـ إلا أعرف؟ دانا أخبيك وأخبيك. . دانا أوديك في حتة ما يعرفهاش الجن الأحمر.

وكان حمزة يسمع كلام الرجل ولا يفكر فيه، فعقله كان قد عاد يستأنف البحث في ذاكرته عن مكان إذ كان واضحاً أن كلام أبو دومه تهويش ونتش ليس إلا. . ولذلك سأله وهو يبتسم في مرارة عسى أن يرفه عن نفسه بالسماع:

ـ فين يا عم سماعين؟

وسكت أبو دومة، وازدادت ابتسامة حمزة وهو يرى الرجل قد وقع في المأزق ووضع أصبعه على صدغه وراح يفكر. وأخيراً رفع رأسه وتهلل وجهه وقال:

ـ أعرف لوكاندة.

فرد حمزة مباشرة:

ـ لوكاندة ايه يا عم اسماعين؟ مقدرشي أروح أي لوكاندة. . كلهم مراقبين.

وعاد أبو دومه إلى وضعه التفكيري، وفكر حمزة أن يسلم عليه ويمضي ولكنه لمحه يهز رأسه باستنكار، وتهتز طاقيته الصوف التي تعمم عليها وهو يقول:

ـ بس حترضى تروح هناك يا سعادة البيه؟ مش معقول.

ـ معقول قوي. . ارضى قوي. . في أي حتة. . فين؟

ـ هناك في الملك ده.

ـ هناك فين؟

ـ في اي حوش من الأحواش بتوع الجبانة.

وضرب حمزة الفكرة في عقله وخرج بتيجة مدهشة فقال:

ـ قوي. . قوي. . أرضى قوي. . أنا عايز أي حتة، فاهمني ازاي؟

ـ فاهمك ازاي!

ـ لا مؤاخذة يا عم اسماعين أنا بقولها كده بس ـ صحيح ممكن أقعد هناك. . دانا أروح قوي.

ـ تحب بقى جنابك حوش مطرحين وصالة والا حوش مطرح واحد؟ أؤمر. . أي خدمة؟

ـ انت بتتكلم جد يا عم اسماعين.

وظهرت غضبة لينة على وجه الرجل وقال:

ـ انت مش واسك «واثق» في يا سي حمزة أفندي؟ عيب ولا مؤاخذة

جمهورية فرحات

يبقى شنبي على مره. . دانا مرة واحد قاللي انت كذاب فحطيت صباعي في عينه وخدته الإسعاف يومها وبقت حكاية. . هو أنا عيل لا مؤاخذه؟ أما أبو دومة يقول كلمة تبقى هي الكلمة. . طب والله نظير كلامك ده لمقعدك في مدفن داود باشا نفسه. . اتفضل. . ما تتفضل يا سعادة البيه. . اتفضل نوصل للبيت بس. . اصل المدفن مقفول بقفل. . قافلينه اصحابه. . ح أنادي الأسطى حودة ابني يعمل له سلكة ويفتحه. . اتفضل.

وانطلق أبو دومة في حماس بالغ، ومضى حمزة وراءه وهو يكاد يضحك إذ من المجنون الذي يصدق أبو دومة؟ ولكن الرجل واصل سيره حتى بلغا الميدان فهز حمزة كتفيه كمن يقول لنفسه: خليك مع الكداب. واتفق مع الرجل على أن ينتظره عند نفس المكان من الجبانة الذي وجده فيه المرة الاولى، وذهب حمزة إلى فوزية الواقفة وقبل أن يصل اليها سألته بلهفة:

ـ هيه؟

ـ بس يا ستي. . حنام مع سعادة داود باشا في اوضة واحدة.

ـ بلاش هزار يا حمزة. . لقيت حاجة؟

ولم تصدق فوزية هي الأخرى، ومع ذلك مضت معه، وراحا يصعدان الطريق المؤدية إلى المقابر. وعند نفس الجدار وجدا هناك «أبو» دومه واقفاً وقال له حمزة:

ـ دي مراتي يا عم اسماعيل.

ولما وجد حمزة المسألة فيها اتنين انجليز قتلوا وواحد فقد عينه أضاف:

ـ دي مراتي. . عندنا أربع عيال. . معذبينا قوي يا عم اسماعيل.

ـ ربنا يزيد يا سي حمزة أفندي . . أنا لاخر الأسطى حوده ابني شفته على كبر إنما واد يعجبك . . دلوقتي حتشوفه .

وبعد خطوات قليلة كانوا امام عش مصنوع من خليط من الحجارة البيضاء والصفيح وبراميل الزفت المفرودة . وكان القمر قد بدأ يصعد إلى السماء والنور يأخذ طريقه إلى الأرض . وبدت الأحواش والمدافن كالبيوت الصغيرة المكدسة ،ولم يكن من فرق بينها وبين بيت «أبو» دومة الا أنه أحقرها جميعاً وأفقرها بناء . . حتى ليظن الانسان انه قبر أقيم لتخليد ذكرى الفقير المجهول .

وكان يرقد أمام العشة البيت كلب قد وقف شعره من البرد يشبه الكلب الذي رقد مع أهل الكهف في غارهم مئات السنين . . بلا طعام أو شراب يشبهه في أنه هو الآخر يبدو وكأنه هو وأجداده أجمعون قد جاءوا الدنيا صائمين وغادروها صائمين .

وخبط أبو دومه على الباب المصنوع من الصاج وقال :

ـ يا أسطى حوده .

وخبط مرة أخرى . . وفتح الباب وخرج صبي صغير لا يتعدى العاشرة يرتدي جاكتة عسكرية صفراء تصل إلى ما تحت ركبتيه . . وقال له أبو دومة .

ـ هات ياسطى حوده حتة سلك عشان تيجي تفتح به القفل .

وخرجت وراء الصبي امرأة . . طويلة ترتدي ثوباً أسود وطرحة سوداء وحين سقط القمر عليها أضاء وجهها فبدا أبيض حلوا . . وقالت :

ـ خير يا أبو محمود . . فيه ايه؟

فأجاب أبو دومه بنفس صوته المرتفع :

ـ ما فيش . . أصل حمزة مضاضي الانجليز . وبينه وبين الحكومة شوية . .

فهمس له حمزة :

ـ يا عم اسماعيل .

ـ أصل لا مؤاخذة يا سي حمزة . . مفيش بيني وبين أم محمود سر احنا ع الخير والشر سوا .

ـ طب وطي حسك يا عم اسماعين .

وسألت المرأة حمزة بصوت جميل وكأنما صنع من «ملبن» أنثوى خالص :

ـ هو الافندي من الفدائيين؟

وعجب حمزة وهي تنطق «الفدائيين» نطقاً سليماً ليس به اي إعوجاج فسألها :

ـ انتي تعرفيهم يا ست أم محمود؟

فأجاب أبو دومه :

ـ إلا تعرفهم . . هي كانت تعرف حاجة إلا هم؟ دي متعلمة بتقرا الجرانين وتكتب ، واسمع أنا وهي الراديو تفهم هي كل حاجة زي البربند وأنا ولا كأني سمعت . . دي في السياسة اكس . . طب بنت ملك الانجليز اسمها ايه يا أم محمود؟

وضحك حمزة وفوزية ، وضحكت كذلك أم محمود . . ورد الأسطى حودة الصغير بسرعة :

ـ اسمها «الدع بت» يابا .

فقالت امه :

ـ يا واد مش اسمها كده . . قلتلك . . اسمها اليزابيث .

وتولى حمزة شرح موضوعه لأم محمود.

وبعد قليل كان الركب يتحرك وحمزة وفوزية وكأنهما في حلم. كان الأسطى حودة على رأس القافلة وفوزية مع أم محمود التي كانت تحمل فوق راسها لمبة أم ساروخ وفي يدها ابريق كبير وقد انخرطتا بسرعة في الحديث وكأنهما تعارفتا منذ عام. وكان حمزة وأبو دومه يمشيان صامتين غير أن الأخير سرعان ما قال وهو يلكز حمزة:

ـ شوف يا سي حمزة النسوان. . أعوذ بالله. . ما يصدقوا إلا وهات يا كلام.

فقال له حمزة: إلا يا عم اسماعين اتجوزت ازاي؟

ـ اتجوزت ازاي ايه؟ زي الناس قسمة ونصيب. . رحت لابوها الله يرحمه بقى ويحسن اليه. .

ـ وبتحبها يا عم اسماعين؟

ـ أحبها يعني ايه؟

ـ مش عارف تحبها يعني ايه؟

ـ آه. . قصدك ع الحب ده اللي بيسرسع في الراديوات. . لا. . لا معندناش كلام فارغ من ده يا سي حمزة. . دي مراتي. . أهلاً وسهلاً. . الف الف مرحب.

دا انت نورتنا والله. . طب تسدق بايه؟ أنا حلمت امبارح حلم اللهم اجعله خير. .

ثم رفع صوته وقال موجهاً الحديث لامراته:

ـ مش قلتلك الصبح ع الحلم اللي حلمته ليلة امبارح يا أم محمود؟

ولم ينتظر اجابتها ومضى يقول: حلمت خير والصلى ع النبي إن

الهاتف جاني في المنام وقالي: هوه: قلت هوه: قاللي الفرج جايلك شايل شنطة.. صبحت الصبح أخبط كف على كف وأنا عقلي ح يشت.. يا ربي فرج إيه اللي شايل شنطة؟ قوم شوف.. ادحنا... أهلاً وسهلاً.

وكان حمزة يستمع ويحاول تقدير ما سوف يدفعه ويليق بمقام «الفرج اللي شايل شنطة» مع أنه كان على شبه يقين أن كلام «أبو» دومة كله فارغ ولا يدخل عقله. وكان أبو دومة يتكلم بلا توقف وأحياناً يصغي إليه حمزة ومعظم الأحيان يتأمل ما حوله.. قبور، وقبور، وأحواش عليها زهمة ولا صوت ولا هواء ولا حياة، ونور القمر مجرد كفن أبيض كبير يغطي المباني ويفرش الأرض، وأم محمود على رأسها «اللمبة أم ساروخ» ترتد نارها ودخانها إلى الوراء ويتصاعد من شريطها الشرر، ويبدو نورها الشيء الوحيد الذي أفلت من لون الكفن وثار في وجه القمر، وأصوات وقع الأقدام على الرمال التي تكاثفت حبيباتها تحتمي من البرد والليل والموتى هذه الأصوات تأتي مكتومة، وأحياناً يسمع حمزة معها صوت «أبو» دومه الذي بدأ يلهث:

- اتنين في رقبتي.. الأسطى حوده.. وبسلامته أبو دومه.. على اسم جده.. الله يرحمه ويحسن اليه.. الفاتحة له.. حوده عال.. قلت يا واد وديه في ورشة مكانيك أقله يطلع أحسن منك.. حاكم ما تلقاش يا سي حمزة أفندي حد يرضى تطلع أحسن منه إلا أبوك.. المرحوم أبويا كان يقوللي كده.. عليه رحمة الله.. الفاتحة له وأمواتنا وأموات المسلمين.. بسم الله الرحمن الرحيم.. كان لازم نقرأ الفاتحة قبل ما نخش على أسيادنا الموتى ونستأذنهم.. معلهش يا سيادي الفاتحالكو.. بسم الله... آمين.. الانجليز.. ولاد كلب عايزين الحرق.. انا مرة وأنا ف شبابي..

ويبدو أن انخراط فوزية في الحديث مع أم محمود جعلها تنسى

المكان الذي تمضي فيه والزمان، إذ سرعان ما توقفت حتى وصلها حمزة وأدخلت يدها بسرعة حول ذراعه وكانت ترتجف وتقول:

ـ أنا خايفة موت يا حمزة..

ـ من ايه؟ ما تبقيش صغيرة أمال.

فقالت وهي تلتصق به أكثر ووجهها شاحب:

ـ أنا بارجف يا حمزة.

وسألها حتى تتكلم وتنسى:

ـ انت كنتي عمالة بتكلمي معاها في ايه؟

فقالت واسنانها تصطك:

ـ دددى.. ووووليه ك ك ك ويســه.. جـ ج ج ج جدا دددا.. ت ت ت تصور ب ب ت ت ت ح ب.. جوجو جوزهـا أأأ وي.. بتقول إإإنه ع ع عندها أح ح ح س س س ن من أأأنور وجج ج دي..

وخلع حمزة «جاكتته» وألبسها اياها بالقوة فصنعت بها ما صنعته جاكتة العسكري بحودة، وكانت كل رجفة منها تعتصر نفسه اعتصاراً. لقد كان يتساءل عن التجربة التي تذيب الإنسان في الإنسان وما تخيل أبداً أنها ممكن أن تكون على هذه الصورة، وهو يرتجف من البرد وهي ترتجف من البرد والخوف تائهين في العالم الآخر، وحوده وأبواهيقودونهمامن ممر إلى ممر. ممرات جرباء متشابهة وصور لآلاف الأشباح تترامى، وجلد فوزية وكذلك جلده قدتحبباً وأصبحا كجلد الطائر بعد نتف ريشه، والمشوار لا يبدو له آخر، وليلة طويلة لا يعلم أحد كيف تنتهي.

وفجأة قفز حمزة مذعوراً مخلوع القلب، فقد صرخت فوزية بجوار أذنه تماماً صرخة مشحونة بالرجفة والذعر المروع.. وظلت تصـرخ بلا انقطاع وتقول:

جمهورية فرحات

ـ رجليا رجليا رجليا رجليا.

وانحنى حمزة وقلبه لا يزال مخلوعاً يرى ما في رجليها.. ثم ضحك ضحكة هستيرية طويلة وهو يمد يده ويجذب عرف الكافور الجاف من بين قدميها. ولم تصدق فوزية ولم تكف عن الاستغاثة حتى حين أراها العرف. وما أن تبينته أخيراً حتى انهارت مغمى عليها، وتلقفها حمزة قبل أن تسقطوأبو دومه يقول: يا حول الله.. يا حول الله.. داحنا كنا وصلنا.

وحملها حمزة على كتفه، وخيل إليه من فرط ما كان يحس به ناحيتها أنه يستطيع حملها الليلة بطولها، ولكن بعد خطوات قليلة بدأ ينوء ويلهث، ويسأل «أبو» دومه.

ولم تكن هناك حاجة للسؤال.. كانوا قد وصلوا وكانت فوزية قد عادت إلى وعيها. ولدهشة حمزة لم يعرف أنها أفاقت إلا حين أحس بشفتيها تلثمان جانب رقبته، وقد ينسى حمزة أشياء كثيرة، ولكنه لن ينسى أبداً ملمس شفتيها الباردتين الذي أحسته رقبته في تلك الليلة من ليالي الشتاء.. وخطر له خاطر.. لم يكن عبثاً ما قاله لها الليلة إن حبهما في نمو دائم، وأشياء قليلة جداً تلك التي يكون الإنسان مستعداً أن يفقد حياته من أجلها مثل.. مبدئه.. وشرفه.. وبلده.. وفي تلك اللحظة أحس حمزة بعمق وبيقين أن فوزية أخذت مكانها جنباً الى جنب مع مبدئه وشرفه وبلده..

وكان لا يزال يحملها ويلهث ويجاهد ليبقى حاملها ولا يفكر في إنزالها، وفوزية وقد أفاقت تماماً لم تفكر هي الأخرى في التنازل عن مرقدها، ولم تهبط إلا حين شعرت بحمزة قد اصبح لا يكاد يستطيع الوقوف قائلا وهو يلهث:

ـ أنا دلوقتي بقيت زي طرزان تمام.

وفي ذلك الوقت كانوا واقفين أمام بناء كالفيلا المكونة من دور واحد وكان حوده عاكفاً على الباب والقفل وأمه تمسك له بالمصباح، وأبو دومه واقف في مكان تستطيع عينه المتحركة أن ترى فيه تقدم ابنه وترى فيه حمزة وفوزية دون أن يتعب نفسه ويستدير. وأيقن حمزة بعد ما هدأت أنفاسه ورأى حودة وما يصنعه. .أيقن أن«أبو»دومه فعلاً كان يعني ما يقول. . وتعجب كثيراً وكان ذلك مستحيلا.

ومال على أذن فوزية يهمس لها بهذا وبغيره، وأفاق من همساته على خبطة أطارت عصافير السكون. . وأرجفت فوزية وأرعشتها. . وفتحت الباب. . ورفعت صوت حودة قائلا:

ـ أتفضلوا.

وابتسم أبو دومه ابتسامة أوسع من فمه وقال وعينه وأسنانه تتلألأ في ضوء القمر:

ـصدقتني بقى يا سي حمزة؟ الأسطى حوده ده ولد. .

وكانت الرحلة كلها«كوم» والدخول إلى ذلك المكان كوم آخر. . رفضت فوزية أنتطأ،واستماتت على حمزة لا تريده أن يتحرك وقالت:

ـ يلعن أبو أي حاجة في الدنيا. تعال بات عندنا وخلاص، إنشالله حتى يتقبض عليك. مش معقول تبات هنا. . دانا اجننت. . أنا مالي. . هه. . هه.

وكانت عائلة«أبو»دومه قد دخلت وفوزية لم تكف عن اضطرابها،وولد قربها في نفس حمزة مشروع قبلة. . وقبلها مرة ومرات وبادلته فوزية قبلاته. وكان حمزة كلما دار ببصره في مستعمرة الموت تلك احتضنها اكثر

وأطال من قبلاته حتى خيل إليه أن فمها قد تضخم وتلمظ واصبح كثدي نافر.

وسمع صفيراً مزعجاً، وانتفضت فوزية في حضنه، والتفت فوجد الأسطى حودة هو الذي يصفر وأمه تخبط على كتفه وأبوه ينهره، والأم والأب قد اعطياهما ظهريهما.

ـ لا مؤاخذة يا عم اسماعيل.

واستدار الرجل اليه، وكاد حمزة يسقط على ظهره من الضحك ـ وهو يرى في ضوء القمر واللمبة أم ساروخ ـ وجه «أبو» دومه الخشن الجاف ذا اللحية والشارب والفم الواسع يراه وفيه ابتسامة ضيقة خجلة، وملامح تجرب ـ ربما للمرة الأولى ـ خجلا يكاد يقترب من خجل الأنثى.

ودخلت فوزية معه وقد نسيت في خضم ما حدث اصرارها.

كان الباب الخارجي يؤدي إلى فناء صغير تحتله حديقة مهملة فيها شجرتا كافور طويلتان ترعب وشوشة أوراقهما. وهنا باب داخلي آخر كان حوده بلا ريب قد عالجه وفتحه، ويؤدي الباب إلى صالة يتدلى من سقفها شمعدان فيه ما يزيد على العشر شمعات قد احترق منها جزء صغير وكانوا قد أوقدوها جميعاً، والصالة مؤثثة بكنب «ارابيسك» يدور مع الجدران وكذلك عدد من الكراسي من نفس النوع، والحجرة التي على اليسار فيها أثاث مماثل، وكذلك مائدة طعام كبيرة وحولها كراسيها، والتي على اليمين فيها سريران ومراتبهما وملاياتهما ولوازمهما مكومة في ركن ومغطاة بغطاء، وفي كل من الحجرتين شمعدان كبير اضيء. ويقابل باب الصالة الخارجي باب داخلي قال أبو دومه وهو يفتحه:

ـ أهو ده قبر المرحوم داود باشا نفسه. . الله يرحمه. . الفاتحاله.

وبدا من خلال الباب المفتوح قبر مغطى بقماش من حرير أخضر لماع وحوله شبكة من النحاس الأصفر، وكانت الأضواء تتسرب إليه فيبرق النحاس، ويبدو القبر كله وكأنه أحد صناديق القراصنة الضخمة التي كانوا يملئونها بما اختطفوه من كنوز.

وكان الجو كله مشبعاً بتلك الرائحة التي تتوالد في المكان إذا طال عليه الإهمال والإغلاق

وقال أبو دومه وهو يجول بعينيه ويبتسم ويتفكر:

ـ هيه يا سي حمزة.. كويس ده؟ والا أوديك مدفن ألفت هانم أحسن؟ اللي يعجبك.. زي ما انت عايز.. أي خدمة والنبي إنك طردت عنا وحشة.

وأجاب حمزة:

ـ دا كويس قوي يا عم اسماعين. أنا الحقيقة مش عارف أشكرك ازاي.. بس المهم دلوقتي عايزين نرجع فوزية عشان تروح.

ـ ليه؟ ما تخليها تبات معاك.. أقلها تونسك.

ـ لأ.. معلهش يا عم اسماعيل. اصل الولاد لوحدهم، فاهمني ازاي؟

ـ فاهمك ازاي.. أخ.. لا مؤاخذة ما تآخذنيش نسيت.. ايوه الولاد صحيح.. دا زمان بسلامته أبو دومه بيسرخ.. يا رتنا كنا جبناه ويانا.

واقترح حمزة ثانية أن يوصلوا فوزية.. ولكن أبو دومه استمهله وخلع جلبابه وقال وقد أصبح بالفانلة والصديري واللباس ذي الأرجل الطويلة والدكة ذات الثلاث شعب:

ـ بس لا مؤاخذة . . خمسة بس نوضبلك النومة . . ايدك يا أم محمود . . شيل معايا يا حوده . . أصل التراب مالي الحتة.

وحقيقة كانت أكوام من الغبار تغطي كل شيء، خاصة ذلك الكوم الذي فيه معدات الفراش.

وحاول حمزة أن يمد يده ولكن غضبة «أبو» دومه جعلته يتوقف عن محاولته.

وخرج حمزة وفوزية بناء على إصرار «أبو» دومه وزوجته حتى لا يصيبهما العفار . . ووقفا متلاصقين وحولهما أعشاب متوحشة وبجوارهما جذع الكافور الغليظ ووشوشة اوراقه . . والقمر يطل عليهما باستغراب ويتابع ما يدور في الجبانة كطفل محب للاستطلاع، ويبتسم ابتسامته الساذجة الخالدة . . وقالت فوزية:

ـ أما راجل عجيب أبو دومه!

ـ تعرفي انا لغاية دلوقتي مش مصدق.

ـ وحتديله كام؟

ـ على الأقل جنيه . . شوية والله.

ـ يا أخي ما تيجي معايا وبلاش العند ده.

ـ دا مش عند يا عزيزتي . . دا عقل. فاهماني ازاي؟

ـ وحتبات هنا لوحدك؟

ـ حاخاف من ايه؟

قالها حمزة وهو خائف فعلاً لمجرد التفكير في مصيره حين يذهب عنه الجميع، ويبقى وحده.

ـ وبتقللي مانتاش بطل. . حد يقدر يعمل كده؟

ـ انتي عارفة المثل اللي بيقول بطل رغم انفه. . اهو أنا بالضبط.

ونظرت فوزية إلى السماء والقمر. . وما حولها من معالم صماء بكماء وقد أفرخ بعض روعها وقالت:

ـ دي ليلة تاريخية يا حمزة. . حنبقى نفتكرها سوا.

ـ معلهش يا فوزية. . كل حاجة بتبقى صعبة لما الواحد بيكون فيها وبعدين لما بتفوت وتصبح ذكريات بتبقى جميلة.

ـ تعرف إنك ساعات بتقول حكم.

ـ وانتي ساعات بتمدحيني من غير داعي.

وسكتت فوزية وكان سكوتها إجابة، ثم قالت:

ـ أنا يا حمزة باستغرب جداً على أبو دومه ده ومراته. . تصور واحدة حلوة بتقرا وتكتب زي دي تجوز ليه واحد زيه.

ـ وليه ما تجوزوش؟

ـ لأن كان ممكن تجوز احسن منه.

ـ أحسن ازاي يعني؟

ـ أصغر منه بكتير ومركزه أحسن.

ـ شفتي بقى إن ساعات حكم الناس البساط بيبقى أحسن من حكمنا. شفتي بقى إنها ما بصتش لحاجات من دي. لازم فيه حاجة عجبتها فيه. . لازم. الست دي باين عليها معدنها سليم جداً. . دي لازم في يوم من الأيام يبقى لها دور.

فضحكت فوزية وسألته:

ـ ازاي بقى؟

فأجاب حمزة:

ـ انتي بتسأليني أنا ؟ البركة فيكي.

وجاءهما من الداخل صوت «أبو» دومه يدعوهما إلى الدخول.

وتأمل حمزة الفراش الفاخر والنظافة التي أصبحت عليها الحجرة ونظر إلى الرجل يشكره فوجد وكأن كل ما كان في الحجرة وفوق كومة الفرش من غبار وتراب قد انتقل إلى وجهه ورأسه وملابسه، ولم يترك حتى رموش عينيه ولا نهايات شاربه المشوشة فعلق بها وأضفى عليها رماديته وكذلك كانت أم محمود والأسطى حوده الصغير حتى بدت سحناتهم في ضوء الشموع تستثير الضحك.

وقال أبو دومه وهو يمسح التراب الذي دخل حلقه وسود لسانه معلقاً على فخامة المكان:

ـ أصل كان الله يرحمه نظاجة قوي. . هو اللي باني الملك دا كله قبل ما ينتهي أجله. . عليه رحمة الله. هه، كويس كده يا سي حمزة؟ عجبتك الحتة؟ أهو عندك ابريق الميه وبكره الصبح إن عشنا إن شاء الله أم محمود تجيبلك دور كمان. . وأهو الأسطى حوده بعد ما يخلص الشغل يبقى تحت ايدك. . احنا لينا بركة إلا أنت. . دانا والله الدنيا ما هي سايعاني.

وقال حمزة في نفسه إن الوقت قد حان فانتحى به ركناً من الحجرة وأخرج من جيبه الجنيه وقد طبقه في يده حتى لا يراه احد وقال:

ـ احنا متشكرين جداً يا عم أبو دومه.

قالها وهو يمد يده ليسلم عليه، ومد الرجل يده وما أن احس بملمس

الورقة حتى نفض ذراعه كله بسرعة وارتسم على وجهه غضب وقال وقد رغرغت عيناه بالدموع:

ـ الله! ايه ده يا سي حمزة؟ انت بتشتمني؟ هو أنا راجل واطي؟ أنا فقير، فقير إنما برضه عندي مروءة.. والا اكمني يعني فقير؟ دا انت ضيفي يا سي حمزة.. وانت راجل متعلم وتفهم.. دا الحمدالله يا أخي ربك ساترها. لا لا لا يا سي حمزة انت والله كأنك قلعت الجزمة وضربتني.. دا انت كأنك تفيت في وشي.. روح يا شيخ الله يسامحك.

١٥

وعادت القافلة كما جاءت لتوصل فوزية، وظل حمزة وقتاً طويلاً صامتاً يفكر في ذهول مقرون بفرحة، وثمة عواطف كثيرة تجتاحه. كان يفكر في ما كان من «أبو» دومه ويخجل من نفسه ومما أطلقه على الرجل من أحكام، ويفعل هذا برهبة وكأنما تفتحت عيناه على مخبأ حقائق مجهولة وفي النهاية قال لفوزية:

ـ شفتي بقى يا ستي اتجوزته ليه؟ راجل عجيب.. كل يوم بيمر على الواحد في المعركة بيتعلم منه حاجات كتير. أنا كنت طول عمري باتكلم عن الشعب وبيخيل لي دلوقتي إني ما كنتش مدرك بعمق ايه طبيعة الكلمة دي.. فهماني ازاي؟ أبداً دي مش كلمة بتطلق جزافاً.. دي حقيقة حية احنا عايشين فيها.. يعني أبو دومه ده تفتكري الواحد كان ممكن ح يلمس حاجة زي اللي حصلت الليلة إلا من خلال المعركة.. كان عمره حتتفتح له الكنوز الموجودة وعايشة في قلب الناس ومغطيها الألم والحاجة.. تعرفي أنا حاسس بتغيير كبير بيطرأ علي من يوم ما عرفتك.. فيه حاجات كتير ما كنتش شايفها شفتها، وحاجات ما كنتش لامسها خلتيني ألمسها وأقدرها.. أنا كنت باكافح زمان لأني كنت مجرد إنسان حاقد على الظلم والأعداء، إنما الاستعمار ممكن ينتهي والظلم ممكن يتشكل والقضية

مداها أبعد من كده بكثير. . القضية مش قضية الأعداء، لأ، دي قضية الشعب واهدافه، اللي يحلها هو إيمان الواحد بالشعب أولاً وقبل كل شيء، فهماني ازاي؟ يعني زمان كنت ثائر عشان كنتّ حاقد فقط على الأعداء ومؤمن بضرورة زوالهم. . دلوقتي بكافح لأني مش بس باكره الأعداء، انما لأني أولاً حبيت الناس وآمنت بضرورة سعادتهم. . كان زمان اللي بيحركني هو الحقد والحقد أجله قصير، دلوقتي اللي بيحركني الحب والحب مداه بعيد.

كان القمر قد غاب والظلام الدامس قد حل، والجبانة اصبحت بحلكتها التامة وكأنها قبر خانق كبير، ومع هذا مشت فوزية تستمع لما يقوله وقد صنعت كلماته ما لم تصنعه في نفسها قبلاته ولا صدره الدافيء فأذهبت عنها كل روع ولم يعد في كيانها ذرة خوف. .

واستطرد حمزة بنبرات تحفل بإيمان نظيف ليس فيه شوائب، وكأنما ينطق بلسان كل المثل العليا التي حلمت بها وصاحبتها، ويخرج حديثه همساً قوياً يكاد يؤرق الموتى ويحيي العظام وهي رميم:

ـ أنا كان ممكن أقعد أتكلم كتير عن حبي وإيماني بالناس، إنما دي معاني مجردة مش ممكن توجد إلا بالعمل، واحنا ضيعنا وقت كتير لازم نبتدي. . ونبتدي بالناس اللي حوالينا. احنا قدامنا حاجات كتير لازم نعملها.

فقاطعته فوزية قائلة في حماس:

ـ بس الناس اللي حوالينا مش شايفة فيهم حد ينفع.

ـ ازاي ما فيهمش حد؟ شوفي يا فوزية. . صحيح فيه ناس أحسن منهم بس لازم تعرفي إن في كل إنسان جزء طيب ونضيف وثوري وعلى

استعداد لخدمة المجموع، وجزء آخر وحش وفردي ومناقض له تمام. فهماني ازاي؟ تجربة الاختفاء والإحساسات اللي باحملها ليكي علمتني إني أعامل الأجزاء الطيبة في الناس، وصحيح أحذر من أجزاءها الأخرى إنما لا أعاديها. لازم حنلقى في كل واحد من اللي حوالينا حاجة كويسة علينا إننا ننميها ونكبرها وبكده نخلق منهم ناس كويسين. فاهماني ازاي؟ يعني نساعد الجزء الصالح فيهم على أنه يقهر الجزء الضار، وبكده الناس حتتنظم وتقاوم لأن المقاومة هي مجموع الأجزاء الصالحة في الناس وهي دي اللي بتدفع المجتمع لقدام، وهي دي اللي بتغير.

ـ بس يعني يا حمزة واحد زي. . زي. . زي سعد مثلا. . ايه الجزء الصالح اللي فيه؟

كويس جداً اللي جبتي المثل ده. . سعد أكيد فيه جزء كويس إنما لما فقد اتصاله بينا سيطر عليه الجزء الآخر وانحل. ومش ممكن حيتصلح أبداً بأننا نقعد نشتمه ونقول وحش ومتردد. مهمتنا دلوقتي إنه يبتدي يشتغل وبكده بس حيتطور.

ـ أما نشوف.

ـ أنا متأكد من النتيجة. . أنا زمان ما كنتش بافكر بالطريقة دي ابداً. . دا الواحد أكيد أتغير. المكان ده قلعة. . واحنا ضيعنا وقت كبير. لازم نبتدي.

ـ دي ما فيهاش خلاف يا حمزة. . بس حنعمل ايه؟

ـ حافكر الليلة في اللي ممكن نعمله. . وفكري انتي رخره كمان.

وسكتت فوزية قليلا ثم قالت:

ـ تعرف يا حمزة. . حاجة غريبة خالص. . أنا مش عارفة كل حاجة

تقولها باقتنع بيها. . أنا بيتهيأ لي إنك ممكن تقنعني ببساطة إني مجنونة مثلاً.

ـ ودي عايزة إقناع؟

وضحكا. وسألته فوزية عن الساعة. . كانت تدور حول منتصف الليل.

وكانت القافلة قد اقتربت من العمار فودعها حمزة بعد أن أعطاها نقوداً لتعود بها،ووجد عناء كبيراً في إقناع«أبو»دومه بعدم مرافقتها حتى لا يراهما أحد معاً.

وحين ابتسمت له وهي تكاد تتهاوى من التعب كان صدره يغلي بالحقد على الذين يمنعونه من مصاحبتها، وكان قلبه يعمر باطمئنان دافيء صنعه الحب. . الحب العميق الذي بدأت تمتد له جذور ويصبح له تاريخ.

١٦

واخيراً جداً رقد حمزة على الفراش الوثير والتف بالبطاطين الوبر ومدد ظهره المنهك وهو يتثاءب ويستمتع بالرقدة وبالدفء. . وكأنها صدر ديك رومي يلتهمه بعد يوم كامل من الجوع. وكان الانهاك قد بلغ به الدرجة التي يتمنى فيها الانسان أي مكان يستطيع أن يستلقي فيه ـ حتى ولو كان قبر داود باشا نفسه.

وكان يخيل إليه أنه سيظل يرتجف رعباً إلى أن تطلع الشمس وسيصرخ لدى كل خرفشة او صوت، ولكنه وهو راقد وقد ارتاح ظهره ونملت اطرافه كان يحس باللا مبالاة التامة. والسكون الذي حوله أقبح سكون، والوحدة التي يحس بها باردة رهيبة لا أمل في انتهائها، والمدفن يعبق بالزمن والقدم والعصر الذي ولى، والفراش هو الآخر يملأ أنفه برائحة مقززة، وكأن المراتب والمخدات والملاءات قد تكون لها صدأ على مر الزمن وأصبح لصدئها رائحة. وهو راقد هكذا في قلب الرعب لم يكن يحس بأي خوف، واحياناً تبدو التجربة لا يحتملها بشر، فإذا أصبح الانسان فيها تقبلها بهدوء يكون هو أول من يعجب له.

ومضى يستعرض احداث اليوم الحافل الطويل الذي خيل إليه أنه بدأ

من شهر فات. وكلما تذكر مبلغ ما لاقاه من تعب دقت شرايين صدغه، ثم اصبح دقهاً هو كل ما يشغل ذاكرته وقد بدأ النوم يحتويه. ولكن قبل أن يغفو هبط الدق الذي في صدغيه ليرتفع دق آخر في أذنيه. وارتفع دق الأذنين كثيراً حتى لفت نظره وطرد عنه النوم، ثم ما لبث أن استرعى انتباهه كله وصحا تماماً وأدرك أنه صادر من الباب الخارجي للمدفن. وتثلجت اطرافه في الحال. . كان الدق مزعجاً كئيباً كزئير وحش مذبوح. وشلت كل الحياة في حمزة ولم يعد فيه إلا أذناه تتسمعان وتلهبان قلبه وأنفاسه.

واستمر الدق يزأر ويستوحش وينهش لحم السكون ثم انقطع فجأة. ومع هذا ظل لا يتحرك ويكاد لا يتنفس أو يفكر مخافة أن يعيد إليه تفكيره ذلك الدق. واصبح قلبه هو الشيء الوحيد الذي يتحرك ويصدر صوتاً في الحجرة، بل في المدفن والجبانة بأسرها. وضايقته دقات قلبه وكأنها منبه ذو صوت مرتفع تقلق دقاته النائم ومن به ارق. . ثم. . بدأت الدقات مرة اخرى. . رفيعة كخناجر حادة. . وقريبة على نافذة الحجرة التي ينام فيها. وتثلج جسده كله وجاءه من الخارج صوت بشع صادر لابد عن جمجمة هيكل عظمى:

ـ يا استاذ حمزة.

ولم يدرك ابداً أن هذا هو اسمه او أنه المقصود، وحتى حين إدرك لم يتحرك ولم ينفعل. وتكرر النداء ووجد نفسه يخرج من حنجرته صوتاً واجفاً غريباً لا يمت إلى صوته يقول:

ـ مين؟

ـ افتح يا استاذ حمزة.

ـ مين؟ إنت مين؟

ـ افتح يا استاذ حمزة. . أنا سيد.

جمهورية فرحات

وحشد كل قواه ليرفع صوته ويقول:

ـ سيد مين؟

وجاءه الجواب:

ـ أنا سيد ابراهيم يا استاذ حمزة.

وتشجع قليلا، وقام إلى النافذة وهو لا يكاد يصلب نفسه وفتحها ومن خلال حديدها لمح في الظلام الذي أضاءه النور الخارج واحداً يرتدي قميص عمال وبنطلوناً اصفر ممزقاً، وبدأ الشك ينتابه فقد كان عهده بسيد أنه يرتدي جلباباً فقال:

ـ مين؟ . . إنت مين؟

واقترب الشخص حتى وضحت معالمه في الضوء، فاذا به سيد فعلا بوجهه المستطيل النحيف وعينيه الواسعتين جداً ورقبته الطويلة ذات الحنجرة البارزة. وكما جاء الذعر فجأة رحل فجأة، وقال حمزة:

ـ الله يجازيك يا شيخ. . نشفت دمي.

وفتح له، ودخل سيد وسلم عليه بيدين باردتين كبيرتين وهو يقول:

ـ أنا بعد ما خلصت شغل في الوابور جاي على هنا علشان طلب في الغورية. . عم احمد بتاع العصير قال لي إنه كان فيه واحد افندي بيسأل على عم اسماعيل. . يا ترى مين؟ جيت على ابو دومة قال لي على الحكاية. فقلت اروح اقضي الطلب وبعدين آجي أبات معاك اونسك. . اصل الجبانة كرب قوي بالليل وانت مش واخد ع الحاجات دي.

وغير مجيء سيد الأوضاع كلها. . ونسى حمزة الجبانة والرعب والبرد وأحس منفعلا بروعة الانسان. من دقائق كان كالميت في قبره حتى إذا ما

جاء انسان آخر. انسان واحد فقط مثل سيد واصبحا جماعة، ذهب الموت والبرد والسكون وغارت الوحدة، وبدأ يحس بانسانيته وينطلق لسانه متحدثاً ضاحكاً.

وما مضت دقائق اخرى حتى كان سيد قد جمع اخشاباً من الفناء المهمل، وأحضر رملاً وضعه على البلاط، وأوقد ناراً ليدفيء المكان الذي كان يعصف به البرد. وامتلأت الحجرة باللهب الأحمر الوهاج الذي تشيع مجرد رؤيته الدفء والأمان.. وأطفأ سيد معظم الشموع وأبقى اثنتين وقال:

ـ تشرب شاي؟

وشد حمزة على يده وكاد يقبله، فقطرة الشاي في مكان كذاك وفي ليلة كليلتها وبعد أهوال.. كانت لا تقدر بثمن، وقال له:

ـ يا سلام يابو السيد دا إنت تبقى واد ما فيش منك.. فكرتني بحسن.. كان يقول لي تشرب شي أقول له: آه، يقول لي: نعملولك شي.

والله وحشني قوي.. بس حتعمل شاي إزاي؟

ـ جايب معايا العدة كلها.

وأشار لعدة في منديل محلاوي كان قد وضعها على الفراش الآخر ودهش كيف لم يفطن لسيد وهو يحملها.

وحين ارتشف اول رشفة من الشاي وسرت كهربتها في جسده مر بخياله بدير، ولا يدري لم؟ فقال له في سره وهو يبتسم: أين انت يا استاذ بدير لترى أني لا أضيع حياتي من اجل الناس عبثاً.. كل واحد منهم يستاهل أن أضيع عمري من أجله.

وبدأ حديث العمل . . وأنهاه حمزة بقوله:

ـ خلاص من بكره حنبتدي . . حنعمل بكره اجتماع الساعة . . الساعة تلاتة . . كويس؟

ـ إحنا بنخلص الساعة تلاتة . . وعلى ماجي هنا تكون بقت تلاتة ونص .

ـ طيب زي بعضه . . تلاتة ونص . . وتجيب معاك الحاجات .

ـ حاجيبهم إن شاء الله .

وحين انتهيا كان سيد لا يزال جالساً على الفراش المقابل قاعداً ورأسه بين ركبتيه . وكان حمزة قد أنزل البطانية من فوق اكتافه ولفها حول جلسته ، والنار التي بدأت تخمد تضيء وجهه بألوانها التي تمتد من الأحمر الطوبي إلى الأصفر، وتعبث بملامحه المتعبة .

وكان ينظر إلى سيد نظرات طويلة ، ويتذكر أول يوم قابله فيه قريباً من وزارة الشئون الاجتماعية ورجاه أن يكتب له طلباً ليعمل في الحكومة كغيره من عمال القنال الذين تركوا المعسكرات ونزحوا إلى القاهرة والذين كانوا لا يفترقون عنه إلا في أنه لا يحمل ما يثبت أنه كان يعمل في الجيش الانجليزي .

وسأله حمزة فجأة:

ـ إنت بتشتغل إيه في الوابور؟

ـ نقاش .

ـ نقاش؟ بتعمل إيه يعني؟

ـ بانقش حجارة الطاحونة .

ـ وتعلمتها فين يا ابو السيد الحكاية دي؟

ولوى سيد رقبته وأدار رأسه إلى ناحية كمن يقول : ياما اتعلمت .

وعاد وجهه إلى مكانه وراحت الوان النار تعبث بحبات العرق التي كانت قد احتلت جبهته، وبعض اجزاء المستطيل المتغضن المرتكز على ركبتيه الذي لا تستريح ملامحه، وقال وهو ساهم وعيناه في النيران:

ـ ياما تعلمت من يوم ما سبت الفلاحة.. كنت مرابع باشتغل عند واحد بأردبين دره في السنة.. وهجيت.. كنت زهقان وغاوي مكن. كنت اسرق قطن تاني جمعة وأبيعه واشتري صندوق دخان للأسطى محمد سواق اللنز بتاع عزبة المردنلي عشان يخليني اسوق اللنز وأحرت بيه خط. كل خط بصندوق دخان ودفتر بفره.

وسكت سيد قليلا ثم انتابت وجهه الرعشة العصبية التي كثيراً ما تنتابه، وكز على اسنانه وقال:

ـ بس كله إلا الترب، وأبو دومه ومراته.

وقال له حمزة:

ـ دول ناس كويسين جداً.

وانتابته الرعشة مرة اخرى وهو يقول:

ـ ومراته دي رخرة مناخيرها في السما بنت ال «....».

ـ ابداً يا سيد دي ست كويسة.. هي عملت فيك حاجة؟

ـ هي تقدر تعمل حاجة؟

ـ إنت كل ساعة تجيب سيرتها.

ـ هي مين دي؟ دا إن مكانشي جوزها قادر عليها أربيها أنا.

ـ انت مشغول بيها قوي.

فارتعش وجهه مرة اخرى وقال:

ـ يعني مشغول ببنت السلطان ياخي؟ دي.

ويصق مشمئزاً.

وراقبه حمزة وهو يضم فمه بشدة ويحك اظافره في اظافره وينقبض وجهه وينبسط، وكان سيد هكذا دائماً يحس حمزة كلما رآه أنه في قلق مستمر، حتى وهو صامت يضج صدره بالأزمة ويبدو على لسانه كلام لا ينطلق ووراء ملامحه كبت مستطير.

وقطع صمته وقال في صوت يجاهد ليفلت من أسنانه المضمومة:

ـ كل أما بشوف واحد متعلم زيك وسايب عيشة لوكس وجاي يناهد ويانا إحنا اللي الواحد بتطلع روحه علبال ما يطلع اللقمة، ابقى عايز أقوم على أولاد الكلب أخنقهم واحد واحد.

ثم لاحت ابتسامة شاحبة على وجهه وقال:

ـ وبعد ما يروحوا الانجليز في داهية.. أظن مش حنشوفك.

وكانت النار قد خبت وتحولت الى بصابيص تشع ضوءاً احمر يلون وجه حمزة وسيد وكل ما حولهما من اشياء، حين قال حمزة:

ـ بس لما يروحوا.. الحكاية يا سيد مش حكاية الانجليز دي حكايتنا إحنا.. حياتنا ومستقبلنا على الأقل في الميت سنة الجايين، لغاية لما العيشة كلها تبقى لوكس زي ما بتقول.

ثم حل صمت طويل.. ولم يكن ما هما فيه من سكون في حاجة إلى الصمت لتبدو النفوس خلاله كماء البحيرة التي لا يعكر صفاءها موج فيكاد يرى الانسان اعماق نفسه ويكاد يرى حادثات صغيرة عاشت معه لحظة من عمره وأسعدته ثم تهاوت الى قاعه.

وكانت النار قد خمدت تماماً وأصبح لا يضيء الحجرة الا نور الشمعتين الضئيل، ونشوة الشاي والدفء قد ذهبت وخلفت وراءها

وجوماً. وكان لابد اذن ان تنبعث تلك الدندنة من سيد، خافتة اول الأمر وكأنما يوشوش نفسه ثم ترتفع ويرتفع معها رأسه، ويبدو عنقه طويلا تكاد تبرز منه حنجرته. . ثم يقول يا ليل!

وما أروع الموال حين يقال في الليل وفي مثل ذلك المكان. . ويعلو صوته رناناً له أنين الناي ورنينه، يغني يا ليل ويشيع الفجر في الليل، ويا عين ويستل النوم من العين، ويا ليل فيذوب البرد ويهاجر الظلام، ويا عين فترى العين النور ويملؤها دفء ومرح.

ولم يعد حمزة من الآفاق التي حملته اليها كلمات سيد وموالـه. . وأحس مرة اخرى بنفسه وحيداً مع العواطف الدقيقة الواهنة التي تتسرب إلى ذاته وتنهشها وتشبعها نبضاً ولينا والفة، وبدأت الأوتار الخفية تعزف ويخرج لحنها يغريه بأن يفضفض، وشعر برغبة اقوى منه تدفعه لأن يحكي عن فوزية وقصته معها.

ونظر الى سيد الذي كان قد سكت وعاد رأسه بين ركبتيه، وقرر أن يحكي وبدأ بأن سأله: إلا إنت ما حبتش ابداً يا سيد؟

ولم يكن قد انتهى حين قال الفجر. . الله اكبر!

١٧

استيقظ حمزة على شيء يضايقه ويكاد يسد فتحات انفه.

وحين استعاد حواسه وجد للشيء رائحة جميلة.

وفتح عينيه ورأى شبه الظلام الذي كانت فيه الحجرة، ثم السقف المزدان بنقوش الفراعنة المقلدة. ثم وردة حمراء كبيرة فوق انفه.. وبزاوية عينه اليسرى لمح حذاء انثوياً انيقاً مخلوعاً وملقى باهمال تحت الفراش المقابل، وفوق الحذاء بمسافة قليلة رأى قدماً صغيرة تتلاعب اصابعها داخل الجورب.

ولم تكن المسافة بعيدة فمد يده وأمسك القدم وجذبها، وفي نفس الوقت تصاعدت موسيقى خافته تقول:

ـ صباح الخير.

وكان مستعداً أن يبقى على وضعه ذاك مدى الحياة لا يتكلم ولا يتحدث ولا يتنفس، ولكن الصوت الموسيقي عاد يقول:

ـ بلاش كسل قوم.. عندنا شغل كتير.

وفي بطء جلس، ووجد فوزية جالسة على الفراش المقابل بوجهها الأبيض المسمسم الحلو، وعيناها منتفختان قليلا انما زادها ذاك جمالا

وجاذبية، وكان احمرار خفيف يلون شفتيها. وقال لها بصوت أجش غليظ طير كل ما احدثته تحيتها من موسيقى:

ـ صباح الخير.

وفتح عينيه وأغمضهما كثيراً ليرى أنها في جلستها تلك ارشق من أصابع عازف كمان، وأنضر من الوردة التي اصبحت في يده، وأنشط من كل ما قد يبعثه صباح شتاء من نشاط. وكانت ترتدي «بلوزة» بسيطة و «جيب» رمادي، وبادرته قائلة:

ـ أولاً . . قوم اغسل وشك.

ووضع حمزة ساقاً فوق ساق وهو لا يزال ممداً على الفراش؛ وقال في كبرياء:

ـ أولاً ـ دوري لي على النضارة لأني مش عارف حطيتها فين قبل أن أنام.

ثانياً ـ كان فيه واحد نايم هنا راح فين؟

ثالثاً ـ مفيش ميه عشان اغسل.

رابعاً ـ الساعة كام والنهاردة إيه؟

خامساً ـ تعرفي انك حلوة زيادة عن اللزوم؟

ـ أولاً النضارة إنت قاعد عليها وباينة منها حتة. . وأنا جيت ومالقيتشي إلا إنت والمرحوم بس، والساعة الحادية عشرة من صباح يوم الجمعة الموافق كذا وعشرين من شهر فبراير سنة الف وتسعمائة واحد وخمسين ميلادية، وأم محمود جابت الميه الصبح وح احطعليك تغسل وانت اسمح لي كداب يا عزيزي حمزة حين تدعي أنيَ جميلة من غير ما إنت شايفني.

وكانت تقول هذا وحمزة قد قام ملسوعاً يبحث عن النظارة خوفاً من أن

تكون قد أصابتها مصيبة لا تحمد عقباها، ووجدها سليمة والحمد لله فوضعها على عينيه، وثنى رأسه يميناً ويساراً مدعياً أنه يتفرج على فوزية وقال بسخرية:

ـ يا خسارة نضارتي معمولة للنظر بس.. لازم أعمل واحدة تانية لجمالك.

ـ يالله يا حمزة مش فاضين.

وقام، وفي الفناء الموحش وقف وركع خافضاً رأسه وفوزية تصب عليه من الابريق، وهو يعتمد أن يقترب منها حتى «تطربشها» قطرات الماء، وهي تخطو لتبعد عنه فيخطو ويقترب، وهكذا انقلب الغسيل الى مطاردة مرحة لفا فيها الحوش مرات، وانتهت بأن صبت فوزية غير قليل من الماء في ظهره.

وعاد حمزة إلى الحجرة الأخرى وشعره مشعث، وقطرات مياه تتساقط كثيرة تنهمر من ملامحه، وناولته فوزية المشطوهي تقول:

ـ فطارك أهه.

وكشفت فوطة كانت تغطي جزءاً من سطح المائدة الكبيرة الموضوعة في الركن، فبدت اشياء سال لها لعابه، فهو فوق شغفه الكبير بالطعام لم يكن قد تناول شيئاً منه منذ غداء الأمس، فإذا به وجهاً لوجه أمام افطار فاخر. فول بالزبدة، وبيض مقلي، وجبنة من ذوات الاسم الطويل وطماطم حمراء مقسمة وعليها شطة وخل تماماً كما يحبها، وزيتون أسود وأخضر، والأهم من هذا وذاك براد الشاي الذي كان لا يزال البخار يتصاعد من بزبوزه.

وقال حمزة:

ـ إنت أروع فوزية في الدنيا. . بس بدي أعـرف عملـت البيض ده إزاي؟

ـ حتعرف كل حاجة يا سيدي. . أصلي جبت لك وابور سبرتو وكنكة وبراد شاي وسكر وشوية حاجات كده.

ـ وجبت فلوس منين؟

ـ حتعرف كل حاجة بس ما تستعجلشي على رزقك.

ـ طيب تعالي بقى.

وأصرت فوزية على انها شبعانة، ولكن ما كادت تنقضي بضع دقائق وهي تتأمل حمزة وهو يقطع اللقم ويحندقها ويحملها الى فمه بمهارة، ثم يجيد مضغها ويفعل ذلك بطريقة توحي بأنه لا يأكل وانما يتعبد، ويتعبد بطريقة تغري بتقليده؛ ما كادت تنقضي بضع دقائق حتى راحـت فوزية تمضغ لعابها وقد تفتحت شهيتها وما أن أفلتت من حمزة دعوة أخيرة حتى انضمت إليه بلا توان وشاركته في الاتيان على كل ما يؤكل.

وقالت فوزية اخيراً:

ـ أنا جبت لك الجرايد. . فاضية ما فيهاش حاجة.

ـ إنتي مابتنسيش حاجة أبداً. . أنا مش عارف أقول إيه. . على فكرة قبل ما أنسى. . النهارده عندنا اجتماع الساعة تلاتة ونص هنـا. . خلاص حنبتدي.

وتركته فوزية ينكب على الجرائد كعادته، وأزالت بقايا الطعام ونظفت المائدة. . وفوجئت بأنه انتهى منها بأسرع مما قدرته فقالت:

ـ هه. . فاضية. . مش كده.

ـ ما تستهلشي الواحد يقرأها.. بس فيه خبر قبض على انصار سلام يونانيين في اسكندرية.

ـ ما لحظتش حاجة تانية؟

ـ زي إيه؟

ـ أصلي شفت حاجة كده استلفتت نظري.. شوفها في صفحة الأخبار الداخلية.

ـ وآدي الأخبار الداهلية.. هيه.. هيه.. هيه.. هيه.. ما فيش حاجة.

ـ أهيه ياخي.. بص.

ووجد في العامود المجاور لعامود الاجتماعات بروازاً فيه:

ولدي حمزة:

عد إلى المنزل، وحقك علينا.

والدك المكلوم: بدير

١٨

كان يومها من الأيام الدافئة التي تكثر في أواخر الشتاء وتنبيء بأنه قد شاخ، وبدأت أجنة الربيع تتوالد داخله وتنمو وتهدد بقاءه. وكانت هناك شمس ساطعة تتسابق حرارتها وأشعتها في الوصول إلى الأرض ساخرة بالشتاء الكهل، غارسة أصابعها التي لا نهاية لطولها في جسده، تكتم أنفاس زوابعه وتقهر برده وتطرد من السماء سحاباته، نافذة حتى إلى الأحياء تثير فيهم الحركة بعد السكون، والأمن بعد الخوف والانطلاق بعد التقوقع، وتدفعهم مثلها إلى مقاومة شتاء طال احتماله ودنت نهايته.

وحين خرج حمزة وفوزية من الداخل إلى الحوش بهرهما الضوء الساطع، وأحسا لليوم وشمسه بمرح كمرح الأطفال في صباحية عيد.

وجلسا خلف الحائط ينعمان بمقدم الدفء ولم يكن حولهما سكون ولا صمت، فعلى شجر الكافور وقفت مئات العصافير تتقافز وتغني وتزاول الحب وتثير باحتفالها الكبير الحياة في قلب الجبانة.

وبعد قليل ضاق حمزة «بجاكتة بيجامته» فخلعها ووضعها فوق رأسه، وراح يحدث فوزية عن اللجنة التي قرر تكوينها منه ومنها ومن سيد وسعد. وعن مشاريعه لاحالة المدافن الى ترسانة تستطيع بواسطتها اللجنة ان تقود كفاحاً لا يلين لتعبيء الرأي العام وتستأنف المعركة.

وأبدت فوزية امتعاضها لتكوين اللجنة على تلك الصورة متشككة فيما يمكن أن تقوم به عناصرها الضعيفة. . ولكنه راح يحدثها في هدوء واتزان عن نقطالبدء، وعن الأحلام والواقعية، وعن أن الثوار الممتازين لا يستوردون من الخارج ولا يهبطون من السماء، وأن عليهم البدء من حيث هم ومن العناصر التي في متناول ايديهم. وكلفها بالذهاب الى سعد وإحضاره.

وحدثته فوزية هي الأخرى عن خطتها حيال لجنة المدرسات. . وكانت تبالغ في تلك الخططحتى أنها أبدت استعدادها لتكوين جيش منظم من النساء في ظرف شهور.

وكان حمزة يحس أن مبالغتها صادرة عن حماس حقيقي. وتطرق الحديث الى أبيها وكلامها معه عن الزواج وموافقته بشرطين: أن يرى حمزة، وأن يسكنا معه في نفس البيت. . وكان أمل فوزية كبيراً في إمكان تنازله عن الشرط الثاني. واتفق معها على أن يذهب لطلب يدها من أبيها رسمياً في نفس الليلة. وكان الميعاد الذي اتفقا عليه اغرب ميعاد لخطوبة. . الحادية عشرة مساء، على ألا يعلم أحد غير الوالد وألا يخبر بعلمه احداً.

واصرت فوزية على أن لابد من موافقة عائلته، وأن مجرد إرساله خطاباً لا يكفي، ولم يكن هناك حل سوى أن تسافر وحدها إليهم لتراهم ويروها ثم تعود برأيهم.

وسألها حمزة إن كانت قد اخبرت أباها عن عائلته، وكانت قد فعلت. . فقال لها ابوها: ما دام إنتي عاوزاه اجوزيه، إنشا الله يكون أبوه عطشجي. . وضحك حمزة كثيراً متسائلا عما يكون رأيه لو عرف أن العطشجي وظيفة كبيرة جداً بالنسبة لعامل دريسة.

وكان حمزة في هذه الأثناء قد توسد فخذها اللينة الناعمة، والحديث كان يدور في نغمات هادئة مستحبة تغري بالابطاء والاستمتاع بكل كلمة وأجبرتهما كثرة الدفء على العودة الى الحجرة. وأخبرها حمزة وهما يدخلان من الباب أنه يرشح أم محمود لعضوية اللجنة. ولم تصدق فوزية وأثارت جدلا طويلا انتهى باقتناعها كالعادة، وبابتسامة تسليم. ولمعت شفتاها وهي تبتسم في الحجرة نصف المظلمة، وأحب لمعة شفتيها تلك حين استحالت حمرتهما من لون إلى نور. واحب وجهها القريب منه وكأنه يراها لأول مرة، بل خيل إليه أن ملامحها قد تغيرت وأصبح لها نكهة كالقهوة حين تحلى بالعنبر. وأحس لرؤيتها الجديدة برغبة جامحة في تذوقها واعتصار كل ما في ملامحها وشفتيها من نار ونور ونكهة ليروي تياراً من القلق اللاسع كان يجتاحه في تلك اللحظة.

ولم يقاوم رغبته تلك، ولم تقاوم فوزية واقشعر جسده بفرحة حب وهو يحس بها، بحبيبته، بفوزية تعتصر شفتيه هي الأخرى في ثورة عارمة مكبوتة، وظمؤها إليه يكاد يطغى على ظمئه إليها.

وولد فيه ذلك احساساً غامراً بالاطمئنان، وبأن ما بينهما من حب قد أصبح لا يختلط بالخوف والرهبة والتشكك والخجل، وكلاهما قد وثق وأدرك أن ما يكنه الآخر له حقيقة واقعة يلمسها في كل خلجة من خلجات رفيقه وفي كل كلمة ونظرة وضحكة.

كانت قد انتهت مرحلة التسرع واللهفة وبدأت مراحل الاطمئنان. لم يقل لها هذه المرة أحبك ولم تقلها له. إذ لم يعد ما بينهما كلمة تقال، بل استحالت المعاني إلى أعمال وإدراكات يمليها الحب المصفى.

كانت أفكار كهذه تدور في عقل حمزة وهو ينظر بشغف، ويتابب

حركات فوزية وتقلصات وجهها وطريقتها في اعادة النظام الى شعرها حين توقفت فجأة عن كل ما تفعله وعضت شفتها السفلى، فسألها:

ـ مالك؟

أتاريني بقول م الصبح أنا ناسية إيه؟ يا سلام على مخي! تصور النمرة ردت النهاردة ونسيت أقول لك!

واعتدل حمزة في الحال وكأن نافورة نشاط ضخمة قد تفجرت فيه وسألها:

ـ صحيح؟ طلبتيها إمتى؟ وقال لك إيه؟.. صحيح ردت؟ إزاي ساكتة م الصبح؟ إزاي تنسي؟ دي مسألة مهمة جداً.. إزاي تنسي؟.. قال لك ايه بالضبط

ـ الأول كان متشكك، فلما قلت له أنا خطيبتك اداني ميعاد النهاردة الساعة واحدة قدام محطة السيدة.. معلهش.. مش عارفة نسيتها إزاي!

ونظر في ساعته بلهفة، كانت الثانية عشرة والثلث.. واندفع يرتدي ثيابه على عجل وقلبه يدق بالحماس إذ قطعاً سيعاود صلته بلجنة الكفاح المسلح عن طريق زكريا. وسألها وهو منهمك في ارتداء الجورب:

ـ وما خلتيش الميعاد بالليل ليه؟

ـ حاولت.. قال لي إنه لازم يسافر النهاردة الساعة تلاتة.. وإن دي هي الفرصة الوحيدة.

ـ يسافر فين؟

ـ ما اعرفش، ما سألتوش.

وسكتت فوزية قليلا ثم قالت:

ـ آه.. يا سلام على مخي.. وقال لي حاجة كمان.. قال لي إنك

تقطع صلتك حالا برشدي لأنه ثبت إنه بيشتغل دلوقتي مع البوليس السياسي.

ـ إيه!.. رشدي؟

ـ آه.. دانا فضلت طول السكة اقول رشدي.. رشدي.. رشدي، عشان ما انساش اسمه.

وفي ومضة اختلط وجه رشدي الدائم الاحتقان المنتفخ بالسمنة وعيناه الصغيرتان المدسوستان في ملامحه، وابتساماته الخجلة يوم ذهب إليه في العباسية ومعه حقيبة الديناميت واعتذر وتحجج بالأولاد، اختلط هذا بأيام أن كان يعمل معهم جنباً إلى جنب في اللجنة. ولسبب ما أحس حمزة بالارتياح حين علم بتلك النهاية. كان لا يرتاح أبداً إلى شك رشدي في الآخرين، والى كلماته الضخمة الجوفاء، وحبه اللزج المفرط لأولاده حتى انه كان يحمل معه صورهم دائماً ويطلع عليها كل من يصادفه، ولا يتركه إلا بعد أن ينتزع منه كلمة اعجاب أو صيحة ثناء.. أجل! إنه الآن مستريح، فمن المستحسن دائماً أن نمد الخطوط الى نهاياتها.

وقال لفوزية حين انتهى من ارتداء ثيابه:

ـ أنا ماشي.. حكاية رشدي دي حمست الواحد اكتر. لازم تروحي لسعد.. بعد شوية.. قهوة ماتاتيا في العتبة.. ورا الاوبرا.. الميعاد هنا الساعة تلاتة ونص.. ما تنسيش!

ـ ما تخافش.. بس الدنيا نهار وحاسب إنت على نفسك، فاهمني إزاي؟

وخرجت «فاهمني ازاي» من فمها حلوة لذيذة كمذاق الآيس كريم في قيظ يونية.

١٠٦٣

وحين غادر المدفن كان أنفه لا يزال يتنفس رائحة شعرها، وكان يحس بلوعة لفراقها مع أنه كان متأكداً أنه سيلقاها بعد ساعات.

وكان قد ذهب ما بينهما من غربة وحلت الألفة والتعود، واصبحت في نظره عادة حيوية متجددة لا يستطيع عنها استغناء أو فراقاً.

١٩

وكان وهو في طريقه الى الميعاد يرى في وجوه الناس ربيعاً قبل الأوان، وجدية من يعمل، وبريق الأمل الذي يصاحب العمل. كان الناس قد أفاقوا من صدمة الحريق ورفعوا الرءوس في خوف أول الأمر وبدءوا يتهامسون بالشائعات، ثم علا الهمس حين تحققت بعض الشائعات وأصبحت حديثاً يقال، وعرف الناس من الحارق ومن الضارب، والناس حين يحددون اعداءهم لا يترددون، وبدءوا يسخرون وانطلقت النكات بادئة برأس الرمح ووزرائه ولم تترك حتى الذيول، وشد الأعداء من قبضتهم ليغلقوا الأفواه،ولكن كانت السخرية قد أضاعت رهبتهم وهونت من شأنهم، فقابل الناس الضغط باحساسهم أن لابد من التقدم خطوات أخرى، وشعر الأعداء بالخطر، وانهالت ضرباتهم هوجاء ومع كل ضربة يزداد تجمع الناس ويتعلمون ويلتفون حول المضروبين فيخاف الضاربون ويزداد البطش. . فتقترب النهاية.

وكان في نفس حمزة إشراق لا تصنعه شمس. . ستتكون لجنة أخرى، وسيلقى زكريا بعد حين ويعاود العمل الرائع الشريف من أجل الناس، ستعود المواعيد واللقاءات والبحث المضني وراء قضية الشعب. عشرات من الأشياء لابد أن يخبرها لزكريا وعشرات لابد أن يسأل عنها

وزوجة حسن محمد حسن واولاده، ونقود السلاح التي لديه، والدبلة دبلتين. وبدير لابد من الذهاب إليه في ميعاد قريب، العدو قوي وسريع.. سيكونون أقوى وأسرع، في الماضي أخطاء لن تعود، والمستقبل أكيد، النصر لم يعد أملاً لقد اصبح واجباً.

ووصل الى الشارع المجاور لخطحلوان. ومع كل ما كان يفكر فيه لم يفته أن يلحظ أن هناك أناساً يتسكعون حول الخط ويبدو أن لا عمل لهم. ولم يطمئن وفكر في أن يرجع ولكنه عدل، فلا بد من مقابلة زكريا. وكل ما يحس به مجرد شكوك أما ميعاده مع زكريا فيقين، فهل يأخذ بالشكوك ويترك اليقين؟

وقبل أن يصل إلى المحطة دخل في حارة جانبية وخرج في شارع الخليج، ثم مشى بحذر في الشارع الواسع الذي يصل المحطة بالخليج. ولم يكن لحظتها ميعاد قطارات فكان الشارع خاوياً، ورأى من بعيد وفي المكان الذي أمام المحطة مباشرة شاباً لم يشك لحظة واحدة في أنه مخبر فقد كان يرتدي جلباباً واسعاً فضفاضاً وكوفية ضخمة، وتوقف وقرر أن يلغي الميعاد، ولكنه قرر أيضاً أن ينتظر من بعيد ليحذر زكريا حين يجيء. وأثناء انتظاره راح يراقب الرجل الواقف الذي كان يروح ويجيء ويتلفت وكأنما هو الآخر على ميعاد. وخيل لحمزة أنه رأى وجهه في مكان ما ونظر إليه مرات اخرى ليتأكد.. واكتشف مقهقهاً أن الشاب لم يكن سوى زكريا بلحمه ودمه، وقد تنكر في زيه ذاك.

وأسرع حمزة اليه.. وحين أصبح على قيد خطوات منه عرفه زكريا وتقدم نحوه، وتشابكت أيديهما في سلام قوى اقشعر له جسد حمزة ورفرف بالفرحة. وقبل أن تترك يده زكريا كانت أيد كثيرة مفاجئة قد أطبقت عليهما بعنف. ومرت المفاجأة مروراً خاطفاً.

وتلفت حمزة حوله فرأى نفس الاشخاص الذين مهما تغيروا فلابد أن تقرأ العين على وجوههم كلمة مخبرين مكتوبة بحروف من جلابيب وطرابيش وسحنات.

وكان حمزة في كل مرة تحيطه أيد مثل تلك يحس بنوع من الارتياح وكأن مهمته قد انتهت واصبح عليه أن يستريح، أو كأن القبض عليه حفلة تتوج فيها بطولته ويعترف له فيها بالجميل، ولكنه هذه المرة أحس بالأيدي كنصل حاد يهوي عليه فيبتره وينتزعه بعيداً عن معركة الحياة والموت التي يقودها في سبيل الانسان، وبعيداً عن فوزية وكل ما يمت بصلة الى الحياة.

وأحس بأصابع من حديد تدلف الى زوره وتخنقه.

ونظر إلى زكريا وكأنما كان زكريا هو الآخر يترقب نظرته ولم يتحدثا بكلمة. وفي ذلك الوقت كانت الأيدي تمسك بهما ريثما تحضر العربة التي ستقلهم أجمعين، والناس قد بدأ المشهد يسترعي انتباههم ويتجمعون. وتبين حمزة أن الأيدي القابضة عليهما تمت إلى أربعة: أفندي، وثلاثة بطواقي.

كانت المفاجأة لابد منها.

ونظر الى زكريا وقالت عينه شيئاً ثم توقفت، ولمعت فجأة تقول.. الآن..

وتوالت الأحداث مسرعة.

في نفس اللحظة هوى حمزة وزكريا إلى الأرض فتخلصا من الأيدي التي شلتها سرعة الحركة، ثم اندفع كل منهما في اتجاه. وقبل أن يتحرك حمزة نالته صفعة قوية تريد عرقلته ولم تعرقله، فقطفجرت الدم من أنفه ولكنه مرق بقوة اندفاع لا يمكن وقفها

واختار الحارة الموصلة الى شارع «الخليج». لم تكن في رأسه وجهة

معينة. . كان يريد أن يجري ويجري ويبتعد بكل ما يستطيع عن ذلك المكان. وكانت أهم الأصوات التي تتلقفها أذناه هي أصوات أحذية مطارديه. لقد شعر بهم. . لم يكونوا كثيرين، لقد نجح هو وزكريا إذن في جعلهم يترددون وينقسمون.

وفوجيء بأصواتهم تعلو وراءه:

ـ امسك حرامي. . حلق.

ولم يكن في الحارة أناس عديدون. كانوا في شغل عنه بالدنيا والدكاكين والزبائن، ولكنهم حين كانوا يرونه قادماً يلهث ورجال بملابس عادية يجرون وراءه وأصواتهم ترتفع من خلفه: امسك حرامي. كان يرى حينئذ في عيون الناس ترقباً وتحفزاً. وكان لديه شبه يقين أن أحدهم سيجد بعد قليل في نفسه الشجاعة الكافية ويعترض طريقه ويمسكه ولذلك انطلق صوته يجأر:

ـ أنا مش حرامي. . أنا وطني.

وانفلت إلى حارة أخرى قبل أن يذهب تحفز الناس وقبل ان ينقضوا عليه، وسمع طرفاً من كلمات قيلت وراءه:

ـ صهيوني.

ـ بال شوفي.

ـ امسك حرامي.

ـ مش باين عليه.

وجد نفسه في شبكة غريبة من الحواري المتداخلة التي تفضي كل منها الى الأخرى. . أرضها حفر وطين. . وأبوابها متقاربة. . وحركة بطيئة تكاد تموت وهو المندفع وحده كالقذيفة. إلى أين؟ إلى أين؟ وأين المكان الذي يخفيه؟ أين المكان الخالي من الناس الذي يستطيع أن يأوي إليه بلا

واحد يعترضه ويسد عليه الطريق ويقدمه متطوعا للبوليس؟

واستمات يجري واضعاً كل ما يستطيع من قوة في ساقيه، ومع هذا كان يخيل اليه أنه لا يتحرك من مكانه، أو أنه يجري ويدفع أمامه كتلا ثقيلة مظلمة من حديد غير مرئي. ولم يكن يعرف الى أين.. كل ما يراه عيون ساهية لاهية لا تتفتح على آخرها إلا حين يجاورها، ولا يتحرك صاحبها إلا حين يكون قد ابتعد ويكون صوت مطارديه قد اقترب قائلا:

ـ امسك.. حرامي.

فقطلو يعرف أين تقوده قدماه.. خيل إليه أنه يطرق ارضاً غريبة، وثمة احساس يتحرك حركات ملتوية رفيعة في نفسه ويقول إنه ليس على ما يرام، وأن شيئاً ينقصه.

ـ امسكوه.. حلق يا اخينا.. حرامي.. حرامي.

جاءه الصوت هذه المرة قريباً حتى خاله وراءه تماماً، بل خيل إليه أن الكلمات تخرج من رأسه هو، ووجد نفسه دون وعي يبتسم.. إن مطارديه يقولون للناس حرامي لينتبه إليه الناس حتى يسرقوهم هم. ما ألطفها مسرحية.. سيقولها ذات يوم لفوزية.

لابد من مكان يختفي فيه.. اممكن أن يدخل في أحد الأبواب الكثيرة التي تمر أمامه؟.. فقطلو تطول المسافة بينه وبينهم دقيقة واحدة كان يستطيع التفكير، انه الآن لا يفكر ولا يرى أنه يجري.. ويجري تقوده غريزة.. وتقوده الجدران.. الجدران المتماسكة المتراصة هي التي تحدد طريقه.. أين هو الآن؟ إن هذه المباني لا تمت الى السيدة ولا إلى المدبح ولا الى زين العابدين. انها غريبة وكأنه يجري في قرية من قرى الهند. دخل حارة ليس فيها أحد.. خاوية إلا من عربة من عربات النظافة

ذات العجل الكبير الواسع . . العربة بعيدة عنه . . إنه يخاف أن يصطدم بها. هناك قوة تجذبه اليها . . حالا ستشطوه. فليبتعد . . فليتجنبها بأقصى ما يستطيع . جدران على اليميـن ، وجدران على اليسار ، وعربة كبيرة هائلة الحجم تسد عليه الطريق . . لا تدع له منفذاً. كيف حدث هذا؟ كيف؟ لقد مرت بجواره ولم تقتله. من اين جاء الفراغ الذي مرق منه؟ الحارة نهايتها تبدو قريبة . . إنه يرى اناساً كثيرين مجتمعين عند نهايتها . . انهم قطعاً يتربصون به، وينتظرونه . . أنا وطني أنا وطني! وتلفـت خلفـه . . مطاردوه قد تكاثروا . . اصبحوا عشرات . . لايمكنه التوقف . . ولكن الى أين؟ . . لا بد من مكان خال . . مكان أمين . . بعيداً عن الناس . . يخفيه تماماً، ولا يدع عيناً تراه .

انه لا يحس بالتعب . . ولا بالراحة. زكريا لديه فرص اوسع . . انـه عداء سريع . حتى لو امسكوه سيكون زكريا قد أفلت ولن تموت اللجنة . . لن تموت. الناس الذين عند نهاية الحارة كثيرون . . أنه يقترب منهم في اندفاع اهوج . . انه لا يستطيع ان بمنع اندفاعه او يقلل من سرعته . . انه يقترب جداً من الناس . . الأصوات تنبعث من خلفه امسـك حرامـي . . عليه ان ينبه المتجمعين امامه حتى يتركوه يمر وصرخ .

ـ أنا وطني أنا وطني!

وحتى لم يسمع الكلمات وهي تغادر فمه فقد ضاع صوته تماماً حين وجد نفسه في اللحظة التالية في شارع السد وفي ضجتـه الهائلـة التـي تتضاعف ايام الجمع . ولدهشته كان الناس الذين خيل اليه انهم يترقبونه كانوا هم المزدحمين في الشارع لا اكثر ولا اقل، الرائحين الغادين الذين يتقابلون ويصطدمون ويتلاحمون كالعادة . وكان عليه أن يجري حتى لا

يدركه المطاردون مخترقاً الصفوف المتكاثفة من الناس. . لقد هبطت سرعته جداً. . اصبح لا يكاد يستطيع نقل قدميه او المسير. فقط المسير. المطاردون اذن قابضون عليه لا محالة.

وكان أخوف ما يخافه حمزة إذا وجد نفسه في ازدحام ما أن تسقط نظارته، ولهذا وبحركة لا ارادية رفع يده الى أنفه يمسك بها النظارة. . وروع بأنه لا يجدها. . لا على أنفه ولا على أذنيه. . . كيف حدث هذا؟ وأين سقطت؟ لا بد أنها وقعت أثناء محاولة فراره. لابد أنها دشدشت تماماً حين سقطت.

الله! وكيف كان يجري إذن؟ كيف استطاع قطع كل تلك المسافة دون أن يصطدم أو يتعثر أو يسقط؟ كيف؟ ثم كيف يمشي الآن بغيرها؟ إنه فعلاً يرى. لا يرى الأشياء والناس بكل دقائقها ولكنه يرى والرؤية واضحة.

وتطلع الى الوراء ـ وكان قد تعمق داخل الازدحام ـ ليقدر المسافة الباقية للقبض عليه. ولم ير الا قفاً ضخماً يحجب عنه الرؤية، وقد سد الثغرة التي ناضل بقوة حتى اخترقها منذ هنيهة، بل لحمها القفا وكأنه «قصدير» بشري. ومال حمزة الى اليمين عله يتمكن من التطلع ولكن كانت تسد اليمين امرأة تحمل ابنها فوق كتفها، وحاول أن يتطلع من اليسار ولكنه وحده مغلقاً تماماً بشاب يحمل فوق رأسه قفص عيش طابونه، وصبي جزار حاملاً فخذة كندوز، ومدخنة فرن بطاطة فوق عربة يد، ورأس حصان يحاور الذباب ويداوره، ومقطف لا يرى من يحمله وكأنه معلق بين السماء والأرض.

الله! عليه أن يحدد مكانه بالضبط من مطارديه ليحدد سرعته وإلا ضاع. وحاول أن يزاحم ليصل الى مكان غير مزدحم يستطيع منه الرؤية

ولكنه لم يستطع حتى التحرك، بل وجد نفسه مسوقاً رغماً عنه بحركة جيرانه وجيران جيرانه الى التحرك قدماً الى الأمام.

وأصابه اليأس والضيق، ولم يكن في مقدوره أن يفعل شيئاً آخر ليحدد مكانه إلا أن يصيخ بأذنيه ليسمع نداءهم المعهود، امسك حرامي. وأصاخ أذنيه ولكنه سمع هديراً هائلاً من.. معسلة قوى يا بطاطة. امساكية السنة الجديدة، أمسك شيش بيش.. اسمع يا جدع.. أمساء النجف.. عسل ياتين.. زي صدر البكاري يا رمان.. يا جدع دانا اللي شاري الحلو وبابيعه.. أوعى رجلك.. أيها الناس اتقوا الله في أنفسكم واذكروا يوماً عبوساً قمطريراً.. يا أم هاشم.. أمشي يا بن الـ.. اسمع يا جدع وصلي ع الحبيب.. دا الخواجه فلس وباع نصيبه.

وبدا له الأمر مستحيلاً.. مستحيل أن يكون المكان الذي ظل يبحث عنه ليهرب من مطارديه ومن الناس الذين قد يتطوعون لامساكه، أن يكون هذا المكان الامين هو قلب الناس أنفسهم.

وراح يتطلع الى الوراء مرات ليتأكد، ولم يجد سوى شمس وعرق وعمم وعصى، واكتاف، وكوفيات وطرابيش، وشعور سوداء وبيضاء وبراقع وقصبات براقع، وتجمعات حول بائع الكينا المقوية للدم والأعصاب، وعمال ورشة يدفعون عربة قديمة وعربجية يبصقون ويتنخمون ويلعنون، وأحصنة لها أجراس تدق، وعربات تجعجع ورائحة سمك مقلي وطعمية، وعطارة وماني فاتورة، وجعير ولبد، وخناقات وقافيات. وعلى الجدران: عاش الكفاح المسلح.. التحرر طريق السلام. لاعبو فريق الأسد المرعب، ومناطيل صفراء وطواقي صوف، «وقصرية» فل بارزة من شباك، وألف أفندي مثله بنظارات وبلا نظارات، وأولاد بلد، وطلبة، وملاءات تنبعج بأرداف

وتضيق عند أوساط، وتظهر سيقـان و«عفـاريت» زرقـاء وصفـراء وكبـار وصغار، وأطفال روضة عائدات من المـدارس وفـي شعورهـن أشرطـة حمراء، وناس كثيرين، كثيرين من أمامه، ومن خلفه، وعلى جانبيه، وفي كل مكان.

* * *

وما كاد يضع قدميه على باب المدفن حتى قابلـه صياح سعد:

ـ شفت بقي ميـن اللي فينا بيتأخر، بشرفي أنا هنا من تلاته وربع دا مش كلام دا لعب. دا هزار. دا مش شغل. إيه اللي أخرك؟ كنت فين؟ وكمان جاي من غير نضارة!

يوسف إدريس

الروايات

ح . التونى

المحتويات

تمت الروايات

الجزء التالي من الأعمال الكاملة للدكتور يوسف إدريس (القصص القصيرة) وتليها المسرحيات والانطباعات تباعاً.

مطابع الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

يوسف إدريس

الروايات